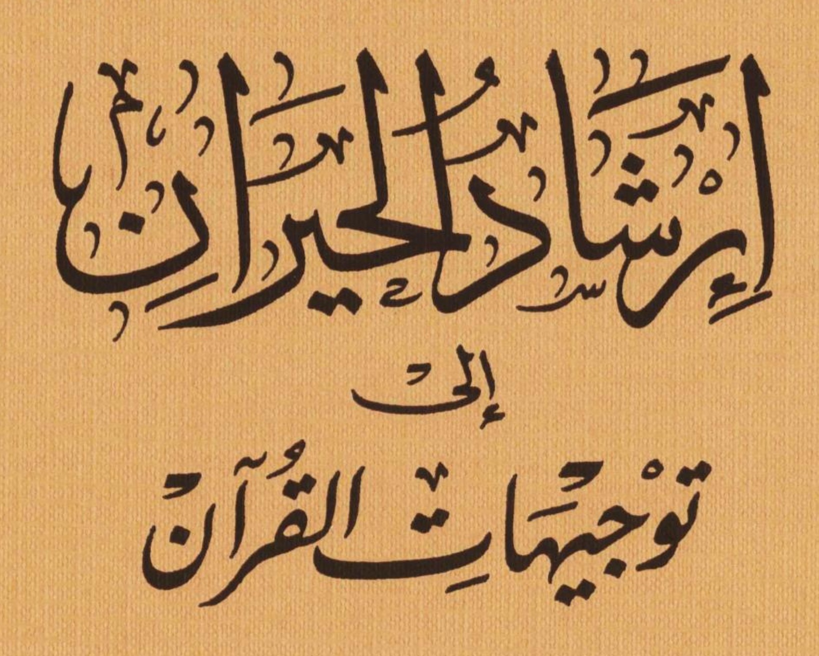
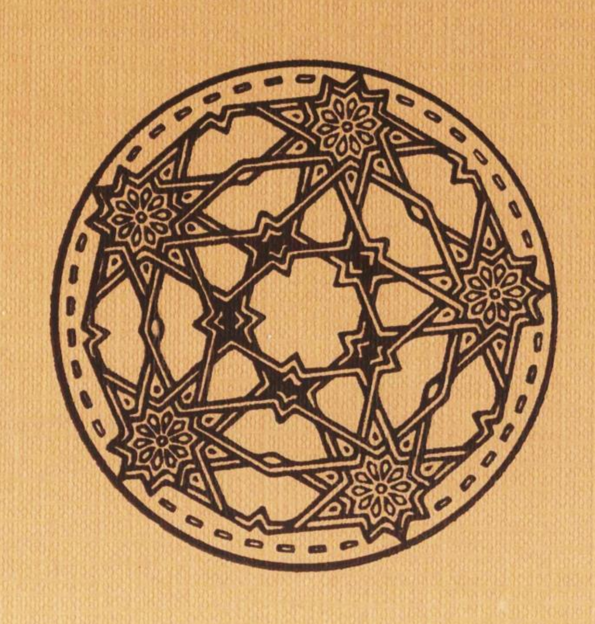


بقلم

فضيلة الشيخ

أحمد عبد السلام أبو مزيريق



دار المدار الإسلامي


إرشاد الحيران
إلى
توجيهات القرآن

إرشاد الحيران

إلى

توجيهات القرآن

4

بقلم

فضيلة الشيخ

أحمد عبد السلام أبو مزيريق

دار المدار الإسلامي

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن 12/1
الشيخ أحمد عبد السلام أبو مزيريق

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2011 إفرنجي

موضوع الكتاب تفسير قرآني
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي

ردمك ISBN 9959-29-182-0
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2003/5680

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

6 ـ إيقاف الكافرين على النار، للمؤمنين موعظةٌ واستذكار

النص

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟

يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿28﴾

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ

وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿29﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

بِمَبْعُوثِينَ ﴿30﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ

قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿31﴾

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ

بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ

أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿32﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ

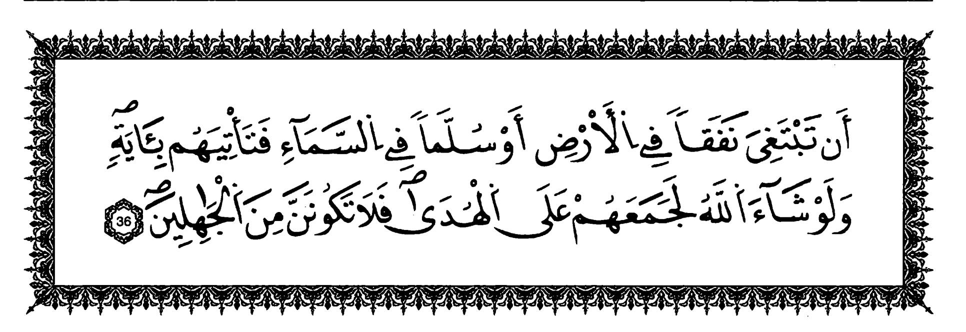
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿33﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ

لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿34﴾ وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ

أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿35﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار**﴾: يقال: وقف الرجل على الأرض وقوفاً، ووقف على الأطلال: مشرفاً عليها، ووقف على الشيء: عرفه وتبينه، ووقف نفسه على كذا وقفاً: حبّسها، كوقف العقار على الفقراء، ووقف الدابة: جعلها تقف، ويتعدى بالهمزة فيقال: أوقفه: جعله واقفا، ووقفه وهو أفصح، ووقفه بالتضعيف: جعله متوقّفا. نردُّ: نرجع إلى الدنيا... ﴿**بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل**﴾: بدا الشيءُ: ظهر، ويقال: بدا له الشيء إذا ظهر له عياناً. والإخفاء: الستر والكتمان. والبدو والخفاء (نقيضان) متقابلان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فالخفيّ غير بادٍ والبادي غير خفيّ... ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه**﴾: الرد: الإرجاع، وفعله ردّ وهو متعدٍّ، والعود الرجوع وهو لازم، يقال عاد إلى منزله. والنهي: طلب الكف عن الشيء... ﴿**قالوا بلى وربّنا**﴾: كلمة بلى حرف موضوع لإبطال ما قبله، فهي جواب استفهام معقود بالنفي توجب ما يُستفهم عنه فهي نفْيُ نَفْيٍ، ونفي النفي إثبات... ﴿**فذوقوا العذاب**﴾: ذوْق العذاب: الإحساس بشدّة ألمه، وأصل الذوق اختبار طعم الشيء...

﴿**قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله**﴾: الخسران هنا: حرمانهم من خيرات الآخرة. ولقاء الله هو ظهور آثار رضاه وغضبه دون تأخير ولا إمهال... ﴿**حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة**﴾: الساعة: عَلَم بالغلبة على ساعة البعث والحشر. والبغتة: فَعْلَة من البغت، وهو مصدر بغته الأمرُ إذا نزل به فجأة من غير تَرقب ولا إعلام ولا ظهور شبح أو نحوه، ففي البغت معنى المجيء عن غير إشعار..

﴿قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها﴾: الحسرة: الندم الشديد وهو التلهف، وهي فَعْلة من حَسِرَ يَحسَر حَسْراً. والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله حتى ضاع وفات وقتُ نَفْعِهِ... **﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾**: الأوزار: جمع وزر وهو الحمل الثقيل، وفعله وزَر يزِر إذا حمَل، ويطلق الوِزر على الذنب والجناية ـ كما هنا ـ لثقل عاقبتها على جانيها... **﴿ألا ساء ما يزرون﴾**: ألا: حرف استفتاح يفيد التنبيه. وساء: إنشاء ذم. ويزرون: يحملون... **﴿وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو﴾**: اللعب: عمل من قول أو فعل في خفّة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة، بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب، وأكثره أعمال الصبيان، قالوا: ولذلك فهو مشتق من اللعاب، وهو ريق الصبي السائل، وضد اللعب الجد. واللهو: ما يشتغل به الإنسان مما ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقلُه، فلا يطلق إلاّ على ما فيه استمتاع ولذة ملائمة للشهوة، وبين اللعب واللهو العموم والخصوص الوجهي؛ فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويفارقه شيء من الخفة والطيش، كالطرب واللهو المشترك فيه كل المجتمعين، وقد يكون اللعب خاصّاً بجماعة المطربين من المغنّين والراقصين والعازفين، ويكون اللهو خاصّاً بالمتفرجين، وقد يكون اللعب خاصّاً بالصبيان، كما هو أصل اشتقاقه، وقد ينفرد اللهو في الفسح والصيد والسياحة لغير غرض مفيد... **﴿وللدار الآخرة خير﴾**: الدار: محل إقامة الناس، وهي الأرض التي فيها بيوت الناس من بناء أو خباء أو قباب.

والآخرة: مؤنث وصف الآخِر، وهو ضد الأول، أي: مقر الناس الأخير الذي لا تحوّل بعده... **﴿وخير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾**: تفضيل على الدنيا باعتبار ما في الدنيا من نعيم عاجل زائل تلحق معظمه مؤاخذة وعذاب... **﴿قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون﴾**: أحزنه يحزنه: جعل فيه حزنا، والحزن: ألم يلمّ بالنفس عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه يتذكره بعد فواته، والمراد بالقول الذي يُحزنه منهم ما كانوا يقولونه فيه وفي دعوته... **﴿فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾**: أكذبه: وجده كاذبا، وكذّبه نسبه إلى الكذب. والجحود: الإنكار للأمر المعروف، فهو الإنكار مع العلم بوقوع ما ينكر، وهو نَفْيُ ما يعلم النافي ثبوته؛ فهو إنكار مكابرة... **﴿وأوذوا حتى أتاهم**

نصرنا﴾: الأذى: اسم اشتق منه آذى إذا جعل له أذى وألحقه به، فالهمزة به للجعل، ومصادر هذا الفعل أذًى وأذاةً وأذيّة أسماء مصادر، وليست مصادر، وقياس مصدره الإيذاء، لكنه لم يسمع في كلام العرب...

﴿**ولا مبدل لكلمات الله**﴾: التبديل: جعل شيء بدلاً من شيء آخر. وكلمات الله: وحيه للرسل الدال على وعده إيّاهم بالنصر... ﴿**ولقد جاءك من نبإ المرسلين**﴾: النبأ: الخبر عن أمر عظيم... ﴿**وإن كان كبُر عليك إعراضُهم**﴾: يقال: كبُر على فلان الأمرُ: عظُم عنده وشق عليه وقْعُه. والإعراض: التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقاراً له، وهو من إبداء المرء عرضه عند توليه عن الشيء واستدباره له. واستطعت الشيء: صار في طوعك مُنقاداً لك باستيفاء الأسباب التي تمكنك من فعله، والابتغاء: طلب ما في طلبه كلفة ومشقة، أو تجاوز للمعتاد أو للاعتدال، أو طلب غايات الأمور وأعاليها؛ لأنّه افتعال من البغي، وهو تجاوز الحد في الطلب أو الحق. والنفق: السرب في الأرض، وهو الحفرة لها منفذ للدخول والخروج، ومنه نافقاء اليربوع. والسلم: المرقاة، مشتق من السلامة؛ لأنّه يسلم إلى المصعد، ويسمى مرقاة، والآية هنا: ما يُسلِّمُون بها مما اقترحوه على الرسول... ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾: الذين لا يعلمون سُنَنَ الله في خلقه ويحسبون أنّهم على شيء!.

مبحث الإعراب

﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، ولو شرطية. ﴿**ترى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة على الألف، والفاعل أنت. ﴿**إذ**﴾ ظرفية متعلقة بفعل الشرط. ﴿**وقفوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**على النار**﴾ متعلق بوقفوا، وجواب لو مقدر أي: تحسّروا. ﴿**فقالوا**﴾ الفاء للتعقيب، قالوا فعل وفاعل. ﴿**ياليتنا**﴾ يا حرف نداء، والمنادى مقدر، أي: ياقوم، ليتنا ليت واسمها. ﴿**نرد**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل نحن، وجملة نرد في محل رفع خبر ليت. ﴿**ولا نكذب**﴾ معطوف على نرد. ﴿**بآيات**﴾ متعلق بنكذب. ﴿**ربّنا**﴾ مضاف إلى آيات، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ونكون**﴾ معطوف على نكذب. ﴿**من المؤمنين**﴾ متعلق بمحذوف خبر نكون، واسمها نحن. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**بدا**﴾ فعل ماض. ﴿**لهم**﴾ متعلق ببدا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل بدا. ﴿**كانوا**﴾ كان

واسمها. ﴿**يخفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بيخفون، وجملة كانوا يخفون صلة الموصول. ﴿**ولو**﴾ مثل ولو السابقة.

﴿**ردوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**لعادوا**﴾ جواب لو. ﴿**لما**﴾ متعلق بعادوا. ﴿**نهوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**عنه**﴾ متعلق بنهوا، وجملة نهوا عنه صلة ما. ﴿**وإنّهم لكاذبون**﴾ جملة من إنّ واسمها وخبرها تذييل لما تضمنه التمني. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي بمعنى ما. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿**حياتنا**﴾ بدل من الخبر المقدر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة إن هي في محل نصب مقول القول. ﴿**وما نحن**﴾ ما واسمها.

﴿**بمبعوثين**﴾ خبرها دخل عليه حرف الجر الزائد، والجملة معطوفة على قولهم: إن هي إلاّ حياتنا الدنيا. ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم**﴾ مثل قوله: ولو ترى السابقة. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**أليس هذا**﴾ الهمزة للاستفهام، وليس هذا ليس واسمها. ﴿**بالحق**﴾ خبرُها دخل عليه حرف الجر الزائد، وجملة أليس هذا بالحق في محل نصب مقول القول، وجملة قال أليس ابتدائية جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بلى**﴾ حرف جواب يجاب بها عن السؤال المراد إثباتُ جوابه. ﴿**وربّنا**﴾ الواو للقسم، وربنا مجرور بواو القسم، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة بلى وربنا مقول القول. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**فذوقوا**﴾ الفاء للترتيب، ذوقوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**العذاب**﴾ مفعول به. ﴿**بما**﴾ متعلق بذوقوا. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تكفرون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر كان منسبكة مع ما بمصدر مجرور بالباء، أي: ذوقوا العذاب بسبب كفركم.

﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**خسر**﴾ فعل ماض. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل خسر. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**بلقاء**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى لقاء. ﴿**حتى**﴾ هنا ابتدائية. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**جاءتهم الساعة**﴾ فعل الشرط، والساعة فاعل جاءت، وضمير الغائبين فيه مفعول به.

﴿**بغتة**﴾ حال من الساعة منصوب بالفتحة. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**ياحسرتنا**﴾ منادى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**على ما**﴾ متعلق بالحسرة. ﴿**فرطنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**فيها**﴾ متعلق بفرطنا، وجملة ياحسرتنا مقول القول. ﴿**وهم يحملون**﴾ جملة حالية من ضمير قالوا في محل نصب. ﴿**أوزارهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**على ظهورهم**﴾ متعلق بيحملون. ﴿**ألا**﴾ أداة استفتاح. ﴿**ساء**﴾ فعل ماض. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل ساء. ﴿**يزرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**وما الحياة**﴾ الواو للعطف، وما للنفي، الحياة مبتدأ. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿**لعب**﴾ بدل من الخبر المقدر. ﴿**ولهو**﴾ معطوف على لعب. ﴿**وللدار**﴾ معطوف على وما الحياة. ﴿**الآخرة**﴾ نعت للدار. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**للذين**﴾ متعلق بخير. ﴿**يتقون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أفلا تعقلون**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء عاطفة على مقدر، والتقدير: أتغفلون فلا تعقلون. ﴿**قد**﴾ للتحقيق.

﴿**نعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ليحزنك**﴾ اللام لتأكيد الخبر، وضمير المخاطب في يحزنك مفعول به. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع فاعل يحزنك. ﴿**يقولون**﴾ فعل وفاعل صلة الذي، واللام في ليحزنك علقت فعل نعلم عن العمل. ﴿**فإنّهم**﴾ الفاء للتعليل، إنّهم إنّ واسمها. ﴿**لا يكذبونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه لا النافية، وجملة لا يكذبونك في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ولكنّ**﴾ استدراك. ﴿**الظالمين**﴾ اسم لكنّ. ﴿**بآيات الله**﴾ متعلق بيجحدون. ﴿**يجحدون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**ولقد**﴾ قسم وتحقيق. ﴿**كُذّبت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**رسل**﴾ نائب الفاعل. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بكذّبت والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فصبروا**﴾ الفاء للتعقيب، صبروا فعل وفاعل. ﴿**على ما**﴾ متعلق بصبروا، ما مصدرية، فالمصدر مجرور بعلى: فصبروا على التكذيب. ﴿**كُذّبوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**وأوذوا**﴾ معطوف على كذبوا. ﴿**حتى**﴾ غائية. ﴿**أتاهم**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**نصرنا**﴾ فاعل أتاهم، والضمير في نصرنا مضاف إليه. ﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، لا نافية للجنس. ﴿**مبدل**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب.

﴿**لكلمات**﴾ متعلق بمبدل، وخبر لا مقدر، والتقدير: لا مبدل لكلمات الله

موجود. ﴿**ولقد جاءك من نبإ المرسلين**﴾ جملة قسمية معطوفة على قوله: لا مبدل، وفاعل جاءك مقدّر يدل عليه من نبإ المرسلين، والتقدير: جاءك نبأ كائن من نبإ المرسلين. ﴿**وإن**﴾ شرطية. ﴿**كان**﴾ هنا زائدة. ﴿**كبر**﴾ فعل الشرط. ﴿**عليك**﴾ متعلق به. ﴿**إعراضهم**﴾ فاعل كبر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فإن استطعت**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط الأول، وإن استطعت شرط آخر. ﴿**أن تبتغي**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل (أنت). ﴿**نفقاً**﴾ مفعول به. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف نعت لنفقاً. ﴿**أو سلماً**﴾ معطوف عليه. ﴿**في السماء**﴾ مثل في الأرض. ﴿**فتأتيهم**﴾ مرتب على قوله: أن تبتغي، وتبتغي منسبك مع أنْ بمصدر منصوب مفعول به. ﴿**بآية**﴾ متعلق بتأتيهم، وجواب الشرط الثاني مقدر يدل عليه ما قبله، أي: فأتهم بآية فإنّهم لايؤمنون بها. ﴿**ولو شاء الله**﴾ شرط امتناعي. ﴿**لجمعهم**﴾ جوابها. ﴿**على الهدى**﴾ متعلق بجمعهم. ﴿**فلا تكونن**﴾ الفاء للتعقيب، لا للنهي، تكونن مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا الناهية، واسم تكون ضمير أنت. ﴿**من الجاهلين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد**﴾: لازال الكلام موصولاً بما قبله، والخطاب للرسول ﷺ؛ لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عما تضمنه قوله: «وهم ينهون عنه وينأون عنه»، فإنّه ابتدأ فعقبه بقوله: «وإن يهلكون إلاّ أنفسهم»، ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة. ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كل من يسمع هذا الخبر. ولو شرطية، وإذ ظرفية، ووقفوا ماض لفظاً والمعنيُّ به الاستقبال، للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره. والاستعلاء المستفاد من على مجازي معناه قوّة الاتصال بالمكان. والمشهد معروض للرؤية (لو ترى) فقد وقفوا على النار؛ وقفوا عليها وحبسوا أمامها لا يبْعَدون عنها ولا يتزحزحون. وعبارة الإيقاف على النار تعطي عدّة معان: تقفهم الملائكة على النار تأتي بهم، ويُوقفون عندها يشاهدون ما فيها من الهموم والأهوال، ويُوقفون يُحبسون فلا مفر لهم من الهروب، ويوقفون فيدخلونها فيذوقون عذابها حق اليقين، كل هذه وأكثر تدخل تحت قوله: وقفوا على النار.

وجواب الشرط لم يُذكر هنا حتى لا يقف المشاهد على نوع معين من هول ما يُرى، وإنّما هو شيء أكبر مما يَرى الراؤون ويتصور المتصورون، ولا يدخل تحت الحصر والتقدير؛ فلو ترى أيُّها الرائي ما يحل بهم حينئذ، وما يكون من أمرهم ومن ندمهم على كفرهم، ومن حسرتهم وتمنيهم ما لا يُنال، لرأيت أمراً عظيماً لا تدركه العبارة، ولا يحيط به الوصف، ولا تناله الإشارة!. عندئذ ذهبت عنهم مكابرتهم، وسقط عنهم عنادهم فقالوا. . . ﴿**ياليتنا نردُّ ولا نكذّبُ بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين**﴾!. فالفاء في قالوا أفادت التعقيب السريع لما حصل لهم من الخوف والهول وفظاعة الأمر بمجرد ما وُقفوا قالوا: ياناس يا عالم! ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين!.

وحرف النداء في قولهم: ياليتنا نرد مستعمل في التحسّر؛ لأنّ النداء يقتضي بُعْدَ المُنادى، فلم يجدوا شيئا إلاّ التحسر والندم والتمني المحال. ويأتي الجواب كاشفاً عن حقيقة أمرهم وعلّة صراخهم وتفجعهم ويعللها بأسبابها، وينكر أنّ حيلتهم قابلة للصلاح، حتى لو أجيبوا إلى ما تمنّوا ـ وهيهات! ـ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وانكشف من الحق ما كانوا يشرونه فلم يعودوا يملكون تمويهاً ولا إخفاءً. فهم الآن على الحقيقة التي كانوا يُكَذِّبُون بها على النار التي وقفوا عليها الآن، فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا. والإخفاء هنا بمعنى التكذيب، فإنّ التكذيب بالشيء كفر به، وإخفاء له لا محالة. وإيثار الإخفاء على صريح التكذيب الوارد في قوله تعالى: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون»، «هذه النار التي كنتم بها تكذبون»، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم: «ولا نكذب بآيات ربّنا» لمراعاة ما في مقابلته من البدو. . .

﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه**﴾: لأنّ جبلتهم مطبوعة على الكفر والمكابرة والمحال، فإنّهم لكاذبون في وعدهم وهم أمام النار موقوفون وبها متصلون. وينتهي المشهد وفي النفس أنّه كان؛ لا أنّه سيكون، وفي الحسّ توجّس ورهبة يثيرهما المشهد المنظور، وذلك هو الهدف من تصوير المصير المحتوم في هذا النسق الحيّ، ليستجيش المشاعر والقلوب. . . ﴿**وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**﴾: هذه جولة أخرى؛ جولة خاصة بقضية البعث والنشور، تبيّن ما عليه الكفار المكذبون بالبعث في الدنيا وغرورهم بها وافتنانهم بمتاعها. وقالوا: إن

هي؛ فإنْ نافية للجنس، والضمير بعدها مبهم يفسره ما بعده الاستثناء المفرّغ قصد من إبهامه الإيجاز اعتماداً على مفسره، والمعنى: لا حياة لنا إلاّ حياتنا الدنيا، فانحصر جنس الحياة في الحياة الدنيا ولا حياة بعد الموت. وجملة وما نحن بمبعوثين نفي للبعث وهو يستلزم تأكيد نفي الحياة غير الحياة الدنيا، وإنّما عطفت ولم تفصل؛ لأنّ قصدهم إبطال قول الرسول ﷺ أنّهم يحيون حياة ثانية، وقوله تارة أنّهم مبعوثون بعد الموت، فقصد إبطال كل قول من قوليه باستقلاله. . .

﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾: لمّا ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يبعثون ويحشرون إلى الله، وهو حال البعث الذي أنكروه. وأسلوب التعبير بوقفوا على ربّهم تمثيل لحضورهم المحشر عند البعث. شبهت حالهم في الحضور للحساب بحال عبد جنى فقبض عليه فوقف بين يدي ربّه، وبذلك تظهر مزية التعبير بلفظ ربّهم دون اسم الله!. وجملة قال أليس هذا بالحق استئناف بياني؛ لأنّ قوله: ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم قد آذن بمشهد عظيم مهول، فكان من حق السامع أن يسأل: ماذا لقوا من ربّهم؟. فيجاب: قال أليس هذا بالحق؟. . .الآية. والإشارة إلى البعث عاينوه وشاهدوه. والاستفهام تقريري دخل على نفي الأمر المقرّر به لاختبار مقدار إقرار المسؤول، فلذلك يُسأل عن نفي ما هو واقع؛ لأنّه إن كان له مطمع في الإنكار تذرع إليه بالنفي الواقع في سؤال المقرّر، والمقصود: أهذا حق؟ فإنّهم كانوا يزعمونه باطلاً، ولذلك أجابوا بالحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو بلى، فهو يبطل النفي، فهو إقرار بوقوع النفي، أي: بلى هو حق.

وأكّدوا ذلك بالقسم تحقيقا لاعترافهم للمعترف به لأنّه معلوم لله تعالى، أي: نقر ولا نشك فيه فلذلك نُقسم عليه، وهذا من استعمال القسم لتأكيد لازم فائدة الخبر. وذوقوا العذاب: استعارة لإحساسه؛ لأنّ الذوق أقوى الحواس المباشرة للجسم، فشبه به إحساس الجلد. وهذا المشهد يثير عجب الشاهد عندما يراهم وقد وقفوا على ربّهم الذي يكذبون بلقائه يوم الدين، عندما يراهم وهم يواجهونه سبحانه، وهو يتولى استجوابهم، قال: أليس هذا بالحق؟!. والسياق يجعل ذلك السؤال قولاً من الله سبحانه، ليزيد الموقف رهبة وشدّة، أليس هذا بالحق؟!. إنّه

تأنيب مُفَتِّت مُذِيب حين يتصوره القلب البشري في ذلك الموقف العصيب.
والجواب كلمة واحدة: بلى! يقرنونه بالإقرار لله بالربوبية ـ بلى وربنا ـ التي أنكروها طويلاً ثم لا يزيدون.

فمن كمال التناسق للجوّ الرعيب أن يكون السؤال مختصراً وأن يختصر المجيب! وأن يصدر القرار بعد ذلك في اختصار مريب، قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وسدل الستار وختم المشهد وعرف المصير... ﴿**قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله**﴾: هذا استئناف للتعجيب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرّأهم على استدامته اعتقادهم نفْيَ البعث فذاقوا العذاب لذلك. فتلك حالة يستحقون بها أن يقال فيهم: قد خسروا وخابوا. والذين كذبوا بلقاء الله هم الذين حكى عنهم بقوله: إن هي إلاّ حياتنا الدنيا، فكان مقتضى الظاهر الإضمار تبعاً لقوله: ولو ترى إذ وقفوا على النار وما بعده، بأن يقال: قد خسروا، لكن عدل إلى الإظهار ليكون الكلام مستقلاً، وليبني عليه ما في الصلة من تفصيل بقوله: حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها. ولقاء الله هو ظهور آثار رضاه وغضبه دون تأخير ولا إمهال ولا وقاية بأسباب عاديّة من نظام الحياة الدنيا، فاللقاء هنا استعارة تمثيلية: شبهت حالة الخلق عند المصير إلى تنفيذ وعد الله ووعيده بحالة العبيد عند حضور سيدهم بعد غيبة؛ ليجزيهم على ما عملوا في مدة المغيب، وشاع هذا التمثيل في القرآن وكلام الرسول. و﴿**ياحسرتنا**﴾ نداء مقصود به التعجب والتندم، وهو في أصل الوضع نداء للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يَسْمَعُ ويُنادَى ليحضر؛ كأنه يقال: ياحسرة احضرى، فهذا أوان حضورك. وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسّرهم لأجل أنفسهم فهم المتحسّرون والمتحسّر عليهم. وقوله...

﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم**﴾: تمثيل لهيئة عَنَتِهِمْ من جرّاء ذنوبهم بحال من يحمل حملاً ثقيلاً. وذِكْرُ على ظهورهم هنا مبالغة في تمثيل الحالة فهو من جملة الهيئة؛ فإنّ الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل!.
ومن لطائف التوجيه، وضْعُ لفظ الأوزار في هذا التمثيل، فإنّه مشترك بين الأحمال الثقيلة وبين الذنوب، وهُمْ إنّما وقعوا في هذه الشدّة من جرّاء ذنوبهم فكأنّهم يحملونها؛ لأنّهم يعانون شدّة آلامِهَا. وجملة ألا ساء ما يزرون تذييل، فقد جاءوا

يحملون هذه الأحمال الثقيلة، ولكن التعبير لا يكتفي بتصوير أعمالهم صورة حسيّة تُحْمَل، بل بيّن هيئة حملها ـ على ظهورهم ـ زيادة في إحياء المشهد بالتجسيم على طريقة القرآن الكريم. . .

﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾: فهو خبث ودنس ورجس وجحود!. . وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون؟: لمّا جرى ذكر الساعة وما يلحق الكافرين فيها من الحسرة على ما فرّطوا، ناسب أن يذكّر الناس بأنّ الحياة الدنيا زائلة ضئيلة، وأنّ عليهم أن يستعدُّوا للحياة الآخرة. وهذا الحكم عام على جنس الحياة الدنيا، فالتعريف في الحياة تعريف الجنس. وقد أفادت صيغةُ ﴿**وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو**﴾ قصر الحياة على اللعب واللهو وهو قصر موصوف على صفة، وهذا القصر ادّعائي يقصد به المبالغة؛ لأنّ أغلب الناس دأْبُه اللعب واللهو إلاّ مَنْ آمن وعمل صالحا، وهو معنى التعقيب بقوله: ﴿**وللدار الآخرة خير للذين يتقون**﴾، فعلم منه أنّ أحمال المتقين في الدنيا هو ضد اللعب واللهو، لأنّهم جعلت لهم دار أخرى هي خير وأبقى، وقد علم أنّ الفوز فيها لا يكون إلاّ بعمل في الدنيا، فأنتج أن عملهم في الدنيا ليس اللعب واللهو، وأنّ حياة غيرهم هي المقصورة على اللعب واللهو. وقوله: للذين يتقون تعريض بالكافرين بأنّهم صائرون إلى الآخرة، لكنها ليست لهم بخير مما كانوا في الدنيا. وقوله: ﴿**أفلا تعقلون**﴾؟. عطْفٌ بالفاء على جملة: وما الحياة الدنيا؛ لأنّه يتفرع عليه مضمون الجملة المعطوفة. والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ بالنسبة للكافرين، وفي التحذير بالنسبة للمؤمنين.

فالأسلوب جاء على طريق الكناية، والمدلولات الكنائية تتعدد، ولا يلزم من تعددها الاشتراك، أو هو من استعمال المشترك في معنييه. . . ﴿**قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾: ابتدأ السياق من جديد مخاطباً ومسليّاً الرسول ﷺ يأمره بالصبر ويعده بالنصر، ويؤيّسُه من إيمان المتغالين في الكفر، ويعده بإيمان فريق منهم بقوله: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. . . إلى قوله: يسمعون. وقد تهيّأ المقام لهذا الغرض بعد الفراغ من محاجة المشركين في إبطال شركهم وإبطال إنكارهم برسالة محمد ﷺ، والفراغ من وعيدهم؛ وفضيحة مكابرتهم ابتداء من قوله: وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم. . . إلى هنا.

وقد تَحْقِيقٌ للخبر الفعلي، فهو في تحقيق الجملة الفعلية بمنزلة إنّ في تحقيق الجملة الإسمية. ومعنى التحقيق ملازم له؛ سواء كان فعله ماضياً أو مضارعاً، ودلالته على التقريب أو التكثير أو التقليل تؤخذ من سياق المقام والمراد بالذي يقولون أقوالهم الدالة على عدم تصديقهم الرسول، كما دل عليه قوله بعده: ولقد كذبت رسل، فعدل عن ذكر اسم التكذيب ونحوه إلى اسم الموصول وصلته تنزيها للرسول عن ذكر هذا اللفظ الشنيع في جانبه تلطفاً معه. وقوله: فإنّهم لا يُكْذِبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون تعليل لما يشعر به الكلام السابق، وكان الله يعلم ذلك منهم، فأظهر عليه رسوله تسلية وتعزية على ما يهمه من أمرهم. فلا تحزن عليهم لأنّهم ظالمون مكابرون جاحدون، وهو يسميهم الظالمين بهذا الجحود. ويبرز هذه الصفة في موضع الضمير للدلالة على حقيقة ما يرتكبون، وليكون ذلك تسجيلاً عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فنٌّ من فنونه. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى. والمراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأنّ آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأنّ من ينكرها فإنّما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه...

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾: يأتي هذا الكلام هنا تعزية وتسلية وتكريماً بأنّ إساءة أهل الشرك لمحمد ﷺ هي دون ما أساء الأقوام إلى الرسل من قبله؛ فإنّهم كذبوا بالقول والاعتقاد، وأما قومه كذبوا بالقول فقط. وفي الكلام أيضاً تأسٍّ للرسول بمن قبله من الرسل. وتوكيدُ الخبر بالقسم والتحقيق بتنزيل الرسول منزلة من ذُهل طويلاً عن تكذيب الرسل، ولأنّه لمّا أحزنه قول قومه فيه كان كمن بعد علمه بذلك. ومن قبلك وصف كاشف لرسل جيء به لتقرير معنى التأسي بأنّ ذلك سنّة الرسل... **﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾**: فيه بشارة للرسول ﷺ مؤكدة للتسلية بأنّه سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمّة الدعوة. وإيماء إلى حُسْنِ عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر. وإضافة النصر إلى ضمير العظمة العائد على العزيز القدير تشعر بعظمة شأن النصر...

﴿ولا مبدّل لكلمات الله﴾: نفي جنس المبدِّل لكلمات الله مثبت لكلمته في

نصر المرسلين بالدليل، لأنّ ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله، وكلمات الله لا يمكن أن يبدّلها مبدِّل، فنصر الرسل حتم لابُدَّ منه. وإضافة الكلمات هنا إلى اسم الله تشعر بعلّة القطع بأنّه لا مبدل لها؛ لأنّ المبدّل لكلمات غيره لابد أن تكون قدرته فوق قدرته... ﴿**ولقد جاءك من نبإ المرسلين**﴾: هذا تقرير وتأكيد لما قبله، وهو كلام جامع لتفاصيل ما حلّ بالمكذّبين، وبكيف كان نصر الله رُسُلَه؟. وذلك في تضاعيف ما نزل من القرآن في ذلك. وفي قوله: جاءك هنا، وأتاهم نصرنا هناك مجاز في وقوع النصر، فشبه وقوعه بالمجيء من مكان بعيد كما يجيء المُنَادَى المنتظر... ﴿**وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونَنَ من الجاهلين**﴾: هذا عطف على جملة: قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون، فإنّ رسول الله ﷺ كان يحزنه ما يقولونه فيه وفي القرآن حزناً على جهل قومه بقدر النصيحة، وإنكارهم فضيلة صاحبها، وحزَناً من جراء الأسف عليهم من دوام ضلالهم شفقة عليهم. وقد سلاّه الله تعالى عن الحزن الأول بقوله: فإنّهم لا يكذبونك، وسلاّه عن الثاني بقوله: وإن كان كبر عليك إعراضهم. واستعمل كبُر مجازاً في معنى شقّ؛ لأنّ الثقيل يشقّ حمله فهو مجاز مرسل بلزومين.

وجيء في هذا الشرط بحرف إنْ الذي يكثر وروده في الشرط الذي لا يُظن حصوله، للإشارة إلى أنّ الرسول ليس بمظنّة ذلك ولكنه على سبيل الفرض. وزيدت كان بعد إنْ الشرطية بينها وبين ما هو فعل الشرط في المعنى ليبقى فعل الشرط على معنى المُضيّ فلا تُخلّصه إن الشرطية إلى الاستقبال، كما هو شأن أفعال الشروط بعد إنْ؛ فإن كان لقوة دلالته على المضيّ لا تقلبه أداة الشرط إلى الاستقبال، ولعلّ اختيار الابتغاء في الأرض والسماء أنّ المشركين سألوا الرسول آيات من جنس ما في الأرض كقولهم: «حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً»، ومن جنس ما في السماء كقولهم: «أو ترقى في السماء». ويتعين جواب الشرط مما دلّ عليه الكلام السابق: فأْتِهم بآية فإنّهم لا يؤمنون بها.

وقوله... ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: شرط امتناعي دلّ على أنّ الله لم يشأ ذلك. ومعنى لجمعهم على الهدى: لهداهم أجمعين، فوقع تفنن في أسلوب التعبير فصار تركيباً خاصّياً عدل به عن التركيب المشهور في نحو قوله

تعالى: فلو شاء لهداكم أجمعين، للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكة على من بقى فيها من المشركين. والمراد بالجاهلين: يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضد العلم، ويجوز أن يكون من الجهل ضد الحلم. وإرادة كلا المعنيين للنظم مع مفاد الجملتين: جملة وإن كان كبر عليك إعراضهم، وجملة ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. ومع كون هذه الجملة تذييلاً للكلام السابق، فالمعنى: لا يكبر عليك إعراضهم ولا تضق به صدراً، وأيضا فكن عالماً بأنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى، وإنّما عدل عن الأمر بالعلم؛ لأنّ النهي عن الجهل يتضمنه، فيتقرر في الذهن مرتين، ولأنّ في النهي عن الجهل بذلك تحريضاً على استحضار العلم به، وليس في الكلام نهي عن شيء تلبس به الرسول ﷺ كما توهمه جمع من المفسرين.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين﴾: في هذا لفت النظر إلى حالة الكفار عند وقوفهم على النار يوم القيامة، عندما يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع؛ فهم يتحسّرون ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، فلا يكذبوا بآيات ربّهم ويكونوا من المؤمنين. والرد يأتي بسرعة؛ لأنّ هذا مجرّد تمنٍّ وليس إيماناً صادقا، بل بدا لهم من حقيقة الموقف ما شاهدوه بأعينهم وأحسّوه بأنفسهم ووقفوا على ما أنكروه من قبلُ في الدنيا، من إنكارهم البعث والحساب، وما يترتب على الكفر من عذاب النار؛ هذه النار التي كنتم بها تكذبون، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟!. هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون!. وهذه هي طبيعة المجرم عندما يقع في نتيجة إجرامه يتمنى أن يتخلص من ورطته. وبمجرد ما يتخلص ينسى ما حصل وتغلب عليه شقوته، ويعود إلى ما كان عليه من الإجرام؛ لأنّ ما بالذات لا يتخلّف: ولو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون في قولهم، فلا مخلص من النار ولا إعادة إلى الدنيا مهما كانت التمنيات والأعذار...

﴿وقالوا إنْ هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمعوثين﴾: لقد قال الكفار كلُّهم هذه الكلمة: ما الحياة إلاّ الحياة الدنيا، وهذه هي حياتنا فلا حياة لنا غيرها، فلنتمتّع ونمرح ونلهو ونلعب، فلا بعث ولا حساب، ولا نتيجة لهذا من ثواب أو

عقاب. إنّ الكفر بالبعث والجزاء، واعتقاد أنّه لا حياة بعد هذه الحياة يجعلُ هَمَّ الكافر محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية، كالجاه والرئاسة والعلوّ في الأرض والتسلط على الناس، بسوء الغرض من ضياع الشرف وهتك العِرْض. ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذّاته الشهوانية أسفل وأحط من البهائم القذرة كالقردة والخنازير، وفي اتباعه لهواه في لذته الوحشية أضرى وأشد أذًى من الوحوش الضارية كالذئاب والنمور، وفي اتباعه لهواه ولذته الشيطانية شرّاً من الشياطين يكيد بعضهم لبعض، ويفترس بعضهم بعضاً لا يصدهم عن باطل ولا شرّ يهوونه إلاّ العجز، ولا يرجعون إلى حَكَم يفصل بينهم إلاّ القوة التي جعلوها فوق الحق. . . ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على ربّهمْ قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾: هنا يعود الكلام مرة أخرى، ليرد على الكافرين في موقفهم من إنكار البعث والتمسك بالدنيا وما فيها من شهوات وآثام، ويبيّن حقيقتهم وما هم عليه يوم يوقفون على ربّهم ويواجهون وعيده وجهاً لوجه؛ وعند ذلك يسألهم: أليس هذا بالحق؟. ماذا تقولون الآن؟!. قالوا: بلى وربّنا!. إنّه الحق لا شك فيه، ولا باطل يحوم حوله. واعترفوا وأكّدوا اعترافهم باليمين، وأنّ ربّهم هو الله رب العالمين!. وشهدوا بذلك على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين. فبماذا أجابهم رب العالمين؟. . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

التوجيه الثاني: ﴿**قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله**﴾: في هذا التوجيه حكم محقق لنتيجة كل من يكذب بلقاء الله يوم البعث، والجزاء بخسرانه وهلاكه؛ لأنّه رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن المصير المحتوم؛ حتى إذا جاء اليوم المعلوم ندم حيث لا ينفع الندم. . . ﴿**حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون**﴾: لقد ظهرت الحقيقة وأُعْلنت النتيجة، وحصل ما حصل من الحسرة على التفريط، وظهرت الصورة واضحة في هذا الشريط. ثم يجيء التقرير الأخير ليضع الميزان العادل ويزن الدنيا ويزن الآخرة، فإذا الحياة الدنيا في هذا الميزان لعب ولهو، وإذا الدار الآخرة خير. خير لمن؟.

﴿**خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾؟!. فالأمر في حاجة إلى التعقل للموازنة

والاختيار الأخير، لكن هل هذا الوصف الذي وصفت به الدنيا يجعلها مرفوضة منبوذة يهرب منها الإنسان ويجعلها في زاوية النسيان؟. كلاّ، فليست هذه فكرة الإسلام عن الحياة، إنّما ذلك تقدير الحياة الدنيا حين توزن بالدار الآخرة، وحين تنفصل عن الدار الآخرة. والإسلام لا يفصل بين الحياتين، إنّما يجعل الدنيا وسيلة للآخرة، ويجعل العمل الطيب في الدنيا، والمتاع الطيب في الدنيا وسيلة للحياة الطيبة في الآخرة والمتاع الطيب في دار الخلود. كل ما يريده الإسلام ألاّ يُكبِرَ المرء من شأن الدنيا حتى ينسى أنّها وسيلة؛ وأن تكون الحياة الآخرة غاية يحسن المرء من أجلها استخدام الوسيلة. ثم لا يُحرّم المرء على نفسه طيبات الدنيا ولا متاعها، مادام ينظر إليها بهذا المنظار، وما دام يشعر بها على هذا النحو المأمون، الذي لا ينسيه ربّه ولا آخرته، ولا يُحوّله عبداً للمتاع في الدار الموقوتة، فيحرم نفسه المتاع الأصيل في دار البقاء الطويل.

التوجيه الثالث: ﴿**قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾: في هذا خطاب للرسول ﷺ في خاصة شأنه مع المكذبين الرافضين دعوة الرسول الصادق، الذي يواجهونه بالرفض والرد والإعراض، وهم لم يعهدوا عليه الكذب، ولم يدّع أحد منهم قبل الرسالة أنّ محمداً كاذب، فيشق على نفسه الصادقة هذا التكذيب الذي يقولونه قولاً بألسنتهم دون اعتقاد، ويحزنه أن يواجهه به أحد، ولو كان هذا الأحد من الكافرين. والصادق يألم أن يكذبه، ولو أنّه واثق من صدقه في أعماقه، والرسول بشر يحيك في نفسه الألم، ويشق عليه أن يُتَّهم في أعز صفاته عليه، وأعمق أخلاقه فيه. ولكن العزاء يأتيه من ربّه فيسلّيه، لأنّ المشركين من قومه لا يعلمون عليه الكذب، ولا يشكون في دخيلة نفوسهم أنّه صادق؛ ولكنهم يكابرون ويعاندون ويرفضون الاعتراف بآيات الله ويجحدون رسالة الصادق الأمين!. وهو يسميهم الظالمين لهذا الجحود، ليعلم السامع حقيقة ما يرتكبون...

﴿**ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا**﴾: هذا عزاء آخر للرسول من سيرة إخوانه الرسل، فقد كذبت الرسل من قبلك كما كُذّبت الآن، وأنت مثلهم ولست بدعاً منهم، فصبروا على التكذيب، فاصبر كما صبروا... ﴿**وأوذوا حتى أتاهم نصرنا**﴾: لقد آذاك الناس بضروب الأذى؛ قومك في مكة من

المشركين، ومن دعوتهم في المدينة من اليهود والمنافقين، «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً»، ولقد أوذي من كان قبلك من الرسل بأكثر مما أوذيت، وتحملوا حتى جاءهم نصر الله فانتصروا. وفي هذا بشارة للرسول ﷺ بأنّه سينتصر على من كذّبه من قومه، وكل من وصلته دعوته فرفضها في كل زمان ومكان. . . ﴿**ولا مبدل لكلمات الله**﴾: هذه الأحداث التي وقعت لك وللرسل من قبلك سنة الله في خلقه، ولا مبدل لها في الوجود، ولا يستطيع تغييرها موجود. وما يملك أحد ـ نبيئاً رسولاً كان أم بشراً عادياً، مؤمناً كان أم مكذباً ـ أن يغير السنة الجارية، وأن يبدّل الكلمة النافذة، ولقد علمت ذلك من سيرة أسلافك الرسل: ﴿**ولقد جاءك من نبإ المرسلين**﴾، وما قدّره الله للرسل فسيوافيك. . .

﴿**وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية**﴾: في هذا تظهر عاطفة الرسول وشفقته وحرصه على الناس، حتى يكاد يصل به إلى أشد المشاق وأصعب الآفاق. والله أرحم بعبده من نفسه فيخفف عليه هذا العنت تلطّفا وتعطفا بكلمات قد تأخذ شدّةً وتحمل عنفاً!. فإذا كبر الإعراض على نفس الرسول ووصل به الحال إلى أشد حال اشتدّ الله في خطابه هذه الشدّة بهذا الأسلوب في المقال؛ فإن استطعت. . . الخ فافعل أنت ما تشاء، وهات جهدك وانظر ماذا ترى. اتّخِذْ في الأرض نفقاً إن شئت، أو اتَّخِذْ في السماء سلماً إن استطعت؛ فأت القوم بآية يؤمنون بها ولا يعرضون. . . ﴿**ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين**﴾: إنّ سنة الله قد جرت بأن يكون في الناس المهتدون والضالّون، لأنّ الله خلق الخلق متفاوتين لحكمة مقدّرة، ولم يخلقهم من نسخة واحدة مكرّرة، ولكنه أراد أن يتركهم لعقولهم ولجهودهم ولإرادتهم المقرّرة، فلا تكونن من الجاهلين بسنن الله التي أراد لها النفاذ، والتي تُصَرِّف الكون والعباد.

7 ـ الاستجابة بالاختيار لا بالكره والاضطرار

النص

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (39) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (44)﴾

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (47) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (48) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (49) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (50)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**إنّما يستجيب الذين يسمعون**﴾: يقال: أجاب الدعوة إذا أتى ما دُعِيَ إليه من قول أو فعل، وأجاب الداعي إذا لبّاه وقام بما دعاه إليه، ويقال استجاب له، واستجاب دعاءه، وكذا استجابه.

والاستجابة: التحري للجواب والتهيؤ له، وأصل الجواب والإجابة قطع الجواب ـ وهي المسافة ـ ووصوله إلى الداعي، والفرق بين الإجابة والاستجابة: الإجابة تفيد حصول المسؤول عنه دفعة واحدة حقيقة أو ادّعاءً، وأما الاستجابة فتفيد حصول المسؤول عنه شيئاً فشيئاً بالتدريج. والسمع والسماع يطلق بمعنى إدراك الصوت وبمعنى فهم ما يسمع من الكلام... ﴿**والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون**﴾: أصل البعث في اللغة: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثت البعير، أي: أثرته من مبركه وسيّرْته إلى المرعى ونحوه، والرجع والرجوع: جاء لازما

مثل رجع فلان، ومتعدياً مثل رجعته، ومنه: «قال رب ارجعوني. . .» ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم**﴾: الدابة مشتقة من دبّ إذا مشى على الأرض، وهي اسم لكل ما يدب على الأرض، والدب والدبيب: المشي الخفيف ما تقارب الخطو. والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء. والأمم: جمع أمة، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما، وهو خاص بالجماعة العظيمة من البشر، ودلالتها على الجمع والشمول والتعاون والافتداء. والمماثلة: التشابه في فصول الحقائق والخاصيات التي تميز كل نوع من غيره. والأمثال: جمع مثل، وأصل المثل في اللغة الشبه والشبيه. . . ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾: التفريط الترك والإهمال. والكتاب: ما سجلت فيه الأشياء لحفظها والاهتمام بها، ويقال له: السجل.

والشيء: ما يوجد على حال تميزه على غيره، وجمعه أشياء، مشتق من الإشاءة وهي الإرادة؛ لأنّ كلّ شيء شاءه الله أوجده على طبق إرادته. . . ﴿**ثم إلى ربّهم يحشرون**﴾: الحشر: الجمع والبعث، وهو إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم إلى الحرب ونحوه. . . ﴿**والذين كذبوا بآياتنا صمٌّ وبكم في الظلمات**﴾: كذّب بالأمر: أنكره. والآيات: جمع آية، وهي العلامة والدلالة والحجة، وتطلق على روعة الشيء وتفوقه. صم: جمع أصم، وهو من ثقل سمعه أو فقد، وأصل الصم: السد بالشيء المصمّت، والصم: التماسك. والبكم: جمع أبكم، وهو الأخرس الذي لا يتكلم. . . ﴿**من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾: الإضلال: جعله قابلاً للضلال، والضلال الضياع. والصراط: الطريق وكل موصل إلى الخير. . .

﴿**قل أرأيتكم**﴾: هذا تركيب شهير الاستعمال يفتتح عليه الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به، ومعناها أخبرني، وأخبراني، وأخبروني، والتاء مفتوحة، وهي للخطاب، ولا تختلف باختلاف المخاطب، ويجعل المفعول الأول في هذا التركيب غالباً ضمير خطاب عائد إلى فاعل الرؤية القلبية، ومستغنى به لبيان المراد من تاء الخطاب، فالمخاطب فاعل ومفعول باختلاف الاعتبار؛ فإنّ من خصائص أفعال باب الظن أنّه يجوز أن يكون فاعلها ومفعولها واحداً. وتقع بعد الضمير المنصوب جملة في موضع مفعوله الثاني، وقد يجيء في تلك الجملة ما يعلق

فعل الرؤية عن العمل، وهذا استعمال خاص بهذا التركيب الخاص الجاري مجرى المثل... ﴿**إن أتاكم عذاب الله**﴾: إتيان العذاب حصوله وحلوله، وأصل الإتيان: المجيء، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقر فيه مفعول الإتيان... ﴿**أو أتتكم الساعة**﴾: الساعة: علم بالغلبة على ساعة انقراض الدنيا... ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون**﴾: أخذ الشيء يطلق على حوزه وتحصيله بالتناول والملك أو الاستيلاء والقهر. والبأساء: اسم يُطلق على الحرب والمشقّة، والبأس: الشدة في الحرب، والخوف في الشدّة، والعذاب الشديد، والقوة والشجاعة، والبؤس: الخضوع والفقر. والضراء: فعلاء من الضُّر وهو ضد النفع، وتطلق على الجدب والأذى وسوء الحال حسّاً ومَعْنًى. والتضرع: التذلل والتخشّع، والضراعة كذلك، وتضرع إلى الله ابتهل وتذلّل واستكان... ﴿**فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾: لولا هنا: حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة، والتزيين: جعل الشيء زَيْناً...

﴿**فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾: لمّا حرف شرط، يدل على اقتران وجود جوابه بوجود شرطه. والفتح: ضد الغلق وهو جعل الشيء الحاجز غير حاجز وقابلاً للحجز كالباب حين يفتح... ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾: الفرح هنا: الازدهاء والبطر بالنعمة ونسيان المنعم، وأصل الفرح السرور بالشيء الملائم، والفرحة: المسرّة. والأخذ هنا: الإهلاك. والبغتة: فَعْلة من البغت، وهو الفجأة بحصول الشيء على غير ترقب. والمبلسون: اليائسون من الخير المتحيّرون وهو من الإبلاس، وهو الوجوم والسكوت عند طلب العفو يَأْساً من الاستجابة... ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا**﴾: قُطِع: استؤصل، وأصل القطع: الإبانة، وهو فصل الشيء بعضه عن بعض. والدابر: اسم فاعل، من دبره إذا مشى من ورائه والمصدر الدُّبور، ودابر الناس: آخرهم وهو مشتق من الدبر بمعنى الوراء. والذين ظلموا: المشركون...

﴿**قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم**﴾: الأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقره... ﴿**انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون**﴾: تصريف الآيات: اختلاف أنواعها، وأصل التصريف: التحويل، مثل تصريف

الدنانير بالدراهم، وتصريف الرياح. ويصدفون: يُعرِضون إعراضاً شديداً، يقال: صدَفَ صدْفا وصُدوفاً إذا مال إلى جانب وأعرض عن الشيء.

مبحث الإعراب

﴿**إنّما**﴾ كافّة ومكفوفة. ﴿**يستجيب**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل. ﴿**يسمعون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**والموتى**﴾ الواو حرف عطف، الموتى مبتدأ مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**يبعثُهم الله**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر المبتدإ، والضمير في يبعثهم مفعول به. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف للترتيب والتراخي. ﴿**إليه**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**يُرجعون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**وقالوا**﴾ الواو للعطف، قالوا فعل وفاعل. ﴿**لولا**﴾ أداة تحضيض. ﴿**نُزّل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بنُزّل. ﴿**آياتٌ**﴾ نائب الفاعل. ﴿**من ربّه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآيات، وجملة لولا نُزّل في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل مقدر (أنت). ﴿**إنّ**﴾ حرف توكيد ونصب. ﴿**الله**﴾ اسم إنّ منصوب بالفتحة. ﴿**قادر**﴾ خبرها مرفوع بالضمة. ﴿**على أن ينزل**﴾ على دخل على المصدر المنسبك مع أنْ وهو متعلق بقادر، والتقدير: إنّ الله قادر على تنزيل آية، وجملة إنّ الله قادر في محل نصب مقول القول. ﴿**ولكنّ**﴾ الواو للعطف، لكنّ للاستدراك. ﴿**أكثرهم**﴾ اسم لكنّ منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا**﴾ للنفي. ﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل، وجملة لا يعلمون في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما نافية. ﴿**من دابة**﴾ من زائدة جرّت ما بعدها لفظاً، ومحلها الرفع مبتدأ. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف نعت لدابة. ﴿**ولا طائر**﴾ معطوف على دابة باعتبار لفظها. ﴿**يطير**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود إلى طائر، والجملة في محل جر نعت لطائر. ﴿**بجناحيه**﴾ متعلق بيطير، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**أمم**﴾ بدل من الخبر المقدّر. ﴿**أمثالكم**﴾ نعت لأمم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**فرطنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**في الكتاب**﴾ متعلق بفرّط. ﴿**من شيء**﴾ مفعول جُرَّ بحرف الجر الزائد فكسر لفظه به. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**إلى ربّهم**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**يُحشرون**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول، وواوالجماعة نائب

الفاعل. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. وجملة ﴿**كذبوا**﴾ صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**صمٌّ**﴾ خبر الذين. ﴿**وبكم**﴾ معطوف على صم. ﴿**في الظلمات**﴾ خبر ثانٍ بمعنى عمي في الظلمات. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**يشإ**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل. ﴿**يضلله**﴾ جواب الشرط مجزوم بالسكون، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود إلى الله. ﴿**ومن يشأ يجعلْه**﴾ معطوف على من يشإ الله. ﴿**على صراط**﴾ متعلق بيجعل. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط. ﴿**قل أرأيتكم**﴾ الهمزة للاستفهام، رأيتكم فعل وفاعل ومفعول. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط. ﴿**أتاكم**﴾ فعل الشرط، وضمير المخاطبين فيه مفعول به. ﴿**عذابُ**﴾ فاعل أتى. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**أو أتتكم الساعة**﴾ عطف على الفعل قبله، وجواب الشرط مقدر، والتقدير: فمَنْ تدْعُون؟. ﴿**أغير**﴾ الهمزة للاستفهام، غير مفعول مقدم. ﴿**الله**﴾ مضاف إليه. ﴿**تدعون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها، وجواب الشرط مقدّر، والتقدير: إن كنتم صادقين فأجيبوني عن سؤالي. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب وعطف، والمعطوف عليه مقدّر، والتقدير: لا غير الله تدعون بل إيّاه تدعون. ﴿**إيّاه**﴾ ضمير منفصل في محل نصب مفعول مقدّم. ﴿**تدعون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**فيكشف**﴾ الفاء للترتيب، يكشف فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**تدعون**﴾ صلة ما. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتدعُون. ﴿**إن شاء**﴾ جملة شرطية. ﴿**وتنسون ما تشركون**﴾ معطوف على تدعون، وجملة تشركون صلة ما، وما مفعول تنسون. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**أرسلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلى أمم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأمم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فأخذناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه فاء التعقيب. ﴿**بالبأساء**﴾ متعلق بأخذنا. ﴿**والضراء**﴾ معطوف على البأساء. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يتضرعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل. ﴿**فلولا**﴾ الفاء للعطف والتعقيب، لولا للتحضيض. ﴿**إذ**﴾ ظرف للزمان الماضي. ﴿**جاءهم بأسنا**﴾ فاعل جاء، والضمير فيه مفعول به، والضمير في بأسنا مضاف إليه. ﴿**تضرعوا**﴾ فعل وفاعل متعلق إذ، والتقدير: هلاّ تضرعوا حين جاءهم بأسنا؟. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، والمعطوف عليه مقدر، والتقدير: فلم يتضرعوا ويتذلّلوا

ولكن. ﴿**قست قلوبهم**﴾ فعل وفاعل، والضمير في قلوبهم مضاف إليه، ولكن هنا حرف استدراك لا عمل له. ﴿**وزيّن**﴾ الواو للعطف، زيّن فعل ماض. ﴿**لهم**﴾ متعلق بزيّن. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ الجملة خبر كان، والجملة منسبكة مع ما بمصدر منصوب مفعول به. ﴿**فلمّا**﴾ الفاء للتعقيب، لمّا ظرفية شرطية. ﴿**نسوا**﴾ فعل الشرط. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**ذُكّروا**﴾ فعل ونائب فاعل، وهو صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بذكروا. ﴿**فتحنا**﴾ جواب الشرط. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بفتحنا. ﴿**أبواب**﴾ مفعول به. ﴿**كل**﴾ مضاف إلى أبواب. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**حتى**﴾ ابتدائية دخلت على الشرط. ﴿**إذا**﴾ وهي غاية لقوله: فتحنا عليهم. ﴿**فرحوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بما**﴾ متعلق بفرحوا. ﴿**أوتوا**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل صلة ما. ﴿**أخذناهم**﴾ جواب إذا. ﴿**بغتة**﴾ حال من الفاعل في أخذنا. ﴿**فإذا هم**﴾ الفاء للتعقيب، إذا فجائية، هم في محل رفع مبتدأ. ﴿**مبلسون**﴾ خبره. ﴿**فقُطع**﴾ الفاء للتعقيب، قُطع فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**دابرُ**﴾ نائب الفاعل. ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى دابر. ﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت للقوم. ﴿**ظلموا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿**والحمد**﴾ الواو للعطف، الحمد مبتدأ. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**رب**﴾ نعت لله. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى رب مجرور بالياء، والجملة تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**قل أرأيتم**﴾ الهمزة للاستفهام، رأيتم فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط. ﴿**أخذ الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**سمعكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأبصاركم**﴾ معطوف على سمعكم، وهو مثله في الإعراب. ﴿**وختم**﴾ معطوف على أخذ. ﴿**على قلوبكم**﴾ متعلق بختم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام مبتدأ. ﴿**إله**﴾ خبره. ﴿**غير**﴾ نعت لإله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**يأتيكم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يأتيكم في محل رفع نعت ثان لإله. ﴿**به**﴾ متعلق يأتيكم، وجواب إنْ أتاكم محذوف يدل عليه الاستفهام، وجملة أرأيتم في محل نصب مقول القول. ﴿**انظر**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**كيف**﴾ حال مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**نصرّف**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**الآيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**ثم**﴾ للعطف والترتيب والمهلة. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يصدفون**﴾ فعل

وفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة انظر كيف، وجملة ثم هم تذييل. ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله**﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿**بغتة**﴾ مفعول مطلق. ﴿**أوْ جهْرةً**﴾ معطوف عليه. ﴿**هل**﴾ حرف استفهام متضمن معنى النفي. ﴿**يُهلك**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**القوم**﴾ بدل من نائب الفاعل المقدّر. ﴿**الظالمون**﴾ نعت للقوم مرفوع بالواو. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما للنفي. ﴿**نرسل**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**المرسلين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**مبشرين**﴾ بدل من المستثنى منه المقدّر. ﴿**ومنذرين**﴾ معطوف على مبشرين، أي: ما نرسل المرسلين بشيء إلاّ بالبشارة والنذارة. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، مَنْ اسم شرط جازم. ﴿**آمن**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**وأصلح**﴾ معطوف على آمن. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لا نافية. ﴿**خوف**﴾ مبتدأ. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**ولا هم**﴾ معطوف على قوله: لا خوف. ﴿**يحزنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة فلا خوف عليهم في محل جزم جواب الشرط. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يمسّهم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به. ﴿**العذابُ**﴾ فاعل يمسّ. ﴿**بما**﴾ متعلق بيمسّ. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفسقون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يفسقون صلة ما، وجملة يمسهم العذاب خبر المبتدإ، وهو الذين كذبوا.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**إنّما يستجيب الذين يسمعون**﴾: علاقة هذا الكلام بما قبله واضحة. فهذا تقرير وتعليل لما سبق القول فيه بالتفصيل. ولمّا كان الشيء يقابل بنقيضه جاءت المقابلة هنا بين الذين يستجيبون وبين الموتى، وهي مقابلة عميقة الوقع والدلالة؛ فالاستجابة دليل حياة، والحياة نور. والإعراض دليل موت، والموت ظلام في ظلام، وما يحجب إنسان نفسَه عن الإيمان إلاّ وفي نفسه من الموت شيء، وفي كيانه من الفساد صورة. إنّ الإيمان اتصال وتفاعل ونماء، وإنّ الكفر انفصال وسلبية وجحود، وتعطيل الطاقة الكامنة في الإنسان، هو الذي يحجب القلوب عن الإيمان!. إنّما يستجيب الذين يسمعون!. أمّا المحجوبون المعطّلو الطاقة فهم

موتى إلى يوم البعث منظرون!. والحصر هنا تمييز للفريقين، ومعناه فلا يستجيب لدعوة الرسول إلاّ من كان واعياً مدركاً مميّزاً بين الضار والنافع. والسين والتاء في يستجيب للتأكيد. وحذف معمول يستجيب لظهوره من المقام، فالمقام مقام الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول.

أما قوله... **﴿والموتى يبعثهم الله﴾**: فهو مقابل الذين يسمعون، ولذلك حسُن الوصل بينهما، وهو يتضمن تعريضاً بأنّ هؤلاء كالأموات لا ترجى منهم استجابة. وتخلص إلى وعيدهم بأنّه يبعثهم بعد موتهم، فالموتى استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهم الأشياء، وفيه تلميح بأن يكون البعث استعارة للهداية بعد الضلال، وفي هذا وعد للرسول بأن بعض الضالين سيهتدون إلى الإسلام. ففي الوجه الأول زيادة في التهديد والوعيد، وعلى الوجه الثاني يكون تحريضاً لهم على الإيمان. والتعبير بيُرجعون مبنيّاً للمجهول ليعلم السامع أنّ إرجاعهم إلى الله بالإكراه والاضطرار!.. **﴿وقالوا لولا نزّل عليه آيات من ربه قل إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**: هذا عَوْدٌ إلى ما جاء في أول السورة من ذكر إعراضهم عن آيات الله، ثم ذكر ما تفننوا فيه من المعاذير، ثم أجملها اعتماداً على علمها عند الرسول والمؤمنين فقال: وقالوا لولا نزّل عليه آيات من ربّه، فجملة (وقالوا لولا نزّل عليه آيات من ربّه) وقع عطفها معترضاً بين جملة (والموتى يبعثهم الله) وجملة (وما من دابة في الأرض... الخ). وفي الإتيان بفعل النزول ما يدل على أنّ الآية المسؤولة من قبيل ما يأتي من السماء. ولولا حرف تحضيض بمعنى هلاّ، والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه. وفصل فعل قل فلم يعطف؛ لأنّه وقع موقع المحاورة. وقوله: إنّ الله قادر على أن ينزّل آية مستعمل في معناه الكنائي؛ وهو انتفاء أن يريد الله إجابة مقترحهم؛ لأنّه لمّا أرسل رسوله بآيات بيّنات حصل المقصود من إقامة الحجة على الذين كفروا، فلو شاء لزادهم من الآيات؛ لأنّه قادر، ففي هذه الطريقة من الجواب إثباتٌ للرد بالدليل، وبهذا يظهر موقع الاستدراك في قوله: ولكن أكثرهم لا يعلمون، فإنّه راجع إلى المدلول الالتزامي، أي: ولكن أكثر المعاندين لا يعلمون أن ذلك لو شاء الله لفعله، ويحسبون أنّ عدم الإجابة إلى مقترحهم يدل على صدق الرسول وذلك من ظلمة عقولهم، فلقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر، فيكون المعنى الذي أفاده هذا الرد غير المعنى الذي أفاده قوله: «ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم

لا ينظرون»، فإنّ ذلك نُبّهوا فيه على أنّ عدم إجابتهم فيه فائدة لهم، وهو استبقاؤهم، وهذا نُبّهوا فيه على سوء نظرهم في استدلالهم... **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾**: هذا الكلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرة الله تعالى وشمول علمه وسعة تدبيره؛ ليكون كالدليل على أنّ الله قادر على تنزيل الآية، وإنّما لا ينزّلها محافظة على الحِكم البالغة. وزيادة مِنْ لتأكيد الاستغراق. وفي الأرض متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم؛ كأنّه قيل: وما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض. وكذلك في زيادة الوصف في قوله: ولا طائر يطير بجناحيه، مع ما فيه من زيادة التقرير، أي: ولا طائر من الطيور يطير في ناحية من نواحي الجو بجناحيه إلاّ أمم متخالفة أمثالكم في أنّ أحوالها محفوظة، وأمورها مقنّنة، ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد، ومنتظمة في سلك التقديرات الإلهية والتدبيرات الربانية...

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾: ما تركنا في الناموس الذي ينظم الوجود من شيء إلاّ وانتظمه هذا الناموس، ودبّر أمره ونظّم علاقاته بغيره في هذا الوجود... **﴿ثم إلى ربّهم يحشرون﴾**: جيء بثم هنا للفرق الشاسع بين ما يعلمه الناس من ظاهر هذه الحياة وما فيها من الدواب، وبين ما يعلمه الله من أحوالها ودقائق أمورها في خلقها وإيجادها وإمدادها وحالة رجوعها إليه فيجازي من يستحق الجزاء، ويعطي كل ذي حق حقه كما أراد الله وقدّر وحكم، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه... ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وإليه يرجع الأمر كلُّه ثم إلى ربّهم يحشرون. **﴿والذين كذبوا بآياتنا صمٌّ وبكم في الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم﴾**: إنّ الله تعالى لمّا ذكر من مخلوقاته وآثار قدرته ما شأنه أن يُعرّف الناس بوحدانيته، ويدلهم على آياته وصدق رسوله، أعقبه ببيان أنّ المكذبين في ضلال مبين عن الاهتداء لذلك، وعن التأمل والتفكير فيه.

وقوله: صم وبكم في الظلمات تمثيل لحالهم في ضلال عقائدهم والابتعاد عن الاهتداء بحال قوم صم وبكم في ظلام!. وهذا التمثيل جاء على أتمّ شروط التمثيل، وهو قبوله لِتَفْكِيكِ أجزاء الهيئتين إلى تشبيهات مفردة، وإذا فقد المرء سمعه ونطقه وهو في الظلام إذن تعطلت حواسه الهادية وكان مصيره إلى الضلال.

وكذلك هؤلاء الذين يكذبون بآيات الله، إنّهم يعيشون في ظلام نَفْسِيّ وعقليّ لا يدركون ما حولهم من آيات الله، وكأنّما عطلوا حواسهم عن الاهتداء، فحقّت عليهم مشيئة الله في الضلال: من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم. بحسب ما يبدأ خطواته ويستخدم طاقاته للهدى أو للضلال. وقوله: من يشإ الله يضلله: استئناف بياني؛ لأنّ حالهم العجيبة تثير سؤالاً، وهو أن يقول قائل: ما بالهم لا يهتدون مع وضوح هذه الدلائل البينات؟. فأجيب بأنّ الله أضلهم فلا يهتدون، وأنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فدل قوله: من يشإ الله يضلله على أنّ هؤلاء المكذبين الضالين هم ممن شاء الله إضلالهم على طريقة الإيجاز بالحذف، وهذا مرتبط بما تقدم من قوله تعالى: «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى».

وأمّا قوله: ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم فهو تمثيل لحال الذي خلقه الله فمنّ عليه بعقل يرعوي من غيه، ويُصغي إلى النصيحة فلا يقع في الفساد فاتبع الدين الحق، بحال السائر على طريق واضحة لا يتحير ولا يخطئ القصد، ومستقيمة لا تطوح به في طول السير. وهذا التمثيل أيضاً صالح لتشبيه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها... قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله: استئناف ابتدائي يتضمن تهديداً بالوعيد طرداً للأغراض السابقة، وتخلله تعريض بالحث على خلع الشرك إذ ليس لشركائهم نفع؛ فذكّروا بأحوال قد تعرض لهم يلجأون فيها إلى الله. وأُلقي عليهم: أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحالة؟ وهل يستمرون من الآن على الشرك إلى أن يأتيهم العذاب، أو تأتيهم القيامة حين يلجأون إلى الإيمان بوحدانيته ولات حين إيمان؟!.

وقوله... ﴿**أو أتتكم الساعة**﴾: تنويع للعذاب الآتي، فهو إمّا أن يكون في الدنيا كما أتى لأقوام كثيرين، وإما أن يكون في الآخرة، وهو وعيد كل الكافرين... ﴿**أغير الله تدعون إن كنتم صادقين**﴾؟: إنّها دعوة إلى تصور ساعة العذاب في الدنيا، أو ساعة الهول الأعظم في الآخرة، واستجاشة للوجدان بهذا التصور الموحي؛ أفإن وقع هذا أو ذاك أفتدعون أحداً غير الله؟!. أفتدعون هذه الأصنام التي تشركون بها من دون الله؟. لو كنتم صادقين فيما تدعون لدعوتموها عند مواجهة الهول في الدنيا أو في الآخرة، ولكنكم لا تدعونها!. بل إياه تدعون

بشعور تلقائي مركب في الفطرة، تحققه الأمثال الكثيرة التي تقع من أشد المنكرين حين يدهمهم الهول على غرة، فيتوجهون إلى الله وينسون ما عداه؛ **﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾**. فالأمر كله إليه يكشف من الهول ما يشاء، ويبقي منه ما يشاء، وما من أحد يملك رفع الضر والبلاء!. وإضافة العذاب إلى الله تعالى باللفظ الصريح (عذاب الله) لتهويله لصدوره من أقدر القادرين... **﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾**: لمّا أنذرهم بتوقع العذاب تعقبه بالاستشهاد على وقوعه بأمم قبلهم، ليعلم هؤلاء أنّ تلك سنة الله في الذين ظلموا بالشرك. وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض، وهم المخاطبون بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها. وافْتُتِحَتْ هذه الجملة بلام القسم وقد المفيدة للتحقيق لتوكيد مضمون الخبر في الجملة، وهو المفرع عنه بالفاء في قوله: فأخذناهم بالبأساء والضراء؛ نُزّل السامعون المعرّض بإنذارهم منزلة من ينكرون أن يكون ما أصاب الأمم الذين من قبلهم عقاباً من الله على إعراضهم... **﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾**: هذا توبيخ لهم ببقائهم على ما كانوا عليه من الضلال رغم ما حصل لهم من التعذيب والنكال.

ولمّا دلّ التوبيخ على انتفاء وقوع الشيء عطف عليه بلكن عطفاً على معنى الكلام؛ لأنّ التضرع ينشأ عنه لين القلب، فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئا عن ضد اللين وهو القساوة، فعطف بلكن، وقد وجد الشيطان من طباعهم عوناً على نفث مُرادَه فيهم، فحسّن لهم تلك القساوة وأغراهم بالاستمرار على آثامهم... فغلبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب!. وعندئذ جاءت الفتنة بالنعمة... **﴿فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾**: التعبير هنا يرسم صورة جارفة لإقبال الدنيا من جميع أقطارها، بجميع نعمائها، بكل قوّتها وإغرائها، وكل تفصيل أو تعديد لمدلولات هذا التعبير تُنْقص من حيوية الصورة وتدفقها وانطلاقها، حتى إذا فرحوا بما أوتوا، واستغرقهم الشعور بمفاتنه، وأخذهم تيّاره وإغراؤه، ولم يعد في نفوسهم غيره يرقبونه أو يذكرونه، واندفعوا مع شهواتهم ولذاتهم ـ كما هي العادة حين يستغرق الإنسان في

المتاع ـ وأهملوا مقومات الحياة الصحيحة؛ من استقامة وصحو وعمل ونتاج واستعداد للمفاجآت، حين تَمَّ هذا كلُّه ـ والتعبير يختصره في قوله: حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ـ وهم في شهواتهم ونزواتهم لا يتوقعون شيئاً، ولا يتيقظون لآتٍ، ولا يحسّون أنّهم في طريق الهاوية؛ فإذا هم حائرون يائسون لا يدرون ما يفعلون: فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

إنّها صورة مكرورة في الزمان، ومع كثير من الأقوام، ولكن الخلُفُ ما يذكر ما جرى للسلف، فهذا هو القرآن يبرزها حيّةً متحركة ناطقة، ويستعيدها للقوم كأنّها تقع أمامهم؛ لأنّه يعرضها خطوة خطوة، ويرسمها لمسة لمسة، يهز بها وجدانهم الغافي، ويستجيش بها مشاعرهم الغارقة فيما هم فيه، فالكارثة تأتي في مثل هذه الحالات وفي مثل هذه اللحظات حين تستغرق النعمة المشاعر، وحين يأمن الغارّون مكر الله، وما يأمن مكر الله إلاّ الذين استغرقتهم الملهيات فأصبحوا مستحقين للنقمة والهلاك. ولا يظلم ربّك أحداً وهو يقطع دابر الذين ظلموا؛ محموداً في ذلك مشكوراً على تطهير الأرض من الظالمين... ﴿**قل أرأيتم إنّ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به**﴾: إنّها لمسة أخرى يدعوهم فيها إلى تصور أنفسهم وقد سلبهم الله السمع والأبصار وختم على قلوبهم، وهو على كل ذلك قادر؛ ليسألهم من ذا يرد عليهم شيئاً مما سلبه الله غيره تعالى؟!. ومثْلُ هذه التصورات كفيلة بأن ترتعش لها القلوب، وقد تخشع من تصورها وتلين.

والأخذ هنا مجاز في السلب والإعدام، لأنّ السلب من لوازم الأخذ، فهو تمثيل بتشبيه هيئة إعدام الخالق بعض مواهب مخلوقه بهيئة انتزاع الآخذ شيئا من مقره. فالهيئة هنا عقلية غير محسوسة والهيئة المشبه بها محسوسة. ولعلّ إفراد السمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفة أحد اللفظين مفرداً والآخر مجموعاً عند اقترانهما؛ فإنّ في انتظام الحروف والحركات والسكنات في تنقل اللسان، سراً عجيباً من فصاحة كلام القرآن المعبّر عنها بالنظم. والكلام جار في الآية مجرى التهديد والتخويف؛ اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم، وسلب الإدراك من قلوبهم؛ لأنّهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب.

وناسب هنا أن يُهَدَّدوا بزوالها بالكلية إن داموا على تعطيل الانتفاع بها فيما أقر به خالقُها. . . ﴿**انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون**﴾: هذا التفات عنهم إلى التعجيب منهم. وثم لاستبعاد إعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها. وجيء بالمسند في جملة هم يصدفون فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد الإعراض منهم. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوّي الحكم. . . ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة**﴾: كرر هذا السياق مرة أخرى لزيادة التهديد والتوقع، والإعذار لهم بأنّ إعراضهم يرجع بالسوء عليهم ولا يضر بغيرهم. وجيء في هذا وفي نظيره المتقدم بكاف الخطاب مع ضمير الخطاب ـ أرأيتكم ـ دون قوله: قل أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم. . . الخ لأنّ هذا ونظيره أبلغ في التوبيخ؛ لأنّهما أظهر في الاستدلال على كون المشركين في مِكْنَةِ قُدْرَةِ الله؛ فإنّ إتيان العذاب أمكن قوعاً من سلب السمع والبصر والعقول لنذرة حصول ذلك، فكان التوبيخ على إهمال الحذر من إتيان عذاب أقوى من التوبيخ على الاطمئنان من أخذ سمعهم وأبصارهم؛ فاجتلب كافَ الخطاب المقصودِ منه التنبيه دون أعيان المخاطبين. . .

﴿**هل يهلك إلاّ القوم الظالمون**﴾: الاستفهام مستعمل في الإنكار، فلذلك جاء بعده الاستثناء، والمعنى لا يهلك بذلك العذاب إلاّ الكافرون، والمراد بالقوم الظالمين المخاطبون أنفسهم، فأظهر في مقام الإضمار ليتأتي وصفهم أنّهم ظالمون، لأنّهم ظالمون أنفسهم، وظالمون الرسول والمؤمنين، وهذا يتضمن وعداً من الله بأنّه منجي المؤمنين. . . ﴿**وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين**﴾: إعلام من الله تعالى بأنّ إرسال الرسل للتبليغ والتبشير والإنذار؛ لا للتلهي بهم باقتراح الآيات. والقَصْرُ إضافي للرد على من زعموا أنّه إن لم يأتهم بآية كما اقترحوا فليس برسول من عند الله، فهو قصر قلب، أي: لم نرسل الرسول للإعجاب بإظهار خوارق العادات. وكنّى بالتبشير والإنذار عن التبليغ؛ لأنّ التبليغ يستلزم الأمرين؛ وهما الترغيب والترهيب، فحصل بهذه الكناية إيجازٌ إذا استغنى بذكر اللازم عن الجمع بينه وبين الملزوم. . .

﴿**فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾: الفاء للتفريع، وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن لمراعاة حقِّ المقام. وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة إلى مَنْ باعتبار معناها، كما أنّ إفراد الضميرين السابقين ـ آمن وأصلح ـ باعتبار

لفظها. . . ﴿**والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون**﴾: عطف على من آمن داخل في حكمه. بما الباء سببية، وما مصدرية، وشاع استعمال الفسق في القرآن في معنى الكفر وتجاوز حدود الله. وجيء بخبر كان جملة مضارعية (كانوا يفسقون) للإشارة إلى أنّ فسقهم كان متجدداً متكرراً. والإتيان بكان للدلالة على الاستمرار كذلك؛ لأن كان إذا لم يقصد بها إنقضاء خبرها فيما مضى دلّت على استمرار الخبر بالقرينة.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**إنّما يستجيب الذين يسمعون**﴾: بيّن الله في هذا التوجيه الذين يستجيبون لدعوة الرسول؛ إنّما هم الذين يسمعون القول فيفهمون دلالته، ويعملون بما فيه من الأمر والنهي، فيستفيدون منه في الدنيا والآخرة. فهذه هي المرتبة الكاملة من السماع، فمن سمع ولم يفهم كان كمن لم يسمع، ومن فهم ولم يعمل كان كمن لم يفهم. . . ﴿**والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون**﴾: هذا مقابل الأول وهم الذين لا ترجى استجابتهم؛ لأنّهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع، فلتترك أمرهم ولا عليك من كفرهم فالله يبعثهم بعد موتهم، ثم يرجعون إليه فيجازيهم على أعمالهم، فالواجب عليك أن تفوّض إلى الله أمرهم. والدليل على إعراضهم وأنّهم لا يستجيبون، هو طلبهم تنزيل الآيات على الرسول حسبما يقترحون. . . ﴿**وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربّه قل إنّ الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾: فهو رد على ما اقترحوا من الآيات. والذين يقترحون الآيات معاجزون، والمعاجز لا تنفعه الآيات؛ لأنّ إجابة المعاندين إلى الآيات المقترحة لم يكن في أمة من الأمم سبباً للهداية.

وقد مضت سنته تعالى في الأقوام بأن يعاقب المعاجزين للرسل بذلك بعذاب الاستئصال، فتنزيل آية مقترحة لايكون خيراً لهم بل هوشرلهم (ولكن أكثرهم لايعلمون) شيئا من حكم الله تعالى في أفعاله ولا من سننه في خلقه. وفي هذا بيان القصد من اقتراحهم وهو التعنت والعناد، فهم لايطلبون الآيات طلباً للهداية والإرشاد، فسببه محاولة تعجيز الرسول ﷺ، وقد قال الله لرسوله: «ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين». وخلاصة القول أنّهم متلاعبون في هذه المطالب والمقترحات.

التوجيه الثاني: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم**﴾: يبيّن الله في هذا التوجيه أنواعاً من آياته تعالى التي غفل عنها المعاجزون الجاحدون الجاهلون في أنواع الحيوان، التي ملأت البر والبحر والجو؛ من الكبير الذي يبلغ في الوزن القناطير، والصغير الذي لا يرى إلاّ بآلة التكبير، وأنّ المكذبين بآيات الله لم يهتدوا بها ولم يلتفتوا إليها، بل ظلوا في ظلمات جهلهم حتى كأنّهم لم يروها ولم يسمعوا بها. وَوَجْهُ المماثلة بين الإنسان وبين بقية أنواع الحيوان دخولهم في جنس حقيقة الحيوان، وهو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة، وقد ظهرت هذه الحقيقة الآن ظهوراً علميّاً ثبت بالتجربة والاستقراء؛ من ذات الخلية الواحدة إلى ذوات الخلايا المتعددة والأوصاف والخصائص المختلفة، وكلها تدخل تحت حقيقة واحدة وهي الحيوان، وهذا التعبير كان سائداً في المنطق العقلي، أما اليوم فقد دخل في الحقائق العلمية الثابتة بالتجربة والاستقراء، وهي للعاقل دليل قاطع على قدرة خالقها وحكمته في خلقه، وهذه الحقائق صرح بها القرآن قبل أن يحقّقها الإنسان، وهي نتيجة من نتائج البرهان... ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾: إنّه القرآن آية الله الخالدة، ومعجزته المشاهدة، «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين». ولا يهولنك ما تسمع من الاختلاف في توجيه هذه الآية من أقوال المفسرين... ﴿**ثم إلى ربّهم يحشرون**﴾: إنّهم مربوطون بالرباط الشامل رباط الربوبية إيجاداً وإمداداً، دنيا وأخرى إشقاءً وإسعاداً.

التوجيه الثالث: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات**﴾: هذا التوجيه يبين الله فيه حقيقة المكذبين بالآيات الدالة على صدق الرسول محمد ﷺ، فهم صم لا يسمعون، وبكم لا يتكلمون، في الظلمات لا يبصرون، إنّها حقيقة يكاد يلمسها اللامس، ويراها الناظر، ويسمعها السامع، ويدركها العاقل الواعي، وهي حقيقة من حقائق خلق الإنسان الذي خلقه الله قابلاً للضلال والهدى والكفر والإيمان... ﴿**من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم**﴾: إنّ الله خلق الإنسان مميزاً عن بقية الحيوان بخصائص الاستعداد لقبول ما يهدي إلى السعادة، وإلى قبول ما يدعو إلى الشقاوة، وهي الميزة التي تخصّص بها لقبول التكليف، وهي الميزة التي يستطيع بها استخلاص النتائج من مقدماتها، وهي الميزة التي يعلم بها ما يأتي في المستقبل المتوقع. ومع هذه الميزة لم يتركه الله

لها تتصرف فيه تصرف الآلة، وإنّما جعلها الله فيه لتكون له ميزاناً ومقياساً يقيس بها ما يأتيه من الخارج، بما له من وسائل الإحساس والإدراك، وهذا الخارج قد يكون محسوساً وقد يكون معقولاً، والمحسوس أمامه من مخلوقات الله في البر والبحر والجو، والمعقول ما غاب عنه وراء الكون والطبيعة، فليس عنده لإدراكه إلاّ ما يأتيه من ربّه خالق الكل وعالم الغيب والشهادة، وهو ما أنزله الله من الكتب على رسله الكرام من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام؛ فأيّدهم الله بالمعجزات كل على حسب استعداد قومه من المواهب والصفات. ولمّا كان محمداً آخرَ الرسل وكتابُه آخرَ الكتب وأمتُه خيْرَ الأمم جاءت معجزته مشتملة على المحسوس والمعقول، ليكون ذلك حجة على كل من يصل إليه ويميز بين الدليل والمدلول، فعندئذ قامت الحجة على كل من يريد آية أخرى من المعقول والمنقول، وعلى هذا فقد علمت معنى قوله تعالى: من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم.

التوجيه الرابع: **﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾**: في هذا التوجيه توجيه الرسول ليوجه للناس هذا السؤال المشتمل على إظهار حقيقة أمرهم في شركهم. وهذا التوجيه يشتمل على ثلاثة أنواع من الحوار: النوع الأول: تذكيرهم بما أودع الله في فطرتهم من توحيد الله، ليعلم أن ما تقلدوه من الشرك عارض فاسد يشغل أذهانهم ومخيلاتهم في وقت الرخاء، وما يخف حمله من البلاء، حتى إذا نزل بهم ما لا يطاق من اللأواء، وأثار تقطع الأسباب في أنفسهم ضراعة الدعاء، دعوا الله وحده مخلصين له الدين: «لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين». وضل عنهم ما كانوا يدعون من الأصنام والأوثان، وما وضعت رمزاً لها من ملَكٍ أو إنسان، لأنّ هذا دُعَاء القلب لا دعاء اللسان. والتذكير يأتي هنا على صورة الاستفهام: أفإن وقع لكم عذاب الدنيا، أو عذاب الآخرة، أفتدعون أحداً غير الله؟ أفتدعون هذه الأصنام التي تشركون بها من دون الله؟. لو كنتم صادقين فيما تدّعون لدعوتموها عند مواجهة الهول في الدنيا أو في الآخرة، ولكنكم لا تَدْعُونَها **﴿بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾**. فالأمر كله إليه يكشف من الهول ما يشاء، ويُبقي منه ما يشاء، وما من أحد يملك رفع الضر والبلاء...

﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالباساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾: لما

أنذرهم بتوقع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل، ليعلم هؤلاء أنّ تلك سنة الله في الذين ظلموا بالشرك. وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض، وهم المخاطبون بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها. وفيه حكمتان عظيمتان: إحداهما زجرهم عن التكذيب. والثانية إكرام الرسل بالتأييد، وفيه تكرمة للرسول ﷺ بإيذانه بأنّ الله ناصره على مكذبيه، والمراد أنّ الله قدم لهم عذاباً هيناً قبل العذاب الأكبر، وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته، وفيه إنذار لقريش بأنّهم سيصيبهم البأساء والضراء قبل الاستئصال، وهو استئصال السيف. وإنّما اختار الله استئصالهم بالسيف إظهاراً لكون نصر الله عليهم كان بيده ويد المصدّقين به، وذلك أوقع على العرب. والمقصود بالإنذار هنا إنذار الحاضرين. والتوبيخ إنّما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود... **﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾**.

﴿فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾: المعنى: لما أعرضوا عن الاتّعاظ بنذر العذاب رفعنا عنهم العذاب وفتحنا عليهم أبواب الخير. ومراد الله من هذا هو الإمهال لهم لعلهم يتذكرون الله ويوحدونه فتطهر نفوسهم، فابتلاهم الله بالشر والخير ليستقصي لهم سببي التذكر والخوف. والآيات في هذا الموضوع تفيد أنّ البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء، مما يتربى ويتهذب به الموفَّقون من الناس، وإلاّ كانت النعم أشد وبالاً عليهم من النقم. وتُختم الآيات بحمد الله اعترافاً بنعمة النصر بالقضاء على شرذمة الفساد والكفر، وفي ذلك تنبيه على أنّه يحق حمد الله عند هلاك الظلمة؛ لأنّ هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب. وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة. وإنّما كان هلاكهم صلاحاً لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم، فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم. النوع الثاني من المحاورة... **﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾**: الكلام هنا جار مجرى التهديد والتخويف بانتزاع سمعهم وأبصارهم

وسلب الإدراك من قلوبهم، لأنّهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب، فكان ذلك تنبيها لهم على عدم إجداء هذه المواهب عليهم مع صلاحيتها للانتفاع. وناسب هنا أن يهددوا بزوالها بالكلية إن داموا على تعطيل الانتفاع بها فيما أمر به خالقها. ومعنى تصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، فهي متحدة في الغاية مختلفة في الأساليب، متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامّها وخاصّها، وهي أيضا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدمات العقلية وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب، ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول. النوع الثالث من أنواع الحوار... **﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلاّ القوم الظالمون﴾**: يعود الحوار مرة ثالثة ليزيدهم في التهديد والتوعّد، وإعذار لهم بأنّ إعراضهم لا يرجع بالسوء إلاّ عليهم ولا يضر غيرهم، لأنّه لا يهلك إلاّ القوم الظالمون، وهم هم الظالمون إن ظلّوا يكذّبون... **﴿وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين﴾**: هذه هي السنة التي لا تتخلف، والتي هُم حريٌّ أن يتدبروها، ولقد قضت حكمته ورحمته أن يرسل الرسل ليبشّروا وينذروا؛ ثم يَدَعُوا سنة الله تجري مجراها... **﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾**.

8 ـ توضيح الخبر بأنّ محمداً بشر

النص

۞ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿51﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿52﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿53﴾
وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿54﴾ وَإِذَا جَآءَكَ
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ
ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿55﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿56﴾ قُلْ إِنِّى
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

قُلْ لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿57﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿58﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿59﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾: الخزائن: جمع خزانة، وهي البيت أو الصندوق الذي يحتوي ما تتوق إليه النفوس وما ينفع عند الشدة والحاجة، وكل ما يحفظ الشيء ويحرزه... **﴿ولا أعلم الغيب﴾**: الغيب: كل ما غاب عنك، والغيب ما غاب عن الحواس... **﴿ولا أقول إنّي ملك﴾**: الملَك: أحد الملائكة... **﴿إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ﴾**: الاتباع: المشي خلف المُتّبع... **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾**: التفكر: جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح... **﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم﴾**: الإنذار: التحذير من الأمر الخطير. والخوف: توقع الأمر المكروه في المستقبل.

والحشر: الجمع... **﴿ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع﴾**: الولي: المحب والصديق والنصير. والشفيع: صاحب الشفاعة، وهو من يتدخل في أمر الغير لقصد منفعته... **﴿لعلهم يتقون﴾**: رجاء وقايتهم من المهالك... **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي﴾**: الطرد: الإبعاد، طرده نحّاه وقال له: ابعد عني. والغداة: أول النهار. والعشي: آخره... **﴿يريدون وجهه﴾**: يقصدون بعبادتهم ذات الله سبحانه... **﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾**: ليس عليك

محاسبتهم. والحساب: عَدُّ أفراد الشيء ذي الأفراد، ويطلق على إعمال النظر في تمييز بعض الأحوال عن بعض إذا اشتبهت، فالحساب هنا: مصدر حاسب، والمراد به تتبع الأحوال والأعمال والنظر فيما تقابل به من جزاء...

﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض**﴾: فتنا: ابتلينا وامتحنا واختبرنا، والفتنة: احتراق الذهب بالنار ليُعرف نقاؤه من زيفه... ﴿**ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا**﴾: المنُّ: الإثقال بنعمة عظيمة أو نعم كثيرة... ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**﴾: السلام: الأمان، كلمة قالتها العرب عند لقاء المرء بغيره دلالة على أنّه مسالم لا محارب، لأنّ العرب كانت بينهم دماء وثارات، وكانوا يثأرون لأنفسهم ولو بغير المعتدِي من قبيلته، فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته إِحَنٌ وحفائظ، فيؤمَن أحدُهما الآخر بقوله: السلام عليكم. ومصدر سلّم: التسليم، والسلام: اسم مصدر...

﴿**كتب ربّكم على نفسه الرحمة أنّه من عمل منكم سوء بجهالة**﴾: الجهالة: تطلق على انتفاء العلم بشيء ما، وتطلق على ما يقابل الحِلْم... ﴿**ثم تاب من بعده وأصلح**﴾: أصلح: جعل نفسه صالحة، وأصلح عمله بعد أن أساء... ﴿**وكذلك نفصل الآيات**﴾: التفصيل: التبيين والتوضيح مشتق من الفصل، والفصل: تفرّق الشيء عن الشيء. والآيات: آيات القرآن... ﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾: الاستبانة: التوضيح والتعريف. وسبيل المجرمين: طريقهم وسيرتهم في الظلم والحسد والكبر واحتقار الغير والتصلب في الكفر... ﴿**قل إنّي نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله**﴾: تدعون: تعبدون وتلجئون إليهم في المهمات... قل لا أتبع أهواءكم: الأهواء: جمع هوى، وهو المحبة المفرطة... ﴿**قل إنّي على بينة من ربّي**﴾: البينة: في الأصل وصف مؤنّث بيّن. والبينة: الواضحة، وهي اسم للحُجَّةِ المُثْبِتَةِ للحق التي لا يعتريها شك، وللدلالة الواضحة والمعجزة... ﴿**ما عندي ما تستعجلون به**﴾: الاستعجال: طلب التعجيل بشيء، وأصله الحث على السرعة... ﴿**إن الحكم إلاّ لله يقص الحق وهو خير الفاصلين**﴾: القص: اتباع الأثر، والقص: الحكاية. والفصل: يطلق على القضاء، ويطلق على الكلام الفاصل بين الحق والباطل.

مبحث الإعراب

﴿**قُل لا أقول**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، والفاعل أنا، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأقول. ﴿**عندي**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**خزائن**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى خزائن، وجملة عندي خزائن الله في محل نصب مقول القول (أقول). ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾ معطوف على قوله لا أقول لكم عندي خزائن الله. ﴿**ولا أقول لكم**﴾ مثلها. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ملك**﴾ خبر إنّ، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**أتبع**﴾ فعل مضارع منفي بإنْ، والفاعل أنا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب بدل من المفعول المقدر. ﴿**يوحى**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**إليّ**﴾ متعلق بيوحى، وجملة يوحى صلة الموصول.

﴿**قل هل يستوي**﴾ هل حرف استفهام، يستوي فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**الأعمى**﴾ فاعل يستوي مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**والبصير**﴾ معطوف على الأعمى، وجملة هل يستوي في محل نصب مقول قل. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف على مقدر، ولا نافية، والتقدير: أتسمعون فلا. ﴿**تتفكرون**﴾. ﴿**وأنذر**﴾ فعل أمر معطوف على معنى إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ. ﴿**به**﴾ متعلق بأنذر. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول أنذر. ﴿**يخافون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أن يحشروا**﴾ أن حرف مصدر ونصب، يحشر فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل واو الجماعة، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول يخافون. ﴿**إلى ربّهم**﴾ متعلق بيحشر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ليس لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس.

﴿**من دونه**﴾ متعلق بمحذوف حال من اسم ليس. وهو ﴿**وليٌّ**﴾. ﴿**ولا شفيعٌ**﴾ معطوف عليه. ﴿**لعلّهم**﴾ لعلّ واسمها. ﴿**يتقون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ، وجملة ليس لهم من دونه في محل نصب حال من واو الجماعة في قوله: يحشروا. ﴿**ولا تطرد**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل أنت. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول تطرد.

﴿**يدعون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**ربّهم**﴾ مفعول يدعون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالغداة**﴾ متعلق بيدعون. ﴿**والعشي**﴾ معطوف على الغداة. ﴿**يريدون**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل نصب حال من واو الجماعة في يدعون. ﴿**وجهه**﴾ مفعول يريدون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ بمعنى ليس. ﴿**عليك**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس مقدّم. ﴿**من حسابهم**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**من شيء**﴾ اسم ليس جُرّ لفظُه بحرف الجر الزائد، وهو في محل رفع. ﴿**وما من حسابك عليهم من شيء**﴾ مثله. ﴿**فتَطْرُدَهم**﴾ فعل مضارع منصوب في جواب النفي. ﴿**فتكون**﴾ في جواب النهي. ﴿**من الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون. ﴿**وكذلك**﴾ الواو اعتراضية، والكاف للتشبيه، والإشارة للأمر الواقع من كونهم مفتونين. ﴿**فتنا**﴾ فعل وفاعل.

﴿**بعضهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ببعض**﴾ متعلق بفتنا. ﴿**ليقولوا**﴾ اللام للعاقبة، يقولوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وواو الجماعة فاعل. ﴿**أهولاء**﴾ الهمزة للاستفهام، وهؤلاء في محل رفع مبتدأ. ﴿**مَنَّ الله**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر هؤلاء. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بمَنَّ. ﴿**من بيننا**﴾ كذلك، وجملة أهؤلاء منَّ الله في محل نصب مقول القول. ﴿**أليس**﴾ الهمزة للاستفهام. ﴿**الله**﴾ اسم ليس. ﴿**بأعلم**﴾ خبر ليس جر لفظه بحرف الجر الزائد. ﴿**بالشاكرين**﴾ متعلق بأعلم، وأعلم ممنوع من الصرف للوصف ووزن الفعل. ﴿**وإذا جاءك**﴾ الجملة الشرطية معطوفة على قوله: ولا تطرد، وضمير الخطاب في جاءك مفعول به. ﴿**الذين**﴾ فاعل جاء. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بيؤمنون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فقل**﴾ جواب إذا. ﴿**سلام**﴾ مبتدأ وسوّغه قصدُ النوعية.

﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر سلام، وجملة سلام عليكم في محل نصب مقول القول. ﴿**كتب ربّكم**﴾ فعل وفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**على نفسه**﴾ متعلق بكتب. ﴿**الرحمة**﴾ مفعول به. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**من عمل**﴾ فعل الشرط. ﴿**منكم**﴾ متعلق بعمل. ﴿**سوءاً**﴾ مفعول به. ﴿**بجهالة**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل عمل. ﴿**ثم تاب**﴾ معطوف على عمل. ﴿**من بعده**﴾ متعلق بتاب. ﴿**وأصلح**﴾ معطوف على تاب. ﴿**فإنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**غفور**﴾ خبرها. وكذلك ﴿**رحيم**﴾، وهذه الجملة دالة على جواب الشرط لدخول الفاء عليها، وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر إنّ، وجملة أنّه من عمل... في محل نصب

بدل من الرحمة. **﴿وكذلك نفصل الآيات﴾** القول فيها مثل القول في قوله: وكذلك فتنا، والمعنى نفصل الآيات ونبينها تفصيلا مثل هذا التفصيل، والآيات مفعول نفصل منصوب بالكسرة لأنّه جمع مؤنث سالم. **﴿ولتستبين﴾** فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل (أنت). **﴿سبيل﴾** مفعول به. **﴿المجرمين﴾** مضاف إلى سبيل، وهو معطوف على علة مقدرة مأخوذة من معنى تفصيل الآيات، والتقدير: نفصل لك الآيات لتعلم كُنْهَهَا وتستبين سبيل المجرمين. **﴿قل إنّي﴾** إنّ واسمها. **﴿نهيتُ﴾** الجملة من الفعل ونائب الفاعل في محل رفع خبر إنّ.

﴿أن أعبد﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف الجر المقدر، والتقدير: إنّي نهيت عن عبادة الذين تدعون من دون الله. **﴿الذين﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿تدعون﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿من دون﴾** متعلق بتدعون. **﴿الله﴾** مضاف إلى دون. **﴿قل لا أتّبع﴾** فعل مضارع منفي بلا. **﴿أهواءكم﴾** مفعول به والضمير فيه مضاف إليه. **﴿قد ضللت﴾** فعل وفاعل. **﴿إذَنْ﴾** دلت على شرط وجوابه، فالجواب قوله: قد ضللت، والشرط مقدر، أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت. **﴿وما أنا﴾** معطوف على قد ضللت، وما بمعنى ليس، وأنا اسمها. **﴿من المهتدين﴾** متعلق بمحذوف خبرها. **﴿قل إنّي﴾** إنّ واسمها. **﴿على بيّنة﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ. **﴿من ربّي﴾** متعلق بمحذوف نعت لبينة، وجملة إنّي على بينة في محل نصب مقول القول. **﴿وكذبتم﴾** فعل وفاعل معطوف على قوله: إنّي على بينة، أي: أنا على بينة، وأنتم على ضلال لأنّكم كذبتم. **﴿به﴾** متعلق بكذبتم. **﴿ما﴾** بمعنى ليس. **﴿عندي﴾** متعلق بمحذوف خبر ما مقدّم. **﴿ما﴾** اسم موصل في محل رفع اسم ما. **﴿تستعجلون﴾** فعل وفاعل صلة ما.

﴿به﴾ متعلق بتستعجلون. **﴿إنْ﴾** بمعنى ما. **﴿الحكم﴾** مبتدأ. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء لا عمل لها. **﴿لله﴾** متعلق بمحذوف بدل من الخبر المقدر. **﴿يقص﴾** فعل مضارع. **﴿الحقّ﴾** مفعول يقص، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة بيانية. **﴿وهو خير الفاصلين﴾** جملة من المبتدإ والخبر تذييلية. **﴿قل لو﴾** حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. **﴿أنّ﴾** حرف مصدر ونصب. **﴿عندي﴾** متعلق بمحذوف خبر أنّ. **﴿ما﴾** في محل نصب اسمها. **﴿تستعجلون﴾** فعل وفاعل صلة

ما. ﴿**به**﴾ متعلق بتستعجلون. ﴿**لقضي**﴾ اللام واقعة في جواب لو، قضي فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**الأمر**﴾ نائب الفاعل. ﴿**بيني**﴾ متعلق بقضي. ﴿**وبينكم**﴾ معطوف على بيني، وجملة لو أنّ عندي في محل نصب مقول القول (قل). ﴿**والله أعلم بالظالمين**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييلية لا محل لها من الإعراب

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك**﴾: رَبْطُ الكلام بما قبله: لمّا نقضت المجادلة مع المشركين في إبطال شركهم، ودحّض تعاليل إنكارهم نبوءة محمد ﷺ بأنّهم لا يؤمنون بنبوءته إلاّ إذا جاء بآية على وفق هواهم، وأبطلت شبهتهم بقوله: «وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين» ـ وكان محمد ممن شمله لفظ المرسلين ـ، نقل الكلام إلى إبطال معاذيرهم فأعلمهم الله حقيقة الرسالة واقترانها بالآيات، فبيّن لهم أنّ الرسول هو الذي يتحدى الأمة، لأنّه خليفة عن الله في تبليغ مراده من خلقه، وليست الأمة هي التي تتحدى الرسول، فآية صدق الرسول، تجيء على وفق دعواه الرسالة فلو ادّعى أنّه ملك، وأنّه بُعث لإنقاذ الناس من أرزاء الدنيا ولإدناء خيراتها إليهم، لكان مِنْ عذرهم أن يسألوه الآيات التي تؤيد ذلك، فأمّا والرسول مبعوث للهدى، فآيته أن يكون ما جاء به هو الهدى، وأن تكون معجزته هو ما قارن دعوته مما يُعْجِزُ البشر عن الإتيان بمثله.

فإذا انتهى من إيقاظ مشاعرهم واستثارة تصوراتهم قدم لهم الدعوة بذاتها مجردة من كل إغراء أرضيٍّ ـ لا ثراء، ولا ادعاء ـ، يحملها رسول لا يملك إلاّ هداية الله التي تنير له الطريق، لا يقعد على خزائن الله ليغدق منها على من يتبعه، ولا يملك مفاتيح ليدل أتباعه على ما يبتغون، ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا، إنّما هو بشر رسول، وإنّما هي الدعوة وحدها، فمن شاء فَلْيُقْبِلْ ومن شاء فليدبر على بصيرة ونور. وافتتاح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام بإبلاغه، وافتتح الكلام بنفي القول ليدل على أنّ هذا القول لم يقترن بدعوى الرسالة، فلا وجه لاقتراح تلك الأمور. واللام في لكم لام التبليغ، وهي مفيدة تقوية فعل القول. وخزائن الله مستعارة لتعلق قدرته بالإنعام وإعطاء الخيرات النافعة للناس في الدنيا؛ شُبّهت تلك التعلقات في حجْبِها عن عيون الناس وتناولهم، مع نفعها إيّاهم بخزائن أهل اليسار

والثروة التي تجمع الأموال والأخبية والخلع والطعام. وتقديم عندي على خزائن للاهتمام به لما فيه من الغرابة والبشارة للمُخْبَرِين به لو كان يقوله. وأعيد حرف النفي للتَّنْصِيص على أنّ تلك المتعاطفات جميعها مقصودة بالنفي بآحادها؛ لئلا يتوهم أنّ المنفي مجموع الأمرين. . .

﴿إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ﴾: هذا توضيح وبيان لما سبقه، أي: ليست الرسالة إلاّ تبليغ المُوحَى المنزل من عند الله، فالقصر المستفاد هنا إضافي، والغرض من القصر قلبُ اعتقادهم أنّ الرسول لا يكون رسولاً حتى يأتيهم بالعجائب. . . **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾**: هذا ختام للمجادلة معهم وتذييل للكلام المفتتح. وشبهت حالة من لا يفقه الأدلّة ولا يفكّك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد، ولا أين يضع قدمه. وشبهت حالة من يُميّز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض، بحالة القوي البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح. وقوله: أفلا تتفكرون؟: استفهام إنكار.

إنّها العقيدة غِذاءُ الفطرة البشرية وقوام الحياة السليمة، فهي مستغنية بذاتها عن عرض الحياة الدنيا؛ من أرادها لذاتها مجرّدة من عرض الدنيا فهو بها حقيق، وهي بالقياس إليه قيمة أكبر من كل قيمة، ومن أرادها سلعة تُقَوَّمُ في سوق المنافع فهو لا يدرك طبيعتها وهي لا تمنحه زاداً ولا غناء، لذلك يؤمر الرسول ﷺ أن يقدمها هكذا عاطلة من كل زخرف، لأنّها غنية عن كل زخرف؛ وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنّهم لا يفيئون إلى خزائن مالٍ، ولا إلى وجاهة دنيا، إنّما يفيئون إلى هداية الله، وهي أكرم وأغنى؛ يفيئون إلى النور والبصيرة، ويخرجون من الظلام والعماية! . . **﴿وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع لعلهم يتقون﴾**: أمر الله تعالى رسوله بهذا الإنذار الخاص بعد أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته. والمناسبة بينهما أنّ الموصوفين بما ذكر في هذه الآية أجدر من غيرهم بفهم حقيقة الرسالة، فالآية نزلت في إنذار المؤمنين الذين يخافون الله ويرجونه. وعُرّفوا بالموصول لما تدل عليه الصلة من المدح، ومن التعليل بتوجيه إنذاره إليهم دون غيرهم، وخوف الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه، وفي هذا تعريض بأنّ المشركين لا ينجع فيهم الإنذار. وقوله: لعلهم يتقون رجاء مسوق مساق التعليل للأمر بإنذار المؤمنين؛ لأنّهم يرجى تقواهم، بخلاف من لا يؤمنون بالبعث. . .

﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾: عطْفٌ على قوله: وأنذر به الذين، لأنّه في معنى أنذرهم ولازمهم. وقد أجريت عليهم هنا صلة أخرى هي أنسب في هذا الحكم من الصلة التي قبلها، كما أنّ تلك أنسب بالحكم التي اقترنت معه منها بهذا. والوجه هنا مستعار للذات على اعتبار مضاف، بمعنى: يريدون رضى الله لا يريدون رضى غيره. وفي الكلام ثناء عليهم بكمال إيمانهم، وشهادة لهم بأنّهم مجرَّدون عن الغايات الدنيوية كلها. وجملة ما عليك من حسابهم من شيء تعليل للنهي عن طردهم، وفصلت هذه الجملة لأجل التعليل. وقد اجتمع في هذا الكلام خمس مؤكدات: من البيانية، ومن الزائدة، وتقديم المعمول، وصيغة الحصر، والتأكيد بالتتميم في قوله: وما من حسابك عليهم من شيء؛ فإنّه شبيه بالتوكيد اللفظي، وكل ذلك للتنصيص على منتهى التبرئة من محاولة إجابتهم لاقتراحهم.

ويفيد هذا الكلام التعريض برؤساء قريش الذين سألوا إبعاد الفقراء عن مجلس الرسول. والآية متمّمةٌ لبيان وظائف الرسول من الجهة السلبية؛ إذ صرح فيها بأنّه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم بعد أن صرح بأنّه لا يملك التصرف في الكون ولا يعلم الغيب وبأنّه ليس ملكا... ﴿**وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا**﴾: وقعت هذه الجملة اعتراضاً بين الجملتين المتعاطفتين تعجيلا للبيان، وقرنت بالواو للتنبيه على الاعتراض، وهي الواو الاعتراضية، وتسمى الاستئنافية، فبيّن اللهُ أنّ داعيهم إلى طلب طردهم هو احتقارٌ في حسد. والتشبيه مقصود منه التعجيب من المشبه؛ بأنّه بلغ الغاية في العجب. واسم الإشارة عائد إلى الفتون المأخوذ من فتنّا. وجيء باسم الإشارة للبعيد للدلالة على عظم المشار إليه. وقوله... ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾: تذييل للجملة كلها، فهو من كلام الله. والاستفهام تقريري... ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**﴾: عطف على قوله: ولا تطرد، وهو ارتقاء في إكرام الذين يدعون ربهم، فهم المراد بقوله: الذين يؤمنون بآياتنا، وقد أكرمهم الله تعالى بكرامتين: الأولى أن يبدأهم الرسول بالسلام. والثانية هي بشارتهم برضى الله عنهم، لأنّهم أول من تاب وأصلح. وجملة...

﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾: مستأنفة، وهي أول المقصود من المقول،

وأمّا السلام فمقدّمة للكلام، فقوله هنا: كتب ربّكم على نفسه الرحمة تمهيد لقوله... ﴿**أنّه من عمل منكم سوءاً بجهالة...**﴾ الخ... ﴿**ثم تاب من بعده وأصلح فإنّه غفور رحيم**﴾: جملةُ فإنّه غفور رحيم دليل جواب الشرط، أي: شديد المغفرة والرحمة، وهذا كناية عن المغفرة لهذا التائب المصلح... ﴿**وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾: هذه الآية تقرير للكلام الذي مضى مبتدأً بقوله: وأنذر به الذين يخافون... الخ.

وقوله: ولتستبين عطف على علة مقدرة دل عليها قوله: وكذلك نفصل الآيات، لأنّ المشار إليه التفصيل البالغ غاية البيان، فيعلم من الإشارة إليه أنّ الغرض منه اتّضاح العلم للرسول. فلما كان ذلك التفصيل بهذه المثابة علم منه أنّه علة لشيء آخر يناسبه، وهو تبين الرسول ذلك التفصيل، فصح أن تعطف عليه علة أخرى من علم الرسول ﷺ وهي استبانته سبيل المجرمين، فالتقدير مثلا: ومثل ذلك التفصيل نفصل الآيات لتعلم بتفصيلها وكُنْهَهَا، ولتستبين سبيل المجرمين، ففي الكلام إيجاز الحذف.

وهكذا كلما كان استعمال - كذلك نفعل - بعد ذكر أفعال عظيمة صالحاً الفعلُ المذكور بعد الإشارة لأن يكون علّة الأمر من شأنه أن يعلّل بمثله، يصحُّ أن تعطف عليه علة أخرى كما هنا، وكما في قوله: «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوت والأرض وليكون من الموقنين»، بخلاف ما لا يصلح، ولذلك: فإنّه إذا أريد ذكر علة بعده ذكرت بدون عطف، نحو قوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس». ووضع الظاهر - سبيل المجرمين - موضع المضمر - سبلهم - للتنصيص على أنّهم المراد، ولإجراء وصف الإجرام عليهم... ﴿**قل إنّي نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين**﴾: استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى إبطال الشرك بالتبرئ من عبادة أصنامهم: فإنّه بعد أن أبطل إلهية الأصنام بطريق الاستدلال من قوله: «قل أغير الله أتخذ وليّاً».. وقوله: «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله».. وقوله: «قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم..» جاء في هذه الآية بطريقة أُخْرى لإبطال عبادة الأصنام، وهي أنّ الله نهى رسوله عن عبادتها وعن اتباع أهواء عبدتها. وجملة قل لا أتبع أهواءكم استئناف آخر، وقد عدل عن العطف إلى الاستئناف ليكون غرضا مستقلا. وأعيد الأمر بالقول زيادة في الاهتمام بالاستئناف واستقلاله؛ ليكون هذا النفي

شاملاً للأتباع في عبادة الأصنام وفي غيرها من ضلالتهم، كطلب طرد المؤمنين عن مجلسه.

وجملة قد ضللت إذاً جواب لشرط مقدر، أي: إن اتبعت أهواءكم إذاً قد ضللت. وكذلك موقع إذاً حين تدْخُل على فعل غير مستقبل، فإنّها تكون حينئذ جواباً لشرط مقدر مشروط بإنْ أوْلَوْ. وتقديم جواب إذاً على إذاً في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أُكد بقد مع كونه مفروضا وليس بواقع، للإشارة إلى أنّ وقوعه محقّق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه إذاً. وقوله... وما أنا من المهتدين: عطف على قد ضللت؛ عطف عليه للدلالة على أنّه جواب آخر للشرط المقدر، فيدل على أنّه إن فعل ذلك يخرج عن حاله التي هو عليها الآن؛ من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة قد ضللت؛ لأنّه نفي عن ضد الضلال فتقررت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير. وتأكيد الشيء بنفي ضده طريقة عربية، وقد أتى بالخبر بالجار والمجرور فقيل: من المهتدين، ولم يقل: وما أنا مهتدٍ؛ لأنّ المقصود نفي الجملة التي خبرها من المهتدين، فإنّ التعريف في المهتدين تعريف الجنس.

فإخبار المتكلم عن نفسه بأنّه من المهتدين يفيد بأنّه واحد من الفئة التي تُعْرَفُ عند الناس بفئة المهتدين، فيفيد بأنّه مهتد؛ إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه، وهي أبلغ من التصريح... **﴿قل إني على بينة من ربّي وكذبتم به﴾**: استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من إبطال الشرك بدليل الوحي الإلهي المؤيد للأدلة السابقة إلى إثبات صدق الرسالة بدليل من الله مؤيد للأدلة السابقة أيضا، ليبأسوا من محاولة إرجاع الرسول عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكه في وحيه بقولهم: ساحر، مجنون، شاعر، أساطير الأولين، وليبأسوا أيضاً من إدخال الشك عليه في صدق إيمان أصحابه، وإلقاء الوحشة بينه وبينهم بما حاولوا من طرده أصحابَه عن مجلسه حين حضور خصومه، فأمره الله أن يقول لهم: إنّه على يقين من أمر ربه لا يتزعزع. وجملة وكذبتم به تفيد التعجب منهم أن كذبوا بما دلّت عليه البيّنة. والباء التي عدي بها فعل كذبتم هي لتأكيد لصوق معنى الفعل بمفعوله، فلذلك يدل فعل التكذيب إذا عدي بالباء على معنى الإنكار، أي: التكذيب القوي.

ولعل الاستعمال أنّهم لا يعدون فعل التكذيب بالباء إلاّ إذا أريد تكذيب حجّة أو برهان مما يحسب سبَبَ تصديق. . . **﴿ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلاّ لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾**: استئناف بياني؛ لأنّ حالهم في الإصرار على التكذيب مما يزيدهم عناداً سماع تسفيه أحلامهم وتنقص عقائدهم، فكانوا يقولون: لو كان قولك حقا فأين الوعيد الذي توعّدْتَنَا، فأمر بأن يجيب أن يقول: ما عندي ما تستعجلون به. ومعنى ما عندي: أنّه ليس في مقدرتي، كما يقال ما بيدي شيء فالعندية مجاز عن التصرف بالعلم والقدرة. وحقيقة عند أنها ظرف المكان القريب. وتستعمل مجازاً في استقرار الشيء لشيء وملكه إياه، كقوله: «وعنده مفاتح الغيب»، وتستعمل مجازاً في الاحتفاظ بالشيء، كقوله: «وعنده علم الساعة»، «وعند الله مكرهم».

وتقديم المسند أفاد قصر القلب، لأنّهم توهموا من توعد النّبيء إيّاهم أنّه توعدهم بعذاب في مقدرته فجعلوا تأخره إخْلاَفاً لتوعّدِه، فردّ عليهم بأنّ الوعيد بيد الله، فقوله: إن الحكم إلاّ لله تصريح بمفهوم القصر وتأكيد له، وعلى وجه كون ضمير به للقرآن. ومعنى خير الفاصلين: يشمل القول الحق والقضاء والعدل، وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مشير إلى أنّ قصّ الحق هَهُنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل. . . **﴿قل لو أنّ عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم﴾**: هذا بيان لما قبله من قوله: ما عندي. . وهو كناية عن معنى: لست إلهاً، ولكنني عَبْدٌ أتّبع ما يوحى إليّ. وتركيب قضي الأمر شاع فجرى مجرى المَثَل، فحذف الفاعل ليَصْلح التمثُّل به في كل مقام. وجملة: **﴿والله أعلم بالظالمين﴾** تذييل، والتعبير بالظالمين إظهار في مقام ضمير الخطاب؛ لإشعارهم بأنّهم ظالمون في شركهم.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾: في هذا التوجيه يأمر الله رسوله بأن يقول لمن يطلبون الآيات التي يقترحونها حسب أهوائهم: لا أقول لكم عندي خزائن الله أتصرّف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، وليس من موضوع الرسالة أن

يكون الرسول المُبَلِّغ عن الله تعالى أمر دينه قادراً على ما يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب، فضلا عن التصرف الذاتي بغير سبب، وهو الذي طلبه المشركون منه وجعلوه شرطاً للإيمان له، كتفجير الينابيع والأنهار من أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفاً، والإتيان بالله والملائكة قبيلاً.

ولا أقول لكم إنّي أعلم الغيب، وهو ما حجب الله علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به، ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة؛ لأنّها لم تخلق مستعدة لإدراكه، ولا بطرق الاستدلال عليه، أو لأنها مستعدة له بالقوّة غير متمكنة من أسبابه بالفعل؛ كعالم الآخرة، فالغيب من جنس المعلومات، مثل خزائن الله من جنس المقدورات؛ يراد بهما ما اختص بالله تعالى فلم يُمَكِّن عباده من علمه والتصرف فيه، ومن هذا نعلم: إذا كان الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من أسباب التصرف في المخلوقات ومن علم الغيب، وكان كل من التصرف بالقدرة الذاتية وعلم الغيب خاصاً بالله، يستحيل أن يشاركه غيره فيه، فمن أين جاءت دعوى التصرف في الكون وعلم الغيب لمن هم دون الرسل منزلة وكرامة عند الله تعالى، من المشايخ المعروفين وغير المعروفين حتى صاروا يُدْعَوْنَ من دون الله لما عز نيله بالأسباب والسنن الإلهية؟!.

وضلال المشركين في فهم الرسالة وجعلهم إيّاها شعبة من الربوبية، لا يزال عالقاً في أذهان الناس، حتى بعض المؤمنين باسم القرآن المتبركين بجلد مصحفه وورقه وزخرفته، وبالتغنّي به في الحفلات والمآتم، الجاهلين لما أنزل لبيانه من معرفة التوحيد، ومن معرفة حقيقة الرسول والرسالة، ومن معنى الجزاء على العقائد والأعمال. ولا أقول لكم إنّي ملك من الملائكة، بل أنا بشر من البشر لا أدّعي شيئاً مما ليس في طبيعة البشر، وإنّما أنا عبد الله ورسوله، وإنّما وظيفة العبد الطاعة، ووظيفة الرسول التبليغ، فأنا إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ.

هذه هي حقيقتي ووظيفتي ومسؤوليتي، وعليه (قل) لهم: هل يستوي الأعمى والبصير؟. أفلا تتفكرون؟. إنّه لفت النظر إلى ما في القرآن من الآيات والعِبَر!. ألا يكفيكم ما أتى به محمد ﷺ في هذا القرآن من أنواع الهداية والعرفان، وإخبار الغيب التي لم يؤتها إنس ولا جانّ، على ما فيه من بلاغة البيان، والأسلوب

البديع الذي لم تعهدوه قبل الآن، فمتى كان في قدرة مثلي شيء من ذلك، ولقد لبثت فيكم عمراً من قبله يزيد على الأربعين عاماً عاطلاً عن هذه البلاغة وهذه المعرفة؟. هذه الآية حُجّة من حجج الله تعالى للمشتغلين في هداية الدين، على المقلّدين فيه لآبائهم ومشايخهم الجاهلين.

التوجيه الثاني: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع لعلهم يتقون﴾: في هذا التوجيه أمر الله رسوله بهذا الإنذار الخاص بعد أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته، وكونها لا تستلزم أن يكون له من التصرف والعلم ما لا يكون إلاّ لله تعالى، ولا أن يكون مَلَكاً من الملائكة. والمناسبة بينهما أنّ الموصوفين بما ذكر في هذه الآية أجدر من غيرهم بفهم حقيقة الرسالة والانتفاع بإنذار الرسول، فهي كقوله: «إنّما تنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنّما يتزكى لنفسه»، وقوله: «إنّما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب»، والمعنى: وأنذر بما يوحى إليك جماعة المؤمنين بك الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم في يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، وكلٌّ يأتيه فيه فرداً ليس له من دونه وليٌّ ينصره، ولا شفيع يدفع عنه؛ إذْ أمْرُ النجاة متوقف على مرضاة الله عزّ وجلّ، وإنّما النجاة والسعادة تكونان بالإيمان والعمل الصالح وتزكية النفس لا بالانتفاع بصلاح الغير، أو بالاعتماد على شفاعة الشفعاء.

التوجيه الثالث: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾: في هذا التوجيه يحذر الله رسوله من محاولة طرد أحد من ضعفاء المسلمين ترضية لطلب أحد من متكبّري المشركين، والمعنى هنا: ولا تطرد أيّها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحّدين الذين داوموا على أداء الصلاتين المفروضتين قبل فرض الصلوات الخمس، مريدين بهذه العبادة وجه الله تعالى، مبتغين رضوانه مخلصين له الدين لا يشركون معه أحداً، ولا يرجون من غيره عليها ثواباً، ولا يتوقعون من أحد مدحاً ولا نفعاً. والمؤمنون ليسوا عبيداً للرسل، ولا أعمالهم لهم يُوَجّهونها لمصلحتهم، بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم على ربّهم لا على الرسل. وإنّما الرسل هُدَاةٌ مُعَلِّمُون، لا أرباب ولا مسيطرون «فذكر إنّما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر».

وإذا لم يكن للرسل حقّ السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم، فليس للناس عليهم هذا الحق بالأولى. ومن هذا المَبْدَإ سمى الرسول ﷺ من آمن به في حياته باسم الصحابة الدّال على المساواة، وقد تساوى الرسول فعلاً مع بقية المؤمنين في معظم الأحكام فيما يجب ويندب ويُحل ويُحرم ويباح ويكره، إلاّ ما خصّه الله به من الأحكام التي لها دخل في مصلحة التشريع العام، ولم تكن من قبيل ما يعهد الناس من امتياز الملوك والنبلاء والرؤساء والمشايخ على الغير؛ من أمور الأُبّهة والفخفخة والعظمة الدنيوية والتنعم والتّرَف، وإنّما خصه الله بها من الأحكام كانت أحْكَاماً شاقّة على غيره، ولا يقوى عليها إلاّ من كان مثل الرسول صبراً وعزماً، وأين مثل محمد في البشر؟!. كوجوب قيام الليل، وكون ما يتركه صدقة للأمة لا للورثة، وكون الصدقة تُحرم عليه وعلى آله، وكفالته عدّة أزواج من الأرامل والمحتاجة إلى صيانته وعطفه. والآية تدل على نفي الرياسة الدينية المعهودة في الملل الأخرى، وهي سيطرة رؤساء الدين على أهل دينهم في عقائدهم وعباداتهم ومحاسبتهم عليها، وعقاب من يرون عقابه منهم، حتى بالطرد من الدين والحرمان من حقوقه. ويجب في بعض تلك الملل أن يعترف كل مكلف من ذكر أو أنثى للرئيس الديني بأعماله النفسية والبدنية، وللرئيس أن يغفر له ما يعترف به من المعاصي، ويعتقدون أنّ مغفرة الله تتبع مغفرته. أمّا الإسلام فلا يعترف بهذا الحق لأحد ولو كان الرسول محمد ﷺ حيث رتب على حكم الطرد هذا التحذير الخطير: فتطردهم فتكون من الظالمين.

من هنا يظهر الفرق بين ما تعارف عليه الناس من قيم ومعايير في الاعتبار، وبين ما جاء به الإسلام من قواعد ومبادئ ليس فيها فرق بين الكبار والصغار، فلا يغتر الكبار بما لهم من القوة والجاه، ولا ينخدع الصغار بما فيهم من الضعف والاحتقار... ﴿**وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾: من هذا ظهرت حقيقة المتكبرين الجاهلين وحقيقة المؤمنين الصادقين، عندما نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟! وكانت هي الفتنة التي أرادها الله للمفتونين بأنفسهم المتمسكين بعادات وتقاليد لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ومبادئ وقواعد ما أنزل الله بها من سلطان، والذين لم يدركوا طبيعة هذا الإسلام، وما أصّلَ من المبادئ والقواعد في جميع الأحكام، وصارت هي الأسس

التي تنبت عليها سعادة الإنسان، وكل من أراد أن يجيء إلى هنا فليتفضّل في سعادة وأمان... **﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾**: فالباب مفتوح والحواجز معدومة، ولا اعتبار لأيّ شيء إلاّ الإيمان الصادق...

﴿كتب ربّكم على نفسه الرحمة: أنّه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنّه غفور رحيم﴾: هذه هي القاعدة التي بنى الإسلام عليها أحكامَه؛ فكل من يؤمن يُقبل وكل من يتوب يُعْفَ عنه مهما كان هذا الشخص لأنّ الله غفور رحيم، ربّ الجميع ومتولي أمر الجميع... **﴿وكذلك نفصل الآيات﴾**: مثل هذا التفصيل والتوضيح؛ نفصل آيات القرآن بلا غموض ولا رموز، ولا إيهام ولا إبهام، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون... **﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾**: من هذا التفصيل ظهرت حقيقة الرسالة وظهر صدق الرسول، ووضح كل أحد أمام هذه الآيات، فالمؤمن مؤمن والمجرم مجرم، وما على الرسول إلاّ البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.

التوجيه الرابع: **﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾**: في هذا التوجيه يأمر الله رسوله بأن يقول للمشركين الكلمة الحاسمة، معلناً لهم الخلاف الكامل بين طريقه وطريقهم في صراحة ووضوح ويقين. إنّها المواجهة الكاملة التي لا مجاملة فيها ولا موارية: أنتم تتبعون أهواءكم فتتخذون آلهة أخرى، وأنا لا أتبع هذه الأهواء التي لا تستند إلى معيار ثابت، ولا إلى مقياس صحيح... **﴿قل إنّي على بينة من ربي﴾**: إنّكم تتبعون أهواءكم وأنا على بينة من ربيّ آمنت بها واقتنعت بصدقها... **﴿وكذبتم به﴾**: إنّكم كذبتم بالكتاب الذي فيه البينة الكافية، وطلبتم بينة أخرى من نوع الخوارق... **﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾**: أنا لا أملك ما تستعجلون به من الخوارق التي يتبعها العذاب والخراب والدمار، والأمر ليس بيدي... **﴿إن الحكم إلاّ لله وهو يقص بالحق﴾**: وهو يحكم بالحق، وهو يفصل بين الحق والباطل: **﴿وهو خير الفاصلين﴾**.

ولو كان لدي هذا الأمر الخارق الذي تستعجلونه وجئتكم به، لانتهى الأمر بيني وبينكم، فما بعد الخارقة إلاّ التنكيل بالمكذبين، **﴿والله أعلم بالظالمين﴾** الذين يستحقّون التنكيل. والعبرة من هذا التوجيه في نهاية المقال: إنّه التوحيد

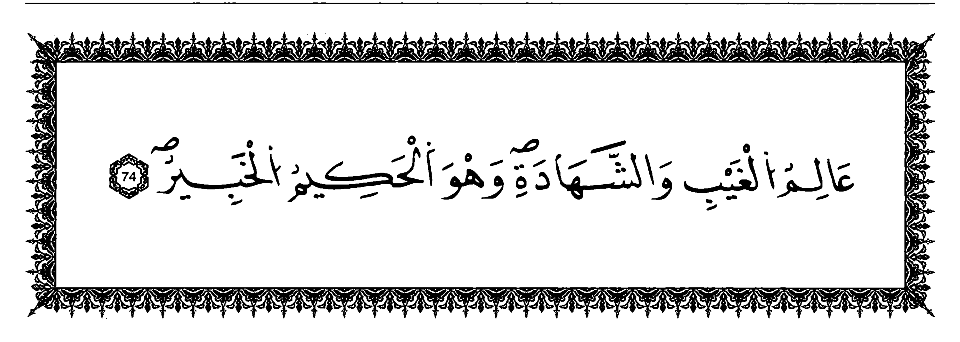
المطلق والتجريد الكامل الذي جاء به هذا الدين، والذي امتازت به هذه الرسالة؛ توحيد الله بذاته وصفاته، وتجريد التصور من كل شبهة شرك أو مشابهة، والفصل المطلق بين ذات الله وذات الرسول، وبين الرسالة التي جاءت من عند الله والرسول الذي نقلها للناس، فالرسول لا يزيد على البلاغ شيئاً؛ ولا يملك حقَّ خارقةٍ تُصدّقُ دعواه، فالأمر متروك إلى الآيات الكونية المبثوثة في الوجود، المعروضة على القلوب، وإلى ما في الرسالة ذاتها من توجيه إلى هذه الآيات الدالة بذاتها على الله، وعلى صدق الرسالة التي جاءت من عند الله. والتحدي بالقرآن هو تحدي العقل والإدراك، لا تحدي المعجزة المادية على نحو ما عرف في سابق الرسالات. إنّه التكريم للإنسان في الحقيقة، والسير به في طريق الرشد والحرية والكمال!.

9 ـ علم الغيب لله وحده، فلا أحد يحيط بما عنده

النص

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿60﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿61﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿62﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿63﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿64﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿65﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿66﴾

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝67 وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝68 وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝69 * وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝70 قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝71 وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝72 وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۝73 قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ



البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**وعنده مفاتح الغيب**﴾: المفاتح: جمع مِفتح، وهو الآلة التي يُفتح بها المغلق، وتسمى المفتاح، وقد قيل: إنّ مِفتح أفصح من مفتاح، وقيل: المفاتح جمع مَفتح بفتح الميم، وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يغلق على ما فيه، ثم يفتح عند الحاجة إلى ما فيه، فيكون معناه معنى الباب. والغيب: ما غاب عن علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن، والأعراض الخفية، ومواقيت الأشياء... ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾: البر: هو سطح الأرض الذي يمشي فيه الحيوان غير سابح. والبحر: هو الماء الكثير الذي يغمر جزءاً من الأرض سواء كان الماء ملحاً أو عذباً، والعرب تسمي النهر بحراً كالنيل والفرات... ﴿**وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها**﴾: سقط يسقُط سقوطاً، وقع من علو. الورق: من الشجر ومن الكتاب معروف، واحده ورقَة... ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض**﴾: الحبَّة هنا: بذرة النبات مثل حبة الشعير، وأصل الحب: الشيء المتجمع من نوع واحد يختلف قلة وكثرة. وظلمات الأرض: تخومها وبطونها...

﴿**ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين**﴾: الرطب: الناعم، والرطب الأخضر من البقل، والرطب الشيء الذي به رطوبة. واليابس عكسه، وهو ما كان رطباً فجفّ، والشيء الذي أصله اليبوسة، واليبوسة: التصلّب، والتحجر، مثل الحديد والحجر والخشب والتراب والنبات اليابس والحب والنوى... ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل**﴾: التوفي: حقيقته الإماتة، لأنّه حقيقة في قبض الشيء مُسْتَوْفًى، وأطلق هنا على النوم لما فيه من انقطاع الإدراك... ﴿**ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾:

جرح: كسب، واجترح التكسّب، ومعنى جرحتم هنا: كسبتم، وأصل الجرح تمزيق جلد الحيّ بشيء محدّد، والجوارح: الكواسب، وشاع ذلك فأطلق على الكسب اسم الجرح... ﴿**ثم يبعثكم فيه**﴾: البعث هنا الإفاقة من النوم، يقال: بعث فلاناً من منامه أيقظه وأَهَبَّهُ، وأصل البعث الإرسال والنشر... ﴿**ليُقضى أجلٌ مسمى**﴾: قضاء الأجل: انتهاؤه. ومسمى: معيّن محدّد...

ثم إليه مرجعكم: المرجع: مصدر معناه الرجوع يوم القيامة، وأصل الرجع: ردّ الشيء إلى مكانه... ﴿**ثم ينبئكم بما كنتم تعملون**﴾: يحاسبكم على أعمالكم بعد الموت... ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾: القاهر: الغالب، والقهّار صيغة مبالغة منه. وكلمة فوق تستعمل في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة. والفوق هنا بمعنى الغلبة والقهر... ﴿**ويرسل عليكم حفظة**﴾: الحفظة: الذين يُحْصُونَ أعْمَالَ العباد من الملائكة، وهو جمع حافظ وحفيظ، وأصله الحارس والراعي والموكل على الشيء، والمراد بالحفظة هنا: الملائكة الذين يحصون ويحفظون كل قول وفعل يصدر من الإنسان...

﴿**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرّطون**﴾: يبقى الإنسان تحت رعاية الحفظة إلى أن يأتيه الموت فيقبض روحَه ملائكة آخرون مرسلون من عند الله بدون تقصير أو إهمال... ﴿**ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق**﴾: الرد هنا: الرجوع يوم القيامة إلى الله الحق. والمولى: السيد، والمالك، والمتولي أمور الخلق... ﴿**ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين**﴾: الحكم هنا: الحساب يوم القيامة. ولفظ الحاسبين اسم الفاعل من حسب الثلاثي لا من حاسب، والحساب مصدر حسبه حسباً وحساباً، وحاسبه محاسبة وحساباً، والحساب والمحاسبة في المعاملة مبني على الحسب، الذي هو العد والإحصاء؛ لأنّ المحاسب يحصي على من يحاسبه العدد في المال أو ما تعلق به من الأعمال، والمراد هنا: إنّه أسرع الحاسبين إحصاءً للأعمال ومحاسبةً عليها... ﴿**قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر**﴾: ظلمات البر والبحر قسمان: ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر. وظلمة معنوية كظلمة الجهل بالطرق والمسالك، واشتباه الأعلام والآثار، وظلمة الشدائد والأخطار...

﴿**تدعونه تضرعاً وخفية**﴾: التضرع: المبالغة في الضراعة وهي الذل

والخضوع. والخفية: الخفاء والاستتار... ﴿**لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾: يقال: نجّاه الله وأنجاه خلّصه وأنقذه مما هو فيه من الهم والغم... ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب**﴾: الكرْب والكربة: الحزن يأخذ بالنفس، يقال: كربه الغم فاكترب فهو مكروب، وأصل الكرب الشد على الشيء، والمراد هنا الضيق الذي يشعر به المكروب من الضغط على صدره... ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾: الله القادر على أن يثير ويرسل عذاباً شديداً وعظيماً، يصبّه عليكم من فوقكم أو من تحتكم، مثل الصواعق والزلازل... ﴿**أو يلبسكم شيعاً**﴾: اللبس: الخلط بين الأشياء بلا تميُّز، وأصل معنى اللبس التغطية كاللباس. والشيع: جمع شيعة، وهي الجماعة المتحدة في غرض أو عقيدة أو هَوًى، وشيعة الرجل: أتباعه والمقتدون به، ولمادة شيع ثلاثة معاني أصلية في اللغة. أحدها: الانتشار والتفرق، ومنه شاع الخبر وأشاعه، وطارت نفسه شعاعاً، والشعاع المنتشر. ثانيها: الأتباع والدعوة إليه، كتشييع المسافر وتشييع الجنازة، وأشاع بالإبل والجماعة ليتبع بعضُها بعضاً. ثالثها: التقوية والتهييج، ومنه قولهم: شيّع النارَ إذا ألقى عليها حطباً يذكيها به.

وكل هذه المعاني ظاهرة في الشيع والأحزاب المتفرقة في المذهب أوالسياسة... ﴿**ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾: الإذاقة: إيصال طعم الشيء إلى حاسة الذوق، والمراد هنا: إيصال الألم إلى الشخص. والبأس: العذاب والشدة في الحرب والمصائب عامة، والمراد هنا: ما يحصل بين الناس من الفتن والهرج والمرج من مهاترات وخصومات وحروب... ﴿**انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون**﴾: تصريف الآيات: تبيينها وتنويعها بالترغيب والترهيب، والمراد بالآيات: آيات القرآن... ﴿**لكل نبإ مستقر**﴾: النبأُ: الخبر المهم. والمستقر: وقت الاستقرار، والاستقرار: الحصول... ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾: الخوض: حقيقته الدخول في الماء مشياً على الرجلين دون سباحة، ثم استعمل للتصرف الذي فيه كلفة أو عنت، ويستعمل للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل، ومعنى يخوضون في آياتنا يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء. والإعراض عنهم هنا: هُوَ تَرْكُ الجلوس في مجالسهم...

﴿**وإمّا ينسينك الشيطان**﴾: أنساه الشيطان: جعله يَنْسَى، والنسيان: ذهاب ما حفظ أولاً، وهي ظاهرة طبيعية في الإنسان، ونُسِبَتْ للشيطان لأنّها آفة غير ملائمة فتثقل على النفس، وكل ما يثقل على النفس يُنْسب للشيطان؛ لأنّه المدخل الذي يدخل منه للوسوسة والإغراء... ﴿**فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**﴾: القعود: ضد القيام، ومعنى فلا تقعد: قم حتى لا تسمع منهم هذا الكلام. والذكرى: اسم للتذكر، وذكّر بمعنى وعّظ... ﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا**﴾: ذَرْ فعل أمر، لم يرد له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، واستعملوا منه المضارع يَذَرُ، وفعل الأمر ذَرْ فقط، ومعنى ذرْ: اترك. والدين في قوله: دينهم بمعنى الملّة أو العادة، والدين له إطلاقات عدة في اللغة: الجزاء، الإسلام، العبادة، الطاعة، الحساب، التوحيد، الملة، الورع، القضاء، المعاملة... وغرّتهم: خدعتهم فظنوا أن لا حياة بعدها، والتغرير: التعريض للهلكة. ﴿**وذكّر**﴾ هنا: مصدره التذكير.

﴿**به**﴾: بالقرآن... ﴿**أن تبسل نفس**﴾: الإبسال الإسلام للعذاب واليأس من النجاة، وأصله من البسل، وهو المنع، ويطلق على حبس الشيء ومنعه بالقهر، وبمعنى الرهن، وأبسل الشيءَ: أسلمه للهلاك، أن تُبسل نفسٌ: أن تُسلم للهلاك، ومنه أسد باسل، ورجل باسل ممتنع على أقرانه، أو مانع لما يريد حفظه... ﴿**ليس لها من دون الله وليّ ولا شفيع**﴾: الولي: الناصر. والشفيع: الطالب للعفو عن الجاني لمكانة له عند من بيده العقاب... ﴿**وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها**﴾: تعدلُ: مضارع عدل إذا فدى شيئاً بشيء وقدّره به... ﴿**أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا**﴾: تقدم معنى الإبسال قريباً... ﴿**لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون**﴾: الحميم: الماء الشديد الحرارة، والحمة: عين الماء الساخنة، والحُمّة: مرض تشتد فيه الحرارة... ﴿**قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله**﴾: الرد: الإرجاع الذي يؤتى منه. والأعقاب: جمع عقب وهي مؤخر القدم، وعقب كل شيء طرفه وآخره، يقال: رجع على عقبه وعلى عقبيه ونكص على عقبيه، بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه...

﴿**كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران**﴾: الاستهواء: طلب هوى المرء

ومحبته، وهو استجلاب ما يتخيله الشخص محبوباً، والعرب يقولون: استهوته الشياطين إذا اختطفت الجن عقله فسيرته كما تريد، والعرب تعتقد ذلك عندما يركب الإنسان رأسه ويهيم على وجهه في الأرض ولايقبل نصح أحد. وحيران: وصف من الحيرة، وهي عدم الاهتداء إلى السبيل، يقال: حار إذا تاه في الأرض فلم يعرف الطريق. . . ﴿**له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا**﴾: الدعاء: القول الدال على طلب عمل من المخاطب. والهدى ضد الضلال.

مبحث الإعراب

﴿**وعنده**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مفاتح**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الغيب**﴾ مضاف إلى مفاتح، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**لا يعلمها**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والضمير فيه مفعول به. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**هو**﴾ بدل من الفاعل المقدر، والتقدير: لا يعلمها أحدٌ إلاّ هو. ﴿**ويعلم**﴾ معطوف على ما قبله بيان له، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**في البر**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**والبحر**﴾ معطوف على البر. ﴿**وما تسقط**﴾ فعل مضارع منفيّ بما. ﴿**من ورقة**﴾ فاعل تسقط دخلت عليه من الزائدة فجرّته لفظاً. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**يعلمها**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ولا حبة**﴾ معطوف على ورقة. في ﴿**ظلمات**﴾ متعلق بمحذوف نعت لحبة. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى ظلمات. ﴿**ولا رطب ولا يابس**﴾ معطوف على حبة.

﴿**إلاّ في كتاب مبين**﴾ بيان لقوله: إلاّ يعلمها. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**يتوفاكم**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على هو، والجملة صلة الذي. ﴿**بالليل**﴾ متعلق بيتوفاكم. ﴿**ويعلم**﴾ معطوف على يتوفاكم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**جرحتم**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**بالنهار**﴾ متعلق بجرحتم. ﴿**ثم يبعثكم**﴾ معطوف على يتوفاكم. ﴿**فيه**﴾ متعلق بيبعث. ﴿**ليقضى**﴾ اللام للتعليل، ويقضى فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. ﴿**أجلٌ**﴾ نائب الفاعل. ﴿**مسمًّى**﴾ نعت لأجل. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**إليه**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿**مرجعكم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ثم ينبئكم**﴾ معطوف على قوله إليه مرجعكم. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئ.

﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كنتم صلة ما. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**القاهر**﴾ خبره. ﴿**فوق**﴾ متعلق بالقاهر. ﴿**عباده**﴾ مضاف إلى فوق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويرسل**﴾ معطوف على قوله: وهو القاهر. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيرسل. ﴿**حفظة**﴾ مفعول به. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**جاء**﴾ فعل ماض. ﴿**أحدكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الموتُ**﴾ فاعل جاء. ﴿**توفته**﴾ جواب الشرط. ﴿**رسلنا**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لا يفرطون**﴾ لا نافية، يفرطون فعل وفاعل وهو خبر المبتدإ. ﴿**ثم ردوا**﴾ معطوف على توفته. ﴿**إلى الله**﴾ متعلق بردوا. ﴿**مولاهم**﴾ نعت لله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الحق**﴾ نعت آخر لله. ﴿**ألا**﴾ أداة استفتاح. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**الحكم**﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿**وهو أسرع**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على ما قبله. ﴿**الحاسبين**﴾ مضاف إلى أسرع مجرور بالياء. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينجيكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة ينجيكم خبر المبتدإ، وجملة من ينجيكم في محل نصب مقول القول. ﴿**من ظلمات**﴾ متعلق بينجيكم. ﴿**البر**﴾ مضاف إلى ظلمات. ﴿**والبحر**﴾ معطوف على البر. ﴿**تدعونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**تضرعاً وخفية**﴾ مفعول مطلق، وجملة تدعونه في موضع الحال من الضمير المنصوب. ﴿**لئن**﴾ اللام للقسم، إنْ حرف شرط جازم. ﴿**أنجيتنا**﴾ فعل الشرط. ﴿**من هذه**﴾ متعلق بأنجيتنا. ﴿**لنكونن**﴾ اللام مؤكدة للخبر، نكونن نكون واسمها، والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. ﴿**من الشاكرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر نكونن، وجملة لنكونن جواب القسم، وجملة لئن أنجيتنا في محل نصب مقول لقول مقدّر. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**الله**﴾ مبتدأ.

﴿**ينجيكم**﴾ الجملة خبر المبتدإ. ﴿**منها**﴾ متعلق بينجيكم. ﴿**ومن كل**﴾ معطوف على الضمير في منها. ﴿**كرب**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف.

﴿**أنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ. جملة ﴿**تشركون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**القادر**﴾ خبره. ﴿**على أن يبعث**﴾ متعلق بالقادر، فأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بعلى. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيبعث، ﴿**عذاباً**﴾ مفعول به. ﴿**من فوقكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لعذاب. ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ معطوف على قوله: من فوقكم. ﴿**أو يلبسَكم**﴾ معطوف على قوله: يبعث عليكم. ﴿**شيعاً**﴾ منصوب على الحال من الضمير المنصوب. ﴿**ويذيق**﴾ معطوف على قوله: يلبسكم. ﴿**بعضكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بأس**﴾ مفعول ثانٍ ليذيق. ﴿**بعض**﴾ مضاف إلى بأس. ﴿**انظر**﴾ فعل أمر. ﴿**كيف**﴾ اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الحال. ﴿**نصرف الآيات**﴾ مفعول نصرف. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يفقهون**﴾ في محل رفع خبر لعل. ﴿**وكذب**﴾ معطوف على انظر. ﴿**به**﴾ متعلق بكذب. ﴿**قومك**﴾ فاعل كذب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وهو الحق**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب على الحال من الضمير المجرور، فالواو هنا واو الحال. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**لست**﴾ ليس واسمها. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بوكيل**﴾ خبر ليس دخلت عليه الباء الزائدة فجرّته لفظاً، وجملة لست عليكم بوكيل في محل نصب مقول القول. ﴿**لكل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿**نبإ**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**مستقر**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**وسوف**﴾ الواو للعطف، سوف حرف تسويف. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل، وهو معطوف على قوله: لكل نبإ مستقر. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**رأيت**﴾ فعل الشرط. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يخوضون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**في آياتنا**﴾ متعلق بيخوضون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فأعرض**﴾ فعل أمر جواب الشرط قُرنَ بفاء الجواب. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بأعرض. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**يخوضوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى. ﴿**في حديث**﴾ متعلق بيخوضوا. ﴿**غيره**﴾ نعت لحديث، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وإمّا**﴾ الواو للعطف، وإن شرطية دخلت عليها ما.

﴿**ينسينك**﴾ فعل الشرط بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة للجواب، لا حرف نهي.

﴿**تقعد**﴾ مجزوم بلا، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**بعد**﴾ متعلق بتقعد. ﴿**الذكرى**﴾ مضاف إلى بعد مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**مع**﴾ متعلق بتقعد. ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى مع. ﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم مجرور بالياء، وجملة فلا تقعد في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما نافية تعمل عمل ليس. ﴿**على الذين**﴾ متعلق بمحذوف خبر ما. ﴿**يتّقون**﴾ صلة ما. ﴿**من حسابهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير يتقون. ﴿**من شيء**﴾ اسم ما مؤخّر دخلت عليه من الزائدة فجرّته لفظا. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، لكن للاستدراك.

﴿**ذكرى**﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والخبر محذوف دل عليه قوله: وما على الذين يتقون... ولكن عليهم ذكرى. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يتقون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لعلّ. ﴿**وذر**﴾ الواو حرف عطف، ذر فعل أمر مبني على السكون في الأصل، وحرّك بالكسرة لالتقاء الساكنين، وفاعله (أنت). ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**اتخذوا**﴾ فعل وفاعل، صلة الذين. ﴿**دينهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لعبا**﴾ حال من الواو في اتخذوا أو من الضمير المجرور في دينهم. ﴿**ولهواً**﴾ معطوف عليه. ﴿**وغرتهم**﴾ معطوف على اتخذوا. ﴿**الحياةُ الدنيا**﴾ فاعل غرتهم، والضمير فيه مفعول به، الدنيا نعت للحياة مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**وذكر**﴾ معطوف على قوله وَذَرِ. ﴿**به**﴾ متعلق بذكر. ﴿**أن تُبسل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن. ﴿**نفس**﴾ نائب الفاعل.

﴿**بما**﴾ متعلق بتُبسل. ﴿**كسبت**﴾ صلة ما، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثان لذكّر. ﴿**ليس لها**﴾ لها متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم. ﴿**من دون**﴾ متعلق بالخبر كذلك. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**وليٌّ**﴾ اسم ليس. ﴿**ولا شفيع**﴾ معطوف على وليٌّ. ﴿**وإن تعدل**﴾ فعل الشرط مجزوم، والفاعل ضمير يعود على نفس. ﴿**كُلَّ**﴾ مفعول مطلق. ﴿**عدل**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**لا يؤخذ**﴾ جواب الشرط. ﴿**منها**﴾ نائب الفاعل. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**أُبسلوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**بما**﴾ متعلق بأُبسلوا. ﴿**كسبوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**لهم**﴾ متعلق

بمحذوف خبر مقدم. ﴿**شراب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**من حميم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لشراب. ﴿**وعذاب**﴾ معطوف على شراب. ﴿**أليم**﴾ نعت لعذاب. ﴿**بما كانوا يكفرون**﴾ بما الباء سببية، وما مصدرية، وكانوا كان واسمها، وجملة يكفرون خبرها، والتقدير: هذا الشراب وهذا العذاب الذي استحقوه بسبب كونهم مستمرين ثابتين في الكفر. ﴿**قل**﴾ فعل أمر.

﴿**أندعوا**﴾ الهمزة للاستفهام، ندعو فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير (نحن). ﴿**من دون**﴾ متعلق بندعو. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**ينفعنا**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير يعود على ما، والضمير في الفعل مفعول به، والجملة صلة ما. ﴿**ولا يضرنا**﴾ معطوف على لا ينفعنا، وجملة أندعو في محل نصب مقول القول. ﴿**ونُرد**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل (نحن)، والجملة معطوفة على قوله: أندعو. ﴿**على أعقابنا**﴾ متعلق بنُرد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بعد**﴾ متعلق بنُرد. ﴿**إذ**﴾ ظرف زمان. ﴿**هدانا الله**﴾ الله فاعل هدانا، والضمير فيه مفعول به، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف، والمضاف والمضاف إليه مضاف إلى بعد، والتقدير: أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُرد على أعقابنا بعد الوقت الذي هدانا الله فيه للإيمان الحق؟!. ﴿**كالذي**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر، والتقدير: أنُردّ ردّاً مثل رد الذي استهوته الشياطين؟!. ﴿**استهوته الشياطين**﴾ صلة الذي. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق باستهوت. ﴿**حيران**﴾ حال من الضمير المنصوب. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**أصحاب**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة وصف لحيران. ﴿**يدعونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت لأصحاب. ﴿**إلى الهدى**﴾ متعلق بيدعونه. ﴿**ائتنا**﴾ الضمير في ائتنا مفعول به، والجملة في محل نصب مقول لقول مقدر، أي: يقولون له ائتنا، وهذه الجملة بدل من يدعونه.

﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّ هدى**﴾ إنّ واسمها. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى هدى. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**الهدى**﴾ خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**وأمرنا**﴾ الفعل ونائب الفاعل معطوف على إنّ هدى الله وهما في محل نصب مقول القول. ﴿**لنسلم**﴾ اللام للتعليل، ونسلم منصوب بأن مضمرة بعد لام

التعليل، والفاعل ضمير (نحن). ﴿لرب﴾ متعلق بنسلم. ﴿العالمين﴾ مضاف إلى رب منصوب بالياء. ﴿وأنْ أقيموا الصلاة﴾ معطوف على قوله نسلم. ﴿واتقوه﴾ كذلك، وجملة إنّ هدى الله هو الهدى، وجملة ما عطف عليه في محل نصب مقول القول. ﴿وهو﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الذي﴾ في محل رفع خبرهُ. ﴿إليه﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿تحشرون﴾ فعل وفاعل صلة الذي. ﴿وهو الذي خلق﴾ مثله في الإعراب. ﴿السماوات﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿والأرض﴾ معطوف على السماوات. ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل خلق. ﴿ويوم﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة. ﴿يقول﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الخالق. ﴿كن﴾ فعل أمر. ﴿فيكون﴾ تعقيب على كن، وفعل كن ويكون تام لا يحتاج إلى خبر. ﴿قوله﴾ مبتدأ. ﴿الحقُ﴾ خبره. ﴿ويوم﴾ ظرف لمضمون جملة قوله الحق، والواو بحسب المعنى داخل عليها. ﴿وله﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿الملك﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿يوم﴾ متعلق بالخبر. ﴿ينفخ﴾ فعل مضارع مبني للمجهول.

﴿في الصور﴾ نائب الفاعل، وجملة ينفخ في الصور في محل جر مضافة إلى يوم. ﴿عالم﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: هو عالم. ﴿الغيب﴾ مضاف إلى عالم. ﴿والشهادة﴾ معطوف على الغيب. ﴿وهو الحكيم﴾ مبتدأ وخبر. ﴿الخبير﴾ خبر ثان.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وعنده مفاتح الغيب﴾: هذا بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى؛ من حيث العلم، بعدما بيّن في السابق اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة، وهو استعارة لمكان الغيب، ولما يتوصل به إليه على الاختلاف في معنى مفاتح. وقوله. . . ﴿لا يعلمها إلاّ هو﴾: تأكيد لمضمون ما قبله، وإعلام بأنّ المراد هو الاختصاص من حيث العلم لا من حيث القدرة، وضمير يعلمها عائد إلى مفاتح الغيب، وهو ترشيح لاستعارة مفاتح الغيب للعلم بالمغيبات، فمفاتح هنا استعارة تخييلية تنبني على مكنية، بأنْ شبهت الأمور المغَيَّبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يُدَّخَر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال، بحيث لا يعلم ما فيها إلاّ الذي بيده مفاتحها. وأثبتت لها المفاتح على سبيل التخييلية.

والقرينة هي إضافة المفاتح إلى الغيب. ونفي علم غيره لها كناية عن نفي العلم بما تغلق عليه المفاتح من علم المغيبات. وقوله... ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾: بيان لتعلق علمه بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات، تكملة له وتنبيهاً على أنّ الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء في الجلاء... ﴿**وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها**﴾: بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها... ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض**﴾: هذه مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى... ﴿**ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين**﴾: تأكّدَ الكلامُ من جديد لترتبط الجمل بعضها ببعض، لتدخل كلها وتنضبط في كتاب واضح بَيّنٍ لا خفاء فيه مهما صغُر وخفِي ذاتاً وصفةً. وحسّن هذا التأكيد تجديدُ المعنى لبعد الأول بالمعطوفات وصفاتها، وأعيد بعبارة أخرى تفنُّناً. إنّ الأسلوب هنا ليرسم لنا صورة لعلم الله الشامل الذي لا يَندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في فجاج الجوّ، من حي وميّت ورطب ويابس، وهذا النسق القرآني العجيب يقصر عن التعبير عنه كلُّ حاذق أريب.

وأين يجيء تعبير البشر في جانب تنسيق خالق القوى والقدر؟. إنّ الخيال البشري ليرتاد آفاق المعلوم والمجهول وهو يتبع مع النص مجال وآفاق ومعالم عِلْمِ الله في أرجاء الكون الفسيح. وإنّ الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجّ وصوب؛ من سفوح وسهول ووهاد، وهو يرتاد الغيوب المختومة الموغلة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيدة الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله. ويجول في مجاهل البر، وفي غيابات البحر المكشوفة كلها للعلم، ويتبع الأوراق الجافة الساقطة من شجر الأرض، لا يحصيها عدٌّ، وعين الله على كل ورقة ساقطة هنا وهناك، ويلحظ كل حبّة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تخطئها عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يعزب منه شيء عن علم الله المحيط. إنّها جولة تدير الرؤوس وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان وآفاق من المكان وأغوار من المنظور والمحجوب والمعلوم والمجهول، جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف يعيا بتصور آمادها الخيال، وهي ترسم دقيقة كاملة شاملة في بضعة ألفاظ؛ ألا إنّه الإعجاز. وننظر إليها من ناحية التناسق الفني فنجد لها مثل هذه الآفاق. وعنده مفاتح الغيب...

آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق: في الزمان وفي المكان، وفي الضمير وفي الوجدان. ويعلم ما في البر والبحر: آماد وآفاق وأغوار في جسم الكون المنظور على استواء وسعة وشمول. وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها: حركة الموت والفناء الساقطة من علو إلى سفل، ومن حياة إلى اندثار. ولا حبة في ظلمات الأرض: حركة البزوغ والنماء المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون إلى اندفاع. ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين: التعميم الشامل الذي يشمل الموت والحياة والذبول والازدهار. تلك صورة لشمول علم الله في الآفاق يبسطها القرآن للمكذبين الذين يطلبون آية من آيات الله. وهذه آيات الله في كل مكان وفي كل جَنان، صورة يتوب منها الخيال بعد الجولة المذهلة بارتعاشة عميقة في الوجدان الحي الذي ينفعل ويتأثر ويستجيب. . .

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مسمًّى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾: هذا انتقال من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته؛ لأنّ ذلك كله من دلائل الإلهية تَعْليماً لأوليائه، ونعْياً على المشركين أعدائه. وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس، عقب ذكر دلائلها في الآفاق، فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيته، وفي هذا تقريب للبعث بعد الموت. وتلك صورة أخرى للرقابة المحكمة في ظل القدرة القاهرة التي لا يفلت منها شيء ولا ينَدّ عنها قول أو فعل، صورة أقرب إلى التصور البشري، وأدنى إلى مألوفه في الواقع أو في الخيال. فقوله: وهو الذي يتوفاكم صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة، والخطاب موجه إلى المشركين كما يقتضيه السياق السابق من قوله: لقضي الأمر بيني وبينكم، واللاحق من قوله: ثم أنتم تشركون، ويقتضيه طريق القصر. ولما كان هذا الحال غير خاص بالمشركين علم منه أنّ الناس فيه سواء. والتوفي حقيقته الإماتة؛ لأنّه حقيقة في قبضها لشيء مستوفياً، وإطلاقه على النوم مجازٌ لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك، وفائدته أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم؛ ليتم التقريب في قوله: ثم يبعثكم فيه.

وجملة ويعلم ما جرحتم بالنهار معترضة لقصد الامتنان بنعمة الإمهال. ووقع

الاقتصار على الإخبار بعلمه تعالى ما يكسب الناس في النهار دون الليل رعياً للغالب؛ لأنّ النهار هو وقت أكثر العمل والاكتساب، ففي الإخبار أنّه يعلم ما يقع فيه تحذير من اكتساب ما لا يرضى الله باكتسابه بالنسبة للمؤمنين، وتهديد للمشركين. وجملة ثم يبعثكم فيه معطوفة على يتوفّاكم بالليل فتكون ثم للمهلة الحقيقية. وفي للظرفية والضمير للنهار والبعث مستعار للإقامة من النوم لأن البعث شاع في إحياء الميت وخصوصاً في اصطلاح القرآن. وحسّن هذه الاستعارة كونُها مبنية على استعارة التوفي للنوم تقريباً لكيفية البعث التي حارت فيها عقولهم، فكُلٌّ من الاستعارتين مرشح للأخرى. واللام في ليقضى أجل مسمى لام التعليل، فالأجل معدود بالأيام والليالي، وهو زمان النوم واليقظة. وقضاء الأجل انتهاؤه. والمرجع مصدر ميمي، بمعنى الرجوع يوم القيامة.

والمهلة في قوله: ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ظاهرة؛ لأنّ بين الحشر وبين ابتداء الحساب زمناً كما ورد في الحديث. . . ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾: متصل بما قبله بالعطف، والمناسبة هنا أنّ النوم والموت خلقهما الله فَغَلَبَا شدّة الإنسان كيفما بلغت، فبيّن عقب ذكرهما أنّ الله هو القادر الغالب دون الأصنام. فالنوم قهر؛ لأنّ الإنسان قد يريد أن لا ينام فيغلبه النوم، والموت قهر؛ وهو أظهر، ومن الكلم الحق: سبحان من قهر العباد بالموت!. . ﴿**ويرسل عليكم حفظة**﴾: متصل بما قبله بالعطف، فيعتبر المسند إليه مقدماً على الخبر الفعلي، فيدل على التخصيص بقرينة المقام، أي: هو الذي يرسل عليكم حفظة دون غيره. والقصر هنا حقيقي، والمقصود الإعلام بهذا الخبر الحق ليحذر السامعون من ارتكاب المعاصي. ومعنى على في قوله: عليكم الاستعلاء المجازي، بمعنى: إرسال قهر وإلزام؛ لأنّ سياق الكلام خطاب للمشركين. والمراد بحفظ الحفظة الإحصاء والضبط. . . ﴿**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرّطون**﴾: إنّها صورة أخرى يرسمها النص، فكل نفس معدودة الأنفاس، متروكة لميعاد لا يتقدم لحظة ولا يتأخر، موكل بأنفاسها وميعادها حفيظ قريب مباشر لا يغفو ولا يهمل.

فإذا جاءت اللحظة المرسومة أدى الحفيظُ مهمته دون تفريط. وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري، وهو يحسُّ أنّه في كل لحظة قد يُقْبَضُ، وفي كل نَفَسٍ قد يحل الأجل المحتوم. . . ﴿**ثم ردوا إلى الله مولاهم**

الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾: في الجملة هنا مباحث: الأول: في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة. الثاني: أنّه جعل فعل الرد مبنياً للمفعول، للدلالة على أنّ لله تعالى رسلاً آخرين غير رسل الموت ورسل الحفظ، يَرُدُّون العباد إليه بعد البعث عندما يحشرونهم بأمره للحساب والجزاء. الثالث أنّ هذا الرد يكون بعد البعث، فكان الأصل أن يعبر عنه بفعل الاستقبال، وعبر هنا بالماضي لإفادة تحقق الوقوع حتى كأنّه وقع وانقضى. الرابع: من فوائد الالتفات ذكْرُ اسم الجلالة وصفه بما وصف به، ولا يخفى أن تأثيره في النفس هنا أعظم من تأثير ضمير المتكلم. الخامس: قالوا: إنّ الرد إلى الله هو الرد إلى حكمه وقضائه وحسابه وجزائه، أو إلى موقف الحساب ومكان العرْض والسؤال؛ لأنّ الرد إلى ذاته غير ممكن. السادس: إنّ وصف الاسم الكريم بمولاهم الحق يدل على أنّ ردهم إليه حتم؛ لأنّه هو سيدهم الحق الذي يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق وجملة ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين تذييل ولذلك ابتدئ بأداة استفتاح مؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، والعرب يجعلون التذييلات مشتملة على اهتمام أو عموم أو كلام جامع. وقدم المجرور في قوله: ألا له الحكم للاختصاص، فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصْرُهُ على الله: إمّا حقيقي للمبالغة؛ لعدم الاعتداد بحكم غيره.

وإمّا إضافي للرد على المشركين. وإن كان المراد من الحكم الحساب فالقصر حقيقي، وهذا يتضمن وَعْداً ووعيداً؛ لأنّه لما أتى بحرف المهلة في الجمل المتقدمة وكان المخاطبون فريقين؛ فريق صالح وفريق كافر، وذَكَر أنّهم إليه يرجعون، كان المقام مقام طواعية ومخالفة، فالصالحون لا يحبون المهلة والكافرون بالعكس؛ فعجلت المسرّة للصالحين، والمساءة للمشركين، بقوله: وهو أسرع الحاسبين... **﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾**: إنّ الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب، فهم يصادفون الهول في ظلمات البر والبحر، فلا يتوجهون عند الكرب إلاّ لله. إنّ تصوّر الخطر وتذكّر الهول يَرُدَّان النفوسَ الجامحة، ويرقّقان القلوب الغليظة، ويذكّران النفس لحظات الضعف ولحظات الإنابة، كما يذكّرانها أنّها رحمة الفرج ونعمة النجاة. إنّه مشهد مألوف يعرفه كلُّ مَنْ وقع في ضيقة أو رأى المكروبين في لحظة الضيق. ولمّا كان

هذا الكلام تهديداً، وافتتح بالاستفهام التقريري، تعيّن أنّ المقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين.

وإعادة الأمر بالقول للاهتمام بالخبر. والاستفهام مستعمل في التقرير والإلْجَاءِ؛ لكون ذلك لا ينازعون فيه بحسب عقائد الشرك. وأطلقت الظلمات مجازاً على المخاوف الحاصلة في البر والبحر. وجملة لئن أنجيتنا في محل نصب بقول محذوف. وحذْفُ القول كثير في القرآن إذا دلّت عليه قرينة الكلام. واللام في لئن الموطئة للقسم، واللام في لنكونن لام جواب القسم. وفيه عدَّة تأكيدات كما هو واضح. والإشارة بهذه إلى ما يحصل للمشاهد من الشدة والورطة. وقولهم من الشاكرين أبلغ من أن يقال: لنكونن شاكرين. وجملة: قل الله ينجيكم منها تلقين لجواب الاستفهام من قوله: مَنْ ينجيكم؟. أن يجيب عن المسؤولين، ولذلك فصلت جملة قل؛ لأنّها جارية مجرى القول في المحاورة، وتولى الجواب عنهم؛ لأنّ هذا الجواب لا يسعهم إلاّ الاعتراف به. وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي: الله ينجيكم لا غيره. ولأجل ذلك صرّح بالفعل المستفهم عنه. والضمير في منها للحادثة. وزاد ومن كل كرب لإفادة التعميم. وإنّ الاقتصار على ظلمات البر والبحر لمجرّد المثال.

وثم من قوله: ﴿**ثم أنتم تشركون**﴾ للترتيب الرتبي؛ لأنّ المقصود أن إشراكهم مع اعترافهم بأنّهم لا يلجأون إلاّ إلى الله في الشدائد أمر عجيب!. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لمجرد الاهتمام بخبر إسناد الشرك إليهم. وجيء بالمسند فعلاً مضارعاً لإفادة تجدُّد شركهم، وأنّ ذلك التجدد والدوام عليه أعجب!. وبين الشاكرين، وتشركون الجناس المحرّف... ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾: تصَوُّرُ العذاب الغامر من فوق، أو النابع من تحت أشدُّ وقْعاً في النفس من تصَوُّرِهِ آتياً عن يمين أو شمال. فالوهم يخيل للإنسان أنّه قد يقدر على دفع العذاب من يمين وشمال، أمّا العذاب الذي يُصَبُّ عليه من فوق، أو الذي يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل لا مقاومة له ولا ثبات معه. والتعبير يرسم تلك الصورة؛ لأنّه يخاطب النفس البشرية، والله أعلم بمن خلق. وفي هذا الكلام تخويف وتهديد للمشركين. وإعادة فعل الأمر بالقول للاهتمام بالخبر كما علم مراراً (هو القادر)!. والخبر مستعمل في التعريض مجازاً مرسلاً مركباً. وتعريف المسند والمسند إليه أفاد القصر...

﴿أو يُلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾: هذه صورة من صور العذاب الذي يذوقونه بأيديهم إذ يجعلهم شيعاً وأحزاباً غير منعزل بعضها عن بعض، فهي أبداً في جدال وصراع وفي خصومة ونزاع، وفي بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك. وذلك أشنع ما تصاب به الجماعة فيأكل بعضها بعضا، وإنّه لآلم من تؤكل بيد الأعداء!. إنّها صورة مخيفة من العذاب، وألوان متعددة من العبر يعرضها القرآن الكريم على المكذبين لعلهم يعقلون ويتدبّرون... **﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾**: في الأمر بالنظر تنزيل للمعقول منزلة المحسوس لقصد التعجيب منه، ومثله في القرآن كثير. ولعلهم يفقهون استئناف بياني جواب لسؤال سائل عن فائدة تصريف الآيات، وذلك رجاء حصول فهمهم، لأنّهم لعنادهم كانوا في حاجة إلى إحاطة البيان بأفهامهم لعلها تتذكّر وترعوي... **﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾**: الكلام موصول بما قبله بالعطف، والضمير في به عائد على القرآن الذي فيه الوعيد بالعذاب. والتعبير عن المكذبين بقومِك تسجيل عليهم بسوء معاملتهم لمن هو من أنفسهم. وجملة وهو الحق معترضة لقصد تحقيق القدرة على أن يبعث عليهم عذاباً. وقوله: **﴿قل لست عليكم بوكيل﴾** إرغام لهم؛ لأنّهم يرونه أنّهم لما كذّبوه وأعرضوا عن دعوته قد أغاظوه، فأعلمهم الله أنّه لا يغيظه ذلك، وأنّ عليه الدعوة؛ فإن كانوا يغيظون فإنّما يغيظون أنفسهم... **﴿لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون﴾**: فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنّها جاءت جواباً لسؤال مقدر؛ بأن يقال: متى تنزل العذاب؟

فأجيب بقوله: لكل نبإ مستقر. وهذا تحقيق للوعيد وتفويض زمانه إلى علم الله تعالى. وقوله: وسوف تعلمون موصول بما قبله بالعطف. جاء تأكيداً لما سيقع لهم مما أخبر به القرآن من العذاب الذي سيحل بهم في الدنيا قبل الآخرة، وقد تحقق ذلك بما حلّ بقريش من الهزائم والمصائب، فمات مَنْ مات وأسلم مَنْ أسلم بفتح مكة وانتهى الأمر بنصر المؤمنين... **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾**: وصلت الجملة بما قبلها لعلاقة الكلام بالمكذبين في الجملة، وجاء تعريف هؤلاء المكذبين بالموصولية (الذين يخوضون) دون أن يقال الخائضين، أو قوماً خائضين؛ لأنّ الموصول فيه إيماء إلى وجه الأمر بالإعراض، لأنّه أمر غريب!. إذ شأن الرسول أن يمارس الناس لعرض دعوة الدين، فأمر الله إياه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى

توجيه واستئناس، وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي: فأعرض عنهم لأنّهم يخوضون في آياتنا.

واستعير الخوض هنا للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل، فمعنى يخوضون في آياتنا يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء. والخطاب للرسول ﷺ مباشرة، وحكم بقية المسلمين كحكمه. والإعراض عنهم هنا: هو ترك الجلوس إلى مجالسهم، وهو مجاز قريب من الحقيقة؛ لأنّه يلزمه الإعراض الحقيقي غالباً. وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلهم يرجعون عن عنادهم. وحتى غاية للإعراض؛ لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زماناً أوجبه رعي مصلحة أخرى هي من قبيل الدعوة، فلا يضرّ توقيف الدعوة زماناً؛ فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلها، لأنّها تمحضت للمصلحة. وإنّما عبّر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض لأنّهم لا يتحدثون إلاّ فيما لا جدوى له من أحوال الشرك وأمور الجاهلية... ﴿**وإمّا يُنسيَنَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**﴾: عطفُ حالة النسيان زيادة في تأكيد الأمر بالإعراض. وأسند الإنساء إلى الشيطان فدَلَّنا على أنّ النسيان من آثار الخلقة البشرية التي جعل الله فيها حظّاً لنسبة عمل الشيطان، وقد عرف هذا في لغة العرب حيث ينسبون الأعمال البشرية التي تدل على غير الملائم إلى الشيطان وكما ورد في القرآن والسنة... «وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره»: والتثاؤب من الشيطان، وليس هذا من وسوسة الشيطان في أعمال الإنسان.

والقوم الظالمون هم الذين يخوضون في آيات الله، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لزيادة فائدة وصفهم بالظلم، فيعلم أن خوضهم في آيات الله ظلم... ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون**﴾: لمّا كان الإعراض عن مجالس الذين يخوضون بالطعن في الآيات قد لا يحول دون بلوغ أقوالهم في ذلك إلى أسماع المؤمنين من غير قصد، أتْبَع اللهُ النهيَ السابقَ بالعفو عما تتلقف أسماع المؤمنين من ذلك عفْواً دون قصد، فتكون الآية عُذْراً لما يطرق أسماع المؤمنين من غير قعودهم مع الطاعنين. وقوله: ولكن ذكرى عطفت الواو الاستدراك على النفي، بمعنى: ما عليهم شيء من حسابهم ولكن عليهم الذكرى. وضمير لعلهم يتقون عائد إلى ما عاد إليه ضمير حسابهم. فالتقوى هنا مستعملة

في معناها اللغوي. . . **﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تُبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع. وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾**: هذه الآية متصلة بما قبلها بالعطف. وهذا حكم آخر غير حكم الإعراض.

وذرْ بمعنى اترك. وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بهم. ومعنى اتخذوا دينهم: انتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها دينا تلاعباً بالسفهاء؛ ليجعلوهم تحت أمرهم ونهيهم، ويتحكّمون فيهم بما يغرونهم من فوائد هذا الدين. والمقصود بهؤلاء الزعماء والرؤساء الذين يتخذون من الناس أتباعاً يضلونهم بغير علم!. وما أكثرَ هؤلاء في كل مكان وزمان!. وغرتهم الحياة الدنيا: هي السبب في ضلال الدهماء وإضلال الزعماء، كلٌّ منهم مغرور بما يتراءى له أنّه الغنيمة. ولما كانت دعوة الإسلام جاءت لإنقاذ الناس من هذه الورطة التي تورطوا فيها؛ حب الدنيا والغرور بها، جاء الأمر للرسول بأن يترك هؤلاء في لعبهم ولهوهم وغرورهم بهذه الحياة الزائفة الزائلة، وليذكّر بالقرآن من يخاف وخَامَةَ العاقبة: وذكّر به أن تُبسل نفس بما كسبت: فالضمير المجرور في وذكر به عائد على القرآن؛ لأنّ التذكير هو التذكير بالله وبالبعث وبالنعيم والعذاب؛ وذلك إنّما يكون بالقرآن، فيعلم السامع أنّ ضمير الغيبة يرجع إلى ما في ذهن المخاطب من المقام. وقوله: أن تُبسل نفس تهويل ما في هذا اللفظ من هول المعنى. ونكّر نفساً لقصد التعميم. ومعنى بما كسبت: بما جنت فهو كَسْبُ الشَّر بقرينة تُبسل.

وجملة ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع في موضع الحال من نَفْسٍ لعمومها. وجملة وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها عطف على جملة ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع. وجيء في الشرط بإِنْ المفيدة عدم تحقُّق حصولِ الشرط؛ لأنّ هذا الشرط مفروض كما يفرض المحال. وقد جمعت الآية جميع ما تعارف الناس التخلص به من القهر والغلب، وهو الناصر والشفيع والفدية. وجملة أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنّ الكلام يثير سؤال سائل يقول: فما حال الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً من حال النفوس التي تُبسل بما كسبت؟.

فأجيب بأنّ أولئك هم الذين أُبسلوا بما كسبوا، فتكون الإشارة إلى المسؤول بما له من الصلة. والتعريف للجزأين أفاد القصر، بمعنى أنّ أولئك هم المبسلون لا غيرهم، وهو قصر مبالغة؛ لأنّ إبسالهم هو أشدُّ إبْسالٍ يَقَعُ فيه الناس، فجعل ما عداه كالمعدوم. وجملة لهم شراب من حميم بيان لمعنى الإبسال. والباء في قوله بما كانوا يكفرون سببية، وما مصدرية. وزيد فعل كان ليدل على تمكن الكفر منهم، وجعل خبرها فعلاً مضارعاً دليلاً على استمرارهم عليه. والجملة مبنية لمعنى الإبسال. . . ﴿**قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا**﴾: استئناف جيء به لتأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدين. ومعنى الاستفهام إنكارٌ وتأييسٌ. وجيء بنون المتكلم ومعه غيره؛ لأنّ الكلام من الرسول عن نفسه وعن المسلمين كُلِّهم. ﴿**ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله**﴾: داخل في حيز الإنكار، وهو تمثيل لحال المرتد إلى الشرك بعد أن أسلم، بحال من خرج في مهم فرجع على عقبيه ولم يقض ما خرج من أجله. وهذا أبلغ في تمثيل سوء الحالة من أن يقال: ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان. وهذا لون من ألوان التنفير مما فيه المشركون؛ مما لا يليق بمن تركه أن يعود إليه، وهي وسيلة نفسية من وسائل الإيحاء والتوجيه، وبخاصّة حين يتخذ القرآن طريقته المعجزة في التصوير والتجسيم. . . ﴿**كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا**﴾: إنّها صورة شاخصة للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع بين الإله الواحد والآلهة المتعدّدة ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، فيذهب في التيه. وما إن يقرأ القارئ شطر هذه الآية حتى ترتسم لخياله صورةُ ذلك المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض!. ولفظ الاستهواء لفظُ مُصَوِّرٌ لمدلوله. ويياليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون له راحة ذي القصد الموحّد ـ ولو كان في طريق الضلال ـ، ولكن هناك من الجانب الآخر إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه: ائتنا وهو بين الاستهواء. وهذا الدعاء حيرانُ موزّعُ القلب، لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا أي الطريقين يسلك، فهو هنالك حيران في ضلال وعذاب.

وقد شبهت بهذا التمثيل العجيب حالة من فرض ارتداده إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام؛ لدعوة المشركين إياه وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدونه عنه، بحال الذي فسد عقله باستهواءٍ من الشياطين والجن، فتاه في الأرض بعد أن كان

عارفاً بمسالكها، وترك رفقته العقلاءَ يدعونه إلى موافقتهم. وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك؛ بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبهة بها؛ بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، ويشبه الكفر بالهيام في الأرض، ويشبه المشركون الذين دعوه إلى الارتداد بالشياطين، وتشبه دعوة الله الناس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى... ﴿**قل إنّ هدى الله هو الهدى**﴾: في هذه الجملة أربعة مؤكّدَات: القصر وفيه مؤكّدان، وضمير الفصل، وإنّ، وتعريف المسند إليه بالإضافة (هدى الله)؛ للدلالة على أنّ الهدى الوارد من عند الله تعالى، وهو الدين الموصى به. وتعريف المسند بلام الجنس للدلالة على قصر جنس الهدى على دين الإسلام، فليس هنالك من هدى سواه، وليس هنالك من طريق إلاّ طريقه على وجه الجزم والتوكيد والتقرير. إنّه التقرير الحاسم في الظرف النفسيّ المناسب، فالنفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية، تكون أحوج ما تكون إلى التقرير الحاسم... ﴿**وأُمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾: هذا مقابل لما تقدم من قوله: قل إنّي نهيت أنْ أعبد الذين تدعون من دون الله... ولقوله: قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا. واللام في لنسلم للتأكيد، وفي ذكر اسم الله تعالى بوصفه لجميع الخلق (رب العالمين) دون اسمه الْعَلم (الله) إشارة إلى تعليل الأمر وأحقيته... ﴿**وأن أقيموا الصلاة واتقوه**﴾: أمرنا أن نقيم الصلاة، وأن نتقي الله ونراقبه ونخشاه كذلك على وجه الجزم والتوكيد، ولذلك اختار صيغة الأمر لا صيغة المضارع... ﴿**وهو الذي إليه تحشرون**﴾: اشتملت وهو الذي إليه تحشرون على عدة مؤكدات: صيغة الحصر بتعريف الجزأين. وتقديم معمول تحشرون المفيد للتقوى؛ لأنّ المقصود تحقيق وقوع الحشر على من أنكره من المشركين. وتحقيق الوعد للمؤمنين. والحصر هنا حقيقي؛ إذ هم لم ينكروا كون الحشر إلى الله، وإنّما أنكروا وقوع الحشر، فسلك في إثباته طريق الكناية بقصره على الله تعالى المستلزم وقوعَه، وأنّه لا يكون إلاّ إلى الله تعريضاً بأنّ آلهتهم لا تغني عنهم شيئا... ﴿**وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق**﴾: الحق قوام هذا الخلق، والعنصر الأساسي الذي يقوم به بناء هذا الكون، فهو ليس وهْماً ولا زيْفاً، إنّما هو خَلْقٌ لحمته الحق لا يقوم إلاّ به، ويفسد بالباطل وتلفظه فطرته.

وحين تهتدي فطرةُ الإنسان فإنّها تتصل بالحق الكامن في ضمير الوجود،

وتدرك الآيات المبثوثة في تضاعيفه، وهي شهادة صادقة على الحق الذي أودعه اللهُ الوجودَ... ﴿**ويوم يقول كن فيكون قوله الحق**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف لمناسبة ملابسة الحق لأفعاله تعالى، فبيّنت ملابسة الحق لأمره تعالى، وأصل التركيب: وقوله الحق يوم يقول كن فيكون. ونكتة الاهتمام بتقديم الظرف الردُّ على المشركين المنكرين وقوع هذا التكوين بعد العدم، والمعنى: أنّه أنشأ خلق السماوات والأرض بالحق، وأنّه يُعِيد الخلق الذي بدأه بقولٍ حقٍّ، فلا يخلو شيء من تكوينه الأول ولا من تكوينه الثاني عن الحق. ويتضمّن أنّه قول مستقبل وهو الخلق الثاني المقابل للخلق الأوّل، ولذلك أتى بكلمة يوم للإشارة إلى أنّه تكوين خاص مقدّر له يَوْمٌ معيّنٌ... ﴿**وله الملك يوم ينفخ في الصور**﴾: جملة مستقلة، وانتظامها كانتظام الجملة السابقة. إلاّ أنّ في تقديم المسند إليه عملي المسند قصر المسند إليه على المسند، أي: الملك مقصور على الكون له لا لغيره؛ لرد ما عسى أن يطمع فيه المشركون من مشاركة أصنامهم يومئذ في التصرف والقضاء. والمقصود من هذا الظرف تهويل ذلك اليوم... ﴿**عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير**﴾: ولمّا انتهى المقصود من الإخبار عن شؤون من شأن الله تعالى أتبع بصفات تشير إلى المحاسبة على كل جليل ودقيق؛ ظاهرٍ وباطنٍ، فهو عالم الغيب والشهادة؛ فحكمه إذنْ عَدْلٌ وجزاؤه يومئذ كامل، وهو الحكيم الخبير الذي يصرّف الأمور بحكمته، ويقدرها بخبرته على وجه اليقين. ذلك هو التقرير الحاسم الجازم بعد تصوير الحيرة التائهة، يلمس به وجدان المكذبين بالدّين وبيوم الدّين عسى أن يقودهم هذا إلى يقين!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو**﴾: في هذا التوجيه بيان شامل لعلم الله بكل شيء؛ ببيان كون مفاتح الغيب عنده وحدَه لا يشاركه أحد من رسله ولا غيرهِم، فإنّ المخلوق جاهل بذاته لا يمكن أن يحيط علماً بحقائق ماهيات الشيء التي يحسها، فما غاب عن حسّه لا يدركه بأي حال من الأحوال إلاّ بإعلام الله إياه، كما هو مقرر في عدة آيات من القرآن الكريم، مثل قوله: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً».

وقوله: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء». وتقدم في هذه السورة قوله لرسوله: «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ. . .» **﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾**: علمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب، على أنّ أكثر ما في خفايا البر والبحر غائب عن علم أكثر الخلق، وإن كان في نفسه موجوداً، يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه. وهنا تتفاوت إدراكات الخلق قوة وضعفاً، ولكن لا يمكن أن يبلغ أحد مهما أوتي من قوة العلم كنه الأشياء المشاهدة له «وفوق كل ذي علم عليم»، «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً»؛ فعلم الله لذاته مطلق لا يقيده شيء، ولا يختلف في ذاته قوة وضعفا «ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة»، «وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر. . .» **﴿وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾**: القصد من هذا التوضيح زيادة التعميم في العلم بالجزئيات الدقيقة، فإحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم. وهذه من معجزات القرآن؛ فإنّ الله علم ما يعتقده الفلاسفة، وعلم أن سيقول بقولهم من لا رسوخ له في الدين من أتباع المسلمين، فلم يترك للتأويل في حقيقة علمه مجالاً. والأسلوب هنا دقيق في البحث مع وضوح في التفضيل، وهذا ما عبر عنه بقوله: ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين.

إنّ علم الله بدقائق الأشياء وما يعتريها من إيجاد وتطور في النمو، حتى يصل إلى غاية محدّدة، ثم يدركه الإعدام فيأخذ في الذبول حتى يتبعثر في مكان ما من ظلمات الأرض. والتفاصيل التي جاءت في هذا الكتاب المبين ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ـ تغنينا عن البحث في معنى الكتاب المبين وما هو هذا الكتاب؟ هل هو علم الله؟ أو هو اللوح المحفوظ؟. فما دام هذا الكتاب الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ تكفل ببيان ما يحتاج إليه الإنسان من أمر دينه ودنياه، فعلى المسلم الحق أن يأخذ بما في هذا الكتاب من علم وعمل وعقيدة وسلوك «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين». والجري وراء المغيبات والبحث عنها، وترك البحث بالدرس والتنقيب عما في هذا الكتاب من الأعاجيب نوع من أنواع تلاعب الفلاسفة بِقِيَمِ الإنسان والضحك عليه!. ووصلت هذه الألاعيب إلى أفكار

المفسرين فأفسدت ذوقهم، وغيرت اتجاههم، وحيّرت عقولهم، وتاهوا في مجال التخمين والتأويل!.

التوجيه الثاني: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾: في هذا التوجيه يخاطب كل سامع ببيان كمال قدرته في خلقه، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، ومع هذا فهو لا يستطيع أن يمنع عن نفسه هذه الظاهرة، فكما أنّ الإنسان جاهل من ذاته إلاّ بما أعطاه الله من علم، فهو عاجز من ذاته إلاّ بما أعطاه الله من قدرة يتصرف بها، وهي تحت علم الله لا تعزب عنه: ويعلم ما جرحتم بالنهار؛ فالإنسان تحت قدرة الله نائماً وبين علمه متحركاً كاسباً، وهكذا مادام الإنسان في هذه الحياة: ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى. ثم لمّا ذكر أنّه يميتهم أولاً بالنوم، ثم يوقظهم ثانياً كان ذلك جارياً مجرى الإحياء بعد الإماتة، فلا جرم استدل بذلك على صحة البعث في القيامة فقال: ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون، في ليلكم ونهاركم وجميع أحوالكم وأوقاتكم. فما بالكم أيُّها المنكرون لا تتعظون بما في نفوسكم التي لا يغفل عنها إلاّ الغافلون الجاهلون الذين قضوا حياتهم بين نوم وبين لعب ولهو ولذة ومجون!، فهم بهذا في غمرة ساهون!.. **﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرّطون﴾**.

﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾: هذا من الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته، يفصل فيه كيفية تصرفه في خلقه، فكل عبد من عبيده تحت تصرفه وقهره لا يستطيع أن يفلت من هذه القبضة الماسكة به في يقظته ونومه؛ في حركته وسكونه، ومع هذا قد جعل على كل فرد منكم حفيظاً يضبط أعماله من الطاعات والمعاصي والمباحات؛ لأنّهم مطلعون على كل كلمة يقولها! «ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد»، وعلى كل فعل يفعله «وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون». وبعدما يستوفي الإنسان أجله في الدنيا تأتيه رسل الله الموكلة بقبض أرواح العباد، لا يفلت منهم أحد، فتستلم منه الروح باستلام تام دون اعتراض أو عناد، ثم بعد هذا التوفي يُردّ إلى الله المولى الحق يوم القيامة فيحكم بما له وما عليه بالعدّ والوزن

والتصنيف. . . ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين.

التوجيه الثالث: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية. لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾: في هذا التوجيه إثارة ما كمن في نفوس البشر من غريزة التوحيد التي وجدت في فطرة الإنسان التي فطر عليها، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي العهد الذي أخذه الله من بني آدم «. .وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون»، فيأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يوجه إلى الناس المنكرين هذا السؤال: قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر عندما لا تحسّون بغيره ولا يخطر ببال أحد منكم، ويجد الإنسان نفسه في شدة وكُرْبَةٍ من هول ما لاَقَى في البر أو في البحر؟. ومصائب البر وأهوال البحر وكوارث الجو ـ التي زادت في هذا الزمان الذي أصبح فيه الإنسان لا يطمئن له بال، ولا يستريح في مكان من هول ما حصل من عجائب الزمان ـ أصبحت تتضاعف شدّتُها وتزيد حدّتُها، كما هو معروف ومسموع ومشاهد الآن!. «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق».

وعندما يشتد الفزع والكرب يتجه الإنسان بفطرته الكامنة فيه يدعو ربّه متضرعاً خاضعاً خاشعاً في إعلانٍ تارة وفي إخفاءٍ أُخْرَى!. والمعنى: قل أَيُّها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وما أودع من آيات التوحيد في أعماق فطرتهم: مَنْ ينجيكم من ظلمات البر والبحر الحسية والمعنوية، عندما تغشاكم في أسفاركم، حال كونكم تدعونه عند وقوعكم في كل ظلمة منها دعاءَ تضرُّع ودعاء خفية قائلين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين؟!. والله سبحانه وتعالى ينجيكم المرّة بعد المرّة من تلك الظلمات، ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك؛ تخلفون وعْدكم له بالشكر، تخونون وتكذبون في يمينكم التي أكّدتموها مراراً وتكراراً، مواظبين على هذا الشرك،

مستمرين لا تكاد تنسونه إلاّ عند ظلمة الْخَطْبِ وشدّة الكرْب، فتعلنون له بالدعاء سراً وجهاراً!. وهذه الحجة من أبلغ الحجج لمن تأملها، ولهذا تكرّر في التنزيل ذكرُها. . .

﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾: هذا تذكير بقدرته على تعذيبهم إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، لا فرق فيهما بين أفرادهم وبين مجموعهم وجملتهم. وإنذارٌ بأنّ عاقبة كفر النعم أن تزول وتحل محلها النقم. ولما كان لفظ العذاب في الآية نكرة جاز حمله على كل عذاب يأتي من فوق الرءوس، أو من تحت الأرجل، أو من رؤساء الناس، أو من عامتهم، ولولا أنّ هذا الإبهام مراد لصرح بالمراد. وحكمة مثل هذا الإبهام في القرآن أن ينطبق معنى اللفظ على ما يدل عليه مما يحدث في المستقبل، أو ينكشف للناس فيه ما كان خفياً عنهم، إذ ورد في وصف القرآن أنّه لا تنتهي عجائبه!. وأنّ فيه نبأ من قبل الذين نزل في زمنهم، ومن كان معهم ومن يجيء بعدهم. ومثال ما عبر القرآن عنه مما يشمل ما لم يكن في زمن تنزيله ولا فيما قبله بحسب ما يعلم البشر: هذه الآية التي ظهر تفسيرها في هذا الزمان بما اخترع البشر من طائرات وصواريخ ومفجّرات جويّة وأرضية، وغازات خانقة وصاعقة من كوارث انفجار الذرة التي لم تكن تخطر على بال أحد، بسبب ما ظهر بين الناس من التفرق والتّمزّق والتحزب: عنصريات وطوائف ومذاهب وأحزاباً تعادي بعضها بعضاً، وتناصر بعضها بعضاً، وهذا أمر محسوس في كل مكان من أنحاء الأرض!. ولاشك في أنّ دلالة الآية على هذه المخترعات مراد؛ لأنّ الله تعالى ـ منزل القرآن ـ هو علام الغيوب. . . **﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾**: هذا تعليق على ما تقدم من التحذير والتخويف والإنذار بالعذاب العاجل والآجل، وتعجيب من حال من يسمع هذا الكلام ولا يفقه له معنى، ولا يرفع له رأساً، بل يستمر في غفلته حتى يأتيه في الختام!. .

﴿وكذّب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون﴾: لقد استمر القوم في كفرهم بالله، وتكذيبهم بالقرآن، وكأنّ ما أنذرهم به من العذاب خبرُ خرافة وخيالات وأوهام، مع أنّه الخبر الصادق والوعد الأكيد،

الذي لا يتخلف ولا يتأخر عن الموعد المحدود «ولتعلمن نبأه بعد حين»، وأنباء القرآن كثيرة ومختلفة؛ فمنها خاص بأولئك القوم، ومنها ما هو في غيرهم، ومنها ما هو عام يشمل أموراً تأتي في أزمنة مختلفة، فيحصل في كل زمن منها ما يثبت لمن فقه حقيقة القرآن، «قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق أو لم يكف بربّك أنّه على كل شيء شهيد»؟!.

التوجيه الرابع: ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا يُنسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**﴾: في هذا التوجيه توجيه إلى الرسول وإلى كل من يدخل تحت حكمه، يأمرهم فيه بأن لا يبقى في مجلس القوم الذين لا يُوقّرون الله، ولا يحترمون آياته وكلماته، ولا يتحرجون أن يخوضوا فيها بغير توقير. فلابد أن يكون لآيات الله حرمتها في ضمير المسلم، تلك الحرمة التي تثير في نفسه الغيرة عليها. واتقاء للاصطدام مع من لا يوقرونها، يجب أن يتركهم وينأى عن مجلسهم حتى يأخذوا في حديث آخر، فإذا أنساه الشيطان أن يعتزلهم ـ وحبائل الشيطان كثيرة: منها طرافة الحديث، وَالمصالح المتشابكة بين الناس، ورجاء هداية الضالين بالإغضاء عن خوضهم ومجاملتهم بالسكوت، وما أشبه ذلك من حيل الشيطان ـ إن أنساه الشيطان وتذكر بعده فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين... ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون**﴾: إنّ المتقين المتصلين بالله الموقرين لآياته، لا يتحملون تبعة الخائضين الظالمين حين يكونون في مجالسهم، ولكن المطلوب من قيامهم واعتزالهم هو تذكير القوم وتنبيههم إلى سوء ما هم فيه لعلهم يتقون الله، ويتحرجون من الخوض في آياته، ويعودون إلى الطريق المستقيم. والحكمة في هذا النهي أنّ الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه، أنّه إقرار لهم على خوضهم وإغراء بالتمادي فيه. ويدخل في هذا كل من يخوض في البدع التي أحدثها الناس وجعلوها من الإسلام، وصاروا يجادلون ويدافعون عنها، وهي أشد فتنة من فتنة الكافرين المجاهرين؛ لذلك حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار؛ إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يُخشى من فتنة المبتدع...

﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا**﴾: لما أمر الله

الرسول ومن يدخل في حكمه بترك مجالس السفهاء الذين يخوضون في آيات الله، أمر الله في هذه الآية رسوله ومن يدخل في حكمه بترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، ويشير بذلك إلى نوع خاص من الزعماء الذين تلاعبوا بعقول الدهماء؛ زينوا لهم ديناً يلائم شهواتهم ونزواتهم، واخترعوه حسب ما يريدون؛ من أكل وشرب وطرب ولهو ولعب، فيشمل هذا الحكم ما كان عليه المشركون في مكة: «وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية»، ويشمل رؤساء الديانات؛ من يهود ونصارى ومجوس ومشركين، وكلهم لهم عادات واحتفالات وأعياد يعتبرونها دِيناً موروثة عن آبائهم وأجدادهم، فالزعماء في هذا استفادوا الدنيا ولذاتها وشهواتها من التقديس والتعظيم والتقديم بما يحصلون عليه من المال والجاه والتكريم، والدهماء استفادوا في زعمهم متع الحياة التي ترتاح إليها نفوسهم من الزَّفّ والرقص والهرج، ونسيان هموم الدنيا من الهمّ والنغص، وما يرجونه بعد الموت من دخولهم تحت زمرة زعمائهم الذين بيدهم مفاتيح الجنّة، وما يرجونه منهم في هذه الحياة من تخليصهم من كل محنة. وعندما نتأمل قليلاً في هذا الحكم نجده يدل دلالة واضحة على دخول من ينتسبون إلى الطرق الصوفية على مختلف نحلهم وأسمائهم واتجاهاتهم في هذا الحكم دخولاً حقيقياً لا يقبل التأويل، ولا يَخْشَى مَنْ يُنكر عليهم من لوم أو تضليل!.. **﴿وذكر به أن تُبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله وليٌ ولَا شفيع﴾**: لما أمر الله رسوله بترك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، أمره بأن يذكر بالقرآن مخافة أن تحبس نفس بسبب ما اجترحته من ذنوب وآثام، وهي لا تملك لنفسها فدية، ولا ناصر لها من دون الله ولا شفيع؛ ذكر به لإنقاذ هذه النفوس المستعدّة للهداية، فالذين يؤخذون بما كسبت أيديهم...

﴿أولئك الذين أبْسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾: فليتدبر القوم ـ وفي الوقت متسع ـ قبل أن يؤخذوا رهائن بما كانوا يكفرون. والمراد بهذه الآيات وما في معناها إبطال أصل من أصول الوثنية، وهو تعليق النجاة ونيل الدرجات بتقديم الفدية، أو بشفاعة الشافعين. وتقرير أصل الدين الحق؛ دين الله، وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو إنّ النجاة في الآخرة، والحصول على رضوان الله والقرب منه، لا تُنال إلاّ بما شرعه الله من الإيمان والعمل الصالح الذي تزكو به الأنفس

وتطمئنّ به القلوب، والذين أبسلهم كسْبُهم للسيآت والخطايا، والذين اتخذوا الدين لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، فلا تنفعهم شفاعة ولا تؤخذ منهم فدية. وفي الآية أكبر العبر لمن يفقه الكلام، ولا يخدع بلقب الإسلام ويغتر!. فإنّما المسلم من اتخذ إمامَه القرآن وسنة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لا من اغتر بالأماني والأوهام، وانخدع بالخيالات والأحلام!.

التوجيه الخامس: **﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾**: في هذا التوجيه يأمر الله رسوله بأن يلقي هذا الكلام إلى من يحاول أن يرد المسلمين بعد الإيمان إلى الكفر، بدعوة غير الله الذي لا ينفع ولا يضر هذا الكلام، متسائلاً متعجباً من أمرهم. والآية بيّنت حكمة الإنكار والتعجب في الاستفهام من عدّة أوجه: الوجه الأول: إن دعاءَ غير الله تحوّل وارتداد عن دعاء القادر إلى دعاء العاجز الذي لا يقدر على نفع ولا ضر.

الوجه الثاني: إنّه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء، والعرب تقول فيمن عجز بعد قدرة، أو سفل بعد رفعة، أو أحجم بعد إقدام على محمدة: نكص على عقبيه، وارتد على عقبيه، ورجع القهقرى. والأصل فيه رجوع الهزيمة، أو الخيبة والعجز عن السير المحمود، ثم صار يطلق على كل تحوّل مذموم.

الوجه الثالث: إنّ التعبير بنُرد: أنّ هذا التحول المذموم ليس من شأنه أن يقع من عاقل؛ لأنّ العاقل إذا وصل إلى مرتبة عالية من العلم والكمال فإنّه لا يختار الرجوع عنها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وأعلى، فإذا كانت فطرته وعقله يأبيان عليه هذه الرِّدَّة والنكوص فكيف يُرد وهو لا يرتد.

الوجه الرابع: إنّ من أنقذه الله من الضلالة وهداه إلى طريق السعادة بما أراه من آياته في الأنفس والآفاق، وما شرح به صدره للإسلام فمَنْ يقدر أن يُضلّه بعد إذ هداه الله؟!.. **﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾**: هذا وجه خامس يصور فيه المرتد في أقبح صورة كانت تتصوّرُها العربُ، وكانوا يعتقدون أنّ الشياطين تظهر لهم في البراري والمَهَامِهِ ـ الفلوات ـ وتتلون لهم بألوان مختلفة، فتذهب بعقل من يراها، فيَهِيمُ على وجهه لا يدري أين يذهب حتى يهلك. والمعنى: أنّ الذي استهوته الشياطين في الأرض وهو حيران، هو الذي أضلته بوسوستها وحملته على اتباع هواه فاتخذ دينه لعباً

ولهواً، وغرته الحياة الدنيا فآثرها على الآخرة لإنكاره إياها، وتكذيبه بوعد الله ووعيده فيها. ولمّا كانت الصورة صورة مرتد عن الهدى فلابد أن يكون له أصحاب يدعونه إليه، ويسمع دعاءهم فيحاول أن يرجع إليهم، فيصير حائراً بين استهواء شيطانه ونداء إخوانه!.

وهو لا يستطيع التفلت من شيطانه فيكون من المهتدين، ولا يستطيع أن يرجع إلى إخوانه فهلك مع الهالكين، بل يظل هائماً في حيرته مضطرباً في أمره، وإنّما جُعل دعاةُ الهدى أصحاباً له باعتبار ما كان عليه قبل إضلال الشياطين له، ومثل هذا لا يستقر على حال من القلق. والتشبيه يدل بهذا التوجيه على أنّ المرتد عن الإسلام لا يمكن أن يعود مطمئناً بالكفر... **﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى﴾**: أعاد الأمر من القول هنا كما أعاده فيما تقدم، وفي ذلك ما فيه من العناية بكل من البراءة من الشرك والاعتصام بالهدى والإيمان في النهي والأمر، ويعبّرون عنهما بالتخلّي والتحلّي... **﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾**: هذا مقابل قوله: قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، وقوله: قل أندعو من دون الله... الآية. وتقرير هذه الآية أن متعلق الأمر إما أن يكون من باب الأفعال، أو من باب المتروك، والأوّل إمّا أن يكون من أفعال القلوب أو من أفعال الجوارح، ورئيس أفعال القلوب الإيمان بالله والإسلام، وهو معنى قوله: لنسلم لرب العالمين، ورئيس أعمال الجوارح الصلاة، وهو معنى قوله: وأن أقيموا الصلاة. ثم أشار إلى جوامع التروك بقوله: واتقوه.

ثم قال... **﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾** ليعلم أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر ثم دل على صحة وقوع الحشر بقوله **﴿وهو الذي خلق السماوت والأرض بالحق. ويوم يقول كن فيكون قوله الحق. يوم ينفخ في الصور﴾**: والمراد أنّ قضاءه في ذلك اليوم حق وصدق خالٍ عن الجور والعبث. والمقصود أنّه لا مُلك في ذلك اليوم إلاّ لَهُ مِن غير دافع ولا منازع... **﴿عالم الغيب والشهادة﴾**: هو العالم بكل المعلومات القادر على كل المقدورات، **﴿وهو الحكيم﴾**: المصيب في أقواله وأفعاله، **﴿الخبير﴾**: النافذ علمه في بواطن الحقائق من غير اشتباه ولا التباس، فإنّ أمر البعث لا يتم إلاّ بقدرة كاملة وعلم تام، كي لا يشتبه المطيع والعاصي والصدّيق والزنديق!. ولهذا يرتبط موضوع الدرس آخره بأوله؛ لأنّ الله عنده مفاتح الغيب!.

10 ـ موقف إبراهيم موقف من مواقف التحكيم

النص

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿75﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿76﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿77﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿78﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿79﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿80﴾ * وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿81﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿82﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ (83) وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (84)
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا
مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (85) وَزَكَرِيَّآ
وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (86) وَإِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (87)
وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (88) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (89)
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ (90) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (91)
* وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم

مَا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿92﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿93﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿94﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿95﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة**﴾: لفظ آزر فاعل مثل آدم، ومعنى تتخذ هنا: تصطفي وتختار، فالمراد: أتعبد أصناماً؟!. والأصنام جمع صنم، وهو الصورة التي تمثل شكل إنسان أوحيوان باعتبار كونه معبوداً. . . ﴿**إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾: الضلال: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحِسِّي والمعنوي. والمبين: الواضح الذي لا يحتاج

إلى تبيين. . . ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين**﴾: الإراءة هنا بمعنى الكشف والتعريف، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدل بجميعها على الحق. والملكوت: مصدر مثل الرحموت والرغبوت، وهو الملك القوي الشديد، والسلطان القاهر المتصرف في السماوات والأرض، وهذا الملكوت خاص بالله سبحانه، فلا يقال ملكوت فلان. ومعناه في الآية نحن نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا وعظمة سلطاننا؛ كشفاً يطلعه على حقائقها، ومعرفة أن لا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا. والموقن: هو العالم علماً لا يقبل الشك، وهو لا يظن.

والمراد هنا: الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته. . . ﴿**فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي**﴾: جنّ عليه الليل: ستره، وأصل الجنّ سَتر الشيء عن الحاسة، ومنه الجن، والجِنّة، والجُنّة، والجَنّة، والجنين، والمجنون، كل ذلك يدل على الاستتار والخفاء بحسب القرائن والأحوال. والكوكب: النجم. قال هذا ربي: يشير إلى الكوكب. . . ﴿**فلما أفل قال لا أحب الآفلين**﴾: أفل النجم أفولاً: غاب، والأفول خاص بالنيرات السماوية. . . ﴿**فلما رأى القمر بازغاً**﴾: البازغ: الشارق في ابتداء شروقه، والبزوغ: أول ظهور الشيء، يقال بزغ ناب البعير وبزغت الشمس. . . ﴿**قال يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون**﴾: البريء فعيل بمعنى فاعل، مأخوذ من يبرِئ بمعنى تفصّى وتنزه ونفي المخالطة بينه وبين المجرور بمن، ومعنى بريء هنا: أنّه لا صلة بينه وبين ما يشركون. . . ﴿**إنّي وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾: وجهت وجهي: صرفته وأدرته فوجهت مشتق من الجهة والوجهة، يقال: وجّهه فتوجّه إلى كذا إذا ذهب إليه، ويقال للمكان المقصود وجْهة. وفطر: خلق، وأصل الفطر الشق. . . ﴿**وحاجّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني**﴾: حاجّه محاجّة، والمحاجّة مفاعلة متصرفة من الحجّة، وهي الدليل المؤيّد للدعوى. . . ولا أخاف ما تشركون به: نفي الخوف من معبوداتهم. . . ﴿**إلاّ أن يشاء ربّي شيئا**﴾: لكن أخاف مشيئة ربّي شيئا مما أخافه، فلذلك أخافه؛ لأنّه قادر، بخلاف آلهتكم فإنّها لا تقدر على شيء أصلا. . . ﴿**وسع ربّي كل شيء علماً**﴾: علمه محيط بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوت ولا في الأرض. . .

﴿**أفلا تتذكرون**﴾؟!: إنكار وتعجيب من غفلتهم، حيث حاجوه وهم على

الباطل وهو على الحق. . . ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم**﴾؟!: كيف استفهام إنكاري لأنّهم دعوه إلى أن يخاف بأس الآلهة فأنكر هو عليهم ذلك. . . ﴿**ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً**﴾: قلب عليهم الحجة، فأنكر عليهم أنّهم لم يخافوا الله حين أشركوا به غيره بدون دليل نصبه لهم، فجمعت كيف الإنكار على الأمرين. والسلطان: الحجة لأنّها تتسلّط على نفس المخاصم، والمعنى ألم يأتكم خبر من الله تجعلونه حجة على صحة عبادتكم الأصنام. . . ﴿**فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾؟: الاستفهام بأيّ للتقرير. والفريق: الطائفة الكثيرة من الناس المتميزة عن غيرها بشيء يجمعها؛ من نسب أو مكان أو عقيدة، مشتق من فرّق إذا ميّز. وأراد بالفريقين هنا: قومه من المشركين، ونفسه ومن تبعه من الموحدين. أحق بالأمن: جدير وحقيق بالأمن، والأمن: ضد الخوف. . .

﴿**الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم**﴾: المراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بالله واستقاموا على منهجه. ومعنى يَلبِسوا: يخلّطوا. والظلم: الاعتداء على حقٍّ صاحبِ الحقِّ، والمراد به: إشراك غير الله مجازاً في اعتقاد الإلهية لغيره، وفي عبادة غير الله. . . ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾: تلك إشارة إلى جميع ما تكلم به إبراهيم في محاجة قومه. وحقيقة الإيتاء: الإعطاء سواء كانت الأشياء الممنوحة ذواتاً أم معاني، يقال: آتاه الله مالاً، وآتاه الله الحكمة. . . ﴿**نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم**﴾: الدرجات في الأصل: تطلق على ما يتوصل بها إلى أعلى، كالسلالم ومراقي الغرف، وتُوسّع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير. . . ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا**﴾: الوهب والهبة: إعطاء شيء بلا عوض. وإسحاق: هو ولد إبراهيم. ويعقوب: ولد إسحاق. كلاً هدينا: كل هؤلاء هديناهم، فالتنوين عوض عن المضاف إليه. . . ﴿**ونوحاً هدينا من قبل**﴾: هدينا نوحاً من قبلهم. . . ﴿**ومن ذريته داوود وسليمان**﴾: من ذرية نوح أو إبراهيم على خلاف في عود الضمير. داوود أبو سليمان. . . ﴿**وأيوب**﴾: الذي ذكر القرآن قصته. . . ﴿**ويوسف**﴾: ولد يعقوب. . . ﴿**وموسى وهارون**﴾: أخوان أرسلهما الله إلى فرعون وإلى بني إسرائيل. . . ﴿**وكذلك نجزي المحسنين**﴾: بمثل هذا الهُدى العظيم نجزي المحسنين. . . ﴿**وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين**﴾: كل هؤلاء

المعدودين من الصالحين. . . ﴿**وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين**﴾: كل هؤلاء فضّلهم الله بالنبوءة. . . ﴿**ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم**﴾: الآباء: الأصول. والذريات: جمع ذرية، وهي الفروع الناشئة من الأصول.

والإخوان: جمع أخ، وهم الأطراف المشتركون في الأصول. والاجتباه: الاصطفاء والاختيار، وهو مشتق من الجبْي، وهو الجمع، ومنه جباية الخراج، وجبي الماء في الحوض الذي سميت منه الجابية، ووجه الاشتقاق أنّ الجمع إنّما يكون لشيء مرغوب في أصله للحاجة إليه، ومعناه هنا: أنّ الله اختارهم فجعلهم موضع هديه، لأنّه أعلم حيث يجعل رسالته ونبوءته وهديه. والصراط المستقيم: هو التوحيد والإيمان بما يجب الإيمان به من أصول الفضائل التي اشتركت فيها الشرائع. . . ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾: الإشارة إلى الهدى الذي هو مصدر مأخوذ من أفعال الهداية الثلاثة المذكورة في الآية فيها. ومعنى حبط: تلف ببطلان ثوابه وضياع ثمرته. . . ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوءة**﴾: الكتاب المنزل على الرسل مكتوباً كالقرآن والتوراة والإنجيل. والحكم: العلم بطرق الخير ودفع الشر، وقد يُفسَّر الحكم بالقضاء بالحق. والنبوءة: الإخبار بحكم الشرع وتبليغه للناس. . .

﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾: فإن يكفر بهذه الثلاث ـ الكتاب، والحكم، والنبوءة ـ هؤلاء المشركون من أهل مكة. وكّلنا بها: وفقنا للإيمان بها ومراعاتها والقيام بحقها، وحقيقة التوكيل إسناد صاحب الشيء تدبير شيئه إلى من يتولى تدبيره ويكفيه كلفة حفظه ورعاية ما به بقاؤه وصلاحه ونماؤه، يقال: وكّلته على الشيء ووكلته بالشيء، فيتعدى بعلى وبالباء. والقوم: هم المؤمنون الذين آمنوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. . ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾: الإشارة إلى الذين أوتوا الكتاب والحكم والنبوءة. والاقتداء: افتعال من القدوة، والقدوة هو الذي يعمل غيرُه مِثْلَ عمله. . . ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾: لست طالب نفع لنفسي. والأجر: ما يأخذه الشخص في مقابل العمل. والذكرى: اسم مصدر الذِّكْر وهو ضد النسيان، والمراد بها هنا: ذكر التوحيد والبعث والثواب والعقاب. . .

﴿وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾: القدْر في اللغة: مقياس الشيء وضابطه، ومعناه هنا: ما قدروا الله قدره الحق بالمعرفة الصحيحة والتعظيم اللائق به سبحانه وتعالى، حين قالوا هذه المقولة المنكرة الشنيعة: ما أنزل الله على بشر من شيء!. **﴿قل مَنْ أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾**: الكتاب الذي جاء به موسى: التوراة. والنور: الضياء حسيّاً أو معنويّاً كما هنا. والهدى: ضد الضلال، وأطلق هنا على الطريق الموصل إلى الحق. والقراطيس: جمع قرطاس، وهو الصحيفة من أي شيء كانت من رَقٍّ أو كاغط أو خرقة. والإبداء: الإظهار، وهو ضد الإخفاء... **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾**: علمكم الله العلم الذي لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم من قبل... **﴿قل الله﴾**: قل أنزل الله... **﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾**: اتركهم في باطلهم يلعبون كالأطفال الذين لا يعلمون حقيقة ما يعملون... **﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه﴾**: الإشارة إلى القرآن الذي أنزله الله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

مبارك: اسم مفعول مشتق من البَرَكَة، وهي النماء والزيادة والسعة النافعة، ومن معاني المادة الثبات والاستقرار. ومصدق الذي بين يديه من الكتب التي سبقته... **﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾**: أم القرى: مكة. ومن حولها: بقية القرى الأقرب فالأقرب... **﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾**: يصدّقون موقنين بوقوعها وما فيها من الثواب والعقاب... **﴿يؤمنون به﴾**: يصدقون بالقرآن وبما جاء فيه من الوعد والوعيد... **﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾**: يؤدونها كاملة بما لها من أركان وشروط وآداب؛ لأنّها العنوان على صحة الإيمان... **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾**: الاستفهام إنكاري، فهو في معنى النفي، ومعناه: لا أحد أظلم من هؤلاء. وأظلم أفعل تفضيل لظالم، فهؤلاء أظلم من كل ظالم. والافتراء: الاختلاق، والاختلاق هنا: افتراء الكذب على الله بأنّ الله أمرهم بما هم عليه من الشرك والضلال... **﴿أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾**: هذا نوع آخر ممن هم أظلم الظالمين، وهو من يدّعي النبوءة كذباً وتلاعباً بعقول السفهاء... **﴿ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله﴾**: نوع ثالث كذلك، وهو من يقول أنا أستطيع أن أشرع وأحلل وأحرم، وهي تقوّلاتٌ وتفاهات هتف بها كثير

من حتالات البشر في القديم والحديث، ولا زلنا نسمع هذه الترهات من ذوي الإفك والقول الخبيث. . .

﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت**﴾: الخطاب للرسول ثم لكل من سمعه. والظالمون يشمل أولئك المذكورين في الآية قبلُ، ويشمل جميع الظالمين المشركين. وغمرات الموت: آلامُ نزع الروح، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء فلا يتركِ للمغمور مخلصاً، وغمرة الشيء: شدته ومزدحمه. . . ﴿**والملائكة باسطوا أيديهم**﴾: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح. وبسط الأيدي: مدُّها لأخذ الأرواح. . . ﴿**أخرجوا أنفسكم**﴾: هذا قول الملائكة لهم عند قبض أرواحهم. . . ﴿**اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾: اليوم في اللغة: الزمن المحدود بصفة أو عمل يقع فيه كأيام الأسبوع، والمراد به يوم نزع الأرواح عندما يعلم الظالم مصيره في النهاية. وتجزون: تعطون جزاءً، والجزاء: عوض العمل وما يقابل به من أجر أو عقوبة. وعذاب الهون: عذاب الهوان والذل والكآبة وسوء المصير.

وتقولون على الله: تكذبون عليه. وغير الحق: الافتراء والاختلاق. والاستكبار: الإعراض في قلة اكترات. . . ﴿**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة**﴾: والمجيء هنا: الحصول في المِكنة والمصير إلى ما كانوا يحسبون أنّهم لا يصيرون إليه من الرجوع إلى الله في النهاية، وليس الموت ذهاباً إلى غير غاية!. وفرادى: جمع فرد بمعنى المنفرد. والخلق أول مرة: إيجادهم من العدم، والممثل به إحياؤهم بعد الموت. ﴿**وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم**﴾: التخويل: التفضل بالعطاء، وأصله إعطاء الخول، وهو الخدم وما يساعد على الراحة ورغد العيش، ويعبر بالترك وراء الظهر عما فات الإنسان التصرف فيه والانتفاع به؛ لفقده إيّاه أو بُعْدِهِ عنه. . . ﴿**وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء**﴾: الشفعاء: الذين قالوا عنهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. والزعم: القول الباطل والاعتقاد الفاسد، فيشتمل ما كان على تعمد للباطل، أو كان عن سوء اعتقاد. وفيكم شركاء: يستحقون منكم العبادة. . . ﴿**لقد تقطّع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون**﴾: تقطّع: تفرّق وانفصل وتمزّق بعضه عن بعض. والبين: ظرف مكان دال على مكان الاجتماع والاتصال فيما يضاف هو إليه.

وضلّ: ضد اهتدى، والمعنى هنا: جَهِلَ شفعاؤكم مكانكم لما تقطع بينكم فلم يهتدوا إليكم ليشفعوا لكم.

مبحث الإعراب

﴿**وإذ قال إبراهيم**﴾ جملة متصلة بما قبلها بالعطف، وجملة قال إبراهيم في محل جر مضافة إلى الظرف، والظرف معمول بعامل مقدر، والتقدير: واذكر وقت قول إبراهيم. ﴿**لأبيه**﴾ متعلق بقال، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**آزر**﴾ عطف بيان لأبيه مجرور بالفتحة لمنعه من الصرف على وزن آدم. ﴿**أتتخذ**﴾ الهمزة للاستفهام، تتخذ فعل مضارع، والفاعل ضمير (أنت) يعود على أبيه آزر. ﴿**أصناماً**﴾ مفعول أول. ﴿**آلهة**﴾ مفعول ثانٍ، وجملة أتتخذ في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أراك**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير (أنا) للمتكلم وهو إبراهيم، والضمير فيه مفعول به. ﴿**وقومك**﴾ معطوف على الضمير المفعول، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**في ضلال**﴾ متعلق بأراك. ﴿**مبين**﴾ نعت لضلال، وجملة أراك في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي أراك بيانية. ﴿**وكذلك**﴾ الواو للعطف، والكاف بمعنى مثل، وهو في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**نُري**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير (نحن). ﴿**إبراهيم**﴾ مفعول أول. ﴿**ملكوت**﴾ مفعول ثان. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى ملكوت. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات.

﴿**وليكون**﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، واسم يكون ضمير يعود على إبراهيم. ﴿**من الموقنين**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون، وأن المضمرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، وهو معطوف على قوله: وكذلك نُري. ﴿**فلمّا**﴾ الفاء للتفريع، ولمّا حينية شرطية. ﴿**جنّ**﴾ فعل ماض. ﴿**عليه**﴾ متعلق بجنّ. ﴿**الليل**﴾ فاعل جنّ. ﴿**رأى**﴾ جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم. ﴿**كوكباً**﴾ مفعول به. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم، وهو جواب لسؤال مقدّر. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ربّي**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ورب مضاف وياء المتكلم مضاف

إليه، وجملة هذا ربّي في محل نصب مقول القول. ﴿**فلمّا أفل**﴾ تعقيب على ما سبق، وإعرابها مثل فلمّا جنّ عليه الليل. ﴿**قال**﴾ جواب لمّا. ﴿**لا أحب**﴾ فعل مضارع منفي بلا. ﴿**الآفلين**﴾ مفعول به، وجملة لا أحب في محل نصب مقول القول. ﴿**فلمّا رأى القمر**﴾ مرتب على ما قبله، ورأى فعل الشرط، والقمر مفعول به. ﴿**بازغاً**﴾ حال من القمر. ﴿**قال هذا ربّي**﴾ جواب لمّا، وإعرابه مثل ما سبق. ﴿**فلمّا أفل**﴾ إعرابه كذلك. ﴿**قال لئن**﴾ اللام للقسم، وإن شرطية جازمة. ﴿**لم يهدني**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿**ربّي**﴾ فاعل يهد مضاف إليه ياء المتكلم، وجملة لم يهدني في محل جزم فعل الشرط. ﴿**لأكوننّ**﴾ اللام واقعة في جواب القسم، وأكوننّ فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، واسم لأكوننّ ضمير (أنا) يعود على إبراهيم. ﴿**من القوم**﴾ متعلق بمحذوف خبر أكوننّ. ﴿**الضالين**﴾ نعت للقوم، وجواب القسم سد مسد جواب الشرط كما هو معلوم. ﴿**فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي**﴾ إعرابها مثل ما سبق في إعراب فلّما رأى القمر بازغاً.

﴿**هذا أكبر**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تعليلية تبين فساد ما هم عليه. ﴿**فلمّا أفلت**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**قال**﴾ جواب لمّا. ﴿**ياقوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً. ﴿**إنّي بريء**﴾ إنّ واسمها وخبرها في محل نصب مقول القول. ﴿**مما**﴾ متعلق ببريء. ﴿**تشركون**﴾ جملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**وجّهت**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**وجهي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وحركت ياء المتكلم بالفتح تخفيفاً. ﴿**للذي**﴾ متعلق بوجهت. ﴿**فطر**﴾ فعل ماض. ﴿**السماوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**حنيفاً**﴾ حال من ضمير المتكلم في وجّهت. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما مثل ليس. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**من المشركين**﴾ متعلق بمحذوف خبر ما، والجملة في محل نصب حال معطوفة على قوله (حنيفاً).

﴿**وحاجّه قومه**﴾ جملة من الفعل والفاعل معطوفة على قوله: إنّي وجهت وجهي، والضمير في قوله: وحاجّه مفعول به، والفاعل قومُه، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قال أتحاجّوني في الله**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه همزة

الاستفهام، وحذفت نون الجمع تخفيفاً وبقيت نون الوقاية، في الله متعلق بتحاجوني. ﴿**وقد**﴾ الواو للحال، وقد للتحقيق. ﴿**هداني**﴾ فعل ماض، وياء المتكلم مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل نصب حال من الضمير المنصوب في قوله: أتحاجّوني. ﴿**ولا أخاف**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وهو معطوف على قوله: وقد هداني، وفاعله ضمير (أنا) يعود على إبراهيم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**تشركون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بتشركون. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**أن يشاء**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ﴿**ربّي**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم مضافة إلى ربّ. ﴿**شيئاً**﴾ مفعول به، والاستثناء هنا مستثنى من أهم الأوقات. ﴿**وسع ربّي**﴾ فعل وفاعل تعليل لما سبق.

﴿**كُلّ**﴾ مفعول به. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**علما**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام داخلة على فعل مقدّر، أي: أتعرضون عن التأمّل، والفاء لترتيب ما قبلها، أي: فلا تتفكرون فلا ﴿**تتذكرون**﴾؟. والفعل منفي بلا، والجملة معطوفة بالفعل المقدر، والتقدير: أتعرضون عن التأمل فلا تتذكّرون لتعلموا حقيقة الأمر. ﴿**وكيف**﴾ الواو للعطف، كيف اسم استفهام مبنية على الفتح في محل نصب حال من ضمير ﴿**أخاف**﴾. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول أخاف. ﴿**أشركتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**ولا تخافون**﴾ الواو للحال، ولا تخافون فعل منفي بلا، والجملة خبر لمبتدإ مقدّر، والجملة في محل نصب حال من الفاعل في أشركتم الأول. ﴿**أنّكم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**أشركتم**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر أنّ. ﴿**بالله**﴾ متعلق بأشركتم، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بمن المقدرة، والتقدير: ولا تخافون من إشراككم.

﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول أشركتم. ﴿**لم ينزل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**به عليكم**﴾ متعلقان بينزل. ﴿**سلطاناً**﴾ مفعول بينزل، وجملة لم ينزل صلة ما. ﴿**فأيُّ**﴾ الفاء للترتيب، وأيُّ اسم استفهام مبتدأ. ﴿**الفريقين**﴾ مضاف إلى أيّ مجرور بالياء. ﴿**أحقُّ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**بالأمن**﴾ متعلق بأحق. ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ جملة شرطية جوابها محذوف، أي: إن كنتم تعلمون فأخبروني أيّ الفريقين؟. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع

مبتدأ. وجملة ﴿**آمنوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**ولم يلبسوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل، والجملة معطوفة على آمنوا. ﴿**إيمانهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بظلم**﴾ متعلق بيلبسوا. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ ثانٍ. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**الأمن**﴾ مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة خبر أولئك، وأولئك وخبرها خبر الذين آمنوا. ﴿**وهم مهتدون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على قوله: لهم الأمن. ﴿**وتلك**﴾ في محل رفع مبتدأ معطوف على قوله: وحاجّه قومُه. ﴿**حجّتنا**﴾ خبر المبتدإ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**آتيناها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**إبراهيم**﴾ مفعول ثان. ﴿**على قومه**﴾ متعلق بحجتنا، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة آتيناها حال من حجّتنا. ﴿**نرفع**﴾ فعل مضارع، والفاعل (نحن). ﴿**درجات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى درجات. ﴿**نشاء**﴾ فعل مضارع، وفاعله (نحن)، والجملة صلة مَنْ.

﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حكيم**﴾ خبر إنّ. وكذلك ﴿**عليم**﴾. ﴿**ووهبنا**﴾ جملة الفعل والفاعل معطوفة على قوله: آتيناها إبراهيم. ﴿**له**﴾ متعلق بوهبنا. ﴿**إسحاق**﴾ مفعول به. ﴿**ويعقوب**﴾ معطوف على إسحاق. ﴿**كلاًّ**﴾ مفعول مُقدَّم. ﴿**هدينا**﴾ فعل وفاعل، ومفعوله (كُلاًّ). ﴿**ونوحاً**﴾ مفعول مقدم. ﴿**هدينا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من قبلُ**﴾ متعلق بهدينا، وقبلُ مبني على الضم في محل جر لحذف المضاف إليه ونية معناه. ﴿**ومن ذريته**﴾ متعلق بمحذوف حال من داوود. ﴿**داوود**﴾ معطوف على نوح، أي: داوود حالة كونه من ذرية نوح. ﴿**وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون**﴾ معطوفات على داوود. ﴿**وكذلك**﴾ الواو للعطف، والكاف بمعنى مثل نعت لمصدر محذوف، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**نجزي**﴾ فعل مضارع، وفاعله (نحن). ﴿**المحسنين**﴾ مفعول به منصوب بالياء.

﴿**وزكريّاءَ ويحيى وعيسى وإلياس**﴾ كلها منصوبة بالعطف على داوود. ﴿**كُلٌّ**﴾ مبتدأ. ﴿**من الصالحين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة اعتراضية. ﴿**وإسماعيلَ واليسَع ويونس ولوطاً**﴾ كذلك معطوفة على ما قبلها. ﴿**وكُلاًّ**﴾ مفعول مقدم. ﴿**فضلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على العالمين**﴾ متعلق بفضلنا، والجملة

اعتراضية. ﴿ومن آبائهم﴾ معطوف على قوله كلاً هدينا، والتقدير: وهدينا من آبائهم. ﴿وذرياتهم وإخوانهم﴾ معطوف على آبائهم. ﴿واجتبيناهم﴾ معطوف على هدينا المقدّر. ﴿وهديناهم﴾ كذلك. ﴿إلى صراط﴾ متعلق بهديناهم. ﴿مستقيم﴾ نعت لصراط. ﴿ذلك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿هدى﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿الله﴾ مضاف إلى هدى. ﴿يهدي﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿به﴾ متعلق بيهدي. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول يهدي. ﴿يشاء﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. ﴿من عباده﴾ متعلق بيهدي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ولو﴾ الواو للحال، لو حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. ﴿أشركوا﴾ فعل وفاعل وهو فعل الشرط. ﴿لحبط﴾ اللام واقعة في جواب الشرط، حبط فعل ماض. ﴿عنهم﴾ متعلق بحبط. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل حبط. ﴿كانوا﴾ كان واسمها. وجملة ﴿يعملون﴾ خبرها، وجملة كانوا يعملون صلة ما، وجملة لحبط عنهم جواب الشرط، وجملة ولو أشركوا في محل نصب حال من المذكورين سابقاً. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الذين﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿آتيناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿الكتاب﴾ المفعول الثاني لآتينا. ﴿والحكم﴾ معطوف على الكتاب. ﴿والنبوءة﴾ كذلك. ﴿فإن﴾ الفاء للتعقيب، إنْ حرف شرط جازم. ﴿يكفر﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون. ﴿بها﴾ متعلق بيكفر. ﴿هؤلاء﴾ في محل رفع فاعل يكفر.

﴿فقد﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، قد للتحقيق. ﴿وكّلنا﴾ فعل وفاعل. ﴿بها﴾ متعلق بوكّلنا. ﴿قوماً﴾ مفعول به، وجملة فقد وكّلنا في محل جزم جواب الشرط. ﴿ليسوا﴾ ليس واسمها. ﴿بها﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿بكافرين﴾ مجرور بحرف الجر الزائد لفظاً ومنصوب محلاً، لأنّه خبر ليس. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الذين﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿هدى الله﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فبهداهم﴾ الفاء للتفريع، بهداهم متعلق باقتده، والضمير فيه مضاف إليه، ﴿اقتده﴾ فعل أمر مبني على حذف الياء اتصلت به هاء السكت، وفاعله (أنت). ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿لا أسألكم﴾ فعل مضارع منفي بلا، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير المتكلم (أنا). ﴿عليه﴾ متعلق بأسألكم. ﴿أجراً﴾ المفعول الثاني لأسأل. ﴿إنْ﴾ نافية. ﴿هو﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿إلاّ﴾ أداة

استثناء مفرّغ. ﴿**ذكرى**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على الألف. ﴿**للعالمين**﴾ متعلق بذكرى. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**قدروا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الله**﴾ مفعول. ﴿**حق قدره**﴾ مفعول مطلق. قدره مضاف إلى حقّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إذ**﴾ ظرف متعلق بالفعل قبله. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على بشر**﴾ متعلق بأنزل.

﴿**من شيء**﴾ جُرّ بحرف الجر الزائد وهو مفعول به في محل نصب، وجملة ما أنزل الله في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به، وجملة من أنزل الكتاب في محل نصب مقول القول. ﴿**الذي**﴾ في محل نصب نعت للكتاب. ﴿**جاء به**﴾ فعل ماض. به متعلق بجاء. ﴿**موسى**﴾ فاعل جاء، وجملة جاء صلة الذي. ﴿**نوراً**﴾ منصوب على الحال من الكتاب. ﴿**وهدى**﴾ معطوف على نوراً. ﴿**للناس**﴾ متعلق بهدًى. ﴿**تجعلونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**قراطيس**﴾ المفعول الثاني، وجملة تجعلونه في محل نصب نعت سببي للكتاب. ﴿**تبدونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب نعت لقراطيس. ﴿**وتخفون**﴾ معطوف على تبدونها. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول به. ﴿**وعلمتم**﴾ الواو للحال، والضمير في علمتم نائب الفاعل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول ثانٍ لعلمتم. ﴿**لم تعلموا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل، وجملة لم تعلموا صلة ما. ﴿**أنتم**﴾ بدل من الضمير النائب عن الفاعل. ﴿**ولا آباؤكم**﴾ معطوف على أنتم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قل الله**﴾، قل فعل أمر. الله جواب من أنزل الكتاب؟. والمعنى: أنزل الكتاب الذي جاء به موسى الله. ﴿**ثمَّ**﴾ حرف عطف. ﴿**ذرهم**﴾ فعل أمر، والضمير المتصل به مفعول.

﴿**في خوضهم**﴾ متعلق بذرهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يلعبون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب حال من الضمير المنصوب. ﴿**وهذا كتاب**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على جملة قل الله. ﴿**أنزلناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل نصب حال من اسم الإشارة. ﴿**مبارك**﴾ خبر ثانٍ. ﴿**مصدق**﴾ خبر آخر. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى مصدق. ﴿**بين**﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة الذي.

﴿**يديه**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالياء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولتنذر**﴾ الواو للعطف، واللام للتعليل، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير المخاطب (أنت)، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل معطوف على مصدر مقدر، والتقدير: أنزلناه لفوز المؤمنين ببركته، ولإيمان أهل الكتاب بتصديقه، ولإنذار أهل مكة ومن حولها. ﴿**أمَّ**﴾ مفعول به. ﴿**القرى**﴾ مضاف إلى أُمّ مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**ومن**﴾ في محل نصب معطوف على أُم القرى. ﴿**حولها**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة متعلق بمحذوف صلة مَنْ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والذين يؤمنون**﴾ الذين في محل رفع مبتدأ، وجملة يؤمنون صلة الذين. ﴿**بالآخرة**﴾ متعلق بيؤمنون.

﴿**يؤمنون به**﴾ الجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**على صلاتهم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يحافظون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، والجملة معطوفة على قوله يؤمنون به. ﴿**ومَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أظلمُ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**افترى**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، وجملة افترى صلة مَنْ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافترى. ﴿**كذباً**﴾ مفعول به. ﴿**أوْ قال**﴾ معطوف على افترى. ﴿**أُوحي إليّ**﴾ فعل ماض مبنيٌّ للمجهول، ونائب الفاعل الجار والمجرور. ﴿**ولم يُوح**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم. ﴿**إليه**﴾ متعلق بيوح. ﴿**شيءٌ**﴾ نائب الفاعل، والجملة معطوفة على أوحي إليّ. ﴿**ومَنْ قال**﴾ جملة معطوفة على قوله: أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء. ﴿**سأنزل**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم (أنا). ﴿**مثل**﴾ مفعول به. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلي مثل. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما، وجملة سأنزل في محل نصب مقول القول.

﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، ولو شرطية. ﴿**ترى**﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير المخاطب. ﴿**إذ**﴾ ظرف في محل نصب متعلق بترى. ﴿**الظالمون**﴾ مبتدأ مرفوع بالواو. ﴿**في غمرات**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الموت**﴾ مضاف إلى غمرات. ﴿**والملائكة**﴾ مبتدأ والواو واو الحال. ﴿**باسطوا**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو. ﴿**أيديهم**﴾ مضاف إلى اسم الفاعل، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة في

محل نصب حال من الظالم في غمرات الموت. ﴿**أخرجوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**أنفسكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. والجملة مقول لقول مقدّر ﴿**اليوم**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بما بعده. ﴿**تجزون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة فيه نائب الفاعل. ﴿**عذاب**﴾ مفعول به. ﴿**الهون**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**بما**﴾ متعلق بتجزون، والباء سببية، وما مصدرية. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها.

﴿**تقولون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان. ﴿**على الله**﴾ متعلق بتقولون. ﴿**غير**﴾ نعت لمصدر مقدر، أي: قولاً غير. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على كنتم تقولون. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام موطّئة للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**جئتمونا**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**فرادى**﴾ حال من الضمير المرفوع. ﴿**كما**﴾ الكاف لتشبيه الخلق الجديد بالخلق الأول، فهو في موضع المفعول المطلق، وما المجرورة بالكاف مصدرية، والتقدير: جئتمونا معادين مخلوقين كخلقكم أول مرّة. ﴿**خلقناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**أول**﴾ ظرف منصوب. ﴿**مرة**﴾ مضاف إليه. ﴿**وتركتم**﴾ فعل وفاعل وهو معطوف على قوله: جئتمونا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول تركتم. ﴿**خولناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وراء**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة متعلق بتركتم. ﴿**ظهوركم**﴾ مضاف إلى وراء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما نرى**﴾ فعل مضارع منفي بما، والفاعل ضمير (نحن). ﴿**معكم**﴾ ظرف متعلق بنرى. ﴿**شفعاءكم**﴾ مفعول به والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب نعت لشفعاء. ﴿**زعمتم**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**فيكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**شركاء**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر أنَّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول لزعمتم. ﴿**لقد**﴾ مثل لقد التي قبلها. ﴿**تقطّع**﴾ فعل ماض، وفاعله مقدر. ﴿**بينكم**﴾ ظرف متعلق بتقطّع. ﴿**وضلّ**﴾ معطوف على تقطّع. ﴿**عنكم**﴾ متعلق بضل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل ضلّ. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. وجملة ﴿**تزعمون**﴾ خبر كان، وجملة كنتم تزعمون صلة ما، والجملة معطوفة على قوله: لقد تقطّع بينكم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إنّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾: اتصلت هذه الجمل بما قبلها بالعطف بالواو ليقارن بَين دَعْوَةِ الشرك وبين دعوة إبراهيم في تحقيق التوحيد وإبطال الشرك؛ بذكر مجادلة أشْهَرِ رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة البالغة الدامغة، والمنَاظرة القويمة الساطعة؛ ولأنّها أعدل حجة في تاريخ الدين، إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجّة على المشركين من العرب، بأنّ أباهم الذي ينتسبون إليه لم يكن مشركاً ولا مُقرّاً للشرك في قومه، وأعظم حجة للرسول ﷺ، إذ جاءهم بالأمر بالإقلاع عن الشرك، ولهذا جاء تذكير هذه القصة على لسان هذا الرسول ﷺ في هذا الكلام الصريح. النموذج الصحيح بكلمة الحق تقال حينما يجب أن تقال، فهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحس بفطرته ما في عبادة الأصنام من ضلال، فلا يمنعه حبه لأبيه وتوقيره له، أن يكشف له عما في اتخاذ الأصنام آلهة من ضلال. فالقضية هنا هي قضية العقيدة، وهي فوق الأبوة والبنوة وفوق المجاملة والمداراة، وقد تجوز المجاملة في القضايا الجزئية الشخصية فأما في العقيدة فلا. والإفصاح هنا خير؛ لأنّه قد يَرُدُّ الضالين إلى الطريق القويم. . .

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾: بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة، وعلى هذا النحو من إنكار الباطل وتزييف الزائف، نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ونطلعه على الأسرار الكامنة في صَمِيم الكون، ونكشف له من الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، لينتقل من مجرد الإنكار على عبادة الآلهة إلى اليقين الصحيح بالله الحق. وهذا هو الطريق الفطري اليسير الهين؛ وعي لا يسير وراء التقليد، ونظر يكشف الزيف، وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب، ويتبع المشاهد فتنطق له بسرها المفتوح لأصحاب البصائر المحجوب عن الغافلين الساهين. والاستفهام في أتتخذ أصناماً آلهة؟. استفهام إنكار وتوبيخ. وتتخذ صيغة افتعال تدل على التكلف والمبالغة في تحصيل الفعل، وهو إشعار بأنّ ذلك شيء مصطنع مفتعل، وأنّ الأصنام ليست أهلاً للإلهية، وفي ذلك تعريض بسخافة عقله وعقول قومه أن يجعل إلهه شيئا هو صنعه. وقد تضمن ما حكي من كلام إبراهيم لأبيه أنّه أنكر

عليه شيئين: أحدهما: جعله الصور آلهة مع أنّها ظاهرة الانحطاط. وثانيهما: تعدد الآلهة، للجمع في قوله: أتتخذ أصناماً آلهة.

وجملة إنّي أراك وقومك في ضلال مبين معللة ومبينة للإنكار. ووصْفُ الضلال بمبين نِدَاءٌ على زيادة فساد عقولهم حيث لم يتفطنوا لضلالهم مع أنّه كالمشاهد المرئي. وقوله: وكذلك نري إبراهيم... الخ إشارة إلى حجّة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها، والمعنى: نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا كشفاً يُطلعه على حقائقها، ومعرفة أن لا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا، وذلك ليعلم علماً كاملاً، وليكون من الموقنين. وقوله: وليكون من الموقنين أبلغ من أن يقال: وليكون موقناً... **﴿فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين﴾**: هذا مفرع على ما سبق في قوله: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ لأنّ العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتصال بين المعطوف والمعطوف عليه، لما في معنى الفاء من التفريع والتَّسَبُّب.

إنّها صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك والإنكار لما يعبد أبوه وقومه، وقد أصبحت قضية العقيدة هي التي تشغل بالَه، وتملأ عالَمَه، وكأنّما أصبح منعزلاً عن العالم ليعيش مع نفسه وخواطره وتأمُّلاته. فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي: فهو بنوره وارتفاعه وبزوغه أقرب أن يكون إلها و مَظْهَراً لإلهٍ، وهذا ما اغتر به قومه فعبدوه من دون الله. فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين: فهكذا تنطق الفطرة السليمة الرشيدة: إنّ الإله لا يغيب وليس جسماً متحركاً من مكان إلى آخر. فالعقل السليم يحكم على كل متحرك بأنّ له محرِّكا، ولا يكون متحركا يتحرك من ذاته، وهذه بداهة ضرورية يدركها العاقل صاحب العقل الرشيد. إنّه منطق فطري لا يستثير القضايا المنطقية ولا الأشكال والضروب.. إنماينطق مباشرة في يُسْرٍ وجزمٍ دون لفٍّ ودوران في متاهات الدروب، فالصلة بين الإنسان الرشيد وبين ربّه هيٍ صلة الحب، والآصرة هي آصرة القلب، وفطرةُ إبراهيم السليمة لا تحب الآفلين، ولا تتخذ منها إلها يُعبد من دون الله ربّ العالمين... **﴿فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربيّ لأكوننّ من القوم الضالّين﴾**: إنّ التجربة في نفس إبراهيم تتكرر وتترقّى من الكوكب إلى القمر، ولكن الحقيقة التي في نفسه لا تتغيّر ولا تتبدّل. إنّ هذا

البازغ قد أفل، وهذا لا يصلح أن يكون إلهاً من جهتين: من جهة بزوغه ومن جهة أفوله، لأنّه في حاجة إلى من يظهره، وفي حاجة إلى من يُخْفِيهِ، والمحتاج لا يكون إلهاً، وهذا أمر لا شك فيه.

وهنا يحسّ إبراهيم أنّه في حاجة إلى العون من ربّه الذي يبحث عنه، ربّه الذي يجده في قلبه والذي يُحبُّه، ولكنه بعد لم يلقه، يحس إبراهيم أنّه مُضَيَّعٌ ضالٌّ إن لم يدركه ربّه بهدايته، وإن لم يمدد إليه يده ويكشف له عن طريقه، قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين!.. **﴿فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي هذا أكبر فلمّا أفلت قال ياقوم إنّي بريء مما تشركون﴾**: إنّها التجربة الثالثة مع أضخم مصادر الضوء وأكبرها، وقد ترقى في البحث إلى الغاية القصوى؛ ليصل به إلى الدليل النهائي مع نفسه والناس، وفي المقدمة أبوه وقومه الذين انخدعوا بهذه الأجرام السماوية، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب، ويصورون لها التماثيل في الأرض، وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم. هنا تظهر الحقيقة لإبراهيم واضحة جلية، ويتم الاتصال بين الفطرة السليمة الصادقة وبين الله المالك الحق، هنا يجد إبراهيم إلهه، ولكنه لا يجده في كوكب يلمع، ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع، إنّه يجد خالقاً لا مخلوقاً، محركاً لا متحرّكاً، غنياً لا محتاجاً، حاضراً لا غائباً، وهنا يصرّح بالقولة الواضحة الحقّة: إنّي عرفت، إنّي وجدت، إنّي اهتديت، وجّهت وجهي لله مستقيماً إليه، عائداً عن الشرك ومَن إليه.

إنّها الكلمة الفاصلة واليقين الجازم، والاتجاه الأخير، فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة ولا انتظار لآراء الآخرين، فيما استقر عليه العقل واطمأنّ إليه القلب من الأمن واليقين. والآن وهو مطمئنّ إلى يقينه مستريح، يجيء قومه ليجادلوه فيما اهتدى إليه من يقين، وليخوّفوه آلهتهم التي تنكّر لها وهم عليها عاكفون... **﴿وحاجّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً وسع ربّي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون﴾**: إنّ الفطرة حين تنحرف وتضل تتمادى في ضلالها حتى ليعسر عليها أن تتوب، وهؤلاء قوم إبراهيم يعبدون أصناماً آلهة، فلا يتفكرون ولا

يتدبرون فيما صدم فطرة إبراهيم، حتى إذا قادته فطرته إلى أول الطريق، وقادته بصيرتُه ونظرُه في صفحة الوجود إلى الحقيقة الكبرى التي يفيض بها ضمير الوجود، لم يكن ذلك هادياً لهم ولا مُنَبّهاً لفطرتهم المنحرفة، بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه، وهم على هذا الوهن الظاهر والضلال المبين؛ ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله واطمأنّ إليه، قويٌّ قويٌّ، قال أتحاجوني في الله وقد هداني؟!: إنّه اطمئنان المؤمن، وإنّها صراحة الإيمان.

إنّ إبراهيم ليحسّ يدَ الله التي أخذت بيمينه، ويرى نورَ الله الذي كشف له عن طريقه، فلا يطلب وراء هذا حجة، ولا يجد وراء هذا برهاناً: أتحاجوني في الله وقد هداني؟!. لقد أخذ بيدي وقادني، فهو موجود وهذا هو دليل الوجود؛ الدليل الذي ينبع من داخل الضمير وتنطق به طبيعة التكوين، ويبدو بديهية مستمدة من طبيعة الوجود لا تحتاج إلى تدليل. وعطفت جملة وحاجّه قومه بالواو دون الفاء لتكون مستقلّة بالإخبار بمضمونها، مع أنّ تفرع مضمونها على ما قبلها معلوم من سياق الكلام. وجملة قال أتحاجوني في الله جواب محاجتهم، ولذلك فصلت على طريقة المحاورات. والاستفهام إنكارٌ عليهم، وتأييس من رجوعه إلى معتقدهم. وجملة وقد هداني حال مؤكدة للإنكار.

ولا أخاف ما تشركون به: هذا تأكيد آخر للإنكار، وهو يؤذن بأنّهم حاجوه في التوحيد، وخوّفوه بَطْشَ آلهتهم ومسهم إيّاه بسوء، والمعنى: وكيف يخاف من اطمأنّ إلى الله؟ كيف يخاف شيئا في الحياة كلها، فضلا على هذه الآلهة المنحوتة من حجر أو طين؟!. ولكن إبراهيم في عمق إيمانه واستسلام وجدانه لا يريد أن يجزم بشيء إلاّ مرتكناً إلى مشيئة الله. ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربيّ شيئا: إلاّ إذا قدّر الله في مشيئته شيئاً لا أعرفه ولا أحدّده. فلا يجزم إذَنْ بشيء إلاّ أن يفوض الأمر في مستقبله لله، الذي يعلم كل شيء، ويطلع على المستقبل وما يكون فيه. وسع ربّي كل شيء علماً: الأصل في هذا التعبير أن يقال: وسع عِلْمُ ربّي كلَّ شيء، ولكن عدل به عن هذا النسق، وأسند الفعل فيه إلى الله لا إلى علمه، وجعل لفظ العلم تمييزاً لا فاعلاً؛ ليكون الوسع والإحاطة والشمول لله تعالى. وجملة وسع ربّي كل شيء علماً استئناف بياني؛ لأنّه قد يختلج في نفوسهم: كيف يشاء ربّك شيئا تخافه، أنت تزعم أنّك قائم بمرضاته، ومؤيد

لدينه؟. فما هذا إلاّ شك في أمرك!. فكذلك فصلت الجملة عما قبلها، فيتضح من هذا الجواب بأن يقال: إنّما لم آمَنْ إرادة الله بي ضراً ـ وإن كنت عبدَه، وناصر دينه ـ لأنّه أعلم بحكمة إلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده. وهذا مقام أدب مع الله تعالى!. وجملة أفلا تتذكرون متصلة بما قبلها بفاء التعقيب. وقدّمت همزة الاستفهام على فاء العطف، والتقدير: أتغفلون عن التأمّل في أنّ آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع ولا ضر؟. فلا تتذكرون أنّها غير قادرة على إضراري!.

وفي إيراد التذكّر دون التفكر ونظائره إشارة إلى أنّ أمْرَ أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلاّ على التذكر. وقوله تعالى... ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾: هذا هو منطق المؤمن الواثق المدرك لطبيعة الأمور؛ إن كان أحد قَمِيناً بالخوف فليس هو إبراهيم؛ إذ كيف يخاف آلهةً من حجر أو طين، ولا يخافون هم أنّهم أشركوا بالله أشياء مجردة من القوّة والسلطان، ولم يكن لعابدها من حجّةٍ ولا برهان؟!. فأيّ الفريقين إِذَنْ أحق بالأمن؟. الذي يؤمن بالله ويكفر بهذه الأشياء، أم الذي يشرك بالله ويتخذ الأصنام من دون الله أولياء؟ أي الفريقين أحق بالأمن، لو كان لكم شيء من العلم والفهم؟!!.

هنا ينزل الجواب من الملإ الأعلى ويجيء الفرار من صاحب الأمر الأخير... ﴿**الذين آمنوا ولم يَلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾: الذين آمنوا إيماناً خالصاً غير مشوب بشرك ـ ويعبر عن الشرك هنا بالظلم للدلالة على طبيعته وحقيقته ـ هؤلاء لهم الأمن حقاً وملكاً، وهم مهتدون إلى الذي يطمئنون إليه، ويأمنون في جواره وفي رضوانه. ويعقب على حوار إبراهيم مع قومه... ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم**﴾: فيقر هذه الحجة، ويقرّر أنّها إلهام الله لإبراهيم، ويأخذ من الإقرار والتقرير نتيجتهما؛ نرفع درجات من نشاء. وكذلك رفع إبراهيم بإنجائه من طريقة قومه، وهدايته إلى طريق الله، وإلهامه الحجة البالغة، ونصره على قومه في الجدال. إنّ ربّك حكيم يضع الأمور في نصابها، عليم بحقائق الأمور؛ تعقيباً على مواطن الحكمة والعلم في هذا القَصَصِ على طريقة القرآن

الكريم في التعقيب!.. **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل﴾**: جملة ووهبنا متّصلة بما قبلها بواو العطف؛ لأنّ مضمونها تكرمة وتفضيل، والمقصود منها إبطال الشرك وإقامة الحجج على فساده. والوهب هنا: مجاز في التفضّل والتيسير. هنا يعرض السياق شجرة النبوءة التي امتدت فروعُها من إبراهيم؛ من عقيدته في التوحيد، ومن صلبه في الذريّة، مع الإشارة إلى نوح وهو سابق، بمناسبة الحديث عن النبوءة؛ يعرض السياق هذه الشجرة ممتدة متفرعة، ولا يراعي التسلسل التاريخي في فروعها كما أنّ العين حين تأخذ الشجرة تأخذها بفروعها لا على الترتيب. وقوله: كُلاً هدينا جملة معترضة، والتنوين في كُلاًّ عَوَضٌ عن المضاف إليه. وفائدةُ ذِكْر هدْيِهِما التنويه بإسحاق ويعقوب، وأنّهما نبيئان نالاَ هُدَى الله كهديه إبراهيم، وفيه أيضا إبطال للشرك، ودمغ لقريش ومشركي العرب، وتسفيه لهم بإثبات أنّ الصالحين المشهورين كانوا على ضد معتقدهم. وجملة...

ونوحاً هدينا من قبل عطف على الجملة قبلها، وهو استطراد بذكر بعض مَنْ أنعم الله عليهم بالهدى، وإشارة إلى أنّ الهدى هو الأصل، ومن أعظم الهدى التوحيد. وانتصب نوحاً على أنّه مفعول مقدم على هدينا للاهتمام، ومن قبل حال من نوحاً. وفائدة ذكرهذه الحال التنبيه على أنّ الهداية متأصلة في أصول إبراهيم... **﴿ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾**: داوود وسليمان في مقدمة الشاكرين، وأيوب ويوسف في مقدّمة الصابرين، وموسى وهارون في مقدمة من أرسل إلى الجبارين، وهؤلاء جميعاً داخلون في سلك المحسنين... **﴿وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين﴾**: هؤلاء الأربعة وصفوا بالصلاح لأنّهم في مقدمة العابدين الأوّابين... **﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين﴾**: هؤلاء الأربعة رسل بعثهم الله لأمم متفرقة، فقوم إسماعيل العرب، وقوم لوط ما حصل لهم من الْمَحْقِ والغضب، وقوم يونس لمّا آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين، أمّا اليسع فلم يفصّل القرآنُ سيرته، وإنّما دخل في سلك من فضّلهم الله على العالمين... **﴿ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾**: وهذا التعقيب الأخير هو المقصود بعرض هذه الشجرة المباركة في هذا السياق، فهي جولة في ميدان العقيدة؛ لبيان

أنّها دعوة عتيدة وليست بِدْعَةً جديدة. إنّها الدعوة القائمة على الفطرة المستقيمة التي تتفتّح للبحث عن الله، فتهتدي بيسر إلى الله، وتنتفع بآياته المبثوثة في ثنايا الوجود، وفي صفحته المفتوحة لمن يريد. وقد تعمّقت جذورها في الزمان منذ إبراهيم، وامتدت فروعها في ذريته؛ ومنها إسماعيل الذي منه هذا الرسول الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التّسليم... ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾: إنّه هدى الله الذي يهدي به من يشاء من عباده؛ وهم الذين لم يطمسوا فطرتهم المتصلة بالله؛ فلوْ أشركوا بالله انقلب كُلُّ عملهم في هذه الحياة باطلاً، ولم يعد عليهم منه شيء؛ لأنّه مقطوع الصلة بالله، مقطوع الصلة بالطريق الصحيح...

﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوءة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾: أولئك الأنبئاء المهديون هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوءة، فإذا جاء المشركون العرب يكفرون بتلك الآيات القديمة العريقة فالله سبحانه وكّل بالإيمان بها وحفظها واحترامها قوماً آخرين. فالدعوة غنية عن المشركين الذين ينازعون الرسول محمداً ﷺ، وهي دعوة قديمة امتدت شجرتها، وارتفعت رايتها، وحملها نبيء بعد نبيء من لدن إبراهيم، والله هو راعيها، وهو الذي يختار لها من يحملون شعلتها، والرسول الكريم إنّما هو تابع في دعوته وهدايته تلك النخبة المباركة من الدعاة الهداة، وهو يؤدّي واجبه الذي ناطه الله به لوجه الله ولحساب الله وللبشرية جمعاء، لا لهذا الجيل من العرب الذي يشرك منه المشركون... ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلاّ ذكرى للعالمين**﴾: هكذا نجد الْقَصَصَ القرآني يُساق بِقَدَرٍ في موضعه المناسب من السياق؛ ليؤدي دوراً معيناً فيه، ويتّسق مع ما سبقه منه وما يليه...

﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾: استئناف عقب به ذلك البيان العظيم الجامع لأحوال كثير من الأمم، والإيماء إلى نبوءة جمع من الأنبئاء السابقين. وافتتح الكلام بواو العطف لبيان تناسقها واتصالها بما قبلها، وهما واردتان في غرض واحد هو إبطال مزاعم المشركين، فهو عطف على جملة فإن يكفر بها هؤلاء، وأنّها ليست ابتدائية في غرض آخر، فواو الضمير في قوله: قدروا عائد على ما عاد عليه اسم الإشارة في قوله: هؤلاء، ذلك أنّ

المشركين لما استشعروا نهوض الحجّة عليهم في نزول القرآن بأنّه ليس بدعاً مما نزل على الرسل، ودحض قولهم توغّلوا في المكابرة والجحود، فقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، وتجاهلوا ما كانوا يقولونه عن إبراهيم، وما يعلمونه من رسالة موسى وكتابه. وقد جاءت هذه الآية في هذا الموقع كالنتيجة لما قبلها من ذكر الأنبئاء، وما جاءوا به من الهدى والشرائع، فلا جرم أنّ الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء قد جاءوا إفْكاً وزوراً، وأنكروا ما هو معلوم في أجيال البشر بالتواتر... ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم**﴾: هذا رد على مقالتهم بإفحام وتقرير وإيحاء، فذكّرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتوراة. والنور استعارة للوضوح والحق. وقوله: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً إدماج اليهود في هذا الخطاب تعريض بهم وإسماع؛ لأنّهم داخلون مع المشركين في الكفر بدعوة محمد، مع أنّ التوراة صرحت بنبوءة محمد واليهود يعرفون ذلك، ولكنّهم أنكروا ذلك فدخلوا في الخطاب من هذا الوجه...

﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾: هذا هو جواب الاستفهام التقريري، وقد تولى السائل الجواب لنفسه بنفسه؛ لأنّ المسؤول لا يسعه إلاّ أن يجيب بذلك. وعطف ثم ذرهم في خوضهم يلعبون بثم؛ للدلالة على الترتيب الرتبي، أي: أنّهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة، فترْكُهم في خوضهم بعد التبليغ هو الأولى؛ لأنّهم كالأطفال يلعبون ويخوضون في المياه العكرة الخطيرة!.. ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه**﴾: هذه الجملة متصلة بما قبلها بواو العطف. والإشارة إلى القرآن. وقد نوّه الله بهذا القرآن من عدّة وجوه: الابتداء بالإشارة إليه، وكونه منزلاً من عند الله، وكونه مباركاً، وكونه مصدق الذي قبله من الكتب، وزيادة على ما ذكر كونه منذراً لأهل مكة ومن حولها من أحياء العرب ليذهبوا به بعد ذلك إلى إنذار العالم أجمع... ﴿**ولتنذر أُم القرى ومن حولها**﴾: واقتصر على الإنذار هنا؛ لأنّ المقصود تخويف المشركين إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء.

وأم القرى مكة، وأن الشيء استعارة شائعة في الأمر الذي يُرجع إليه ويُلتفّ

حوله، وإنذار أم القرى بإنذار أهلها، وهذا من مجاز الحذف، وقد دلّ عليه قوله: ومن حولها. . . **﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾**: هذا احتراس من شمول الإنذار المؤمنين الذين هم يومئذ بمكة وحولها المعروفون بهذه الصلة دون غيرهم، ولذلك عبّر عنهم بهذا الموصول؛ لكونه كاللّقَبِ لهم وهو مميزهم عن أهل الشرك؛ لأنّ أهل الشرك أنكروا الآخرة. وزادهم ثناءً بقوله: وهم على صلاتهم يحافظون: إيذاناً بكمال إيمانهم وصدقه، باعتبار أنّ الصلاة عماد هذا الدين. . . **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾**: الاستفهام إنكاري فهو بمعنى النفي.

ومساقُه هنا مساق التعريض بأنّهم الكاذبون. فمنهم من افترى على الله كذباً فيما زعموا أنّ الله أمرهم بخصال الجاهلية، ومنهم من قال: أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء، وما أكثر من ادعى النبوءة في القديم والحديث، ومنهم من قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهي دعوى أشنع وأبشع؛ لأنّها دعوى الألوهية. . . **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾**: الخطاب في ترى للرسول، أو لكل من تتأتى منه الرؤية فلا يختص به مخاطب. والشرط مقصود منه التهويل، وحذف جوابه فهو زيادة في التهويل، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً. والغمرة هنا مستعارة للشدة؛ تشبيها بالشدة الحاصلة للفريق حين يغمره الماء. وفي للظرفية المجازية؛ للدلالة على شدة ملابسة الغمرات لهم، حتى كأنها ظرف يحويهم ويحيط بهم. ومعنى بسط اليد تمثيلاً للشدة في انتزاع أرواحهم. والأمر في أخرجوا للإهانة والإرهاق إغلاظاً في قبض أرواحهم، ولا يتركون لهم راحة ولا يعاملونهم بلين. إنّه مشهد مفزع مرعب. . . **﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾**: واليوم يبتدئ من وقت النزع وقبض الأرواح وحبسها في البرزخ وبعثها للجزاء.

وجملة اليوم تجزون استئناف وعيد فصلت للاستقلال والاهتمام، والتلويح لهم بالعذاب المهين الذي ينتظرهم جزاء كذبهم على الله، واستكبارهم عن آياته، وجزاءُ الاستكبار عذابُ الهون، وهذا كله مما يضفي على المشهد ظلالاً مكروبة تأخذ بالخناق من الهول والرعب والضيق. ثم في النهاية ينصب عليهم ذلك

التأنيب والتوبيخ من الله للذين كذبوا عليه، وهاهم أولاء يواجهونه في موقف الكربة والضيق. . . ﴿**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون**﴾: إنّه المشهد الذي يهز كل نفس آدمية، فهؤلاء آدميون في المشهد الرهيب المكروب لا ناصر لهم ولا معين. والتأثرات تُعدّى، والمشاركة الوجدانية تنقل ظلال المشهد كلَّها إلى نفوس السامعين والقارئين لهذه العبارات المصوِّرة المشخِّصة للمشهد الرهيب المكروب!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾: في هذا التوجيه استعراض موقف من أهم المواقف التي يقف فيها الإنسان مكافحاً ومناضلاً؛ ليبيّن حقيقة التوحيد ويبطل فرية الإشراك، وهذا هو إبراهيم هنا أكبرشاهد وأعظم حَكَم يحكم بين الحق والباطل، وهو يسأل أباه آزر، ويتعجب من موقفه من الشرك. كيف يتخذ أصناماً من الذهب ومن الخزف أو أو. . . آلهة يعبدها ويرجو نفعها ويخاف ضرها؟.

وقد اتجه إبراهيم إلى بقية قومه من أهله وجيرانه وعشيرته، فانتشر الشرك بينهم وعمّهم الضلال وغمّهم وأعماهم وأصماهم، ولم يخرج من هذا الضلال إلاّ إبراهيم؛ لأنّ الله أراه عظمته وقدرته وعلمه وحكمته فيما خلق من عجائب السماوات والأرض فاستيقن واطمأن «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين. . .» ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين. فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين**﴾.

﴿**فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنّي بريء ممّا تشركون إنّي وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾: لقد تبرأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الشرك والمشركين، واتجه بوجهه إلى فاطر السماوات والأرض حنيفاً مسلما خالصاً مستمسكاً بالصدق

واليقين. . . ﴿**وحاجّه قومه قال أتحاجّوني في الله وقد هداني**﴾: لمّا حاجَ إبراهيم قومه ببيان بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب، وإثبات الوحدانية لله تعالى ووجوب عبادته وَحْدَهُ، حاجّوه ببيان أوهامهم في شركهم، وإنّما يتبعون ما وجدوا عليه آباءَهم. ولمّا لم يجدوا حجّةً على شركهم بالله خوّفوه أن تمسَّه آلهتهم بسوء. . . ﴿**ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً وسع ربّي كل شيء علماً أفلا تتذكّرون**﴾؟!. إنّه يرُدُّ عليهم ما خوفوه به من ضر الأصنام التي يعتقدون هُمْ ضرها ونفعها؛ لأنّها ليس لها دخل في الضر والنفع، وإنّما الذي يضر وينفع العليم الخبير الذي وسع كل شيء علما، حتّى ولو فُرِضَ أنّي أُصِبْتُ بشيء من جهة الأصنام أو من جهة غيرها، فليس ذلك حاصلاً بإرادتها وتقديرها، أفلا تتذكّرون؟!. إنّه لأمر غريب وعجيب من إنسان يقول هذا!. ومن العبرة في الآية أنّ هذا الضرب من الشرك الذي ردّه إمام الموحّدين إبراهيم عليه السلام، لا يزال فاشياً في كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام دين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام!. لأنّهم لم يعقلوا ما جاء في هذه الحجج من فساد هذه الأوهام؛ فهم ينسبون إلى من يعتقدون أنّ لهم تصرفاً غَيْبِيّاً في المخلوقات ما يقع عقب زيارتهم لهم، أو بالتوجه بالدعاء إليهم، أو بتوسلهم من زوال ألم من مرض أو دفع من ضر أو رجاء خير؛ من دعاء لحبيب أو دعاء على عدوٍّ، كل ذلك يجري بين المسلمين اليوم والعلماء ساكنون، والجهلاء بما لديهم فرحون!. .

﴿**وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً**﴾: هذا توكيد لموقف إبراهيم وتهديد لموقف المشركين حيث عكسوا الحكم بجعْل الخوْفِ أمْناً والأمْنَ خوفاً، ويسأل إبراهيم مستوضحاً: ﴿**فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾؟!. والجواب: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾: والإيمان هنا: الإيمان الفطري، وعدم تلبيسه بظلم؛ عدم تشويه الخِلْقة الفطرية بالإشراك؛ لأنّه هو الظلم الذي لا ظلم بعده «كل مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. . .» من حديث رواه البخاري. . .

﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نشاء إنّ ربّك حكيم عليم**﴾: الإشارة إلى كل ما تقدم في هذا السياق، وهي الحجة التي دحض بها

إبراهيمُ أباه وقومَه من إثبات التوحيد وتزييف الإشراك. الحجة القاطعة البالغة التي لا تُنَالُ إلاّ من الله القويّ القادر الذي يعلم الظواهر والسرائر، تُعْطَى لمن يستحقها من الذين سلمت فطرتهم، وطهرت سجيتهم، وصفت نفوسهم، واطمأنت قلوبُهم؛ مَنْ كان على طريقة إبراهيم الذي جاء ربّه بقلب سليم!. وفي هذا تذكير من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بفضله عليه وتفضيله إياه برفعه درجات على جميع رسل الله، فهو يقول له: إنّ ربّك ـ الذي ربّاك وآواك، وعلمك وهداك، ورفع ذكرك بجوده وكرمه، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ـ حكيم في فعله وصنعه، عليم بشؤون خلقه وسياسة عباده، وسيريك شاهد ذلك عياناً في سيرتك مع قومك، كما أراكه بياناً فيما كان من إبراهيم مع قومه.

التوجيه الثاني: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل﴾: في هذا التوجيه عرض لثمانية عشر رسولاً بعثهم الله للناس هادين مرشدين. وهو هنا يعرضهم حسب مواقفهم المختلفة بالنسبة للدعوة وبالنسبة للقرابة؛ فإسحاق ابن إبراهيم، ويعقوب ابن إسحاق، ونوح سابق على الجميع، لأنّه أول رسول بُعِثَ إلى قوم عارضوا دعوته، ووقفوا حجر عثرة في سبيلها فأغرقهم الله بالطوفان... **﴿ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾**: هذا فريق ثان من سلسلة الرسل المذكورين بمناسبة ذِكْرِ إبراهيم، وهم داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وهؤلاء من ذرية إبراهيم؛ لأنّ الكلام هنا في بيان فضل إبراهيم، وإنّما ذكر نوح لأنّه جد إبراهيم ومن ذُكِرُوا معه، فهو لبيان نعم الله على إبراهيم في أفضل أصوله تمهيداً لنعم الله عليه في الكثير من فروعه. ويزاد على ذلك: أنّ الله جعل الكتاب والنبوءة في نسلهما معاً منفرداً ومجتمعاً، فالضمير في قوله: ومن ذريته، يصلح أن يكون لنوح، ويصلح لأن يكون لإبراهيم.

والمعنى الجامع بين ما ذكر هنا من الرسل، أنّ الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة، مع النبوءة والرسالة. وقد قدم ذكر داوود وسليمان؛ لأنّهما أعطيا الملك والرسالة معاً، وكانَا مَلِكَيْنِ غنيّين مُنعّمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف وكان أيوب غنياً عظيماً محسناً، وكان يوسف وزيراً متصرفاً في خزائن أرض مصر. وكلٌّ من أيوب ويوسف قد ابْتُلِيَا بالضرّاء فصبرا، وابتليا بالسرّاء

فشكرا. وأما موسى وهارون فكانا رسولين لأكبر طاغية في الأرض، وأعْنَد وأقسى أمة في الوجود، فتحمّلا طغيان فرعون وقساوة وعناد بني إسرائيل، فكل هؤلاء الرسل أحسنوا العمل فجزاهم الله أجْر المحسنين. . . **﴿وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس كلاً من الصالحين﴾**: هذا فريق ثالث من سلسلة الرسل، وهم زكرياء ويحيى وعيسى وإلياس، هؤلاء الأربعة عُرِفُوا بشدّة الزهد والعزوف عن الدنيا والإعراض عن لذاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها؛ لذلك خصّهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم، وإن كان كل نبيء صالحاً ومحسناً على الإطلاق. . . **﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً﴾**: هذا فريق رابع من سلسلة الرسل. فإسماعيل بن إبراهيم الذي أسكنه الله البيت الحرام الذي بناه مع أبيه إبراهيم، وكان رسولاً نبيئاً أرسله الله إلى أهل الحرم، وهو الذي ينتهي إليه نسب العرب. أمّا اليسع فلم يفصل القرآن ذِكْرَه، وإنّما ذكره من جملة المرسلين في السلسلة دون تفصيل.

أمّا يونس فقد ذكره القرآن في عدة آيات، وأنّه أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون، وقد أنذرهم بالعذاب لمّا كذبوه، وخرج عنهم مغاضباً فحصل له ما حصل من التقام الحوت له كما يأتي مفصلاً عند ذكر قصته. أمّا لوط فقد كان معاصراً لإبراهيم، وخرج معه مهاجراً إلى الشام، وفيها أرسله الله إلى قومه، وكانوا يعملون السيآت فأنذرهم بالعذاب فلم يرجعوا عن غيّهم، فأهلكهم الله عندما جعل قراهم عاليَها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وسيأتي ذكره مفصلاً في مواضع متعددة من سور القرآن. كل هؤلاء المذكورين بمناسبة ذكر إبراهيم رسُلٌ أرسلهم الله إلى الناس، ليبلغوهم دين الله وهو دين الإسلام، وقد عُلم من سيرتهم ووصيتهم لأبنائهم بأن يعيشوا مسلمين ويموتوا مسلمين. ومعلوم من نصوص الإسلام أنّ الرسل أفضل العالمين؛ لأنّ الله اختارهم لتبليغ دينه، واجتباهم للعمل بما جاءوا به، وهداهم إلى دين الحق، وهو المقصود بعرض هذه الشجرة المباركة في هذا السياق. . . **﴿وكُلاً فضلنا على العالمين﴾**.

﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾!:
وتتعلق بهذه الآية مسألة مهمة من مسائل أصول الدين، وهي ثبوت نبوءة الذين جرى ذكرهم فيها، وما يترتب على ثبوت ذلك من أحكام في الإيمان وحق النبوءة

ينبغي التعرض لها؛ لأنّها تتفرع إلى مسائل تهم طالب العلوم الإسلامية معرفتُها، وأحق مظنة بذكرها: هو ما في هذه الآيات. وللنبوءة أحكام كثيرة تتعلق بموصوفها وبمعاملة المسلمين لمن يتصف بها، وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان بما يبلغه عن الله تعالى من شرع وآداب، ومسائل كثيرة من ذلك مبسوطة في علم الكلام، ومنتشرة في آيات كثيرة من سور القرآن. ينبغي للباحث أن يحيط بها علما... خصوصاً في هذا الزمان الذي كثر فيه دعاة الإلحاد وعمّ فيه الشر والفساد... ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾: ذلك الهدى إلى صراط مستقيم، وهو ما كان عليه أولئك الأخيار مما ذكر من الدين القويم. والفضل العظيم: هو هدى الله الخاص الذي هو وراء جميع أنواع الهدى العام، كهدى الحواس والعقل والوجدان؛ لأنّه عبارة عن الإيصال من الفعل إلى الحق والخير على الوجه الذي يؤدي إلى السعادة. والهداية هدايتان: هداية ليس لصاحبها سعي لها، ولا هي مما يُنال بكسب وترقب، وهي هداية النبوءة. وهداية قد تُنال بالكسب والاستعداد، مع اللطف الإلهي والتوفيق لنيل المراد، وهي هداية العمل الصالح بالمنهج الذي جاء من عند الله.

﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوءة**﴾: في هذا تفصيل لرسالة الله؛ الكتاب الذي فيه المنهج، وكيفية الحكم بما في المنهج، والشخص الذي له الحق في الحكم بالمنهج. وهؤلاء الرسل هم الذين بيّنوا للناس شريعة الله، وحكموا بين الناس بما أنزل الله، والله أيّدهم بالمعجزة التي ظهرت على أيديهم لصدقهم في دعوتهم... ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾: فإن يكفر ـ بهذه الثلاث؛ الكتاب، والحكم، والنبوءة ـ هؤلاء المشركون من أهل مكة، وقد خصوا بدعوتهم إلى الإيمان بها قبل غيرهم؛ إذ أُوتُوهَا على الوجه الأكمل مع رسول منهم، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بأمر رعايتها ووفقنا للإيمان بها وَتَوَلِّي نصْرِ الداعي إليها، قوماً كراماً ليسوا بها بكافرين. وهؤلاء الكرام هم أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين من المهاجرين والأنصار، ومن آمن بَعْدَهُم من الذين اتبعوهم بإحسان...

﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾: في هذه الآية تتلخّص سيرةُ مَن ذكر من المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين الصادقين؛ لتظهر واضحة في سيرة أصحاب

رسول الله؛ لأنّهم هم الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات جميعها. وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في القرآن، «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين». وقد شهد الله تعالى له بأنّه جاء بالحق وصدق المرسلين، وأنّه لم يكن بدعاً من الرسل، فعُلم بهذا أنّه كان مهتدياً بهداهم كلِّهم. والمقصود من هذا أنّ الرسول وصحابته هم الذين اتصفوا بالأوصاف التي ذكرت في سلسلة المرسلين السابقين؛ من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلى موسى وعيسى وجميع الآباء والأبناء والإخوان من المؤمنين الصادقين... **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إنْ هو إلاّ ذكرى للعالمين﴾**: هذه هي الطريق، وهذا هو المنهج الذي سار فيه الرسل، وعملوا به وربوا عليه أتباعهم ومريديهم. ومحمد رسول الله ﷺ جاء كما جاءت الرسل من قبله، يُذَكِّرُ قوْمَه كما ذكّرت الرسل أقوامَهُمْ، وأنّه ما جاء إلاّ بالنصح لهم، وهو لا يَطْلُبُ لنفسه نفعاً على إبلاغ القرآن. وفي هذا تنبيه للاستدلال على صدقه؛ لأنّه لو كان يريد لنفسه نفعاً لصانعهم ووافقهم، وما من رسول إلاّ واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يُمحّصها ولا يمحّضها إلاّ حسم المطامع، ومادام يُتوهّم شيء منها لم تنفع ولم تنجع. والمقصود بهذا: الاعتبار ولفت النظر إلى محض نصح الرسول ﷺ في رسالته، وأنّها لِنَفْعِ الناس، لا يَجُرُّ منها نفعاً إلى نفسه، وقد أشعر هذا بأن انتفاء سؤال الأجر عليه لسببين: أحدهما أنّه ذكرى ونصح لنفعهم فليس محتاجاً لجزاء منهم. ثانيهما أنّه ذكرى لغيرهم من الناس وليس خاصّاً بهم، وهذا دليل قاطع على عموم رسالة محمد، وهو واحد من الأدلة الكثيرة التي ذكرت في القرآن الكريم.

التوجيه الثالث: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى موقف الكفار من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم من الذين يرتابون في صحة الرسالة التي جاءت من الله بوساطة الرسل الذين ذكروا فيما سبق، فهم لم يقدروا الله حقّ قَدْرِهِ عندما قالوا بلسان الحال أو بلسان المقال: ما أنزل الله على بشر من شيء!. وقد جاءت هذه الآية في هذا الموقع كالنتيجة لما قبلها؛ من ذكر الأنبئاء وما جاءوا به من الهدى والشرائع والكتب، فلا جرم أنّ الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء قد جاءوا إفْكاً وزُوراً، وأنكروا ما هو معلوم في أجيال البشر بالتواتر.

قد نطقت الآية بأنّ منكري الوحي ما عرفوا الله تعالى حق معرفته، ولا وصفوه بما يجب وصفُه به، ولا عرفوا كُنْهَ فضله على البشر، عندما قالوا هذه المقالة المفتراة التي تدلّ على الجهل والغباء والوقاحة والافتراء!. وقد ظهر في هذا الزمان مِنْ هذا النوع ممّن فُتنُوا بترقي النظام الاجتماعي كما خُيل إليهم، ورأوا سعة التمتع الشهواني التي سيقت إليهم في شعوب كثيرة كانت استفادت كثيراً من هداية الوحي، ثم نسيت ذلك الأصل الذي هو مصدر كل الخير، «فعتت عن أمر ربّها ورسله»، فمنها مَنْ كفر بالرسل وحْدَهم، ومنها من كفر بالله وبرسله، وادعوا أنّهم قد استغنوا بعقولهم عن تلك الهداية، بل وصموها بما وسموها به من سمات التأخر والغباوة؛ وادّعَوْا أنّ لهم مَدَنِيّةً وحضارةً ارتفعوا بها عن الرجعية والبداوة!. ولكن عندما اتضح الخفاء وانكشف الغطاء وفضح الرياء، ظهر أنّ تلك المدنية هي أفظع الوحشيّة والهمجية، فأيُّهم أوسعُ فيها علوماً وفنوناً وأدق نظاماً وقانوناً، هم أشدُّ فتكاً بالإنسان وتخريباً للعمران، وأنّ غاية هذا الترقي استعباد الأقوياء للضعفاء بتسخيرهم لخدمتهم، واستخراج خيرات الأرض لهم استمتاعاً بالشهوات الحيوانية السفلى، وإسرافاً في زينة هذه الحياة الدنيا!..

﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾؟: أمر الله نبيئه بأن يفحمهم باستفهام تَقرِيرٍ وإلْجَاءٍ، فذكّرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب في عصر النزول، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتوراة، وهي تدرس بين اليهود في المدينة وغيرها من مساكن اليهود في الجزيرة العربية. وحكمةُ ذِكْر موسى وكتابه تنطبق على كل عصر وجيل، فكتاب موسى معروف إلى اليوم، والذي يعرفه يدّعي أنّه من عند الله، فهو اعتراف من جميع الأجيال بكتاب موسى، فلماذا يقول المفترون: ما أنزل الله على بشر من شيء؟!.

وأدخل اليهود هنا في الخطاب بقوله: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً؛ ليفضحهم على رؤوس الأشهاد، وليعرّض بهم في جميع الآماد، حتى يكونوا هم السبب في التغيير والتبديل، وفي خروج الناس عن منهج التنزيل!. والكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تصرّف فيه اليهودُ وجعلوه قراطيس يبدون منه ما كان في صالحهم، ويخفون كثيراً منه بما فيه من هدى للناس،

ودلائل على صحّة دعوة الرسول محمد ﷺ. . . وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم: الخطاب يشمل المشركين وأهل الكتاب جميعاً، فأهل الكتاب قد نسوا كثيراً، وانحرفوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل «إنّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون»، والعرب قد جهلوا شريعة إبراهيم وإسماعيل، وتشبثوا بأوهام الشرك والتضليل، فأنزل الله عليهم كتاباً أخرجهم من الظلمات إلى النور. . . «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين. لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين».

ولمّا كان الجواب معلوماً من السؤال جيء به مبيناً وموضحا على لسان أصدق إنسان: ﴿**قل الله**﴾، فالذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى هو الله الذي أنزل عليك القرآن مصدقاً له ومؤيداً، واترك هؤلاء المعاندين يخوضون غمار الباطل، ويلعبون كما يلعب الصبيان دون طائل! . . ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه**﴾: هذا هو الكتاب المكمّل لسلسلة الكتب الذي أنزله الله على رسوله المكمل لسلسلة الرسل، وهو مبارك زائد على ما في الكتب قبله في النظم ليسهل حفظه: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»؟، والمعنى ليسهل فهمه وتطبيقه: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب»، وهو ثابت لا يتزعزع ودائم لا يزول: «وإنّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»!، وهو مصدق لما قبله من الكتب التي أنزلها الله على رسله بأنّها حق وصدق، والذين جاءوا بها صادقون. . . ﴿**ولتنذر أُم القرى ومن حولها**﴾: «فإنّما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً»!. وهم أهل مكة الأشدّاء الألِدَّاء. . . ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون**﴾: هذا هو وصف المتقين الذين بشرهم ربّهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. فالذي يؤمن بالآخرة وما فيها من جزاء على العمل، يؤمن بالقرآن بدون تردّد؛ لأنّه هو الذي بينه واستدل عليه، وفصّل أوصافه بما فيه من ثواب وعقاب: «وإنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعوني هذا صراط مستقيم».

وأقوى دليل على صحة الإيمان المحافظة على الصلاة بتأديتها في أوقاتها،

وبإقامة أركانها وآدابها. ولما كانت الصلاة عماد الدين خُصّت بالذكر هنا دون سائر العبادات البدنية!. «اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون...» **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾**: هذه ثلاث طوائف من الناس كُلٌّ منها تدّعي أمْراً لا حقيقة له؛ فطائفة اختلقت شرائع باطلة من عبادة الأصنام واتخاذها شفعاءَ لهم عند الله، وما يستتبع ذلك من ضلالات وأوهام اتخذوها دينا، «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»، وطائفة أخرى ادّعت النبوءة كذباً، مثل ما حصل في زمن رسول الله ﷺ وبعده كما هو معلوم من التاريخ القديم والحديث. ولم يزل الرسل في السابق يحذّرون الناس من الذين يدّعون النبوءة كذبا. وطائفة أخرى ترقّت في الكفر والضلال وادّعت أنّها تستطيع أن تشرع شرائع مثل شرائع الله!.

ونحن نسمع اليوم هذه الادّعاءات من كثير من المعتوهين والمضلّلين!. والآية لا تعني فرداً معيناً، ولا زمناً مُحدَّداً، وإنّما تعني العمُومَ في الأفراد والمكان والزمان؛ ليشمل كُلَّ مَنْ صدر منه هذا القول، ويشمل من يتابعهم عليه في المستقبل... **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمراتِ الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾**: هذا وعيد بعقاب أولئك الظالمين المفترين على الله، والقائلين: أوحي إلينا، والقائلين: سنُنزل مثل ما أنزل الله.

ويدخل مع هذه الطوائف الثلاث كُلُّ ظالم مشرك وكافر ومنافق طغا وتجبّر وعاند وتكبَّر. والآية توضح أن عقاب الظالمين يبتدئ من وقت الفزع، وهو وقت خروج الروح من البدن عندما يشاهدُون ملائكة الموت، ويرون ما أعد لهم من النكال والهوان. وعند ذلك يندمون ويطلبون الرجوع فلا يجابون... حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ أرجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون: والبرزخ: الحاجزُ الذي بين قبض الروح بالموت، وبين البعث والحساب والجزاء يوم القيامة. وعند ذلك يقال لهم... **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضل عنكم**

ما كنتم تزعمون﴾: هذه هي نهاية الظالمين الذين يفترون على اللهَ الكذب، والذين يدّعون أنّهم أنبئاء وأصفياء وأولياء، وأنّ لهم صلةً بالله تخصهم وحْدَهُم، كما نسمع الآن من الفرق الضالة؛ آية الله، وحجّة الله، وقريب الله وحبيبه، والذين يقولون سنُنزل مثل ما أنزل الله: وهي دعوى الألوهية والربوبية. والذين يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء!.

فمصير هؤلاء جميعاً ما وضحته هذه الآية من هذا التأنيب والتوبيخ من الله الذي كذبوا عليه. وها هم أولاء يواجهونه في موقف الكُرْبَةِ والضيق. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة: فليس معكم إلاّ دواتكم!. غاب عنكم كلُّ شيء، وتفرق عنكم كل أحد. وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم: من كل شيء من المال والزينة والأولاد والمتاع، كُلُّهُ هنالك متروك ليس معكم منه شيء!. وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء: لهم فيكم نصيب، ويستحقون منكم العبادة مع الله، ويشفعون لكم فيدفعون عنكم العذاب. وها أنتم أولاء أمام الله الحق، وليس معكم أحد يشفع لكم من أولئك الشركاء، فأين ذهبوا؟. لقد تقطع بينكم: تقطّع بينكم كل شيء. . .، كل صلة، كل رابطة، كل تعاون، كل تفاهم. وضل عنكم ما كنتم تزعمون: من شتى المزاعم، ومنها أولئك الشركاء، وما لهم من شفاعة، وما لهم من ولاء. وجملة القول إنّ آمالهم خابت في كل ما كانوا يزعمون ويتوهّمون «قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون»!.

11 ـ من روائع التنزيل توضيح الحجة بالدليل

النص

* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (96) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (97) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (99) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (100) * وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (101) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (102)

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿103﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿104﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿105﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿106﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿107﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿108﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿109﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿110﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿111﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**إنّ الله فالق الحب والنوى**﴾: الفلق: شق وصدع بعض أجزاء الشيء عن بعض، والمقصود الفلق الذي تنبثق منه وشائج النبت، والشجر وأصولها، فهو محل العبرة من علم الله تعالى وقدرته وحكمته. والحب: جمع لما يثمره النبت، واحده حبَّة، وتجمع على حبوب وحبات، وتصغر حبيبات، ويطلق على كل شيء مستدير صغير، كحبة الرمل. والمراد به هنا: حب النبات وبزره؛ لأنّه هو الذي ينبت بالفلق.

والنوى: اسم جمع النواة، وهي قلب التمرة، ويطلق على ما في الثمار من القلوب التي منها ينبت شجرها، مثل العنب والزيتون وهو العَجَم، ولكن اسم النوى غلب استعماله على قلب التمر المعروف، ونواة الشيء أصله الذي ينبثق منه... ﴿**يخرج الحي من الميت**﴾: الحي النامي المتغذي من ذاته. والميت غير النامي المتغذي، والحياة في لغة العرب: ما يكون به الجسم متغذيا نامياً بالفعل، وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب... ﴿**ذلكم الله فأنى تؤفكون**﴾: الأَفَكُ: مصدر أَفَكَه يَأفِكه من باب ضرب، إذا صرفه عن مكان أو عن عمل، ويقال: أَفَكَهُ عن رأيه بمعنى صرفه وقلبه عنه...

﴿**فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً**﴾: أصل الإصباح: مصدر أصبح الأفق إذا صار ذا صباح، وقد سُمّي به الصباح وهو ضياء الفجر، فيقابل الليل وهو المراد هنا. والسَكَنُ: ما تسْكُن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، وتسمّى الزوجة سكناً والبيت سكناً، فمعنى جعل الليل سكنا أنّه جُعل لتحصل فيه راحة النفس من تعب العمل... ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾: والحُسْبان: في الأصل مصدر حَسَبَ، كالغُفْران والشُّكْران والكُفْران، بمعنى جعلها علامة حساب للناس يحسبون بحركاتها أوقات الليل والنهار والشهور والفصول والأعوام... ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾: التقدير: وضع الأشياء على قدر معلوم. والعزيز: الغالب القاهر، والله هو العزيز حقّاً؛ لأنّه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلها. والعليم: مبالغة في العلم؛ لأنّ وضع الأشياء على النظام البديع لا يصدر إلاّ عن عالم عظيم

العلم. . . ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**﴾: المراد بالنجوم هنا: ما عدا الشمس والقمر من نيّرات السماء، والعلم في كلام العرب: إدراك الأشياء على ما هي عليه وهذا المعنى مرادف للمعرفة. وفرّق المناطقة؛ بأنّ المعرفة إدراك صورة الشيء بما هي عليه. والعلم إدراك نسبة شيئين إثباتاً أو نفياً المعرفة: تصور، والعلم: تصديق. . .

﴿**وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع: قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾، الإنشاء: الإحداث والإيجاد. والنفس الواحدة: آدم. ومستقر: مصدر ميميّ على صيغة اسم المفعول، ومعنى المستقر هنا الكون فوق الأرض. والمستودع: اسم مفعول من استودعه فهو مستودع، وأصله مشتق من الودع، يقال: استودعه مالاً إذا جعله وديعة عنده، فالاستيداع مؤذن بوضع موقت، والاستقرار مؤذن بوضع دائم أو طويل، ومعنى المستودع هنا الكون في القبر، وهو ما عليه الإنسان بعد الموت وقبل البعث. . . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون: تفصيل الآيات: تنويعها وتقسيمها. والفقه هنا: استعمال الفطنة وتدقيق النظر في لطائف الأشياء ودقائقها. . . ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء**﴾: الماء النازل من السماء: ماء المطر النازل من السحاب. والنبات: اسم لما ينبت، وهو اسم مصدر نبت، سمي به النابت على طريقة المجاز الذي صار حقيقة شائعة، فصار النبات اسماً مشتركاً مع المصدر. . .

﴿**فأخرجنا منه خضراً**﴾: الخَضِر: الشيء الذي لونه أخضر، ويُطلق اسماً للنبت الطري الرطب مثل القصيل والقصب، وهذا هو المراد هنا. . . ﴿**نخرج منه حبّاً متراكبا**﴾: الحب: ثمر النبات كالقمح والشعير والذرة والدخن. . وأنواع الزراريع. والمتراكب: الملتصق بعضه على بعض في السنبلة. . . ﴿**ومن النخل من طلعها قنوان دانية**﴾: النخل: واحدته نخلة، وهو شجر التمر المعروف من فصيلة النخليات ويعيش في المناطق الحارة وجذوعه تطول حتى تصل إلى العشرين متراً أو أكثر، ويعيش منفرداً أو مقترناً اثنان فأكثر. وطلعه: وعاء القنو، والقنو: العرجون الذي فيه البلح، والنخل مشتق من انتقاء الشيء واختياره، لأنّه أشرف كل شجر ذي ساق، وأهله يعرفون قيمته؛ لأنّه أعز الأموال عند العرب. ودانية: قريبة التناول، وهي التي تكون نخلتها قصيرة لم تتجاوز طولة قامة المتناول. . .

﴿**وجنّات من أعناب**﴾: الأعناب: جمع عِنَب، وهو جمع عنبة، وهو في الأصل ثمر شجر الكرم، فالعنب يقال لثمرة الكرم وللكرم نفسه... ﴿**والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه**﴾: الزيتون: يطلق على الشجر وعلى ثمره، وهو الحب الذي يخرج منه الزيت. والرمان: معروف شجره وثمره، ومنه الحلو والحامض والمزّ، ومنه ما فيه عظم ومنه ما ليس فيه. والمشتبه: الملتبس أحدهما بالآخر من شدة الشبه بينهما. والمتشابه: المشارك في الشبه ولو في بعض الوجوه... ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه**﴾: انظروا نظر استبصار واعتبار. والثمر ما يخرجه الشجر. والينع: الطِيبُ والنضج، ينع الثمر ينعاً ويُنعاً وينوعاً، وأينع حان قطافه، واليانع والينيع: الثمر الناضج... ﴿**وجعلوا لله شركاء الجنّ**﴾: وهو جعل المشركين الجنّ شركاء لله في عبادتهم، وكان العرب يثبتون الجنّ وينسبون إليهم تصرفات، فهم يخافونهم ويجعلون لهم معاذاة بالرقي والاستغاثات، والجِن: اسم لموجودات خلقها الله من نار، ومنهم إبليس لعنه الله... ﴿**وخلقهم وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم**﴾: خرّقوا من التخريق، وهو كثرة الكذب، وأصله التمزيق والتفريق، والحزق مثله، واخترق الكذب اختلقه... ﴿**سبحانه وتعالى عما يصفون**﴾: عن الذي يصفونه به من الشركاء والأنداد. والوصف: الخبر عن أحوال الشيء وأوصافه وما يتميز به...

﴿**بديع السماوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**﴾: البديع: المحدِث للشيء العجيب، ومعنى بديع السماوت والأرض هنا: إيجادها بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلاّ لله تعالى، وفي معنى البديع العجيب والغريب الذي لا يماثله شيء. وأنّى: من أين؟. أوْ كيف؟. والصاحبة: الزوجة؛ لأنّها تصاحب الزوج في معظم أحواله... ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾: حقيقة الإدراك: الوصول إلى المطلوب، وعلى شعور الحاسّة بالمحسوس، والعقل بالمعقول. والأبصار: جمع بصر، وهو اسم للقوة التي بها النظر المنتشرة في إنسان العين التي في وسط الحدقة وبه إدراك المبصرات. واللطيف: اسم مشتق من اللطف أو اللطافة، يقال: لَطَفَ بمعنى رفق وأكرم واحْتَفَى، ويتعدى بالباء وباللام باعتبار ملاحظة معنى رفق أو معنى أحسن، ولذلك سميت الطُّرْفة والتحفة التي يكرم بها المرء لَطَفاً وجمعها ألطاف، فالوصف من هذا لاطف ولطيف، ويقال: لطُف بمعنى دقّ وخفّ ضدّ ثقُل وكثُف.

والخبير: صفة مشبهة من خبرُ بمعنى علم، فالخبير الموصوف بالعلم بالأمور التي شأنها أن يخبر عنها علماً موافقاً للواقع. . . ﴿**قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾: البصائر: جمع بصيرة، والبصيرة: العقل الذي تظهر به المعاني والحقائق، كما أنّ البصر إدراك العين الذي تتجلى به الأجسام، والمراد بالبصائر هنا: الآيات الواردة في هذه السورة وما في معناها من الآيات المثبتة لحقائق الدين، ومعنى فمن أبصر فلنفسه: من علم الحق فقد علم علما يَنْفَعُ نَفْسَه. ومن عمي فعليها: من ضل عن الحق فقد ضل ضلالاً ووِزْرُهُ على نفسه. والحفيظ: الحارس ومن يُجعل إليه نظرُ غيره وحفظُه، وهو بمنزلة الوكيل، إلاّ أنّ الوكيل يكون مجعولاً له الحفظ من جانب الشيء المحفوظ، والحفيظ أعم. . . ﴿**وكذلك نفصل الآيات**﴾: مثل ذلك التصريف نصرف الآيات. وتصريف الآيات: توضيحها لإثبات أصول الإيمان، والهداية لأحاسن الآداب والأعمال، فنحولها من نوع إلى نوع ومن حال إلى حال؛ مراعاة لتفاوت العقول والأفهام، ولاخْتلاف استعداد الأفراد والأقوام. . . ﴿**وليقولوا درست**﴾: المعنى العام للدرس تكرار المعالجة وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يصل إلى الغاية منه، ودرست الكتاب أدرسه بمعنى ذللته بكثرة القراءة حتى خفّ وسهل حفظه. . .

﴿**ولنبينه لقوم يعلمون**﴾: لنبين هذا القرآن المشتمل على ما ذُكر من تصريف الآيات لقوم يعلمون بالفعل أو بالاستعداد الذي لا يعارضه تقليد ولا عناد، فهم الذين يتبيّن لهم بتأمُّلِهَا حقيقَةُ القرآن، وما في التصريف من أنواع البيان المؤيد بالحجة والبرهان. . . ﴿**اتبع ما أوحي إليك من ربّك لا إله إلاّ هو وأعرض عن المشركين**﴾: الاتّباع في الأصل: اقتفاء أثر الماشي، ثم استعمل في العمل بمثل عمل الغير، ثم استعمل في امتثال الأمر والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الائتمار، والمراد بما أوحي إليك: القرآن. والمراد بالإعراض عن المشركين: الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم، لا الإعراض عن دَعْوَتِهِمْ. . . ﴿**ولو شاء الله ما أشركوا**﴾: لو شاء الله تعالى أن لا يشركوا لَمَا أَشْرَكُوا، وذلك لأنّ الله لم يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، وإنّما خلقهم مستعدين للإيمان والكفر. . .

﴿**وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل**﴾: الحفيظ: القيم الرقيب،

والمراد هنا: لم نجعلك رقيباً على تحصيل إيمانهم فلا يهمنّك إعراضُهم عنك وعدم تحصيل ما دعوتَهم إليه؛ إذ لا تبعة عليك في ذلك... ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم**﴾: السبّ: كلام يدل على تحقير أحد أو نسبته إلى نقيصة أو معرّة بالباطل أو بالحق، والمخاطب بهذا النهي المسلمون. وَعَدْواً: مصدر بمعنى العدوان والظلم... ﴿**كذلك زينا لكل أمة عملهم**﴾: التّزيين: تفعيل مأخوذ من الزين وهو الحسن، أو من الزينة وهي ما يُتحسّن به الشيء، فالتزيين: جعل الشيء ذا زينة، أو إظهاره زيناً، أو نسبته إلى الزين، وهو هنا بمعنى إظهاره في صورة الزين، وإن لم يكن كذلك. والإنباء: الإعلام، وهو توقيفهم على سوء أعمالهم التي كانوا يرونها زيناً... ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها**﴾: أقسم: حلف. وجهد الأَيْمانِ: إظهاره وتأكيده وتكريره. والآية: ما اقترحوه من الخوارق. والإشعار: الإعلام بمعلوم من شأنه أن يخفى ويدق، يقال: شعر فلان بكذا، بمعنى علمه وتفطّن له، ﴿**وما يشعركم**﴾ معناه: ما يدريكم... ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾: التقليب مصدر قلّب الدال على شدّة قلْب الشيء من حاله الأصلية، والقلبُ يكون بمعنى جعل المقابل للنظر من الشيء غير مقابل، ويكون بمعنى تغيير حالة الشيء إلى ضدها. والأفئدة: العقول. والأبصار: العيون. والطغيان شدة الكفر والعناد. والعمه: عمى البصيرة وعدم إدراك الحقائق.

مبحث الإعراب

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**فالق**﴾ خبرها. ﴿**الحب**﴾ مضاف إلى فالق. ﴿**والنوى**﴾ معطوف على الحب مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذّر. ﴿**يخرج**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**الحي**﴾ مفعول به. ﴿**من الميت**﴾ متعلق بيخرج. ﴿**ومُخرِجُ**﴾ معطوف على يخرج، وهو مثله بيان لفالق. ﴿**الميت**﴾ مضاف إلى مخرج. ﴿**من الحي**﴾ متعلق بمخرج. ﴿**ذلكم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الله**﴾ خبره. ﴿**فأنى**﴾ الفاء للتفريع وأنّى اسم استفهام. ﴿**تؤفكون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**فالقُ**﴾ خبر آخر لإنّ. ﴿**الإصباح**﴾ مضاف إلى فالق. ﴿**وجاعل**﴾ معطوف على فالق.

﴿**الليل**﴾ مضاف إلى جاعل. ﴿**سكناً**﴾ معمول لجاعل. ﴿**والشمس**﴾ مفعول بفعل مقدر. ﴿**والقمر**﴾ معطوف على الشمس. ﴿**حسباناً**﴾ مفعول ثانٍ لجعل المقدّر. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تقديرُ**﴾ خبره. ﴿**العزيز**﴾ مضاف إلى تقدير. ﴿**العليم**﴾ مثله. ﴿**وهو**﴾ الواو للعطف، هو في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**جعل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الذي، والجملة صلة الموصول. ﴿**لكم**﴾ متعلق بجعل. ﴿**النجوم**﴾ مفعول به. ﴿**لتهتدوا**﴾ اللام للتعليل، وتهتدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بها**﴾ متعلق بتهتدوا. ﴿**في ظلمات**﴾ كذلك. ﴿**البر**﴾ مضاف إلى ظلمات. ﴿**والبحر**﴾ معطوف على البر، ولام التعليل جَرَّ المصدر المقدّر، والتقدير: جعل لكم النجوم لاهتدائكم بها. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**فصلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الآيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بفصلنا. ﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم. ﴿**وهو**﴾ الواو للعطف، هو في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**أنشأكم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على هو (وهو الله سبحانه)، وضمير المخاطبين مفعول به، وجملة أنشأكم صلة الذي. ﴿**من نفس**﴾ متعلق بأنشأ. ﴿**واحدةٍ**﴾ نعت لنفس مجرور بالكسرة. ﴿**فمستقر**﴾ الفاء للتفريع، ومستقر مبتدأ خبره مقدّر، بمعنى فمنكم مستقر. ﴿**ومستودع**﴾ معطوف على مستقر. ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾ إعرابه مثل إعراب قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون.

﴿**وهو الذي أنزل من السماء**﴾ إعرابه مثل إعراب وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة، ومن السماء متعلق بأنزل. ﴿**ماءً**﴾ مفعول به. ﴿**فأخرجنا**﴾ الفاء للتعقيب، أخرجنا فعل وفاعل. ﴿**به**﴾ متعلق بأخرجنا. ﴿**نبات**﴾ مفعول به. ﴿**كُلّ**﴾ مضاف إلى نبات. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**فأخرجنا**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**منه**﴾ متعلق بأخرجنا. ﴿**خضراً**﴾ مفعول به. ﴿**نخرج**﴾ فعل مضارع. ﴿**منه**﴾ متعلق به. ﴿**حبّاً**﴾ مفعول به. ﴿**ومن النخل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من طلعها**﴾ بدل من النخل. ﴿**قنوانٌ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**دانية**﴾ نعت له. ﴿**وجنات**﴾ معطوف على خضراً. ﴿**من أعناب**﴾ متعلق بمحذوف نعت لجنات. ﴿**والزيتون**﴾ منصوب على الاختصاص. ﴿**والرمان**﴾ معطوف على الزيتون. ﴿**مشتبهاً**﴾ منصوب على الحال. ﴿**وغير**﴾ معطوف عليه. ﴿**متشابه**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**انظروا**﴾ فعل أمر، وواو

الجماعة فاعل. ﴿إلى ثمره﴾ متعلق بانظروا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿إذا﴾ ظرف. ﴿أثمر﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ثمره. ﴿وينعه﴾ معطوف على ثمره، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿إنّ﴾ حرف توكيد ونصب. ﴿في ذلكم﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿لآيات﴾ اسم إنّ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لقوم﴾ متعلق بمحذوف نعت لآيات. ﴿يؤمنون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم.

﴿وجعلوا﴾ الواو حرف عطف، جعلوا فعل وفاعل. ﴿لله﴾ متعلق بشركاء. ﴿شركاء﴾ المفعول الثاني لجعلوا. ﴿الجنّ﴾ المفعول الأول. ﴿وخلقهم﴾ الجملة حالية. ﴿وخرّقوا﴾ معطوف على جعلوا. ﴿له﴾ متعلق بخرّقوا. ﴿بنين﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿وبناتٍ﴾ معطوف على بنين منصوب بالكسرة. ﴿بغير﴾ متعلق بخرّقوا. ﴿علم﴾ مضاف إلى غير. ﴿سبحانه﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿وتعالى﴾ معطوف على سبحانه، وفاعل تعالى ضمير يعود على الله. ﴿عمّا﴾ متعلق بتعالى. ﴿يصفون﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بديع﴾ خبر لمبتدإ محذوف ملتزم الحذف في مثله. ﴿السماوات﴾ مضاف إلى بديع. ﴿والأرض﴾ معطوف على السماوات. ﴿أنّى﴾ اسم استفهام. ﴿يكون﴾ فعل مضارع ناقص. ﴿له﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون مقدم. ﴿ولدٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ الجملة في محل نصب حال من الضمير في له ولدٌ، وإعرابها مثل إعراب ما قبلها. ﴿وخلق﴾ معطوف على بديع السماوات. ﴿كلَّ﴾ مفعول به. ﴿شيء﴾ مضاف إلى كل. ﴿وهو﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿بكل﴾ متعلق بعليم. ﴿شيء﴾ مضاف إلى كل. ﴿عليم﴾ خبر المبتدإ، والجملة تذييل. ﴿ذلكم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الله﴾ خبره. ﴿ربّكم﴾ نعت لله، والضمير فيه مضاف إليه. وجملة لا إله إلاّ هو نعت ثان. ﴿خالق﴾ نعت ثالث. ﴿كل﴾ مضاف إلى خالق.

﴿شيء﴾ مضاف إلى كل. ﴿فاعبدوه﴾ الفاء للتفريع، واعبدوه فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، وضمير الغيبة مفعول به. وجملة ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ الجملة معطوفة على قوله: فاعبدوه. ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فعل مضارع منفي بلا، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والأبصار فاعل تدرك. ﴿وهو يدرك الأبصار﴾

الإسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، وفاعل يدرك ضمير يعود على الله، والأبصار مفعول به، وجملة يدرك في محل رفع خبر هو. ﴿**وهو اللطيف**﴾ مثل وهو يدرك. ﴿**الخبير**﴾ خبرٌ ثانٍ لقوله: وهو، والجملة تذييل. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**جاءكم**﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**بصائر**﴾ فاعل جاء. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بجاء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، ومن اسم شرط جازم. ﴿**أبصر**﴾ فعل الشرط في محل جزم، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**فلنفسه**﴾ الفاء رابطة للجواب،

ولنفسه متعلق بمحذوف، والجملة جواب الشرط، أي: من أبصر فبصره نافع لنفسه. وكذلك ﴿**ومن عمي فعليها**﴾ مثل قوله: فمن أبصر فلنفسه في الإعراب. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما تعمل عمل ليس. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**بحفيظ**﴾ خبر ليس مجرور لفظاً بحرف الجر الزائد، وهو في محل نصب. ﴿**وكذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل، وهو في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وذلك في محل جر مضاف إلى المصدر المقدر. ﴿**نصرف**﴾ فعل مضارع، وفاعله (نحن). ﴿**الآيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والجملة تذييل. ﴿**وليقولوا**﴾ الواو للعطف، واللام للعاقبة والصيرورة، يقولوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وواو الجماعة فاعل. ﴿**درست**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل نصب مقول القول. ﴿**ولنبيّنه**﴾ اللام هنا لام التعليل، والفعل منصوب بعدها بأن، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بنبيّن. ﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم. ﴿**اتبع**﴾ فعل أمر. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**أوحي**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة الموصول. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأوحي. وكذلك ﴿**من ربّك**﴾. ﴿**وأعرض**﴾ معطوف على اتبع. ﴿**عن المشركين**﴾ متعلق بأعرض وجملة لا إله إلا هو اعتراض بين اتبع وأعرض. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. ﴿**شاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**الله**﴾ فاعل شاء. ﴿**ما أشركوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما نافية. ﴿**جعلناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بالمفعول الثاني ﴿**حفيظاً**﴾. ﴿**وما أنت**﴾ ما بمعنى ليس، وأنت اسمها. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بوكيل**﴾ خبر ليس. ﴿**ولا تسبّوا**﴾ الفعل مجزوم بلا الناهية، وفاعله واو الجماعة. ﴿**الذين**﴾ في محل

نصب مفعول به. ﴿**يدعون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**من دون**﴾ متعلق بيدعون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**فيسبوا**﴾ الفاء فاء السببية، ونصب الفعل بأن مضمرة بعدها. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**عدواً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**بغير**﴾ متعلق بمحذوف نعت لعَدْواً. ﴿**علم**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**كذلك**﴾ مثل كذلك السابقة. ﴿**زينا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكل**﴾ متعلق بزينا. ﴿**أمة**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عملهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ثم**﴾ للترتيب والتراخي. ﴿**إلى ربّهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مرجعهم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**فينبئهم**﴾ مرتب على قوله: إليه مرجعهم، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على ربّهم. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يعملون صلة ما. ﴿**وأقسموا**﴾ الواو للعطف، أقسموا فعل وفاعل. ﴿**بالله**﴾ متعلق بأقسموا. ﴿**جَهْدَ**﴾ منصوب على الحال من فاعل أقسموا. ﴿**أيمانهم**﴾ مضاف إلى جهد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لئن**﴾ اللام موطّئة للقسم، إنْ حرف شرط جازم.

﴿**جاءتهم**﴾ في محل جزم فعل الشرط، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**آيةٌ**﴾ فاعل جاءت. ﴿**ليؤمنُنَّ**﴾ اللام واقع في جواب القسم، ويؤمنن فعل مضارع حذفت نون الرفع التي قبل نون التوكيد لتوالي الأمثال، وحذف الفاعل واو الجماعة لالتقاء الساكنين وبقيت الضمة دليلاً عليه. ﴿**بها**﴾ متعلق بيؤمنن، وجواب القسم ليؤمنن أغْنَى عن جواب الشرط في قوله: لئن جاءتهم آية. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**الآيات**﴾ مبتدأ. ﴿**عند**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند، وجملة إنّما الآيات في محل نصب مقول القول. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما استفهامية. ﴿**يشعركم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول به، والفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**أنّها**﴾ أنّ واسمها. ﴿**إذا جاءت**﴾ شرط وفعله. ﴿**لا يؤمنون**﴾ الجملة جواب الشرط، وأنَّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر: والتقدير: وما يشعركم بعدم إيمانهم إذا جاءتهم الآيات؟!، وجملة وما يشعركم استئناف لتعليل الإنكار. ﴿**ونُقَلِبُ**﴾ عطف على قوله: لا يؤمنون. ﴿**أفئدتهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأبصارهم**﴾ معطوف على أفئدتهم. ﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه، وما موصولة في محل جر. ﴿**لم يؤمنوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل، وجملة

لم يؤمنوا صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بيؤمنوا. ﴿**أول**﴾ منصوب على الظرفية. ﴿**مرَّة**﴾ مضاف إلى أول. ﴿**ونذرهم**﴾ معطوف على نُقلّب، والضمير المتصل به مفعول به. ﴿**في طغيانهم**﴾ متعلق بنذرهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يعمهون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال من الضمير المنصوب في ونذرهم، والفاعل (نحن).

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**إنّ الله فالق الحب والنوى**﴾: فُصِل الكلام بما قبله؛ لأنّه كالاستدلال لما تقدم من ذكر التوحيد والبعث والرسالة، وأفانين المواعظ والبراهين التي تخللت ذلك، والاعتبار بخلق الله وعجائب مصنوعاته المشاهدة. والغرض من هذا الكلام إبطال شرك المشركين، وإبطالٌ لمعتقد الملحدين والدهريين من جميع الضالّين والمُضِلِيّن. وافتتاح الكلام بإنَّ للتنبيه على أنّ الناس غفلوا عن البحث في حكمة الخلق، وتمسكوا بأوهام لا تصل بهم إلى مَحَطَّة الصدق، وفي هذا عِلْمٌ ويَقينٌ للمؤمنين من المصدّقين، واستزادة لمعرفتهم بربّهم وشكرهم. وجيء بالجملة الإسميّة للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه؛ لأنّه وصْفٌ ذاتيٌّ لله تعالى. ولمّا كان المقصود الاكتفاء بدلالة فلق الحب والنوى على قدرة الله على إخراج الحيّ من الميت، والانتقال من ذلك إلى دلالته على إخراج الحي من الميت في البعث، لم يُؤتَ بهذا الخبر بما يقتضي الحصر؛ إذ ليس المقامُ مقام القصر. وجملة ﴿**يخرج الحيّ من الميّت**﴾ تتنزّل منزلة بيان المقصود من الجملة قبلها، وهو الفلْق الذي يخرج منه نباتاً أو شجراً نامياً ذا حياة نباتية، بعد أن كانت الحبّة والنواة جسماً صلباً لا حياة فيه ولا نماء.

وهذه الجملة أعم مما قبلها لدلالته على إخراج الحيوان من النطفة أو من البيضة، فهي خبر آخر، ولكنه بعمومه يُبيّنُ الخبر الأول؛ فلذلك حَسَّنَ فَصْلَ الجملة، وعُطف على يخرج الحي من الميّت قولهُ: ﴿**ومخرج الميّت من الحيّ**﴾؛ لأنّه إخبار بضد مضمون يخرج الحيّ من الميّت. وضع آخر عجيب دال على كمال القدرة، ونافٍ تصرُّف الطبيعة بالخلْق؛ لأنّ الفعل الصّادر من العالِم المختار يكون على أحوال متضادة، بخلاف الفعل المتولد عن سبب طبيعيّ!. وفي هذا الخبر تكملةُ بيانٍ لما أجمله قوله: فالق الحب والنوى؛ لأنّ فلْق الحب عن النبات

والنوى عن الشجر يشمل أحوالاً مجملة؛ منها حال إثمار النبات والشجر حباً ييبس وهو في قصب نباته فلا تكون فيه حياة، ونوىً في باطن الثمار يبساً لا حياة فيه، كنوى الزيتون والتمر.

ويزيد على ذلك البيان بإخراج البيض واللبن والمسك واللؤلؤ من بواطن الحيوان الحيْ، فظهر صدور الضدين عن القدرة الإلهية تمام الظهور، وقد رُجّح عطفُ هذا الخبر؛ لأنّه كالتكملة لقوله: يخرج الحيّ من الميّت، أي: يفعل الأمرين مَعاً، كقوله: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا. وقد جيء بجملة: يخرج الحيَّ من الميّت فعلية للدلالة على أنّ هذا الفعل يتجدّد ويتكرّر في كل آنٍ، فهو مراد معلوم وليس على سبيل الصدفة والاتّفاق. وجيء في قوله: ومخرج الميّت من الحيّ اسماً للدلالة على الدّوام والثبات، فحصل مجموع ذلك أنّ كِلاَ الأمرين متجدّد وثابت؛ بمعنى كثير وذاتي، وذلك لأنّ أحد الإخراجين ليس أَوْلى بالحكم من قرينه، فكان في الأسلوب شبه الاحتباك... ﴿**ذلكم الله فأنّى تؤفكون**﴾: الإشارة هنا لزيادة التمييز، وللتعريض لغباوة المخاطبين المشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة، على أنّه المتفرد بالإلهية. وفرّع عليه قوله: فأنّى تؤفكون وهو استفهام تعجيبي إنكاري، والمعنى: لا يُوجد موجب يصرفكم عن توحيده. وبُني فعل تؤفكون للمجهول لعدم تعيّن صارفهم عن توحيد الله، وهو مجموع أشياء؛ وسوسة الشيطان، وتضليل قادتهم، وهوى أنفسهم، والمقصود من هذا هو الاعتبارُ...

﴿**فالق الإصباح**﴾: هذه استعارة لظهور الضياء في ظلمة الليل، فشبه ذلك بفلق الظلمة عن الضياء، فإضافة فالق إلى الإصباح حقيقية، وهي لأدنى ملابسة على سبيل المجاز... ﴿**وجاعل الليل سكناً**﴾: عطف على فالق الإصباح... ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾: معطوف على محل الليل، والعطف على المحلّ شائع في مواضع من كلام العرب. والحُسبان: مصدر كالغفران. والإخبار عن الشمس والقمر بالمصدر إسناد مجازيّ؛ لأنّه في معنى اسم الفاعل، أي: حاسبين، والحاسب هم الناس بسبب الشمس والقمر... ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾: الإشارة إلى الجعل المذكور، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته... ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات**

البر والبحر﴾: الكلام متصل بما قبله بواو العطف، تذكير بوحدانية الله وبعظيم خلقه النجوم، وبالنعمة الحاصلة من نظام سيرها؛ إذ كانت هداية للناس في ظلمات البر والبحر يهتدون بها. والقصد منه الاستدلال على وحدانية الله، فلذلك صِيغَ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمسند إليه.

وقوله: ﴿**قد فصلنا الآيات**﴾، مقصود منه التسجيل والتبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا، واللام للتعليل، وجعل التفصيل ﴿**لقوم يعلمون**﴾ تعريضاً بمن لم ينتفعوا بهذا التفصيل بأنّهم قوم لا يعلمون. والتعريف في الآيات للاستغراق، فيشمل آية خلق النجوم وغيرها. . . ﴿**وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة**﴾: هذه الجملة متصلة بما قبلها بواو العطف، وهذا تذكير بخلق الإنسان، وكيف نشأ هذا العدد العظيم من نفس واحدة. والقصر الحاصل من تعريف المسند إليه والمسند تعريض بالمشركين إذ أشركوا في عبادتهم مع خالقهم غير من خلقهم.

وفرّع عليه قوله: ﴿**فمستقرّ ومستودع**﴾، وهو تفريع المشتمل عليه المقارن على المشتمل. والوصف بالمصدر للمبالغة في الحاصل به، والمقصود التذكير بالحياة الثانية، والواو للجمع، وليست للتقسيم، والمعنى: أنشأكم فشأنكم استقرار واستيداع، فأنتم في حال استقراركم في الأرض ودائع فيها ومرجعكم إلى خالقكم كما ترجع الوديعة إلى مودعها. وإيثار التعبير بهذين المصدرين ما كان إلاّ لإرادة توفير هذه الجملة. وقوله. . . ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾: تقرير لنظيره المتقدم مقصود به التذكير والإعذار. وعدل عن يعلمون إلى يفقهون؛ لأنّ دلالة إنشائهم على هذه الأطوار من الاستقرار والاستيداع وما فيهما من الحكمة دلالة دقيقة تحتاج إلى تدبر؛ فإنّ المخاطبين كانوا معرضين عنها، فعبر عن علمها بأنّه فقه، بخلاف دلالة النجوم على حكمة الاهتداء بها فهي دلالة متكررة، وتعريضا بأنّ المشركين لا يعلمون ولا يفقهون!. فإنّ العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، والفقه هو إدراك الأشياء الدقيقة، فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين، وانتفى الانتفاع به للمشركين. . . ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماء**﴾: لازال الكلام متصلا بعضه ببعض لزيادة التذكير بالنعم المتعددة والمتنوّعة الكامنة والظاهرة في الآفاق وفي الأنفس، وهي كلها تنبئ عن كمال قدرة الله تعالى وسعة رحمته. . . ﴿**فأخرجنا به نبات كل شيء**﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الحضور، وهو إظهار لكمال العناية

بشأن ما أُنزل الماء لأجله. وقوله... ﴿**فأخرجنا منه خضراً**﴾: شروع في تفصيل ما أجمل من الإخراج، وقد بُدئ بتفصيل حال النبات الذي لا ساق له. والخضر: الغصن، وأكثر ما يستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة...

﴿**ومن النخل من طلعها قنوان دانية**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بواو العطف، والمقصود بالإخبار هنا: التعجيب منه خروج القنوان من الطلع وما فيه من بهجة، ولهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها وما بعدها؛ إذ لم تعطف أجزاؤها عطف المفردات، على أنّ موقع الجملة بين أخواتها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة والمنّة... ﴿**إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾: الإشارة إلى المذكور كله من قوله: وهو الذي أنزل، إلى قوله: وينعه. وقد صرح في هذا بأنّ الآيات إنّما تنفع المؤمنين تصريحاً بأنهم المقصودون من الآيتين الأخريين بقوله لقوم يعلمون ولقوم يفقهون وإتماماً للتعريض بأنّ غير العالمين وغير الفاقهين هم غير المؤمنين... ﴿**وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون**﴾: اتصل الكلام بما قبله؛ لبيان ما وصل إليه شرك المشركين، وليظهره أمام الأشهاد، فإذا هو غريب أمام الجو المؤمن المتصل بمبدإ الوجود، ويَعْرض أوهام المشركين فإذا هي سخف تشمئزّ منه القلوب!. وقد كان بعض المشركين يعبدون الجن بوصفهم آلهة مع الله!، وهم لا يعرفون من هم الجن؟!. ولكنها أوهام الجاهلية الوثنية تتعلق بكائن ما كان؛ لأنّ في الفطرة انحرافاً يبعدها عن بساطة التوحيد واستقامته.

ويعقب على هذا بقوله: وخلقهم، وهي لفظة واحدة، ولكنها تحمل الكفاية من السخرية بذلك الادّعاء، ومن القضاء قضاء كاملاً، فإذا كان الله قد خلق الجنّ فما أسخف أن يتخذهم قوم شركاء لله. ولم تكن تلك دعواهم وحدها، فأوهام الوثنية لا تقف عند حدٍّ مادامت لا ترجع إلى مِقْيَاسٍ. وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم!. وفي لفظها ظل خاص يرسم جوّ الطلوع بالقربة التي تُخرّق وتُشق، وهي ادّعاءات لا تقوم على أساس من علم. سبحانه وتعالى عما يصفون!. وهذا تنزيه مطلق لا يلحقه ما وصفوه به؛ شبه التحاشي عن النقائص بالارتفاع؛ لأنّ الشيء المرتفع لا تتصل به الأوساخ التي شأنها أن تكون مطروحة على الأرض، فكما

شُبِّهَ النقص بالسّفالة شُبّه الكمال بالعلوّ. . . ﴿**بديع السماوت والأرض**﴾: شروع في الإخبار بعظم قدرة الله تعالى، وهي تفيد مع ذلك تقوية التنزيه في قوله تعالى: «سبحانه وتعالى عما يصفون» فتتنزل منزلة التعليل لمضمون ذلك التنزيه بمضمونها أيضا، وبهذا الوجه رُجّحَ فصلُها على عطفها.

وجملة ﴿**أنّى يكون له ولد**﴾ تُنزّلُ منزلة التعليل لمضمون التنزيه من الإبطال، لذلك لم تعطف على التي قبلها لاختلاف طريق الإبطال؛ لأنّ الجملة الأولى أبطلت دعواهم من جهة فساد الشبهة فكانت بمنزلة النقض في المناظرة وهذه الجملة أبطلت دعوى من جهة إبطال الحقيقة فكأنها من جهة خطإ الدليل؛ لأنّ قولهم بأنّ الملائكة بنات الله، والجن أبناء الله يتضمن دليلاً محذوفاً على البنوّة، وهو أنّها مخلوقة شريفة، فأبطل ذلك الاستدلال بما ينافي الدعوى، وهو انتفاء الزوجة التي هي أصل الولادة. فهذا الإبطال الثاني بمنزلة المعارضة في المناظرة. وقوله: ﴿**وخلق كل شيء**﴾ عطف على جملة بديع السماوات والأرض باعتبار ظاهرها، وهو الوصف بصفات العظمة والقدرة، فبعد أن أخبر بأنّه تعالى بديع السماوات والأرض أخبر أنّه خالق كل شيء، بمعنى أنّه خالق كل موجود، فيشمل ذوات السماوات والأرض، ويشمل ما فيهما. والملائكة من جملة ما تحويه السماوات، والجن من جملة ما تحويه الأرض عندهم، فهو خالق هذين الجنسين، والخالق لا يكون أباً، ففي هذه الجملة إبطال الولد أيضا، وهذا إبطال ثالث بطريق الكلّيّة بعد أن أبطل إبطالاً جُزْئياً.

وجملة ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾ تذييل لإتمام تعليم المخاطبين بعض صفات الكمال الثابتة لله تعالى، ولكون هذه الجملة الأخيرة بمنزلة التذييل؛ عدل فيها عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: بكل شيء دون أن يقول به؛ لأنّ التذييلات يقصد بها أن تكون مستقلة الدلالة بنفسها؛ لأنّها تشبه الأمثال في كونها كلاماً جامعاً لمعانٍ كثيرةٍ! . . ﴿**ذلكم الله ربّكم**﴾: إشارة إلى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأن المشار إليه وبُعْد منزلته في العظمة. والخطاب هنا للمشركين المعهودين بطريق الالتفات. . . ﴿**لا إله إلاّ هو خالق كل شيء**﴾: ذلكم الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصّة، مالك أمركم لا شريك له أصلا، خالق كل شيء مما كان ومما

سيكون. وقوله: ﴿**فاعبدوه**﴾ حكم مترتب على مضمون الجملة؛ فإنّ من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصّة، ووجه أمرهم بعبادته أنّ المشركين كانوا معرضين عن عبادة الله تعالى، بحيث لا يتوجهون بأعمال البر في اعتقادهم إلا إلى الأصنام، فهم يزورونها ويقرّبون إليها القرابين، وينذرون لها النذور، ويستعينون بها ويستنجدون بنصرتها، وكانوا معرضين عن عبادة الله تعالى؛ فلذلك أُمِرُوا بها صريحاً، وأمروا بالاقتصار عليها بطريق الإيماء بالتفريع. وجملة ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾: معطوفة على جملة فاعبدوه، على وجه تكميل التعليل للأمر بعبادته دون غيره، بأنّه متكفّل بالأشياء كلها؛ من الخَلق والرّزق والإنعام، وكل ما يَطْلُبُ الإنسانُ حفظَه له، فالوجه عبادتُه ولا وجْهَ لعبادة غيره؛ فإنّ اسم الوكيل جامع لمعنى الحفظ والرقابة...

﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير**﴾: جملة ابتدائية جيء بها لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه، فلعظمته تنزّه عن أن يحيط به شيء من أبصار المخلوقين. وذلك تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام التي هي أجسام محدودة محصورة مُتَحَيِّزَة، فكونها مدركة بالأبصار من سمات المُحْدَثات، والمعنى: لا تحيط به أبصارُ المبصرين، والمقصود من هذا بيان مخالفة خصوصيّة الإله الحقّ عن خصوصيات آلهتهم في هذا العالم، فإنّ الله لا يُرى، وأصنامُهُم تُرى، وتلك الخصوصيّة مناسِبَة لعظمته تعالى؛ فإنّ عدم إحاطة الأبصار بالشيء يكون من عظمته فلا تطيقه الأبصارُ.

فعموم النكرة في سياق النفي يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أبصار المبصرين في الدنيا كما هو السياق. ولا دلالة في هذه الآية على انتفاء أن يكون الله يُرى في الآخرة كما تمسك به نفاة الرؤية. وقوله... وهو يدرك الأبصار: معطوف على جملة لا تدركه الأبصار، فاستعير فعل يدرك بمعنى يعلم على وجه المشاكلة، وذلك كناية عن العلم بالخفيّات، وفي الآية مُحسّنُ الطباق. وجملة... وهو اللطيف الخبير: تذييل للاحتراس، دفعاً لتوهم أنّ من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه... ﴿**قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾: جوّ العبارة هنا يتناسق مع ظلال العبارة السابقة، ويستخدم الألفاظ ذاتها في ذلك التنسيق العجيب!، وهو انتقال من

محاجّة المشركين، وإثبات الوحدانية لله بالربوبية من قوله: إنّ الله فالق الحب والنوى، إلى قوله: وهو اللطيف الخبير. فاستؤنف الكلامُ بتوجيه خطاب للنبيء ﷺ مقول لفعل أمر بالقول في أول الجملة، حذف على الشائع من حذف القول للقرينة في قوله: وما أنا عليكم بحفيظ. ومناسبة وقوع هذا الاستئناف عقب الكلام المسوق إليهم من الله تعالى، أنّه كالتوقيف والشرح والفذلكة للكلام السابق، فيقدر: قل يا محمد: قد جاءكم بصائر من ربّكم. وإسناد المجيء إلى البصائر استعارة للحصول في عقولهم؛ شُبّهَ مجيء شيء كان غائبا، تنويها بشأن ما حصل عندهم بأنّه كالشيء الغائب المتوقع مجيئُه، كقوله تعالى: «جاء الحق وزهق الباطل».

ومِنْ ابتدائية جاءت بمنزلة ابتداء السير من جانبه تعالى، وهو منزه عن المكان والزمان، فالابتداء مجاز لغويٌّ، والمقصود التنويه بهذه التعاليم والذكريات التي بها البصائر، والحث على العمل بها؛ لأنّها مُسْدَاةٌ إليهم ممن لا يقع في هديه خلل ولا خطأ، مع ما في ذكر الرب وإضافته من تربية المهابة وتقْويةِ داعي العمل بهذه البصائر، ولذلك فرّع عليه قوله: فمن أبصر فلنفسه: فاستعير الإبصار للعلم بالحق والعمل به؛ لأنّ المهتدي بهذا الهدى الوارد من الله، بمنزلة الذي نُوّر له الطريق بالبدر أوْ غيره فأبصره وسار فيه، وبهذا الاعتبار يجوز أن يكون أبصر تمثيلاً موجزاً ضمّن فيه تشبيه هيئة المُرشد إلى الحق إذا عمل بما أُرشد به بهيئة المبصر إذا انتفع ببصره. واستعير العمى في قوله: ومن عمي فعليها، للمكابرة والاستمرار على الضلال بعد حصول ما شأنه أن يُقْلِعَهُ؛ لأنّ المكابر بعد ذلك كالأعمى لا ينتفع بإنارة الطريق واستعمل اللام من الأول استعادة للنفع لدلالتها على المِلك، وإنّما يُملك الشيء النافع الْمُدّخَرُ للنَّوَائِبِ. واستعيرت على في الثاني للضر والتَّبِعَة؛ لأنّ الشيء الضّار ثقيل على صاحبه يُكلّفُهُ تَعَباً، وهو كالحمل الموضوع على ظهر، وهذا معروف في الكلام البليغ.

وفي الآية محسّن جناس الاشتقاق بين البصائر وأبصر، وملاحظة مناسبة في الإبصار والبصائر، وفيهما محسّن المطابقة بين قوله: أبصر وعمي، وبين اللام وعلى. وجملة وما أنا عليكم بحفيظ: تكميل لما تضمنه قوله: فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، فلا ينالني من ذلك شيء. والإتيان بالجملة الإسمية هنا دقيق،

لأنّ الحفيظ وصف لا يفيد غيْرُه مُفادَه، فلا يقوم مقامه فِعْلُ حَفِظَ، فالحفيظ صفة مشبهة يقدر لها فعل منقول إلى فعل لم ينطق به. وتقديم عليكم على قوله: بحفيظ للاهتمام، ولرعاية الفاصلة... ﴿**وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون**﴾: هذا متصل بجملة قد جاءكم بصائر من ربّكم، والمخاطب بها الرسول، والمعنى: إنّا نصرف الآيات ونبينها تبييناً من شأنه أن يصدر من العالِم الذي درس العلم، فيقول المشركون: درست هذا وتلقيته من العلماء والكتب؛ لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصل إلى أنّ صدور مثل هذا التبيين من رجل يعلمونه أُمِيّاً، لا يكون إلاّ من قبل وحي من الله إليه، وهذا كقوله: «ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر»، وهم قد قالوا ذلك من قبل، ويقولونه ويزيدون بمقدار زيادة تصريف الآيات، فشبّه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة الغائية، واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة على وجه الاستعارة التبعية، ولذلك سميت مثل هذه اللام لام الصيرورة والعاقبة، وأما اللام في قوله: ولنبينه، فهي لام التعليل الحقيقية، والمعنى: أنّ هذا التصريف حصل منه هُدًى للموفَّقين، والمكابرة للمخاذلين... ﴿**اتبع ما أوحي إليك من ربّك لا إله إلاّ هو وأعرض عن المشركين**﴾: جاء هذا الكلام هنا شدّاً لساعد النبيء ﷺ في مقامات دعوته إلى الله.

وفي الإتيان بلفظ ربّك تأنيس للرسول وتلطُّفٌ معه. والمقصود من قوله: ﴿**لا إله إلاّ**﴾ هو إدماج التذكير بالوحدانية لزيادة تقررها وإغاظة المشركين. وقوله: ﴿**ولو شاء الله ما أشركوا...**﴾ الخ تلطف مع الرسول، وإزالة لما يلقاه من الضيق من استمرارهم على الشرك، وتطمين له وتذكيره بحقائق الأمور والأحوال، وليس هذا عذراً لهم ولا لأمثالهم من العصاة.

وقوله: ﴿**وما جعلناك عليهم حفيظاً**﴾: لزيادة التذكير والتسلية، ليزيح عنه كرب إعراضهم عن الإسلام... ﴿**ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم**﴾: هذا عطف على قوله: وأعرض عن المشركين؛ يزيد معنى الإعراض المأمور به بياناً، ويُحقّق ما سبق من القول: أن ليس المقصود من الإعراض ترك الدعوة، بل المقصود الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم؛ لأنّ الرد عليهم بمثل أقوالهم مما يزيد في غيظهم وتصلبهم، وهو ينافي لما أراد الله من

الدعوة في قوله: «وجادلهم بالتي هي أحسن»، فصار السب عائقاً عن المقصود من البعثة. وقوله: كذلك زينّا لكل أمة عملهم: تعريض بالتوعّد بأن سيحل بمشركي العرب من العذاب، مثل ما حل بأولئك في الدنيا، ولما في قوله: ﴿**كذلك زينّا لكل أمة عملهم**﴾ من التعريض بالوعيد بعذاب الأمم، عقّب الكلام بثُمّ التي تفيد الترتيب الرتبي في قوله: ﴿**ثم إلى ربّهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون**﴾؛ لأنّ ما تضمنته الجملة المعطوفة بثُمَّ أعظم مما تضمنه المعطوف عليها؛ لأنّ الوعيد الذي عطفت جملته بثُمَّ أشدُّ وأنكى. والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ ربّهم لقصد تهويل الوعيد، وتعليل استحقاقه بأنّهم يرجعون إلى مالكهم الذي خلقهم فكفروا نعمه وأشركوا به، فكانوا كالعبيد الآبقين يطوّفون ما يطوّفون، ثم يقعون في يد مالكهم. واستعمل الإنباء في لازم معناه، وهو التوبيخ والعقاب.

والفاء للتفريع عن المرجع مؤذنة بسرعة العقاب إثر الرجوع إليه، وفي هذا الكلام نكتة خفيّة مبنيّة على حكمة أبية: وهي أنّ كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض فإنّما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الأخرى، فإنّ المعاصي سموم قاتلة قد برزت في الدنيا بصورة استحسنتها نفوس العصاة، كما نطقت بها هذه الآية الكريمة، وكذا الطاعات، فإنّها مع كونها أحسن المحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة، ولذلك قال ﷺ: «حُفّتِ الجنّة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»، فأعمال الكفرة قد برزت لهم في النشأة بصورة مزيّنة يستحسنها الغواة، ويستحبها الطغاة، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة!. فعند ذلك يعرفون أنّ أعمالهم ماذا؟!. فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها، لما أنّ كلاً منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي... ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها**﴾: عطفت جملة وأقسموا على جملة اتبع ما أوحي إليك من ربك... الآية. والضمير العائد إلى القوم في قوله: وكذب به قومك وهو الحق، مثل الضمائر التي جاءت بعد تلك الآية. ومعنى لئن جاءتهم آية: آية غير القرآن، وهذا إشارة إلى شيء من تَعَلُّلاَتِهِمْ للتمادي على الكفر بعد ظهور الحجج الدامغة لهم، كانوا قد تعللوا به في بعض توركهم على الإسلام. وجملة لئن جاءتهم آية مبيّنة لجملة أقسموا بالله، ومجيء الآية مستعار لظهورها، لأنّ الشيء الظاهر يشبه حضور الغائب، فلذلك يستعار له المجيء.

ومعنى كون الآيات عند الله: أنّ الآيات من آثار قدرة الله وإرادته، فأسباب إيجاد الآيات من صفاته؛ فهو قادر عليها، فلأجل ذلك شُبِّهَتْ بالأمور المدخرة عنده، وأنّه إذا شاء إبرازها أبرزها للناس، فكلمة عند هنا مجاز؛ استعمل اسم المكان الشديد القرب في معنى الاستبداد والاستئثار مجازاً مرسلاً، لأنّ الاستئثار من لوازم حالة المكان الشديد القرب عُرْفاً، كقوله تعالى: «وعنده مفاتح الغيب». والحصر بإنّما ردٌّ على المشركين ظنهم بأنّ الآيات في مقدور النبيء إن كان نبيئاً. وقوله: ﴿**وما يشعركم**﴾، كلام مستقلٌّ وجهه الله إلى المؤمنين. وما استفهامية مستعملة في التشكيك والإيقاظ؛ لئلاّ يغرُّهم قسم المشركين ولا تروج عليهم ترَّهَاتُهم. . . ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**﴾: هذا بيان لقوله: لا يؤمنون، والكاف في قوله: ﴿**كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ لتشبيه حالة انتفاء إيمانهم، بعد أن تجيئهم آيةٌ ممَّا اقْتَرَحُوا، وضمير به عائد إلى القرآن. وتقديم الأفئدة على الأبصار لأنّ العقل محل الدواعي والصوارف، فإذا لاح للعقل بارق الاستدلال وَجَّهَ الحَواسَّ إلى الأشياء والتأمل منها.

ووَجْهُ الجمع بين الأفئدة والأبصار: أنّ الأفئدة تختص بإدراك الآيات العقلية، والأبصار تختصّ بالآيات الحسيّة؛ ولمّا لم يكف المشركين الآيات العقلية ولم ينتفعوا بأفئدتهم لأنّها مقلبة عن الفطرة، وسألوا آياتٍ حسية، أخبر الله المسلمينَ بأنّهم لو جاءتهم آية مبصرة لما آمنوا؛ لأنّ أبصارهم مقلبة أيضاً مثل نقلب تقليب عقولهم. . . ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾: هذه الجملة معطوفة على نقلب، وهي تحقق معنى تقليب الأفئدة والأبصار. والظرفية مجازية للدلالة على إحاطة الطغيان بهم، وفيه تنبيه على أنّ العمه ناشئ عن الطغيان.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**إنّ الله فالق الحب والنوى**﴾: هذه دلائل قاطعة على وجود الصانع وكمال قدرته؛ ليعلم الإنسانُ أنّ حاصل المباحث العقلية والنقلية، إنّما هو معرفة الله وما له من الصفات والأفعال. وهاهنا عجائب: منها شقّ الحبّة والنواة وتفرعها إلى شقين؛ شق يذهب في الأرض باحثاً عن غذاء الشجرة، وشق يذهب إلى أعلى مكوّناً الأغصان والأوراق والأزهار والثمار، فاتجاه الشقين على التبادل ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى إرادة الموجد المختار، ومنها أنّ باطن

الأرض صلب لا تنفذ فيه الذوات الرخوة الرطبة، ونحن نشاهد أطراف عروق الشجرة مع غاية نعومتها تقوى على النفوذ والغوص في تخوم الأرض، فحصول هذه القوة الشديدة للجرم الضعيف ليس إلاّ بتقدير العزيز العليم. ومنها أنّه يتولد من النواة شجرة، ويحصل من الشجرة أغصان وأوراق وأزهار وأثمار، وللتمر قشر أعلى وقشر أسفل، وفيه اللب، وفي اللب الدهن، وغيره المنتفع به الذي هو المقصود الأصلي، فتولد هذه الأجرام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وطعومها وروائحها مع تساوي تأثيرات الجوّ في الطبائع في المادة الواحدة، يدل دلالة قطعية على وجود الفاعل المختار، ومنها اختلاف طبائع وفوائد الفاكهة الواحدة في لبّه ولحمه وقشره ومائه ومنها اختلاف الفواكه والثمار، فمنها ما يكون لبه من الداخل وقشره في الخارج، وبعضها يكون فاكهته المطلوبة في الخارج والخشبة في الداخل، وبعضها يكون لنواه لب وقد لا يكون، وبعض الفواكه يكون كله منتفعاً به، وبعضه ينتفع به الإنسان والحيوان، وبعضه يخص الإنسان فقط، والآخر يخص الحيوان فقط. فهذه الأحوال المختلفة والأشكال المختلفة تتضمّن حِكَماً وفوائد لا يعلمها إلاّ مبدعها، ومنها أنّك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت في وسطها خطّاً واحداً مستقيماً يشبه النخاع في بدن الإنسان، ولا يزال يستدقّ حتى يخرج عن إدارك الحس، ثم ينفصل عن ذلك الخط خطوط دقاق أصغر من الأول؛ لتقوى به الجاذبية المركوزة في جرم تلك الورقة على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضيّة في تلك المجارى الضيقة، فإذا وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة، علمت أنّ عنايته في إيجاد جملة تلك الشجرة أكثر، وعلمت أنّ عنايته بتخليق الحيوان الذي يفوق النبات لأجله يكون أكمل، وكذا عنايته بخلق الإنسان الذي خلق لأجله النبات والحيوان والطير، ذلك مرقاة لك إلى وجود الصانع الخبير الحكيم القدير!.

إنّ هذه الدلائل هي المعجزة الخارقة التي لا يدري سرّها أحدٌ، يعرضها النص في مشهد أليف تراه العيون في كل يوم، فهي قريبة بالمشاهدة، وهي عميقة بالإدراك. وفي كل وقت تنفلق الحبة عن نبتة نامية وتنغلق النواة عن شجرة صاعدة والحياة الكامنة في البذرة والنواة النامية في النبتة، والشجرة سرٌّ مكنون لا يعلم مصدره إلاّ الله تعالى، ولا يدرك كنهه إلاّ الله عزّ وجلّ. وتقف البشرية بعد كل ما رأت من مظاهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها،

وبعد كل ما بحثت في جذورها وأعماقها؛ تقف أمام السر الأعظم، تجهل المصدر والجوهر، وتدرك المظهر والأثر، والحياة ماضية في طريقها والمعجزة تقع ما بين لحظة وأخرى: ﴿**يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ**﴾.

والحياة أنواع ومراحل، والموت ألوان ومراتب، والمبدع الذي يخلق الحياة، ويحولها من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة؛ ذلكم الله: فالذي يقدر على هذا هو الله... ﴿**ذلكم الله فأنى تؤفكون**﴾!. فيكف تصرفون عنه وعن آياته، وهي ظاهرة للمدارك واضحة للعيون؟!.. ﴿**فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾: ذلكم الله فالق الحب والنوى عن حياة نامية مترعرعة ضاربة في الفضاء. فالق الإصباح عن ظلمة الليل المفحم بالسّنَى والضياء، وجاعل الليل سكناً تسكن فيه الحركات والحياة، كما تسكن الحياة في الحبة والنواة. والشمس والقمر حسباناً: مقدرة الحركة محسوبة الدورة، متصلة بالليل والنهار وبالسكن والإصباح. ذلك تقدير العزيز العليم: القادر على إدارة الفلك الهائل بهذه الدقة العجيبة، العليم بأسرار الوجود الهائل، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء... ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**﴾: هذه تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه... تتمّة لعرض المشهد الكوني الهائل!. مرتبطاً بمصالح البشر واهتماماتهم، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر!. فالقرآن لا يجرّد المشاهد من لمساتها الحيّة في النفوس، ولا يغرق في علميات مجردة باردة لاتتعامل مع الوجدان، إنّما هو كتاب عقيدة يغرسها في الضمير، ونظام ينشئه في الجماعة، والذي يعنيه هما هذان الجانبان!.

أما الدراسات العلمية المجردة فهو يَدَعُهَا للعقل البشري، بعد أن يزوده بعقيدة تعصمه من الضلال، ومجتمع يسمح له بالحرّيّة والنشاط!. ومتاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم، كانوا كذلك وما يزالون. والاهتداء بالنجوم يحتاج إلى علم، فيجيء التعقيب: قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون... ﴿**وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾: بعد أن ذكّر الله تعالى ببعض آياته الكونية في الأرض وفي السماء، ذكّر في هذه الآية ببعض آياته في الأنفس، فهو الذي أوجد الناس من نفس واحدة، وهي نفس آدم،

وانتشرت وتكاثرت فمنها حيّ مستقر على الأرض، ومنها ميْتٌ مستودع فيها حتى يبعثه الله يوم القيامة، وهي آيات بينات يدركها الفقهاء ويغفل عنها الجهلاء. . .

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجناتٍ من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾: هذه الآية مرشدة إلى نوع آخر من آيات التكوين، وهو إيجاد الماء وإنزاله على الكيفية المعلومة من السماء، وجعله سبباً لإنبات النبات، وجعل النبات أنواعاً كثيرة مشتبهة وغير متشابهة. ويمضي السياق يلفت أنظار العقلاء إلى مشاهد الحياة المتفتحة في جنات الأرض تراها الأعين وتَسْتَجْلِيهَا الحواس كلُّها، بألوانها وأحجامها وطعومها وروائحها، وتُدَبِّرُها البصائر لترى فيها صنع الله البديع. يلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ودلالة على السر الذي به تنمو الحياة: إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون.

التوجيه الثاني: **﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾**: في هذا التوجيه يلفت اللهُ نظر العقلاء إلى ما وصل إليه المشركون من التّخبُّطِ في الضلال والأوهام؛ ليروا السخف وسوءَ التصرف في الأحكام: قد كان دين العرب في الجاهلية خليطا؛ منها عبادة الأصنام، ومنها عبادة الكواكب مثل الصابئة، ومنها عبادة الشيطان مثل المجوس، ومنها عقائد ملفقة من اليهود والنصارى الذين خرجوا عن دين موسى وعيسى، فإنّ العرب لجهلهم حينئذ كانوا يتلقون من الأمم المجاورة لهم والتي يسافرون إليها عقائد شتى، متقارباً بعضها ومتباعداً بعضها الآخر؛ فيأخذونه بدون تأمُّل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم؛ شأن العلم الصحيح هو الدائد عن العقول من أن تعشش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة، وكان العرب يتبنون الجن وينسبون إليهم تصرفات يتخيلونها من الغرائب والعجائب؛ فلأجل ذلك كانوا يتقون الجن وينتسبون إليها، ويتخذون لها المعاذات والرقي، ويستجلبون رضاها بالقرابين، وترك تسمية الله على بعض الذبائح، وكانوا يعتقدون أنّ الكاهن تأتيه بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطانٌ يُوحي إليه الشعر. ثم إذا أخذوا في تعليل هذه التصرفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهية الله تعالى، تعلّلوا لذلك بأنّ

للجنّ صلة بالله تعالى، فلذلك قالوا: الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن، كما أشار إليه قوله تعالى: «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا»، وقال: «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون، ألا إنّهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنّهم لكاذبون».

ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب شيئاً من عبادتهم للملائكة وللجنّ، قال تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون؟. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون»!. وكان بعض العرب مجوساً عبدوا الشيطان وزعموا أنّه إله الشرّ، وأن الله إله الخير، وجعلوا الملائكة جند الله، والجن جند الشيطان، وهم قد انتزعوا ذلك من الديانة المزدكية المجوسية، القائلة بإلهين: إله للخير وهو (يزدان)، وإله للشر وهو (أهرُمُن)، وكان للعرب أحاديث في تخيلها؛ فهم يتخيلونها قادرة على التشكل بأشكال الموجودات كلها، ويزعمون أنّها إذا مسّت الإنسان آذته وقتلته، وأنّها تختطف بعض الناس في الفيافي، وأنّ لها زجلاً وأصواتاً يسمعها الناس في الفيافي والقفار. ولم تكن تلك دعواهم وَحْدَها، فأوهام الوثنية لا تقف عند حدٍّ مادامت لا ترجع إلى مقياس، فقد اختلقوا وافتروا وادّعوا أنّ لله بنين وبنات، فعند اليهود عُزير، وعند النصارى المسيح، وعند المشركين الملائكة، وقد زعموا أنّهن إناث!. ولا يدري أحد لماذا هُنَّ إناث؟!.

فالادّعاءات كلُّها لا تقوم على أساس من علم؛ سبحانه وتعالى عما يصفون!. وهو ﴿**بديع السماوات والأرض**﴾، فما حاجة من يخلق إلى بنين وبنات. والذرية إنّما هي امتداد للفانين، وعون للمحتاجين، ولذّة لمن لا يخلقون؛ فأمّا من يَخْلُقُ فهو غنيٌّ عن العالمين!. ثم يأخذهم بحجّة قريبة من تصوراتهم ومداركهم، وهم بحسب منطقهم وتصورهم لا يملكون لها دفعا: ﴿**أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**﴾.

والذين يتصورون أن يكون له ولد، لا شك يُصدمون في دعواهم حين يُجبهون بأنّه لم تكن له صاحبة، وهو جدل من نوع إدراكهم ومن جنس تصوراتهم فأما من هم أرقى من هؤلاء إدراكاً وتصوراً في هذه الحجة لا تُوجَّه إليهم، لأنّ الدعوى ذاتَها لا تَرِدُ على خواطرهم. ويمضي السياق ويستمر في استنكار هذا

التصور: ﴿**وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم**﴾، والذي يخلق كل شيء لا يحتاج أن يتخذ له ولداً، فعلاقة كل شيء به ـ والولد داخل في عموم كلمة شيء، بمعنى مخلوق ـ هي علاقة المخلوق بالخالق على السواء. والاستدلال على انتفاء البنوّة عن الله بإبداع السماوات والأرض؛ لأنّ خلق المحل يقتضي خلق الحالّ فيه، فالمشركون يقولون بأنّ الملائكة في السماء، وأنّ الجنّ في الأرض والفيافي، فيلزمهم حدوث الملائكة والجن، وإلاّ لوُجد الحال قبل وجود المحل، وإذا ثبت الحدوث ثبت انتفاء البنوة لله تعالى، لأنّ ابن الإله لا يكون إلاّ إلهاً فيلزم قدمه.

كيف وقد ثبت حدوثه؟!. ولذلك عقب قولهم: «اتخذ الله ولداً»، بقوله: «سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون» في سورة البقرة. هذا الذي أبدع السماوات والأرض، وخلق كل شيء... ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾: فهو وحده الحقيق بأن يكون إلها ـ ﴿**لا إله إلاّ هو**﴾ ـ ومرّة أخرى يكرّر ـ ﴿**خالق كل شيء**﴾ ـ بصيغة الصفة المتكررة لا الفعل الواحد... ﴿**فاعبدوه**﴾: فهو الحقيق إذاً بالعبادة... ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾: أمر كل شيء إليه بلا شريك ولا ولد ولا وكيل... ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾: المقصود من هذه الآية بيان مخالفة خصوصية الإله الحق عن خصوصيات آلهة المشركين، فإنّ الله لا يُرى وأصنامهم تُرى. وتلك الخصوصية مُناسبة لعظمة الله تعالى؛ فإنّ عدم إحاطة الأبصار بالشيء يكون من عظمته فلا تطيقه الأبصار. ولا دلالة في هذه الآية على انتفاء أن يكون الله يُرى في الآخرة، كما تمسك به نفاة الرؤية؛ لأنّ لأمور الآخرة أحوالاً لا تجري على متعارفنا، وأحْرى أن لا دلالة فيها على جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، ومن حاول ذلك فقد تكلف بما لا طائل منه.

التوجيه الثالث: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾: في هذا التوجيه اتجه الخطاب إلى الرسول بالأمر؛ ليقول للناس وفي مقدمتهم من حاول أن يشك في أمر الرسول وصحة هذا الكتاب الذي جاء به: قد جاءكم في هذه الآيات الجلية بصائر من ربّكم العقلية والكونية، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التي يتوقف عليها نيل السعادة الأبدية!؛ لأنّ كل ذلكم من ربّكم الذي خلقكم وسواكم، وربّى أجسادكم ومشاعركم وسائر قواكم،

فمن أبصر بهذا الحق والهدى فآمن وعمل صالحا فلنفسه، ومن ترك طريق الحق بإعراضه عنها وعدم النظر والاستبصار بها فأصر على ضلاله، فإنّما عماه على نفسه وما أنا عليكم بحفيظ... **﴿وكذلك نصرف الآيات﴾**: نصرف الآيات على ذلك النسق؛ ليستدل بها المستعدّون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام... **﴿وليقولوا درست﴾**: يقول هؤلاء المشركون الجاحدون المعاندون منهم والمقلدون: قد درست هذا من قبلُ وتعلمته، فليس هذا وحياً منزلاً كما زعمته... **﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾**: هذا القرآن ينتفع به من تأمل في تصريف آياته، وفهم معنى عباراته، وتذوّق مغزى إشاراته، وهم الذين يعلمون حقاً ويؤمنون صدقاً، فلا عليك بعد هذا من شغب المشاغبين، ولا من ترَّهات المثيرين!.. **﴿اتبع ما أوحي إليك من ربّك لا إله إلاّ هو وأعرض عن المشركين﴾**.

﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل﴾: خلاصة المعنى في هذه الآيات الثلاث: على ذلك النسق نصرف الآيات، وليقول المعاندون: درست هذا يامحمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم، أمّا نحن فنصرف الآيات ونبينها لمن يعلمون ويدركون. وأنت يامحمد فسر في طريقك متبعاً ما أوحي إليك من ربّك الواحد الذي لا إله إلاّ هو، معرضاً عن المشركين غير حافل بهم وبما يقولون؛ ولو شاء الله لجعل من مقتضيات سنته أن لا يشرك هؤلاء، ولكن سنّته القاضية بأن يكون للناس اختيار طريقهم حسبما يزكون أنفسهم أو يتركونها للهوى. هذه السنة العامة تركت هؤلاء يقودون أنفسهم إلى هذا الطريق ويشركون. وما أنت إلاّ رسول ومذكّر لمن يستمع ويتبع، ولم نكلفك أن تكون حفيظاً عليهم ورقيباً مسؤولاً عنهم: وما أنت عليهم بوكيل. وهذا المعنى يتكرر كثيراً في القرآن بمناسباته التي تقتضيه؛ لأنّه في حاجة إلى التكرار، فهو قاعدة أصلية في العقيدة الإسلامية ذات شقين: الشق الأول أنّ للناس أن يهدوا أنفسهم أو يُضلّوها؛ وأنّ سنّة الله ومشيئته اقتضت أن يكون للناس اختيار الطريق؛ فمن اختار طريقه إلى الهدى كان في دائرة تلك السنة، وحقّق المشيئة بمعناها ذاك كذلك من اختار طريقه إلى الضلال والشق الثاني هو النتيجة الطبيعية للشق الأول وهو فردية التبعة؛ فعلى كل إنسان وزره وله سعيه، والرسول ﷺ ليس إلاّ مذكر!، لتستيقظ الفطرة وتستقيم، وتأخذ طريقها إلى الهدى بدلاً من أن تأخذ طريقها إلى

الضلال المبين. ثم يمضي السياق إلى لفتة نفسية في معاملة المشركين، فالنفس البشرية قد تأخذها العزّة حين تهاجم فيما تعتقد ـ أيّاً كانت عقيدتها من الفساد ـ، وقد يقودها هذا إلى التمرد والعناد، ولا يقودها إلى ترك عقيدتها الفاسدة إذا هوجمت فيها بعنف وتحقير! لذلك دعا الله المؤمنين ألاّ يسبُّوا آلهة المشركين، اتقاءَ أن يسبَّ المشركون الله عدواناً وهم لا يعلمون شناعة ما يرتكبون. . .

﴿ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدواً بغير علم كذلك زيّنّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربّهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾: ووجْه النهي عن سب أصنام المشركين هو: أنّ السب لا تترتّب عليه مصلحة دينيّة؛ لأنّ المقصود من الدعوة هو الدلالة على إبطال الشرك، وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى، فذلك هو الذي يتميز به الحق عن الباطل، وينهض به المحق ولا يستطيعه المبطل، فأمّا السب فإنّه مقدور للمحقّ وللمبطل، فيظهر بمظهر التساوي بينهما، وربّما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه مالا يستطيعه المحق؛ فيلوح للناس أنّه تغلب على المحق. على أنّ سب آلهتهم لمّا كان يحمي غيظهم ويزيد تصلبهم قد عاد منافياً لمراد الله من الدعوة، فقد قال لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «وجادلهم بالتي هي أحسن»، وقال لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ «فقولا له قولاً ليناً»، فصار السب عائقاً عن المقصود من البعثة، فتمحض هذا السب للمفسدة ولم تكن فيه أي مصلحة. ومعنى التزيين يتضح على ضوء ما سلف فهي فطرة وخلقة أن يروق عمل كل إنسان في عين نفسه، ولكن هذا جانب من الفطرة، والجانب الآخر هو استعداد الإنسان بنقد وموازنة وتعرّف الخطإ والصواب.

التوجيه الرابع: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها. . .﴾ إلخ: في هذا التوجيه يُظهر الله حقيقة الكافرين المعاندين الذين يقسمون بالله جاهدين أنّهم لو جاءتهم آية يعتبرونها هم آية ليؤمنن بها، وليصدقُنّ من تأتي على يديه، ويردُّ الله عليهم هذا الادّعاء فيأمر نبيه بأن يقول لهم: ليس مجيء الآية موكولة باقتراحكم، ولا هي تحت تصرف أحد من الناس، ولا هي تحت تصرف رسول مرسل محبّب، ولا تحت تصرّف مَلَكٍ مُقَرَّب، إنّما الآيات عند الله يُصرّفُها كما يشاء، يؤمن بها من يهديه الله للإيمان، ويجحدها من يريد إضلاله بالكفر

والطغيان. **﴿وما يشعركم أنّها إذا جاءت لايؤمنون﴾**: فلا يغرنّكم ما قالوا وما أقسموا من الأيْمان المؤكّدة المغلظة، إنّما هي تعلاّت وإعنات، فهم غير مستعدّين للإيمان بالآيات.

وما يشعركم أيضاً أنّنا نقلّب أفئدتهم عند مجيء الآية بالخواطر والتأويلات، والتفكر في استنباط الاحتمالات! ونقلب أبصارهم في توهم التخيلات، كشأنهم في عدم إيمانهم بما جاءهم أوّل مرّة من الآيات. وتقليب الأبصار من قبيل قوله تعالى: «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنّما سُكِرّتْ أبصارُنا بل نحن قوم مسحورون»، فإنّ من لم يقنعه ما اشتمل عليه القرآن من الآيات العقلية العلمية، لا يقنعه ما يراه بعينيه من الآيات الحسيّة، بل يدّعي أن عينيه خُدِعَتا أو أُصيبَتا بآفة، فَهْيَ لا تَرَى إلاّ صِوَراً خيالية، أو أنّه من أعمال السحر الصناعيّة. **﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾**، وهكذا يتركهم في لجج الضلال يغرقون، فلا صريخ لهم ولا هم يُنقذون!.

1 ـ كفر المشركين بالآيات
دليل على تمسكهم بالأباطيل والافتراءات

النص

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (112) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (113) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (114) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (115) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (116) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (117) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (118) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (119)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا
لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿120﴾
۞ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿121﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ
ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿122﴾
أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ
فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ
كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿123﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ
وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿124﴾ وَإِذَا
جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ
ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿125﴾
فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن
يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿126﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ

رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿127﴾
* لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿128﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ
وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا
أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿129﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي
بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿130﴾ يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا
عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿131﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن
رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿132﴾
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿133﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ
كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿134﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿135﴾ قُلْ يَا قَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

مَن تَكُونُ لَهُۥ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿136﴾
* وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا
فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ
سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿137﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ
لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿138﴾
وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ
لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿139﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن
مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿140﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ
سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً
عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿141﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً**﴾: الحشر: الجمع. والقِبَلُ: المواجهة والمقابلة... ﴿**ولكن أكثرهم يجهلون**﴾: الجهل هنا: مقابل العلم... ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن**﴾: العدو: اسم يقع على الواحد والمتعدد «إنّ الشيطان لكم عدو»، «هم العدوّ فاحْذَرْهُم». وشيطان الإنس: المضلّل والذي يفعل الخبائث من الناس، ومنه شياطين العرب لجماعة من خُبَاثِهِم، وشيطان الجن: إبليس، وشياطينهم: ذريته وقبيلُه «إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» «أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ...» ﴿**يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾: الوحي: الكلام الخفيّ، وهو هنا إلقاء الوسوسة بالشر، يلقيه شيطان الجن إلى شيطان الإنس، فيكون زعيماً لأهل الشر والفساد. والزخرف: الزينة، والمراد هنا القول المزين الذي يراد ترويجه على الغافل. والغرور: الخداع والإطماع بالنفع لقصد الإضرار...

﴿**ولتصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾: تصغىٰ: تميل، يقال صغى يصغي صغياً مال. والأفئدة: جمع فؤاد، وهو العقل، مأخوذ من التفؤُّد وهو التوقّد، وسمي العقل فؤاداً لتوقده، فكأنّه شعلة من نار تُضيء ظلام الجهل. ﴿**وليرضوه**﴾: يرضونه لأنفسهم، بأن مالت إليه أفئدتهم... ﴿**وليقترفوا ما هم مقترفون**﴾: الاقتراف: افتعال من قرف إذا كسب سيئة، يقال: قرف واقترف وقارف، وهذه المادة تؤذن بأمر ذميم... ﴿**أفغير الله أبتغي حكماً**﴾: الحَكَمُ: الحاكم المتخصص بالحكم الذي لا ينقص حكمه، وهو أخص من الحاكم... ﴿**وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً**﴾: الكتاب: القرآن. والمفصل: المبيَّن الواضح الذي لا رمز فيه ولا إبهام... ﴿**والذين آتيناهم الكتاب**﴾: هم أحبار اليهود الذين يتردّدون على أهل مكة ويتعاملون معهم... ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾: جمع ممترٍ، والممتري: الشاك...

﴿**وتمت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً**﴾: حقيقة التمام: كون الشيء وافرة أجزاؤه، ويطلق التمام على حصول المنتظر وتحققه، يقال: تمّ ما أخبرَ به فلان،

ويقال: أتم وعده ـ حقّقه -، والمراد بالكلمات: القرآن. والصدق: المطابقة للواقع في الإخبار، وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد، والنفوذ في الأمر والنهي، فيشمل الصدقُ كلَّ ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق. والعدل: إعطاء من يستحق ما يستحق، ودفع الاعتداء والظلم عَنِ المظلوم، وتدبير أمور الناس بما فيه صلاحهم؛ فيشمل العدلُ كلَّ ما في كلمات الله من تدبير شؤون الخلائق في الدنيا والآخرة...

﴿**لا مبدل لكلماته**﴾: حقيقة التبديل: جعلُ شيء مكان شيء آخر، ويكون في الذوات وفي الصفات... ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾: الطاعة: اسم للطوع الذي هو مصدر طاع، بمعنى: انقاد وفعل ما يؤمر به عن رضى دون ممانعة، فهي ضد الكره. ويقال: طاع وأطاع، ويستعمل في قبول قول الغير، والطاعة هنا مستعملة في هذا المعنى، وهو قبول قول الغير. وأكثر من في الأرض: هم أكثر سكان الأرض، والمراد بالأرض هنا: هي التي يعيش عليها الناس، وهي الدنيا كلها. وسبيل الله: دينه؛ لأنّه الطريق الموصل إلى السلامة... ﴿**إن يتّبعون إلاّ الظن**﴾: الظن في اصْطلاح القرآن: الاعتقاد المخطئ عن غير دليل، الذي يحسبه صاحبه حقاً وصحيحاً... ﴿**وإن هم إلاّ يخرصون**﴾: الخرص: الظن الناشئ عن وجدان في النفس مستند إلى تقريب، ولا يستند إلى دليل يشترك العقلاء فيه، وهو يرادف الحزر والتخمين، ومنه خرص النخل والكرم... ﴿**إنّ ربّك هو أعلم من يضل عن سبيله**﴾: أعلم: اسم تفضيل للدلالة على أنّ الله لا يعزب عن علمه عمل أحد من الضالين ولا أحد من المهتدين... ﴿**وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه**﴾: تقول العرب: ما لك أنْ لا تفعل كذا؟. وتقدير الكلام هنا: وأيُّ شيء ثبت لكم من الفائدة في ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه؟.. ﴿**وقد فصّل لكم ما حرم عليكم**﴾: التفصيل والتبيين واحد؛ فهو فصْلُ بعض الأشياء وإبانتها من بعض آخر يتصل بها اتصالاً حسيّاً أو معنويّاً... ﴿**إلاّ ما اضطررتم إليه**﴾: الاضطرار: الاحتياج إلى الشيء، واضطره إليه: أحوجه وألجأه فاضطُرّ...

﴿**وإنّ كثيراً لَيَضِلّون بأهوائهم بغير علم**﴾: ضل بسبب هواه: ابتعد عن الهداية لحاجة في نفسه يراها صواباً. والمراد بالعلم: الجزم المطابق للواقع عن دليل،

وهذا كقوله: «إن يتّبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون...» ﴿**إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين**﴾: الاعتداء: الظلم، فهم تقلّدوا الضلال من دون حجة ولا نظر، فكانوا معتدين على أنفسهم، ومعتدين على كل من دعوه إلى موافقتهم... ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه**﴾: الإثم في اللغة: القبيح الضار. وفي الشرع: كل ما حرمه الله تعالى. والظاهر منه: ما فُعل عَلَناً. والباطن: ما فُعِلَ سِرّاً... ﴿**إنّ الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون**﴾: تقدم معنى الاقتراف، ومعنى الجملة: إنّ الذين يكتسبون جنس الإثم سواء أكان ظاهراً أم باطناً سيلقون جزاء إثمهم... ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق**﴾: الفسق: الخروج عن طاعة الله، والترك لأمره، والخروج عن طريق الحق. والفجور: مثل الفسوق، ومعنى إنه لفسق: إنّه لخروج عن الحق...

﴿**وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم**﴾: المراد بأولياء الشياطين: المشركون. والمجادلة: المنازعة بالقول للإقناع بالرأى، والمراد هنا: المجادلة في إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره... ﴿**وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون**﴾: إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه، وهو الطعن في الإسلام، والشك في صحّة أحكامه... ﴿**أومن كان ميتاً فأحييناه**﴾: الميت هنا: مَنْ كان على الكفر فأحييناه بالإسلام... ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾: النور: هداية القرآن... ﴿**كمن مثله في الظلمات**﴾: هي ظلمات الكفر... ﴿**ليس بخارج منها**﴾: خابط في ظلمات الجهل والتقليد الأعمى وفساد الفطرة... ﴿**كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون**﴾: مثل ذلك التزيين للكافرين، العجب كيداً ودقّة، زُيّن لهؤلاء الكافرين أعمالهم، والمزيّن شياطينُهم وأولياؤهم. والمراد بالكافرين: المشركون الذين مرّ الكلام عليهم في الآيات السابقة... ﴿**وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها**﴾: الجعل هنا بمعنى الخلق، ووضع السنن الكونية، وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشر في كل مجتمع، وبخاصّة القرى. وقد يكون الجعل بمعنى التَّصْيِير، وهو تصيير خلق على صفة مخصوصة، أو تصيير مخلوق إلى صفة بعد أن كان في صفة أخرى.

ولفظ أكابر: جمع أكبر. والمجرمون: أصحاب الجُرم. والقرية: البلد الجامع للناس... ﴿**ليمكروا فيها**﴾: المكر: صرْف الْمَرْءِ غيْرَه عما يريده إلى غيره،

بضرب من الحيلة في الفعل، أو الخلابة في القول.. والأكثر فيه أن يكون الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الخير إلى الشر؛ لأنّ الحق والخير قلّما يُحتاج إلى إخفائهما بالحيلة والخلابة... **﴿وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون﴾**: عاقبة هذا المكر السّيّء يحيقُ بهم في الدنيا والآخرة، ولم يكونوا يشعرون بأنّ عاقبة مكرهم تحيق بهم؛ لجهلهم بسنن الله تعالى في خلقه!... **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾**: إذا جاءتهم آية من آيات القرآن فيها دعوتهم إلى الإيمان، قالوا: لن نؤمن حتى يأتينا وحْيٌ مِثْلُ وحي الرسل... **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾**: الرسالة فضل من الله لا ينالها أحدٌ بكسب، ولا يتوسل إليها بسبب، ولا يختص بهذه الرحمة العظيمة والمنقبة الكريمة إلاّ مَنْ كان أهلاً لها بما أهله الله من سلامة الفطرة، وعُلُوِّ الهمّةِ، وزكاء النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق...

﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾: الذين أجرموا: أكابر المجرمين من المشركين بمكة. والصغار: الذلة والهوان، جزاء على الكبر والطغيان، وهو مشتق من الصغَر، وهو القماءة والدناءة ونقصان الشيء عن أمثاله... **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾**: حقيقة الهداية: إصابة الطريق الموصل للمكان المقصود، ومنه إرشاد العقل إلى سبيل الحق، وأصل الشرح: شق اللحم، والشريحة القطعة من اللحم تُشَقُ حتى تُرقّق ليقع شيُّها، واستعمل الشرح في كلام العرب في البيان والكشف، واسْتُعْمِلَ كذلك في انجلاء الأَمْرِ ويقين النفس به، وسكون البال له، بحيث لا يتردّد فيه ولا يغتمّ منه. والصدر: مراد به الباطن المعبّر عنه بالفهم والعقل، فمعنى يشرح صدره: يجعل لنفسه وعقله استعداداً وقبولا لتحصيل الإسلام، وتسهيلاً للعمل بتعاليمه... **﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾**: حقيقة الإضلال تخطئة الطريق المطلوب. والضيّق: وصف الشيء بالضيق، واستعمل الضيق لضدّ ما استعمل له الشرح، فأريد به الذي لا يستعد لقبول الإيمان ولا تسكن نفسه لتعاليم الإسلام، بحيث يكون مضطرب البال مزعزع الأفكار لا يستمرّعلى حال. والحرج: الضيق ضيقاً شديداً مأخوذ من الحرج؛ الموضع الكثير الشجر... **﴿كأنّما يصعّد في السماء﴾**: يصّعّد: يتكلف الصعود وهو عليه شاق. والسماء هنا: الجو الذي يعلو الأرض...

﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾: الرجس: الخبث

والفساد، والمراد به هنا: خبث النفس، وهو رجس الشرك، فالرجس يعم سائر الخباثات النفسية الشاملة لضيق الصدر وحرجه... ﴿**وهذا صراط ربّك مستقيماً**﴾: هذا هو دين الإسلام الذي منهجه القرآن.. صراط موصل إلى رضى الله تعالى. مستقيماً: سالماً من العوج لوضوحه وسهولة سلوكه... ﴿**قد فصّلنا الآيات**﴾: وضحنا آيات القرآن الدالة على سلامة الوصول إلى المطلوب... ﴿**لقوم يذكّرون**﴾: المراد بالقوم المسلمون لأنّهم الذين أفادتهم الآيات وتذكروا بها... ﴿**لهم دار السلام عند ربّهم**﴾: الدار: مكان الحلول والإقامة.

والدار مشتقة من فعل دار يدور لكثرة دوران أهلها. والسلام: الأمان، والمراد به هنا: الأمان الكامل الذي لا يعتري صاحبه شيءٌ مما يُخافُ من الموجودات؛ جواهرها وأعراضها. ودار السلام: الجنة؛ لأنّ السلامة الحق فيها؛ لأنّها قرار أمن من كل مكروه للنفس، ودار السلام: مكانة الأمان عند الله، وهي حالة فيها الأمان من غضبه وعذابه...

﴿**وهو وليهم بما كانوا يعملون**﴾: الولي: يطلق بمعنى الناصر، وبمعنى الموالي... ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس**﴾: المعشر: الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو مشتق من المعاشرة والمخالطة. والاستكثار: شدّة الإكثار، مثل الاستسلام والاستكبار، ومعنى استكثرتم من الإنس، أي: من إحلال الإنس في استهوائهم واستغوائهم فطوعتم منهم كثيراً جداً...

﴿**وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا**﴾: وأولياء الشياطين: هم المشركون الذين وافوا الحشر على الشرك. ومعنى استمتع بعضنا ببعض: انتفع وحصّل شهوته وملائمه. واستمتاع الإنسي بالجن: هو انتفاعهم في العاجل بتيسير شهواتهم وفتح أبواب اللذات والأهواء لهم. واستمتاع الجن بالإنس: هو انتفاع الجن بتكثير أتباعهم من أهل الضلالة، وإعانتهم على إضلال الناس، والوقوف في وجه دعاة الخير، فكُلٌّ من الفريقين أعان الآخر على تحقيق ما في نفسه؛ مما فيه ملائم طبعه وارتياحه لقضاء وطره. وبلغنا الأجل الذي أجلته لنا للوقوع في قبضتك، فسُدّت الآن دوننا المسالك فلا مفر... ﴿**قال: النار مثواكم خالدين فيها**﴾: المثوى: اسم مكان، من ثوى بالمكان إذا أقام به؛ إقامة

سكنى أو إطالة مكث، وقد بيّن الثواء بالخلود بقوله: ﴿**خالدين فيها**. . .﴾

﴿**وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**﴾: وكما ولينا ما بين هؤلاء المشركين وبين أوليائهم نولي بين الظالمين كلهم، بعضهم مع بعض. والتولية يجيء من الوَلاء ومن الولاية. . . ﴿**يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾؟: الرسل: ظاهره أنّه جمع رسول بالمعنى المشهور في اصطلاح الشرع، وبالمعنى اللغوي يطلق الرسول على من أرسله غيره، فهو أعم من الشرعي. والقصّ كالقصص: الإخبار، ومنه القصة. والمراد من الآيات آيات القرآن. والإنذار: الإخبار بما يُخيف ويُكْرَهُ، وهو ضد البشارة. . . ﴿**قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾: معناه الإقرار بما تضمنه الاستفهام من إتيان الرسل إليهم، واستعملت الشهادة في معنى الإقرار؛ لأنّ الشهادة الإخبار عن أمر تحققه المُخْبِرُ وبيّنه. وشهد عليه: أخبر عنه المُثْبِتِ المتحقّق. . . ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾: غرهم متاع الحياة الدنيا؛ من الشهوات والمال والجاه وحب الرئاسة والسلطان على الناس. . . ﴿**ذلك إن لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون**﴾: الإهلاك: إعدام ذات الموجود وإماتة الحيّ، فإهلاك القرى: إبادة أهلها وتخريبها، فمعنى إهلاك القرى هنا شامل لإبادة سكانها. والظلم هنا: الشرك. . .

﴿**ولكل درجات ممّا عملوا وما ربّك بغافل عما يعملون**﴾: لكل من مَعْشَرَي الجن والإنس الذين بلغتهم دعوة الرسل درجات ومنازل من جزاء أعمالهم تتفاوت بتفاوتهم فيها، وأريد بالدرجات ما يرتقى عليه من أسفل إلى أعلى، وما يُنزل عليه من أعلى إلى أسفل يُقال له: دركات. . . ﴿**وربّك الغني ذو الرحمة**﴾: الغني: هو الذي لا يحتاج إلى غيره، والغنيُّ الحقيقيُّ هو الله تعالى. وذو الرحمة: صاحب الرحمة. . . ﴿**إن يشأ يذهبكم ويستخلف مِنْ بعدكم ما يشاء**﴾: المراد بالإذهاب: الإعدام. والاستخلاف بمعنى الخلف عن الشيء، والخلف: العوض عن شيء فائت. . . ﴿**إنّما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين**﴾: الإتيان: حصول الموعود به المنتظر وقوعُه. وحقيقة المعجز: هو الذي يجعل طالب شيء عاجزاً عن نواله، ويستعمل في معنى الإفلات من تناول طالبه. . .

﴿**قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل**﴾: المكانة: مصدر مكن مكانة إذا

تمكّن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، والمعنى هنا: اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإني ثابت على الإسلام ومصابرتكم... **﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنّه لا يفلح الظالمون﴾**: العاقبة في اللغة: آخرُ الأمْرِ وأثر عمل العامل، فعاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء ويظهر في آخره من أثر ونتيجة، وتأنيثه على تأويل الحالة، فلا يقال: عاقب الأمر، ولكن عاقبة وعُقْبَى، وهما تختصان بالثواب إن تجردتا عن الإضافة. والدار: الموضع الذي يحل به الناس من أرض أو بناء... **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾**: الجعل هنا: معناه الصرف والتقسيم، وحقيقة معنى الجعل هو التصيير، فمعنى جعلوا لله: صرّفوا ووضعوا لله.

ومعنى ذرأ: أنشأ شيئاً وكثّره، فمعنى ذرأ هنا: الإنماء في الذوات والأنواع. والحرث مراد به الزرع والشجر، وهو في الأصل من إطلاق المصدر على اسم المفعول، ثم شاع ذلك الإطلاق حتى صار الحرث حقيقة عرفية في الجنات والمزارع.

والنصيب: الحظ والقِسم، والتقدير: جعلوا لله نصيباً ولغيره نصيباً آخر... **﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾**: الزعم: الاعتقاد الفاسد، أو القريب من الخطإ. والشركاء هنا جمع شريك، ومعناه: شريك لله في العبادة والتعظيم، ولما شاع ذلك عندهم صار كالعَلَم بالغلبة... ألا ساء ما يحكمون: قبُح حكْمُهم، وبئس هذا الحكم!.. **﴿وكَذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾**: التزيين: إظهار الشيء في صورة حسنة تنخدع بها النفس، ومعنى تزيين ما ذكر في الآية: أنّ الشركاء خيّلوا للمشركين فوائد وقُرُباً في هذا القتل، فيأتونهم بأنواع من المعاني التي تروج عندهم. والشركاء هنا: شياطين الجن بالوسوسة، وشياطين الإنس من سدنة المعابد والزعماء في الدين. وقتل الأولاد: وأد البنات، ونذر الأبناء للأصنام: يُذبحون تقرُباً لها، والمعنى: أنّ شركاءَهم من الشياطين، أو من سدنة الأصنام زيّنوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنحر... **﴿ليُرْدُوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾**: الإرداء: الإيقاع في الردى. والردى: الموت والضر الشديد. ولبس عليه: أوقعه في اللبس، وهو الخلط والاشتباه...

﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾: الأنعام جمع نَعَم، وهي الإبل والبقر

والضأن والمعز. والحرث: أصله شق الأرض بآلة ليزرع فيها أو يغرس، ويطلق على المكان المحروث. وعلى الأرض المزروعة والمغروسة. والحجر: اسم للمحجور الممنوع أن يُتَصَرَّفَ فيه، ويجري وصفاً للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع، وأصله ما أحيط بالحجارة، ومنه حِجْر الكعبة، وسُمِّي العقل حِجْراً؛ لأنّه يمنع صاحبه مما يضر ويُقبح من الأعمال... **﴿لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم﴾**. **﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾**: المخالصة: السائغة المباحة لا شائبةَ حَرَج فيها. والمحرّم: الممنوع. والأزواج: جمع زوج وهو وصف للشيء الثاني لغيره، فكل واحد من شيئين اثنين زوج، ولذلك سمي حَلِيلُ المرأة زوجاً، وهو وصف يلازم حالة واحدة فلا يؤنث... **﴿سيجزيهم وصفهم﴾**: الوصف: ذكر حالات الشيء الموصوف، وما يتميز به لمن يريد تمييزه في غرض ما.

والوصف هنا: هو ما وصفوا به الأجنة من حل وحرمة لفريق دون فريق، وجزاؤهم عنه هو جزاء سوء بقرينة المقام... **﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾**: حقيقة الخسران: نقصان مال التاجر، وأصل الْخُسْرِ النقص وقلة النفع من الشيء، وضياع الأمر والحال. والسفه: خفّة العقل واضطرابه، ويُطلق على الجهل بفوائد الشيء والغرض منه. وفعلهم هذا سفه محض. وأيُّ سفه أعظم من إضاعة مصالح جمة، وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة!.. **﴿وحرّموا ما رزقهم الله افْتِرَاءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾**: الضلال: خطأ الطريق الموصل إلى المقصود، فهم راموا البلوغ إلى مصالح دنيوية، والتقرب إلى الله وإلى شركائهم فوقعوا في المفاسد العظيمة، وأبعدهم الله بذنوبهم، فلذلك كانوا كمن رام الوصول.. فسلك طريقا آخر غير الطريق المطلوب.

مبحث الإعراب

﴿ولو﴾ الواو للعطف، ولو للشرط. **﴿أنّنا﴾** أنّ واسمها. **﴿نزّلنا﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر أنّ. **﴿إليهم﴾** متعلق بنزلنا. **﴿الملائكة﴾** مفعول به. **﴿وكلمهم الموتى﴾** معطوف على نزلنا، الموتى فاعل. **﴿وحشرنا﴾** معطوف على نزلنا. **﴿عليهم﴾** متعلق بحشرنا. **﴿كل﴾** مفعول به. **﴿شيء﴾** مضاف إلى كل. **﴿قبلا﴾** مصدر منصوب على الحال من كل. **﴿ما﴾** نافية.

﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**ليؤمنوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، وواو الجماعة فاعل، وجملة ما كانوا ليؤمنوا جواب لو. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**أن يشاء**﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**ولكنّ**﴾ الواو للعطف، ولكن للاستدراك. ﴿**أكثرهم**﴾ اسم لكنّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يجهلون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لكنّ.

﴿**وكذلك**﴾ الواو للعطف، والكاف للتشبيه. ذلك في محل جر بكاف التشبيه. ﴿**جعلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكل**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**نبيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عدوّاً**﴾ مفعول به. ﴿**شياطينَ**﴾ بدل من عدوّاً. ﴿**الإنس**﴾ مضاف إلى شياطين. ﴿**والجن**﴾ معطوف على الإنس. ﴿**يوحي**﴾ فعل مضارع. ﴿**بعضهم**﴾ فاعل يوحي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلى بعض**﴾ متعلق بيوحي، وجملة يوحي في محل نصب على الحال من شياطين. ﴿**زخرف**﴾ منصوب على النيابة عن المفعول المطلق. ﴿**القول**﴾ مضاف إلى زخرف. ﴿**غروراً**﴾ مفعول لأجله. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، ولو شرطية. ﴿**شاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**ربّك**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما فعلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول منفيّ بما، جواب الشرط. ﴿**فذرهم**﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، ذرهم فعل أمر، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**وما**﴾ اسم موصول في محل نصب معطوف على الضمير المفعول. ﴿**يفترون**﴾ الجملة صلة ما.

﴿**ولتصغىٰ**﴾ الواو للعطف، واللام للتعليل، تصغىٰ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ونصبه مقدّر على الألف. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتصغىٰ. ﴿**أفئدةُ**﴾ فاعل تصغىٰ. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى أفئدة. ﴿**لا يؤمنون**﴾ الجملة صلة الذين. ﴿**بالآخرة**﴾ متعلق بالصلة. ﴿**وليرضوه**﴾ معطوف على قوله: ولتصغىٰ. ﴿**وليقترفوا**﴾ كذلك. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**هُمْ**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**مقترفون**﴾ خبر المبتدإ، والجملة صلة ما. ﴿**أفغير الله**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للتفريع، وغير مفعول ﴿**أبتغي**﴾ مقدم عليه. ﴿**حكماً**﴾ حال، وأبتغي فعل مضارع، والفاعل أنا. ﴿**وهو الذي**﴾ جملة من مبتدإ وخبر حال، فالواو واو الحال. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة الذي. ﴿**إليكم**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به. ﴿**مفصلاً**﴾ حال من

الكتاب. ﴿**والذين**﴾ الواو للعطف، والذين في محل رفع مبتدأ. ﴿**آتيناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الذين. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثانٍ لآتينا. ﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر الذين. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**مُنزَلٌ**﴾ خبرها. ﴿**من ربّك**﴾ متعلق بمنزّل، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**بالحق**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير الكتاب في منزَلٌ. ﴿**فلا**﴾ الفاء للترتيب، ولا للنهي. ﴿**تكوننّ**﴾ مبني على الفتح في محل جزم، واسم تكونن ضمير المخاطب. ﴿**من الممترين**﴾ متعلق بمحذوف خبرها. ﴿**وتمّت**﴾ الواو للعطف، وتمت فعل ماض. ﴿**كلمات**﴾ فاعل. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى كلمات، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**صدقاً**﴾ حال من كلمات ربّك. ﴿**وعدلاً**﴾ معطوف على صدقاً. ﴿**لا مُبَدِّلَ**﴾ مبني على الفتح في محل نصب بلا النافية للجنس. ﴿**لكلماته**﴾ متعلق بمبدّل، والضمير فيه مضاف إليه، وخبر لا مقدّر، أي: موجود، وجملة لا مبدّل بيانية. ﴿**وهو السميع العليم**﴾ جملة المبتدإ والخبر تذييلية. ﴿**وإنْ تطع**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**أكثر**﴾ مفعول به.

﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى أكثر. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف صلة مَنْ. ﴿**يضلّوك**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**عن سبيل**﴾ متعلق بيضلّوك. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**إن يتّبعون**﴾ فعل مضارع منفيّ بإنْ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**الظن**﴾ بدل من المفعول المقدّر. ﴿**وإن هم**﴾ في محل رفع مبتدأ منفي بإنْ. ﴿**إلاّ**﴾ مثل إلاّ السابقة. ﴿**يخرصون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع بدل من خبر هُمْ.

﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**أعلم**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب بنزع الخافض. ﴿**يضل**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**عن سبيله**﴾ متعلق بيضل، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة إنّ ربّك تعليلية. ﴿**وهو أعلم**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على قوله: إنّ ربّك هو أعلم. ﴿**بالمهتدين**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**فكلوا**﴾ الفاء للترتيب والتفريع، والأمر للإباحة. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**ذكر**﴾

فعل ماض مبنيّ للمجهول. ﴿**اسم**﴾ نائب الفاعل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى اسم. ﴿**عليه**﴾ متعلق بذُكر، والجملة صلة ما. ﴿**إن كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**بآياته**﴾ متعلق بمؤمنين بعدها. ﴿**مؤمنين**﴾ خبر كان، والجملة فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: فكلوا.

﴿**وما**﴾ الواو للعطف، ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**أن لا تأكلوا**﴾ فعل مضارع منفي بلا منصوب بأن، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بفي، والتقدير: أيُّ شيء حصل لكم في عدم أكلكم ممّا ذكر اسم الله عليه؟. ﴿**وقد**﴾ الواو للحال، قد للتحقيق. ﴿**فصّل**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**لكم**﴾ متعلق بفصّل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول فصّل. ﴿**حرّم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بحرّم، وجملة وقد فصّل في محل نصب على الحال. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب على الاستثناء. ﴿**اضطررتم**﴾ مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير المخاطبين.

﴿**إليه**﴾ متعلق باضطررتم، وجملة اضطررتم صلة ما. ﴿**وإنّ كثيراً**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ليضلون**﴾ الجملة في محل رفع خبر إنّ، والجملة معطوفة على قوله: وما لكم ألاّ تأكلوا. ﴿**بأهوائهم**﴾ متعلق بيضلون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بغير**﴾ كذلك. ﴿**علم**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**أعلم**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**بالمعتدين**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**وذروا**﴾ فعل أمر والواو فيه اعتراضية. ﴿**ظاهر**﴾ مفعول به. ﴿**الإثم**﴾ مضاف إلى ظاهر. ﴿**وباطنه**﴾ معطوف على ظاهر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يكسبون**﴾ الجملة صلة الذين. ﴿**الإثم**﴾ مفعول به. ﴿**سيُجزون**﴾ فعل مضارع مبنيٌّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة في محل رفع خبرُ إنّ.

﴿**بما**﴾ متعلق بيجزون. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يقترفون**﴾ الجملة في محل نصب خبر كان، وجملة إنّ الذين يكسبون الإثم تعليلية. ﴿**ولا تأكلوا**﴾ الواو للعطف، ولا للنهي، وتأكلوا مجزوم بلا. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بتأكلوا. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم وقلب. ﴿**يذكر**﴾ فعل مضارع مبنيٌّ للمجهول، وحُرّك بالكسرة لالتقاء

الساكنين. ﴿**اسم**﴾ نائب الفاعل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى اسم. ﴿**عليه**﴾ متعلق بيُذكر، وجملة لم يُذكر صلة ما. ﴿**وإنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لفسق**﴾ خبرُها، والجملة في محل نصب حال من الضمير المجرور. ﴿**وإنّ الشياطين**﴾ معطوف على إنّه لفسق. ﴿**ليوحون**﴾ الجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إلى أوليائهم**﴾ متعلق بيوحون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ليجادلوكم**﴾ اللام للتعليل، ويجادلوكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وضمير المخاطبين مفعول. ﴿**وإن أطعتموهم**﴾ فعل وفاعل، فعل الشرط.

﴿**إنّكم لمشركون**﴾ جواب الشرط. ﴿**أو من**﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، من اسم موصول في محل رفع مبتدأ. ﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على مَنْ. ﴿**ميّتاً**﴾ خبر كان، وجملة كان صلة مَنْ. ﴿**فأحييناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه فاء التعقيب. ﴿**وجعلنا**﴾ معطوف على أحييناه. ﴿**له**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**نوراً**﴾ مفعول به. ﴿**يمشي**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**به**﴾ متعلق بيمشي. ﴿**في الناس**﴾ كذلك. ﴿**كمن**﴾ الكاف بمعنى مثل، ومن في محل جر. ﴿**مثلُه**﴾ مبتدأ. ﴿**في الظلمات**﴾ متعلق بمحذوف خبره، والجملة صلة من، والكاف في قوله كمن خبرُ مَن الأولى. ﴿**ليس**﴾ اسمها ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بخارج**﴾ خبر ليس جُرّ بحرف الجر الزائد لفظاً، وهو منصوب محلاً. ﴿**منها**﴾ متعلق بخارج، وجملة ليس في محل نصب حال من الموصول.

﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل مبتدأ، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**زيّن**﴾ فعل ماض مبنيٌّ للمجهول. ﴿**للكافرين**﴾ متعلق بزيّن. ﴿**ما**﴾ مصدرية ما اسم موصول في محل رفع نائب الفاعل. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبرها، وجملة كانوا يعملون صلة ما. ﴿**وكذلك**﴾ معطوف على كذلك السابقة، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**جعلنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر معنى الكاف. ﴿**في كل**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**قرية**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**أكابر**﴾ مفعول به.

﴿**مجرميها**﴾ يصح أن يكون مضافاً إلى أكابر، ويصح أن يكون مفعولاً ثانياً. ﴿**ليمكروا**﴾ تعليل للجعل. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالفعل يمكر. ﴿**وما يمكرون إلاّ بأنفسهم**﴾ جملة حالية. ﴿**وما يشعرون**﴾ كذلك. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف

فيه معنى الشرط. فعله ﴿**جاءتهم**﴾ الضمير المتصل مفعول به. ﴿**آية**﴾ فاعل جاءت. ﴿**قالوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**لن نؤمن**﴾ مقول القول. ﴿**حتى نؤتى**﴾ غاية للإيمان، ونائب الفاعل ضمير يعود على القائل نحن، وهم أكابر مجرمي القرية. ﴿**مثل**﴾ المفعول الثاني لنؤتى، أي: حتى يأتينا الله مثل ما أوتي رسل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**أوتي رسل الله**﴾ الفعل ونائب الفاعل صلة ما، الله مضاف إلى رسل. ﴿**اللهُ**﴾ مبتدأ. ﴿**أعلم**﴾ خبره. ﴿**حيث**﴾ اسم مكان في محل نصب بنزع الخافض.

﴿**يجعل**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿**رسالاته**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، وجملة يجعل رسالاته صفة لحيث باعتبار أنّها اسم للمكان. ﴿**سيصيب الذين أجرموا صغار**﴾: الذين مفعول به، أجرموا صلة الذين، صغارٌ فاعل يصيب. ﴿**عند**﴾ متعلق بمحذوف نعت لصغار. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**وعذاب**﴾ معطوف على صغار. ﴿**شديدٌ**﴾ نعت لعذاب. ﴿**بما**﴾ متعلق بيصيب. ﴿**كانوا يمكرون**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها صلة ما. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع والترتيب، مَنْ شرطية. ﴿**يرد**﴾ فعل الشرط مجزوم وحُرّك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**أن يهديه**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مِصدر منصوب مفعول به، والتقدير: فمن يرد الله هدايته. ﴿**يشرح**﴾ جواب الشرط مجزوم بالسكون.

﴿**صدره**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**للإسلام**﴾ متعلق بيشرح. ﴿**ومن يرد أن يضلّه**﴾ معطوف على من يرد الله أن يهديه، وهو مثله في الإعراب. ﴿**يجعل**﴾ مثل يشرح. ﴿**صدره**﴾ مفعول أول. ﴿**ضيقاً**﴾ مفعول ثان. ﴿**حرجاً**﴾ نعت له. ﴿**كأنّما**﴾ تشبيه. ﴿**يصّعّد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**في السماء**﴾ متعلق بيصّعّد، وجملة كأنّما يصّعّد في موضع الحال من ضمير يضله. ﴿**كذلك**﴾ في محل نصب نائب عن المفعول المطلق. ﴿**يجعل الله الرجس**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**على الذين**﴾ متعلق بيجعل. ﴿**لا يؤمنون**﴾ صلة الذين، والجملة تذييل. ﴿**وهذا**﴾ مبتدأ. ﴿**صراط**﴾ خبره. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى صراط، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مستقيماً**﴾ حال من صراط ربّك مُؤَكِّدَة له. ﴿**قد فصلنا الآيات**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**لقوم**﴾

متعلق بفصلنا. ﴿**يذّكّرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿**دار**﴾ مبتدأ مؤخّر.

﴿**السلام**﴾ مضاف إلى دار. ﴿**عند**﴾ متعلق بما في معنى الخبر، وهو ثبوت السلام لهم عند. ﴿**وهو وليهم**﴾ مبتدأ وخبره. ﴿**بما**﴾ متعلق بوليهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كانوا يعملون صلة ما. ﴿**ويوم**﴾ ظرف متعلق بفعل مقدّر. ﴿**نحشرهم**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلمين نحن، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**جميعاً**﴾ منصوب على الحال من الضمير المفعول. ﴿**يامعشر**﴾ منادى منصوب بالفتحة. ﴿**الجنّ**﴾ مضاف إلى معشر. ﴿**قد استكثرتم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من الإنس**﴾ متعلق باستكثرتم، وجملة قد استكثرتم معمول النداء، وجملة يامعشر الجن مقول لقول المقدر، والتقدير: نقول يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس يوم نحشرهم جميعاً. ﴿**وقال أولياؤهم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من الإنس**﴾ متعلق بأولياؤهم. ﴿**ربّنا**﴾ منصوب بالنداء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**استمتع بعضنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ببعض**﴾ متعلق باستمتع. ﴿**وبلغنا**﴾ معطوف على استمتع. ﴿**أجلنا**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الذي**﴾ في محل نصب نعت للأجل.

﴿**أجّلت لنا**﴾ فعل وفاعل. لنا متعلق بأجّلت، وجملة أجّلت لنا صلة الذي. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿**النار**﴾ مبتدأ. ﴿**مثواكم**﴾ خبره، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة النار مثواكم في محل نصب مقول القول. ﴿**خالدين**﴾ منصوب بالياء على الحال من ضمير المخاطبين. ﴿**فيها**﴾ متعلق بخالدين. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**شاء الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنّ ربّك حكيم عليم**﴾ جملة إنّ واسمها وخبرها تعليلية. ﴿**وكذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل، وهو منصوب نيابة عن المفعول المطلق، وذلك في محل جر. ﴿**نولّي**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلمين نحن. ﴿**بعضَ**﴾ مفعول أوّل. ﴿**الظالمين**﴾ مضاف إلى بعض. ﴿**بعضاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**بما**﴾ متعلق بنولّي. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يكسبون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كانوا يكسبون صلة ما. ﴿**يامعشر الجن**﴾ منادى كما سبق في مثله. ﴿**والإنس**﴾ معطوف على الجن. ﴿**ألم**﴾ الهمزة للاستفهام، لم حرف نفي وجزم وقلب. ﴿**يأتكم**﴾ فعل

مضارع مجزوم بلم، والضمير المتصل به مفعول به. ﴿**رسل**﴾ فاعل. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسل. ﴿**يقصون**﴾ فعل وفاعل، والجملة نعت ثانٍ لرسل. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيقصون. ﴿**آياتي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة. ﴿**وينذرونكم**﴾ معطوف على يقصون. ﴿**لقاء**﴾ مفعول به.

﴿**يومكم**﴾ مضاف إلى لقاء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**هذا**﴾ في محل جر نعت ليوم. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**شهدنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول قالوا. ﴿**على أنفسنا**﴾ متعلق بشهدنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وغرّتهم الحياة**﴾ فاعل غرّت، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة. ﴿**وشهدوا على أنفسهم**﴾ مثل شهدنا على أنفسنا. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**كافرين**﴾ خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبرُ أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: وشهدوا على أنفسهم بكونهم كافرين. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنْ**﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**لم يكن**﴾ مجزوم بلم. ﴿**ربّك**﴾ اسم يكن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مهلك**﴾ خبر يكن. ﴿**القرى**﴾ مضاف إلى مهلك. ﴿**بظلم**﴾ متعلق بمهلك.

﴿**وأهلها غافلون**﴾ مبتدأ وخبر، والجملة حال من القرى، وجملة لم يكن ربّك مهلك في محل رفع خبر أنْ، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدر متعلق بمحذوف خبر ذلك، والتقدير: ذلك ثابت لانتفاء إهلاك ربّك القرى بظلم وأهلها غافلون. ﴿**ولكل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**درجات**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**مما**﴾ متعلق بمحذوف نعت لدرجات. ﴿**عملوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**وما ربّك**﴾ ما بمعنى ليس، واسمها ربّك. ﴿**بغافل**﴾ خبر ما جُرَّ لفظاً ونُصِب محلا. ﴿**عما**﴾ متعلق بغافل. ﴿**يعملون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**وربّك**﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الغني**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ذو**﴾ خبر ثانٍ مرفوع بالواو. ﴿**الرحمة**﴾ مضاف إلى ذو. ﴿**إن يشأْ**﴾ مجزوم فعل الشرط.

﴿**يذهبكم**﴾ جوابه، والضمير المتصل به مفعول، وفاعل الفعلين ضمير يعود

على ذو الرحمة. ﴿**ويستخلف**﴾ معطوف على يذهبكم. ﴿**من بعدكم**﴾ متعلق بيستخلف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يشاء**﴾ فاعله ضمير يعود على ذو الرحمة، والجملة صلة ما. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نيابة عن المفعول المطلق، وما مصدرية. ﴿**أنشأكم**﴾ مؤوّل بمصدر مجرور بالكاف. ﴿**من ذريّة**﴾ متعلق بأنشأكم. ﴿**قوم**﴾ مضاف إلى ذريّة. ﴿**آخرين**﴾ مجرور بالياء نعت لقوم. ﴿**إنّ ما**﴾ إنّ واسمها. ﴿**توعدون**﴾ فعل مضارع مبنيٌّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة صلة ما.

﴿**لآتٍ**﴾ خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة. ﴿**وما أنتم**﴾ الواو للعطف، وما بمعنى ليس، وأنتم في محل رفع اسم ما. ﴿**بمعجزين**﴾ خبرها. ﴿**قل يا قوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**اعملوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**على مكانتكم**﴾ متعلق باعملوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**عامل**﴾ خبرها. ﴿**فسوف**﴾ الفاء للتفريع، وسوف للتسويف. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**تكون**﴾ فعل مضارع ناقص. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون مقدم. ﴿**عاقبة**﴾ اسمها مؤخر. ﴿**الدار**﴾ مضاف إلى عاقبة، وجملة تكون خبر من، وجملة من تكون سدّت مسد مفعولي تعلمون. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يفلح**﴾ فعل مضارع منفي بلا. ﴿**الظالمون**﴾ فاعل، وجملة لا يفلح الظالمون خبر إنّ، والجملة تعليلية. ﴿**وجعلوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لله**﴾ متعلق بجعلوا. ﴿**ممّا**﴾ كذلك.

﴿**ذرأ**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ذرأ صلة ما. ﴿**من الحرث**﴾ بيان لما. ﴿**والأنعام**﴾ معطوف على الحرث. ﴿**نصيباً**﴾ مفعول به. ﴿**فقالوا**﴾ مفرع على قوله: وجعلوا لله. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة مقول القول. ﴿**بزعمهم**﴾ متعلق بجعلوا. ﴿**وهذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لشركائنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فما**﴾ الفاء للتفريع، ما اسم شرط. ﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على ما. ﴿**لشركائهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة للجواب، لا نافية. ﴿**يصل**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا، وفاعله ضمير يعود

على ما. ﴿**إلى الله**﴾ متعلق بيصل. ﴿**وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم**﴾ معطوف على فما كان لشركائهم، وهو مثله في الإعراب. ﴿**ساء**﴾ فعل ماض. ﴿**ما**﴾ موصولة في محل رفع فاعل ساء. ﴿**يحكمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**وكذلك**﴾ الواو للعطف، والكاف للتشبيه، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**زَيَّن**﴾ فعل ماض. ﴿**لكثير**﴾ متعلق بزيّن. ﴿**من المشركين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لكثير. ﴿**قتل**﴾ مفعول به.

﴿**أولادهم**﴾ مضاف إلى قتل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**شركاؤهم**﴾ فاعل زيّن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ليُرْدُوهم وليلبسوا**﴾ اللام فيهما للتعليل، والفعلان منصوبان بأن مضمرة، والفعلان مؤوّلان بمصدر مجرور بلام التعليل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**دينهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولو شاء الله**﴾ فعل الشرط. ﴿**ما فعلوه**﴾ جوابه. ﴿**فذرهم**﴾ الفاء فصيحة، وذرهم فعل أمر، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**وما**﴾ في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب. ﴿**يفترون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**هذه**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنعام**﴾ خبره. ﴿**وحرث**﴾ معطوف على أنعام. ﴿**حجر**﴾ نعت لأنعام وحرث. ﴿**لا يطعمها**﴾ فعل مضارع منفيٌّ بلا، والضمير المتصل به مفعول.

﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**من**﴾ اسم موصول بدل من فاعل يطعمها، أي: لا يطعمها أحد إلا من. ﴿**نشاء**﴾ صلة مَنْ. ﴿**بزعمهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير قالوا. ﴿**وأنعام**﴾ معطوف على أنعام وحرث. ﴿**حرّمت ظهورها**﴾ الجملة نعت لأنعام. ﴿**وأنعام لا يذكرون**﴾ مثلها. ﴿**اسم**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى اسم. ﴿**عليها**﴾ متعلق بيذكرون. ﴿**افتراءً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**عليه**﴾ متعلق بافتروا المقدّر. ﴿**سيجزيهم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**بما**﴾ متعلق بيجزيهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفترون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كانوا يفترون صلة ما. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ما**﴾ اسم موصل في محل رفع مبتدأ. ﴿**في بطون**﴾ متعلق بفعل مقدّر صلة ما. ﴿**هذه**﴾ في محل جر مضاف إلى بطون. ﴿**الأنعام**﴾ بيان لهذه.

﴿**خالصة**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**لذكورنا**﴾ متعلق بخالصة، والضمير فيه مضاف

إليه. ﴿**ومحرّم**﴾ معطوف على خالصة. ﴿**على أزواجنا**﴾ متعلق بمحرّم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وإن يكن**﴾ مجزوم بالشرط، واسم يكن ضمير يعود على ما في بطون. ﴿**ميتة**﴾ خبر يكن. ﴿**فهم**﴾ مبتدأ. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**شركاء**﴾ خبر المبتدإ، والجملة جواب الشرط رُبطت بالفاء. ﴿**سيجزيهم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**وصفهم**﴾ مفعول ثانٍ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّه حكيم عليم**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليلية. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**خسر الذين**﴾ فعل وفاعل، ﴿**قتلوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**أولادهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**سفهاً**﴾ مفعول لأجله. ﴿**بغير**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير قتلوا. ﴿**وحرّموا**﴾ معطوف على قتلوا. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**رزقهم**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**الله**﴾ فاعل، والجملة صلة ما. ﴿**افتراءً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافتراء. ﴿**قد ضلوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وما كانوا مهتدين**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على قد ضلوا.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون**﴾: هذا الدرس الذي يبدأ به هذا الجزء امتداد للحديث عن الكافرين الذين لا تكفيهم الآيات المبثوثة في تضاعيف الكون؛ يمرُّون عليها وهم غافلون عنها، ولا تكفيهم آيات القرآن تتلى عليهم، والبلاغ الكافي فيها وحدها؛ فإذا هم على هذا كله يطلبون من الرسول معجزة من المعجزات المادية، في وقت أنّ البشرية لم تكن في حاجة إليها، فقد قُدِّر لهذه البشرية أن تستخدم إدراكها، وأن تفتح بصيرتها، وأن تتدبّر هذه الآيات التي أتتها، وهي آيات من نوع جديد تليق بمرحلة نضوجها.

وهذا الدرس هو امتداد للحديث عن القوم الذين يطلبون خارقة مادية، وخوارق الوجود حولهم حيثما امتد منهم البصر، وحيثما تلفّت منهم القلب، ولكنهم عن ذلك كله محجوبون. إنّ قوماً يمرون على تلك الآيات الكونية التي استعرضها الديّان قبل ذلك في السورة كلها، ثم لا تتفتح لها بصائرهم، ولا تمسّ إيقاعاتها قلوبهم، ولا تتحرك لها مشاعرهم ومداركهم، ثم يتلى عليهم هذا القرآن

يُلفتهم إلى تلك الآيات، ويكشف لهم عن دلالتها التي لا تُجحد، فلا يؤثر فيهم شيئا.

إنّ قوماً على هذا النحو من الاستغلاق والموات لغير مُهَيَّئين أصلا للإيمان مهما يأتهم من الخوارق ماديها وروحيها على السواء!. لذلك لم يشإ الله ـ وهو العليم الحكيم ـ أن يأتيهم بالآية التي طلبوها، فهو يعلم أنّهم غير مهيّئين للإيمان أصلا (ما كانوا ليؤمنوا) ولو جاءتهم الخوارق كلها من تنزيل الملائكة عليهم تشهد لهم بصدق الدعوة والداعي، وتكليم الموتى مشافهة وجميع الأشياء مواجهة وعياناً إلاّ أن يشاء الله؛ فالله قادر على أن يقيم سنة مكان سنة، وأن يبدل ناموساً بناموس، والسنة الجارية أنّ من كان هذا شأنهم لا يؤمنون مهما تضافرت الآيات!.

والنص يقرر استحالة إيمانهم بناء على تلك السنة الجارية، ولكنه يقرر للمشيئة حريتها في أن تغيّر السنة وتبدل الناموس حين يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون؛ يجهلون سننه الجارية، ويجهلون النتيجة المحتومة، ويجهلون أن الآيات لا تخلق الإيمان. . . **﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيء عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربّك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾**: المقصود من هذا السياق: الإعلام بأنّ هذه سنة في أنبئائه كلهم، فيحصل بذلك التأسّي والقدوة والتسلية. وصياغة القرآن على هذا النمط للتنبيه والإخبار بأن المشركين أعداء الرسول، فقد جعل الله لكل نبيء عدوّاً؛ هم هؤلاء الشياطين من الإنس والجن، هؤلاء الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول وخداعه، هذه هي مشيئة الله. ولو شاء ربّك ما فعلوه، لا هؤلاء يوحون ولا أولئك يستجيبون، فذرهم وما يفترون، فلا تحفل بهم ولا تحفل مفترياتهم، ودعهم على هذه المفتريات يشتغلون بها ويلهون!.

ولتصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون!. فإنّ هذه النصوص كلها تكشف عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال: إنّ الهدى يبدأ تفتُّحاً في القلب للتأمل والإدراك والاستجابة لما في الوجود من آيات كونية، ولما في الرسالات من توجيه وإشارة، وإنّ الضلال يبدأ استغلاقاً في القلب فيمر على الآيات غافلاً، أو يتلقاها جاحداً، ومن ثَمَّ لا تقنعه الخوارق ولا

المعجزات. ثُمَّ تمضي سنّة الله في طريقها فإذا الفتح للآيات يتبعه الإيمان والاهتداء، وإذا الاستغلاق دونها يتبعه الكفر والضلال، ثُمّ إذا الكفر يناهض الإيمان، والضلال يُعَادِي الهدى. والشيطان يَجِدُ مجاله في القلوب التي أُغلقت دون آيات الله وهداه، فيتخذ منها أوكاراً، ويوسوس لها بالقول المزخرف والخداع الكاذب الباطل، فإذا هي أدوات لنشر الشر والفساد. تلك هي سنة الله جرت بها مشيئته، مختارة غير مقيدة فيما تشاء. ولو شاء لأجرى غير هذه السنة، وإنّه ليُجري غيرها حين يشاء!.

ولكن النصوص تقرر أنّ السنة التي شاءها هي الجارية، وأنها تنشئ آثارها حتماً مقضياً كما شاء الله... ﴿**أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا**﴾: عندما ينتهي السياق من بيان السنة الجارية، التي بمقتضاها جعل الله لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، يلتفت إلى الرسول وهو يَلقى من أعدائه ما يلقى، ليقرر أنّ الله هو وحده الحكم في هذه الخصومة بينه وبين أعدائه، وأنّه لن يتخذ حكماً غير الله، يشهد له بالتبرئة ويشهد لرسالته بالصدق، ويمضي حكمه كما يشاء بلا معقب على كلمته، ولا مناهض لما يشاء.

يوجّه الله الرسول ليقول لهم هذا القول، ويستنكر أن يتخذ غير منزل الكتاب حكماً في شأن الكتاب، ثم يقول له: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربّك بالحق فلا تكونن من الممترين**﴾، فيخبره أنّ هناك من أهل الأرض من يعلم بصدق هذه الرسالة، بحقيقة هذا الكتاب، وأنّه منزل من الله بالحق في طبيعته وبالعدل في أحكامه، فليست هذه الواقعة بمجهولة من بعض أهل الأرض ـ وهم أهل الكتاب الذين يجدون صدقه مما يعلمون من الكتاب، فلا يخالجك شك حين تراهم يعرضون وينكرون ويكذّبون، وهم كاذبون، وليس من الضروري أن يكون أي شك قد خالج الرسول، في صدق الوحي بالكتاب أمام إنكار المنكرين ـ ومنهم أهل الكتاب المعروف أنّهم يعرفون، فهذا النهي إنّما هو زيادة في التوكيد، وتثبيت لليقين، كي لا يجول في خاطره طائف من التردد في هذا اليقين... ﴿**وتمت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾: هذا تعقيب على الإخبار بمعرفة أهل الكتاب بأنّ هذا الكتاب منزل على محمد ملتبساً بالحق ممتزجاً

به، فلا معقب عليها، وهو الْحُكْم الأخير فلا تبديل ولا تغيير، وهو تعقيب ينهي الموقف ويقطع الجدل ويقر اليقين.

إنّ كلمة الله هي الفاصلة، ولقد تمت وانتهت إلى غايتها؛ تمت بهذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق على رسوله، تمت فتقرر على أساسها منهج الحياة واتجاه الأمور، تمت صدقاً لا يلابسه باطل، وعدلاً لا يمازجه ظلم، فليس هنالك من قوة تغير عليه، وليس هناك من كلمة غير كلمته، وهو السميع العليم الذي يسمع ما يُقال ويعلم حقيقته، ويقضي عن علم بالصدق والعدل، قضاء لا رادّ له ولا معقب عليه. إنّه التعقيب الحاسم الذي ينهي الجدل، ويصدر الحكم ويَقِفُ عنده المتخاصمون مستسلمين. لقد تمت كلمة ربّك، ووضح الحق، وبطل الجدال وتبيّن اليقين، فأما كلام الناس ـ أكثر الناس ـ فهو قائم على الظن العائم لا على اليقين الجازم، فالحقائق محجوبة عن الناس، ومداركهم البشرية لا تؤدي إلى علم مستيقن، ما لم تهتد بكلمات الله؛ والقليلون هم المهتدون، ولو أطعت الكثرة التي تتخبّط في عالم الظن لأضلوك في التيه الذي هم فيه... ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون**﴾: وهكذا يكشف القرآن الكريمُ عن الطبيعة الغالبة في البشر.

إنّ معظمهم يخرص ويحدس ويُخمّن، ولا ينطق عن علم، لأنّهم يتبعون الظنَّ العائم الغَامِضَ، ولا يدقّقون ليصلوا من الظن إلى اليقين. إنّ طلب الحقّ مُتْعِبٌ، والكثيرون لا يصبرون على مشقّة البحث والتمحيص. وإنّ الصبر على الحق يتعب، والكثيرون يروغون من حمله ويحكمون بالشك والظنون. وإنّ الحق لا يبلغه الإنسان إلاّ بهدى الله، ولا يصبر عليه إلاّ بالاتصال بالله، وقليلون هم الذين يسلكون هذا الطريق. من أجل ذلك يقيم الإسلام نظامه على شريعة الله الثابتة التي لا تتبع أهواء الناس، الحقة التي لا تتبع ظنون المتخرصين، ويجعل التشريع ابتداء لله العليم بالحق: ليصونه من تحكم الكثرة التي تخرص وتتبع الظن. فالآية تقتضي أنّ أكثر أهل الأرض ضالون بطريق الالتزام؛ لأن المهتدي لا يَضِلُّ متّبعُه.

وقوله: يضلوك عن سبيل الله تمثيل لحال الداعي إلى الكفر والفساد، ومن يقبل قوله بحال من يضل مستهديه إلى الطريق، فينعت له طريقاً غير الطريق

الموصلة. وهو تمثيل قابل لتوزيع التشبيه، بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّه بها، وإضافة السبيل إلى اسم الله قرينة على الاستعارة. ثم بينّ الله سبب ضلالهم بأنّهم ما يعتقدون ويدينون إلاّ عقائدَ ضالَّةً وأدياناً سخيفة ظنَوها حقاً؛ لأنّهم لم يستفرغوا مقدرة عقولهم في ترسم أدلة الحق، فقال: إن يتبعون إلاّ الظن. والاتباع مجاز في قبول الفكر لما يُقال، أو لما يخطر للفكر من الآراء، والظن في اصطلاح القرآن: هو الاعتقاد المخطئ من غير دليل. وجملة إن يتبعون إلاّ الظن استئناف بياني نشأ من قوله: يضلّوك عن سبيل الله، فبيّن سبب ضلالهم؛ أنّهم اتبعوا الشبهة من غير تأمل في مفاسدها؛ فالمراد بالظن ظن أسلافهم كما أشعر به ظاهر قوله: يتبعون.

وجملة وإنْ هم إلاّ يخرصون عطف على جملة إن يتبعون إلاّ الظن، والعطف يقتضي المغايرة، فحمل الجملة الأولى على ما تلقوه من أسلافهم، كما أشعر به قوله: يتّبعون. ومحمل الجملة الثانية على ما يستنبطونه من الزيادات على ما ترك لهم أسلافهم، وعلى شبهاتهم التي تُحْسَبُ أدلَّةً مفحمة كما أشعر به فعل: يخرصون- من معنى التقدير والتأمل.

وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة؛ لأنّها ظنون لا دليل عليها، غير ما حسُن لظانّيها... **﴿إنّ ربّك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**: هذا تعليل متضمن التحذير من نزغاتهم وتوقع التضليل منهم. ولمّا اشتملت الآيات المتقدمة على بيان ضلال الضالين وهدى المهتدين، كان قوله: إنّ ربّك هو أعلم تَذْيِيلاً لجميع تلك الأغراض، وتعريف المهتدى إليه بالإضافة في قوله: إنّ ربّك لتشريف المضاف إليه، وإظهار أنّ هدى الرسول ﷺ هو الهدى، وأنّ الذين أخبر عنهم بأنّهم مضلون لا حظّ لهم في الهدى؛ لأنّهم لم يتخذوا الله ربّاً لهم. وأَعْلَمُ اسم تفضيل للدلالة على أنّ الله لا يعزب عن علمه أحد من الضالين ولا أحد من المهتدين، وأنّ غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلين، ويفوته علمُ كثيرٍ من الفريقين، وتَخْفَى عليه دخيلةُ بَعْضِ الْفَرِيقَيْنِ.

والضمير في قوله: هو أعلم ضمير الفصل، لإفادة قصر المسند على المسند إليه، فالأعلمية بالضالين والمهتدين مقصورة على الله تعالى لا يشاركه فيها غيره... **﴿فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾**: هذا تخلُّص من

محاجّة المشركين، وبيان ضلالهم المذيّل بقوله: إنّ ربّك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. انتقل الكلام من ذلك إلى تبيين شرائِع هَدْيِ للمهتدين، وإبطال شرائع شرعها المضلون تبييناً يزيل التشابه والاختلاط، ولذلك خُلّلت الأحكام المشروعة للمسلمين بأضدادها التي كان شرعها المشركون وسلفهم. وما تُشْعِرُ به الفاء من التفريع يقضي باتصال هذه الجملة بالتي قبلها، ووجه ذلك: أن قوله تعالى: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله متضمن إبطال ما ألقاه المشركون من الشبهة على المسلمين، فلما نهى الله عن اتّباعهم وسمى شرائعهم خرصا، فرّع عليه هنا الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه، والنهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، فتبيّن أن الفاء للتفريع على معلوم من المراد من الآية السابقة.

والأمر هنا للإباحة، ومعناه بيان المباح من ضده من الميتة وما ذبح على النصب... وما أهل به لغير الله: والخطاب للمسلمين، وعلى للاستعلاء المجازي تدل على شدّة اتصال فعل الذكر بذات الذبيحة، بمعنى أن يذكر اسم الله عليها عند مباشرة الذبح... **﴿وما لكم ألاّ تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه﴾**: هذا سؤال للاستنكار؛ استنكار من أن يمتنع المسلمون من طعام ذكر اسم الله عليه، بعد أن لم يعد لديهم شك أو غموض فيما أحله الله لهم وما حرمه عليهم، إلاّ أن يضطروا إلى شيء من هذه المحرمات. وأن لا يلقوا بالاً إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون... **﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾**: فهم يتبعون هذه الأهواء، ويفتون بها للناس فيضلون أنفسهم ويضلون غيرهم، وإنّ الله ليعلم من يتبعون الحق ومن يجاوزونه إلى الباطل...

﴿إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين﴾: فمجاوزة الحق اعتداء، وتحريم الحلال اعتداء، كتحليل الحرام على السواء. وهذا تحذير من التشبه بالمشركين وبمن يضل من أهل الأهواء. وقوله: إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين تقدم مثله في قوله: إنّ ربّك هو أعلم.. وفيه إعلام للرسول بتوعّد هؤلاء الضالين المضلين. فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إيّاهم بالعقوبة، وأنّه لا يفلتهم. وذكر المعتدين عقب ذكر الضالين قرينة على أنّهم المراد وإلاّ لم تكن لانتظام الكلام مناسبة... **﴿وذروا**

ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾: هذا نهي عام عن الإثم ظاهره وباطنه، فظاهر الإثم هو المكشوف منه المعلن المعروض.

وباطن الإثم هو المستور منه الخفي المتواري، وهو عبارة عن الإثم كله ظاهره وباطنه، وهو تجسيم وتشخيص كأنه مخلوق محسوس له ظاهر وباطن، على طريقة القرآن الكريم في التصوير والتشخيص. والتهديد بأنّ الجزاء عليه مؤكد، وبأنّ الجزاء عليه سيكون شيئاً من نوعه، حتى لكأنه ذات الإثم الذي كانوا يقترفون، يرد عليهم ويؤخذون به عن يقين. وإظهار لفظ الإثم في مقام إضماره لزيادة التنديد بالإثم، وهو يستقر في ذهن السامع أكبر استقرار، ولتكون الجملة مستقلة فتسير سير الأمثال والحِكَم. وحرف السّين هنا الموضوع للخبر المستقبل مستعمل في تحقيق الوقوع واستمراره، والدليل عليه فعل الكون. والتعبير بالمضارع...

﴿ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق﴾: متصل بما قبله بالعطف. وقوله: وإنّه لفسق تعليل للنهي، وزيادة في التنفير من أكله ببيان طبيعته وهيئته... **﴿وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون﴾**: إنّ هذا كَشْفٌ للمصدر الذي يمدّ المشركين بمادة الجدل حول هذه المسائل مع المسلمين، يستوي أن تكون هذه الطاعة في كليات العقيدة، أو في جزئية من السلوك اليومي الذي تُطبّقُ فيه العقيدة. وهو حكم لا يقبل الهوادة، ولا مجال فيه للتأويل، وهو مؤكد بكل طرائق التوكيد... **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**: هذا تصوير لطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان، يكشف عن سبب تشبّث الكافرين بما يعملون. إنّ الكَشْفَ عن طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ليكشف لنا كذلك كيف زُيّن ما كانوا يعملون، وكيف يمكر أكابر المجرمين في كل قرية غير شاعرين أنّهم بأنفسهم يمكرون.

إنّ القلب الكافر لا حساسية فيه ولا نور، فلا جرم يقترف ما يقترف فلا يحسّ ما في عملِه من شناعة، ولا يرى ما فيه من بشاعة: **﴿كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾**. زُيّن لهم؛ لأنّهم عاجزون عن التمييز بين الحسن والقبيح، وبين الطهر والدنس، وبين الهدى والضلال، وإن القلب الكافر الميت ليمكر ويبيّت دون

أن يشعر بأن كيده مردود عليه، وأنّه مأخوذ به؛ لأنّ إدراكه مُعَطَّلٌ، ولأنّه في الظلام يعيش فلا يدرك ولا يبصر!.. ﴿**وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون**﴾: فهم في مكرهم هذا إنّما يضرون أنفسهم. فأطلق المكر إلى مآله، وهو الضر على سبيل المجاز المرسل. فلما كان الإضرار حاصلاً للماكرين دون الممكور به أطلق المكر على الإضرار. وجيء بصيغة القصر؛ لأنّ النبيء ﷺ لا يلحقه أذى ولا ضرٌّ من صدهم الناس عن اتباعه، ويلحق الضرُّ الماكرين في الدنيا بعذاب القتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار إن لم يؤمنوا. فالضر حُصر فيهم على طريقة القصر الإضافي، وهو قصر قلب.

وقوله: وما يشعرون جملة حال ثانية، فهم في حالة مكرهم بالنبيء متصفون بأنّهم ما يمكرون إلاّ بأنفسهم، وبأنّهم ما يشعرون بلحاق عاقبة مكرهم بهم... ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف على قوله: وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها، وهي توضيح لنوع الإجرام الذي يقترفه أكابرهم من أهل مكة وهم المقصودون من التشبيه. ومكة هي المقصودة من قوله: كل قرية. والمراد بالقائل أي قائل: والله لا نؤمن حتى يأتينا وحْيٌ كما يُؤْتَى الرسل... ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالاته**﴾: هنا يجبههم الرد الحاسم والدليل القاصم، فهو يختار لها بحكمته وعلمه من يصلح لها ويَسْتَحِقُّها، وينهض بها ويتلقاها مُسْتَسْلِماً، .ويهب لها نفسه وينسى في سبيلها ذاته، أما أولئك الذين يتخذون من ذواتهم محوراً للحياة، فيطلبون أن يؤتوا مثل ما أُوتي رسل الله!.

﴿**سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾: هذا وعيد لهم على مكرهم، ثم التهديد بالصغار والهوان لقولهم: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله. فالمراد بالذين أجرموا أكابر المجرمين من المشركين بمكة بقرينة قوله: بما كانوا يمكرون. فإن صفة المكر أُثبتت لأكابر المجرمين في الآية السابقة؛ وذكرُهم بالذين أجرموا إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: سيصيبهم صغار، وإنّما خولف مقتضى الظاهر للإتيان بالموصول حتى يومي إلى علة بناء الخبر على الصلة. وقد جعل الله عقابهم ذُلاً وعذاباً ليناسب

كبرهم وعتوهم وعصيانهم. ومعنى عند الله: أنّه صغار مُقَدَّرٌ عند الله، فهو صغار ثابتٌ مُحَقَّقٌ، وقوله: بما كانوا يمكرون تصريح بسببيّة هذا الصغار والعذاب الشديد، وهذا جزاء الإضرار، وجزاء المكر السيّء للكفار... ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء**﴾: الفاء مرتبة للجملة التي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله: أو من كان ميتا فأحييناه.

وما ترتب عليه من التفاريع، وهذا التفريع إبطال لتعلّلاتهم بعلّة، حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، وأنّ الله منعهم ما علّقوا إيمانهم على حصوله، فتفرّع على ذلك ببيان السبب المؤثر بالحقيقة إيمان المؤمن وكفر الكافر. واستعير الشرح هنا مجازاً في البيان والكشف، وفي إنجلاء الأمر ويقين النفس به، وسكون البال للأمر، بحيث لا يتردد فيه ولا يغتم منه. والصدر مراد به الباطن مجازاً في الفهم والعقل بعلاقة الحلول، فمعنى يشرح صدره يجعل لنفسه وعقله استعداداً وقبولاً لتحصيل الإسلام، ويوطنه لذلك حتى يسكن إليه ويرضى به، فلذلك يُشبه بالشرح، والحاصل للنفس يسمى انشراحاً. وإذا حل نور التوفيق في القلب كان القلب كالمتسع، لأنّ الأنوار توسع مناظر الأشياء. ومن يرد أن يضله حين يستحق الضلال بتعطيل حواسّه وجوارحه وبصيرته عن التطلع والاتصال والاستجابة، يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقّة في مشاعره وخوالجه وأحاسيسه كأنّما يصعد في السماء، وهي حالة نفسية يجسّمها بعرض مشهد حسّيّ من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء. والعبارة ذاتها (يصّعّد) فيها هذا العسر والضيق والجهد، وجرسها يخيل هذا كله، فيتناسق مع المشهد الشاخص في الخيال...

﴿**كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾: فصلت الجملة عما قبلها؛ لأنّها تذييل لها. والرجس يعم سائر الخبائث النفسية الشاملة لضيق الصدر وحرجه، ولهذا العموم كان تذييلاً. وبناء اللفظ يلوّن هذا العذاب بالدنس والارتكاس فيه، وهو لون يتفق بكل جزئياته مع طبيعة الكفر كما كشف عنها السياق. وجيء بالمضارع في (يجعل) لإفادة التجدد في المستقبل، فهذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان. والموصول يومئ إلى صلة الخبر، وهو يعم كل

من يعرض عن الإيمان فيشمل المشركين المخبر عنهم، ويشمل غيرهم من كل من يُدْعَى إلى الإسلام فيعرض عنه. وبهذا العموم صارت الجملة تذييلاً، وصار الإتيان بالموصول جارياً على مقتضى الظاهر، وليس هو من الإظهار في مقام الإضمار. . . ﴿**وهذا صراط ربّك مستقيما**﴾: هذا تمثيل لحال هدى القرآن بالصراط المستقيم الذي لا يجهد متبعه، فهذا ضد حال التمثيل في قوله: كأنّما يصّعّد في السماء.

وتمثيل الإسلام بالصراط المستقيم يتضمن تمثيل المسلم بالسالك طريقاً مستقيماً، فيفيد توضيحاً لقوله: يشرح صدره للإسلام. وعطفت هذه الجملة مع أنّها بمنزلة بيان الجملة التي قبلها؛ لتكون بالعطف مقصودة بالإخبار، وهو إقبال على النبيء ﷺ بالخطاب، والإشارة بهذا إلى حاضر في الذهن وهو دين الإسلام، والمناسبة قوله: يشرح صدره للإسلام. والصراط حقيقته الطريق الموصل؛ هنا يستعار للعمل الموصل إلى رضى الله تعالى. وإضافته إلى الرب لتعظيم شأن المضاف، فيُعْلَمُ أنّه خير صراط. وإضافة الرب إلى ضمير الرسول تشريفٌ للمضاف إليه، وفي ترضية للرسول ﷺ بما فيه من الهدى والخير، وأنّ من انحرف عنه فإنّما يضر نفسه. والمستقيم مستعار للصواب لسلامته من الخطإ والاعوجاج. وهو مؤكد لقوله: صراط ربّك.

وجملة ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون**﴾ استئناف وفذلكة لما تقدم. والمراد بالآيات: آيات القرآن، ومن رشاقة لفظ الآيات هنا أنّ فيه تورية بآيات الطريق التي يستدل بها السائر. واللام في (لقوم) للعلة، والمراد بهم المسلمون؛ لأنّهم هم الذين استفادوا وتذكّروا. . . ﴿**لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون**﴾: الجملة مستأنفة للبيان. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، فهي قصر على القوم الذين يذّكّرون. ودار السلام الجنّة؛ لأنّ السلام الحقَّ فيها. وعند مستعار للقرب الاعتباري تشريفاً وحفظاً وتحقيقاً.

وقوله: وهو وليهم متصل بما قبله بالعطف، وهو تعميم لولاية الله إيّاهم في جميع شؤونهم؛ لأنّها من تمام المنّة. وتعريف المسند بالإضافة في قوله: وليّهم، أفاد الإعلام بأنّ الله ولي القوم المتذكرين، ليعلموا عظم هذه المنّة فيشكروها. ثم يمضي السياق بمناسبة الحديث عن دار السلام المحفوظة لمن يذّكّرون، فيتبعون

الصراط المستقيم ـ فيعرض مشهد من مشاهد القيامة، مشهد الحشر للجن والإنس ـ وقد أسلف أنّهم (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)، وأنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم. فالآن يعرضهم في موقف ومشهد شاخص حافل بالحوار والاعتراف والمناقشة والحكم والتعليق الفائض بالحياة التي تزخر بها مشاهد القيامة في القرآن: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾**.

﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس!. وقال: أولياؤهم من الإنس: ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا!. قال النار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله!. إنّ ربّك حكيم عليم﴾: إنّ المشهد يبدأ مستقبلاً، ولكنه يصير واقعاً بحذف لفظة واحدة، وابتداء الحوار مباشرة، فالتقدير: ويوم نحشرهم جميعا ـ فنقول ـ يامعشر الجن، فحذف لفظ نقول قد انتقل بالتعبير نقلة بعيدة في عالم التصوير، وأحال السياق من مستقبل يُنتظر إلى واقع يُنظر، وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب!.

وقوله: يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس إخبارٌ لا يقصد به الإخبار، فالجن يعلمون أنّهم قد استكثروا من الأتباع، إنّما يقصد به تسجيل الجريمة، وهو على حذف مضاف، بمعنى إغواء الإنس وإضلالهم. والكلام توبيخ للجن وإنكار، وفيه تَعْريضٌ بتوبيخ الإنس الذين أطاعوهم وأفرطوا في مرضاتهم. وقد اقتصر على حكاية جواب الإنس؛ لأنّ المشركين من الناس هم المقصود من الموعظة، ولكونهم ليسوا مخاطبين ابتداءً، وكون كلامهم دخيلاً في المخاطبة لم تُفصل جملة قولهم كما تُفصل جمل المحاورة. وقوله: وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا استسلام لله، وفيه تَسَتُّرٌ وندامة.

وقد أفادت الآية أنّ الجن المخاطبين قد أُفحموا فلم يجدوا جواباً؛ لأنّ الوعد الذي أخذه إبليس في الدنيا انتهى أجله. وعند ذلك يأتي الجواب بالحكم العاجل ردّاً على العجلة في الجواب قبل انتهاء الحوار: قال النار مثواكم خالدين فيها، والخطاب موجه إلى الإنس، فإنّهم المقصود من الآية. وقوله: إلاّ ما شاء الله استثناء مقصود منه أنّ هذا الخلود قدّره الله تعالى مختاراً لا مُكرِه له عليه؛ إظهاراً لتمام القدرة ومحض الإرادة، كأنّه يقول: لو شئت لأبطلت ذلك، فالأمر كله متروك لله تعالى. وهذه قاعدة تتمشى في جميع ما ذكر من الاستثناءات في القرآن

الموضوعة لهذا الغرض. وقوله: إنّ ربّك حكيم عليم، علّة وتوكيد للمشيئة التي بُنِيَتْ على الحكمة والعلم... ﴿**وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**﴾: تذييل مقرر لما سبق من الكلام على شياطين الإنس والجن، وما آل إليه أمرهم. والمقصود منه الاعتبار والموعظة، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين، وتوخّي الأتباع صلاح المتبوعين، وبيان سنّةٍ من سنن الله في العالمين.

وقوله: بما كانوا يكسبون، فيه إظهار لسبب هذا الحكم وصفته، فهم ثابتون على الظلم مستمرون عليه إلى أن يحل بهم ما حلّ... ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾؟: شروع في حكاية ما سيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتسلطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم إثر حكاية توبيخ معشر الجن بإغواء الإنس وإضلالهم وبيان مآل أمرهم. وفصلت الجملة لأنّها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود في النار؛ إبطالاً لمعذرتهم، وإعلاناً بأنّهم محقوقون بما جُوزُوا به، فأعاد نداءهم كما ينادي المندّد عليه الموبّخ فيزداد روعاً زائداً ولما كان حال هؤلاء الجن والإنس - في التمرد على الله، ونبذ العمل الصالح ظهرياً، والإعراض عن الإيمان - حال من لا يطرق سمعه أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، جيء في تقريرهم على بعثة الرسل إليهم بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرسل إليهم، حتى إذا لم يجدوا لإنكار مجيء الرسل إليهم مساغاً، واعترفوا بمجيئهم فكان ذلك أحرى لأخذِهِم بالعِقَاب. ومعنى قولهم: ﴿**شهدنا على أنفسنا**﴾، الإقرار بما تضمنه الاستفهام من إتيان الرسل إليهم.

وفصلت الجملة فلم تعطف؛ لأنّها جارية في طريق المحاورة. وقوله: ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾، موصول بما قبله بالعطف، فهو خبر مستعمل في التعجب من حالهم، وتخطئة رأيهم في الدنيا وسوء نظرهم في الآيات وإعراضهم عن التدبر في العواقب. والمقصود من هذا الخبر عنهم كشف حالهم، وتحذير السامعين من دوام التورط في مثله. ونقف هنا لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة، ورد المستقبل المنظور واقعاً مشهوداً؛ إنّ هذا القرآن يُتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة، ولكنه يعرض مشهد الآخرة، كأنّه حاضر، والدنيا كأنّها ماض كان، فتنسى أنّ ذلك مشهد سيكون يوم الحشر،

ونستشعر أنّه أمامنا اللحظة، وأنّه يتحدث عن تلك الدنيا التي كانت ولن تعود، وذلك من عجائب التخييل!.

وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى الرسول، وإلى كل أحد من المشاهدين، تعقيباً على الحكم الصادر بإحالة هذا الحشد إلى النار مثوًى ومقاماً، وإشهاداً على إقرار المذنبين على أنفسهم بأنّ الرسل جاءتهم، وأنّهم ظلوا بعد الرسل كافرين، وتقريراً بأنّ العذاب لابد أن يسبقه الإنذار عدلاً من الله ورحمة: **﴿ذلك أن لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾**!. وإنّما عُلّل ما ذكر بانتفاء التعذيب الدنيوي الذي هو إهلاك القرى قبل الإنذار؛ لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كِلاَ التعذيبين: الدنيوي والأخروي معا من غير إنذار على أبلغ وجه وآكده، حيث اقتصر على نفي التعذيب الدنيوي عنه تعالى، ليستهدف نفي التعذيب الأخروي عنه على الوجه البرهاني بطريق الأولية؛ لأنّ عذاب الدنيا أخف وأهون من عذاب الآخرة، ونفي الأخف يستلزم نفي الأقوى. وفي الكلام إيجاز؛ إذ علم منه: أنّ الله يهلك القرى المسترسلة أهلُها على الشرك إذا أعرضوا عن دعوة الرسل، وأنّه لا يهلكهم إلاّ بعد أن يرسل إليهم رسلاً منذرين، وأنّه أراد حمل تبعة هلاكهم عليهم، حتى لا يبقى في نفوسهم أن يقولوا: لولا رحمنا ربُّنا فأنبأنا وأعذر إلينا.

وهذا المعنى جاء مُصَرَّحاً به في قوله تعالى: «ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى»، فاقتصر هذا المعنى على معنى أنّ علة الإرسال هي عدم إهلاك القرى على غفلة، فدل على المعنى المحذوف. والتصريح بقوله: وأهلها غافلون للتنبيه على أنّ هلاك القرى من جراء أفعال سكانها. ثم يأتي تقرير آخرُ يُبيّن أنّ الجزاء ليس واحداً، فهو درجات بحسب الأعمال، والأعمال مرصودة لا يغفل منها شيء: **﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربّك بغافل عما يعملون﴾**، وعبّر بالدرجات احتراساً على ما تقدم من هلاك القرى؛ للتنبيه على أنّ الصالحين من أهل القرى الغالب على أهلها الشرك والظلم لا يحرمون جزاء صلاحهم، ولما كان لفظ كل مراداً به جميع أهل القرية، وأتى بلفظ الدرجات كان إيماء إلى تقليب حال المؤمنين، لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأنّهم لا بأس عليهم من عذاب

مشركيها، وقد علم من الدرجات أنّ أسافلها دركات، فغلب درجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعد نذارة المشركين. . .

﴿وربّك الغني ذو الرحمة إنّ يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾: اتصل الكلام بما قبله بالعطف، لما فيه من الوعيد والوعد، وهذا كناية عن غناه تعالى عن إيمان المشركين. والإظهار في (ربّك) مقام الإضمار لما في اسم الرب من معنى العناية بالصلاح، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير سير الأمثال والْحِكَم. وللتنبيه بشأن النبيء ﷺ وفي تعريف الغني قصر وحصر. وذكره تمهيد للحكم الوارد عقبه، فهو من تقديم الدليل بين يدي الدعوى، تذكيراً بتقريب حصول الجزم بالدعوى. وعُدل من أن يوصف بالرحيم إلى وصفه بأنّه ذو الرحمة؛ لأنّ الْغِنَى وصف ذاتي لله، لا تنتفع الخلائق إلاّ بلوازم ذلك الوصف وهو جوده عليهم؛ لأنّه لا ينقص شيئاً من غناه، بخلاف صفة الرحمة فإنّ تعلقها بنفع الخلائق، فأوثرت بكلمة ذُو؛ لأنّ كلمة ذو يتوصل بها إلى الوصف بالأجناس.

والمقصود من الوصف بذو الرحمة هنا تمهيد لمعنى الإمهال: «إن يشأ يذهبكم»، وهو تهديد للمشركين، وهو صريح إن كان الخطاب للمشركين. . . ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين: فما إمهاله إيّاكم إلاّ لأنّه الغنيّ ذو الرحمة. والإذهاب مجاز في الإعدام. والإنشاء ابتداءً هيّن على الله كالاستخلاف، ولكنّه يعرض عليهم المألوف الجاري الواقع؛ لأنّه أقرب إلى تصوّرات البشر الفانين. . . **﴿إنّما توعدون لآتٍ﴾**: هذا واردٌ مورد الجواب عن سُؤالٍ نشأ من الكلام السابق؛ لتحقيق أنّ ما أوعد به المشركين واقع لا محالة وإن تأخّر. والتأكيد بإنّ مناسب لمقام المتردد الطالب، وزيادة التأكيد بلام الابتداء؛ لأنّهم متوغلون في إنكار تحقُّق ما أُوعدوا به من حصول الوعيد واستخبارهم به.

ومن بديع الفصاحة اختيار بناء الفعل للمجهول، ليصلح لفظه لحال المؤمنين وحال المشركين، وهو من بديع التوجيه المقصود منه أن يأخذ منه كل سامع ما يليق بحاله. والمقصود الأهم هو وعيد المشركين، فلذلك عقب الكلام بقوله: **﴿وما أنتم بمعجزين﴾**، فذلك كالترشيح لأحَدِ الْمُحْتَمَلَيْنِ من الكلام الموجَّه. والإتيان مستعار للحصول، تشبيهاً للشيء الموعود به المنتظر وقوعه بالشخص

الغائب المنتظر إتيانه. ومجيء الجملة اسمية؛ لإفادة الثبات والدوام، وهي تدل بمعونة المقام إذا دخل عليها حرف النفي على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام... ﴿**قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل**﴾: بعدما بيّن للمشركين حالَهم ومآلَهم بطريق الخطاب، أمر رسوله ﷺ بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد، ويظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم.

وأُمِرَ أن يبتدئ خطابهم بالنداء للاهتمام بما سيقال لهم؛ لأنّ النداء يسترعي انتباه المنادَيْنَ. وكان المنادى عنوان القوم لما يشعر به من أنّه قد رقّ لحالهم حين توعّدهم بقوله: إنّما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين؛ لأنّ الشأن أن يُحِبّ لقومه ما يُحب لنفسه. والنداء للقوم المعاندين بقرينة المقام الدال على أنّ الأمر للتهديد، فالأمر في قوله: اعملوا للتسوية والتخلية لإظهار اليأس من امتثالهم للنصح، بحيث يغير ناصحُهم نصحَهم إلى الإطلاق لهم فيما يحبون أن يعملوا، وهو على قاعدة: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ وهذا الاستعمال استعارة؛ إذ يشبه المغضوب عليه المأيوس من ارْعِوَائِهِ بالمأمور بأن يفعل ما كان يُنهى عنه، فكأنّ ذلك المنهيَّ صار واجباً!. وهذا تهكُّمٌ. والمكانة هنا مستعارة للحالة التي تلبّس بها المرء: تُشبّه الحالة في إحاطتها وتلبس صاحبها بها بالمكان الذي يحوي الشيء. ومفعول اعملوا محذوف: لأنّ الفعل نُزّل منزلة اللازم. و (على) مستعملة في التمكّن على وجه الاستعارة التبعية.

وهي مناسبة الاستعارة المكانية للحالة: لأنّ العلاوة تناسب المكان، فهي ترشيح للاستعارة؛ مستعار من ملائم المشبّه به لملائم المشبّه. وجملة إنّي عامل تعليل لمفاد التسوية من الأمر في قوله: اعملوا. وحذف متعلق إنّي عامل للتعميم مع الاختصار. ورُتّب على عملهم وعمله الإنذار بالوعيد: ﴿**فسوف تعلمون**﴾ بفاء التفريع للدلالة على أنّ هذا الوعيد متفرع على ذلك التهديد. وحرف التنفيس مراد منه تأكيد الوقوع؛ لأنّ حرفي التنفيس والتسويف يؤكدان المستقبل، وهذا صريح في التهديد؛ لأنّ إخبارهم بأنّهم سيعلمون يفيد أنّه يعلم وقوع ذلك لا محالة. وتصميمُه على أنّه عامل على مكانته ومخالف لعملهم، يدل على أنّه موقن بحسن عقباه وسوء عقباهم، ولولا ذلك لعمل عملهم؛ لأنّ العاقل لا يرضى الضر لنفسه،

فدلّ قوله: فسوف تعلمون، على أنّ علمهم يقع في المستقبل، وأمّا هو فعالم من الآن، ففيه كناية عن وثوقه بأنّه محقٌّ وأنّهم مبطلون. . . م﴿نْ **تكون له عاقبة الدار**﴾؟: هذه الجملة استعارة تمثيلية مكنية؛ شبّهت حالة المؤمنين الفائزين في عملهم مع حالة المشركين، بحالة الغالب على امتلاك دار عَدُوّه، وطُوي المركب الدال على الهيأة المشبّه بها، ورُمز إليه بذكر ما هو من روادفه، وهو عاقبةُ الدار. . .

﴿**إنّه لا يفلح الظالمون**﴾: هذا تعليل للحكم السابق بالوعيد. والتعريف في (الظالمون) للاستغراق، فيشمل هؤلاء الظالمين ابتداءً. واسم إنّ ضمير الشأن تنبيهاً على الاهتمام بهذا الخبر، وأنّه أمر عظيم!. بهذا الأسلوب المؤثر إيحاؤه للنفس يأخذ القرآن الكريمُ القلبَ البشري بشتى السبل، ويلمس الوجدان بشتّى اللمسات لعلّه ينفعل ويتأثّر ويستجيب!. . ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون**﴾: هذه الآية اتصلت بما قبلها بالعطف، فهي تجمع ما تقدم في السورة كلها من أقوال المشركين وأفعالهم، وتحكم في النهاية على بطلانها. والمعطوف هنا نوع من أنواع تشريعاتهم في الحرث والأنعام، وهو ما جعلوه حقاً عليهم للأصنام في أموالهم، وادعاؤهم أنّهم يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى. إنّ هذه الآية وما قبلها من بَدْءِ السورة إلى نهايتها تعالج قضية العقيدة بكل مقوّماتها، وتكشف عن مكامن الشرك ومظاهره في كل مظانّه ومواطنه؛ لتدمغه وتدحضه، وتخلص النفس البشرية والحياة البشرية من أوشابه وأدرانه.

والسياق في هذه السورة كما يتتبع خلجات الشرك ووساوسه وخيوطه ووشائبه في أغوار النفس وأعماق الضمير، فهو يتتبع ظلال الشرك وسماته ومظاهره وآثاره في واقع المجتمع وعاداته وتقاليده الموروثة والمبتدعة بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. إنّ التقاليد والعادات هي التي تصبغ وجه المجتمع، وتأخذ طابعاً معيناً، فلا يكفي تنقية العقيدة في الضمير، بل لابد من تنقية المجتمع كذلك من تقاليده؛ ليتّسق ظاهر الحياة الإنسانية وباطنها، فالتناسق بين الظاهر والباطن هو معنى من معاني التوحيد الشاملة؛ كما جاء به دين التوحيد. ومن ثَمَّ تلك العناية

الظاهرة بمسألة التقاليد الوثنية والعادات الجاهلية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي حول النذور والذبائح والتحليل والمطاعم والمشارب والتحريم، حتى إنّ السورة كلها لتُسمّى بسورة الأنعام، دلالة على أهمية تلك التقاليد في مجال العقيدة التي تعالجها السورة من شتّى معانيها.

ولقد سبقت في سياق السورة إشارات ومناقشات للمشركين في هذا المجال، أمّا هنا في هذا الموضوع فيتوسع في استعراض أوهام الجاهلية حول التقاليد الوثنية المتعلقة بالنذور والذبائح، ويتتبع هذه الأوهام في منابتها فيكشفها للنور، ويجلي ما يحيط بها من شبهات لا أصل لها ولا أساس إلاّ التقليد الأعمى أو الهوى الناشئ من انحراف الضمير، وذلك كله متصل بما قبله في سياق السورة، فما هو إلاّ بعض الانحراف عن عقيدة التوحيد، ينشئ آثاره في كل جوانب الحياة. والضمير البشري متى انحرف عن الصراط، فلا آخر لانحرافاته وكبواته وضلاله في شتى المنعرجات والدروب.

واختيار فعل ذرأ هنا؛ لأنّه هو الذي يدل على المعنى المراد. ومن الحرث والأنعام بيان ما الموصولة. والإتيان بالموصول لدلالة صلته على تسفيه آرائهم. والإشارتان إلى النصيب المعيّن لله والنصيب المعيّن للشركاء، هو إجمال هنا؛ إذ لا غرض في التفصيل. والتفصيل جاء في قوله: فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. وقوله: ساء ما يحكمون استئناف لإنشاء ذم شرائعهم. وسماه حكماً توبيخاً؛ لأنّ هذا حكم باطل من أساسه... ﴿**وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم**﴾: اتصلت الجملة بما قبلها بالعطف لتزيد نوعاً آخر من أنواع تشريعاتهم الفاسدة، وهي راجعة إلى تصرفهم في ذرياتهم بعد أن ذكر تصرفاتهم في نتائج أموالهم. ولقد أعظم الله هذا التزيين العجيب في الفساد الذي حسّن أقبح الأشياء، وهو قتلهم أحبّ الناس إليهم...

فشبّهه بنفس التزيين للدلالة على أنّه لو شاء أحد أن يمثّله بشيء في الفظاعة والشناعة لم يسعْهُ إلاّ أن يشبهه بنفسه؛ لأنّه لا يبلغ شيء مبلغ أن يكون أظهر منه في بابه، فيلجأ إلى تشبيهه بنفسه... ﴿**ليُرْدُوهم وليلبسوا عليهم دينهم**﴾: اللام هنا يصلح أن يكون للتعليل، وأن يكون للعاقبة والصيرورة على القصد من معنى الشركاء. والمراد بالإرداء هنا: الضرّ الشديد، والمراد باللبس: الخلط والاشتباه،

أُجريا على طريق الاستعارة. . . ﴿**ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون**﴾: القصد من هذا التهديد بالوعيد، فالأحداث تجري وفق السنة التي قررها الله تعالى، فما على الرسول إلاّ أن يتركهم وافتراءهم «فما على الرسول إلاّ البلاغ. . .».

﴿**وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون**﴾: هذه الآية متصلة بما قبلها بالعطف، وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل وهو راجع إلى تحجير التصرف على أنفسهم في بعض أموالهم وتعيين مصارفه، وفي هذا العطف إيماء إلى أنّ ما قالوه هو من تلقين شركائهم. وجملة سيجزيهم بما كانوا يفترون استئناف بياني؛ لأنّ الافتراء على الخالق أمر شنيع!. وقد أبهم الجزاء للتهويل لتذهب النفوس كل مذهب ممكن في أنواع الجزاء على الإثم. . . ﴿**وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنّه حكيم عليم**﴾: هذه الآية متصلة بما قبلها بالعطف أيضاً. وأعيد فعل قالوا لاختلاف غرض القول، وهذه المقولة ضلالة أخرى من ضلالاتهم!.

والإشارة إلى أنعام معروفة بينهم بصفاتها والمقصود: التعجيب من فساد شرعهم لقد استطردوا في الأوهام التابعة من انحرافات الشرك والوثنية، فقالوا عن بَعْضِ الأجنّة في بطون الأنعام: إنّها خالصة للذكور حين تنتج محرمة على الإناث، إلاّ أن تكون ميتة فللإناث أن يشاركن فيها الذكران. هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل. سيجزيهم وصفهم، فهذا الافتراء وصف لا حقيقة، كأنّه لا ماهية لهذا الموضوع، إنّما هو مجرّد وصف وكلام!. إنّه حكيم عليم: تعليل للجزاء؛ لأنّه يعلم حقائق الأحوال، ويتصرّف فيها بالحكمة والعلم. إنّ الإنسان ليعجب وهو يستعرض مع السياق هذه الضلالات، وما تحمل أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات؛ يعجب لتكاليف الانحراف التي يحتملها المنحرفون، والأثقال من الخرافة التي يتبعها الضالون، والأغلال من العقيدة الفاسدة في المجتمع والضمير. نعم يعجب للعقيدة الفاسدة التي تكلّف الناس حتى فلذات أكبادهم، فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة وتشويهها والسير فيها على غير ضابط!، سوى الوهم

والهوى والتقليد، وأمامهم التوحيد البسيط الواضح يُطلق الضمير البشري من أوهاق الوهم والخرافة!، ويطلق العقل البشري من عقال التقليد الذي لا يقوم على إدراك أو تدبّر، ويطلق المجتمع البشري من تقاليد الوثنية وتكاليفها.

وتحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة لا يلتوي بها الطريق. ألا إنّها الخسارة الفادحة حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم!: ﴿**قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين**﴾. خسروا - ولا يذكر التعبير مفعولاً معيناً يقع عليه الفعل - لإطلاق الخسارة من كل تحديد، إنّها خسارة مطلقة؛ خسارةُ الولد، وخسارة التمتع برزق الله لا عن بينة ولكن عن افتراء، وقبل ذلك خسارة الهدى أصلاً، وخسارة الاطمئنان إلى الطريق، وخسارة اليسر في عقيدة التوحيد، وخسارة الخضوع للأوهام وتكبيلها للضمائر والأفهام. وجملة قد خسر وقد ضلّوا استئناف مقرر لتحقق الخسران وتحقق الضلال. والعطف في قوله: وما كانوا مهتدين لقصد التأكيد لمضمون جملة ضلوا، وهما خبران عن مساويهم. وزيادة كان هنا لتحقيق النفي، وهذا هو غاية السفه والجهل، فهذه الأعمال من أقبح ما كانت عليه العرب من ضلال الخرافات!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون**﴾: فيه بيان وتوضيح لموقف الكافرين المستهزئين، وهذه الآيات التي اقترحوها ما هي إلاّ تنصل وتمحل دون قصد صحيح ونظر واستدلال، وإنّما ينظرون إلى الآيات ويتفكرون فيها بقصد الجحود والإنكار، وينسبونها إلى خداع السحر وأباطيله، ويزعمون أنّها لا تدل على المطلوب.

وأكثر الناس يجهل هذه الحقيقة التي سنّها الله في عباده، وانطباقها على الأفراد والجماعات؛ فليست الآيات ملزمة ولا مغيّرة لطباع البشر في اختيار ما يترجح عند كلّ منهم بحسب نظره فيها وفي غيرها، ولو شاء الله تعالى لجعلها كذلك، ولو شاء أيضاً أن يخلق الإيمان في قلوب البشر خلقاً لا عمل لهم فيه بلا

اختيار، وحينئذ لا يكونون محتاجين إلى الرسل. . . ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوّاً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾: في هذا تتبين لنا حكمة الله تعالى بإجراء سنته في خلقه، لقد جعل الله لكل نبيء ـ محمدٍ وغيره ـ عدُوّاً هم هؤلاء؛ شياطين من الإنس والجن، جعلهم يوم اقتضت سنتُه وجرت مشيئته بأنّ القلوب التي لا تتفتّح لآيات الله الكونية، ولا تستمع إلى آيات الله المتلوّة، لا يمكن أن تؤمن بعد ذلك مهما جاءها من الخوارق والمعجزات، فتتصدى الرسل إذَنْ بالمناهضة والعداوة بمقتضى تنكّرها للإيمان. هؤلاء الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض بزخرف القول وَخِداعِهِ، فشياطين الإنس مهيأون لأن يستمعوا ويستجيبوا لشياطين الجنّ؛ لأنّهم غير مُهيَّئين للاستماع إلى رسل الله، وغير مهيّئين للاستجابة إلى هدى الله!. . ﴿**ولو شاء ربّك ما فعلوه**﴾: ولكنّه شاء أن يترك للطبائع اتّجاهاتها؛ وأَنْ يترك من يغلقون بصائرهم عن الهدى يضلون ﴿**فذرهم وما يفترون**﴾.

يتفرع على ما حصل ويحصل من عداوة الشياطين للرسل أمْرُ الرسول بتركهم وإغوائهم. وهو ترك إعراض عن الاهتمام بغرورهم، وما يترتب عليه من الهمّ والغمّ والنكد «لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»، ولا يفهم من هذا الإعراض عن وعظهم ودعوتهم. . . ﴿**ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون**﴾: هكذا يُتركون كما يشاءون مغمورين بالخداع وزخرف الأقوال صاغين راضين مقترفين ما يقترفون!.

التوجيه الثاني: ﴿**أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً**﴾: في هذا يوجّه الله الرسول ليقول لهم هذا القول، ويستنكر أن يتخذ غيرَ منزّل الكتاب حكماً في شأن الكتاب. والمعنى: لا أطلب حكماً بيني وبينكم غير الله الذي حكم حكمه عليكم بأنّكم أعداء مقترفون، وهذا الكتاب الذي أنزله الله للناس مفصلاً فيه من سنن الله تعالى في طبائع البشر وأخلاقهم، وارتباط أعمالهم بما استقر في أنفسهم من الآراء والأفكار؛ من الأخلاق والعادات الموضح بقصص من سبقنا من الأمم، هذا الكتاب برهان علميّ على صحة ماحكم به، وهو أدل وأوضح دليل على صحة الرسالة وصدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم -!. . ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزل من ربّك بالحق**﴾: هذه شهادة أخرى

على صحة دعوة الرسول وصدقه، وهو أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ القرآن منزل من عند الله؛ لأنّه جاء مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل.

وهم يعلمون أنّ محمداً ﷺ لم يدرس كتابهم على أحد منهم؛ إذ لو درسه لشاع أمرُه بينهم، ولأعلنوا ذلك للناس حين ظهور دعوته، وهم أحرص على ذلك ولم يدّعوه. وعِلْمُهُمْ بذلك لا يقتضي إسلامهم؛ لأنّ العناد والحسد يصدانهم عن ذلك... ﴿**فلا تكوننّ من الممترين**﴾: الخطاب هنا شامل لكل مستمع فلا يخص شخصاً بعينه، فهذا أمر قدّ اتضح فلا تكن أيّها السامع من الشاكين في القرآن وصدق من جاء به. وهذا تثبيت لليقين؛ كي لا يجول في خاطر أحد طائفٌ من التردد في هذا اليقين... ﴿**وتمت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾: هذا ضرب من التحدّي والاحتجاج على أحقيّة القرآن؛ لأنّه بلغ أقصى ما تبلغه الكتب: في وضوح الدلالة، وبلاغة العبارة، وأنّه الصادق في أخباره، والعادل في أحكامه، لا يُعْرَفُ في أخباره ما يخالف الواقع، ولا في أحكامه ما يخالف الحق.

فينتفي الإتيان بما ينقضه ويبطله، أو يعارضه؛ بأن يظهر أنّ فيه ما ليس بتمام، فإن جاء أحد بما ينقضه كذباً وزوراً فليس ذلك بنقض، وإنّما هو مكابرة في صورة النقض؛ سواء كان ذلك في لفظه ونظمه، أو كان في معانيه وحقائق حكمته، أو كان في تغيير ما شرعه وحكم به. ويؤخذ من هذا النهي عن مخالفة المسلمين أوامرَ ونواهي هذا الكتابِ المُفصّلِ المبين. ولذلك ختمت هذه الآية بقوله: وهو السميع العليم... ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون**﴾: هذه الآية توجه السامع إلى أن يقارن ويقيس ويوازن بين كلام الله وكلام الناس؛ بين كلام السميع العليم وبين كلام الظانّين الخراصين، يتبيّن له الهدى من الضلال والرشد من الغي والحق من الباطل... ﴿**إنّ ربّك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾: هذا هو الفارق الكاشف بين هدى الله وضلال الناس؛ من أجل ذلك يقيم الإسلام نظامه على شريعة الله الثابتة التي لا تتبع أهواء الناس، الحقة التي لا تتبع ظنون المتخرّصين...

﴿**فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين**﴾: فهذه الآية توضّح

وتُبيّن من يتبع هدى الله ومن يتبع ضلال الشياطين؛ توضيحاً وتبييناً يُزيلُ التشابه والاختلاط بين ما شرعه الله وما شرعه المضلّون الطغاة. والأمر في كل ما ذكر اسم الله عليه يشمل كل ما أحلّه الله من الطيبات من الرزق لباساً وأكْلاً وشرباً ومأوى واكتساباً، ومنها الذبائح من الأنعام التي كانت مثار جدال بين المسلمين والمشركين في مكة، حين كانت من مناسك الحج، واختلط أمرها بما اخترعه المشركون من العرب للتقرب بها إلى الأصنام. وحكمة الاهتمام بها أنّها مسألة قرنت بمسائل العقائد، وأنّ مشركي العرب وغيرهم من أهل الملل جعلوا الذبائح من أمور العبادات؛ بل نظموها في أصول الدين والاعتقادات، فصاروا يتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قُدّسوا من رجال دينهم، ويهلون لهم بها عند ذبحها، وهذا شرك بالله؛ لأنه عبادة توجّه إلى غير الله سبحانه وتعالى.

وجملة القول أنّ مسألة الذبائح ـ كما تفعل اليوم عن جهل ـ من مسائل العبادات التي كان يتقرب بها إلى الله تعالى، ثم صاروا في عهد الوثنية تذبح لغير غرض شرعي، ويتقربون بها إلى غيره وذلك شرك صريح!. وهذا هو الوجه لذكرها في هذه المناسبة، وهي من مباحث هذه السورة؛ بين مسائل الكفر والإيمان والشرك والتوحيد... **﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه وإنّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين﴾**: هذه الآية تعطي للمؤمنين المشعل الوضاح لمعرفة حل الشيء وحرمته، فالحلال ما أحلّه الله في كتابه والحرام ما حرمه، ولاعبرة بعادات الناس ولا بتقاليدهم الموروثة عن جهل وضلال، عندما يمتنعون بمقتضاهما عن أكل شيء أحله الله لهم. وقد فصّل الله المحرمات من الذبائح وغيرها تفصيلاً كاملاً؛ وأحلّ للمضطر ما يحتاج إليه محافظة لحياته.

وهو يحذر المخاطبين هنا من إضلال المضلين لهم؛ لأنّهم يتبعون الأهواء دون علم أو دليل. وفي هذه الآية الحكم القاطع بما تشير إليه آخرها؛ أنّ كل من تكلّم في الدين بما لا يعلمه، أو دعا الناس إلى شيء لا يعلم أنّه حق أو باطل، فهو معتد ظالم لنفسه وللناس، وكذلك من أفتى وليس هو بكُفْءٍ للإفتاء...

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾: استوعب هذا الأمر جميع المعاصي ظاهرها وباطنها كبيرها وصغيرها،

وقد فصّل في غير هذا الموضع ما يُعدّ شركاً وما يُعدّ ذنباً كبيراً وما يُعدّ صغيراً. وقد كان كثير من الناس يراءون الناس بعمل الخير، فإذا خلوا ارتكبوا الآثام. فإذا اسْتَمَرَّ الآثِمُ على إثمه بالإصرار عليه ومعاودته المرّة بعد المرّة، فلا محيص عن جزائه جزاءً يساوي ما ارتكب من الإثم!. وأما الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ـ فأولئك يتوب الله عليهم ويمحوا تأثير الإثم من قلوبهم بالحسنات المضادة لها، إنّ الحسنات يذهبن السيآت، فتعود أنفسهم زكية طاهرة، وتلقى ربَّها سليمة بارّة... ﴿**ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق**﴾: هذه جزئية من جزئيات الكلّي المنهيّ عنه خُصّصت بالذكر هنا لشدّة العناية بهذا الأمر الذي هو من أظهر أعمال الشرك، والشرك من أكبر أعمال الإثم!.

وإنّه لفسق. وهذه القضية خاصة بتلك القرابين الدينية وأمثالها بقرينة السياق، وبدليل تقييد النهي بالجملة الحالية، ويؤيده قوله: ﴿**وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون**﴾. فإنّ التعبد بالذبح لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره. وإن كان التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إلى الله زلفى ويشفع له عنده، كما يفعل أهل الوثنية. وهذا النص يدل على تحريم ما ذبح لغير الله تعالى؛ سواء لفظ به الذابح عند الذبح أم لم يلفظ، وهو الحق الذي يجب أن يصار إليه... ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون**﴾: عُلم ممّا تقدم في الآيات التي قبل هذه الآية أنّ أكثر أهل الأرض ضالّون متبعون للظنّ والخرص، وأنّ كثيراً منهم يُضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم، وأنّ الشياطين المتمرّدين العاقين عن أمر ربّهم يوحون إلى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين؛ ليضلوهم ويحملوهم على اقتراف الآثام التي نهت تلك الآيات عن ظاهرها وباطنها، بل ليحملوهم على الشرك أيضاً بالذبح لغير الله تعالى والتوسل به إليه، وذلك عبادة له معه.

فلمّا بيّن الله ما ذُكر، ضرب مثلاً يتبيّن به الفرق بين المؤمنين المهتدين للاقتداء بهم، والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم، وهذا المثل عام يشمل كل من ينطبق عليه في زمن التنزيل وغيره... ﴿**وكذلك جعلنا**

في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون﴾: هذا بيان سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على كفرهم وضلالهم، وهو داخل تحت القاعدة العامة التي تسير على وفق سنة الله في الاجتماع البشري؛ بأن يكون في كل قرية زعماء مجرمون ورؤساء ماكرون يمكرون بالناس من أفراد أو جماعات، ليحفظوا رئاستهم ويعزّزوا كبرياءهم ويثمروا مطامعهم، وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل في عصرهم، ودعاة الإصلاح من ورثتهم بعدهم إلاّ بأنفسهم، وكذا سائر من يعادون الحق والعدل والصلاح إبقاءَ ما هم عليه من الفسق والفساد.

فالذين يمكرون السيّآت لمقاومة إصلاح الرسل حرصاً على رياستهم وفسقهم وفسادهم لم يكونوا يشعرون بأنّ عاقبة مكرهم تحيق بهم، وذلك لفرط جهلهم وشدة غرورهم وحرصهم على ما هم فيه من الفسق والفجور... **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رُسُلُ الله. اللهُ أعْلَمُ حيث يجعل رسالاته سيصيب الذين أجرموا صغارعند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾**: في هذه الآية إظهار وبيان وتوضيح لإجرام الأكابر المجرمين، وهو أنّهم لا يؤمنون بشيء من الآيات تأتي لغيرهم حتى يكون لهم مثلها. والغرض من هذا على أقل تقدير أن يكونوا رسلاً مثل من يكون رسولاً، أو تكون الرسالة خاصة بهم، كما قالوا صراحة في غير هذا الموضع «لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»!.

فأبطل الله هذا الزعم من هؤلاء المكابرين المجرمين: الله أعلم حيث يجعل رسالاته. فالرسالة من فضل الله لا يؤتيها إلاّ من اختصه الله بخصائص؛ من سلامة الفطرة وعلو الهمة وزكاء النفس وطهارة القلب وحب الخير والحق، أما هؤلاء المجرمون فليسوا بمؤهلين بما أهل به رسل الله، بما فيهم من المكر والغدر والغل والحسد وكل أوصاف الشر. وهؤلاء لا يستحقون إلاّ الصغار الذي لا يماثله صغار.. والعذاب الذي لا يضاهيه عذاب، وهذا الصغار والهوان جزاء على الكبر والطغيان، والعذاب الشديد جزاء على المكر والجحود...

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا

يؤمنون﴾: هذه الآية لاحقة بما سبق من بيان السبب المؤثر بالحقيقة لإيمان المؤمن وكفر الكافر؛ وهو هداية الله المؤمن، وإضلاله الكافر، فذلك حقيقة التأثير دون الأسباب الظاهرة، فيعرف من ذلك أنّ أكابر المجرمين لو أوتوا ما سألوا لما آمنوا، حتى يريد الله هدايتهم إلى الإسلام. فالوصف الصادر عن هداية الإسلام شيآن: الكبر والحسد. والوصف الداعي إلى هداية الإسلام شيآن: استقلال الفكر الصادر عن تقليد الآباء والأجداد، وقوة الإرادة الصارفة عن اتباع الرؤساء أو مجاراة الأنداد.

فمن كان مثل القسم الثاني كان أهلاً بإرادة الله تعالى وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة ومهذّبها، فإذا أُلقيت إليه وجد لها في صدره انشراحاً واتّساعاً بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول؛ وذلك أنه لا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما أُلقي إليه فيتأمله فتظهر له آيته، وتتضح له دلالته، فتتوجه إليه إرادتُه، ويذعن له قلبه فتتبعه جوارحه،

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

وهذا هو النور الذي يفيض عليه من القرآن، والذي يسير فيه باتباعه له. ومن كان عكس هذا كان غير مستعد لقبول الإسلام بما أفسد من فطرته بالشرك وأعماله، وبما تدنّست به نفسُه من رذيلتي الكبر والحسد اللذين يصرفان المدنَّس بهما عن التأمل فيما يُدْعَى إليه، والحرص على استبانة الحق والباطل فيه، ويشغلانه بما يكون من شأنه مع الداعي له إلى الشيء، فيعز على المستكبر والحاسد أن يكون تابعاً لغيره، وهو يرى نفسه أجدر بالإمامة منها بالقدوة، أو بما سلبه استقلال الفكر وصحة النظر من التقليد الأعمى الأصم، أو ما حرمه حريّة التصرف، وهو ضعف الإرادة عن مخالفة الجمْهَرَة؛ فهو إذا عرضت عليه الدعوةُ يجد صدره ضيقاً حرجاً لا يتسع لغير ما فيه، ولا يصل إليه شيء من الخير، ولا يتسع لقبول شيء جديد منافٍ لما استحوذ على قلبه وفكره من التقليد، ولما يزلزل كبرياءه ويصادم حسده من الخضوع والاتباع لمن يرى نفسه أولى منه بالرياسة والإمامة، فيكون استثقاله لإجابة الدعوة وشعوره بالعجز عنها، كشعوره بالعجز عن الصعود بجسمه إلى جو السماء لأجل الوصول إليها. مثل هذا العذاب الذي أحاط بالضال عن الإسلام، يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون؛ والرجس هنا

قساوة القلب وخبث النفس، وهو السبب الصاد عن إجابة دعوة الإسلام. . .

﴿وهذا صراط ربّك مسقيماً قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكرون﴾: الإشارة هنا إلى الإسلام الذي يشرح الله له صدر من يريد هدايته، هو صراط ربّك أيّها الرسول الذي بعثك به، وبيّن لك في هذه الآيات في هذه السورة وفي غيرها من آيات الكتاب والذكر الحكيم، قد فصلناها ووضحناها لذوي العقول النيرة بأصوله الراسخة وفروعه المثمرة النافعة، فيزدادون بها يقيناً ورسوخاً في الإيمان، ويدرءون ما يورد عليهم من الشبهات والأوهام، كما يزدادون إذعاناً وموعظة تبعثهم على صالح الأعمال، «وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين». وهذا هو الغاية في التوضيح والبيان. . .

﴿لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾: هذا بيان جزاء المؤمنين الصالحين في مقابل ما بُيّن قبله من جزاء المجرمين. ودار السلام: الجنة التي أُعدّت للمتقين؛ دار الطمأنينة، دار النجاة، دار الأمان، مضمونة بضمان ربّهم، محفوظة مدخرة عند ربّهم، وهو وليهم فهو بهم كفيل ولهم ناصر وعليهم حفيظ. ذلك باستحقاقهم لهذا كله بما كانوا يعملون؛ بسبب ما كانوا يعملونه بباعث الإيمان به والإذعان لما جاء به رسوله من أعمال الصلاح المزكية لأنفسهم، والإصلاح المفيدة لكل من يعيش معهم. وهذه الولاية للمتذكرين المؤمنين الصالحين تشمل ولاية الدنيا والآخرة. والآية نافية للقول بالجبر، ومبطلة للقول بإنكار القدر، بصراحتها بنوط الجزاء بالعمل، فإسناد العمل إليهم ينفي الجبر، ونوط الجزاء به يثبت القدر.

التوجيه الثالث: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله إنّ ربّك حكيم عليم﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى مشهد من مشاهد القيامة؛ مشهد الحشر للجن والإنس، يعرضهم في مشهد شاخص حافل بالحوار والاعتراف والمناقشة والحُكْم. والعرض يبدأ بسؤال الجن عن سبب كثرة أتباعهم من الإنس، ويجيب الإنس التابعون: ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. عند ذلك يجيء الحكم العاجل رداً على العجلة في الجواب قبل انتهاء الحوار: قال النار مثواكم خالدين فيها إلاّ

ما شاء الله إنّ ربّك حكيم عليم. فالنار مثابة ومأوى، والمأوى والمثوى للإقامة، وهي إقامة الدوام؛ إلاّ ما شاء الله، فالأمر كله متروك لله يقدّره بما يراه. . .

﴿**وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**﴾: هذه الآية تعقيب على ما حصل في المشهد السابق، ليقول: إنّه بمثل ذلك وبمقتضاه يستحق الظالمون أن يكون بعضهم أولياء بعض، فهناك توافق وهناك استحقاق لهذا الولاء. والجن ظالمون وأتباعهم ظالمون، وكذلك نولي بعضهم بعضاً بما كسب كلاهما من الإغواء والغواية. ومن هذا التقرير نأخذ حكماً عاماً: وهو أنّ الظالمين من الناس يوالي بعضهم بعضاً ويُحَالِفُ بعضُهم بعضاً بحكم ما بينهم من صلات في المشاعر والأهداف ـ ونحن نجد في الأحلاف القائمة من حولنا في الأرض مصداق هذا القرار -، والظالمون من الناس يلي عليهم الظلمة من الحكّام!؛ لأنّ الحاكم الظالم لا يستطيع البقاء عادة في مجتمع يعدل أهله بينهم وبين أنفسهم، فما يبقى إلاّ ولظلمه للرعية سند من ظلم بعض الرعية ببعض!.

وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون!. ومن أجل ذلك قيل: إن لم يُقلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر. وقد قيل: وما ظالم إلاّ سيُبْلى بظالم!. والمثل السائر: كما تكونوا يولّ عليكم، والمقصود من الآية الاعتبار والموعظة والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين، وتوخّي الأتباع صلاح المتبوعين، وبيان سنة من سنن الله في العالمين. وفي القرآن من العبر ما يكفي لإصلاح جميع البشر، ولكن أكثر الناس في غفلة عن الاعتبار، «وإنّما يعتبر أولوا الأبصار»!. «فاعتبروا يا أولي الأبصار. . .»! ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟. قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين**﴾: هذا السؤال موجه إلى الجن والإنس في ذلك العرض المشهود، وهو سؤال للتقرير والتسجيل، والرسل المسؤول عنهم من الإنس الذين بعثهم الله إلى الثقلين، وإنّما رسل الجن التي تسمع من الرسل وتأتي به قومها. . كما أخبر القرآن بقوله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم -: «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ياقومنا أجيبوا

داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين».

لقد أدرك المسؤولون أنّه سؤال التقرير والتسجيل، فلم يجيبوا الجواب المباشر، إنّما سجلوا على أنفسهم الشهادة بالمعصية: قالوا شهدنا على أنفسنا.. وهو جواب وجيز يدل على أنّهم معترفون بكفرهم ومقرُّون بإتيان الرسل وبلوغهم دعوتَهم منهم أو من نقلها عنهم، وأنّهم كذّبوا واتبعوا أهواءهم؛ ولذلك قال: وغرّتهم الحياة الدنيا!: من الجاه والمال والشهوات وحب الرياسة والسلطان على الناس، وكذلك حال مَنْ على مقربة من الرؤساء والزعماء، بشجاعتهم أو ثروتهم أو عصبيتهم، فهؤلاء كانوا يكفرون بالرسل كفر كبر وعناد، يقلدهم فيه كثير من أتباعهم تقليداً، فيغترّ كلٌّ منهم بما يعتزّ به من التعاون مع الآخر!. وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين!..

﴿**ذلك أن لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون**﴾: في ختام ما استقر في المشهد السابق يوجّه الخطاب إلى الرسول ﷺ تعقيباً على الحكم الصادر بإحالة هذا الحشد إلى النار مثوًى ومُقاماً!. وإشهاداً على إقرار المذنبين على أنفسهم بأنّ الرسل جاءتهم وأنّهم ظلّوا بعد الرسل كافرين، وتقريراً بأنّ العذاب لابد أن يسبقه الإنذار عدلاً من الله ورحمة... ﴿**ولكل درجات ممّا عملوا وما ربّك بغافل عمّا يعملون**﴾: في هذه الآية تقرير آخر يبيّن أنّ الجزاء ليس واحداً، فهو درجات بحسب الأعمال. والدرجات التي نالوها هي الدرجات التي عملوها، فكأنّ العمل بذاته صار جزاء من نوعه وبحسبه، والعمل متروك للناس يتسابقون فيه، والجزاء ينتظرهم عادلاً لا ظلم فيه... ﴿**وربّك الغني ذو الرحمة إنْ يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين. إنّما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين. قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنّه لا يفلح الظالمون**﴾: هذه الآيات الثلاث مؤيدة للآيات التي قبلها ومتمّمة لبيان المراد منها؛ خَتَم الآيات السابقة بقوله تعالى: وما ربّك بغافل عما يعملون. وبَدَأ هذه بقوله: وربّك الغني ذو الرحمة، لإثبات غناه تعالى عن تلك الأعمال والعاملين لها وعن كل شيء، ورحمته في التكليف

والجزاء وغيرها، فالتكليف والجزاء عليه رحمة منه بهم يكمل به نقص المستعدّ للكمال.

ثم تنتهي التعقيبات على المشهد المؤثر بالتهديد الملفوف لمن يتمادون ويصرّون؛ إذن التهديد الذي يتضمنه نفض الرسول ليده منهم، وتركهم لأنفسهم، وعدم عنايته لما يكون منهم، وثقته بالعاقبة له وعليهم: ياقوم اعملوا على مكانتكم كما تشاءون، وبقدر ما تملكون فلست أحفلكم شيئاً، إنّي عامل على طريقتي ماضٍ في سبيلي واثق من أنّ العاقبة لي؛ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار؟ مستيقن من سوء عقباكم، إنّه لا يفلح الظالمون. ومع أنّ هذا هو مفهوم النص، فإنّ منطوقه يلف التهديد لفاً، ويتخذ له طريقة أبلغ في التأثير الوجداني دون تصريح بذلك المفهوم. إنّ الذي يدعو المخالفين له المعادين لدينه أن يعملوا جهدهم، وأن يستمروا في طريقهم، فلا يطلب إليهم كفّاً ولا تغييراً، ثم يعالنهم أنّه هو ماضٍ في طريقه لا يلتفت عنها مطمئناً إلى العاقبة في النهاية. إنّ الذي يقول هذا ويفعله لابد أن يكون واثقاً بما يقول، ولابدّ أن تكون لديه الدلائل كاملة على صحة ما يقول!.

التوجيه الرابع: ﴿وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾: في هذا التوجيه توضيح لذكر ما اشتملت عليه أوهام الجاهلية حول التقاليد الوثنية المتعلقة بالنذور والذبائح، ويتتبع هذه الأوهام في منابتها فيكشفها للنور، وهذا ابتداء بيان تشريعاتهم الباطلة: أولها ما جعلوه حقاً عليهم في أموالهم للأصنام. وإنّما كانوا يوجبونها على أنفسهم بالالتزام، مثل النذور، أو تعيين من الذين يشرعون لهم، فكانوا يعمدون إلى قسم من الزرع وقسم من الأنعام فيجعلونها نصيبين: نصيباً لله بزعمهم، ونصيباً لآلهتهم التي يشركونها في مالِهم وأبنائهم وحياتهم..

وهذه هي الضلالة الأصيلة.. فالله هو خالق الحرث والأنعام فليس بحاجة إلى أن يخصّص له العباد نصيباً ممّا خلق، فلا يجوز لأحد أن يشرك مع الله أحداً، ولا أن يقسم لغيره ممّا خلق نصيباً. وزادوا في ضلالهم عندما تحيزوا لأصنامهم، وقدموا نصيبها على نصيب الله، فما خصصوه لشركائهم فهو وقف

عليها لا يأخذون منه لجانب الله شيئاً، وما كان لله فهم ينقصونه أحياناً ويضمونه إلى نصيب الشركاء. وللجهلاء والعوام عادات وتقاليد تشبه ما عليه العرب في جاهليتهم، مثل الصدقات المزعومة عندهم، والنذور والذبائح للأولياء، فهي تقاليد موروثة انتشرت بين الناس دون انتباه لما جاء به الإسلام من بيان الحلال والحرام. «ساء ما يحكمون»، ساء جملة وتفصيلاً، ساء إشراكهم بالله أوّل مرة وحكمهم في قضية العقيدة بهذا الشرك السخيف، وساء حكمهم في القسمة بين الله وسواه.. وهو الذي ذرأ الحرث والأنعام التي يقسمون، وساء حكمهم في انتقاص ما خصصوه لله وضمه ـ على أي وجه من الوجوه ـ إلى ما خصصوه للشركاء!. وكلها أوهام نابعة من الوهم الأول، وضلالات مشتقة من الضلالة الأولى!.. **﴿وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤُهم ليُرْدُوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾**!: فهذه هي الضلالة الثانية، النابعة كذلك من نبع الضلال الأصيل.

لقد زيّن لهم شركاؤهم أن يقتلوا أولادهم مثل ما حصل عند العرب من وأد البنات وذبح البنين على سبيل النذر، وما حصل عند غيرهم من التقرب بذبح الأبناء أو البنات أو بعض الأسرى إلى الآلهة. وما من شك أنّ الإيمان بالله وحده يمتنع معه قتل الأولاد للفقر أو للعار أو للنذر، أو تقرباً إلى الأصنام وطغاة البشر!. وهذه كتلك إنّما تنبع من عقيدة الشرك في الشركاء. والغاية من ذلك التزيين هي إرداء الأولاد بالقتل، وإرداء الآباء بالذنب، وتلبيس الدين وتخليطه، فلا تتّضح لهم عقيدة خالصة من تلك الأباطيل. ولو شاء الله ما قتلوا أولادهم وانقادوا للتضليل والتزيين، ولكنه شاء أن تجري سنته بما جرت، وأن تجرّ الضلالة الأولى إلى سائر الضلالات بعدها، فجرت الأحداث وِفْقَ السنة التي شاءها وقررها.. فلذلك جيء بالتعقيب: فذرهم وما يفترون: فاتركهم في افترائهم على الله وعلى الحق!. فهم ماضون في هذه الطريق بعد أن بدأوها بالشرك، والشرك قائدهم إلى مفتريات لا حد لها؛ فذرهم لمفترياتهم المتفرعة عن ذلك الضلال الكبير...

﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾:

وهذه هي الضلالة الثالثة تنبع كذلك من نفس المستنقع الأول. لقد ساقتهم أوهام الوثنية وضلالاتها فعمدوا إلى عزل قسم من الأنعام والحرث، قالوا إنّها محجّرة غير مطلقة، موقوفة على الآلهة لا يجوز أن يطعمها إلاّ سدنة هذه الآلهة، بلا دليل ولا سند إلاّ الزعم الباطل. وعمدوا إلى قسم آخر من الأنعام، فحرّموا ظهورها على الركوب؛ لأنّها نذرت للآلهة، أو لأنّها ولدت كذا بطناً، أو لأنّها حمت ظهرها بعدد من الضراب، وعمدوا إلى قسم ثالث من الأنعام، فقالوا: إنّهم لا يذكرون اسم الله عليها حين يركبونها، أو حين يذبحونها، أو أنّهم يركبونها في غير الحج؛ لأنّ فيه ذكر الله، إلى غير ذلك من الخزعبلات المفتريات على الله. ويعقب على هذا الافتراء بالتهديد: سيجزيهم بما كانوا يفترون. والمراد بما كانوا يفترون في هذه وفيما قبلها!، ما يفترونه على الله بنسبة أنّه أمرهم بما اقترفوه. وكان افتراؤهم اتباعاً لافتراء شركائهم، فسماه افتراء؛ لأنّهم تقلدوه عن غير نظر ولا استدلال، فكأنّهم شاركوا الذين اقترفوه من الشياطين وسدنة الأصنام وقادة دين الشرك، وقد كانوا يموّهون على الناس، أنّ هذا مما أمر الله به!..

﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنّه حكيم عليم﴾: وهذه هي الضلالة الرابعة تتصل بالثالثة، وتتبع معها من الضلالة الأولى، فقد استطردوا وتوغّلوا في الأوهام النابعة من أوهام الشرك والوثنية، فقالوا في بعض الأجنّة في بطون الأنعام: إنّها خالصة للذكور حين تنتج محرمة على الإناث، إلاّ أن تكون ميتة فللإناث أن يشاركن فيها الذكران، هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل!. ولما كان هذا الحكم ـ هكذا ـ وصفاً بدون حقيقة سيجزيهم به هو دون غيره، فلا يعلم تفاصيله إلاّ الحكيم العليم... **﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾**: هذه هي خلاصة ما وصل إليه المشركون نتيجة إشراكهم، وحكمهم بغير ما أنزل الله، وهي خسرانهم وضلالهم وعدم اهتدائهم فلم ينتفعوا بشيء في الدنيا، ولن يغني عنهم شيئاً من عذاب الله في الأخرى، فخسران الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من فوائدهم من العزة والنصرة والبرّ والصلة والفخر والزينة والسرور والغبطة. كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوّة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة والغلظة والشراسة، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق التي يضيق بها العيش في

الدنيا، ويترتب عليها العقاب في الآخرة. ولذلك علّل هذا الجرم بسفه النفس وهو اضطرابها وحماقتها؛ والجهل بما ينفع ويضر، وما يقبح ويحسن.

ثم بيّن بعد هذا أنّهم حرّموا ما رزقهم الله من الطيبات، وهذا سفه وجهل أيضاً، ولكنه دون ما سبقه من هذه الجهة، ولذلك اقتصر على تعليله بشر ما فيه من القبح، وهو الافتراء على الله يجعله ديناً يتقرب به إليه. ثم بيّن نتيجة الأمرين بأنّهم قد ضلوا فيهما وما كانوا مهتدين إلى شيء من الحق والصواب، من طريقِ العقل ولا من طريق الشرع ولا من منافع الدنيا ولا من سعادة الآخرة.

2 ـ نِعَمُ الله على العبيد دليل قاطع على حقيقة التوحيد

النص

۞ وَهْوَ اَلذِےٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعْرُوشَٰتٖ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٖ
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اُكْلُهُۥ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ
مُتَشَٰبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٖۖ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ
وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حِصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۖ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ اُلْمُسْرِفِينَۖ ﴿142﴾
وَمِنَ اَلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرْشاٗۖ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اُللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ اِلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٞۖ ﴿143﴾
ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٖۖ مِّنَ اَلضَّأْنِ اِثْنَيْنِ وَمِنَ اَلْمَعْزِ اِثْنَيْنِۖ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اِلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ اُلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِے بِعِلْمٍ اِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَۖ ﴿144﴾
وَمِنَ اَلْإِبِلِ اِثْنَيْنِ وَمِنَ اَلْبَقَرِ اِثْنَيْنِۖ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اِلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ اُلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اِذْ وَصَّىٰكُمُ اُللَّهُ بِهَٰذَاۖ
فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ
اَلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ إِنَّ اَللَّهَ لَا يَهْدِے اِلْقَوْمَ اَلظَّٰلِمِينَۖ ﴿145﴾
۞ قُل لَّآ أَجِدُ فِے مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطْعَمُهُۥٓ

إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿146﴾

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿147﴾

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿148﴾

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿149﴾

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿150﴾

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿151﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**أنشأ جنات**﴾: الإنشاء: الإيجاد والخلق وهو إيجاد الأحياء وتربيتها، ويطلق على كل ما يكمل بالتدريج، والجنات: البساتين والكروم الملتفّة الأشجار، بحيث تُجِنُّ الأرضَ وتسترها. ﴿**معروشات وغير معروشات**﴾: المعروشات: المرفوعات على العرائش، وهي ما يرفع من الدعائم ويجعل عليها مثل السقوف. ومادة عرش تدل على الرفع، ومنها عرش الملك. وغير المعروشات: الشجر الذي يستوي على سوقه، ولا يتسلق على غيره. ﴿**والنخل والزرع مختلفاً أُكله**﴾: النخل معروف. والزرع النبات الذي يكون بحرث الناس، وأصل الزرع طرح البذر في الأرض عند قصد حرثها، والأكل: هو الشيء الذي يؤكل، ويطلق على الثمر وعلى الرزق مطلقا...

﴿**والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه**﴾: المتشابه: المتماثل. وغير المتشابه: المتخالف... ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر**﴾: الثمر: إنتاج الشجر، وأثمر صار فيه الثمر، ويطلق على الكثرة من قولهم: أثمر الرجل إذا كثُر مالُه... ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾: اعطوا حق المحتاج من الثمر والحصاد: قطع الثمر والحب من أصوله، وحصاد الثمار قطعها، وحصاد الزرع قلعه ثم درسه ليصفى حبّه من تبنه. ﴿**ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين**﴾: الإسراف والسرف: تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المُشْتَهَى، والإسراف: التبذير والإنفاق فيما لا يرضى الله تعالى. ﴿**ومن الأنعام حمولةً وفرشاً**﴾: الحمولة: ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه، كانت عليه أثقال أو لم تكن، والمراد به هنا: البعير. والفرش: صغار الإبل، ويطلق الفرش على كل ما يفرش من أثاث البيت ومتاعه، والمراد به هنا: ما يفرش من الأنعام للذبح أو للركوب، أو ما يؤخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها لباساً وفراشاً...

﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾: الخطوات: جمع خُطوة، وهي المسافة التي بين القدمين، ومن بالغ في اتباع مَاشٍ يتبع خطواته كلما انتقل فوضع خطوة مكان خطوة... ﴿**ثمانية أزواج**﴾: الأزواج: جمع زوج، والزوج: يطلق في اللغة على

كل واحد من القرينين ﴿**من الضأن اثنين ومن المعز اثنين**﴾: الضأن: اسم جمع للغنم لا واحد له من لفظه، ومفرد الضأن شاة، وجمعها شياه، والضأن نوع من الأنعام ذوات الظلف له صوف. والمعز: اسم جمع مفرده ماعز، وهو نوع من الأنعام شبيه بالضأن من ذوات الظلف له شعر مستطيل... ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين**﴾: الإبل: اسم جمع لجنس الأباعر ومفرده بعير، والجمل اسم للذكر، والناقة اسم للأنثى. والبقر: اسم جنس مفرده بقرة، والثور الذكر منه، والعجل الصغير منه، والعجلة للأنثى، والبقر صنفان عراب وجواميس، وبقر الوحش غيرهما... ﴿**أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين**﴾: اشتمل عليه أحاط به، مأخوذ من الشمول، وهو الإحاطة والعموم، وأرحام جمع رحم، والرحم مقر الجنين من الحيوان. والأنثيين: مثنى الأنثى...

﴿**أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا**﴾: الشهداء: الحاضرون، جمع شهيد، وهو الحاضر. والإيصاء والتوصية: الأمر بشيء يُفعل في غيبة الآمر فيؤكد على المأمور بفعله؛ لأنّ شأن الغائب التأكيد، وأطلق الإيصاء هنا على ما أمر الله به؛ لأن الناس لم يشاهدوا الله حين فِعْلِهِمْ لما يأمرهم به، فكان أمر الله مؤكداً، فعبر عنه بالإيصاء تنبيهاً لهم على الاحتراز من التفريط في أوامر الله، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء والتوصية في مواضع كثيرة من القرآن. والإشارة في قوله: بهذا إلى التحريم في قوله: حرّم... ﴿**قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه**﴾: لا أجد: أظفر، وهو من وجدان الشيء وتحصيله. والطاعم: الآكل، يقال: طعِم إذا أكل الطعام... ﴿**إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنّه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به**﴾: الميتة: الحيوان الميت بدون ذكاة شرعية.

والدم المسفوح: المصبوب الذي يخرج عند الذبح والنحر أو جرح العضو. ولحم الخنزير معروف. والرجس: القذر والمأثم، وكل ما اسْتُقْذِرَ من العمل، والعمل المؤدي إلى العذاب. والفسق: الترك لأمر الله، والعصيان، والخروج عن طريق الحق، والفجور. وأَهَلَّ: رفع صوته... ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾: الاضطرار: الاحتياج إلى الشيء، واضطره إليه: أحوجه وألجأه فاضْطُرَّ، مأخوذ من الضرورة التي تقتضيها الحاجة. والباغي: المتعالي، والظالم، والخارج عن الحق، والخارج عن طاعة الله، ويطلق على الخارج عن طاعة الإمام. والعادي:

متجاوز الحد الذي حُدَّ له، ويطلق على كل من يتعدى على حق الغير. . . ﴿**وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم**﴾: حرم الله على اليهود كل ذي ظفر من الحيوان، وهي الإبل والسبع والكلب والنمر والأرنب والوز، وكل ذي مخلب، والظفر يقابل الحافر والظلف. والشحوم: جمع شحم، وهو المادّة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان. والحوايا جمع حوية، وهي الأكياس الشحمية التي تحوي الأمعاء.

وما اختلط بعظم: الشحم الذي يكون ملتفا على عظم الحيوان من السمن. . . ﴿**ذلك جزيناهم ببغيهم**﴾: الإشارة إلى التحريم الذي حصل بسبب ظلمهم وتعدّيهم حدود الله. . . ﴿**فإن كذبوك فقل ربّكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين**﴾: كذّب المشركون واليهودُ. والبأس: الشدة والمكروه والعذاب، وما يحصل في الحرب من المشاق. والقوم المجرمون: المكذبون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم -. . . ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾: هذه مقولة يعتذر بها المشركون عن إشراكهم وتحريمهم ما أحل الله. وردّ الله عليهم بقوله: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا**﴾: والذوق: الإحساس. والبأس هنا: الاستئصال. . . ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**﴾: هل حرف يدل على طلب تحقيق إسناد المسؤول عنه، وأصل معناها قد لاختصاصها بالأفعال، وكثر وقوعها بعد همزة الاستفهام فغلب عليها معنى الاستفهام فكثر حذف الهمزة معها، حتى تنوسيت الهمزة في مشهور الكلام ولم تظهر معها إلا في النادر. والعلم هنا: ما قابل الجهل. وإخراجه: الإعلام به. . .

﴿**إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون**﴾: فلا علم عندكم، وقصارى ما عندكم هو الظن الباطل والخرص. . . ﴿**قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾: الحجة: الأمر الذي يدل على صدق المُدّعِي في دعواه، وعلى مصادفة المستدل وجه الحق. والبالغة: هي الواصلة إلى ما قصدت لأجله، وهو غلبة الخصم وإبطال حجته. والمشيئة هنا: فعل مشيئة التكوين، والمشيئة المنكرة عليهم، هي ما أرادوه من الاستدلال بالواقع على الرضى والمحبّة، وبين المشيئتين

فرق واضح. ﴿**قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا**﴾: هلُمَّ: اسم فعل أمر للحضور أو للإحضار، تكون قاصرة ومتعدية مثل ما هنا، وتلزم حالة واحدة إفراداً وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً، مأخوذة من اللّم، وهو الجمع دخلت عليها هاء التنبيه، أو من الأمّ وهو القصد دخلت عليه هل الاستفهامية، ثم ركبت وضمّنت كلا المعنيين، وصارت بمعنى اللمّ والأمّ، وهما الضمّ والقصد. والشهداء: جمع شهيد بمعنى شاهد. وبقية معاني الكلمات واضحة.

مبحث الإعراب

﴿**وهو الذي**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على قوله: وحرموا ما رزقهم الله. ﴿**أنشأ**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الموصول. ﴿**جنّات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**معروشات**﴾ نعت لجنّات. ﴿**وغير**﴾ معطوف على معروشات. ﴿**معروشات**﴾ مضاف إلى غير مجرور بالكسرة. ﴿**والنخل**﴾ معطوف على جنات. ﴿**والزرع**﴾ معطوف على النخل. ﴿**مختلفاً**﴾ منصوب على الحال من النخل والزرع. ﴿**أكلُه**﴾ فاعل باسم الفاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والزيتون والرمان**﴾ مثل والنخل والزرع. ﴿**متشابهاً**﴾ مثل مختلفاً في الإعراب. ﴿**وغير**﴾ معطوف على متشابهاً. ﴿**متشابه**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**من ثمره**﴾ متعلق بكلوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**أثمر**﴾ فعل الشرط، وجوابه مقدّر يدل عليه كلوا. ﴿**وآتوا**﴾ معطوف على كلوا. ﴿**حقّه**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يوم**﴾ متعلق بآتوا. ﴿**حصاده**﴾ مضاف إلى يوم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولا تسرفوا**﴾ مجزوم بلا الناهية معطوف على آتوا.

﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها ﴿**لا يحب**﴾ فعل مضارع منفيٌّ بلا، والفاعل ضمير يعود على الله المعلوم من سياق الكلام. ﴿**المسرفين**﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة لا يحب خبرُ إنَّ، وجملة إنّه تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ومن الأنعام**﴾ متعلق بأنشأ مقدرة معطوفة على أنشأ السابقة. ﴿**حمولة**﴾ مفعول به. ﴿**وفرشاً**﴾ معطوف عليه. ﴿**كلوا ممّا**﴾ مثل كلوا من ثمره. ﴿**رزقكم الله**﴾ فعل وفاعل، والضمير المتصل مفعول به، والجملة صلة ما. ﴿**ولا تتّبعوا**﴾ مثل ولا تسرفوا. ﴿**خطوات**﴾ مفعول به. ﴿**الشيطان**﴾ مضاف إليه. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها.

﴿**لكم**﴾ متعلق بعدوّ. ﴿**عدوٌّ**﴾ خبر إنّ. ﴿**مبين**﴾ نعت لعدو، وجملة إنّه تعليلية. ﴿**ثمانية**﴾ منصوب على الحال من قوله: من الأنعام. ﴿**أزواج**﴾ مضاف إلى ثمانية. ﴿**من الضأن**﴾ متعلق بمحذوف نعت لاثنين. ﴿**اثنين**﴾ بدل من ثمانية منصوب بالياء. ﴿**ومن المعز اثنين**﴾ مثل من الضأن اثنين. ﴿**قل**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**آلذكرين**﴾ الهمزة للاستفهام، والذكرين مفعول مقدم بحرّم. ﴿**حرّم**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله.

﴿**أم الأنثيين**﴾ معطوف بأم على الذكرين. ﴿**أمْ**﴾ حرف عطف، ما موصولة في محل نصب مفعول به، معطوف على الأنثيين. ﴿**اشتملت عليه أرحام**﴾ صلة ما. ﴿**الأنثيين**﴾ مضاف إلى أرحام مجرور بالياء. ﴿**نبئوني**﴾ فعل أمر، وياء المتكلم مفعول به. ﴿**بعلم**﴾ متعلق بنبئوني. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ جملة كان واسمها وخبرها فعل الشرط، وجوابها مقدر يدل عليه قوله: نبئوني. ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين**﴾: إعرابها مثل إعراب ما سبقها في قوله: من الضأن اثنين. . . الخ. ﴿**أمْ**﴾ حرف عطف. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**شهداء**﴾ خبر كان. ﴿**إذ**﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿**وصّاكم الله**﴾ فعل وفاعل، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**بهذا**﴾ متعلق بوصّاكم، وجملة وصّاكم في محل جر مضاف إلى إذ، وإذ متعلق بشهداء، أي: أم كنتم شهداء حين. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتعقيب والترتيب، ومَنْ استفهامية في محل رفع مبتدأ. ﴿**أظلم**﴾ خبره. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**افترى**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة مَنْ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافترى. ﴿**كذباً**﴾ مفعول به. ﴿**ليضل**﴾ فعل مضارع منصوب بأن بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على فاعل افترى. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**بغير**﴾ متعلق بمحذوف حال من الفاعل. ﴿**علم**﴾ مضاف إلى غير، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بافترى، أي: افترى لإضلال الناس. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يهدي**﴾ الجملة خبر إنّ. ﴿**القوم**﴾ مفعول به. ﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم، وجملة إنّ الله تعليلية.

﴿**قل**﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب. ﴿**لا أجد**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير المتكلم (أنا). ﴿**في ما**﴾ متعلق بأجد. ﴿**أوحي**﴾ فعل ماض

مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وجملة أوحي صلة ما. ﴿إليّ﴾ متعلق بأوحي. ﴿محرّماً﴾ مفعول به. ﴿على طاعم﴾ متعلق بمحرّماً. ﴿يطعمه﴾ الجملة نعت لطاعم. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء. ﴿أن يكون﴾ منصوب بأن، واسم يكون ضمير يعود على المحرّم. ﴿ميتةً﴾ خبر يكون، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بإلاّ. ﴿أو دماً﴾ معطوف على ميتة. ﴿مسفوحاً﴾ نعت لدماً. ﴿أو لحم﴾ معطوف على دماً. ﴿خنزير﴾ مضاف إلى لحم. ﴿فإنّه﴾ مرتب على ما قبله. ﴿رجس﴾ خبرُ إنّ، واسمها الضمير المتصل بها. ﴿أو فسقاً﴾ معطوف على خبر يكون. ﴿أُهلَّ﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على فسقاً. ﴿لغير﴾ متعلق بأهلّ. ﴿الله﴾ مضاف إلى غير. ﴿به﴾ متعلق بأُهلّ. ﴿فمنُ﴾ اسم شرط دخل عليه فاء التعقيب، وحركت بالضمة لمناسبة ما بعدها. ﴿اضطر﴾ فعل الشرط.

﴿غير﴾ حال من نائب الفاعل المقدر. ﴿باغٍ﴾ مضاف إلى غير. ﴿ولا عادٍ﴾ معطوف على باغٍ، وإعراب باغ وعادٍ مقدر على الياء المحذوفة. ﴿فإنّ ربّك﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، إنّ ربّك إنّ واسمها، والضمير في ربّك مضاف إليه. ﴿غفور﴾ خبرُ إنّ. ﴿رحيم﴾ خبرٌ ثانٍ، وجملة فإنّ ربّك في محل جزم جوابُ مَن الشرطية فمن حركت بالضمة المناسبة ما بعدها اضطر. ﴿وعلى الذين﴾ متعلق بحرّمنا بعدها. ﴿هادوا﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿حرّمنا﴾ فعل وفاعل. ﴿كلّ﴾ مفعول به. ﴿ذي﴾ مضاف إلى كل مجرور بالياء. ﴿ظفر﴾ مضاف إلى ذي. ﴿ومن البقر﴾ معطوف على الذين هادوا. ﴿والغنم﴾ معطوف على البقر. ﴿حرّمنا﴾ مثل حرّمنا الأولى. ﴿عليهم﴾ متعلق بحرّمنا. ﴿شحومهما﴾ مفعول به، وضمير المثنى مضاف إليه. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء. ﴿ما﴾ في محل نصب بالاستثناء. ﴿حملت ظهورهما﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿أو الحوايا﴾ عطف على ظهورهما.

﴿أو ما﴾ عطف على ما حملت. ﴿اختلط﴾ صلة ما. ﴿بعظم﴾ متعلق باختلط. ﴿ذلك﴾ في محل نصب مفعول ثان لجزيناهم، والضمير المتصل في جزيناهم مفعول أول. ﴿ببغيهم﴾ متعلق بجزيناهم. ﴿وإنّا﴾ إنّ واسمها. ﴿لصادقون﴾ خبرها، والجملة تذييل. ﴿فإن﴾ الفاء للتفريع، وإن شرطية. ﴿كذّبوك﴾ فعل الشرط. ﴿فقل﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿ربّكم﴾ مبتدأ،

والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ذو﴾ خبر مرفوع بالواو. ﴿رحمة﴾ مضاف إلى ذو. ﴿واسعة﴾ نعت لرحمة، وجملة ربّكم ذو رحمة في محل نصب مقول القول، وجملة فقل ربّكم ذو رحمة واسعة في محل جزم جواب الشرط. ﴿ولا يُرد﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا معطوف على ربّكم ذو رحمة. ﴿بأسه﴾ نائب الفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿عن القوم﴾ متعلق بيُرد. ﴿المجرمين﴾ نعت للقوم مجرور بالباء، وجملة ولا يرد بأسه تذييل. ﴿سيقول الذين﴾ فعل وفاعل. ﴿أشركوا﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿لو﴾ شرطية. ﴿شاء﴾ فعل الشرط. ﴿الله﴾ فاعل شاء. ﴿ما أشركنا﴾ فعل وفاعل جواب الشرط.

﴿ولا آباؤنا﴾ معطوف على ما أشركنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ولا حرّمنا﴾ معطوف على ما أشركنا. ﴿من شيء﴾ من صلة، وشيء مجرور لفظاً بمن، ومنصوب محلاً بحرّمنا. ﴿كذلك﴾ الكاف في محل نصب مفعول مطلق، ذلك في محل جر بالكاف. ﴿كذّب الذين﴾ فعل وفاعل. ﴿من قبلهم﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿حتى﴾ حرف غاية. ﴿ذاقوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بأسنا﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿قل﴾. ﴿هل﴾ حرف استفهام. ﴿عندكم﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿من علم﴾ مجرور لفظاً بالصلة، ومرفوع محلاً بالابتداء. ﴿فتخرجوه﴾ الفاء فاء السببية، وتخرجوه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية، وواو الجماعة فاعل، والضمير المتصل مفعول به. ﴿لنا﴾ متعلق بتخرجوه. ﴿إنْ﴾ حرف نفي. ﴿تتّبعون﴾ فعل وفاعل. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء. ﴿الظن﴾ منصوب على أنّه بدل من المفعول به المقدر بعد إلاّ. ﴿وإن أنتم﴾ مبتدأ دخل عليه حرف النفي. ﴿إلاّ تخرصون﴾ جملة في محل رفع بدل من الخبر المقدر بعد إلاّ. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿فلله﴾ الفاء فاء الفصيحة، لله متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿الحجّة﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿البالغة﴾ نعت للحجة. ﴿فلو﴾ الفاء للتفريع، لو شرطية.

﴿شاء﴾ فعل الشرط. ﴿لهداكم﴾ جوابه. ﴿أجمعين﴾ توكيد للضمير المنصوب. ﴿قل هلمّ﴾ اسم فعل أمر بمعنى أحضروا. ﴿شهداءكم﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿الذين﴾ في محل نصب نعت لشهداءكم. ﴿يشهدون﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿أنّ الله﴾ أنّ واسمها. ﴿حرّم﴾ الجملة

خبر أنّ. ﴿**هذا**﴾ في محل نصب مفعول حرّم. ﴿**فإن شهدوا**﴾ الفاء للتفريع، وإن شرطية، وشهدوا فعل الشرط. ﴿**فلا تشهد**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، ولا ناهية، وتشهد مجزوم بلا، وجملة فلا تشهد في محل جزم جواب الشرط. ﴿**معهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ولا تتبع**﴾ معطوف على قوله: فلا تشهد. ﴿**أهواء**﴾ مفعول به. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى أهواء. ﴿**كذّبوا**﴾ صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الموصول. ﴿**لا يؤمنون**﴾ صلة الذين. ﴿**بالآخرة**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وهم**﴾ معطوف على قوله: لا يؤمنون. ﴿**بربّهم**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**يعدلون**﴾ الجملة خبر المبتدإ.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات**﴾: اتّصلت هذه الجمل بالجمل التي قبلها بالعطف؛ لتوضيح الأدلة بهذه النعم على إحقاق التوحيد وإبطال الشرك، والكلام موجّه إلى الناس جميعاً لما فيه من الاعتبار والاستدلال. وتعريف المسند بقيد الاختصاص، فهو الذي أنشأ لا غيره. والمقصود من هذه الجمل هو إبطال أن يكون لغيره حظٌّ فيها، ولإبطال ما جعلوه من الحرث والأنعام من نصيب أصنامهم مع أنّ الله أنشأه.

ووصف الجنات بالمعروشات مجاز عقلي، وإنّما هي معروش فيها. والقصد منه تحسين الموصوف، والتذكير بنعمة الله أن ألهم الإنسان إلى جعلها على صفتين؛ فإنّ ذكر محاسن ما أنشأه الله يزيد في المنّة... ﴿**والنخل والزرع مختلفاً أُكله**﴾: تخصيص بعد التعميم، وهو تفصيل بعد الإجمال؛ القصد منه التذكير بعجيب خلق الله... ﴿**والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه**﴾: داخل في حكم التفصيل بالعطف... ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين**﴾: غُيّر أسلوب الحكاية عن أحوال المشركين فأقبل على خطاب المؤمنين بهذه المنّة وهذا الحكم، وفيها تعريض بتسفيه المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما مَنَّ الله به عليهم.

والأمر للإرشاد بقرينة أنّ الأكل من غريزة الإنسان، والمقصود الرد على الذين حجّروا على أنفسهم بعض الحرث والأنعام. والمقصود من التقييد بالظرف في

قوله: إذا أثمر إباحة الأكل منه عند ظهوره وقبل حصاده، تمهيداً لقوله: وآتوا حقه يوم حصاده، وهذه رخصة ومنّة؛ لأنّ العزيمة أن لا يأكلوا منه قبل أداء حقه؛ كيلا يستأثروا بشيء منه على أصحاب الحق، إلاّ أنّ الله رخص للمؤمنين في الأكل توسعة عليهم أن يأكلوا منه أخضر قبل يبسه؛ لأنّهم يستطيبونه كذلك. والأمر في قوله: وآتوا حقه يوم حصاده ظاهر في الوجوب بقرينة تسمية المأمور به حقّاً. وقد أجمل الحق اعتماداً على ما يعرفونه، وهو حق الفقير والقريب والضعيف والجيران، وكان هذا قبل بيان النصاب ومقدار الخارج ووقته ومَصْرَفِه، ثم فُصّلت الزكاة وبَيَّنَتِ السنّة نصابها وتفاصيلها ومقاديرها في المدينة بعد الهجرة.

والنهي عن الإسراف نهي إرشاد وإصلاح. وقوله: إنّه لا يحب المسرفين قصد به تعميم حكم النهي عن الإسراف، وأكد بأنّ لزيادة تقرير الحكم؛ فبيّن أنّ الإسراف من الأعمال التي لا يحبها الله تعالى. ونفي المحبّة مختلف المراتب، فيعلم أنّ نفي المحبة بحسب مقدار قوة الإسراف، وهذا حكم مجمل وهو ظاهر في التحريم، وبيان هذا الإجمال هو في مطاوي أدلة أخرى، والإجمال مقصود... ﴿**ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين**﴾: اتصلت هذه الآية بما قبلها؛ فينسحب عليها القصر الذي في المعطوف عليه، فهو الذي أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً لا آلهة المشركين، فكان المشركون ظالمين في جعلهم للأصنام حقاً في الأنعام. وتقديم المجرور على المفعول لقصد الاهتمام بأمر الأنعام؛ لأنّها المقصود الأصلي من سياق الكلام. ولفظُ (فرشاً) يصلح لكل معنى من المعاني التي ذكرها المفسرون متفرقة، ومحامله كلها مناسبة للمقام؛ فينبغي أن تكون مقصودة من الآية.

وكان لفظ الفرش لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني، وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته، فاختار كلمة سهلة في اللفظ مستعملة على اختلاف معانيها من كونها شاملة لصغار الأنعام، وما يؤخذ من الأنعام من صوف ووبر وشعر وجلود، تكون فرشاً وغطاءً ودثاراً. كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين: اقتصر على الأمر بالأكل؛ لأنّه المقصود من السياق إبطالاً لتحريم ما حرّمه المشركون على أنفسهم، وتمهيداً لقوله: ولا تتّبعوا خطوات الشيطان، فالأمر بالأكل هنا مستعمل في النهي عن ضدّه، وهو عدم

الأكل من بعضها. وأتى بالموصول (ممّا) بدل الضمير (منها) لما في صلة الموصول من الإيماء إلى تضليل الذين حرّموا على أنفسهم الأكل من بعضها، فعطّلوا على أنفسهم بعضاً ممّا رزقهم الله!.

وخطوات الشيطان تمثيل، وجملة إنّه لكم عدو مبين تعليل... ﴿**ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آالذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين**﴾: هذه الآية والتي بعدها توطئة للرد على المشركين في تحريم بعض هذه الثمانية. والرد هو قوله للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قل آالذكرين حرّم... الخ، فهذا الكلام ردٌّ على المشركين لإبطال ما شرّعوه بقرينة قوله: نبئوني بعلم إن كنتم صادقين. وقوله: ﴿**أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا**﴾؟!. وفي تكرير الاستفهام مرتين تعريض بالتخطئة، ومعلوم أنّ الاستفهام للإنكار، المراد منه التوبيخ والتقريع على ما اقترفوا من التشريع، فحصل من قولهم وفعلهم أنّهم أظلم الناس: ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾: فقوله: إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين تعليل لما ارتكبوا من أنواع الظلم، وهو تهديد ووعيد شديد لهم إن لم يقلعوا عمّا هم فيه...

﴿**قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنّه رجس أو فسقاً أُهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ ربّك غفور رحيم**﴾: هذا استئناف بياني نشأ من إبطال تحريم ما حرّمه المشركون؛ إذ يتوجه سؤالُ سائلٍ من المسلمين عن المحرمات الثابتة، إذا بطلت المحرمات الباطلة، فلذلك خوطب الرسول ﷺ ببيان المحرمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرّم ممّا حرّمه المشركون في قوله: آالذكرين حرّم أم الأنثيين... الخ الآيات!. وافتُتح الكلام المأمورُ بأن يقوله بقوله: لا أجد؛ إدْمَاجاً للرد على المشركين في خلال بيان ما حُرّم على المسلمين.

وهذا الرد جارٍ على طريقة كناية الإيماء، بأن لم يُنْف تحريمُ ما ادعوا تحريمه صريحاً، ولكنه يقول: لا أجد فيما أوحي إليّ.. فإذا كان حكم غير موجود في الوحي فهو حكم غير حق. فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء، وهي

طريقة استدلالية؛ لأنّ فيها نفي الشيء بنفي ملزومه. والحصر المستفاد من النفي والاستثناء حقيقي بحسب وقت نزول هذه الآية. وقد دلّت الآية على انحصار المحرّمات من الحيوان في هذه الأربعة... **﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اخْتَلَطَ بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾**: هذه الآية متصلة بما قبلها بالعطف، وهو بيانٌ لما حرّمه الله على اليهود تحريماً خاصّاً بحكمةٍ خاصّةٍ بأحوالهم، ومُؤَقَّتاً إلى مجيء الشريعة الخاتمة. ومجيء المجرور متقدّماً على متعلّقه في قوله: وعلى الذين هادوا حرّمنا لإفادة الاختصاص. وجملة ذلك جزيناهم ببغيهم تقرير يُبيّنُ علّة تحريم ما حُرّم عليهم. وجملة وإنّا لصادقون تأكيد للجملة التي قبلها قصداً لتحقيق أنّ الله حرّم عليهم ذلك، وإبطالاً لقولهم إنّ الله لم يحرم علينا شيئاً، وإنّما حرّمنا ذلك على أنفسنا اقتداء بيعقوب فيما حرّمه على نفسه، فالتأكيد رد على اليهود...

﴿فإن كذّبوك فقل ربّكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين﴾: هذا تفريع على الكلام السابق الذي أبطل تحريم ما حرّموه ابتداء من قوله: ثمانية أزواج... الآيات. فإن لم يرعوُوا بعد هذا البيان وكذبوك في نفي تحريم الله ما زعموا أنّه حرمه، فذكّرْهم بأس الله لعلهم ينتهون عمّا زعموه، وذكرهم برحمته الواسعة لعلهم يبادرون بطلب ما يخولهم رحمته من اتّباع هدى الإسلام، فالكلام موجه إلى كل من المشركين واليهود. وقوله: ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين تذييل وتقرير لوقوع الوعيد، وفيه إيجاز بالحذف، تقديره: وهو ذو بأس ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين، وهم يدخلون فيه دخولاً أوّلياً؛ لأنّهم مجرمون مثلهم!..

﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾: هذه حكايةٌ لفنٍّ آخَرَ مِن كفرهم؛ أخبر به قبل وقوعه، وهذه شبهة أهل الضلال في كل جيل ومن كل قبيل، فهم يخلطون بين تصرّف التكوين وبين تصرف التكليف، وبهذا ظهر تخليط أهل الضلالة بين مشيئة العباد التي تدخل تحت تصرف التكليف، وبين مشيئة الله التي هي مشيئة التكوين، فمشيئة الله التي اعتلُّوا بها مشيئة خفية لا تتوصَّل إلى الاطلاع على كنهها عقول البشر؛ فلذلك نهى

الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها، فقال: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾: فشبه تكذيبهم تكذيب المكذبين الذين من قبلهم؛ فكنّى بذلك على كون مقصد المشركين من هذه الحجة تكذيب النبيء ﷺ وسمّى الله استدلالهم هذا تكذيباً؛ لأنّهم ساقوه مساق التكذيب والإفحام. وقوله: ﴿**حتى ذاقوا بأسنا**﴾: غاية للتكذيب مقصود منها دوامهم عليه إلى آخر أوقات وجودهم، فلما ذاقوا بأس الله هلكوا واضْمَحَلُّوا، وليست الغاية هنا للتنهية والرجوع عن الفعل؛ لظهور أنّه لا يتصوّر الرجوع بعد استئصالهم.

والذوق مجاز في الإحساس والشعور، فهو من استعمال المقيّد في المطلق. وإضافة البأس إلى الضمير لتعظيمه وتهويله. وأمر الله رسوله بالجواب عن مَقَالِهِم الواقع أو المتوقع بقوله. . . ﴿**قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**﴾؟: ففصل جملة قل هل عندكم، لأنّها جارية مجرى المقاولة والمجاوبة. وجاء بالاستفهام المقصود منه الإفحام والتهكم بما عرف من تشبّتهم بمثل هذا الاستدلال. وإخراج العلم: الإعلام به؛ شُبّهت إفادة المعلوم لمن يجهله بإخراج الشيء المخبوء، ولذلك كان للإتيان بعندكم موقع حسن؛ لأنّ عند في الأصل تدل على المكان المختصّ بالذي أضيف إليه لفظها، فهي ممّا يناسب الخفاء. وجعل إخراجَ العلمِ مرتّباً بفاء السببية على العنديّة للدلالة على أنّ السؤال مقصود به ما يتسبّب عليه. ولما كان هذا الاستفهام صُوريّاً، وكان المتكلم جازماً بانتفاء ما استفهم عنه أعقبه بالجواب بقوله: إن تتّبعون إلاّ الظن. وجملة إن تتّبعون إلاّ الظنّ مستأنفة لأنّها ابتداء كلام بإضراب عن الكلام الذي قبله، فبعد أن تهكّم بهم جدّ في جوابهم بقوله: ﴿**إن تتّبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون**﴾.

فقصارى ما عندكم هو الظن الباطل والخرص القاصر!. . ﴿**قل فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾: هذا جواب عن قولهم: لو شاء الله ما أشركنا، وهو تكملة للجواب السابق؛ لأنّه زيادة في إبطال قولهم. وأعيد فعل الأمر بالقول لاسترعاء الأسماع لما سَيَرِدُ بعد فعل قل. وقد كُرّر ثلاث مرات متعاقبة بدون عطف؛ لأنّها جارية على طريقة المقاولة. والفاء فصيحة؛ لأنّها تؤذن بكلام مقدّر هو شرط. وتقديم المجرور على المبتدإ لإفادة الاختصاص، ففهم منه أنّ حجّتهم داحضة. والفاء في قوله: فلو شاء لهداكم أجمعين فاء التفريع على ظهور حجة الله عليهم، تفرّع على بطلان استدلالهم أنّ الله لو شاء لهداهم. . . ﴿**قل: هلم**

شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتّبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربّهم يعدلون﴾: هذا استئناف ابتدائي للانتقال من طريقة الجدل والمناظرة في إبطال زعمهم إلى إبطاله بطريقة التبيين، تقصّياً لإبطال قولهم من سائر جهاته.

ثم فرع على فرض أن يحضروا شهداء يشهدون بقوله: فإن شهدوا فلا تشهد معهم. وقوله: فلا تشهد معهم كناية عن تكذيبهم. وعُطف على النهي عن تصديقهم النهيُ عن اتّباع أهوائهم. وأظهر في مقام الإضمار قوله: الذين كذبوا؛ لأنّ في هذه الصلة تذكير بأنّ الكفار جميعاً يكذبون بآيات الله فهم ممن يُجتنب اتباعهم. وسمي دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند. ثم عطف عليه قوله: والذين لا يؤمنون بالآخرة، وهو عطف الصلة على الصلة، وكان مقتضى الظاهر أن لا يعاد اسم الموصول؛ لأنّ حرف العطف مُغْنٍ عنه، ولكن أُجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التشهير بهم، كما هو بعض نكت إضمار في مقام الإضمار... وهم بربهم يعدلون: عطف على الذين لا يؤمنون؛ يبين حال الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الإشراك بالله سبحانه وتعالى!. وهذا يشمل جميع الكفرة من أهل الكتاب والمشركين!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات...﴾ الآيات الثلاث: الكلام هنا موجه إلى جميع الناس ليكونوا على علم من الحقيقة الكبرى التي ضل عنها أكثرهم، فقادهم هذا الضلال الأكبر إلى تلك الضلالات والتقاليد والعادات؛ يعلمهم بنشأة الحرث والأنعام، ويردهم إلى الخالق الذي ذرأ الحرث والأنعام متاعاً للناس ونعمة، لا ليصوغوا حولها الأباطيل والأوهام، ولا ليحرّموا بعضها على أنفسهم دون إذن من خالقها وبارئها وصاحب الإذن في حلّها وحرمتها، أو ليحجّروا بعضها ويجعلوه وقفاً على الأوثان وسدنة الأصنام. إنّ الله هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء: منها ما يتعهدها الإنسان وينسقها، ومنها ما يخرج وينمو بلا تنسيق من أحد إلاّ عناية الرحمن. هو الذي أنشأ النخل والزرع مختلف الأشكال والطعوم والألوان، إنّ الله هو الذي خلق ونوّع الصنوف متشابهاً وغير متشابه من الزيتون والرمان.

إنّه هو الخالق وهذا الحرث كله من خلقه؛ فإليه مرد الأمر في حلّه وحُرمته، في الاستمتاع به وفي إنفاقه. وأمره الوحيد: ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين**﴾. كلوا منه بلا إسراف فهو لكم حلال، وأخرجوا حقه لمن يستحقه من المحتاجين. وهذا الحكم مخصَّص ومبيّن بآيات وأحاديث بين فيها الرسول ﷺ ما يجب منها وما يندب، وهي الزكاة المفروضة والصدقات المندوبة. وحكمة الإسراف في الأكل والعطاء معلوم ضرره عند جميع العقلاء. إنّ الإفراط في تناول اللذات والإكثار من بذل المال في تحصيلها يفضي غالباً إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلّب لحصول المال من وجوه فاسدة؛ ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، وربّما تطلّب المال من وجوه غير مشروعة فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا والآخرة.

وإنّ الله هو الذي جعل من الأنعام حمولةً وفرشاً، ومنافع هذه الأنعام للإنسان كثيرة ومتنوعة عرضتها آيات أخرى كثيرة للعيان، والذي يجب على الإنسان نحوها هو تتبع أمر الخالق الذي أنشأها ونوعها: ﴿**كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين**﴾: هذا التوجيه إلى نشأة الأنعام والحرث، وإلى خالق الأنعام والحرث يأتي في أوانه، يردهم إلى شرعة الله الخالق فهو الذي يعلم لماذا خلق؟، وهو الذي يقضي بالحل والحرمة فيما خلق، لا الشيطان الذي لم يخلق شيئاً، وذلك فوق عداوته لبني الإنسان!.

ثم يأخذ السياق في تفصيل يتتبع به مكامن الأوهام الجاهلية ليلقي عليها النور، ويستعرضها واحدة واحدة وجزئية جزئية، فيكشف عن السخف الذي لا يمكن الدفاع عنه، والذي قد يخجل صاحبه من استعراضه مفصّلاً، ويعجز عن تعليله في وضح النور: ﴿**ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آالذكرين حرم أم الأنثيين؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آالذكرين حرم أم الأنثيين؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم؟! إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾: فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ثمانية أزواج؛ ذكر وأنثى من الضأن، وذكر

وأنثى من المعز، فأيٌّ منها حرمه الله على أيّ من الناس؟. أم إنّه حرّم أجنّتها في البطون؟. نبئوني بعلم إن كنتم صادقين، لا عن ظن ووهم وتخمين وتقليد لا يستند إلى دليل.

وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل وذكر وأنثى من البقر.. فأيُّها كذلك حرّم؟. أم أجنّتها هي التي حرّمها الله على الناس؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا؟. فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم. وياله من تهكم! بعد ذلك التفصيل المقصود، والتجزئة المتعمدة للإفحام والتسخيف!. فعلام تستندون في تلك الأضاليل؟. أعلى أمر من الله علمتموه؟. أم على وصية خاصة من الله لكم دون العالمين؟!. والتعقيب على هذا التهكم والتسفيه هو التهديد: فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين؟. فمن أظلم ممّن يفتري أولاً، ويضل الناس ثانياً، وهو لا يستند إلى علم ولا بينة فيما يدّعيه؟. إنّه الظلم الذي لا يستحق معه صاحبه هداية من الله، وقد قطع بينه وبين الله بهذا الافتراء المقيت المشين!.

التوجيه الثاني: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنّه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ ربّك غفور رحيم﴾: هذا التوجيه خوطب به الرسول ﷺ أولاً، ثم يتوجه بعد ذلك إلى كل مخاطب، ببيان المحرمات القطعية في شريعة الله في كل جيل وعلى كل قبيل. وعن بينة ووحي لا عن وَهْمٍ وهوى وجهل. وهو المحرّم الذي يتحرّج منه؛ لأنّه محرّم بأمر الخالق، وصاحب الكلمة العليا فيما يحل مما خلقه وما يحرم..

فإذن: الحلال والحرام لا يتبعان الأهواء والآراء، إنّما يتبعان الوحي من عند الله سبحانه وتعالى، والرسول ﷺ إنّما يتبع هذا الوحي، فأولى لهم أن يقفوا عنده، ولا يحرّموا أو يحللوا جزافاً كما يفعلون، وهكذا يكشف لهم القرآن الكريم عن الطريق القويم في التحليل والتحريم. وقد دلّت الآية على انحصار المحرّمات من الحيوان في هذه الأربعة. وذلك الانحصار بحسب ما كان محرماً يوم نزول هذه السورة، فإنّه لم يحرّم بمكة غيرها من لحم الحيوان الذي يأكلونه، وهذه السورة مكية. ثم جاء التفصيل في السور المدنية تفصيلاً أكثر ممّا هنا...

﴿**وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر...**﴾ الآية: هذا التحريم خاص باليهود عقوبة لهم على البغي والعدوان، وقد كان الطعام كله حلالاً لإسرائيل وبنيه حتى بغوا وجاوزوا الحد، فجازاهم الله بهذا الحرمان... ﴿**فإن كذبوك فقل ربّكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين**﴾: هذا التوجيه للرد على ما يزعم المشركون واليهود أنّ التحريم والتحليل جاءهم من عند الله؛ لأنّهم وجدوا آباءهم وأجدادهم على ذلك. وبذلك يقطع عليهم منذ البداية الطمع الذي قد يقودهم إلى التهاون في الإنذار، ويسوقهم إلى التمادي والإصرار، فالرحمة لمن يستحقون لا مَنْ يستهترون.

التوجيه الثالث: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء**﴾: في هذا التوجيه إعلام وتنبيه بأنّ المشركين سيتنصّلون من تبعة الضلال، وقد عزّ عليهم أن يجدوا لهم سنداً فيه، وسيحيلون على مشيئة الله وعلى جبريتها، وعلى أنّهم مجبرون لا مخيرون فيما تعسفوا من ضلال، فذلك مهرب الذين يريدون الهروب من تبعة ما يعملون. وحاصل هذه الحجّة: أنّهم يحتجّون على النبيء ﷺ بأنّ الذي هم عليه لو لم يكن برضى الله تعالى لصرفهم عنه، ولما يسّره لهم؛ يقولون ذلك في معرض إفحام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإبطال حكمه عليهم بالضلالة. وهذه شبهة أهل العقول الأفنة الذين لا يفرقون بين تصرف الله تعالى بالخلق وحفظ قوانين الوجود، وهو التصرف المسمى بالمشيئة والإرادة، وبين تصرفه بالأمر والنهي وهو المسمى بالرضى والمحبة، فالأول تصرف التكوين، والثاني تصرف التكليف.

والمشركون يحسبون أنّ تمكنهم من وضع قواعد الشرك من التحريم والتحليل، ما هو إلاّ بأن خلق الله فيهم التمكن من ذلك، فيحسبون أنّه حين لم يمسك عِنَان أفعالهم كان قدْ رضى بما فعلوه، وأنّه لو كان لا يرضى به لما عجز عن سلب تمكنهم. يحسبون أنّ الله يهمه سوءُ تصرفهم فيما فطرهم عليه، ولو كان كما يتوهمون لكان الباطل والحق شيئاً واحداً، وهذا ما لا يفهمه عقل حصيف.

وسبب هذه الضلالة العارضة لأهل الضلال قد طغت على الناس قديماً وحديثاً، ودخلت على عقول بعض المسلمين في معاذيرهم للمعاصي والجرائم،

هو الجهل بأنّ حكمة الله تعالى في وضع نظام هذا العالم، اقتضت أن يجعل حجاباً بين تصرفه تعالى في أحوال المخلوقات، وبين تصرفهم في أحوالهم بمقتضى إرادتهم، وذلك الحجاب هو ناموس ارتباط المسببات بأسبابها، وارتباط أحوال الموجودات في هذا العالم بعضها ببعض، ومنها ما يسمى بالكسب والاستطاعة وذلك هو مورد التكليف الدال على ما يرضاه الله وما لا يرضى به، وأنّ الله وضع نظام هذا العالم بحكمة، فجعل قوامه هو تدبير الأشياء أمورَها من ذواتها بحسب قوى أودعها الله في الموجودات فتسعى لما خلقت لأجله، وزاد الإنسان مزيّةً بأن وضع له عقلاً يمكنه من تغيير أحواله على حسب احتياجه، ووضع له في عقله وسائل الاهتداء إلى الخير والشر، كما قيض له دعاةً إلى الخير تنبهه إليه إن عَرَتْه غفلة أو حجبته شهوة، فإن هو لم يرعو عن غيه، فقد خان بساط عقله بطيّه.

وبهذا ظهر تخليط أهل الضلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله تعالى، فلذلك رد الله عليهم هنا قولهم: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا؛ لأنّهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة الله تعالى، ومع ذلك فهو قد أثبت مشيئته في قوله: ولو شاء الله ما أشركوا: فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة، فهذه المشيئة التي اعتلُّوا بها مشيئة خفية لا تتوصل إلى الاطلاع على كنهها عقول البشر، فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها. وقضيّة الجبر والاختيار كثر فيها الجدل بين طوائف المسلمين عندما أدخلوا فيها الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي، فتعقدت تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة، ولا العقلية العربية الصريحة.

ولو أخذ الأمر بمنطق القرآن المباشر الميسر المستقيم ما اشتد هذا الجدل، وما سار في ذلك الطريق المعقّد الذي سار فيه. وهنا نجد القرآن الكريم يقول: ﴿**كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا**﴾، فيُعدُّ قولهم هذا تكذيباً، فبأيّ شيء كان التكذيب؟. فقد كذّبوا بأنّ الله أمرهم أن يوحّدوا، وأمرهم أن لا يحرّموا دون دليل، فهم ملزمون إذنْ بأن يبحثوا عن أوامر الله وأن يطيعوها، وبأن لا يحيلوا على مشيئة الله التي لا يعرفونها، وليسوا مطالبين بأن يعرفوها، وإنّما هم مطالبون بما يؤمرون به أمراً صريحاً، أو يُنهون عنه نهياً صريحاً، ودليل ذلك هذا

السؤال الذي يأمر الرسول ﷺ أن يوجهه إليهم: **﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾**؟.. فالإنسان مكلف بأن لا يفتي بلا علم، وأن لا يتبع الظن والوهم، مكلف بأن يأخذ بما آتاه عن علم، وبأن ينتهي عمّا نُهي عنه عن علم، وليس له أن يحيل على مشيئة الله التي لا يدري عنها شيئاً... **﴿إن تتّبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون﴾**!.

وفي مثل هذا الجو العملي الواقعي الواضح يجب أن يدرك المسلم حقيقة ما هو مكلف به، وحقيقة ما هو منهيٌّ عنه، وأن يعيش واعياً يقظاً إيجابياً، ولا يحيل على غيب تفرّد الله بعلمه وهو عن البشر محجوب. ذلك في مجال التكاليف والعمل، فأمّا في مجال النظر والجدل فالقضية كذلك واضحة، وقد وردت في مناسبات شتّى قبل ذلك: **﴿قل فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**، فلو شاء لجعل من سنته أن تكون فطرتكم على غير هذا النحو، وطبيعتكم على غير هذا التكوين، كما فطر الملائكة مثلاً غير مُهيَّئين للمعصية بتكوينهم؛ فأمّا البشر فقد شاء أن يكون في طبيعتهم الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل ليهتدوا به، وأرسل إليهم رسلاً لينبّهوا فيه استعداداتهم وعقولهم، وسنّ لهم شريعة لتكون مقياساً ثابتاً لما يأخذون وما يَدَعُون؛ كي لا يتركهم لعقولهم وحدها، فقد تضل وتغلبها الشهوةُ إذا تركت بغير دليل.

وإذن فمشيئة الله متحقّقة حسب سنته التي ارتضاها مختاراً ـ وهو قادر على اختيار غيرها وعلى تبديلها وتعديلها ـ متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال، فهو مخلوق بهذا الاستعداد وذاك، وهو مؤاخذ إن ضل، ومأجور إذا اهتدى. غير أنّ سنة الله اقتضت أنّ من يفتح عينيه يبصر النور، ومن يغمضها لا يراه، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدي ومن يحجب قلبه عنها يضل «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» تلك حجة الله البالغة. أما في القضية المعروضة هنا: قضية التحليل والتحريم، فهو يرجع إلى وجود أمر من الله بتحريم ما حرّموا أو عدم وجوده، فهذا هو المرجع الذي يجب أن يردَّ إليه البشر كل قضاياهم، غير محتجّين بإرادة خفية من الله ليس لهم عليها من شاهد ولا دليل.

لقد طالبهم أن يأتوا بعلم إن كان لهم بذلك علم، ثم هو يطالبهم بشهادة على

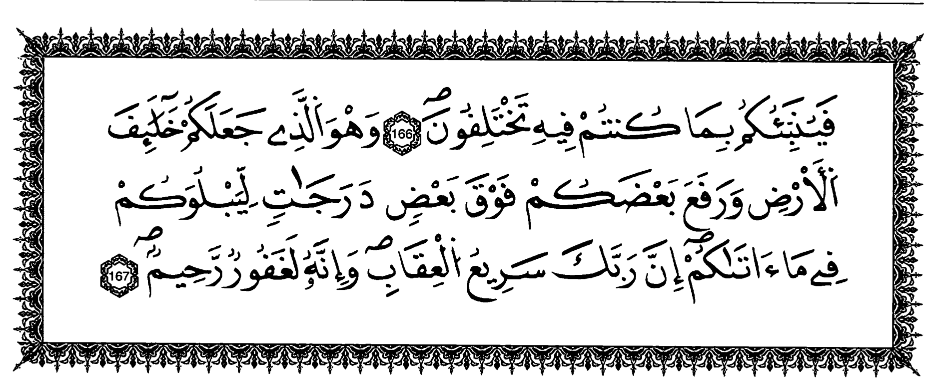
أنّ الله حرّم هذا: ﴿**قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا..**﴾ ولكنّهم قد يأتون بشهود زور من الضالين المضلين أمثالِهِم، يشهدون من غير علم، ويُدلون من غير بينة: ﴿**فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتّبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربّهم يعدلون..**﴾ فهذه الصفات لا تؤهلهم شهادة حق، ولا تدعو إلى الثقة بهم، ولا إلى التأمين على ما يقولون. وهكذا يأخذ عليهم أقطار الحجج والمعاذير، بعدما كشف عن وهن عقائدهم وسخف تقاليدهم وعبث أهوائهم!. وسجّل عليهم أنّ ما يسمونه ديناً إن هو إلاّ أوهام وأضاليل.

3 ـ توضيح أصول الحكم في التحليل والتحريم حسب ما ورد في كتاب الذكر الحكيم

النص

۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿152﴾
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ
ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿153﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿154﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿155﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿156﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿157﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿158﴾ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿159﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿160﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿161﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿162﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿163﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿164﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**قل تعالوا أتل**﴾: تعالَ: فعل أمر، أصله يؤمر به من يُراد صعوده إلى مكان مرتفع فوق مكانه؛ فإنّهم كانوا إذا نادوا إلى أمر مهم ارتقى المنادي على ربوة ليسمع صوته، ثم شاع إطلاق (تعال) على طلب المجيء. والتلاوة: القراءة وسرد الكلام وحكاية اللفظ. والمحرّم في قوله: ﴿**ما حرّم**﴾: الممنوع شرعاً، والحرام لغة: ما له حرمة لا تُنتهك كبيت الله الحرام والشهر الحرام. والحريم: ما حُرِّم فلم يمس، وحريم الدار: ما أضيف إليها من حقوقها ومرافقها، والحريم: ما تحميه وتقاتل عنه، وكلها تدل على المنع من انتهاكها أو إفسادها. والإشراك في قوله: ﴿**ألا تشركوا به شيئاً**﴾: أن يُعبَدَ مع الله غيرُه. والإحسان في قوله: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾: ضد الإساءة، والإحسان هنا: مصدر ناب مناب فعله، يقال: أحْسَنَ به، وأحْسَن إليه، وأحْسَنَ الشَّيءَ إذا أتقنه وأتى به وافياً، وأحسنه وحسّنه إذا زيّنه، وأحسن العمل: أخلص فيه...

﴿**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق**﴾: الإملاق: الافتقار، يقال: أملق الرجل فهو مُملِق، وأصل الإملاق الإنفاق، يقال: أملق ما معه إملاقاً، وملقه ملقاً إذا أخرجه من يده ولم يحبسه، والفقر تابع لذلك، فاستعملوا لفظ السبب في موضع المسبب حتى صار به أشهر، والإملاق: الإفساد، وملق الأديمَ: دلكه ليلين، وهو يفيد الإزالة، وملق الثوب والإناء: غسله، والملق: المصّ والرضع، والملق: المحو، والملق: الحلوبة. ومادة ملق وأملق غنيّة بالمعاني المتنوعة... ﴿**ولا تقربوا الفواحش**﴾: القُرب: الدنوّ.

والفواحش: جمع فاحشة، والفاحشة الزنا، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب، وكل ما نهى الله عنه. وأصل الفحش في اللغة: ما زاد في حجمه، وما كثر في عدده، وكل شيء جاوز قدره وحدّه فهو فاحش، وكل أمر لا يكون موافقاً للحق والقدر فهو فاحشة، وغلب الفحش على القول القبيح، والفعل الشنيع الفاضح، وكل ما بعُد عن العمل المليح... **﴿ذلكم وصّاكم به﴾**: الوصيّة: ما يعهد إلى الإنسان أن يعمله من خير أو ترك شر بما يرجى تأثيره، يقال: أوصاه ووصّاه، وأصله وصى بمعنى وصل، ومواصاة الشيء مواصلته، وهو خاص بالنافع كالمطر والنبات، يقال: وصِيَ النبت: اتصل وكثر... **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه﴾**: المال: ما ملكته من جميع الأشياء، والجمع أموال، وكان المال في الأصل يطلق على ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنّها كانت أكثر أموالهم، وسُمّي مالاً لميل النفوس إليه وحبه عندها «وتحبون المال حبّاً جمّاً»!.

واليتيم: من فقد أباه وقت الصبا ما لم يبلغ الحلم، يُجمع على أيتام ويتامى، وأصل اليتم: الانفراد وكل شيء يعز نظيره، ويطلق اليتم على الغفلة وعلى الإبطاء، والأنثى يتيمة حتى تتزوج، وأيتمت المرأة صار ولدها يتيماً. والبلوغ: الوصول إلى منتهى المقصود، وبلغ الغلام: احتلم، كأنّه بلغ وقت الكتاب عليه والتكليف، وهو تمام الإدراك. والأشد: اسم يدل على قوة الإنسان، وهو مشتق من الشدّ، وهو التوثق، والمراد به في هذه الآية ونظائرها ممّا الكلام فيه على اليتيم، بلوغه القوة التي يخرج بها من ضعف الصبا، وتلك هي البلوغ مع صحة العقل؛ لأنّ المقصود بلوغه أهلية التصرف في ماله، بخلاف المراد منه في أوصاف الرجال، فإنّه يعني به بلوغ الرجل منتهى حد القوة في الرجال، وهو الأربعون سنة...

﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾: الإيفاء: إعطاءُ الشيء وافياً، وأوْفى: ضد غدر، وأصل الوفاء: الكثرة والزيادة. والكيل: كيل الحبوب ونحوها، وهو مصدر كال الطعام ونحوه يكيل كيلاً، واكتاله وكاله وكال له، والمكيال: ما يكال به مثل الصاع والقفيز والمد. والميزان: المقياس الذي يعرف به ثقل الشيء وخفّته،

والوزن والزنة: روض الثقل والخفّة. والقسط: العدل والتسوية... ﴿**لا نكلف نفساً إلاّ وسعها**﴾: التكليف: الأمر بما يشق على الشخص. والوسع: الجدةُ والطاقة وما يَسْهُلُ تحمّلُهُ... ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾: العدل في القول: أن يقول الحقَّ له أو عليه...

﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾: وفاء العهد: الإتيان به على وجهه؛ كل ما عُوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد، وأمر اليتيم من العهد، وكذلك كل ما أمر الله به في هذه الآيات ونهى عنه. والعهْدُ: اسم جمع، واحده العُهْدَة، وهو الميثاق واليمين التي تُسْتَوثَق بها ممّن يعاهدك، والعهد: الأمان والذمّة والحفاظ ورعاية الحرمة، والتعهد: التحفظ بالشيء وتجديد العهد به، ويقال للمحافظ على العهد: مُتَعَهِّد، ومشتقات هذا الباب كثيرة... ﴿**لعلّكم تذكّرون**﴾: التذكّر: تكلّف ذكر الشيء في القلب، والتدرج فيه بفعله المرة بعد المرّة، ويطلق التذكر على الاتّعاظ، ومثل التذكر الإذّكار، وهو مأخوذ من الذُّكْر، وهو إخطار معنى الشيء أو خطوره في الذهن ويسمى ذكر القلب، وعلى النطق باللفظ الدال عليه، ويسمى ذكر اللسان، ويطلق بمعنى العلم، وبه يسمى القرآن وغيره من الكتب المنزلة ذكراً...

﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله**﴾: الصراط: السبيل الواضح، وهو بالصاد لغة قريش وبالسين لغة غيرهم، وإنّما قيل للطريق الواضح صراط؛ لأنّه كأنّه يسترط المارة لكثرة سلوكهم. والسُّبُل: جمع سبيل، وهو الطريق وما وضح منه؛ يُذكر ويؤنث، وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه، وتفرّق بهم الطريق: تشعّب فتبدّدوا وانفصل بعضهم عن بعض... ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن**﴾: الكتاب: التوراة. والتمام: الكمال. والذي أحسن: الفريقُ المحسن من بني إسرائيل... ﴿**وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾: التفصيل: التبيين، ولكل شيء مهم كثير عظيم...

﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك**﴾: المبارك المتّصف بالبركة، والبركة زيادة الخير وثباته؛ ملحوظ فيها بِرْكَةُ الماء وكثرته، وبروك البعير ثبوته واستقراره... ﴿**أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين**﴾:

الكتاب: المراد به التوراة والإنجيل. والطائفتان: اليهود والنصارى. والدراسة: القراءة بِتَمَعُّنٍ وإحضار ذهن مع المعاودة والفحص والمحاورة فيها مع الغير، فليس سرد الكتاب بدراسة، وأصل الدراسة الرياضة والمعاودة، والتعهد للشيء المرّة بعد المرّة. وغفل عنه: تركه وسها عنه، ومصدره غُفُولاً وغَفْلَة، والاسم منه الغفلة والغَفَل...

﴿فمن أظلم ممّن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾: الصّدُوف: الميل عن الشيء والإعراض عنه، مأخوذ من الصدف وهو الجانب والناحية، وصدف بمعنى صدّ، وبمعنى الصرف... **﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة...﴾** الخ الآية: ينظرون: مضارع نظر بمعنى انتظر، وهو مشترك مع نظر بمعنى رأى في الماضي والمضارع والمصدر، ويخالفه في التعدية؛ ففِعْل نظر العين متعد بإلى، نحو نظرت إليه، وفعلُ الانتظار متعد بنفسه، نحو انتظرته... **﴿إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾**: فرّقوا دينهم: من الفريق، وهو الفصل بين أجزاء الشيء الواحد، وجعله فِرْقاً وأبعاضاً. والشيع: جمع شيعة، والشيعة القوم الذين يجتمعون على أمر، والشيع في هذه الآية: الفرق المتخالفة التي تكفّر بعضها بعضاً، وأصل ذلك المشايعة، وهي المتابعة والمطاوعة، ويقال: تشايع القوم صاروا شيعاً، وشيُعه وشايعه: تابعه، وشيّعه على رأيه قوّاه وشجّعه عليه... **﴿لست منهم في شيء﴾**: لا صلة بينك وبينهم. وشيء: اسم جنس بمعنى موجود، فنفيه يفيد نفْي جميع ما يوجد من الاتصال...

﴿إنّما أمرهم إلى الله﴾: لا شأن لك عليهم فلا تهتم بهم... **﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾**: عندما يُظهر الله لهم نتيجة أفعالهم... **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾**: جاء بالشيء: أتى به مصاحباً له. والحسنة: ضد السيئة. والأمثال: جمع مثل، وهو المماثل المساوي... **﴿قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**: الدين هنا: دين الإسلام. والقيّم: وصف مبالغة قائم بمعنى معتدل غير معوج. والملّة: بمعنى الدين، والفرق بينها وبين الدين؛ أنّ الملة لا تضاف إلاّ إلى النبيء الذي تُسند إليه، نحو: ملة إبراهيم، ملة آبائي، ولا توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد الأمة، ولا تستعمل إلاّ في جملة الشريعة دون آحادها، لا يقال الصلاة ملة الله، ويقال:

الصلاة دين الله، ذلك أنّه يراعى لفظ الملة أنّها مملول من الله، فهي تضاف للذي أُمِلّت عليه. والحنيف: المجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي، وأصل الحنف الاستقامة، والميل إلى ما يحْسُن.

والحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه، وتحنّف: اعتزل عبادة الأصنام. ﴿**قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين**...﴾ الخ الآية: المراد بالصلاة جنسها الشامل للمفروض والمستحب. والنسك في الأصل: العبادة أو غايتها، والناسك العابد، ويكثر استعماله في عبادة الحجّ. والمحيا والممات: يستعملان مَصْدَرين مِيمَيْن، ويستعملان اسمي زمان... ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾: الوِزر: الإثم والثقل والحِمل الثقيل، جمعه أوزار... ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض**﴾: الخلائف: جمع خليفة، وهو اسم لما يُخلَف به شيءٌ. وبقية الكلمات واضحة.

مبحث الإعراب

﴿**قل**﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب أنت. ﴿**تعالوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**أتل**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة جواباً لفعل الأمر، وفاعله ضمير المتكلم (أنا). ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول أتل. ﴿**حرّم**﴾ فعل ماض. ﴿**ربّكم**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة صلة ما. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بحرّم. ﴿**أنْ**﴾ تفسيرية لفعل أتل؛ لأنّ التلاوة فيها معنى القول دون حروفه. ﴿**لا تشركوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. ﴿**به**﴾ متعلق بتشركوا. ﴿**شيئاً**﴾ مفعول. ﴿**وبالوالدين**﴾ متعلق بفعل مقدر، وهو أحسنوا. ﴿**إحساناً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**ولا تقتلوا**﴾ معطوف على النهي المتقدم.

﴿**أولادكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من إملاق**﴾ متعلق بتقتلوا. ﴿**نحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**نرزقكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل (نحن)، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**وإيّاهم**﴾ معطوف عليه في محل نصب، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**ولا تقربوا**﴾ معطوف على النهي كذلك. ﴿**الفواحش**﴾ مفعول به. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب بدل من الفواحش. ﴿**ظهر**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. منها متعلق

بظهر. ﴿**وما بطن**﴾ معطوف على ما ظهر، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**ولا تقتلوا**﴾ داخل في المنهيات. ﴿**النفس**﴾ مفعول به. ﴿**التي**﴾ في محل نصب نعت للنفس. ﴿**حرّم الله**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة التي. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمصدر مقدّر، أي: إلاّ قتلاً كائناً بالحق. ﴿**ذلكم**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**وصّاكم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**به**﴾ متعلق بوصّاكم. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تعقلون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لعلّ. ﴿**ولا تقربوا**﴾ مال مثل ولا تقربوا الفواحش في الإعراب. ﴿**اليتيم**﴾ مضاف إلى مال. ﴿**إلاّ بالتي**﴾ مثل إلاّ بالحق في الإعراب. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أحسن**﴾ خبرٌ، والجملة صلة التي. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**يبلغ**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والفاعل ضمير يعود على اليتيم. ﴿**أشدّه**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**وأوفوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، وهو معطوف على المأمور الذي في ضمن النهي، أي: تعاملوا في مال اليتيم.. وأوفوا. ﴿**الكيل**﴾ مفعول به. ﴿**والميزان**﴾ معطوف عليه. ﴿**بالقسط**﴾ متعلق بمحذوف حال من الكيل والميزان. ﴿**لا نكلف**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل نحن. ﴿**نفساً**﴾ مفعول به. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**وسعها**﴾ منصوب بإلاّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾ جملة الشرط وجوابه معطوفة على الأوامر. ﴿**ولو كان ذا قربى**﴾ جملة حالية، من لو الشرطية وكان واسمها وخبرها. ﴿**وبعهد الله**﴾ متعلق بما بعده من قوله. ﴿**أوفوا**﴾ فعل أمر وفاعل. ﴿**ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون**﴾ سبق إعراب مثلها. ﴿**وأنّ هذا**﴾ أنّ واسمها. ﴿**صراطي**﴾ خبرها مرفوع بضمة مقدّرة على ما قبل ياء المتكلم، وصراط مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**مستقيماً**﴾ حال من الصراط، وهذه الجملة معطوفة على قوله: أن لا تشركوا به شيئاً. ﴿**فاتّبعوه**﴾ مرتب على ما قبله.

﴿**ولا تتّبعوا**﴾ نهي معطوف على الأمر. ﴿**السبل**﴾ مفعول به. ﴿**فتفرّق**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببيّة، والفاعل ضمير يعود على السبل. ﴿**بكم**﴾ متعلق بتفرق. ﴿**عن سبيله**﴾ كذلك. ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾

تقدم إعراب مثلها. ثم حرف عطف تفيد التراخي الرتبي، والجملة بعدها معطوفة على جملة قوله: قل تعالوا. ﴿**آتينا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**موسى**﴾ مفعول أوّل. ﴿**والكتاب**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**تماماً**﴾ حال من الكتاب. ﴿**على الذي**﴾ متعلق بتماماً. ﴿**أحسن**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الذي، والجملة صلة الذي. ﴿**وتفصيلاً**﴾ معطوف على تماماً. ﴿**لكل**﴾ متعلق بتفصيلاً. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وهدى ورحمة**﴾ معطوفان على الحال الأولى (تماماً). ﴿**لعلّهم**﴾ لعلّ واسمها. ﴿**بلقاء**﴾ متعلق بخبر لعل.

﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى لقاء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يؤمنون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لعل. ﴿**وهذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كتاب**﴾ خبره. ﴿**أنزلناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت لكتاب. ﴿**مبارك**﴾ نعت ثان. ﴿**فاتّبعوه**﴾ مرتب على جملة وهذا كتاب. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على فاتّبعوه. ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ جملة تعليلية من لعل واسمها وخبرها. ﴿**أن تقولوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدر، والتقدير: لقولكم ذلك في المستقبل. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**أُنزل**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول. ﴿**الكتاب**﴾ نائب الفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**على طائفتين**﴾ متعلق بأُنزل.

﴿**من قبلنا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لطائفتين. ﴿**وإنْ**﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**كنا**﴾ كان واسمها. ﴿**عن دراستهم**﴾ متعلق بخبر كان وهو قوله ﴿**لغافلين**﴾، وجملة كنا في محل رفع خبر إنْ، وجملة وإن كنا في محل نصب حال من ضمير المتكلمين. ﴿**أو تقولوا**﴾ معطوف على أن تقولوا إنّما. ﴿**لو**﴾ شرطية امتناعية. ﴿**أنّا**﴾ أنّ واسمها. ﴿**أنزل علينا الكتابُ**﴾ الجملة خبر أنّ، وجملة أنّا أنزل فعل الشرط. ﴿**لكنّا أهدى منهم**﴾ الجملة جواب الشرط. ﴿**فقد**﴾ الفاء فاء الفصيحة، وقد حرف تحقيق. ﴿**جاءكم**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**بينة**﴾ فاعل. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبيّنة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وهدى ورحمة**﴾ معطوفان على بيّنة. ﴿**فمن**﴾ الفاء للترتيب، ومَن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أظلم**﴾ خبره. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**كذّب**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَن. ﴿**بآيات**﴾ متعلق بكذّب.

﴿الله﴾ مضاف إلى آيات. **﴿وصدف﴾** معطوف على كذّب. **﴿عنها﴾** متعلق بصدف. **﴿سنجزي﴾** فعل مضارع دخل عليه حرف الاستقبال، وفاعله الضمير (نحن). **﴿الذين﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿يصدفون﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿عن آياتنا﴾** متعلق بيصدفون، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿سوء﴾** مفعول به. **﴿العذاب﴾** مضاف إلى سوء. **﴿بما﴾** متعلق بنجزي، وما مصدرية. **﴿كانوا﴾** كان واسمها. **﴿يصدفون﴾** الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مقدّر والتقدير: بسبب كونهم يصدفون. **﴿هل﴾** حرف استفهام تضمّن معنى النفي. **﴿ينظرون﴾** فعل وفاعل. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء. **﴿أن تأتيهم﴾** فعل مضارع منصوب بأن، والضمير المتصل به مفعول. **﴿الملائكة﴾** فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب على البدل من المستثنى منه، والتقدير: ما ينظرون شيئاً إلاّ إتيان الملائكة إيّاهم. **﴿أو يأتي ربّك﴾** معطوف على تأتيهم الملائكة. **﴿أو يأتي بعض﴾** معطوف على أو يأتي ربّك. **﴿آيات﴾** مضاف إلى بعض. **﴿ربّك﴾** مضاف إلى آيات، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿يوم﴾** ظرف زمان متضمن معنى الشرط خافض لشرطه منصوب بجوابه. **﴿يأتي﴾** بعض فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى يوم. **﴿آيات﴾** مضاف إلى بعض. **﴿ربّك﴾** مضاف إلى آيات. **﴿لا ينفع﴾** فعل مضارع منفيٌّ بلا.

﴿نفساً﴾ مفعول به. **﴿إيمانها﴾** فاعل، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة لا ينفع جواب شرط يوم. **﴿لم تكن﴾** فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، واسم تكن ضمير يعود على نفس. **﴿آمنت من قبل﴾** الجملة في محل نصب خبر تكن، وجملة لم تكن في محل نصب نعت لنفس. **﴿أو كسبت﴾** معطوف على آمنت. **﴿في إيمانها﴾** متعلق بكسبت، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿خيراً﴾** مفعول به. **﴿قل انتظروا﴾** في محل نصب مقول قل. **﴿إنّا منتظرون﴾** الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليلية. **﴿إنّ الذين﴾** إنّ واسمها. **﴿فرّقوا دينهم﴾** فعل وفاعل ومفعول صلة الذين. **﴿وكانوا شيعاً﴾** الجملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على فرّقوا. **﴿لست﴾** ليس واسمها. **﴿منهم في شيء﴾** متعلقان بمحذوف خبر ليس، وجملة لست منهم في شيء في محل رفع خبر إنّ. **﴿إنّما﴾** كافة ومكفوفة.

﴿أمرهم﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إلى الله﴾** متعلق بمحذوف خبر

المبتدإ. ﴿**ثم ينبئهم**﴾ معطوفة على الجملة قبلها. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفعلون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وهذه الجملة والتي قبلها للتعليل. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**جاء**﴾ فعل ماض في محل جزم، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بالحسنة**﴾ متعلق بجاء. ﴿**فله**﴾ الفاء رابطة لجواب مَنْ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عشر**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**أمثالها**﴾ مضاف إلى عشر، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فله عشر في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ مثل من جاء بالحسنة في الإعراب. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة للجواب، لا نافية. ﴿**يُجزى**﴾ فعل مضارع مبنيٌّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**مثلها**﴾ بدل من المفعول الثاني ليجزى، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فلا يجزى في محل جزم جواب الشرط.

﴿**وهم**﴾ الواو للعطف، وهم في محل رفع مبتدأ. ﴿**لا يظلمون**﴾ الجملة من الفعل المنفي المبني للمجهول ونائب فاعله خبر المبتدإ. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّني**﴾ إنّ واسمها، والنون الثانية للوقاية. ﴿**هداني**﴾ فعل ماض، والنون في الفعل للوقاية، وضمير المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**ربّي**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى ربّ، وحركت بالفتحة للتخفيف. ﴿**إلى صراط**﴾ متعلق بهداني. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط، وجملة هداني في محل رفع خبرُ إنّ، وجملة إنّني هداني في محل نصب مقول القول. ﴿**ديناً**﴾ حال من صراط. ﴿**قيماً**﴾ بيان له.

﴿**ملّة**﴾ بدل من ديناً. ﴿**إبراهيم**﴾ مضاف إلى ملّة مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**حنيفاً**﴾ حال من إبراهيم. ﴿**وما كان**﴾ معطوف على حنيفاً. ﴿**من المشركين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، واسمها ضمير يعود على إبراهيم. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّ صلاتي**﴾ إنّ واسمها منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة. ﴿**ونسكي ومحياي ومماتي**﴾ بالعطف على صلاتي. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ إنّ. ﴿**ربّ**﴾ نعت لله. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى رب مجرور بالياء. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**شريك**﴾ اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر

لا، وجملة لا شريك له في محل نصب حال من ربّ العالمين. ﴿**وبذلك**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**أُمرت**﴾ فعل ونائب الفاعل. ﴿**وأنا أول**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**المسلمين**﴾ مضاف إلى أول، والجملتان معطوفتان على ما قبلهما، وجملة إنّ صلاتي وما بعدها في محل نصب مقول القول.

﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**أغير**﴾ مفعول به مقدم. ﴿**الله**﴾ مضاف إليه. ﴿**أبغي**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم. ﴿**ربّاً**﴾ مفعول ثانٍ لأبغي، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وهو ربُّ**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**كلّ**﴾ مضاف إلى ربّ. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل، والجملة في محل نصب من اسم الجلالة. ﴿**ولا تكسب**﴾ فعل مضارع منفي بلا. ﴿**كلُّ**﴾ فاعل. ﴿**نفس**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**عليها**﴾ متعلق بمحذوف نعت، أو بدل من مفعول تكسب المقدّر، والتقدير: ولا تكسب كل نفس شيئاً إلاّ شيئاً كائناً عليها وزرُه. ﴿**ولا تزر**﴾ فعل مضارع منفيٌّ بلا، معطوف على ما قبله. ﴿**وازرةٌ**﴾ فاعل تزر. ﴿**وزر**﴾ مفعول به. ﴿**أُخرى**﴾ مضاف إلى وزر مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**ثُمَّ**﴾ للعطف والترتيب. ﴿**إلى ربّكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مرجعكم**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فينبئكم**﴾ فعل مضارع مقرون بفاء التعقيب، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على ربّكم. ﴿**بما**﴾ متعلق بينبئكم. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**تختلفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كنتم صلة ما. ﴿**وهو الذي**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**جعلكم**﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**خلائف**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى خلائف.

﴿**ورفع**﴾ معطوف على جعل. ﴿**بعضكم**﴾ مفعول أول برفع. ﴿**فوق**﴾ ظرف مكان متعلق برفع. ﴿**بعض**﴾ مضاف إلى فوق. ﴿**درجات**﴾ مفعول ثانٍ برفع منصوب بالكسرة. ﴿**ليبلوكم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق برفع. ﴿**فيما**﴾ متعلق بيبلوكم. ﴿**آتاكم**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة آتاكم صلة ما. ﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**سريع**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**العقاب**﴾

مضاف إلى سريع. ﴿وإنّه لغفور رحيم﴾ جملة معطوفة على إنّ ربّك، وهي مثلها في الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم﴾: انتهى السياق في الموضوع الماضي عند استنكار ما حرّم المشركون على أنفسهم، واستنكار طريقة التحريم ذاتها، في غير استناد إلى علم أو وصية من الله، بعد بيان المحرمات من المطاعم التي أوحى الله بتحريمها. فالآن ينتهي السياق بهم إلى أفق أشمل، وإلى ميدان أفسح، الآن يدعوهم إلى استماع ما حرّم الله عليهم، وما أوجب من الأصول الكلية التي تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها المجتمع، وتقوم عليها الحياة؛ ذلك ليحسم ما بينهم وبين الرسول ﷺ من جدل، وليردهم إلى الأصول التي إن اتفقوا عليها اجتنبوا سائر المخالفات وسائر الضلالات.

ويبدأ هذا الموضوع بدعوتهم إلى سماع ما حرّم الله عليهم حقيقةً وأصلاً، ولكنه يذكر واجبات إيجابية مفروضة بجانب المحرمات التي يتلوها، بل يذكر أصول العقيدة الإسلامية ومعظم الحدود والمعاملات. إنّما بدأ بدعوتهم إلى سماع ما حرّم تنسيقاً مع جو السياق وتعبيراته، ثم يأخذهم من المحرّمات إلى الفرائض ممتزجاً بعضها ببعض، وهذه وتلك قوام هذا النظام. ثم ينتهي هذا الموضوع بإيقاعات عميقة على أوتار العقيدة، موضوع هذه السورة يصل بعضها في الحلاوة والنداوة أن تكون أنشودة رخيّة مرفوفة في صورة تسبيحة روحية علوية؛ ذلك مع الوعد والوعيد، ومع اللمسات الوجدانية التي تحرك القلوب، ومع تقرير قواعد العمل والجزاء على العدل المطلق والفضل من الله؛ مما يؤلف في مجموعه خاتمة تتعادل مع مفتتح هذه السورة وتتسق مع سياقها العجيب، وتنصهر كلها في وصايا خالدة باقية لا يعتريها نقص ولا تعديل ولا تبديل.

وننظر في هذه الوصايا فنجدها قوام حياة القلب والعقل والضمير، وقوام حياة الأسرة، وقوام حياة المجتمع، وقوام حياة الإنسانية، مجموعة كلها في آيتين اثنتين. من ذلك الدستور الإلهي الخالد، الذي يرسم للناس منهج الحياة في كل اتجاه. ولكنّنا قبل ذلك كله نلمح القاعدة التي تقوم عليها جميعاً، فإذا هي العقيدة

الخالصة في الله، عقيدة التوحيد المطلق، التي يقوم عليها ذلك الدستور كله، ويقوم عليها نظام الحياة. وننظر في هذه العبارة: «قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم»؛ فنجدها تعبر عن معنى عميق مثير. إذن فليس هذا التحريم اعتسافاً ولا جزافاً، إنّما هو التحريم الذي حرمه ربّكم لا لحرمانكم ولكن لتربيتكم. ومن هنا اختار معنى الربوبية في هذا الأسلوب على معنى الألوهية، فهناك هدف تربويّ رحيم لهذا التحريم.

كما أنّ هناك قاعدة مفهومة لهذا التشريع، ومرجعاً معتمداً يُرتكن إليه، وليس كالذي حرمتم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير. ابْتُدِئَ هذا الموضوع بأمر الرسول ﷺ بفعل القول استرعاء للأسماع، واستدعاء للشاردين من الرعاع، وعُقّب بفعل تعالوا اهتماماً بالأمر الذي يجب أن يُطاع، وليعلموا الفرق بين ما يدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام. وافتتاحه بطلب الحضور دليل على أنّ الخطاب للمشركين الذين كانوا في إعراض وخصام. وأصل تعالوا تطلق على نداءِ مَن كان في مكان منخفض غائر يحظر فيه البقاء. والغرض منه هنا خطاب ممن هو في أعلى مكان من العلم والهدى لمن هم في أسفل درك من الجهل والضلال؛ عبدة الأصنام، ومتبعي الظنون والأوهام، ولغيرهم ممن لا يسمو إلى ذلك المقام، وإن كان دونهم في الجهل والآثام... ﴿**ألاّ تشركوا به شيئاً**﴾: شروع في بيان ما حرّم الربّ، وما أوصى به من البرّ والقُربْ.

وقد أورد بعضه بصيغة النهي عن الشيء، وبعضه بصيغة الأمر بضده، حسبما تقتضيه البلاغة في أسلوب العرب. ومقابل ما حرم أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم. وهذا هو المقصود بالذات الذي دعا إليه جميع الرسل، وهو لازم للنهي عن الشرك الذي عبر عنه هنا؛ لأنّ الخطاب موجه إلى المشركين أولاً وبالذات. وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات في الإسلام، إنّها تنقية للضمير من أوشاب الوثنية، وتنقية للعقل من غبش الخرافة، وتنقية للمجتمع من تقاليد الجاهلية التي تنبع من الهوى والضلالة والتقليد، فهذا الشرك هو المحرم الأول؛ لأنّه يجرُّ إلى كل محرّم.

والتوحيد المطلق يجب أن يعمر القلب والعقل والواقع؛ ليرتبط الفرد بالله

على بصيرة، وترتبط الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط بينها والعلاقات. ثم ليتضح الطريق للجميع ويتوحّد الهدف، فلا تتمزّق طاقاتهم واتجاهاتهم مع تمزّق أهواء الآلهة وأهواء سدنتها، وهي لا تستقر على حال... **﴿وبالوالدين إحساناً﴾**: هذه الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، وهو الأمر الثاني من الوصاية المتلوة هنا. والأمر بالإحسان بالوالدين يفيد النهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الكلام في الخطاب. وقد اختير في هذه الآية وأمثالها الأمر بالواجب من الإحسان على النهي عن مقابله المحرّم، وهو الإساءة مطلقاً؛ للإيذان بأنّ الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع فيحتاج إلى التصريح بالنهي عنها في مقام الإيجاز.

والتعبير بالوالدين بدل الأبوين مراعاة لجانب الأم كما وُضّح في الحديث. وعُدّي الإحسان هنا بالباء دون إلى؛ لأنّ من أحسنت به هو من يتصل به برّك وحسن معاملتك، ويلتصق به مباشرة على مقربة منك وعدم انفصال عنك، وأما من أحسنت إليه فهو الذي تسدي إليه برك ولو على بعد، أو بالواسطة؛ إذ هو شيء يساق إليه سوقاً... **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم﴾**: هذه الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، وهو القسم الثالث الداخل تحت تلاوة الوصايا، وجملة نحن نرزقكم وإيّاهم علّة للنهي عن قتل الأولاد؛ إبطالاً لمعذرتهم بالفقر الواقع بهم، ولهذا قدّم رزقهم على رزق أولادهم.

وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم بضمير نرزقكم؛ تذكيراً بالذي أمر بهذا القول كله؛ كأنّ الله أقحم كلامه بنفسه في أثناء كلام رسوله الذي أمره به، فكلم الناس بنفسه، وهو تأكيد لتصديق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي هنا لإفادة الاختصاص؛ فنحن نرزقكم وإيّاهم، لا أنتم ترزقون أنفسكم ولا ترزقون أولادكم... **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾**: هذه الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، وهو القسم الرابع الداخل تحت تلاوة الوصايا.

والسياق هنا يظهر أنّ معنى الفواحش هو الزنى، وجُمع باعتبار أنّه ألوان وحالات، فمقدّماته ومسبباته قد تكون في ذاتها فاحشة، كالتهتك والتبرج والاختلاط المثير، والإشارات والكلمات والحركات الفاجرة، والإغراء والتزين

والخداع وسائر ما يحيط بالفاحشة الأولى، وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن، منها المتستر في الضمير ومنها البادئ على الجوارح، منها المخبوء المستور ومنها العلني المكشوف، وكلها ممّا ينخر في جسم الجماعة فوق ما يلطخ من ضمير الأفراد، وفوق ما يشوّه من معاني الأسرة ويدنس في الأنساب.

ومن ثمّ جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد؛ لأنّ هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية، فكان التعبير (ولا تقربوا) للنهي عن الاقتراب سَدّاً للذرائع، واتّقاءً للجاذبية التي تضعُفُ معها الإرادة، لذلك حرّمت النظرة ـ بعد الأولى العرضية ـ، ولذلك كان الاختلاط ضرورة تباح بقدر الضرورة، ولذلك كان التبرّج حراماً، وكانت الحركات المثيرة والضحكات المثيرة كلها ذرائع تُتّقى. فهذا الدين لا يريد أن يُعرّض الإنسان نفسه للفتنة ابتداءً، فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات، وهو دين حماية للضمائر والمشاعر قبل الحواسّ والجوارح، وربّك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. وتوسيط النهي عن هذه الفواحش بين النهي عن قتل الأولاد وبين النهي عن القتل مطلقاً ـ كما وقع في سورة الإسراء ـ باعتبار أنّها مع كونها في نفسها جناية عظيمة في حكم قتل الأولاد؛ فإنّ أولاد الزنا في حكم الأموات. . . ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق**﴾: هذه الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، وهو القسم الخامس الداخل تحت تلاوة الوصايا. والتعريف في النفس تعريف الجنس يفيد الاستغراق، ووصفت بالتي حرّم الله تأكيداً للتحريم بأنّه تحريم قديم. وقوله إلاّ بالحق استثناء مفرغ من عموم الأحوال والأسباب والأزمان.

والتعريف في الحق تعريف الجنس، وهو ما اتفقت على أحقيته العقول السليمة وأقرته الشرائع المنزلة المستقيمة. . . ﴿**ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون**﴾: الإشارة إلى الوصايا الخمس التي تليت في هذه الآية. واللام فيها للدلالة على بعد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها من الحِكَم والأحكام والمصالح الدنيوية والأخروية. وجيء بهذه الجملة تجديداً للعهد وتأكيداً لإيجاب المحافظة على ما كلفوه، وليكون الأخذ والترك على أساس معقول لا على الطريقة التي هم فيها سادرون. . .

﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده**﴾: القسم السادس

مما يدخل تحت تلاوة الوصايا، والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه؛ لأنّه يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل التي تؤدّي إليه وتوقع فيه، وعن الشبهات التي تحتمل التأويل فيه، فيَحْذِرُها التَّقيُّ إذ يعدها هضماً لحق اليتيم، ويقتحمها الطامع إذ يراها بالتأويل ممّا يحلّ له؛ لعدم ضررها باليتيم أو رجحان نفعها له على ضررها. وقوله: حتى يبلغ أشده غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي، كأنّه قيل: احفظوا مال اليتيم إلى أن يصير بالغاً رشيداً فحينئذ سلموه إليه...

﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلاّ وسعها**﴾: القسم السابع مما يدخل تحت تلاوة الوصايا، واختيار الأمر بالإيفاء هنا دون النهي عن التطفيف اهتمامٌ به؛ لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب التطفيف، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذي يتمادحون به. وجملة: لا نكلف نفساً إلاّ وسعها احتراس، والمقصود منه أن لا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك بهم إلى تعطيل منافع جمّة. وقد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بني عليه المقول ابتداء من قوله: ما حرّم ربكم لما في هذا الاحتراس من الامتنان فتولّى الله خطاب الناس فيه بطريق التكلم مباشرة؛ زيادة في المنّة وتصديقاً للمُبَلِّغِ، وقد تقدم مثل هذا في قوله: نحن نرزقكم وإيّاهم.

وهذا الأمر يدل بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشد من التطفيف... ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾: القسم الثامن مما يدخل في تلاوة الوصايا، وهو أمر جامع لكل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام. وفي التعليق بأداة الشرط في قوله: وإذا قلتم إشارة إلى أنّ المرء في سعة من السكوت إن خشي قول العدل. والكذب كله من القول بغير العدل، على أنّ من السكوت ما هو واجب. ﴿**ولو**﴾ وصلية تفيد المبالغة في الحال التي من شأنها أن يظن السامع عدم شمول الحكم إيّاها لاختصاصها من بين بقية الأحوال التي يشملها الحكم؛ فإنّ حالة قرابة المقول لأجله القولُ، قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل لنفع قريبه أو مصانعته، فنبهوا على وجوب التزام العدل في القول في تلك الحالة.

فالضمير المستتر في كان عائد إلى شيء معلوم من الكلام... ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾: القسم التاسع فيما يدخل تحت تلاوة الوصايا، وهو تعقيب يشمل كل ما سبقه من الأوامر والنواهي؛ فمن عهد الله قولة الحق والعدل، ومن عهد الله توفية

الكيل والميزان، ومن عهد الله حفظ مال اليتيم، ومن عهد الله حرمة النفس، ومن عهد الله صيانة الأولاد، ومن عهد الله الإحسان بالوالدين، ومن عهد الله عبادة الله وحده لا شريك له؛ ذلك عهد الله في عمومه وفي بعض خصوصياته. ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف... ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون**﴾: ليستعين الناس عليها بتذكّر الله ورقابته وتقواه.

ولأنّ هذه المطالب الأربعة عرفت بين العرب أنّها محَامد، فالأمر بها والتحريض عليها تذكير بما عرفوه في شأنها، ولكنهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاوة الشرك على قلوبهم... ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾: القسم العاشر ممّا يدخل في تلاوة الوصايا، الإشارة هنا إلى ما جاء به محمد ﷺ من الدين الحنيف، ومنهجُه القرآنُ الشريف، فهو الصراط المستقيم والشرع القويم. وأضيف الصراط إلى رسول الله؛ لأنّه هو المخاطب للناس بهذه الوصايا، وأفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله، وجمع السبل المخالفة له؛ لأنّ الحق واحد، والباطل ما خالفه وهو كثير... ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون: جعل الرجاء هنا للتقوى؛ لأنّ هذه السبيل تحتوي على ترك المحرمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين، والتقوى هنا معناها الشرعي...

﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾: ثم هنا عاطفة على جملة: قل تعالوا، وهو عطف جمل، والمهلة فيها مهلة مجازية؛ لأنّها ليست للترتيب الزمني. والمقصود من هذا الكلام أنّ وصايا الله بهذه الأحكام قديمة؛ جاء بها كل الرسل الكرام، ومن بينهم موسى عليه السلام. وأل في الكتاب للعهد، والمراد به التوراة؛ لأنّه معهود عند العرب. والموصول في قوله: تماماً على الذي أحسن مراد به الجنس؛ فلذلك استوى مفرده وجمعه. والمراد به هنا الفريق المحسن؛ تماماً لإحسان المحسنين من بني إسرائيل.

والفعل منزل منزلة اللازم. وقوله لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون: رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربّهم. والضمير عائد إلى معلوم من المقام، وهم بنو إسرائيل. والمقصود منه إظهار ما وصل إليه اليهود أخيراً إلى تحريف كتابهم حسب أهوائهم وتفرقهم شيعاً

وأحزاباً حتى صاروا لا يرجون حساباً. ولهذا جاء ذكر الكتاب المهيمن الكامل المفصل التفصيل الشامل: ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون**﴾: فافتتاح الجملة باسم الإشارة وبناء الفعل عليه، وجعل الكتاب الذي حقه أن يكون مفعول أنزلنا مبتدأ؛ كل ذلك للاهتمام بالكتاب والتنويه به، وتفريع بالأمر باتباعه على كونه منزلاً من الله، وكونه مباركاً ظاهر؛ لأنّ ما كان كذلك لا يتردد أحد في اتباعه، والاتباع أطلق على العمل بما فيه على سبيل المجاز. والخطاب في قوله: فاتبعوه للمشركين.

ووصف الكتاب بكونه منزلاً من عند الله، وبكونه مباركاً لكونه المقصود من الإخبار؛ لأنّ كونه كتاباً لا مِزْية فيه، وإنّما امْتَرَوْا في كونه منزلاً من عند الله، وفي كونه مباركاً. وحسن عطف مبارك على أنزلناه؛ لأنّ اسم المفعول في قوة الفعل لاشتقاقه. ومعنى اتقوا كونوا متصفين بالتقوى، وهي الأخذ بدين الحق والعمل به. وفي قوله: لعلكم ترحمون وَعْدٌ على اتّباعه وتعريض بالوعيد بعذاب الدنيا والآخرة إن لم يتبعوه... ﴿**أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين**﴾: هذه الآية جاءت علّة لفعل أنزلناه؛ لأنّ المقام يدل على أنّ هذا القول كان باعثاً على إنزال هذا الكتاب. ويؤول المعنى إلى أنّ إنزال الكتاب فيه حِكَمٌ؛ منها حكمة قطع معذرتهم بأنّهم لم ينزل إليهم كتاب...

﴿**أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم**﴾: هذا تدرج في الاعتلال جاء مبيناً لما تكنّه نفوس العرب وفي مقدمتهم قريش من تفوّقهم بأنفسهم على بقية الأمم... وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم، وإيقاظ لأفهامهم أن يغتبطوا بالقرآن، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشرف بين الناس جميعاً، «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون»؟!. ولقد تهيأ المقام بعد هذا التنبيه العجيب لفاء الفصيحة في قوله: ﴿**فقد جاءكم بينة من ربّكم**﴾: والتقدير: فإذا كنتم تقولون ذلك ويهجس في نفوسكم، فقد جاءكم بيان من ربّكم، يعني القرآن، وهو يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب.

والقرآن بيّنة على أنّه من عند الله لإعجازه بلغاءَ العرب، وهو هدى بما

يشتمل عليه من الإرشاد إلى طُرُق الخير، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها، فهي مُقَيِّمَةُ إصلاح الأمّة مع التيسير؛ وهذا من أعجب التشريع، وهو أدل على أنّه من أمر العليم بكل شيء. وتفرع عن هذا الإعذار لهم الإخبار عنهم بأنّهم لا أظلم منهم؛ لأنّهم كذّبوا وأعرضوا، فالفاء في قوله: ﴿**فمن أظلم**﴾ للتفريع، والاستفهام إنكاري، بمعنى لا أحد أظلم من الذين كذبوا بآيات الله. وقد جيء بالموصول في قوله ﴿**ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها**﴾، لتدل الصلة على تعليل الحكم، ووجهِ بناء الخبر: لأنّ من ثبت له مضمون تلك الصلة كان حقيقاً بأنّه لا أظلم منه... ﴿**سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون**﴾: هنا يجيء التهديد في أوانه. والتعبير بالمضارع في الفعلين بنص واحد دليل على فظاعته مع استمرارهم عليه، فهم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفوهم عن الحق وحالوا بينهم وبين سبب الهداية.

وقد وضع الموصول موضع الضمير، فقال: سنجزي الذين يصدفون ولم يقل سنجزيهم؛ ليعلم أنّ هذا الوعيد إنّما هو على الصدف الذي هو قطع طريق الحق على المستعدين لاتباعه؛ لأنّهم بهذا كانوا أظلم الناس كما دلّ عليه الاستفهام الإنكاري، وقد أكد ذلك بالتصريح بالسبب ولم يكتف بدلالة صلة الموصول عليه. وكان هنا مفيدة للاستمرار زيادة على ما يدل عليه المضارع، وفيه معنى الثبوت الدائم، مثل: «وكان الله غفوراً رحيماً...» ﴿**هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك**﴾: إنّه التهديد الواضح المستمر، فيوم تأتيهم الملائكة ستأتيهم لقبض أرواحهم، أو تأتيهم بالعذاب يدمرهم تدميراً، ويوم يأتي ربّك سيكون ذلك للحشر والحساب. والتعبير بيأتي في جانب الله سبحانه مجرد مشاكلة لتصورات في التعبير، وهو تهديد ناشئ عن جملة سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا، لإثارته سؤال سائل يقول: متى يكون جزاؤهم؟.

وفيه تهكم ناشئ عن جملة: فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها، لأنّه يثير سؤال سائل يقول: ماذا كانوا يترقبون من الآيات فوق الآيات التي جاءتهم؟. والمعنى لا ينتظر هؤلاء المكذبون، إلاّ عذاب الدنيا بالهزائم والمصائب، وعذاب الآخرة التي لا يستطيع أن يهرب منها هارب... ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها**

خيراً﴾: هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً تذكيراً لهم بأنّ الانتظار والتريث عن الإيمان وخيم العاقبة؛ لأنّه مهدد بما يمنع من التدارك عند الندامة. والمراد بالنفس، كل نفس؛ لوقوعه في سياق النفي. وجملة لم تكن آمنت من قبل صفة (نفساً)، وهي صفة مخصصة للعموم.

وقوله: أو كسبت في إيمانها خيراً عطف على آمنت. وأوْ للتقسيم في صفات النفس، فيستلزم تقسيم النفوس التي خصصتها الصفتان إلى قسمين: نفوس كافرة لم تكن آمنت من قبل؛ فلا ينفعها إيمانها يوم يأتي بعض آيات الله، ونفوس آمنت ولم تكسب خيراً في مدة إيمانها؛ فلا ينفعها ما تكسب من خير يوم يأتي بعض آيات ربّك. وفي هذا الكلام إيجاز بالحذف اعتمد فيه على القرينة الواضحة. وقوله: **﴿قل انتظروا إنّا منتظرون﴾**: استئناف أُمِرَ به الرسول ﷺ بأن يهددهم ويتوعّدهم على الانتظار، ويخبرهم بأنّ المسلمين ينتظرون نصر الله ونزول العذاب بأعدائهم. . .

﴿إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾: هذه الآية جاءت منفصلة عما قبلها فلم تعطف، فهي مستأنفة، جاءت عقب الوعيد كالنتيجة والفذلكة. وجيء بالموصولية لتعريف المسند إليه لإفادة تحقق معنى الصلة فيهم؛ لأنّها تناسب التنفير من الصلة بهم. ومعنى لست منهم في شيء: أنّك لا صلة بينك وبينهم. ولما دلّت هذه الجملة على التبري منهم وعدم مخالطتهم كان الكلامُ مثار سؤال سائل يقول: أعلى الرسول أن يتولى جزاءهم على سوء عملهم؟. فالجواب: إنّما أمرهم إلى الله. وصيغة القصر لقلب اعتقاد السائل المتردّد، وهذا إنذار شديد. و(إلى) مستعمل في الانتهاء المجازي: شبّه أمرهم بالضالّة التي تركها الناس فسارت حتى انتهت إلى مراحها. وقوله: ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون، شبه الترتيب على المهلة. وإطلاق الإنباء على العقاب، فوراء الإنباء ما وراءه ممّا يستحقون!. . **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ مثلها وهم لا يظلمون﴾**: هذه الآية تقرير لقاعدة الجزاء العامة بمناسبة الحديث عن الجزاء.

والرحمة في هذه القاعدة بادية. والباء في قوله: من جاء بالحسنة للمصاحبة، والكلام تمثيل؛ شبّه عملُه الحسنَة بحال المكتسب عندما يخرج يطلب رزقاً من وجوهه فيحصل على خير وفير فيجيء به إلى أهله. وإنّما قال في جانب السيئة:

فلا يجزى إلاّ مثلها بصيغة الحصر اهتماماً به لإظهار العدل الإلهي، وهو تحقيق لعدم الزيادة في جزاء السيئة. ولذلك أعقبه بقوله: وهم لا يظلمون. والضمير يعود إلى من جاء بالسيئة إظهاراً للعدل... ﴿**قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيّماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾: في هذه الآية فصل الخطاب، وحسم لكل سؤال وجواب، وقد أغلق في وجوه المعاندين والمجادلين الباب. وفي هذه الآية براعة المقطع إيذاناً بانتهاء السورة؛ لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه، وتم بيان ما جاء به من ربّه، ثم أخذ يبين ما رضيه لنفسه واستقر عليه في قرارة ضميره، عَلِمَ السامعُ أنّه قد أخذ يطوي سجل المحاجّة. وقد ابتدأت ملامح الانتهاء من قوله تعالى: قل فانتظروا إنّا منتظرون إلى هنا، حيث ظهر واضحاً أمر الرسول ﷺ بأن يقول: إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم. وافتتح المقول بحرف التأكيد؛ لأنّ الخطاب للمشركين المكذبين. وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بربوبية الرسول لله تعالى، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلهم أربابُهم، ولو أرادوا الرب الحقيق بالعبادة لهداهم.

وقوله: هداني ربّي إلى صراط مستقيم تمثيلية؛ شبهت هيئة الإرشاد إلى الحق ليبلغ إلى النجاة، بهيئة من يدل السائر على الطريق المبلغة إلى المقصود. والمناسبة بين الهداية وبين الصراط تامة، وقد صح أن تستعار الهداية للإرشاد والتعليم، والصراط للدين القويم، فكان تشبيهاً مركباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التمثيلية. والمقصود إتمام هيئة التشبيه بأنّه دين لا يتطرق متبعه شك في نفعه، كما لا يتردد سالك الطريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحير في أمره. وقوله: ديناً قيماً تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبَّه، وقيّماً وصف مبالغة قائم، بمعنى معتدل غير معوج. وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز، فهو الإعلان الذي يوحي بالشكر ويشي بالثقة ويفيض باليقين؛ اليقين في بناء العبارة اللفظي، والثقة بالصّلَةِ الهادية؛ صلة الربوبية الموجهة المربيةِ، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا التواء؛ (ديناً قيماً)، وهو دين الله القديم منذ إبراهيم: «ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين...» ﴿**قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾: أعيد الأمر لما أنّ المأمور به متعلق بفروع الشرائع، والأمر السابق متعلق بأصولها.

والمقصود منه الإخلاص لله في العبادة، وهو متفرع من التوحيد. وافتتح المقول بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر ولتحقيقه. والآية جامعة لجميع الأعمال من الأقوال والأفعال الصالحة التي هي غرض المؤمن الموحد من حياته، وذخيرته لمماته، يجعلها خالصة لله ربّ العالمين؛ فهو التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب، وبكل بساط في الحياة، إنّها تسبيحة التوحيد المطلق تجمع طاقات النفس كلها وتتجه بها إلى الله، تجمع الصلاة والعكوف والمحيا والممات، وتخلصها لله وحدهُ لا شريك له.. في إسلام كامل لا يستبقي في النفس بقية، ولا يحتجر دون الله شيئاً؛ (وبذلك أمرت) فسمعت واستجبت وأنا أول المسلمين. **﴿قل أغير الله أبغي ربّاً﴾**: استئناف ثالث، مُفْتَتَحٌ بالأمر بالقول يتنزل منزلة النتيجة لما قبله؛ لأنّه لمّا عُلم أنّ الله هداه إلى صراط مستقيم، وأنقذه من الشرك، وأمره بأن يخصّ عبادته وطاعته لربه تعالى؛ شكراً على الهداية، أتبع ذلك بأن ينكر أن يعبد غير الله تعالى؛ لأنّ واهب النعم هو مستحق الشكر. والعبادة جماع مراتب الشكر، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم؛ إذ عبدوا غيره. وقدّم المفعول على فعله؛ لأنّه المقصود من الاستفهام الإنكاري. وقوله: **﴿وهو ربّ كل شيء﴾**: حال مقلل للإنكار..

وإنّما قيل: وهو ربّ كل شيء، ولم يقل وهو ربيّ، لإثبات أنّه ربّه بطريق الاستدلال لكونه إثبات حكم عام يشمل المقصود الخاص، ولإفادة أنّ أربابهم غير حقيقة بالربوبية؛ لأنّها مربوبة أيضاً لله تعالى. وقوله: **﴿ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها﴾** من القول المأمور به؛ مفيد متاركة للمشركين ومقتاً لهم بأنّ عنادهم لا يضره، فإنّ ما اقترفوه من الشرك لا يناله منه شيء.. فإنّما كَسْبُ كل نفس عليها، وهم من جملة الأنفس فكسبهم عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم. فالتعميم في الحكم الواقع من قوله: كل نفس فائدته مثل فائدة التعميم الواقع في قوله: وهو ربّ كل شيء. وقوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** تكملة لمعنى قوله: ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها، فكما أنّ ما تكسبه النفس لا يتعدى منه شيء إلى غيرها، كذلك لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، وهذا إتمام لمعنى المشاركة. **﴿ثم إلى ربّكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾**: استئناف كلام من الله تعالى خطاباً للنبيء وللمعاندين له.

وثُمَّ صالحة للاستئناف؛ لأنّ الاستئناف ملائم للترتيب الرتبي. والكلام وعد

للمؤمنين بالفوز المبين، ووعيد للكافرين بالعذاب المهين. . . **﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم﴾**: هذه الآية جاءت جامعة لكل ما تقدم في السورة من تحذير وتحريض وترهيب وترغيب. . وتذكير بالنعمة بعد الإنذار بسلبها، وتحريض على تدارك ما فات، وهي تفتح أعْيُن الضالين للنظر في عواقب الأمور، وتذكر ما مرَّ على الأمم في مختلف العصور، وما فيها من نعم ونقم وخيرات وشرور. وهو ماتضمنه قوله: ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم؛ فالدرجات مستعارة لتفاوت النعم، وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه. وجملة إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم تعليل وتقرير لكل ما تقدم. . وإعلام بأنّ المقصود منه العمل والامتثال؛ فلذلك جمع هنا بين صفة سريع العقاب وصفة الغفور الرحيم؛ ليناسب جميع ما حوته هذه السورة. واستعيرت السرعة لعدم التردد ولتمام المقدرة على العقاب؛ لأنّ شأن المتردد أو العاجز أن يتريث وأن يخشى غائلة المعاقِب.

ومن لطائف القرآن الاقتصار على وصف سريع العقاب على مؤكد واحد، وتعزيز وصف الغفور الرحيم بمؤكدات ثلاثة: إنّ ولام الابتداء والتوكيد اللفظي في الغفور الرحيم؛ لأنّ الرحيم يؤكد معنى الغفور؛ ليطمئن أصحاب العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عمّا هم فيه من الحيف والزيوف. وفي هذا الكلام براعة المقطع، وفيه رد العجز على الصدر، وهو ربط آخر الكلام بأوّله.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم﴾**: هذا الكلام موجه للرسول ﷺ بأن يقول للذين ضلّوا وأضلّوا: تعالوا إليّ وأقبلوا عليّ أتل وأقرأ لكم ما حرّم وما أوجب ربّكم عليكم فيما أوحاه إليّ من العلم الصحيح وحق اليقين، وهو غير ما أنتم عليه من الوهم والخرص والتخمين. . . **﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾**: شروع في بيان أول المحرمات بالإطلاق، وهي أكبر المحرمات وأفظعها وأشدها إفساداً للعقل والفطرة.

والشرك ـ حسب ما هو منصوص هنا ـ محرّم سواء كان باتّخاذ الأنداد لله تعالى، أو الوسطاء المؤثرين في إرادته المصرّفين لها في الأعمال، بالاتجاه إلى صورهم وتماثيلهم وقبورهم ومقاماتهم، أو كان باتخاذ الأرباب الذين يشرّعون الأحكام، ويتحكّمون في الحلال والحرام. . . وكذا من يُسند إليهم التصرف الخفي فيما وراء الأسباب من التخرصات والأوهام. ومقابل هذا المحرّم الواجب المحتّم: وهو أن تعبدوه سبحانه وحده حسب ما شرعه لكم في كتابه على لسان رسوله، لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم، وهذا هو المقصود بالذات الذي دعا إليه جميع الرسل، وهو لازم للنهي عن الشرك الذي عبّر به هنا؛ لأنّ الخطاب موجه إلى المشركين أوّلاً بالذّات. . .

﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾: الثاني مما أتلوه عليكم من وصايا ربّكم أن تحسنوا بالوالدين إحساناً تامّاً كاملاً لا تدخرون فيه وُسْعاً ولا تألون فيه جُهْداً، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت، فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان، وهو من أكبر كبائر المحرمات بعد الشرك. وقد تكرر في القرآن القِرَانُ بين التوحيد والنهي عن الشرك وبين الأمر بالإحسان بالوالدين؛ ذلك ليثبت هذا التكليف مباشرة على قاعدة العقيدة، فلقد علم سبحانه أنّ الحياة في اندفاعها إلى الأمام قد يثقل عليها أن تلتفت إلى الوراء، وأنّ البنية الجديدة مدفوعة بالفطرة أن تمتص من أصلها غِذاءها، ثم لا ترده على هذا الأصل، إنّما تؤديه إلى فروعها الجديدة وإلى خليفتها المرتقبة! .

من أجل هذا جعل اللفتة إلى الوراء، والإحسان بالجيل الماضي مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالعقيدة في الله؛ لئلا تنساها البنية الجديدة في اندفاعها إلى الأمام!. ثم إذا كانت النشأة الأولى من الله فالوالدان سبب للنشأة الثانية ـ النشأة المباشرة –، ومن ثَمَّ تَمّ ارتباطٌ بين المنشئ الأول ومن هما سبب مباشر في النشأة الثانية في حياة الإنسان. . . ﴿**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم**﴾: الثالث ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم: أن لا تقتلوا أولادكم من أجل ما حلّ بكم من الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك في جاهليتهم التي كانت تحمل بعض القبائل على وأد البنات من الفقر أو خشية الفقر.

وقد ورد النهي بهذه الصيغة، وورد في سورة الإسراء بصيغة: «ولا تقتلوا

أولادكم خشية أملاق نحن نرزقهم وإياكم»؛ فالإملاق إذنْ متوقع بسبب الأولاد، لذلك قال: نحن نرزقهم وإيّاكم، فقدّم رزق الأولاد؛ لأنّهم سبب توقع الفقر، ليَكُفَّ الآباء عن هذا التوقع، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداءً مستقلاً عن رزق الآباء، وفي كلتا الحالتين تقوم الضلالة على انعدام الثقة بالله والاتصال به، فأما حين يرتبط القلب بعقيدة في الله، فما أبعده حينئذ عن التفكير في قتل حياة خلقها الله، وما أبعده عن الخوف من الفقر والرزق بيد الله!. والنهي عن قتل الأولاد يقابله الأمر بالقيام على تربيتهم التربية السليمة النافعة والقيام بكل مقومات حياتهم وما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة... **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾**: الرابع مما أتلوه عليكم من وصايا ربّكم: أن لا تقتربوا ممّا يكون سبباً في اقتراف الفواحش؛ ظاهرها وباطنها: مقدماتها وأسبابها وملابساتها. وهذا النهي يقابله الأمر بالعفة ونزاهة النفس من كل ما يؤدي بها إلى الخسة والوقاحة والدنس، وهو مفسَّر ومبيَّن في سورة الإسراء بقوله تعالى: «ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً...».

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق﴾: الخامس ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم أن لا تقتلوا النفس التي حكم الله بحرمتها وصيانتها والمحافظة عليها، وهذه النواهي والأوامر جاء بها جميع الرسل من آدم إلى محمد ومن جاء بينهما من الرسل عليهم السلام، ولهذا كانت وصية الله للناس جميعاً فهي باقية ما بقيت الأنام: **﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون..﴾** وصّاكم الله بذلك لما فيه من إعدادكم وباعث الرجاء في نفوسكم؛ لأن تعقلوا ما فيه من الخير والمنفعة في ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به. فهذا هو تشريع الله، أما تشريع المشركين في التحريم والتحليل فهو ما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر للأنظار الصحيحة فيه مصلحة...

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه﴾: السادس ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم فيما حرّم وأوجب عليكم أن لا تقربوا مال اليتيم. واليتيم ضعيف في الجماعة بفقده الوالد الحامي والمنشئ، ومن ثَمَّ يقع ضعفه على الجماعة المسلمة ـ على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي -؛ فعلى من يتولاه أن لا يقرب ماله إلاّ بالطريقة التي هي أحسن

لليتيم، فيصونه وينميه حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند اشتداد قوته الجسمية والعقلية؛ ليحمي ماله ويحسن القيام عليه. ففي الكلام نهي وأمر، وهي الطريقة التي سار عليها في هذه الوصايا. ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلاّ وسعها**﴾: السابع ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم أن توفوا الكيل والميزان بالقسط.. وهذه في المبادلات التجارية بين الناس، وهي فرع من فروع الأمانات التي أُمِرَ المسلمون أن يؤدوها إلى أهلها، ثم هي خُلُقٌ من الأخلاق الكريمة ألاّ يحاول أحد احتجاز ما ليس له أخذاً من حق غيره، ثمّ هي اليسر في التعامل والثقة التي تروج في المعاملات؛ كل ذلك في حدود الطاقة، إذ كان تحري الحق والإيفاء هو المطلوب، فأمّا ما يقع خطأً أو ما لا يمكن التحرز منه من الفروق الصغيرة التي تخفى، فليس ذلك داخلاً في الطوق «لا نكلف نفساً إلاّ وسعها»، وتلك سمة الإسلام في التيسير ما توافرت النية على إتقان العمل والوفاء به، وهذا الأمر بإيفاء الكيل والميزان يقابله النهي عن التطفيف، كما هو معلوم من آيات أخرى...

﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾: الثامن ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم أن تعدلوا في أقوالكم، وهو جامع لكل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام، وهي الشهادة والقضاء والتعديل والتجريح والمشاورة والصلح بين الناس، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات من صفات المبيعات والمؤاجرات والعيوب، وفي الوعود والوصايا والأَيْمان، وكذلك المدائح والشتائم؛ فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول. والعدل في ذلك أن لا يكون في شيء من الاعتداء على الحقوق وإبطالها أو إخفائها، وهو أمر واجب لا محيص عنه بحال من الأحوال.

وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله، فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري؛ الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد بما أنّه ضعف ناقص محدود الأجل، وفي قوة القرابة سند يضعفه كله، ومن ثَمَّ يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة عليهم أو القضاء بينهم وبين من ليسوا له بأقرباء. وهنا في هذه المزلّة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل

على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده؛ اكتفاءً به من مناصرة ذوي القربى، وتقوى به من الوفاء بحق القرابة دون حقه، وهو أقرب إلى البشر من وشائج الدماء والأنساب. وقد جاء طلب الحق في القول بجملة الأمر بالعدل دون النهي عن الظلم أو الباطل؛ لتقيده بأداة الشرط المقتضية لصدر القول؛ فالقول إذا يصدر لا يقدر أن يكون حقاً أو باطلاً، والأمر بأن يكون حقاً أوْفَى بقصد الشارع، ومقابل هذا النهي عن السكوت بدون موجب. . . ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾: التاسع ممّا أتلوه عليكم من وصايا ربّكم أن توفوا بعهد الله، وهو يشمل كل ما عهده الله تعالى إلى الناس على ألسنة رسله، وكل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، فالعهد هنا عام لكل ما شرع الله للناس، وكل ما التزمه الناس، ممّا يرضيه ويوافق شرعه، ويقابله النهي عن كل ما لا يرضاه الله من عهد، كنذر الحرام، والحلف عن فعل الحرام، والعهد على ما فيه ضرر للفرد والجماعة وغير ذلك من المعاصي. . .

﴿**ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرون**﴾: يجيء التعقيب هنا في موضعه بعد التكاليف التي أُمرتم بها ونهيتم عنها؛ رجاء أن تتذكّروا هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع. . . ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون**﴾: في هذه الآية القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية، هذه هي صراط الله المستقيم المؤدي إليه، وما عدا هذا الصراط فهي سبل متعرجة ملتوية متفرقة لا تؤدي إلاّ إلى الضلال. وقد جمع في هذه الوصية الجامعة بين الأمر بالحق والنهي عن الباطل. وقد أفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله، وجمع السبل المخالفة له؛ لأنّ الحق واحد والباطل ما خالفه، وهو كثير؛ فيشمل الأديان الباطلة من مخترعة ومزيفة ومحرّفة، والبدع والشبهات التي نسبت إلى الإسلام وليست منه؛ يتشيع لكل منها شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها، لا في الحق لذاته والاستعانة على استبانته وفهم نصوصه كما أنزلها الله وكما بيّنها رسول الله.

هذا هو الصراط الذي لا يلتوي ولا يتعرّج، هذا هو الصراط الذي قام عليه دين الله؛ جامعاً بين صحة العقيدة في الله وبين سلامة النظم الموضوعة للحياة،

وكلتاهما متصلة بالأخرى فلا يمكن الفصل بينهما. وما من شريعة تفصل نفسها عن العقيدة في الله ثم تستطيع أن تحقق أغراضها مهما تكن هذه الأغراض من السمو والارتفاع؛ ذلك أنّ أساس كل تشريع يجب أن يكون قائماً في الضمير، مرتكناً هناك على أصل ثابت لا تزعزعه الأنواء، ولا يميل مع الأهواء؛ لذلك يجيء التعقيب هنا: ﴿**ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون**﴾، فهو التقوى وهو مراقبة الله والتوجه إليه وحده دون سواه، ووقاية من الزلل والضعف والضلال. فهذه عشر وصايا جاءت على التمام والكمال!.

التوجيه الثاني: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾: هذا التوجيه يلفت إليه انتباه المستمعين، ويوجّه إليه أنظار المخاطبين يذكّرهم بما كانوا يتمنونه، وهو أن يُنزَّل عليهم كتابٌ مثل ما أنزل على اليهود والنصارى، وكانوا يقولون: لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فبيّن الله لهم هنا أنّه أنزل إليهم كتاباً جامعاً فيه من التوجيهات والأحكام أكثر وأتم وأبقى ممّا جاء به موسى: ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين**﴾.

﴿**أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربّكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممّن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون**﴾: هذا ما وجّه القرآن إليه أنظار السامعين؛ ليشهد عليهم من يسمع هذا الكلام في كل مكان ومن جميع الأجيال من بني الإنسان. وقد حكى الله عنهم ما كانوا يقولونه: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلاّ نفوراً، استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله»، وهذا التأكيد بالقسم في هذا الكلام مبني على اعتقادهم أنّهم أكمل البشر فطرةً، وأعلاهم استعداداً لكل فضيلة، وكان اعتقاداً راسخاً في عقولهم، متمكناً من وجدانهم، ومن أدلته ما رواه التاريخ لنا من المفاخرات بين بعض العرب والفرس؛ وإذا كانت قبائل العرب كلها تعتقد أنّ شعبهم أزكى من جميع الأعاجم فطرة، وأزكى أفئدة وأعز أنفساً، وأكمل عقولاً وأفهاماً، وأفصح ألسنة وأبلغ بياناً، فما

القول بقريش التي دانت لها العرب واعترفت بفضلها على غيرها منهم؟.

ولكن جمهور سادة قريش وكبراؤها قد استكبروا بذلك وعتوا عتواً كبيراً حتى كذّبوا بأعظم ما فضل الله به جيلهم وقومهم على جميع الأجيال والأقوام بالحق ـ وهو القرآن ـ وصدوا عنه وصدفوا عن آياته، فكان إقسامُهم إنّهم لو جاءهم نذير ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم المجاورة لهم حجّةً عليهم... ﴿**هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنّا منتظرون**﴾: بيّن الله تعالى في السياق الأخير من هذه السورة أصول الدين في الآداب والفضائل، في إثر تفصيل السورة لجميع أصول العقائد، وقفّى على ذلك بالإعذار إلى كفار مكة ومن تبعهم من العرب الذين يُقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم المجاورة لهم من أهل الكتاب، فلما جاءهم النذير استكبروا وزادوا نفوراً عن الإيمان، وقرن هذا الإعذار بالإنذار الشديد والوعيد بسوء العذاب في الآية التي قبل هذه الآية، وفي هذه الآية أيضاً، فإنّه حصر فيها ما أمامهم وأمام غيرهم من الأمم بما يعرّفهم بحقيقة ما ينتظرون في مستقبل أمرهم، إنّه التهديد الواضح والمستتر؛ فيوم تأتيهم الملائكة ستأتيهم لقبض أرواحهم، أو تأتيهم لتدمر قراهم وتنهي أشباحهم، ويوم يأتي ربّك سيكون ذلك يوم العقاب وتصفية الحساب، ويوم يأتي بعض آيات ربّك ستكون الخاتمة التي لا يُقبل بعدها إيمان الكافر ولا طاعة العاصي؛ لأنّها تكون فصلَ الخطاب!!. فإن كانوا يريدون الانتظار إلى ذلك الموعد فدعهم... قل انتظروا إنّا منتظرون: وفي هذا ما فيه من التهديد والوعيد الشديد!.

التوجيه الثالث: ﴿**إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾: في هذه الآية توجيه الرسول ﷺ إلى الحقيقة الكبرى التي تهمه وتهم أمته؛ من إقامة هذا الدين والوقوف حوله صفاً واحداً، وترك من غلبت عليه الشقوة، واستحوذت عليه الضلالة فتاه في فيافي الفرقة!.

إنّه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ وأمته وشريعته، وبين الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، سواء من المشركين الذين تمزقهم أوهام الوثنية شيعاً وفرقاً وعقائد

وتقاليد، أو من اليهود والنصارى ممن قسّمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً وطوائف من غير حصر ولا تحديد، أو ممن ينتسبون إلى الإسلام ثم يرقّعونه بأفكارٍ وبدَعٍ ونظم وتشريعات لا ترجع إلى أصل من أصول الإسلام لا من قريب ولا من بعيدٍ، كل أولئك؛ فلَسْتَ منهم في شيء؛ براءة كاملة وافتراق مطلق أنت وأمتك وشريعتك، لست منهم ولست مسؤولاً عنهم: «إنّما أمرهم إلى الله»، فهو يتصرف فيهم كيف يشاء، فيعودون إليه ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون. . . ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ مثلها وهم لا يظلمون**﴾: هذا ناتج عن قوله سبحانه: ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون، وهو تقرير لقاعدة الجزاء العامة بمناسبة الحديث عن الجزاء الوارد في هذه السورة كلها من إيمان وكفر وخير وشر من معروف ومنكر.

جاءت في خاتمة السورة التي بيّنت قواعد العقائد وأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأقامت عليها البراهين وفندت ما يورده الكفار عليها من الشبهات، كما بينت بالبراهين فسادَ ما يقابلها من قواعد الشرك الزائفة وأصول الكفر الهائفة، وأبطلت شبهات أهله من كل ملة وطائفة. ثم بيّنت في النهاية الوصايا بأصول الآداب والفضائل التي يأمر بها الإسلام، وما يقابلها من أصول الرذائل والفواحش التي ينهى عنها توضيحاً لحُكْمِ الحلال والحرام، فناسب بعد ذلك كله أن يبيّن الجزاء على كل منهما في الآخرَة، بعد الإشارة إلى فوائد الأمر والنهي وما فيهما من المصالح الدنيوية بما ذيلت به آيات الوصايا، وما سبق من ذكر الجزاء في أثناء السورة خير مُغْنٍ عن هذه الآية؛ لأنّه ليس عاماً كعمومها، ولا مبيناً للفرق بين الحسنات والسيّآت كبيانها.

والرحمة في هذه القاعدة بادية؛ ذلك أنّ الله واسع الرحمة، وأنّ الله يعلم ضعف البشر ويعلم النوازع التي تتجاذبهم إلى الخطيئة، وذلك هو الإسلام يعامل هذا الكائن البشري وفق تكوينه وحسب طاقاته ودوافعه، ولا يطلب إليه إلاّ أن يطلبها ويحاول، وكل محاولة ناجحة يضاعفها، وكل سقطة وإخفاق يحسبها له واحدة، وهذه تكفرها الحسنة وتمحوها: «إنّ الحسنات يذهبن السيّآت ذلك ذكرى للذاكرين». ولإظهار العدل الإلهي حصر السيئة بواحدة فقط، وهو ظاهر من قوله: فلا يجزى إلاّ مثلها، وقد جاء على هذا قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإنّ همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»؛ فأكّدها بواحدة تحقيقاً لعدم الزيادة في جزاء السيئة، وزيادة على ما ذكر أعقبه بقوله: وهم لا يظلمون؛ فلذلك سجل الله عليهم بأنّ هذا لا ظلم فيه لينصفوا من أنفسهم... **﴿قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين﴾**: قد ختم الله هذه السورة بهذه الآيات الكريمة الجامعة، فكانت خير الخواتيم في براعة المقطع.

وهذه الخاتمة مناسبة لجملة السورة في أسلوبها ومعانيها. ذلك مما امتازت به كثرة بدء الآيات فيها بخطاب الرسول ﷺ بكلمة قل؛ لأنّها لتبليغ الدعوة، كما كثر فيها حكاية أقوال أهل الشرك والكفر مبدوء بكلمة وقالوا، مع التعقيب عليها بكشف الشبهة وإقامة الحجة، فجاءت هذه الخاتمة بالأمر الأخير له ﷺ بأن يقول لهم القول الجامع لجملة ما قبله: وهو أنّ ما فُصّل في السورة هو صراط الله المستقيم، ودينه القيّم الذي هو ملّة إبراهيم، دون ما يدّعيه العرب والمشركون وأهل الكتاب المحرفون، وأنّه إنّما يدعو إليه وهو معتصم به قولاً وفعلاً وإيماناً وتسليماً على أكمل وجه، فهو أول المسلمين وأخلص الموحدين وأخشع العابدين بما جاء به من تجديد الدين، وإكماله بعد تحريفه وانحراف جميع الأمم عن صراطه المبين...

﴿قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربُّ كلّ شيء ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثُمَّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون. وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم﴾: في هذا تقرير حقيقة الربوبية وتوضيح معنى الوحدانية وخلاصة ما تتحقّق به المسؤولية، فلا أحد يغني عن أحد، وكل نفس بما كسبت رهينة وإلى الله المصير. والإنسان وحده المسؤول أمام ربّه وحده؛ فيجازيه بما خوله من وظيفة الخلافة في الأرض؛ إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره».

ملاحظة هامة تُسجّل بعد هذه الخاتمة: وجدت في تفسير المنار مقالاً يتعلق بقراءة القرآن وإهداء ثوابها بمناسبة قوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى، وهو

مقال جامع يحتاج إليه كل من يريد أن يستفيد. قال ـ رحمه الله ـ استدراك على تفسير «ولا تزر وازرة وزر أخرى» اعلم أيُّها المسلم الحريص على دينه أنّ أهل الحق من سلف الأمة، إنّما سُمُّوا بأهل السنة والجماعة؛ لأنّهم ساروا في الاهتداء بالإسلام على السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبيء ﷺ في بيان القرآن كما أمره الله تعالى بقوله: «وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم»، وتلقاها عنه بالعمل جماعة الصحابة ـ رضي الله عنهم –، وقد أصاب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في حصره حجية الإجماع الديني بإجماع الصحابة.

وما روي من الآثار في شذوذ أفراد عمّا ثبت عمل الجمهور به فلا يعتد به، فعمل الجمهور هو السنة وهم الجماعة، والأقوال وحدها لا يتبيّن بها المراد بياناً قطعياً لا يحتمل التأويل كالأفعال، فلذلك قال عليٌّ المرتضى كرّم الله وجهه لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عندما أرسله لمحاجّة الخوارج: أحملهم على السنّة، فإنّ القرآن ذو وجوه، فمراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحي للمحدّثين وسائر علماء الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها، فإنّ هذه الأخبار ذات وجوه أيضاً؛ وربما كانت وجوهها التي يتوجه إليها أهل التأويل أكثر من وجوه القرآن؛ لأنّها دونه في الفصاحة والبلاغة والبيان، ولذلك أوجز القرآن في بيان أحكام الدين العملية ووكل بيانها لعمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم –، وهو أحالها في بيانها على العمل فقال: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي».

أقول هذا تمهيداً لتذكيرك بعدم الاغترار بما لعلك اطلعت عليه أو تطلع عليه من الوجوه التي حمل عليها بعض المتفقهة والمصنفين في التفسير قوله تعالى في سورة النجم: «أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى»، فحرفوا الكلم عن مواضعه تارة بالتأويلات السخيفة، وتارة بدعوى النسخ الباطلة، وتارة بدعوى أنّ هاتين الآيتين من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعنا، وتارة بتخصيصهما بالكفار دون المسلمين. وقد غفل هؤلاء من كون مضمون الآيتين من قواعد الدين وأصول الإسلام الثابتة على ألسنة جميع الرسل، ومؤيَّداً بآيات كثيرة بلفظها ومعناها، كآية الأنعام التي نكتب هذا تتمة لتفسيرها، وآية سورة فاطر: «ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا

قربى إنّما تنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه وإلى الله المصير»، والآيات الكثيرة المعلقة للفلاح والخسر ودخول الجنة والنار بالأعمال والآيات الناطقة بأنّ الناس لا يجزون إلاّ بأعمالهم، وإنّما يجزون بأعمالهم هكذا بصيغتها لحصر الذي تعد دلالته أقوى الدلالات في بيان المراد؛ ولذلك عُبّر به عن التوحيد الذي هو أساس أركان الدين كلها.

وهذه القاعدة في الجزاء من أصول الدين، وهي مقررة للتوحيد أيضاً كما بيّنّاه في تفسيرها مفصلاً، وأشرنا فيه إلى بعض تلك الآيات. أمّا هؤلاء المقلدون من المتأخرين، فسبب غفلتهم وتأويلهم أنّهم يحاولون تصحيح كل ما فشا من البدع بين أقوامهم والمنسوبين إلى مذاهبهم، وليسوا من أهل الدليل ولكنهم لا يتركون ضلالة التأويل. وأمّا أهل النظر في أدلة المذاهب منهم فلا همّ لهم من النظر في الكتاب والسنة إلاّ أخذ ما يرونه مؤيّداً لمذاهبهم، وترك ما سواه بضرب من التأويل أو دعوى النسخ أو احتماله بغير دليل؛ ولو كان هؤلاء المقلدون العميان هم الذين جوّزوا وحدهم للناس إهداءَ عبادتهم للموتى، ولكن تابعهم على ذلك بعض علماء السنة من أهل الأثر والنظر؛ إذ ظنوا أنّ الأحاديث التي أشرنا إليها في الدعاء للموتى والإذن للأولاد بأن يقضوا ما على والديهم من صيام أو صدقة أو نسك، تدل على انتفاع الموتى بعبادات الأحياء مطلقاً غافلين عن حصر ما ورد من ذلك في الصحيح في الأولاد الذين خص الشارع المؤمنين منهم بذلك في الوقائع التي سئل عنها.

وحديث «صام عنه وليه» يتعين أن يراد بالولي منه الولد ليوافقها مع سائر الآيات؛ إذ لا يمكن تأويلها كلها وهي من الأصول الصريحة القطعية؛ لأجل حمله على عموم الأولياء وهو غير متعين. على أنّ عائشة الراوية له كانت تصرح بعدم جواز صيام أحد عن أحد عملاً بالنصوص العامة كما تقدم، وقد قال الطحاوي من علماء الأثر: إنّه منسوخ، وما قلناه أولى بجمعه بين الروايات وموافقته للآيات، ولعمل أهل المدينة الذي هو حجة مالك، وهو هنا مؤيد لعمل الصحابة عموماً وخصوصاً لا حجة مستقلة، وقد سقط بهذا الجمع كل ما يتعلق بإطلاق الجواز من الأقوال. وأمّا الدعاء لأموات المسلمين ولإحيائهم فهو عبادة لا ينتقل ثوابها من الداعي إلى المدعو له، ولم يُرْو في إهداء ثواب الدعاء شيء، بل ثوابه للداعي وحده ؛سواءً استجابه الله أم لا!.

وإنّما ينتفع المدعو له بالاستجابة. واستجابة الدعاء للأحياء والأموات لا يمكن أن تكون بما ينقض قواعد الشرع، ولا بما يبطل سنن الله تعالى في الكون بتفويض الأمر في صفته إلى الله تعالى، ونكتفي من العلم بفائدة الدعاء لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وغيرهم أنّه عبادة مشتملة على تحابّ المؤمنين وتكافلهم واهتمامهم بأمر سعادتهم في الدنيا والآخرة. وما عدا الدعاء من العبادات فإنّما ورد الإذن فيه للأولاد، وولد المرء من عمله فانتفاعه بعمله يدخل في القاعدة، لا أنّه يعارضها. ولو كان الإذن عاماً لكثر عمل الصحابة به، وروي مستفيضاً أو متواتراً عنهم؛ لتوفر الدواعي على نقله، فإنّ من دأب البشر وطباعهم الراسخة الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر موتاهم.

وقد نقل الرواة من التابعين كلَّ ما رأوه وعلموا به من أعمال الصحابة رضيّ الله عنهم.كتبت هذا لأنني بعد كتابة ما تقدم من تفسير الآية وطبعه راجعت ما كتبه العلامة المحقق ابن القيم في هذه المسألة في كتاب «الروح»، فوجدته قد أطنب فيها وأطال كعادته بما لم يطل به غيره ولا قارب، وأورد كل ما قيل، وما تصور أن يقال في إثبات وصول ثواب أعمال الأحياء إلى الأموات مطلقاً، ونفيه مطلقاً، أو مقيداً بما تسبب إليه الميت في حياته، أو بالعبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج دون غيرها كالتلاوة والصلاة، وكذا ما وقع فيه الخلاف من فروع المسألة، وذكر حجج كل فريق ورد المخالفين لهم عليها، وأكثرها نظريات باطلة؛ على سعة اطلاعه ودقة فهمه، قد غفل عن كون الأحاديث التي جعلها حجة للآيتين الوحيدة على انتفاع أموات المسلمين بأي عمل يهدى إليهم ثوابه من عمل إحيائهم، قد وردت في أعمال خاصة، ورخص للأولاد وحدهم أن يقوموا بها عن والديهم، وهو لم ينس من حجج المانعين لوصول ثواب قراءة القرآن ونحوها عدم نقل شيء من ذلك عن السلف، ولكنه ـ وهو من أكبر أنصار اتباع السنة ـ قد أجاب عن هذه الحجة بجواب ضعيف جداً.

قال: «فإنْ قيل: فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبيء ﷺ إليه، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والصيام والحج، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه. فالجواب أن مورد هذا السؤال: إن كان معترفاً

بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار، قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن، واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟. وهل هذا إلاّ تفريق بين المتماثلات؟. وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنّهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدي إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون الغير للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أنّ ثواب هذه القراءة لفلان الميت، ولا ثواب هذه الصدقة والصوم، ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل من واحد من السلف أنّه قال: اللهم اجعل ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإنّ القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله إيصال ثوابها إلى أمواتهم. فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والصدقة دون القراءة، قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم عما سوى ذلك. وأي فرق بين وصول ثواب الصيام الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟. والقائل: إنّ أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به؛ فإنّ هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه، فما يدريه أنّ السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه!. بل يكفي اطلاع علاّم الغيوب على نياتهم ومقاصدهم، ولا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم. وسر المسألة أنّ الثواب ملك للعامل؛ فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خصَّ من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على المرء أن يوصله إلى أخيه!. وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأمصار والأعصار، من غير نكير من العلماء».

أقول وبالله التوفيق والهداية: عفا الله عن شيخنا وأستاذنا المحقّق، فلولا الغفلة عن تلك المسألة الواضحة لما وقع في هذه الأغلاط التي نردها عليه ببعض ما كان يردها هو في غير هذه الحالة، وسبحان من لا يغفل ولا يعزب عن علمه شيء. أما قوله لمورد السؤال: «إذا كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام: هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن». فنجيبُ عنه على طريقتنا بأنّ المانع لذلك نصوص القرآن التي تقدمت، فهي عمل كل ما حل له دون غيره، والسائل

إنّما يعترف بأنّ النبيء ﷺ أذن لمن سأله عن قضاء صيام وحج ثبتا على أحد والديه، وكذا عن الصدقة؛ ولا سيما عمن لم يوص بها من الوالدين: فهل يفعلون ذلك عن والديهم؟.

فأذن لهم بأن يقضوا دين الله عنهم، كما يقضون ديون الناس وأن يتصدقوا عنهم، فهذه حقوق ثبتت على الوالدين، أو صدقة كان المتوقع من أحدهم الوصية بها، فقام مقامهم أولادهم فيها أو تبرعوا عنهم، فهي ليست كقراءة القرآن التي ليست مفروضة على الأعيان في غير الصلاة كالحج والصيام، ولا من الأعيان المملوكة كالمال الذي كان ملك الميت وانتقل إلى ولده أو من كسب الولد الذي عُدّ في الحديث الصحيح من كسب الوالد ـ كما يأتي قريباً -، وقد ألحقه الله تعالى به في قوله: «والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء»، وبهذا كانت غير معارضة لتلك الآيات، ولو عارضتها لكانت هي المرجوحة الساقطة بها، فبطل قوله: وهل هذا إلاّ تفريق بين المتماثلات؛ إذ العمل مختلف والعامل المأذون له به خصوصية ليست لغيره فلا تماثل.

وأمّا تعليله عدم نقل شيء من هذه الأعمال عن السلف الذي اعترف به وأيده بأنّهم كانوا يكتمون أعمال البر، فجوابه: أنّه ما من نوع من أنواع البر المشروعة إلاّ وقد نقل عنهم فيه الكثير الطيب ـ حتى الصدقات التي صرح القرآن بتفضيل إخفائها على الإبداء تكريماً للفقراء وستراً عليهم، ولما قد يعرض فيها من المنّ والأذى والرياء المبطلة لها ـ وقراءة القرآن للموتى ليست كذلك، حتى إنّ المراآة بها مما لا يكاد يقع؛ لأنّ الذي يقرأ لغيره لا يعد من العباد الممتازين على غيرهم فيكتمه خوف الرياء، ثم أين الذين نصبوا أنفسهم للإرشاد والقدوة بالإسوة إلى الخير من الصحابة والتابعين لِمَ لَمْ يؤثر عنهم قولٌ ولا فعل في هذا النوع من البر الذي عم بلاد الإسلام بعد خير العصور لو كان مشروعاً!. فهل يمكن أن يقال: إنّهم كانوا يتركون الأمر بالبر كما قيل جدلاً: إنّهم أخفوا هذا النوع منه وحده!. كلا إنّهم كانوا هُدَاةً بأقوالهم وأفعالهم وتأثير الأفعال في الهداية أقوى.

وأمّا تعليله تخصيص الإذن في الأحاديث بالصوم والصدقة والحج دون القراءة بقوله: إنّ النبيء ﷺ لم يبتدئْهم بذلك بل خرج مخرج الجواب ولم يمنعهم عما

سوى ذلك ولا فرق بين الصوم والقراءة، فجوابه أنّ عدم ابتداء الرسول ﷺ إيّاهم بذلك على إطلاقه دليل على أنّه ليس من دينه، وإلاّ لم يكن مبيناً لما أُنزل إليه كما أُمر به، وهذا محال. وسؤال أولئك الأفراد إيّاه دليل على أنّهم لم يكونوا يعلمون من نصوص الدين أولاً من السنة العملية ما يدل على شرعيته؛ فلذلك استفتوه فيه، ولم يستفتوه في العمل عن غير الوالدين، لنص القرآن في منعه.

وأمّا الفرق بين وصول ثواب الصيام ووصول ثواب الذكر فقد بيّنّا آنفاً أنّه لا دليل على وصول ثواب الصيام مطلقاً من كل من يصوم على الميت، حتى يقاس عليه غيرُه؛ لأنّ ما ذكر من أحاديثَ خاصٌّ بالقضاء من الولد نيابة عن الوالد، وليس فيه أنّ عمله لنفسه أهدى ثوابه لغيره كما تقدم، على أنّ هذا ممّا ورد على خلاف القياس، فلا يقاس عليه. وأمّا قوله: إنّ القائل بأنّ أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به. .الخ، فجوابه إنّ الذي يثبت ما ذكر للسلف أجدر بقول ما لا علم له به، وناهيك به إذا كان معترفاً بأنّه لم ينقل ذلك عن أحد منهم، والنفي هو الأصل، وحسب النافي نفيه للنقل عنهم في أمر تدل الآيات الصريحة على عدم شرعيته، ويدل العقل وما علم بالضرورة من سيرتهم أنّه لو كان مشروعاً لتواتر عنهم أو استفاض.

وأما قوله: وسر المسألة أنّ الثواب ملك للعامل. .الخ، فلم نكن ننتظره من أستاذنا ومرشدنا إلى اتباع النقل في أمور الدين دون النظريات والآراء، على أنّ هذه القاعدة النظرية غير مسلمة؛ فإنّ الثواب أمر مجهول بيد الله تعالى وحده كأمور الآخرة كلها، فإنّها من عالم الغيب الذي لا مجال للعقل فيها، وما وعد الله تعالى به المؤمنين الصالحين المخلصين له الدين من التواب على الإيمان والأعمال بشروطها لا يعرفون كنهه ولا مستحقه على سبيل القطع؛ ولذلك أمروا بأن يكونوا بين الخوف والرجاء. ولا يوجد في الآيات ولا الأخبار الصحيحة ما يدل على أنّ العامل يملك ثواب عمله، وهو في الدنيا كما يملك الذهب والفضة، أو القمح والتمر فيتصرف فيه كما يتصرف فيها بالهبة والبيع، بل ذلك جزاءٌ بيد الله تعالى أعدّه للذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب تأثير الإيمان والعمل في إعداد أنفسهم له؛ بتزكيتها وجعلها أهلاً لجواره ورضوانه كما قال تعالى: «ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى»، وقال: «قد أفلح من تزكى»، «قد أفلح من زكاها»، «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»، وقال: «سيجزيهم وصفهم»؛ فذكر الوصف على إطلاقه، وذكر في آيات أخرى الصفات العامة التي هي مصدر جميع الأعمال، وهي الصبر والشكر والصدق، ومنها ما ذكر بصيغة الحصر.

فهذه الآيات الكثيرة الصريحة المعنى المعقولة الحِكْمة وسائر آيات الجزاء والآيات المنافية للعدل والفداء، والآيات المنافية لملك نفس لنفس شيئاً من الأشياء في الآخرة، تؤيد كلها آيات الأنعام التي نحن بصدد تفسيرها، وآيات النجم وغيرها، وتبطل دعوى ملك الإنسان لثواب عباداته وتصرفه بها، ولو كان الثواب كالمال يوهب لكان يُباع ويشترى، ولو كان كذلك لكان كثير من الفقراء يبيعون ثواب كثير من أعمالهم للأغنياء، وحاش لله ولحِكْمة دينِه من ذلك. وعمل الخلْف وحده في أمر تعبدي كهذا لا حجة فيه، على أنّهم لم يجمعوا عليه، فإن قيل: إنّ انتفاع الميت بعمل أولاده ينافي القاعدة التي ذكرتها في الجزاء أيضاً، فإنّ من لم يزك نفسه في الدنيا بالإيمان والأعمال الصالحة وما تطيعه في النفس من الصفات والأخلاق الحسنة لا يزكيها عمل أولاده من بعده، قلنا: نعم، إنّ هذا هو الأصل، ولكن من بيده أمر الثواب والعقاب استثنى من عموم هذا، لا بل ألحق به شيئاً لا ينقضه ولا يذهب بحِكْمَتِه، وهو انتفاع بعض الوالدين المؤمنين ببعض عمل أولادهم، أو جعله منهم بالتبع والسببية كما أدخل في عمومه انتفاع من سن سنة خير من علم أو عمل، بعمل من استن بسنته وعمل بعلمه أو اقتدى بعمله، من غير أن ينقص من ثواب هؤلاء وأولئك شيء، كما ثبت في حديث الصحيحين.

وروى أصحاب السنن وغيرهم بأسانيد يحتج بها، أنّه ﷺ قال: أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه، وفي رواية: «ولد الرجل من أطيب كسبه فكلوا من أموالهم»، وقال ﷺ لمن ذكر له أنّ والده يحتاج إلى ماله: «أنت ومالك لأبيك» رواه ابن ماجه بسند صحيح. وجملة القول: إنّ ثواب الأعمال ليس أعياناً مملوكة للعامل يتصرف فيها كما يشاء، بل هو جزاء من فضل الله تعالى، وهو نوعان: أحدهما ما يكون مرتباً على تأثير الأعمال في تزكية النفس مباشرة، وهو ما

بيناه آنفاً. وثانيهما ما يترتب على الأعمال التي يتعدى فيها نفع العامل إلى غيره، كالسنة الحسنة، والصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح الذي يدعو له، أو يقضي دين الله أو الناس أو يتصدق عليه.

وتقدمت الأحاديث الصحيحة في ذلك، وهذه تكون بقدر انتفاع الناس من هذه الأعمال، لا بحسب تأثير العامل في السببية لها عند مباشرته للسبب كتأليف الكتاب وتربية الولد. وفوق ذلك كله مضاعفة الله لمن يشاء بفضله. خلاف العلماء في المسألة: الخلاف بين العلماء في المسألة مشهور. وقد ذكره ابن القيم في أول المسألة إلى 16، وهي: هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟. وذكر في الجواب أنّها تنتفع من سعي الأحياء في أمرين مجمع عليهما من أهل السنة: أحدهما ما نُسِبَ إليه في حياته. والثاني دعاء المسلمين له واستغفارهم له. قال: والصدقة والحج على نزاع: ما الذي يصل من ثوابه؟. هل هو ثواب الإنفاق أم ثواب العمل؟. فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه، وعند بعض الحنفية إنّما يصل ثواب الإنفاق. ثم ذكر اختلافهم في العبادة البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر.

وزعم أنّ مذهب أحمد وجمهور السلف وصولها، واستدل على مذهب أحمد بأنّه قيل له: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه، قال: أرجو. وأنت ترى أنّ الإمام أحمد رحمه الله لم يجزم بالجواب، وأنّ موضوع السؤال انتفاع الوالدين بعمل الولد خاصة، وليس في رجائه خروج عن النص إلاّ في مسألة الصلاة. ثم قال: والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أنّ ذلك لا يصل. وذكر أنّ بعض أهل البدع من المتكلمين أنّه لا يصل إلى الميت شيء لا دعاء ولا غيره. أقول: راجعت بعد كتابة ما تقدم كتاب الفروع من كتب الحنابلة فرأيت فيه خلافاً كثيراً في هذه المسألة عند علماء الحنابلة وغيرهم، أحسنه وأولاه باتباع السنة قول شيخ الإسلام قدس الله روحه في بحث إهداء الثواب، وقد ذكر قبله كلاماً في عدم جواز الإيثار بالفضائل والدين للوالدين، وقول بعضهم بجواز بعضه في حال الحياة، كتقديم والده في الصف الأول.

وكلاماً في الفرق بين الإيثار بما أحرزه وما لم يحرزه. ثم قال: «وقال

شيخنا: لم يكن من عادة السلف إهداء ذلك إلى موتى المسلمين، بل كانوا يدعون لهم فلا ينبغي الخروج عنهم، ولهذا لم يره شيخنا أنّ له أجر العامل، كالنبيء ﷺ معلم الخير، بخلاف الوالد لأنّ له أجراً لا كأجر الولد؛ لأنّ العامل يثاب على إهدائه فيكون له مثله أيضاً. فإن جاز إهداؤه فهلم جرا، ويتسلسل ثواب العامل الواحد. وإن لم يجز فما الفرق بين عمل وعمل؟. وإن قيل: يحصل ثوابه مرتين للمهدى إليه ولا يبقى للعامل ثواب فلم يشرع الله لأحد أن ينفع غيره في الآخرة، ولا ينفعه له في الدارين فيتضرر ـ كذا ـ، ولا يلزم دعاؤه له ونحوه، لأنّه مكافأة له كمكافأته لغيره، ينتفع به المدعو له، وللعامل أجر المكافأة، وللمدعو له مثله، فلم يتقرر ولم يتسلسل ولا يقصد أجره إلاّ من الله» انتهى. وذكر أيضاً أنّ أقدم من بلغه أنّه أهدى للنبيء ﷺ عليُّ بن الموفق أحد الشيوخ المشهورين من طبقة أحمد وشيوخ الجنيد، ثم نقل صاحب الفروع عن تاريخ الحاكم مثل ذلك عن أبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري، وقد بيّنا أنّ الصحابي إذا انفرد بقول أو عمل لا يعد أحد من المسلمين قوله أو عمله حجّة، أو يتخذه قدوة فيه، فكيف بمن بعد تابع التابعين؛ فكيف إذا كان ذلك مخالفاً للنصوص الصريحة من الكتاب والسنة.

وقد ذكر ابن عابدين ـ محرّر مذاهب الحنفية ـ هذه المسألة في أواخر تنقيح الفتاوى الحامدية؛ فذكر إجماع العلماء على نفع الدعاء وخلافهم في وصول ثواب القراءة واختيار الوصول، والاستدلال عليه بحديث: «إذا مات العبد انقطع عمله. . . الخ»، وهو لا يدل عليه بإطلاق بل على عدمه كما علمت. ثم ذكر أنّ الحافظ ابن حجر سُئِلَ عمن قرأ شيئاً من القرآن، وقال في دعائه: اللهم اجعل ثواب ما قرأته، أو مثل ثواب ما قرأته زيادةً في شرف سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فما معنى الزيادة في شرفه مع كماله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. قال: فأجاب بقوله: هذا مخترع من متأخري القُرّاء لا أعرف لهم سلفاً؛ ولكنه ليس بمحال كما تخيله السائل، فقد ذكر في رؤية الكعبة: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً. .الخ، فلعل المخترع المذكور قاسه على ذلك، وكأنّه لحظ أنّ طلب الزيادة أن تقبل قراءته؛ فيثيبه عليها، وإذا أثيب أحد من الأمة على فعل طاعة من

الطاعات كان للذي علّمه نظير أجره، وللمعلم الأول وهو الشارع ﷺ جميع ذلك. فهذا معنى الزيادة في شرفه، وإنّ كان شرفه مستقراً حاصلاً. انتهى. ونقول: حَسْبُنَا من الحافظ أثابه الله أنّ هذا مخترع من بعض المتأخرين لم يرد عن أحد من سلف الأمة، فهو إمام النقل وحافظ السنة بلا نزاع. وأمّا قياس هذا الدعاء على دعاء بزيادة شرف البيت فهو قياس في أمر تعبديّ لا مجال له.

وقد يُفرّق بينهما: فإنّ معنى زيادة شرف البيت وتعظيمه حقيقة واقعة بكثرة من يحجه ويعبد الله فيه، وزيادة ثواب المعلم المرشد بعمل من أخذ بعلمه وهديه لا يسمى شرفاً في اللغة إلاّ بضرب من التجوز، على أنّه ليس مما نحن بصدده. ثم قال ابن عابدين: وقد أجاز بعض المتأخرين كالسبكي والبارزي وبعض المتقدمين من الحنابلة كابن عقيل تبعاً لعلي بن الموفق، وكان في طبقة الجنيد، ولأبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري من المتقدمين إهداء ثواب القرآن له - عليه الصلاة والسلام - الذي هو تحصيل الحاصل، والعز بن عبدالسلام من المجيزين. وقال ابن تيمية: لا يستحب بل هو بدعة. وقال ابن قاضي شهبة: يمنع.

وابن العطار: ينبغي أن يمنع. وقال ابن الجزري: لا يُرْوَى عَن السلف، ونحن بهم نقتدي. ثم قال بعضهم: بجوازه بل باستحبابه قياساً على ما كان يُهدى إليه في حال حياته من الدنيا، وعلى طلبه الدعاء من عمر - رضي الله عنه - عند إرادته العمرة، وحثّ الأمة على الدعاء له بالوسيلة عند الأذان. ثم قال: فإنْ لم تفعل ذلك فقد اتبعت، ، وإن فعلت فقد قيل به. انتهى كلام ابن الجزري. وقال الكمال ابن حمزة الحسيني: الأحوط الترك، من كنز الراغبين للبرهان الناجي ملخصاً. فهذا ملخص ما ذكره ابن عابدين.

وحيا الله مرجحي اتباع السلف من هؤلاء العلماء كلهم، وليس هو الأحوط فقط، بل المتعين الذي يرد كل ما خالفه، ويضرب بأقيسة المخالفين عرض الحائط، لا لمخالفتها هدى سلف الأمة فقط، بل لظهور بطلانها ومصادمتها للنصوص أيضاً؛ فإنّ قياس إهداء العبادات أو ثوابها في الآخرة على إهداء متاع الدنيا قياس مع الفارق، والفرق بينهما كالفرق بين العبادة والعادة، وبين الدنيا والآخرة، فكيف وهو مصادم للنص؟. وحسبنا اتباع السلف في فهم القرآن والعمل به

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

ثم أقول: وقد اضطرب كلام الشوكاني من أئمة فقه الحديث عند الكلام على أحاديث المسألة في مواضع فاغتر بالإطلاق، ولكنه اهتدى إلى الصواب فيما كتبه على أحاديث المنتقى في باب ما يهدى من القرب إلى الموتى، وكلها واردة في تصدّق الأولاد عن الوالدين كما تقدم في الصيام والحج، قال: وأحاديث الباب تدل على أنّ الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى».

ولكن ليس في أحاديث الباب إلاّ لحوق الصدقة من الولد، وقد ثبت أنّ ولد الإنسان من سعيه، فلا حاجة إلى التخصيص، وأمّا من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنّه لا يصل ثوابه إلى الميت؛ فيوقف عليها حتى يأتي دليل يقتضي تخصيصها، ثم ذكر خلاف العلماء في المسألة. هذا وإنّنا نختم هذا البحث بأحاديث اغتر بها بعض القائلين بانتفاع الموتى بكل ما يعمل لأجلهم، أو يهدى إليهم من ثواب غيرهم:

1 ـ حديث وضع النبيء ﷺ الجريدتين على القبرين اللذين أوحي إليه أنّ أصحابهما يعذبان. قال بعضهم: إنّه يستأنس به لانتفاع الموتى بعمل الأحياء، ولم يقل: إنّه يدل على ذلك. ونحن نقول: إنّه لا يقوم دليلاً ولا استئناساً؛ فإنّه واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى، والظاهر فيه أنّه من خصائص النبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

2 ـ حديث ابن عباس عن أبي داوود وابن ماجه «أنّ النبيء ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة. قال: من شبرمة؟. قال: أخ لي، أو قريب لي. قال: حججت عن نفسك؟. قال: لا. قال: حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة». قال الحافظ في بلوغ المرام: صححه ابن حبان، والراجح عند أحمد وقْفُه. وفي عون المعبود: رجح الطحاوي وقفه، وقال أحمد: رفعه خطأ. وقال ابن المنذر: لا يثبت رفعه. وأقول: إنّ في سنده قتادة عن عزرة، ولم ينسب عزرة إلى والد ولا بلد. وقد قال النسائي: إنّ عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بالقوي!. فترجح بهذا أنّه عزرة بن تميم، لأنّ قتادة قد انفرد بالرواية عنه كما قال الخطيب ذكر ذلك في

التهذيب. وقال الحافظ في تهذيب التهذيب في ترجمة عزرة بن عبدالرحمن: وأمّا الحديث الذي رواه أبو داوود وابن ماجه من طريق عبدة بن سليمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عزرة عن سعيد بن جبير في قصة شبرمة، فوقع عندهما عزرة غير منسوب.

وجزم البيهقي بأنّه عزرة بن يحيى، ونقل عن أبي علي النيسابوري أنّه قال: روى قتادة أيضاً عن عزرة بن ثابت، وعن عزرة بن عبدالرحمن، وعن هذا. فقتادة قد روى عن ثلاثة كل منهم اسمه عزرة، فقول النسائي في التمييز: عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بذلك القوي، لم يتعين في عزرة بن تميم كما ساقه فيه المؤلف فليتفطن لذلك. قلت: وعزرة بن يحيى لم أر له ذكراً في تاريخ البخاري. ونقول: قد تفطّنّا لما ذكره الحافظ فوجدنا لجرح النسائي له مخرجاً، وهو أنّ كلاً من عزرة بن ثابت وعزرة بن عبدالرحمن قد وثقا، والنسائي ممّن وثقوا الأول، فتعين أن يكون المجروح غيرهما، فهو إمّا ابن تميم، وإمّا ابن يحيى المجهول، فكيف نأخذ بحديث موقوف انفرد به مثل هذين الراويين في مسألة مخالفة لنصوص القرآن الكثيرة.

3 ـ حديث معقل بن يسار «اقرءوا يس على موتاكم». قال في المنتقى: رواه أبوداوود وابن ماجه وأحمد، ولفظه: «يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلاّ غفر له، واقرءوها على موتاكم». قال الشوكاني في شرحه له: الحديث أخرجه النسائي وابن حبان، وصححه وأعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه في السند. وقال الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديثاً.

أقول: إنّ اللفظ الأول للحديث لأبي داوود، والأخير لأحمد فيما يظهر، فإنّ لفظ ابن ماجه «اقرءوها عند موتاكم» يعني يس. والنسائي لم يخرجه في سننه بل في عمل اليوم والليلة. وابن حبان يتساهل في التصحيح فيثبت في تصحيحه وإن لم يوجد نص للنقاد في معارضته فيه، فكيف إذا صرح جهابذة النقاد بمعارضته، والجرح مقدم على التعديل؟ فكيف إذا كان الحديث الذي صرحوا بعدم صحته مخالفاً للآيات الصريحة وما في معناها من الأحاديث الصحيحة؟. ولكن الذين أخذوا قول بعض العلماء بجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، لا

يميزون بين فضائل الأعمال التي تشملها النصوص العامة، وبين ما تدل هذه النصوص على عدم جوازه، بل على حظره وكونه بدعة مخالفة لأصول الشريعة، ولذلك نجد قراءة سورة يس على القبور قد عم المشارق والمغارب، وصار كالسنن الصحيحة المتبعة لما للأنفس من الهوى في ذلك.

ثم إنّ معنى الحديث على عدم صحته متناً وسنداً القراءة عند الميت؛ أي الذي حضره الموت، كما صرح به رواة الحديث ابن حبان وغيره، وصرحوا بأنّ حكمته سماع ما في السورة من ذكر البعث ولقاء الله تعالى، ليكون آخر ما تشتغل به نفس الميت. وقد أورده أبوداوود في (باب القراءة عند الميت)، وابن ماجه في (باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا احتضر). وقال صاحب عون المعبود شرح سنن أبي داوود عند عبارة (على موتاكم)، أي: الذين حضرهم الموت. ولعل الحكمة في قراءتها أن يستأنس المحتضر بما فيها من ذكر الله وأحوال القيامة والبعث.

قال الإمام الرازي في «التفسير الكبير»: الأمر بقراءة يس على من شارف الموت، مع ورود قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس إيذان بأنّ اللسان حينئذ ضعيف القوة وساقط المُنّة لكن القلب أقبل على الله بكليته فيقرأ عليه ما يزاد به قوة قلبه ويشتد تصديقه بالأصول، فهو إذاً عمله ومهمه. قاله القارئ!. هذا منقول بالمعنى وهو محرف في عون المعبود. وأقول: إنّ ابن القيم ذكر هذا الحديث في أوائل كتاب الروح، وحقق هذا المعنى الذي قاله علماء المنقول وعلماء المعقول بما أربى به على الفريقين. قال ـ نفعنا الله بعلومه ـ: وفي النسائي وغيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي ﷺ أنّه قال: «اقرءوا يس عند موتاكم». وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته، مثل قوله: لقنوا موتاكم لا إله إلاّ الله، ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر. والأول أظهر لوجوه: أحدها: أنّه نظير قوله: لقنوا موتاكم لا إله إلاّ الله.

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله: «ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين»، فيستبشر الروح بذلك فيحبُّ لقاء الله فيحبُّ الله لقاءه؛ فإنّ هذه السورة قلب القرآن، ولها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال: كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق، وكان آخر عهد نابه أنّه نظر إلى السماء وضحك وقال: «ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين» وقضى. الثالث: أنّ هذا عمل الناس وعادتهم قديماً وحديثاً يقرأون يس عند المحتضر. الرابع: أنّ الصحابة لو فهموا من قوله ـ صلى الله عليه وسلم -: اقرءوا يس عند موتاكم قراءتها عند القبر لما أخذوا به، وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم. الخامس: أنّ انتفاعه باستماعها حُضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأمّا قراءتها عند قبره فإنّه لا يثاب على ذلك؛ لأنّ الثواب إمّا بالقراءة أو بالاستماع، وهو عمل وقد انقطع من الميت!.

أقول: هذا التحقيق كاف في بابه، ولا ينافيه ما ذكره قبله، في قراءة فاتحة البقرة وخاتمتها عند رأس الميت عند دفنه، وهو أثر مروي عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّه أوصى به؛ فإنّه في معنى تلقين التوحيد قبل الموت وهو صحيح، والتلقين بعد الدفن، والحديث فيه ضعيف. وإلاّ فهو باطل، وقد انفرد بروايته مبشر الحلبي عن عبدالرحمن بن العلاء اللجلاج، ولم يرو عن عبدالرحمن أحد غير مبشر هذا. وغاية ما قالوا فيه: إنّه مقبول. وليس له في دواوين السنة غير حديث واحد عند الترمذي، والصواب أنّه لا ينقص قول الإمام أحمد: إنّ القراءة عند القبر بدعة. وإنّما يخصص عمومه بورود القراءة عن بعضهم عند دفن الميت فقط على مافيه من الشذوذ.

وممّا ذكرناه يُعلم سبب اختلاف الحنابلة في المسألة. قال ابن مفلح في كتاب الفروع: فصل: لا تكره القراءة على القبر وفي المقبرة. نُصّ عليه. اختاره أبوبكر والقاضي وجماعة، وهو المذهب، خلافاً للشافعي. وعليه العمل عند مشايخ الحنفية، فقيل: تباح، وقيل: تستحب. قال ابن تميم: نُصّ عليه، كالسلام والذكر والدعاء والاستغفار، وعنه: لا يكره وقت دفنه، وعنه: يكره. اختاره عبدالوهاب الوراق وأبو حفص، وفاقاً لأبي حنيفة ومالك. قال شيخنا: نقلها جماعة، وهو قول جمهور السلف وعليها قدماء أصحابه: أصحاب أحمد.

قال ابن عقيل: أبو حفص يُغلّب الحظر؛ كونها حراماً. ثم ههنا ذكر وصية ابن عمر بقراءة فاتحة البقرة وخاتمتها على رأسه عند دفنه التي هي سبب رجوع

أحمد عن حظر القراءة مطلقاً، والخلاف في نذر القراءة بناء على هذا الخلاف، وقول المروذي بناء على الحظر فيمن نذر أنْ يقرأ عند قبر أبيه: يكفر عن يمينه ولايقرأ. ثم قال: وعنه: الإمام أحمد: بدعة؛ لأنّه ليس من فعله ـ صلى الله علي وسلم ـ وفعل أصحابه. فعلم أنّه محدث. وسأله عبدالله «ابنه»: يحمل مصحفاً إلى المقبرة فيقرأ فيه عليه؟. قال: بدعة. قال شيخنا: ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين: إنّ القراءة عند القبر أفضل، ولا رخص في اتخاذه عبداً كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم أو الذكر أو الصيام.

قال: واتخاذ المصاحف عندها ـ ولو للقراءة فيها ـ بدعة، ولو نفع الميت لفعله السلف!. ولهؤلاء العلماء الأعلام نصوص في بطلان الوقف على قراءة القرآن عند القبور، كبطلانه على ما نهى عنه الشرع من تشييدها والبناء عليها وإيقاد السرج عليها، ونحو ذلك من البدع التي صارت عند الجماهير في عداد السنن، بل يهتمون لها ما لا يهتمون للفرائض؛ للأهواء الموروثة في ذلك. وإذ قد علمت أنّ حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح ـ وإن أريد به من حضرهم الموت ـ، وأنّه لم يصح في هذا الباب حديث قط. كما قال المحقق الدارقطني، فاعلم أنّ ما اشتُهِرَ وعَمَّ البدْوَ والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف، فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية؛ ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وبإقرارهم له، ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكّدة، أو الفرائض المحتمة. وخلاصة القول: أنّ المسألة من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح.

وقد علمنا أنّ القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة، والأحاديث الصحيحة أنّ الناس لا يجزون في الآخرة إلاّ بأعمالهم: «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً»، «واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً»، وأنّ النبي ﷺ بلغ أقرب عشيرته إليه بأمر ربّه: أن اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئاً، فقال ذلك لعمه، ولعمته، ولابنته سيدة النساء. وأنّ مدار النجاة في الآخرة على تحلية النفس بالإيمان والعمل الصلح، والثواب ما يثوب ويرجع إلى العامل من تأثير عمله في نفسه. .الخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة

والأحاديث فيه. وكل ذلك من الأخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ.

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم في صلاة الجنازة وفي غيرها، فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا. ويستحيل شرعاً وعقلاً استجابة كل دعاء، لتناقض الأدعية، ولاقتضاء الاستجابة ألاّ يعاقب فاسق ولا مجرم إلاّ إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة في صلاة ولا غيرها، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها.

وورد في الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين، ودعائهم لهما، وقضاء ما وجب عليهما من صيام أو صدقة أو نسك، وقد بينّا حكمته مع النصوص فيه. والظاهر من هذا أنّ الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما؛ لأنّ الشارع ألحقهم بهما فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين الله تعالى كديون الناس، وينالهما من دعائهم لهما خير، ليس هو ثواب لدعاء نفسه، ولكن مدار الجزاء والنجاة على عمل المرء لنفسه، لا على عمل أولاده جمعاً بين النصوص. فمن أراد أن يتبع الهدى، ويتقي جعل الدين تابعاً للهوى، فليقف عند النصوص الصحيحة، ويتبع فيها سيرة السلف الصالح، ويعرض عن أقيسة بعض الخلْف المروّجة للبدع. وإن زيّن لك الشيطان أنّه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملاً بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التي يضعف الخلاف فيها، وانظر أين مكانك منها؟.

فإن رأيت ولو بعين العجب والغرور أنّك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها، فعند ذلك تعذر في الزيادة عليها، وهيهات هيهات لا يدعي ذلك إلاّ جهول مفتون، أو من به مسٌّ من الجنون، وأنّ أكثر المتعبدين بالبدع مقصرون في أداء الفرائض، أو في المواظبة على السنن، ومنهم المصرّون على الفواحش والمنكرات كإصرارهم على ما التزموا في المقابر من العادات، كاتخاذها أعياداً تُشدُّ إليها الرحال، ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال؛ ولا سيما ليلتي العيدين وأول جمعة من رجب، وتذبح عندها الذبائح، وتطبخ أنواع المآكل، فيأكلون ثم يشربون ويبولون ويتغوطون ويلغون ويصخبون، ويقرأ لهم القرآن مَنْ يستأجرون لذلك من العميان، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون.

وإذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هنالك من البدع المنكرة، وكان بعض

المباحات بعد هنالك من الأمور المكروهة أو المحرمة، فما القول في سائر أعمالهم الظاهرة والباطنة؟. ولو لم يرد في حظر هذه الاجتماعات في المقابر إلاّ حديث ابن عباس في السنن الثلاث مرفوعاً بسند صحيح «لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» لكفى. ولكن ذلك كله قد صار من قبيل شعائر الدين وآيات اليقين؛ توقف له الأوقاف التي يسجلها ويحكم بصحتها قضاة الشرع الجاهلون، ويأكل منها أدعياء العلم والعرفان الضالون المضلون. ولقد كان بعض الصحابة وغيرهم من علماء السلف يتركون بعض السنن أحياناً، حتى لا يظن العوام أنّها مفروضة بالتزامها تأسّياً بالرسول ﷺ إذ ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من الفرائض، فخلف من بعدهم خلف قصروا في الفرائض، وتركوا السنن والشعائر، وواظبوا على هذه البدع حتى إنّهم ليتركون لأجلها الأعياد والجمع، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم!. نقلت هذا البحث المفيد من قول الرشيد في تفسيره الفريد؛ لأنّه جامع لكل ما قيل ويقال في البدع التي عمت البلاد وأضلت العباد. وبهذا يتم البحث من توجيهات سورة الأنعام، ونسأل الله تعالى حسن الختام.

المناسبة التي تربط بين السورتين: لما كانت سورة الأنعام موضحة لبيان الخلق، وفيها «هو الذي خلقكم من طين»، ولبيان القرون التي مضت: «كم أهلكنا من قبلهم من قرن»، وأشير فيها إلى ذكر المرسلين، وتعداد الكثير منهم، وكان ما ذكر على سبيل الإجمال. جيء بسورة الأعراف بعدها مشتملة على شرحه وتفصيله فبسط فيها قصة آدم، وفصلت قصص المرسلين وأممهم، وكيفية إهلاكهم أكمل تفصيل. ويصلح هذا أن يكون تفصيلاً لقوله تعالى: «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض»، ولهذا صدر السورة بخلق آدم الذي جعله خليفة في الأرض، وقال في قصة عاد: «جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»، وفي قصة ثمود: «جعلكم خلفاء من بعد عاد»، وأيضاً فقد قال سبحانه: «كتب ربّكم على نفسه الرحمة» في سورة الأنعام وهو كلام موجز، وبسطه في الأعراف بقوله تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون». وأما وجه ارتباط أول سورة الأعراف بآخر سورة الأنعام، فهو أنّه قد تقدم «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه»، «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه»، وافتتح سورة الأعراف بالأمر باتباع الكتاب.

وفي الأنعام: «ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»، «ثم إلى ربّكم مرجعكم فينبئكم

بما كنتم فيه تختلفون»، قال في مفتتح سورة الأعراف: «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين»، وذلك من شرح التنبئة المذكورة. وقال: «من جاء بالحسنة»، وذلك لا يظهر إلاّ في الميزان؛ افتتحت سورة الأعراف بذكر الوزن: «والوزن يومئذ الحق. . . الخ». هذا هو الرابط المشترك بين السورتين الذي يظهر واضحاً لكل ناظر فيه. ثم تتميز سورة الأعراف بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التي تعالجها، والسياق الذي تسير فيه، واللمسات التي تتخذها والتي تصور الجو العام للسورة. ولكل سورة من المكيات والمدنيات سواء موضوع رئيسي أو أكثر تعالجه على نحو معين، ولها كذلك جو معين يظلل الموضوعات التي تعالجها ويساوقه ويتناسق معه. وموضوع سورة الأعراف الرئيسي هو الإنذار؛ إنذار من يتولون غير الله، ومن يكذبون بآيات الله، ومن يستكبرون عن طاعة الله، ومن ينسون الله، ومن لا يشكرون نعمة الله؛ إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، ذلك فوق الخزي والهوان والنسيان. وهو ما يتخلل السورة من القصص والمشاهد على طريقة القرآن من توجيه الأنظار والقلوب، ومن الدعوة إلى التوبة والاستغفار قبل أن يحلّ العقاب؛ فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام.

4 ـ موضوعات سورة الأعراف تتفق مع سورة الأنعام في الأهداف



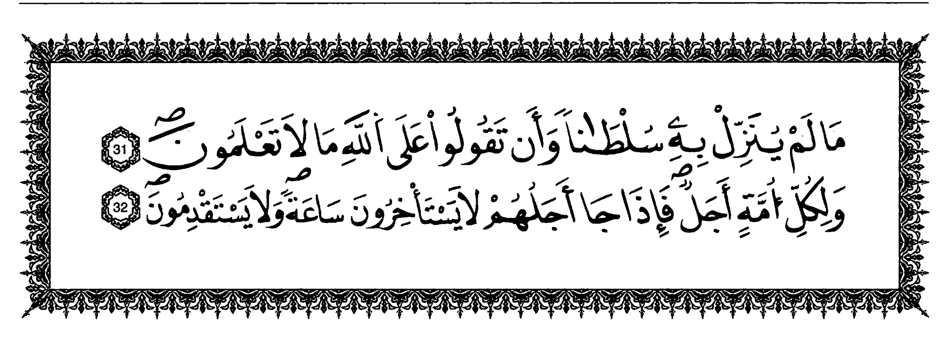
النص

بسم الله الرحمن الرحيم

* الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿1﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿2﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿3﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿4﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿5﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿6﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿7﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿8﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿9﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿10﴾

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (11) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (12) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (13) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (14) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (15) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (16) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (17) * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (18) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (19) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (21) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (22) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (23) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا

تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿24﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ
لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿25﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ
إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿26﴾
وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ
قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿27﴾
۞ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۖ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿28﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿29﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿30﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا
وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ألمص**﴾: أسماء أربعة حروف من حروف الهجاء ابتدئت بها سورة الأعراف، كما ابتدئت بثلاثة منها سورتا البقرة وآل عمران، وقدمنا المختار من الغرض في ابتداء بعض السور بهذه الحروف في ابتداء سورة البقرة... ﴿**كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه**﴾: أنّ الله أنزل إليك القرآن لا ليكون في صدرك ضيق منه، بل لينشرح صدرك به. والحرج: حقيقته المكان الضيق من الغابات الكثيرة الأشجار، بحيث يعسر السلوك فيه، وأطلق الحرج هنا على ضيق الصدر وغمّه... ﴿**لتنذر به وذكرى للمؤمنين**﴾: الإنذار: الإعلام المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة. والذكرى: التذكر النافع والموعظة المؤثرة.

﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون**﴾: حقيقة الاتّباع: المشي وراء ماش. والمراد بما أنزل هو الكتاب المذكور بقوله: كتاب أنزل إليك. والأولياء: جمع ولي، وهو الموالي بمعنى الملازم والمعاون، ويطلق على الناصر والحليف والصاحب الصادق المودّة. والأولياء المنهي عن اتباعهم هنا: الأصنام وسدنتها والدّاعين إلى عبادة غير الله تعالى... ﴿**وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون**﴾: كم هنا خبرية تفيد الكثرة. والقرية: الموضع الذي يجتمع فيه الناس للاستقرار والسكن. والإهلاك: الإفناء والاستئصال. والبأس: شدة ما يحصل من ألم المصائب المفاجئة. والبيات: ما يأتي ليلاً. والقائل: من يكون في القيلولة هادئاً مستريحاً... ﴿**فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا**﴾: الدعوى اسم بمعنى الدعاء، والدعاء هنا: رفع العذاب بمعنى الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب... ﴿**فلنسألن الذين أرسل**

إليهم ولنسألن المرسلين﴾: سؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة، وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر.

والذين أرسل إليهم: هم أمم الرسل... **﴿فلنقصنّ عليهم بعلم﴾**: أصل القص: تتبع الأثر، والمراد هنا: الخبر المتتبع الحاصل بالمشاهدة... **﴿وما كنا غائبين﴾**: الغائب ضد الحاضر، والمعنى هنا: ما كنا جاهلين بشيء من أحوالهم... **﴿والوزن يومئذ الحق﴾**: المراد بالوزن هنا: تعيين مقادير ما تستحقه الأعمال من الثواب والعقاب تعييناً لا إجحاف فيه، وحقيقة الوزن لغة: معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما؛ في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار... **﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾**: الفلاح: حصول الخير وإدراك المطلوب... **﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾**: ومن خفت موازين أعماله بالكفر خسروا أنفسهم؛ إذْ حُرِمُوا السعادة التي كانت مستعدة لها، لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر بسبب ما كانوا يظلمونها بكفرهم بآيات الله مستمرين على ذلك مصرّين إلى نهاية أعمارهم...

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض﴾: التمكين هنا: جعلهم قادرين على أمور الأرض والتصرف فيما فيها؛ من نبات وحيوان وغيرهما من منافع، بما أودع الله في البشر من قوة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم، والتغلب على مصاعبه... **﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾**: معايش: جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحي من الطعام والشراب، مشتقة من العيش، وهو الحياة... **﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾**: الخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود. والتصوير: جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يتشكل به الجسم... **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾**: الملائكة: اسم جمع، واحده مَلَكٌ، وهم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. والسجود هنا: الخضوع لأمر الله الملائكة بتكريم آدم والاعتراف بفضله... **﴿إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين﴾**: إبليس لم يكن من الملائكة وإنّما هو من الجن، ودخل هنا من حيث الأمر بالسجود فأبى واستكبر...

﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك﴾: أيّ مانع يمنعك ويحملك على عدم السجود لآدم؟.. **﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**: منعني من

ذلك أنّني خير منه؛ لأنّك خلقتني من نار وخلقته من طين!، والنار خير من الطين، ولا ينبغي للأشرف أن يكرّم مَنْ دونه ويعظمه. . . **﴿قال فاهبط منها﴾**: الهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها، فهو حسيّ ومعنوي. . . **﴿فما يكون لك أن تتكبّر فيها﴾**: تكبّر: تكلّف أن يجعل نفسه أكبر ممّا هي عليه، أو أكبر ممّن هي في ذاتها أصغر منه. . . **﴿فاخرج إنّك من الصاغرين﴾**: الصاغر: المتصف بالصغار، وهو الذل والحقارة. . . **﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾**: أنظره: أخّره وأمهله. ويوم يبعثون: يوم القيامة. . . **﴿قال إنّك من المنظرين﴾**: تحقق كونك من الفريق الباقي إلى يوم الوقت المعلوم. . .

﴿قال فبما أغويتني﴾: الإغواء: الإيقاع في الغواية، وهي ضد الرشاد؛ لأنّها في أصل اللغة تمثل الفساد المردي. . . **﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾**: معنى أقعدنّ هنا: ألزمن؛ لأصدّ الناس عن الصراط المستقيم. . . **﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾**: فلا أترك جهة من جهاتهم الأربع إلاّ وأهاجمهم منها. . . **﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين! قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾**: مذءوم: اسم مفعول من ذأمه؛ إذا عابه وذمه ذأْماً. ومدحور: اسم مفعول؛ إذا دحره وأقصاه وأبعده، فالذأم لما اتّصف به من الرذائل، والطرد لتنزيه عالَم القدس عن مخالطته. . . **﴿لأملأنّ جهنّم﴾**: ملأ الشيء يملؤه ملأً فهو مملوء. وجهنّم: اسم لدار العقاب في الآخرة، وجهنّم في أصل اللغة بعيدة القعر كريهة المنظر. . . **﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**: سكَن يسكُن سكوناً قرّ في المكان.

والجنة: اسم لدار الثواب في الآخرة، والمراد هنا: المكان المناسب لعيشة راضية لآدم وزوجه قبل الأكل من الشجرة، وأصل الجنة في اللغة الحديقة ذات النخل والشجر المختلف الثمار. . . **﴿فكلا من حيث شئتما﴾**: الأكل هنا: التمتع بثمار الجنّة. من حيث شئتما كما تشاآن. . . **﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾**: القرب: الدنوُّ. وهذه الشجرة: شجرة مخصصة مشخصة مشار إليها بهذه. . . **﴿فتكونا من الظالمين﴾**: من الذين ظلموا أنفسهم بالتعدي على المنهي عن قربه، وبما يترتب على ذلك من الحرمان. . .

﴿**فوسوس لهما الشيطان**﴾: وسوس له وإليه: ألقى في نفسه شيئاً رديئاً يضره في بدنه أو روحه أو ما تسوء عاقبته، وأصله من الوسواس، وهو صوت الحُلِيّ المغري، ثم أطلقت الوسوسة على الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلاّ القريب من المتكلم، وسمي إلقاء الشيطان وسوسة؛ لأنّه ألقى إليهما تسويلاً خفياً، كهيئة الغاش الماكر... ﴿**ليبدي لهما ما وُورِيَ عنهما من سوآتهما**﴾: الإبداء: كشف الشيء وإظهاره. والسوآت: جمع سوأة، وهي اسم لما يسوء ويتعير به من النقائص، ويُكنّى بالسوأة عن العورة. ومعنى ووري عنهما: حُجِبَ عنهما وأُخْفِيَ، وهو مشتق من المواراة التي هي التغطية والإخفاء...

﴿**وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾: نهاه ينهاه نهياً: ضد أمره، والنهي هنا عن قرب الشجرة المشار إليها، فأراد إبليس أن يبيّن لآدم وزوجه علة النهي، وهو أن يكونا ملكين من الملائكة المقربين إلى الله، أو أن يكونا خالدين في الجنة متمتعين بخيراتها... ﴿**وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين**﴾: حَلَفَ لهما بما يوهم صِدْقَه، والمقاسمة: مفاعلة من أقسم إذا حلف، وأصلها من القسامة...

﴿**فدلاّهما بغرور**﴾: دلّى الشيء تدلية: أرسله إلى الأسفل رويداً رويداً، والمعنى هنا: فمازال يخدعهما في الترغيب في الأكل من الشجرة والقسم على أنّه ناصح بذلك لهما به، حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة الفاطر بما غرّهما به. والغرور: الخداع بالباطل، وهو مأخوذ من الغِرّة بمعنى الغفلة وعدم التجربة، يُقال: دلاّه بغرور إذا أوقعه في الطمع فيما لا نفع فيه...

﴿**فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما**﴾: لمّا حرف يدل على وجود شيء عند وجود غيره. وهي متضمنة معنى الشرط. والذوق: إدراك طعم المأكول أو المشروب باللسان... ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾: يقال: طفق يفعل كذا، إذا واصل الفعل، وهو خاص بالإثبات، فلا يقال: ما طفق. والخصف: حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتدّ به، فمعنى يخصفان يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعض كفعل الخاصف وضعاً ملزقاً متمكناً...

﴿وناداهما ربّهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدو مبين﴾: النداء حقيقته ارتفاع الصوت، وهو مشتقّ من النَّدَى، وهو بُعد الصوت، وناداهما ربّهما مستعمل في المعنى المشهور: وهو طلب الإقبال، وظاهر إسناد النداء إلى الله أنّ الله ناداهما بدون واسطة ملك مرسل. والعدوّ: ضد الصديق، وهو من يريد الشر لمن يعاديه، وإبليس عداوته للإنسان غريزة فيه.

والمبين هنا: المظْهِر للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبع آثار وسوسته وتغريره... **﴿قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾**: المراد بالبعض: البعضُ المخالف في الجنس، فأحد البعضين هو آدم وزوجه، والبعض الآخر هو إبليس. والمستقر: مصدر من الاستقرار، وهو مصدر ميمي، والاستقرار: هو المكث والبقاء في الأرض مدة معدودة ومحدودة. والمتاع والتمتع: نَيْلُ الملذات والمرغوبات غير الدائمة. والحين: المدة من الزمن؛ طويلة أو قصيرة، والمراد به: زمن الحياة في هذه الدنيا...

﴿قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾: في هذه الأرض التي خلقتم منها تعيشون مدة العمر المقدّر لكل فرد ولمجموع الأفراد، وفيها تدفنون عند انتهاء أجل الفرد والجماعة.. ومنها تبعثون عند النشأة الآخرة إلى الله... **﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾**: اللباس: اسم لما يلبسه الإنسان يواري به سوأته. والريش لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة. ولباس التقوى المأمور به شرعاً... **﴿يابني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾**: فتون الشيطان: حصول آثار وسوسته... **﴿كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾**: الأبوان: تثنية الأب، والمراد بهما: الأب والأم على التغليب، وهو تغليب شائع في الكلام. والنزع: أخذ الشيء بالقوّة، والمراد: سلب اللباس عنهما... **﴿إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾**: أنّ الشياطين ترى الناس وأنّ الناس لا يرونها، وهذا إظهار للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر البشر منهم.

وقبيل الشيطان: ذريته وجنوده؛ «أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو»؟!.. **﴿إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾**: فطبيعة الشياطين الإغواء والإغراء بالضلال، وطبيعة الذين لا يؤمنون قبول هذا الإضلال، فصار

الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. . . «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون». ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها**﴾: الفاحشة في الأصل: صفة لموصوف محذوف، وهي الخصلة الفاحشة أو الفعلة الفاحشة، ثمّ نُزّل الوصْفُ منزلة الاسم لكثرة دورانه، فصارت الفاحشة اسماً للعمل الذميم، وهي مشتقة من الفُحْش، وهو الكثرة والقوة للشيء المذموم والمكروه، وغلبت الفاحشة في الأعمال الشديدة القبح ـ وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضُرّ وفساد ـ، بحيث يأباها أهل العقول الراجحة ويُنكرها أولوا الأحلام. . . ﴿**قل أمر ربّي بالقسط**﴾: القسط: العدل، وهو هنا العدل بمعناه الأعم، وهو الفضيلة من كل عمل، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها. . .

﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**﴾: إقامة الوجوه هنا: الإقبال على عبادة الله تعالى في بيوته المعدّة لذلك. . . ﴿**وادعوه مخلصين له الدين**﴾: الدعاء هنا: بمعنى العبادة. والإخلاص: تمحيص الشيء عن مخالطة غيره. والدين: بمعنى الطاعة، يقال: دِنتُ لفلان أطعتُه. ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾: الكاف للتشبيه؛ هو تشبيه عود خلقهم ببدْئِه، وما مصدرية، والتقدير: تعودون عوداً جديداً كبدئه إيّاكم، «كما بدأنا أول خلق نعيده. . .» ﴿**فريقاً هدى**﴾: هم الذين اتبعوا ما أنزل الله في الدنيا. . . ﴿**وفريقاً حقّ عليهم الضلالة**﴾: معنى حق عليهم الضلالة: ثبتت لهم الضلالة ولزموها واستمروا على شركهم وضلالهم في الدنيا حتى جاءهم الموت وهم على ذلك. . .

﴿**إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله**﴾: المعنى أنّ هذا الفريق الذين حقّت عليهم الضلالة لما سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام لم يطلبوا النجاة، ولم يتفكروا في ضلال الشرك البيّن، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، وأْتَمَرُوا بأمرهم واتخذوهم أولياء. . . ﴿**ويحسبون أنّهم مهتدون: الحسبان**﴾: الظن، وهو هنا ظن مجرد عن دليل، وذلك أغلب ما يراد بالظن وما يرادفه في القرآن. . .

﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾: الزينة: ما يُتزيّن به، وهو اسم للزين ضد الشين، والمراد بأخذ الزينة هنا: لبس الثياب المناسبة التي تُظهِر الإنسان محترماً في أعين الناس المعتدلين في المحافل العامة، وخصوصاً في مساجد

العبادة التي من أهَمِّها المسجد الحرام الذي كان يطوف فيه الجاهل عرياناً متذرّعاً بأن ثيابه عصى الله فيها، فلا يمكن أن يدخل بها بيته!.. ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾: الإسراف: تجاوز المتعارف في الشيء، ومعناه هنا: لا تسرفوا في الأكل والشرب بخروجكم فيهما عن المعتاد ثمناً وصفة وقدْراً...

﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾: زينة الله: اللباس. والطيبات من الرزق: الأكل والشرب. وتحريمها: منعها عن الانتفاع بها. والاستفهام للإنكار؛ لأنّ الله أباحها للناس فمن حرمها فهو معتد ظلوم... ﴿**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾: الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرهم من الكافرين، وهي خالصة لهم يوم القيامة متمحّضة لا يشاركهم فيها غيرُهم... ﴿**كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون**﴾: مثل ذلك التفصيل نفصّل الأحكام المتعلقة بالزينة والطيبات من الرزق لقوم يعلمون حقيقة ذلك التفصيل...

﴿**قل: إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾: الفواحش جمع فاحشة، وهي الخصلة القبيحة؛ سواء كانت ظاهرة للعيان أو كامنة في الأذهان... ﴿**والإثم والبغي بغير الحق...**﴾ الخ الآية: الإثم في اللغة: هو القبيح الضار فهو يشمل جميع المعاصي. والبغي بغير الحق: طلب تجاوز الاقتصاد في القدر أو الوصف المعروف والمألوف... ﴿**وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾: الإشراك معروف وقد حرّمه الله على لسان جميع الأنبئاء. والسلطان: البرهان والحجة... ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾: مثل القول الذي يقوله المشركون: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء...» ﴿**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾: المراد بالأمة هنا: الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك. والأجل: الإمهال المحدد بوقت لا يتأخر عنه ولا يتقدم.

مبحث الإعراب

﴿**ألمص**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كتاب**﴾ خبر المبتدأ. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على كتاب. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنزل،

وجملة أنزل في محل رفع نعت لكتاب. فلا الفاء للترتيب والتسبب، ولا للنهي. ﴿**يكن**﴾ مجزوم بلا الناهية. ﴿**في صدرك**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكن. ﴿**حرج**﴾ اسم يكُن. ﴿**منه**﴾ متعلق بحرج. ﴿**لتنذر**﴾ اللام للتعليل، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على ضمير المخاطب في قوله: إليك، وهو الرسول ﷺ وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بأُنزل. ﴿**به**﴾ متعلق بتنذر. ﴿**وذكرى**﴾ معطوف على المصدر المجرور قبله. ﴿**للمؤمنين**﴾ متعلق بذكرى، والمعنى: أنزل إليك لإنذار الكافرين وتذكير المؤمنين. ﴿**اتّبعوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول اتّبعوا.

﴿**أُنزل إليكم**﴾ صلة ما. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**ولا تتّبعوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وهو معطوف على الأمر قبله. ﴿**من دونه**﴾ متعلق بالفعل قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولياءَ**﴾ مفعول به. ﴿**قليلاً**﴾ نعت لمصدر محذوف. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**تذكّرون**﴾ فعل وفاعل، والتقدير: تذكرون تذكراً قليلاً فلا قيمة له. ﴿**وكم**﴾ الواو للعطف، كم هنا خبرية مقصود منها التكثير، وهو في محل رفع مبتدأ. ﴿**من قرية**﴾ ليس لها متعلق فهي في موقع التمييز.

﴿**أهلكناها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدإ (كم). ﴿**فجاءها بأسنا**﴾ فاعل جاء، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاء الداخلة على الجملة تفيد العطف والتعقيب. ﴿**بياتاً**﴾ منصوب على الحال من بأسنا. ﴿**أو**﴾ حرف عطف. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**قائلون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو، والجملة في محل نصب على الحال. ﴿**فما**﴾ الفاء للترتيب، وما نافية. ﴿**كان دعواهم**﴾ خبر كان. ﴿**إذ جاءهم بأسنا**﴾ إذ ظرف، جاءهم فعل ومفعول، بأسنا فاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**أن**﴾ قالوا مؤول بمصدر اسم كان، مثل قوله تعالى: فما كان قولَهم إلاّ أن قالوا؟. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**ظالمين**﴾ خبر كان، وجملة كان خبرُ إنّ، وجملة إنّا كنا ظالمين في محل نصب مقول القول. ﴿**فلنسألنّ**﴾ الفاء للعطف والترتيب، واللام موطئة لجواب قسم مقدر، نسألنّ فعل مضارع مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل

ضمير (نحن). ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**أرسل إليهم**﴾ صلة الذين. ﴿**ولنسألن المرسلين**﴾ مثل فلنسألن الذين في الإعراب. ﴿**فلنقصنّ**﴾ الفاء للتعقيب والترتيب، وهي مثل سابقتها.

﴿**عليهم**﴾ متعلق بالفعل المؤكد. ﴿**بعلم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل نقصُّ. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**غائبين**﴾ خبرها. ﴿**والوزن**﴾ مبتدأ. ﴿**يومئذ**﴾ متعلق به. ﴿**الحق**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، من اسم شرط. ﴿**ثقلت**﴾ فعل الشرط. ﴿**موازينُه**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء رابطة للجواب، أولئك في محل رفع مبتدأ. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**المفلحون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو، وجملة فأولئك جواب الشرط. ﴿**ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم**﴾ إعرابها مثل إعراب سابقتها، وجملة خسروا أنفسهم صلة الذين. ﴿**بما**﴾ متعلق بخسروا، وما مصدرية. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**يظلمون**﴾ خبر كان، والتقدير: خسروا أنفسهم بسبب كونهم ظالمين بآياتنا. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**مكنّاكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بالفعل قبله.

﴿**وجعلنا**﴾ معطوف على مكنّا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**فيها**﴾ كذلك. ﴿**معايش**﴾ مفعول به. ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ مثل قوله فيما تقدم: قليلاً ما تذكرون. ﴿**ولقد خلقناكم**﴾ مثل قوله: ولقد مكنّاكم. ﴿**ثم صورناكم**﴾ معطوف على خلقناكم. ﴿**ثم قلنا**﴾ معطوف على صورناكم. ﴿**للملائكة**﴾ متعلق بقلنا. ﴿**اسجدوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**لآدم**﴾ متعلق باسجدوا. ﴿**فسجدوا**﴾ الفاء للتعقيب، وسجدوا فعل وفاعل معطوف على مقول القول فهما في محل نصب. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**إبليس**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**لم يكن**﴾ مجزوم بلم، واسم يكن يعود على إبليس. ﴿**من الساجدين**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكن، وجملة لم يكن من الساجدين في محل نصب حال من إبليس. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام. ﴿**منعك**﴾ ضمير المخاطب المتصل به في محل نصب مفعول، وجملة منعك في محل رفع خبر ما. ﴿**أن**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**تسجد**﴾ منصوب بأن، والفاعل ضمير يعود على إبليس.

﴿**إذ**﴾ ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿**أمرتك**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة أمرتك في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**قال**﴾ فعل ماض.

﴿**أنا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**منه**﴾ متعلق بخير. ﴿**خلقتني**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**من نار**﴾ متعلق بخلق. ﴿**وخلقته من طين**﴾ معطوف على خلقتني، وهو مثله في الإعراب، وجملة خلقتني من نار بيان لجملة أنا خير منه. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**فاهبط**﴾ الفاء للتعقيب والتسبّب، اهبط فعل أمر. ﴿**منها**﴾ متعلق به. ﴿**فما**﴾ الفاء للسببية والتفريع والتعليل، ما للنفي. ﴿**يكون**﴾ منفي بما. ﴿**لك**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون. ﴿**أن تتكبّر**﴾ مصدر مؤول مع أن مرفوع اسم يكون. ﴿**فيها**﴾ متعلق بتتكبّر. ﴿**فاخرج**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من الصاغرين**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ إنّ، والجملة تعليل. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**أنظرني**﴾ فعل طلب مبني على السكون، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بأنظرني. ﴿**يُبعثون**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة في محل جر مضاف إلى يوم. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من المنظرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**فبما**﴾ الفاء للترتيب، والباء للسببية، وما مصدرية.

﴿**أغويتني**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والفعل مؤول بمصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بقسم مقدر. ﴿**لأقعدنّ**﴾ جواب القسم. ﴿**لهم**﴾ متعلق بأقعدنّ. ﴿**صراطك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**المستقيم**﴾ نعت لصراطك. ﴿**ثم**﴾ للعطف. ﴿**لآتينهم**﴾ مثل لأقعدن لهم. ﴿**من بين**﴾ متعلق بآتينهم. ﴿**أيديهم**﴾ مضاف إلى بين، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ومن خلفهم**﴾ معطوف على بين أيديهم. ﴿**وعن أيمانهم وعن شمائلهم**﴾ كذلك. ﴿**ولا تجد**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وهو معطوف على المقسم عليه. ﴿**أكثرهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**شاكرين**﴾ مفعول ثانٍ أو حال. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**اخرج**﴾ فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير المخاطب يعود على إبليس. ﴿**منها**﴾ متعلق باخرج. ﴿**مذءوماً**﴾ حال من الضمير الفاعل. ﴿**مدحوراً**﴾ كذلك. ﴿**لمن**﴾ اللام موطئة للقسم، ومَن شرطية. ﴿**تبعك**﴾ فعل الشرط، والضمير المتصل به مفعول به. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل تبعك.

﴿**لأملأن**﴾ جواب القسم، وهو سادٌّ مسدّ جواب الشرط. ﴿**جهنم**﴾ مفعول به. ﴿**منكم**﴾ متعلق بلأملأنّ. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المجرور بمن. ﴿**ويآآدم**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب، وهو معطوف على قوله: اخرج منها. ﴿**أسكن**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير يعود على آدم. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**وزوجك**﴾ معطوف على الضمير الفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الجنة**﴾ مفعول به. ﴿**فكلا**﴾ مرتب على أسكن أنت وزوجك. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بكُلاَ. ﴿**شئتما**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث.

﴿**ولا تقربا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، معطوف على قوله: فكُلاَ. ﴿**هذه**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**الشجرة**﴾ عطف بيان لهذه. ﴿**فتكونا**﴾ الفاءُ فاءُ السببية، وتكون منصوب بأن وجوباً بعد فاء السببية، وألف المثنى إسم تكون. ﴿**من الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون. ﴿**فوسوس**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**لهما**﴾ متعلق بوسوس. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل. ﴿**ليبدي**﴾ اللام لام العاقبة، يبدي منصوب بأن مضمرة بعد اللام. ﴿**لهما**﴾ متعلق بيبدي. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول يبدي. ﴿**ووري**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**عنهما**﴾ متعلق بووري. ﴿**من سوآتهما**﴾ كذلك. ﴿**وقال**﴾ فعل ماض معطوف على وسوس. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**نهاكما**﴾ فعل ماض منفي بما، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**ربّكما**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عن هذه**﴾ متعلق بنهاكما. ﴿**الشجرة**﴾ بيان لهذه. ﴿**إلآ**﴾ أداة استثناء.

﴿**أن**﴾ مصدرية ناصبة. ﴿**تكونا**﴾ كان واسمها منصوب بحذف النون. ﴿**ملكين**﴾ خبر تكون. ﴿**أو تكونا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**من الخالدين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون. ﴿**وقاسمهما**﴾ فعل ماض معطوف على وسوس، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير يعود على إبليس. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لكما**﴾ متعلق بالناصحين. ﴿**لمن الناصحين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**فدلاَّهما**﴾ الفاء للتفريع، دلاَّهما فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على إبليس، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**بغرور**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فلما**﴾ الفاء للعطف والترتيب، لمّا ظرفية شرطية. ﴿**ذاقا**﴾ فعل وفاعل، وهو فعل الشرط.

﴿**الشجرة**﴾ مفعول به. ﴿**بدت**﴾ جواب الشرط. ﴿**لهما**﴾ متعلق ببدت. ﴿**سوآتهما**﴾ فاعل بدت، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وطفقا**﴾ فعل ماض ناقص من أفعال الشروع من أخوات كاد، والألف اسمها. ﴿**يخصفان**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر طفق. ﴿**عليهما**﴾ متعلق بيخصفان. ﴿**من ورق**﴾ كذلك. ﴿**الجنة**﴾ مضاف إلى ورق. ﴿**وناداهما**﴾ معطوف على جواب لما. ﴿**ربّهما**﴾ فاعل نادى، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**ألم**﴾ الهمزة للاستفهام، ولم حرف نفي وجزم. ﴿**أنهكما**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف الألف، والفاعل ضمير يعود على ربّهما، والضمير المتصل بالفعل مفعول به.

﴿**عن تلكما**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الشجرة**﴾ بيان لاسم الإشارة. ﴿**وأقل**﴾ معطوف على أنهكما. ﴿**لكما**﴾ متعلق بأقل. ﴿**إنّ الشيطان**﴾ اسم إنّ. ﴿**لكما**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**عدوّ**﴾ خبر إنّ. ﴿**مبين**﴾ نعت لعدوّ. ﴿**قالا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ربّنا**﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ظلمنا أنفسنا**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وإن لم تغفر لنا**﴾ الفعل مجزوم بلم، وهو في محل جزم فعل الشرط. ﴿**وترحمنا**﴾ معطوف على تغفر. ﴿**لنكونن**﴾ جواب الشرط دخل عليه لام القسم ونون التوكيد. ﴿**من الخاسرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكونن، واسمها ضمير يعود على آدم وحواء. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**اهبطوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واوالجماعة. ﴿**بعضكم**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لبعض**﴾ متعلق بعده. ﴿**عدوّ**﴾، والجملة في محل نصب حال من الضمير في قوله: اهبطوا. ﴿**ولكم في الأرض**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مستقر**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ومتاع**﴾ معطوف على مستقر. ﴿**إلى حين**﴾ متعلق بمتاع، وجملة ولكم.. معطوفة على قوله: بعضكم لبعض عدوّ. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**فيها**﴾ متعلق ﴿**بتحيون**﴾ وهو فعل وفاعل.

﴿**وفيها تموتون**﴾ مثله. ﴿**ومنها تخرجون**﴾ كذلك. ﴿**يا بني**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**آدم**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية ووزن الفعل. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**أنزلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**لباساً**﴾ مفعول به. ﴿**يواري**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على لباساً. ﴿**سوآتكم**﴾ مفعول يواري منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يواري في محل نصب

نعت للباساً. ﴿**وريشاً**﴾ معطوف على لباساً. ﴿**ولباس التقوى**﴾ كذلك. مضاف إلى لباس. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**ذلك من آيات الله**﴾ مثله. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يذكرون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر لعل. ﴿**يابني آدم**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**لا يفتننّكم**﴾ في محل جزم بلا الناهية، وبناؤه على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل.

﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه في محل نصب نعت لمصدر محذوف. ما مصدرية. ﴿**أخرج**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الشيطان. ﴿**أبويكم**﴾ مفعول به منصوب بالياء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من الجنّة**﴾ متعلق بأخرج، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مضاف إلى معنى الكاف، والتقدير: لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة. ﴿**ينزعُ**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الشيطان. ﴿**عنهما**﴾ متعلق بينزع. ﴿**لباسهما**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة ينزع في محل نصب حال من فاعل أخرج. ﴿**ليريهما**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير يعود على الشيطان، والضمير المتصل بالفعل مفعول أوّل. ﴿**سوآتهما**﴾ مفعول ثان، وأن وما خلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بينزع.

﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يراكم**﴾ في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**وقبيله**﴾ معطوف على الضمير الفاعل في يراكم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من حيثُ**﴾ متعلق بيراكم. ﴿**لا ترونهم**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، والضمير بعده مفعول، وجملة لا ترونهم في محل جر مضافة إلى حيث، وجملة إنّه يراكم تعليلية. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**جعلنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر إنّ. ﴿**الشياطين**﴾ مفعول أول. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثان. ﴿**للذين**﴾ متعلق بأولياء. ﴿**لا يؤمنون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الموصول. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه. ﴿**فعلوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**فاحشة**﴾ مفعول به. ﴿**قالوا**﴾ جواب إذا. ﴿**وجدنا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل مقول القول. ﴿**عليها**﴾ متعلق بوجدنا.

﴿**آباءنا**﴾ مفعول به. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**أمرنا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ. ﴿**بها**﴾ متعلق بأمر. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يأمر**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر إنّ. ﴿**بالفحشاء**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**أتقولون**﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، تقولون فعل وفاعل. ﴿**على الله**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**لا تعلمون**﴾ صلة ما. ﴿**قل. أمرَ**﴾ فعل ماض. ﴿**ربّي**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى رب. ﴿**بالقسط**﴾ متعلق بأمر. ﴿**وأقيموا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة معطوف على أمر ربي. ﴿**وجوهكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عند**﴾ ظرف مكان متعلق بأقيموا.

﴿**كل**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**مسجد**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وادعوه**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**مخلصين**﴾ حال من فاعل ادعوه. ﴿**له**﴾ متعلق بمخلصين. ﴿**الدين**﴾ مفعول به. ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾ الكاف للتشبيه، وما مصدرية ظرفية، والتقدير: تعودون عوداً جديداً مثل بدئه. ﴿**فريقاً**﴾ مفعول مقدم. ﴿**هدى. وفريقاً**﴾ مفعول لفعل مقدّر، أي وضل فريقاً. ﴿**حق**﴾ فعل ماض. ﴿**عليهم**﴾ متعلق به. ﴿**الضلالةُ**﴾ فاعل، وجملة حق عليهم الضلالة في محل نصب نعت لفريقاً الثاني. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**اتخذوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر إنّ، وجملة إنّهم تعليلية. الشياطين مفعول أول. ﴿**أولياء**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**من دون**﴾ متعلق بأولياء.

﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**ويحسبون**﴾ فعل وفاعل معطوف على اتخذوا. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**مهتدون**﴾ خبرها مرفوع بالواو. ﴿**يابني آدم**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**خذوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**زينتكم**﴾ مفعول به والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عند**﴾ ظرف متعلق بخذوا. ﴿**كل**﴾ مضاف إلى الظرف. ﴿**مسجد**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وكلوا واشربوا**﴾ معطوفان على خذوا. ﴿**ولا تسرفوا**﴾ مجزوم بلا الناهية، وهو معطوف على كلوا. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يحب**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر إنّ. ﴿**المسرفين**﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة إنّه.. تعليلية. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**مَنْ**﴾ في محل رفع مبتدأ، ومَن استفهامية. ﴿**حرّم**﴾

فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**زينة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى زينة وجملة حرّم خَبَرُ مَنْ. ﴿**التي**﴾ في محل نصب نعت لزينة. ﴿**أخرج**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله.

﴿**لعباده**﴾ متعلق بأخرج وجملة أخرج صلة التي. ﴿**والطيبات**﴾ معطوف على زينة منصوب بالكسرة. ﴿**من الرزق**﴾ بيان للطيبات. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**للذين**﴾ متعلق بمحذوف خبر هي. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**خالصة**﴾ خبرٌ ثانٍ لهي. ﴿**يوم القيامة**﴾ متعلق بخالصة. ﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وذلك في محل جر مضاف إلى معنى الكاف. ﴿**نفصّل**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير نحن. ﴿**الآيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بنفصّل. ﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل في محل جر نعت لقوم. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**حرّم ربّي**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الفواحش**﴾ مفعول به. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب بدل من الفواحش. ﴿**ظهر**﴾ صلة ما. ﴿**منها**﴾ متعلق بظهر. ﴿**وما بطن**﴾ معطوف على ما ظهر. ﴿**والإثم والبغي**﴾ معطوفان على الفواحش. ﴿**بغير**﴾ متعلق بالبغي. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى غير.

﴿**وأن تشركوا**﴾ منصوب بأن بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب معطوف على الفواحش. ﴿**بالله**﴾ متعلق بتشركوا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول تشركوا. ﴿**لم ينزّل**﴾ صلةُ ما. ﴿**به**﴾ متعلق بينزل. ﴿**سلطاناً**﴾ مفعول ينزّل. ﴿**وأن تقولوا**﴾ مثل وأن تشركوا. ﴿**على الله**﴾ متعلق بتقولوا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول تقولوا. ﴿**لا تعلمون**﴾ صلة ما. ﴿**ولكل**﴾ متعلق بمحذوف خبرٌ مقدّم. ﴿**أجل**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**فإذا**﴾ الفاء للتعقيب، إذا ظرف لما يستقبل من الزمان وتقدم إعراب مثله. ﴿**جاء أجلهم**﴾ فعل وفاعل والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**لا يستأخرون**﴾ فعل منفي بلا وهو جواب إذا. ﴿**ساعةً**﴾ منصوب على الظرفية الزمانية. ﴿**ولا يستقدمون**﴾ معطوف على يستأخرون.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ألمّص**﴾: ابتدئت هذه السورة بالحروف الهجائية كما ابتدئت سورتا البقرة وآل عمران؛ تحدياً للعرب وتعجيزاً لكل سامع، حيث إنّ هذا القرآن مركب من حروف يعرفها الناس جميعاً؛ من ألف ولام وميم وصاد...، ولكنهم عاجزون عن إتيان مثل القرآن!. وتقدم في سورة البقرة أنّ الحروف التي ذكرت في القرآن مقطعة تشتمل على جميع الحروف عند العرب عندما كانت تُكتَبُ بدون نقط...
﴿**كتاب أُنزل إليك**﴾: التنكير هنا للتعظيم، وفيه تعجيب من شأنه في جميع ما حفّ من البلاغة والفصاحة والإعجاز والإرشاد، وكونه نازلاً على رجل أمّيّ. وقوله: أُنزل إليك المقصود منه الامتنان والتذكير بالنعمة على طريقة المجاز المرسل المركب. وصيغ فعل أُنزل بصيغة النائب عن الفاعل اختصاراً للعلم بفاعل الإنزال، ولما في مادة الإنزال من الإشارة بأنّه من الوحي المنزل من عند الله. والفاء في قوله: ﴿**فلا يكن**﴾ للتسبّب وترتيب الجملة بعدها، والمعنى أنّ الله أنزله إليك لا ليكون في صدرك حرج، بل لينشرح صدرك به.

فالنهي هنا نهي تكوين النفي، فَمُثّلَ تكوين نفي الحرج عن صدر النبيء ﷺ بحالة نهي العاقل المدرك للخطاب عن الحصول في المكان؛ فالتفريع هنا مناسب لمعاني التنكير المفروض في قوله: كتابٌ، والمعنى: فلا يكن في صدرك حرج منه من جهة ما جرّه نزولُه إليك من تكذيب قومك وإنكارهم نزوله، فلا يكن في صدرك حرج منه؛ من عظم أمره وجلالته، ولا يكن في صدرك حرج منه؛ فإنّه سبب شرح صدرك بمعانيه وبلاغته. والحرج: حقيقته المكان الضيق من الغابات الكثيرة الأشجار بحيث يعسر السلوك فيه، ويُستعارُ لحالة النفس عند الحزْن والغضب والأسف؛ لأنّهم تخيلوا للغاضب والآسف ضيقاً في صدره، لمّا وجدوه يعسر منه التنفس من انقباض أعضاء مجاري النفَس.

وفي معنى الآية قوله تعالى: «فلعلك تارك بعض ما يُوحَى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنّما أنت نذير». وقوله: لتنذر به تعليل للإنزال، وقدم الإنذار على الذكرى؛ لأنّه الغرض الأهم لإبطال ما عليه المشركون من الباطل، وحذف متعلق تنذر، وصرح بمتعلق ذكرى لظهور تقدير المحذوف من ذكرى مقابله المذكور، والتقدير: ﴿**لتنذر به**﴾ الكافرين،

وصرح بمتعلق الذكرى دون متعلق تنذر؛ تنويهاً بشأن المؤمنين، وتعريضاً بتحقير الكافرين تجاه ذكرى المؤمنين... ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم**﴾: هذا بيان لجملة لتنذر به، فالخطاب موجه للمشركين ويندرج فيه المسلمون بالأوْلَى؛ فبعد أن نوّه الله بالكتاب المُنزَّل إلى الرسول ﷺ وبيّن أنّ حكمة إنزاله للإنذار والذكرى، أمر الناس أن يتبعوا ما أُنزل إليهم. والمقصود الأجْدَرُ هم المشركون، تعريضاً بأنّهم كفروا بنعمة ربّهم.

فَوَصف الرب هنا دون اسم الجلالة للتذكير بوجوب اتّباع أمره؛ لأنّ وصف الربوبية يقتضي الامتثال لأوامره. والاتباع حقيقته المشْيُ وراء ماشٍ، وهو هنا استعارة مصرحة تنبني على التشبيه. وقوله: ﴿**ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾ تصريح بما تضمنه قوله: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم، والمقصود من هذا النهي تأكيد مقتضى الأمر، اهتماماً بهذا الجانب ممّا أنزل إليهم، وتسجيلاً على المشركين وقطعاً لمعاذيرهم. واستعير الولي هنا للمعبود الحق وللإله الواحد. وأفاد مجموع قوله: اتبعوا ولا تتبعوا مَفَادَ صيغةِ قَصْرٍ.

وقوله: ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ مستعار لمعنى النفي والعدم على وجه التلميح. والتذكر حضور الصورة في الذهن، والمعنى: لو تذكرتم لما اتبعتم من دون الله أولياء ولما احتجتم إلى النهي عن اتباعهم، وهذا نداء على إضاعتهم النظر والاستدلال... ﴿**وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون**﴾: كم هنا خبر عن الكثرة بدليل قوله: من قرية، والمراد بالقرية أهلها؛ لأنّ العبرة والموعظة إنّما هي بما حصل لأهل القرية، وهو من الإيجاز البديع. وفعل أهلكنا مستعمل في معنى إرادة الفعل، واستعمال الفعل في معنى إرادة وقوع معناه من المجاز المرسل. والتعبير عن إرادة الفعل بذكر الصيغة التي تدل على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل عزماً لا يتأخر عنه الفعل، بحيث يستعار اللفظ الدال على حصول المراد للإرادة لتشابههما، وأما الإتيان بحرف التعقيب بعد ذلك فللدلالة على عدم التريّث، فدل الكلام كله على أنّه تعالى يريد فيخلق أسباب الفعل المراد فيحصل الفعل، كل ذلك يحصل كالأشياء المتقاربة.

وقد استفيد هذا التقارن بالتعبير عن الإرادة بصيغة تقتضي وقوع الفعل، والتعبير عن حصول السبب بحرف التعقيب. والغرض من ذلك تهديد السامعين

المعاندين وتحذيرهم من أن يحل غضب الله عليهم، وهذا من أساليب الإطناب. والمراد بمجيء البأس بياتاً مجيئه في وقت الليل، ويطلق البيات على ضرب من الغارة تقع ليلاً، فيكون المراد من البأس الاستعارة لشدة الحرب، ويكون المراد من البيات حالة من حال الحرب، هي أشد على المغزو، فيكون ترشيحاً للاستعارة التمثيلية. وقوله: أو هم قائلون تقسيم للقرى المهلكة إلى مهلكة في الليل، ومهلكة في النهار. والمقصود من هذا التقسيم تهديد أهل مكة حتى يكونوا على وجل في كل وقت لا يدرون متى يحل بهم العذاب. وخُصَّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار؛ لأنّهما اللذان يطلب فيهما الناسُ الراحة والدعة... ﴿**فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنا ظالمين**﴾: إن المفاجأة التي تأخذ بتلابيب الغافلين لا تتركهم يقولون شيئاً سوى إقرارهم بأنّهم كانوا ظالمين.

وهذا ليس توبة ورجوعاً عما صدر منهم، ولكن مفاجأة العذاب الدنيوي يتصل بسرعة بالحشر الأخروي، فيرتبط به كما يدل عليه سياق هذا الأسلوب القوي: ﴿**فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين. فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين. والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون..**﴾ فسياق الكلام متصل بعضه ببعض من ساعة أن يأخذ الظالمين غرة، وهم غافلون نائمون أو قائلون إلى ساعة الحساب في يوم الحساب، ويوم يقوم الأشهاد؛ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، مثل ما حصل لقوم نوح: اغرقوا فأدخلوا ناراً، ومثل ما حصل لفرعون وقومه وغيرهم من القوم الظالمين. وهذا السياق محكم الربط لا ينبغي تفكيكه حسب الآراء والأغراض؛ سواء كان من الناحية اللغوية أو من ناحيته الشرعية...

﴿**ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون**﴾: لمّا أمر الله سبحانه المخاطبين باتّباع ما أُنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، وبيّن لهم وَخَامَةَ عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلد في الآخرة، ذكّرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي إثر الترهيب. واتصل الكلام بما قبله بالعطف، وتأكد بلام القسم، وقد لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر مضمون الخبر. والتمكين هنا المقصود منه الإقدار على

التصرف على سبيل الكناية، وذلك بما أودع الله في البشر من قوة العقل والتفكير، التي أهّلته لسيادة هذا العالم والتغلب على مصاعبه، فهذا الجنس قد جعله الله سيّدَ هذه الأرض ومكنه فيها:

أولا: بجعل هذه الأرض صالحة لحياة هذا الجنس بجوها وتركيبها واستعدادها.

ثانيا: بجعله سيد مخلوقات هذه الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها؛ ولكن هذا المخلوق قلّما يشكر على هذه النّعَم؛ لأنّه قلما يتدبر أو يتذكر، أو ينظر بالعين البصيرة والقلب المفتوح، فلا تفقده بالألفة والعادة شعورَه بهذه النعم المحيطة به في هذا الوجود: قليلاً ما تشكرون!..

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف على قوله: ولقد مكناكم في الأرض، وذلك تذكير بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية. وتأكيد الخبر باللام وقد مثل ما قبله في قوله: ولقد مكناكم، وعُطفت جملة صورناكم بحرف ثمَّ الدال على تراخي رتبة التصوير عن مرتبة الخلق؛ لأنّ التصوير حالة إعمال في الخلق. وتعدية فعلي خلقنا وصورنا إلى ضمير الخطاب ينتظم في سلك ما عاد إليه الضمير قبله في قوله: ولقد مكناكم في الأرض... الآية.

فالخطاب للناس كلهم توطئة لقوله فيما يأتي: يابني آدم لا يفتننكم الشيطان، والمقصود بالخصوص منه المشركون؛ لأنّهم الذين سول لهم الشيطان كفران هذه النّعم. ودلّ قولُه: ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم على أنّ المخلوق والمصوّر هو آدم؛ فإنّ التسمية طريق لتعيين المسمى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه، فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فوقع إيجاز بديع في نَسْج الكلام. والنص القرآني لا يدخل في التفصيل؛ فلنقف نحن عند النص القرآني لا نجري به وراء الفروض. وفي هذا التمثل كرامة هذا الجنس البشري على الله؛ كما تتمثل الطاعة المطلقة في الملائكة. أما إبليس فيستثنى من المأمورين بالسجود؛ لأنّه تتمثّل فيه طبيعةُ العصيان والاستكبار. ونجد في هذا المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية.

أما الطبيعة الأولى فهي خالصة لله، وقد انتهى دورها هنا بهذا التسليم. أما الطبيعتان الأخريان فسنعرف كيف تتجهان. فإبليس لم يكن من الملائكة بل كان من الجن، واستثنى هنا؛ لأنّه من جملة المأمورين بالسجود تبعاً، بدليل قوله تعالى له: ﴿**ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك**﴾. وقوله: ما منعك هنا متضمن معنى دعاك وحملك على طريق المجاز والقرينةُ وجودُ حرف النفي. وقوله: إذ أمرتك ظرف لتسجد، وتعليق ضميره بالأمر يقتضي أنّ أمر الملائكة شامل له. وفُصل ﴿**قال أنا خير منه**﴾، لوقوعه على طريقة المحاورات، وبيّن مانعه من السجود؛ لأنّه رأى نفسه خيراً من آدم، فلم يمتثل لأمر الله تعالى إيّاه بالسجود لآدم، وهذه معصية صريحة. وقوله: أنا خير منه مسوق مساق التعليل للامتناع. وجملة ﴿**خلقتني من نار**﴾ بيان لجملة أنا خير منه...

فلذلك فصلت؛ لأنّها بمنزلة عطف البيان من المُبيّن... ﴿**قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين**﴾: الفاء هنا جاءت لترتيب هذا الجزاء على ما ذكر من المعصية قبله، والهبوط هبوط من المنزلة والكرامة، فهو استعارة للبعد من المكان المشرّف بتشبيه البعد عنه بالنزول من مكان مرتفع. وقوله: فما يكون لك أن تتكبّر فيها؛ الفاء للسببية والتفريع تعليلاً للأمر بالهبوط، ودل على أنّ ذلك الوصف لا يغتفر منه!؛ لأنّ النفي بصيغة ما يكون لك كذا أشدُّ من النفي بليس لك كذا.

وقوله: فاخرج تأكيد لجملة فاهبط بمرادفها، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تأكيد تسبب الكبر في إخراجه. وقوله: إنّك من الصاغرين واقعة موقع التعليل للإخراج، وهي أشدُّ في إثبات الصغار له من نحو: إنّك صاغر، أو قد صغرت. وهكذا تلقَّى إبليس جزاءه عاجلاً على العصيان والتمرد والاستكبار، ولكن الشرير المعاند لا ينسى أنّ آدم هو سبب الطرد والغضب، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أنْ يُؤْذِي هذا الذي من أجله طُرِدَ، ثم ليؤدّيَ وظيفته وفْقَ طبيعة الشر المركوزة فيه، وليؤدّيَها على مدى الحياة في الزمن الممتدّ الطويل: ﴿**قال أنظرني إلى يوم يبعثون. قال إنّك من المنظرين**﴾.

﴿**قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾!. فإخبار الله

تعالى بجوابه لإبليس إخبار عن أمر قد تحقق بتأكيده بقوله: إنّك من المنظرين، وليس إجابة لطلبة إبليس؛ لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلباً. وهذه هي النكتة في العدول عن أن يكون الجواب: أنظرتك، أو أجبت لك، بما يدل على تكرمة باستجابة طلبه، ولكنه أعلمه أنّ ما سأله أمر حاصل، فسؤاله تحصيل حاصل. وهذا هو الإصرار المطلق على الشر، وهو التصميم المطلق على الغواية؛ وبذلك تنكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأُولى: شرٌّ ليس عارضاً ولا وقتياً، إنّما هو الشر الأصيل العامد القاصد العتيد، ثم هو التصوير المشخص المُجسَّم على طريقة القرآن في التمثيل الحسي والتجسيم؛ فإبليس في هذا التصوير يعلق في تبجُّحٍ وسوء أدب للخالق سبحانه وتعالى: أنّه وقد حصل على حق البقاء إلى الوقتَ المعلوم، سيرد على هذا الطرد الذي يدعوه إغْوَاء؛ سيرد عليه بإغواء ذلك المخلوق الذي كرمه الله من دونه؛ ولكن إغواء زينة، والذي ارتكب هو الضلالة والغواية بسببه.

ويجسم هذا الإغواء بأنّه سيقعد على صراط الله المستقيم يصد عنه كل بشر يهم باختياره، وبأنّه سيأتي هؤلاء البشر من كل جهة؛ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وهنا يرسم القرآن مشهداً حيّاً شاخصاً متحركاً لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائمة لإغوائهم، والحيلولة بينهم وبين الهدى والطاعة والاستقامة على الصراط؛ ولا تجد أكثرهم شاكرين!. وهذا هو المقصود. ويجيء ذكر الشكر للتناسق مع ما سبق في مطلع الصورة: قليلاً ما تشكرون؛ لبيان السبب في قلة الشكر، وكشف الدافع الخفي من حيلولة الشيطان ليتيقّظ له البشر، ويأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعلهم من الشاكرين. . . **﴿قال: اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾**: بذلك تمَّ الإنذار للبشر ووقع التحذير من اتّباع الشيطان؛ تنسيقاً مع بدء السورة ومع موضوعها الأصيل.

والسياق لا يصرح بإجابة الله لإبليس في إبعاده هذا، إنّما يسكت عنه ويعلن طرد إبليس طرداً لا التماس بعده ولا كلام، طرْدُهُ مذءوماً مقهوراً، وإبعاده بملء جهنم منه وممن تبعه من البشر مجتمعين متساوين. وغلب في الضمير حال الخطاب؛ لأنّ الفرد الموجود من هذا العموم هو المخاطب، وهو إبليس، ولأنّه

المقصود ابتداءً من هذا الوعيد؛ لأنّه وعيد على فعله، وأما وعيد أتباعه فبتبعٍ له؛ ولأنّهم داخلون معه فيه. وأكّده بأجمعين للتنصيص على العموم؛ لئلا يحملٍ على التغليب... ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾: النداء والأمر هنا من جملة المقول المحكي، وهو من عطف المتكلم بعض كلامه على بعض إذا كان لبعضِ كلامه اتصالٌ وتناسبٌ مع بعضه الآخر. وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس ـ بعد الحكم بطرده ـ زيادة إهانة وحسرة على المُعَاقَبِ. والعطف بالفاء في قوله: فكلا بدل الواو، لما فيه من المنة العاجلة لآدم تؤذن بتمام الإكرام. وفيه زيادة تنغيص لإبليس الذي تكبّر وفضّل نفسه عليه.

وقوله: ولا تقربا: أشدُّ في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها؛ لأنّ النهي عن قربانها سَدٌّ لذريعة الأكل منها. والإشارة إلى شجرة مشاهدَة ومعلومة لهما، فلا لزوم إلى تعيين نوعها. وانتصب فتكونا على جواب النهي؛ فالفاء هنا فاء السببية، والكون من الظالمين متسبب على القرب المنهي عنه. والمراد بالظالمين الذين يحق عليهم وصف الظلم؛ لظلمهم أنفسَهُم وإلقائها في العواقب السَّيِّئةِ... ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما**﴾: عبّر عن القرب بفاء التعْقيب؛ لأنّ حصول الوسوسة حصلت قرب النهي عن قربان الشجرة. واللام في ليبدي لام العاقبة. وأسند إبداء السوآت إلى الشيطان؛ لأنّه المتسبب فيه على طريقة المجاز العقلي... ﴿**وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾.

﴿**وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور**﴾: اتصلت الجملة بما قبلها عطفاً على وسوس، وأطنب في هذا حتى لا يَشُكَّا في نُصْحِه؛ فكانت طريقه إلى حملهما على المخالفة تأويله ما لم يؤوله الله، وتعيين حكمة المنع الذي لم يكشفه الله لهما، وكان عليهما ألاّ يسمعا لمخلوق يفشو لهما حكمةَ الله بلا دليل من قول الله.. ولكنه مسَّ فيهما نقطة ضعف بشريّ عميقة: نقطة الرغبة في الخلود، والرغبة كذلك في الخلاص من القيود كالملائكة المُمَحَّضين للخير والطاعة بلا ازدواج، وخدعهما بالقسم المؤكد المكرّر الذي يعبر عنه بكلمة قاسمهما.

والمقاسمة مفاعلة من الجانبين؛ فكأن الشيطان قام بدور الاثنين في الحلف المكرر بأنّه لهما ناصح، فجاءهما من منفذ تعظيم الله، والثقة بأنّ أحَداً لايجرؤ على أن يقسم به غير صادق ـ والشيطان يدخل إلى كل نفس من المدخل الذي ترضاه -، وهنا وقع المحظور وتحقّق النّذير، وجرّ آدم وزوجه على أنفسهما القدرَ المقدور؛ فدلاهما بغرور!. لقد خدعهما وغرّهما، وأنزلهما بهذا الغرور من طاعة الله إلى مخالفته، ومعنى فدلاهما بغرور: أقدمهما فَفَعَلا فِعْلاً يطمعان به في نفع فَخَابَا فيه، وهو تمثيل حال من يطلب شيئاً من مظنته فلا يجد بحال من يدلي دلْوه في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء!. والغرور اعتقاد الشيء نافعاً بحسب ظاهر حاله، ولا نفع فيه عند تجربته. وعلى هذا القياس، يقال: دلاّه بغرور إذا أوقعه في الطمع فيما لا نفع فيه.

﴿**فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما**﴾: هذا ترتيب على جملة فدلاهما بغرور، ودلت هذه الآية على أنّ بدوَّ سوآتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة؛ دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة. وقوله: ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه، فقد شعرا بأنّ هنالك سوآت تُدَارى. وحركة الخصف من ورق الجنة تومي بأنّها السوآت الحسية الجسدية التي يخجل الإنسان من تعريها. . . ﴿**وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدو مبين**﴾: هذا عطف على جواب لما، فهو ممّا حصل عند ذوق الشجرة.

وقد رتب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولهما في الوجود؛ فإنّهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان. أعقب ذلك نداء الله إيّاهما، والنداء هنا مستعمل في المعنى المشهور وهو طلب الإقبال، على أنّ الإقبال مجازي لا محالة، فتكون كقوله: «وزكرياء إذ نادى ربه»، وهو كثير في الكلام. ومحمل النداء هنا على أنّه للتنبيه والتوبيخ. وجملة ألم أنهكما في موضع البيان لجملة ناداهما، ولهذا فصلت الجملة عن التي قبلها. والاستفهام في قوله: ألم أنهكما للتقرير والتوبيخ.

وعطف جملة: وأقل لكما على جملة أنهكما للمبالغة في التوبيخ؛ لأنّ النهي كان مشفوعاً بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما

قد أضاعا وصيّتين. والمقصود من حكاية هذا القول هنا لتذكير الأمة بعداوة الشيطان لأصل النوع البشري. والمبين: أصله المُظهر، بمعنى أنّ عداوة الشيطان لا تخفى على من يتتبع آثار وسوسته وتغريره!. ثم رجعا وأنابا... **﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾**: فهو اعتراف بالمخالفة، وأنّهما علما أنّ ضر المعصية عاد عليهما، وقد عرفا بأنّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما. وقد أكدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهاراً لتحقيق الخسران استرحاماً واستغفاراً من الله تعالى. وهنا يتقرر المصير الأخير، ويجد آدم وزوجه جزاءهما في الهبوط والحياة في الأرض، حيث تكون بينهما وذريتهما، وبين عدوّهم الأكبر جولات وجولات إلى أن يشاء الله: **﴿قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾**.

﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون..﴾ ولم يذكر هنا نتيجة الإتابة والاستغفار وقبول توبته، كما ذكرت في سورة البقرة وسورة طه؛ لأنّ المقصود بالقصة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان وتحذير الناس من اتباع وسوسته، وهناك ذكرت التوبة لبيان فضل آدم وكرامته عند ربّه، ولكل مقام مقال. والخطاب في قوله: اهبطو لآدم وزوجه وإبليس، والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم؛ ليتهموا كل وسوسة تأتيهم من قبلِه، وأعلمهم أنّ لهم في الأرض مستقراً ومتاعاً إلى حين، وبيّن لهم حين قال: فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون... **﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾**: في هذه الآية خاطب الله بني آدم بالنداء الذي يخاطب به البعيد، لِمَا كانوا عليه عند نزول هذه السورة من البعد عن الفطرة السليمة والشرعة القويمة؛ تنبيهاً للأذهان بما يقرع الآذان، فامتنّ عليهم بما أنعم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه. وهذا تنبيه إلى أنّ اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنّه ممّا كرّم به النوع منذ ظهوره في الأرض.

وفي هذا تعريض بالمشركين؛ إذ جعلوا من قربانهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراةً!. ولباس التقوى على قراءة النصب يفيد أمراً ثالثاً مِنْ حكْمَة اللباس، وهو شَرْطٌ شَرْعِيٌّ، بحيث يكون غيرَ ممنوع شرعاً، وهو ما ذُيِّلَ به: ذلك خير. وقوله:

ذلك من آيات الله تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى: قد أنزلنا عليكم لباساً. وضمير الغيبة في قوله: لعلهم يذكرون إلتفات من الخطاب إلى الغيبة، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكر من بني آدم، فكأنّه غائب عن حضرة الخطاب، على أنّ ضمائر الغيبة في مثل هذا المقام في القرآن كثيراً ما يقصد بها مشركوا العرب... ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما**﴾: تكرير النداء هنا زيادة في التنويه بمنّة اللباس، وتوكيد للتعريض بحماقة الذين يحجّون عُراةً، وفيه مبالغة في النهي. ومنه قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا.

وشبّه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنة آدم وزوجه؛ إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه فأخرجهما من نعيم كانا فيه؛ تذكيراً للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وفي ذلك أيضاً تذكير بأنّ عداوة البشر للشيطان موروثة، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيْدِهِ، والتعبير عمّا مضى بالفعل المضارع (ينزع) لاستحضار الصورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين. ونزْع اللباس تمثيل لحال التسبب في ظهور السوأة. وإسناد الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان مجاز عقلي مبنيٌّ على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل. وفي الآية إشارة إلى أنّ الشيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم؛ لأنّه يسره أن يراه في حالة سوء وفظاعة!..

﴿**إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**﴾: هذا تعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، وتحذير من كيده، وفيه إظهار للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر الناس منهم. وذكر القبيل للدلالة على أنّ له أنصاراً ينصرونه على حين غفلة من الناس. وتأكيد الخبر بحرف التوكيد؛ لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته، منزلة مَنْ يتردّدون في أنّ الشيطان يراهم، وفي أنّهم لا يرونه. وجملة ﴿**إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾: مستأنفة استئنافاً ابتدائياً قصد منه الانتقال إلى أحوال المشركين في ائتمارهم بأمر الشيطان، تحذيراً للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيراً من أحوالهم. وتأكيد الخبر بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر بالنسبة لمن يسمعه من المؤمنين. والجعل هنا جعل المنكرين، كما يعلم من قوله تعالى: بعضكم لبعض عدو...

﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، وفيه إدماج يكشف باطلهم في تعلّلاتهم ومعاذيرهم الفاسدة، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذبين، بقرينة قوله: قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء. والمقصود منه تفظيع حال دينهم بأنّه ارتكاب فواحش، وتفظيع حال استدلالهم لها بما لا ينتهض عند أهل العقول. وجاء الشرط بحرف إذا الذي من شأنه إفادة اليقين بوقوع الشرط، ليشير إلى أنّ هذا حاصل منهم لا محالة؛ والفاحشة هي كل فعل يتجاوز حدود الله، واللفظ في هذا الموضع على إطلاقه في معناه العام، فإذا فعلوا فاحشة احتجّوا لها بأنّهم وجدوا آباءهم عليها وأنّهم فعلوها بأمر من الله!.

ويعاجلهم القرآن بالرد: **﴿قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾**؟!. فهذا القول تكذيب لهم من طريقي العقل والنقل. أما العقل فتقريره أنّ هذا الفعل لا خلاف بين العقلاء في أنّه من الفحشاء، والله سبحانه وتعالى منزّه عنه. وأما طريق النقل فهو أنّ ما يسند إلى الله تعالى من أمر ونهي لا يثبت بمجرد الدعوى، بل يجب أن يُعلَم بوحْي منه تعالى إلى رسول من عنده ثبتت رسالته بتأييده له بالآيات البينات. فالاستفهام في قوله: أتقولون على الله ما لا تعلمون للإنكار المتضمّن التوبيخ!. وبَعْدَ أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم في هذا الطريق النقلي، وهو من باب السلب والنفي، توجهت النفوس إلى معرفة ما يأمر به تعالى من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والخصال، فبيّنه بطريق الاستئناف أمراً لرسوله: **﴿قل أمر ربّي بالقسط﴾**، وهذا تعليم لهم بنقيض جهلهم، وتنويهاً بجلال الله تعالى، بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر به الله. ولأهميّة هذا الغرض ولمصادّته لمدّعاهم المنفي فصلت هذه الجملة عن التي قبلها، ولم يعطف القول على القول، ولا المقول على المقول؛ لأنّ في إعادة فعل القول وفي ترك عطفه على نظيره لَفْتاً للأذهان إليه، والقسطِ هنا بمعناه الأعم، وهو الفضيلة في كل قول وفعل..

وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها. ثم أعقبه بأمر النبيء ﷺ بأن يقول لهم عن الله: **﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾**، والقصد منه إبطال بعض ما زعموا أنّ الله أمرهم به بطريق أمرِه بضدّ ما زعموه؛ ليحصل أمرهم بما

يرضي الله بالتصريح، وإبطال شيء زعموا أنّ الله أمرهم به بالالتزام؛ وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى في مواضع عبادته، بحال المتهيء لمشاهدة أمر مُهِمٍّ حين يوجه وجهه إلى صوبه لا يلتفت يُمْنَة ولا يُسْرةً. والإخلاص في العبادة أمر محتّم في الدين. ونظير هذه الآية قوله تعالى: وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين. والمقصد منها إبطال الشرك في عبادة الله تعالى، وفي إبطاله تحقيق لمعنى القسط... ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾: هذا إنذار بأنّهم مؤاخذون على عدم الإخلاص في العبادة، وتذكير بالبعث والجزاء على الأعمال. وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز، فإنّها دعوى متضمنة للدليل بتشبيه الإعادة بالبدْءِ... ﴿**فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة**﴾: فيه ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

وجملة هدى في موضع الصفة لفريقاً الأوّل. وقد حذف الرابط المنصوب. وجملة حق عليهم الضلالة صفة فريقاً الثاني. وقوله: ﴿**إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله**﴾ استئناف يراد به التعليل لجملة حقت عليهم الضلالة، وعطف جملة ﴿**ويحسبون أنّهم مهتدون**﴾ على جملة اتخذوا فكان ضلالهم ضلالاً مركباً. وهنا نلمح التناسق بين هذا التعقيب والقصة التي سلفت، ثم بينه وبين مطلع السورة بعد النذير: اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون. ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين**﴾: إعادة النداء في صدر هذه الجملة للاهتمام. وتعريف المنادَى بطريق الإضافة بوصف كونهم بني آدم، متابعة للخطاب المتقدم في قوله: يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً.

والقصد من هذا التوجيه إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التعرّي في الحج، وإبطال التحريم الذي اخترعوه في مناسبات عدّة.. فجاء النص هنا يدعو إلى الزينة المعتدلة في مواطن العبادة. وهذا هو الإسلام الذي يكره للناس الشظف والحرمان كراهيته للترف والإسراف؛ فالقصد والاعتدال هما سمة الإسلام، والتوازن هو خصيصته التي تنافي التفريط والإفراط، «إنّه لا يحب المسرفين...».

﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾؟: افتتاح الجملة بقل دلالة على أنّه كلام مسوق للرد والإنكار والمحاورة. والاستفهام

إنكاري قصد به التهكم؛ إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يُطلب منهم البيان والإفادة، ولوضوح انتفاء تحريمها، وأنّه لا يقوله عاقل، وأنّ السؤال سؤال عالم لا سؤال طالب علم؛ أمر السائل بأن يجيب بنفسه سؤال نفسه، فعُقب ما هو في صورة السؤال بقوله: ﴿**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**..﴾ فهي لهم في الدنيا بالأصالة، والكافرون تبع لهم على مقتضى سنة الله في رزق الدنيا. أمّا في الآخرة فهي: ﴿**خالصة يوم القيامة. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾: كذلك التفصيل الذي فصّلته لكم هنا نفصّل الآيات... يحددّ تفصيلنا إيّاها حرصاً على نفع قوم يعلمون. والمراد بقوم يعلمون: الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها، والتعريض بجهل وضلال المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم رغم ما فصل لهم من الآيات...

﴿**قل إنّما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾: القصر المفاد من إنّما قصر إضافيّ مفاده أنّ الله حرّم الفواحش وما ذكر معها، لا ما حرّمتموه من الزينة والطيبات؛ فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد بطريق التعريض أنّ ما عدّه الله من المحرمات الثابت تحريمها قد تلبّسوا بها؛ فأفاد تحليل ما زعموه حراماً، وتحريم ما استباحوه من الفواحش وما معها. وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهلية فيما تلبّسوا به من الفواحش والآثام... ﴿**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾: لمّا نعى على المشركين ضلالهم وتمردهم بعد أن دعاهم إلى الإيمان، وإعراضهم عنه بالمجادلة والتوبيخ، وإظهار نقائصهم بالحجة البينة، وكان حالهم حال من لا يقلع عما هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم إقامة للحجة عليهم، وإعذاراً لهم قبل حلول العذاب بهم، وهذه الجملة تؤكد الغرض من جملة: وكم من قرية أهلكناها.

وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد، بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم، على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ، بقياس الحاضر على الغائب الماضي، فيكون الوعيد خبراً معضوداً بالدليل والحجّة. والمراد بالأمة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك.. أو تكذيب الرسل.. كما يدل عليه

السياق. والمجيء في الحلول المقدر له، كقولهم جاء الشتاء. وأظهر لفظ أجل في قوله: إذا جاء أجلهم، ولم يُكتف بضميره لزيادة تقرير الحكم عليه، ولتكون هذه الجملة مستقلة بنفسها غير متوقفة على سماع غيرها؛ لأنّها بحيث تجري مجرى المثل. وإرسال الكلام الصالح لأن يكون مثلاً طريقٌ من طرق البلاغة. ويستأخرون ويستقدمون بمعنى يتأخرون ويتقدمون، فالسين والتاء للتأكيد، وهو تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلص من وعيد أو نحوه، بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع أن يتحرك إلى الأمام ولا إلى الوراء!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ألمص. كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾: يوجّه الكلام هنا إلى الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم -؛ لأنّه الرسول المبلغ لهذا الكتاب الذي أنزله الله إليه، وهو في حاجة إلى التشجيع على احتمال ما يواجهه من عنت وإعراض من المتعنتين والمعارضين: فلا يكن في صدرك حرج منه. ثم بيّن الغرض من إنزال هذا الكتاب إلى هذا الرسول؛ لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فهو للإنذار والتذكير؛ إنذار المكذبين، وتذكير المؤمنين. والإنذار يبعث الخوف، والتذكير يستحثّ الطاعة، ولقد أنزل الكتاب لما هو أوسع من الإنذار والتذكير، أُنزل لبيان العبادات والتكاليف التي يذكّر بها وينذر مهمليها، وأُنزل لبناء المجتمع وتنظيمه، والتشريع له والحكم فيه، وإنذار من يخالف عن نظامه الذي أراده الله له، ولتذكير من ينسى أو يغفل عنه.

ولكن غرض الإنذار والتذكير يبرز هنا بصفة خاصة؛ لأنّ شأن السورة كله يتمه ويحققه ويبرزه، لذلك ينتقل السياق إخبار الرسول بالغرض من الكتاب إلى أمر البشر باتباع ما أنزل إليهم في هذا الكتاب، ونهيهم عن اتباع الأولياء من دون الله، وتنبيههم إلى طبيعة النسيان فيهم ليحترسوا من هذا النسيان... **﴿اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾**!. وفي الخطاب للرسول ﷺ كان الكتاب منزلاً إليه بشرعه «كتاب أنزل إليك». وفي الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربّهم «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم»، وكلا الأمرين حق مع اختلاف الاعتبار، واختلاف الغرض من هذا الإسناد.

فأمّا الرسول فالكتاب منزّل إليه باعتبار الرسالة؛ لينذر به ويذكّر، وأمّا البشر فالكتاب منزّل إليهم من ربّهم باعتبار الطاعة؛ ليؤمنوا به ويعملوا بما فيه، وينهضوا بتكاليفه التي أرادها لهم ربّهم للتربية والتقويم. قليلاً ما تذكرون: لو كنتم تذكّرون لذكرتم مصارع الأمم قبلكم حين لَجّت في العصيان، أو لجّت في النسيان: ﴿**وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون**﴾: وهذا إنذار وتحذير وتخويف من عذاب الدنيا الذي يأتي فجأة في الليل أوفي القيلولة، والوقتان وقتا دَعَة واستراحة؛ ففيه إيذان بأنّه لا ينبغي للعاقل أن يأمَن صفْو الليالي ولا مواتاة الأيام، ولا يغتر بالرخاء فيعُدُّه آية على الاستحقاق له الذي هو مظنة الدوام، وقد يعذر بالغفلة قبل مجيء النذير، وأما بعده فلا عذر ولا عذير!.

وفيه تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزة عصبيتهم، وبما كانوا يزعمون أنّها آية رضى الله عنهم. وعندما يأتي المكذّبين عذابُ الدنيا يستأصلهم وينهي غرورهم يستقبلهم عذاب الآخرة؛ يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع فيقرون بالحقيقة المرّة أمام الأشهاد: ﴿**فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين. فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين. فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين. والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**﴾. إنّ الكلام هنا مرتبط بعضه ببعض من قوله: فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنا ظالمين. . . . إلى قوله: ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون، فلا يجوز تفكيكه من بعضه ويبتعد المعنى عن مجرى السياق، كما فعل بعض المفسرين في إيراد أحكام خارجة عن الموضوع.

ونهاية القول في حكم هذا الموضوع: أنّ المكذّبين بالقرآن المتبعين لوساوس الشيطان المتخذين أولياءَ من دون الرحمان، يأخذهم عذاب الدنيا غرّة بعد فوات الأوان. . وإذا بهم أمام الأشهاد وجهاً لوجه يوم القيامة، وأمام الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان. . . ﴿**ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون**﴾: هذا تذكير للناس بأنّ الله هو ولي الخلق؛ لأنّه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، وهو توبيخ على قلة شكرهم كما دل عليه تذييل الجملة بقوله: قليلاً ما تشكرون. وفي

التعقيب بهذه الآية لآية: وكم من قرية أهلكناها، إيماء إلى أنّ إهمال شكر النعمة يُعرّض صاحبَها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: أهلكناها.

التوجيه الثاني: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين﴾: في هذا التوجيه خطاب شامل لكل البشر يبيّن فيه مبدأ الخلق:

الأول؛ حيث خلق آدم من تراب وماء وهو الطين، ثم صوره بشراً سوياً. فالمراد من الخلق والتصوير هنا خلق آدم أبي البشر جميعاً بدليل قوله: ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وهنا تتمثل كرامة الجنس البشري على الله، كما تتمثل الطاعة المطلقة من الملائكة.. ثم تتمثل لنا طبيعة العصيان والاستكبار في إبليس: **﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**: وفي هذا السؤال والجواب إظهار لحقيقة هذا المخلوق، وما فيه من حسد وتكبّر وعصيان:

الأول: الاعتراض على ربّه وخالقه كما تضمنه جوابه.. ومِثْلُهُ في هذا كل من يعترض على كلام الله تعالى فيما لا يوافق هواه.

الثاني: الاحتجاج عليه بما يؤيد به اعتراضه، والمؤمن المذعن لا يحتج على ربّه بل يعلم أنّ لله الحجّة البالغة.

الثالث: جعل امتثال أمر الرب تعالى مشروطاً باستحسان العبد له وموافقته لرأيه وهواه، وهو رفض لطاعة الرب وترفُّع عن مرتبة العبد، وتعالٍ منه إلى وضع نفسه موضع الند، وهو في حُكْمِ الدين كُفْر، وفي العقل حماقة وجهل.

الرابع: الاستدلال على الخيريّة بالمادة التي كان منها التكوين، وهذا جهل ظاهر.

الخامس: حكم إبليس بأنّ النار خير من الطين حكم بدون دليل.

السادس: أنّ إبليس اللعين غفل عمّا خص الله به آدم من خلقه بيده والنفخ فيه من روحه، وجعل استعداده العلمي والعمل فوق استعداد غيره من خلقه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وجعله بتلك المزايا أفضل من أولئك الملائكة، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة.

فهذه أصول الجهل والغباوة التي أوقع إبليس فيها حسده لآدم واستكباره عن طاعة الله بالسجود له. . . ﴿**قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين**﴾: هكذا يتلقى إبليس جزاءه عاجلاً على العصيان والتمرد والاستكبار طرداً مع الهوان والصغار والذلة والاحتقار!. . ﴿**قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنّك من المنظرين**﴾: هنا تنكشف طبيعة إبليس عن خصائصها الأصلية؛ شرٌّ ليس عارضاً ولا وَقْتِيّاً، فهو يؤديها على مدى الحياة في الزمن الممتد الطويل: ﴿**قال: فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾: إنّ الآية هنا واضحة في إظهار وظيفة الشيطان، وما هو دوره في مراده من غواية الإنسان. . فهو يتوعّدُه بأن يكون لهم بالمرصاد في كل مكان، يصدهم عن طريق الإيمان، فيأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم من جهة الشمائل والأيْمان!. .

﴿**قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين**﴾: بذلك تم الإنذار للبشر، ووقع التحذير من اتباع الشيطان تنسيقاً مع بدء السورة ومع موضوعها الأصيل. ثم يوجه الخطاب إلى آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة فيأكلا منها ما شاءَا أو كيف شاءَا غير شجرة معينة لهما، منعا من قربها ومن الأكل منها: ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾. ثم جاء الشيطان يحقّق وعيدَه، ويؤدّي دورَه، ويقعد على الصراط المستقيم، ويأخذ على آدم وزوجه الطريق، ويتخذ كل وسيلة ويضرب بكل سلاح: ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين. فدلاّهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدو مبين**﴾.

﴿**قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين. .**﴾ وإلى هنا نقف؛ لأنّ النص لا يعطينا وراء هذا شيئاً، والنص هنا هو السند الوحيد الذي لا نملك سنداً سواه، فلا نحتاج فيه إلى زيادة مستزيد. . والأخذ بالأحوط في هذه الغيبيات فلا نذهب وراء الخيال الشريد. ثم يأتي الدور الأخير من حياة

آدم وزوجه في مقرهما المعد لهما في الأرض مع عدوهما الألدّ؛ إبليس اللعين: **﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾**.

﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون. .﴾ وهبطوا جميعاً؛ آدم وزوجه وإبليس؛ هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، ولتدور المعركة بين خليقتين وطبيعتين: إحداهما خالصة للشر، والأخرى مزيج من الاستعداد للخير والشر، وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض ويُمكّنُوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين، وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا، ثم يخرجون منها يوم البعث والنشور. وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات ينتصر فيها الإنسان ما عاذ بربه والتجأ إليه، وينهزم فيها ما تولى عدوه واستمع إليه. وهذا هو موضع العبرة من المبدإ الأصيل.

التوجيه الثالث: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون. يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾: الآن يتجه السياق إلى بني آدم الذين عرض عليهم قصتهم الأولى، يذكرهم نعمة الله عليهم في حياتهم الدنيا، ويحذرهم الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة. وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وَقْعٌ عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لَقِيهُ من وسوسة الشيطان.

ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منّة عليه وقد تقلدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنّة لهم بعنوانٍ يدل على أنها منّة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمي تيسير اللباس لهم وإلهامهم إيّاه إنزالاً؛ لقصد تشريف هذا المظهر. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنّه ممّا كرّم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض. واللباس الذي أنزله الله على الناس له ثلاثة مقاصد: المقصد الأول: مواراة السوأة التي تسوء الإنسان النظرة إليها. والثاني: التجميل والتزيين، بحيث يَظْهَرُ الإنسانُ لائقاً في أعين الغير. والثالث: تقوى الله في هذا اللباس؛ ليظهر الإنسان أمام ربه، بحيث

لا يلبس هذا اللباس عجباً وكبراً وخروجاً به إلى ما نهى عنه. وهذه المراتب الثلاث في اللباس خير ما اختار الله في اللباس.

وهي من آيات الله الدالة على تكريم الإنسان ورفعه إلى مرتبة تقهر وتذل الشيطان؛ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون!. ومن أجل ذلك يأتي التحذير من فتنة الشيطان لبني الإنسان، يذكرهم فتنة أبويهم حين انصاعا له، فغرهما وخدعهما بنزعه لباسهما لِيَظْهَرَا أمامه مكشوفين عريانين. ثم يؤكد هذا التحذير من أن الشيطان وقبيله ـ وهم ذريته وجنوده من الجن ـ يرون الإنس، والإنس لا يرون الشياطين، فهم مُجهَّزون إذَنْ بقدرة على رؤية البشر، وقادرون على أن ينالوا البشر بالوسوسة والإغراء، كما وسوس وأغرى الشيطان أبوي البشر، بينما بنوا آدم لم يجهّزوا بالقدرة على رؤية الشيطان، فهم عاجزون عن دفع أذاهم إلا بالالتجاء إلى الله، وإلا بذكره وتقواه. والله ولي المؤمنين.

فأما الذين لا يؤمنون فقد تركهم للشياطين؛ فهو إذَنْ تسليم الذين لا يؤمنون لعدوهم المبين!. . **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾**: هؤلاء الذين لا يؤمنون الذين تُرِكُوا لعدوهم الأكبر يتولاهم ويقودهم إلى المصير الذي أنذرهم به، والذي أوعدهم الله بعقابه عليه؛ هؤلاء؛ إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها!. وعاجلهم القرآن بالرد: قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون؟!. وقد ردَّ الله عليهم بقوله لرسوله: قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. وهذا خاص بأحوال المشركين المكذبين بقرينة قوله: قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. والمقصود منه تفظيع حال دينهم بأنّه ارتكاب فواحش. وتفظيع حال استدلالهم لها بما لا يَنهَضُ عند أهل العقول.

ودلّت الآية على إنكار ما كان مماثلاً لهذا الاستدلال، وهو كل دليل توكأ على اتباع الآباء في الأمور الظاهر فسادُها وفحشها، وكل دليل استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه؛ فإن قولهم: والله أمرنا بها دعوى باطلة؛ إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطةِ مُبَلِّغ فإنهم كانوا ينكرون النبوءة. فمن أين لهم تلقى مُراد الله تعالى؟. وقد ردّ الله عليهم بقوله لرسوله: قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء، وهذا نقض لدعواهم أنّ الله أمرهم بذلك. وهو رد عليهم وتَعْلِيم لهم، وإفاقة لهم من

غرورهم؛ لأن الله متصف بالكمال، فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء. وكون الفعل فاحشة كَافٍ في الدلالة على أن الله لا يأمر به؛ لأن الله له الكمال الأعلى. وما كان اعتذارهم بأن الله أمر بذلك إلا عن جهل. ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التوبيخى بقوله: أتقولون على الله ما لا تعلمون؟!. وبهذا الرد تمحص عملهم تلك الفواحش للضلال والغرور واتباع وحي الشيطان إلى أوليائهم أئمة الكفر وقادة الشرك.

التوجيه الرابع: ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾: في هذا التوجيه يأمر الله نبيه محمداً . صلى الله عليه وسلم . بأن يقول للناس: أمر ربي بالقسط.. وهو العمل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الشيء، وهو الفضيلة في كل قول وفعل؛ بأن يكون ملائماً للصلاح عاجلاً وآجلاً، والمراد بالقسط هنا معناه الأعم، وخلاصته: عبادة الله وحده بإقامة الوجوه في المساجد؛ لأن ذلك هو المطلوب من تعظيم المعبود سبحانه وتعالى، وعبادته بإخلاص الدين له... **﴿كما بدأ كم تعودون﴾**: هذا تذكير بالبعث والجزاء على الأعمال، ودعوة إلى الإيمان به في إثر بيان أصل الدين، ومناط الأمر فيه والنهي الوارد في سياق أصل تكوين البشر واستعدادهم للإيمان والكفر والخير والشر، وما للشيطان في ذلك من إغواء الكافرين الذين يتولونه، وعدم سلطانه على المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله، وهو الفريق الذين هداهم الله. أمّا الفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ فهم الذين اتخدوا الشياطين أولياء من دون الله، **﴿ويحسبون أنّهم مهتدون﴾**.

ثم يتكرر النداء إلى بني آدم دعوة في هذه المرة إلى الاستمتاع الحلال، بزينة الله التي أخرجها لعباده وعرّفهم إياها؛ من اللباس والرياش، وبالطيبات من الرزق، في الطعام والشراب، في غير إسراف ولا اعتداء على حدود الله.. فالله لم يحرم زينة الحلال، ولم يحرم الطيب من الرزق، ولم يرد بالناس الشظف والمتربة والحرمان؛ إنّما كرّه لهم الإسراف؛ لأنه فحش وتجاوز للقصد، وكرّه لهم الترف؛ لأنّه مُفسد للفطرة، وكرّه لهم أن يكونوا عبيداً للمتاع لا يملكون الاستغناء عنه عند ما يجب الاستغناء. والفرد إذا اسْتُعْبِدَ للمتاع فقد إرادته، وتعرّض للذلّ وللتنازل عن مقدساته لمن يملك أن يحرمه متاعه الذي صار له عبداً، فأمّا إذا ظل

يستمتع في اعتدال مالكاً لأمره، قادراً على الاستغناء عن المتاع حين يشاء؛ فلا حرج حينئذ في المتاع، بل هو مطلوب مستحب؛ لأن الله يُحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده.

ومِن ثَمَّ نجد هنا نداءً لبني آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل صلاة، وأن يتمتعوا بالأكل والشرب وبكل طيبات الحياة: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين**﴾: هذا الأمر بالزينة عند كل مسجد ـ لا المسجد الحرام وحده ـ أصل من أصول الإصلاح في الإسلام؛ الدينية والمدنية، يعرف قيمته من قرأ تاريخ الأمم، واطلع على دياناتهم وما كانوا عليه من الضلال في اللباس والأكل والشرب وفواحش الخصال؛ فمن عرف مثل هذا عرف قيمة هذا الأصل الإصلاحي للنساء والرجال.

وهذا الأمر بالقسط والنهي عن الإسراف غاية في القصد والاعتدال. وهما اللذان خاطب الله بهما الناس كلهم، وهو يختلف باختلاف اليسر والعسر والزمان والمكان. هذا وإنّ الاقتصاد في قدر المعيشة، وضعت له قواعد وأصول فرعت منها مسائل وفروع؛ فيحسن الاستنارة بها وبعلم تدبير المنزل، على اجتناب ما حظره الشرع من الإسراف والتبذير والبخل والتقتير، واتباع ما حثَّ عليه ورغَّب فيه من القصد والاعتدال في النفقات والصدقات، حسب ما تفرع من القرآن في كثير من الآيات. . . ﴿**قل: من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾؟: حرَّمتِ العربُ في جاهليتها زينة اللباس في الطواف؛ تعبداً أو قربة، وحرّم بعضهم أكل بعض الطيبات من الأدهان وغيرها في حال الإحرام بالحج كذلك.

وحرموا من الحرث والأنعام ما بيّنه تعالى في سورة الأنعام، وحرّم غيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب كثيراً من الطيبات والزينة كذلك. فجاء دين الفطرة الجامع بين مصالح البشر في معاشهم ومعادهم، المطهّر المربي لأرواحهم وأجسادهم ينكر هذا التحكم والظلم للنفس، ويدل على أن هذا التحريم من وساوس الشياطين. فالزينة غير مذمومة في نفسها، وإنما يُذمُّ الإسراف فيها، والغفلة عن شكر المنعم بها. ولا وجه إذن لتحريمها، ولا لجعلها عائقاً عن الكمال، بحيث يُعبد الله تعالى ويتقرب إليه بتركها، كما جرى عليه وثنيُّو البراهمة وغيرهم، وسرت عدواه التقليديّة إلى أهل الكتاب غُلوّاً في الدين، وسرت عدوى هؤلاء وأولئك إلى كثير

من المسلمين، فصاروا يبثون في الأمة أنَّ أصل الدين وروحه وسره في تعذيب النفس وحرمانها من الطيبات والزينة.. وقد كذّب اللهُ الجميعَ بقوله: ﴿**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون**﴾.

ومن هذا نعلم أنّ الزينة والطيبات من الرزق، هي حق المؤمنين في الدنيا، وأنّها لهم بالذات والاستحقاق، وأنّ الكافرين تبعٌ لهم فيها. أمّا في الآخرة، فهي خالصة للمؤمنين، ولا مطمع فيها للكافرين. كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون. والمراد بقوم يعلمون الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها. والتعريض بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم رغم ما فصّل لهم من الآيات... ﴿**قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾: هذا الكلام جيء به هنا لبيان ما حرّمه الله تعالى بعد إنكار أن يكون حرّم الزينة والطيّبات؛ لأنّ الحال تقتضي أن يُسأل عنه: قل أيُّها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم من أهل الملل الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا على الله بزعمهم، أنّ الله حرّم على عباده ما أخرج لهم من نعم الزينة والطيّبات من الرزق؛ إنّما حرم ربّي في كتبه وعلى ألسنة رسله، هذه الأنواع من أعمالهم الضارة، التي يجنون بها على أنفسهم، فجعل تحريمها هو الدائم الذي لا يباح بحال من الأحوال، كما يدل عليه الحصر بإنّما، وهذه المحرمات المحصورة، هي كما يلي:

أولاً: الفواحش: الظاهرة والباطنة، وقد كانوا في الجاهلية يستحلُّون هذه الفواحش، وهي مفاسد قبيحة لا يشك أولو الألباب ـ لو سُئلوا ـ أنّ الله لا يرضى بها. والمراد بالفواحش هنا: الزنا واللواط والقذف والكلام البذيء المتعلق بالرفث المحرم والفسوق.

ثانياً: الإثم: كل ذنب يرتكبه الإنسان من قول أو فعل، فهو أعم ممّا قبله.

ثالثا: البغي بغير الحق: هو الإثم الذي فيه تجاوز لحدود الحق، وذلك مثل الاعتداء على حقوق أفراد الناس أو جماعاتهم أو شعوبهم، وهذا أشد وأقبح ممّا قبله.

رابعاً: الشرك بالله: عبادة غير الله من إنسان أو حيوان أو أي كائن من الأكوان، وهذا غاية ما تورط فيه الإنسان من الإثم والعدوان!. «ومن يشرك بالله فكأنّما خرّ مِنَ السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق».

خامسا: القول على الله بغير علم: هذا هو أعظم هذه الأنواع من أصول المحرمات؛ لأنه سبب الإشراك والبغي والإثم وكل الفواحش ما ظهر منها وما بطن!. والقول على الله بغير علم منشأ الأديان الباطلة، وآفة الأديان المحرفة، ومصيبة الدين الحق، حيث أصيب المسلمون بدعاة البدع والضلال؛ «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم..»! **﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**: في هذه الآية غاية التحذير ونهاية الإنذار؛ لكل من يقرأ أو يسمع هذا الكلام، فهو يرجع بنا إلى قوله: اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون.

5 - إتيان الرسل الكرام حجة على جميع الأنام

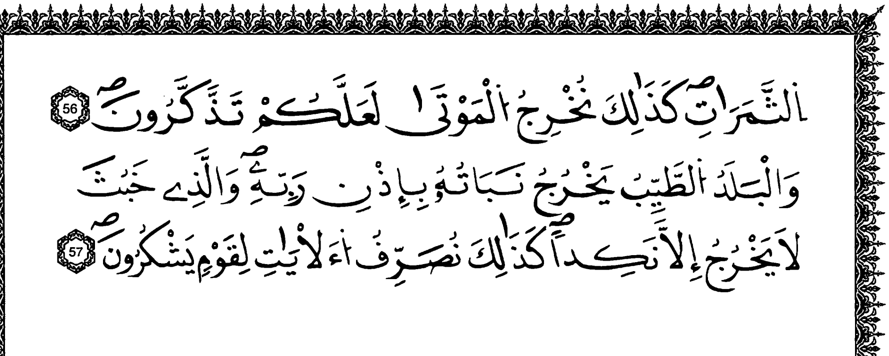
النص

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿33﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿34﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿35﴾

* قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿37﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿38﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (39) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (40) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (41) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (42)
وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا
رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ
بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (43) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (44) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ
وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ
وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَطْمَعُونَ (45) * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ
قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (46) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ
رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ (47) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (48)

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ
أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿49﴾
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿50﴾
وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿51﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي
كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ﴿52﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ
حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ
وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿53﴾ * ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ
تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿54﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ
قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿55﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًا
بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ
لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ



البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**يقصون عليكم آياتي**﴾: يتلونها ويحكونها ويظهرونها متتابعة آية بعد أخرى. وأصل القص في اللغة: اتباع الحديث بعضه إثر بعض، المأخوذ من اقتصاص أثر الأرجُل واتباعه لتعرف جهة الماشي. والآيات جمع آية، أصلها العلامة الدالة على شيء، وآيات الله: الدلائل التي جعلها دالة على صحة خبره... ﴿**فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾: اتقى جعل بينه وبين ما يضره عاجلاً وآجلاً وقاية تقيه منه، والاسم التقوى، ومعناها شرعاً: خوف الله مع العمل بما جاء في كتابه على لسان رسوله. وأصلح: جعل منه عملاً صالحاً مقبولاً، والعمل الصالح في الشرع ما حث عليه وجعل له نتيجة حسنة. والخوف: توقع المكروه في المستقبل. والحزن: الهم بما وقع في الماضي من السوء؛ فيحصل للنفس انزعاج وكدر... ﴿**والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾: كذّب بالأمر أنكره، ومعناه هنا: أنكروا الآيات التي جاء بها الرسول من عند الله، ومصدر استكبروا الاستكبار، وهو مبالغة في التكبر، وهو أن يعد الإنسان نفسه عظيماً وما هو به، وتضمن هنا معنى الإعراض بدليل حرف عن.

وأصحاب النار: ملازموها فلا ينفكون عنها لملازمة الصاحب لصاحبه. والخُلْد والخلود: البقاء والدوام... ﴿**أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**﴾: أصل النيْل: إصابة الإنسان شيئاً لنفسه بيده، فيقال نال فلان كسباً، وما هنا جاء

بالعكس؛ فالنصيب نال المفترين المكذبين، والنصيب: الحظ الصائر لأحد المتقاسمين من الشيء المقسوم.

ونصيبهم من الكتاب: الوعيد الذي جاء به القرآن من عذاب المكذبين. . . ﴿**حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم**﴾: الرسل هنا: الملائكة. والتوفي: نزع الروح من الجسد. . . ﴿**قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله**﴾: أين آلهتكم التي كنتم تزعمون أنّهم ينفعونكم عند الشدائد، ويردون عنكم العذاب؟. . ﴿**قالوا ضلُّوا عنا**﴾: غابوا عنا فلم يحضروا. . . ﴿**وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين**﴾: اعترفوا بأنّهم كانوا كافرين بعبادتهم غير الله. . . ﴿**قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار**﴾: ادخلوا في النار مع الأمم الكافرة التي سبقتكم من الجن والإنس. . . ﴿**كلّما دخلت أمة لعنت أختها**﴾: كل أمة من الأمم تدخل النار تلعن كل أخت لها، والمراد بأختها: المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في النار. . . ﴿**حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾: أصل ادّاركوا تداركوا، ومعناه: تلاحقوا واجتمعوا في النار. الأولى: المتبوعة في المرتبة والاعتبار. والأخرى: التابعة لها. تقول: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، فهي تطلب لهم عذاباً زائداً حسب ضلالهم وإضلالهم، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون: يضاعف العذاب لكل من الأولى والأخرى؛ لأن كلا منهما ساعد صاحبه في زيادة الضلال لنفسه في الدنيا، ولكن لا تعلمون حقيقة الأمر وفظاعة الكفر!.

﴿**وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون!. . إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين: لا تفتّح لهم أبواب السماء**﴾ كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلـهية المحضة. وقوله: ﴿**ولا يدخلون الجنة**﴾ إخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النار. والولوج: الدخول. والجمل: البعير. وسم الخياط: ثقب الإبرة. والإجرام: فعل الجرم، وهو الذنب العظيم. . . ﴿**لهم من جهنم مهاد**﴾: المهاد الفراش. . . ﴿**ومن فوقهم غواش**﴾: غواش جمع غاشية، وهي ما يغشى

الإنسان فيكون غطاء له. . . **﴿لا نُكلف نفساً إلا وسعها﴾**: الوسع: الطاقة، وهو العمل بقدر المستطاع. . . **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾**: النزع قلع الشيء من موضعه. والغل: الحقد والإحْنة والضغْن التي تحصل في النفس عند إدارك ما يسوؤها من عمل غيرها. . . **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾**: يرونها وهم في غرفات قصورهم. . . **﴿وقالوا الحمد لله﴾**: ثناء على الله بما حصل لهم من النعيم. . . **﴿الذي هدانا لهذا﴾**: حيث بين لهم دين الحق. . .

﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾: حيث أن الإنسان لا يستطيع أن يهتدي إلى دين الحق بنفسه، بل لابد من وحي من عند الله يأتي به رسول منه تعالى. . . **﴿لقد جاءت رسل ربّنا بالحق﴾**: حيث بلّغونا وأرشدونا إلى الصراط المستقيم. . . **﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾**: النداء من قبل الله نداء تكريم وتبشير، ويطلق النداء غالباً على دعاء أحد ليقبل بذاته، أو يفهمه لسماع كلام. والإرث: في أصل اللغة، مصير مال الميت إلى أقرب الناس إليه، ومعنى إرث الجنة هنا: أعطيتموها عطية هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة بسبب عملكم الصالح. . . **﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾**: النداء هنا: إظهار ما فيه أهل الجنة من النعيم، وما فيه أهل النار من العذاب الأليم، حيث صرّحوا مغتبطين أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟. قالوا: نعم، وهذا تصريح من أهل النار بحصول الوعد والوعيد. . .

﴿فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾: التأذين: رفع الصوت بالكلام رفعاً يُسمع البعيد بقدر الإمكان، وهو مشتق من الأُذن جارحة السمع المعروفة، وهذا التأذين إخبار بأن أهل النار مبعدون عن رحمة الله. والتعبير عنهم بالظالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب. . . **﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾**: هذا هو سبب وصفهم بالظلم، حيث كانوا في الدنيا يمنعون أنفسهم وغيرهم من الدخول في الإسلام، ويرومون ويحاولون إظهار سبيل الله عوجاء حيث يختلقون لها نقائص يموهونها على الناس تنفيراً عن الإسلام. . . **﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾**: وبين الجنة والنار حجاب، وهو ما يكون فاصلاً بين شيئين.

والأعراف: جمع عُرف وهو أعلى الشيء، ومنه سمي عرف الفرس وعرف

الديك، وعرف الشجرة، وهي شرفات يشرف عليها رجال يعرفون أصحاب الجنة بسيماهم، وهي الأوصاف التي وصف بها أهل الجنة، ويعرفون أصحاب النار بسيماهم، وهي الأوصاف التي وُصف بها أهل النار. . . ﴿**ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون**﴾: النداء موجه من الرجال الذين هم على الأعراف، إلى أهل الجنة الذين دخلوها. والسلام: إلقاء تحية وإكرام. والذين هم على الأعراف لازالوا ينتظرون دخول الجنة طامعين فيها. . . ﴿**وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾: صرف الأبصار هنا: لفت الأنظار إلى جهة النار؛ ليروا ما يلاقيه أهلها من الأنكال والأهوال، فيستعيذوا بالله من أهل الظلم والضلال. . . ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**﴾: النداء هنا موجّه إلى رجال معروفين في الدنيا لبعض أهل الأعراف بأوصاف تميزوا بها، حيث ذكروهم بها في وقت لا تغني عنهم شيئاً: قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. . .

﴿**أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**﴾: والظاهر أن هذا النداء يكون من بعضهم، لمن كانوا يعرفونهم في الدنيا؛ من المستكبرين بغناهم وقوتهم المحتقرين لضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم. . . ﴿**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرمهما على الكافرين**﴾: إن أهل النار يستجْدُون أهل الجنة أن يُفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام. فمادة الفيض فيها معنى الكثرة. والتحريم هنا بمعناه اللغوي: المنع والحرمان من نعيم الجنة. واللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، وضياع الوقت فيما لا يفيد.

واللعب: العمل الذي لا تقصد منه فائدة كأعمال الأطفال، حيث ترهقهم هذه الأعمال، وحيث اشتق اللعب من لعاب الأطفال!. ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ بمتاعها الزائل، وانخدعوا بما فيها من الباطل، وطمعوا فيما ليس وراءه طائل. . . ﴿**فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون**﴾: المراد بنسيان الله لهم حرمانهم من نعيم الجنة مسبب بنسيانهم لقاء يوم الجزاء،

وبجحودهم بآيات الله ظلماً وعدواً. . . ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدًى ورحمةً لقوم يؤمنون**﴾: لقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن كامل التبيان، وهو القرآن!. فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون؛ فالتفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الأفهام. ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا. . .

﴿**هل ينظرون إلا تأويله**﴾: ومعنى ينظرون: ينتظرون من النظرة التي بمعنى الانتظار. والتأويل: توضيح وتفسير ما خفي من مقصد قول أو فعل، وتحقيقه، ومعناه هنا: وضوح ما عدوه محالاً وكذباً من البعث والجزاء. . . ﴿**يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾: نسوه: تركوه فلم يهتدوا به في الدنيا. والآن يعترفون بالحق عند فوات الأوان. . . ﴿**فهل لنا من شفعاء فيشفعو لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل**﴾: الشفعاء: جمع شفيع، وهو الذي يسعى بالشفاعة لنفع المشفوع له عند من بيده الأمر. والارتداد: الرجوع إلى الدنيا، والمراد بالعمل غير العمل: العمل على مقتضى الأمر والنهي. . . ﴿**قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾: خسران النفس: إضاعة ما ينفعها في الآخرة. وضل عنهم: غاب عنهم ما كانوا يرجونه من أصنامهم المفتراة، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. . .

﴿**إن ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**﴾: بعد تلك الرسالة الواسعة الآماد من المنشإ إلى المعاد، يأخذ السياق بأيدي البشر إلى رحلة أخرى في ضمير الكون، وفي صفحته المعروضة للأنظار، فيعرض قصة خلق السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان. هذه السبحات في ملكوت الله يرتادها السياق؛ ليرد البشر إلى ربّهم الذي خلق هذا الوجود بما فيه. وتخلّص من هذا إلى تلك الرحلة الشاسعة في أقطار الكون من أول نشأته، والستة الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض، هي أيام الله التي لا يستطيع البشر أن يحدوها بحد تصورهم القاصر، «وإن يوماً عند ربك كألف سنة ممّا تعدون»؛ وعندئذ نستبعد كل ما ثار من جدل حول هذا التعبير، ونستبعد قبل ذلك كل ما رسم من صور لهذه الأيام وما تم فيها من خلق، ونقف عند حدود اللفظ لا نتصور لمدلوله صورة معينة. . .

﴿**ثم استوى على العرش**﴾: كذلك نقف هذه الوقفة عند العرش والاستواء، مستبعدين كل ما ثار من الجدل بين أهل النظر وما دار حوله من الآراء... ﴿**يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً**﴾: الإغشاء: جعل الشيء غاشياً. والغشي والغشيان: حقيقته التغطية والغم، فمعنى يُغشي الليل النهار: أنّ الله يجعل أحدَهما غاشياً للآخر. والطلب الحثيث: السرعة الجادّة المستمرة... ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**﴾: التسخير معناه هنا: تصريف الشيءِ غَيْرِ ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم، وأصل التسخير في اللغة: التذليل والتكليف بما يصعب عمله ويشق على النفس حمله، مثل تسخير العبيد والأسرى في العمل الشاق... ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾: الخلق: إيجاد الموجودات. والأمر: تسخيرها للعمل الذي خلقت من أجله... ﴿**تبارك الله رب العالمين**﴾: تبارك: تزايد خيره وفاض بِرُّه، والكلمة جامعة لكل كمال... ﴿**ادعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنّه لا يحب المعتدين**﴾: المراد بالدعاء هنا: الطلب والتوجه بالتضرع إليه والخشوع له. والتضرع: إظهار التذلل بهيئة خاصة، ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء...

﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾: الإفساد: التخريب والتدمير ووضع الشيء في غير موضعه. والإصلاح هنا: له معنيان: إيجاد الشيء صالحاً، وجعل الفاسد صالحاً؛ فالإصلاح هنا مصدر في معنى الاسم الجامد؛ لأنه الإصلاح الثابت في الأرض من وضع الله سبحانه... ﴿**وادعوه خوفاً وطمعاً**﴾: الخوف من غضب الله وعقابه، والطمع في رضاه وثوابه، وهذا الدعاء شرعي... ﴿**وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته**﴾: إرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها. ونُشُراً: جمْع نَشور، وهو نشر السحاب بسبب هبوب الرياح. والرحمة معناها هنا: المطر...

﴿**حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت**﴾: الثقال: البطيئة التنقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو السحاب المرجوّ منه المطر. وحقيقة السَّوْق: تسيير ما يمشي، ومسيره وراءه: يزجيه ويحثه. والبلد الميت: المجدب الممحل المحتاج إلى الماء... ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه**﴾: البلد الطيب: الأرض الموصوفة بالطيب، وطيبها: زكاء تربتها... والذي خبث مقابل البلد الطيب وهو قوله: ﴿**والذي خبث لا يخرج إلا نكداً**﴾. النكد: الشيء غير الصالح الذي يَجُرُّ

على مستعمله شرّاً. . . ﴿**كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون**﴾: التصريف: التنويع والتفنين في أنواع الدلائل.

مبحث الإعراب

﴿**يا بني آدم**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**إمّا**﴾ إن شرطية اتصلت بما. ﴿**يأتينّكم**﴾ فعل مضارع اتصلت به نون التوكيد بني على الفتح في محل جزم، وضمير المخاطبين المتصل بفعل الشرط في محل نصب مفعول به. ﴿**رسل**﴾ فاعل. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسل. ﴿**يقصون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**آياتي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها حركة المناسبة، وياء المتكلم في محل جر مضاف إلى آيات، والجملة في محل رفع نعت ثان لرسل. ﴿**فمن**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، ومن اسم شرط. ﴿**اتقى**﴾ فعل الشرط. ﴿**وأصلح**﴾ معطوف عليه.

﴿**فلا خوف عليهم**﴾ جواب الشرط الثاني، وجملة فمن اتقى. . جواب الشرط الأول. ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ معطوف على قوله: فلا خوف عليهم. ﴿**والذين**﴾ معطوف على قوله فمن اتقى. ﴿**كذّبوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**واستكبروا**﴾ معطوف على كذبوا. ﴿**عنها**﴾ متعلق باستكبروا. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أصحاب**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**هم**﴾ مبتدأ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**خالدون**﴾ مرفوع بالواو خبر المبتدإ. ﴿**فمن**﴾ الفاء للتفريع، ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أظلم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**افترى**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَن. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافترى.

﴿**كذباً**﴾ مفعول به. ﴿**أو كذّب**﴾ معطوف على افترى. ﴿**بآياته**﴾ متعلق بكذب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينالهم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**نصيبهم**﴾ فاعل. ﴿**من الكتاب**﴾ متعلق بمحذوف بيان من نصيبهم، وجملة ينالهم نصيبهم خبر أولئك. ﴿**حتى**﴾ ابتدائية تفيد السببية. ﴿**إذا**﴾ ظرف لزمان مستقبل متضمنة معنى الشرط. ﴿**جاءتهم**﴾ فعل

الشرط، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**رسلنا**﴾ فاعل جاءت، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يتوفونهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب حال من رسلنا. ﴿**قالوا**﴾ جواب إذا. ﴿**أين**﴾ في محل رفع خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تدعون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من دون الله**﴾ متعلق بتدعون، والله مضاف إلى دون، وجملة تدعون خبر كان، وجملة كنتم تدعون صلة ما، وجملة أينما كنتم في محل نصب مقول القول. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل.

﴿**ضلُّوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عنا**﴾ متعلق بضلوا. ﴿**وشهدوا**﴾ معطوفة على قالوا. ﴿**على أنفسهم**﴾ متعلق بشهدوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**كافرين**﴾ خبر كان، وكان واسمها وخبرها في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: شهدوا على أنفسهم بثبوت كفرهم. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**في أمم**﴾ مع أمم. ﴿**قد خلت**﴾ فعل ماض دخل عليه قد، والفاعل ضمير الأمم. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بخلت.

﴿**من الجن والإنس**﴾ بيان للأمم. ﴿**في النار**﴾ متعلق بادخلوا. ﴿**كلّما**﴾ ظرفية زمانية شرطية. ﴿**دخلت أمة**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لعنت أختها**﴾ مفعول لعنت، والفاعل ضمير يعود على أمة، والجملة جواب الشرط. ﴿**حتى إذا ادّاركوا**﴾ مثل حتى إذا جاءتهم رسلنا. ﴿**فيها**﴾ متعلق بادّاركوا. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الضمير الفاعل. ﴿**قالت أخراهم**﴾ فعل وفاعل؛ جواب إذا. ﴿**لأولاهم**﴾ متعلق بقالت. ﴿**ربنا**﴾ منادى حذف منه ياء النداء، وهو منصوب بالفتحة لإضافته إلى ضمير المتكلمين. ﴿**هؤلاء**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أضلُّونا**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**فآتهم**﴾ فعل دعاء دخلت عليه فاء التعقيب. ﴿**عذاباً**﴾ مفعول ثان لآتهم. ﴿**ضعفاً**﴾ نعت لعذاب. ﴿**من النار**﴾ بيان لنوع العذاب. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**لكل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ضعف**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، لكن للاستدراك. ﴿**لا تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه لا النافية. ﴿**وقالت أولاهم لأخراهم**﴾ مثل قالت أخراهم لأولاهم. ﴿**فما**﴾ الفاء فاء الفصيحة، وما نافية. ﴿**كان**﴾ فعل ماض ناقص. ﴿**لكم**﴾ خبر كان. و﴿**علينا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفضل بعدها.

﴿**من فضل**﴾ اسم كان دخلت عليه من الزائدة فجُرَّ لفظه ورُفع محلُّه. ﴿**فذوقوا**﴾ تعقيب على ما سبق. ﴿**العذاب**﴾ مفعول ذوقوا. ﴿**بما**﴾ متعلق بذوقوا. ﴿**كنتم تكسبون**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها صلة ما. ﴿**إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**لا تفتح**﴾ فعل مضارع مبنيٌّ للمجهول منفي بلا. ﴿**لهم**﴾ متعلق بتفتح. ﴿**أبواب**﴾ نائب الفاعل. ﴿**السماء**﴾ مضاف إلى أبواب. ﴿**ولا يدخلون الجنة**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على تفتح. ﴿**حتى يلج**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى التي بمعنى إلى. ﴿**الجمل**﴾ فاعل يلج. ﴿**في سم**﴾ متعلق بيلج. ﴿**الخياط**﴾ مضاف إلى سم. ﴿**وكذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل، وهو في محل نصب نعت لمصدر محذوف. ﴿**نجزي**﴾ فعل مضارع، والفاعل (نحن). ﴿**المجرمين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من جهنم**﴾ متعلق بالخبر كذلك. ﴿**مهاد**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ومن فوقهم غواشٍ**﴾ مثله في الإعراب. ﴿**وكذلك نجزي الظالمين**﴾ مثل وكذلك نجزي المجرمين في الإعراب. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**وعملوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**الصالحات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**لا نكلف**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل (نحن). ﴿**نفساً**﴾ مفعول به. ﴿**إلا وسعها**﴾ منصوب بدل من المفعول الثاني لنكلف، وهو مقدر، والتقدير: لا نكلف نفساً شيئاً إلاّ وسعها، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أصحاب**﴾ خبره. ﴿**الجنّة**﴾ مضاف إلى أصحاب وجملة أولئك أصحاب الجنة في محل رفع خبر الذين آمنوا.

﴿**هم فيها خالدون**﴾ خالدون خبرُ «هم»، والجار والمجرور متعلق بخالدون، والجملة حال من اسم الإشارة. ﴿**ونزعنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**في صدورهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**من غل**﴾ بيان لما. ﴿**تجري**﴾ فعل مضارع. ﴿**من تحتهم**﴾ متعلق بتجري، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل تجري، وجملة ونزعنا اعتراضية، وجملة تجري حالية. ﴿**وقالوا**﴾ الواو للعطف، قالوا فعل وفاعل. ﴿**الحمد**﴾ مبتدأ. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**الذي**﴾ في محل جر نعت لله. ﴿**هدانا**﴾ صلة الذي. ﴿**لهذا**﴾ متعلق بهدانا، وجملة وقالوا معطوفة على جملة أولئك أصحاب الجنة.

﴿وما كنا﴾ كان واسمها دخلت عليها ما النافية. **﴿لنهتدي﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود متعلق بخبر كان المقدّر، والتقدير: وما كنا مهتدين لمطلب من المطالب.

﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط. **﴿أنْ هدانا الله﴾** أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع مبتدأ واقع بعد لولا، وهو محذوف الخبر غالبا، والتقدير: لولا هداية الله موجودة ووفقنا لها لما كنا مهتدين، فجواب الشرط مقدر يدل عليه ما تقدم. **﴿لقد جاءت رسلُ ربّنا بالحق﴾** جملة من الفعل والفاعل مُؤكّدة بلام القسم وقد. **﴿ونودوا﴾** فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، وهو معطوف على وقالوا الحمد لله. **﴿أن﴾** تفسير للنداء. **﴿تلكم﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿الجنّة﴾** خبره. **﴿أُورثتموها﴾** فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والضمير المتصل بعد واو الجماعة مفعول ثانٍ، وجملة أورثتموها في محل نصب حال من الجنة. **﴿بما﴾** متعلق بأورثتموها. **﴿كنتم﴾** كان واسمها. **﴿تعملون﴾** فعل وفاعل، والجملة خبر كان، وجملة كنتم تعملون صلة ما. **﴿ونادى أصحابُ الجنة﴾** فعل وفاعل ومضاف إليه. **﴿أصحابَ﴾** مفعول. **﴿النار﴾** مضاف إلى أصحاب. **﴿أنْ﴾** مفسرة. **﴿قد﴾** للتحقيق. **﴿وجدنا﴾** فعل وفاعل. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول. **﴿وعدنا﴾** ضمير المتكلمين مفعول. **﴿ربنا﴾** فاعل وعد، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿حقاً﴾** مفعول مطلق مؤكد للوعد، أو منصوب على الحال، أو هو مفعول ثان لوجدنا. **﴿فهل﴾** الفاء للعطف والترتيب، وهل للاستفهام. **﴿وجدتم ما وعد ربّكم حقاً﴾** مثل قوله أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً في الإعراب. **﴿قالوا. نعم﴾** جواب الاستفهام. فأذن مؤذن بينهم **﴿الفاء﴾** للتعقيب، و**﴿مؤذن﴾** فاعل أذن، **﴿بينهم﴾** متعلق بالفعل. أن لعنة الله على الظالمين **﴿أنْ﴾** تفسيرية. **﴿لعنة﴾** مبتدأ. **﴿الله﴾** مضاف إلى لعنة. **﴿على الظالمين﴾** متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. **﴿الذين﴾** في محل جر نعت للظالمين.

﴿يصدون﴾ فعل وفاعل صلة الذين. **﴿عن سبيل﴾** متعلق بيصدون. **﴿الله﴾** مضاف إلى سبيل. **﴿ويبغونها﴾** معطوف على يصدون. **﴿عوجاً﴾** مفعول ثانٍ ليبغون. **﴿وهم﴾** مبتدأ. **﴿بالآخرة﴾** متعلق بالخبر بَعْدَهُ. **﴿كافرون﴾** مرفوع بالواو، والجملة معطوفة على جملة الذين يصدون. **﴿وبينهما﴾** متعلق بمحذوف

خبر مقدم. ﴿**حجاب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**وعلى الأعراف رجال**﴾ مثلها. ﴿**يعرفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة نعت لرجال. ﴿**كُلاً**﴾ مفعول به. ﴿**بسيماهم**﴾ متعلق بيعرفون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ونادوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أصحاب**﴾ مفعول به. ﴿**الجنة**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**أنْ**﴾ تفسيرية. ﴿**سلامٌ**﴾ مبتدأ. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**لم يدخلوها**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب حال من فاعل نادوا. ﴿**وهم يطمعون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من الضمير الفاعل في قوله: لم يدخلوها. ﴿**وإذا صرفت أبصارهم**﴾ الجملة من الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**تلقاء**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة متعلق بصرفت. ﴿**أصحاب**﴾ مضاف إلى تلقاء. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ربنا**﴾ منادى، وحرف النداء محذوف. ﴿**لا تجعلنا**﴾ مجزوم بلا، وفاعله يعود على الله، وضمير المتكلمين المتصل مفعول به. ﴿**مع**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى مع. ﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم مجرور بالياء. ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**يعرفونهم**﴾ الجملة في محل نصب نعت لرجال. ﴿**بسيماهم**﴾ متعلق بيعرفون والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل.

ما أغنى عنكم جمعكم ﴿**ما**﴾ نافية، و﴿**عنكم**﴾ متعلق بأغنى، و﴿**جمعكم**﴾ فاعل أغنى، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما**﴾ معطوف على جمعكم في محل رفع. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تستكبرون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كنتم صلة ما، أو ما مصدرية تؤوّل بما بعدها بمصدر مرفوع معطوف على جمعكم. ﴿**أهؤلاء**﴾ الهمزة للاستفهام، وهؤلاء في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**أقسمتم**﴾ صلة الذين. ﴿**لا ينالهم**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**برحمة**﴾ متعلق بينال، وجملة لا ينالهم جواب القسم. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الجنة**﴾ مفعول به. ﴿**لا خوفٌ عليكم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر دخلت عليها لا النافية. ﴿**ولا أنتم تحزنون**﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها. ﴿**ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة**﴾ مثل ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار. ﴿**أن**﴾ تفسيرية. ﴿**أفيضوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**علينا من الماء**﴾ متعلقان بأفيضوا. ﴿**أو ممّا**﴾ معطوف على قوله: من الماء.

﴿رزقكم الله﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول، والله فاعل، والجملة صلة ما. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿حرمهما﴾ ضمير المثنى مفعول، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿على الكافرين﴾ متعلق بحرّم. ﴿الذين﴾ في محل جر نعت للكافرين. ﴿اتخذوا﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿دينهم﴾ مفعول أول. ﴿لهواً﴾ مفعول ثانٍ. ﴿ولعباً﴾ معطوف على لهواً. ﴿وغرتهم﴾ الضمير المتصل مفعول. ﴿الحياة﴾ فاعل. ﴿الدنيا﴾ نعت للحياة مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذّر. ﴿فاليوم﴾ الفاء للتفريع، والظرف متعلق بالفعل بعده. ﴿ننساهم﴾ الضمير المتصل مفعول به، والفاعل (نحن). ﴿كما﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وما مصدرية. ﴿نسوا﴾ فعل وفاعل، وهو مع ما مصدر مجرور ومضاف إلى معنى الكاف، والتقدير: فاليوم ننساهم نسياناً مثل نسيانهم. ﴿لقاءَ﴾ مفعول بالمصدر. ﴿يومهم﴾ مضاف إلى لقاء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿هذا﴾ في محل جر نعت ليوم.

﴿وما﴾ معطوف على ما المصدرية. ﴿كانوا﴾ كان واسمها. ﴿بآياتنا﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿يجحدون﴾ الجملة خبر كان. ﴿ولقد﴾ الواو للعطف على قوله: ونادى أصحاب النار؛ عطف قصة على قصة، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿جئناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بكتاب﴾ متعلق بجئنا. ﴿فصّلناه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر نعت لكتاب. ﴿على علم﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل فصّلناه. ﴿هدى﴾ حال من المفعول منصوب بفتحة على الياء المحذوفة. ﴿ورحمة﴾ معطوف على هدى منصوب بالفتحة الظاهرة. ﴿لقوم﴾ متعلق بهدى. ﴿يؤمنون﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل جر نعت لقوم. ﴿هل﴾ حرف استفهام بمعنى النفي. ﴿ينظرون﴾ فعل وفاعل. ﴿إلاّ تأويله﴾ منصوب بدل من مفعول ينظرون المقدر، والتقدير: ما ينظرون آيةً أعظم إلاّ تأويلَهُ. ﴿يومَ﴾ منصوب على الظرفية. ﴿يأتي تأويلُه﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضاف إلى يوم. ﴿يقول الذين﴾ فعل وفاعل، وهو متعلق الظرف. ﴿نسوه﴾ صلة الذين.

﴿من قبل﴾ متعلق بنسوه، بُني قبلُ على الضم لحذف المضاف إليه ونية معناه. ﴿قد جاءت رسل﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿ربّنا﴾ مضاف

إلى رسل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بجاءت، وجملة قد جاءت في محل نصب مقول القول. ﴿**فهل**﴾ الفاء للتفريع، وهل حرف استفهام. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من شفعاء**﴾ مجرور بالفتحة لفظاً بمن الزائدة، ومحله رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**فيشفعوا**﴾ الفاء للسببية، ويشفعوا منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية، وهو جواب الاستفهام. ﴿**لنا**﴾ متعلق بيشفعوا. ﴿**أو نُردُّ**﴾ معطوف على قوله: هل لنا.. والفعل مبني للمجهول، ونائب الفاعل (نحن). ﴿**فنعملَ**﴾ منصوب مثل فيشفعوا. ﴿**غير**﴾ مفعول نعمل. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى غير. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**نعمل**﴾ الجملة خبر كان وجملة كنا نعمل صلة الذي. ﴿**قد خسروا أنفسهم**﴾: فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**وضلَّ**﴾ معطوف على خسروا. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بضل. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل ضلَّ. ﴿**كانوا يفترون**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها صلة ما. ﴿**إنّ ربّكم اللهُ**﴾ إنّ واسمها وخبرها. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع نعت لله. ﴿**خلق السماوات والأرض**﴾ إعرابها واضح وهي صلة الذي. ﴿**في ستة**﴾ متعلق بخلق. ﴿**أيام**﴾ مضاف إلى ستة.

﴿**ثم استوى**﴾ معطوف على خلق. ﴿**على العرش**﴾ متعلق باستوى. ﴿**يغشي**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**الليل**﴾ مفعول أوّل. ﴿**النهار**﴾ مفعول ثانٍ، وجملة يغشي في محل نصب حال من فاعل استوى. ﴿**يطلبه**﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير يعود على أحد المفعولين. ﴿**حثيثاً**﴾ نعت لمصدر مفعول مطلق، أو منصوب على الحال. ﴿**والشمس والقمر والنجوم**﴾ بالنصب معطوفات على السماوات. ﴿**مسخرات**﴾ منصوب بالكسرة على الحال. ﴿**بأمره**﴾ متعلق بمسخرات، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ألا**﴾ أداة استفتاح. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**الخلق**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**والأمر**﴾ معطوف على الخلق. ﴿**تبارك الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**رب**﴾ نعت لله. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى رب مجرور بالياء. ﴿**ادعوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ربّكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**تضرعاً**﴾ منصوب على الحال من فاعل ادعوا، أومفعول لأجله.

﴿**وخفية**﴾ معطوف على تضرعاً. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يحب**﴾ فعل

مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير يعود على ربّكم. ﴿**المعتدين**﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة لا يحب في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّه تعليلية. ﴿**ولا تفسدوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وهو معطوف على ادعوا. ﴿**في الأرض بعد**﴾ متعلقان بالفعل. ﴿**إصلاحها**﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وادعوه**﴾ معطوف على ادعوا. ﴿**خوفاً**﴾ مثل تضرعاً. ﴿**وطمعاً**﴾ معطوف على خوفاً. ﴿**إنّ رحمة**﴾ إنّ واسمها. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رحمة. ﴿**قريب**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**من المحسنين**﴾ متعلق بقريب. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**يرسل**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**الرياح**﴾ مفعول به، وجملة يرسل صلة الذي، والجملة معطوفة على قوله: يغشي الليل. ﴿**نشراً**﴾ منصوب على الحال، أو على المفعول المطلق. ﴿**بين**﴾ متعلق به. ﴿**يدي**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالياء. ﴿**رحمته**﴾ مضاف إلى يدي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حتى إذا أقلت**﴾ تقدم إعراب مثلها في قوله: حتى إذا جاءتهم. ﴿**سحاباً**﴾ مفعول به. ﴿**ثقالاً**﴾ نعت له. ﴿**سقناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وهو جواب إذا. ﴿**لبلد**﴾ متعلق بسقناه. ﴿**ميت**﴾ نعت لبلد. ﴿**فأنزلنا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء التعقيب. ﴿**به**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**الماء**﴾ مفعول. ﴿**فأخرجنا**﴾ به مثل فأنزلنا به. ﴿**من كل**﴾ في محل المفعول دخلت عليه مِنْ فجرته لفظا.

﴿**الثمرات**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**كذلك**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**نخرج**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر. ﴿**الموتى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وتقدير المعنى في هذا التركيب: نخرج الموتى إخراجاً مثلَ إخراج النبات من الأرض. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تذكرون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر لعل. ﴿**والبلد**﴾ مبتدأ. ﴿**الطيب**﴾ نعت له. ﴿**يخرج نباته**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**بإذن**﴾ متعلق بيخرج. ﴿**ربّه**﴾ مضاف إلى إذْنِ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والذي**﴾ معطوف على البلد. ﴿**خبث**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الذي، والجملة صلة الذي. ﴿**لا يخرج**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير يعود على الذي خبث، وجملة لا يخرج في محل رفع خبر الذي. ﴿**إلاّ نكدا**﴾ منصوب على الحال. ﴿**كذلك نصرّف الآيات**﴾ مثل كذلك نخرج الموتى. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بنصرّف. ﴿**يشكرون**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل جر نعت لقوم.

مبحث الأسلوب البلاغي

ربط الكلام بما قبله: هذا النداء هو الرابع لبني آدم كافة منذ بعث الله إليهم الرسل، فهو يؤذن بأنّه هو وما قبله حكاية لما خاطب الله به كل أمة على لسان رسولها وبيّنه لهم من أصول دينه الذي شرعه لهدايتهم به إلى ما لا غنى لهم عنه في تكميل فطرتهم، فقال: **﴿يا بني آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. ﴿والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: تأكد الخطاب هنا بعدة تأكيدات: وُجودُهُ بعد إنْ، ونون التوكيد الثقيلة في فعل الشرط، وتنكير رسل لكثرتهم، وكونهم من بني آدم تنبيهاً لهم بأنّهم لا يترقبون أن تجيئهم رسل من الملائكة، ومجيءُ جوابِ الشرط الأول شرطاً؛ ليفيد تعميم الإتيان إلى جميع الأمم.. وكان الشرط الثاني التقوى والإصلاح، وجوابه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ليفيد أنّ إتيان الرسل لفائدة بني آدم، ولهذا عطف عليه قوله: والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون!.

وجملة القول في هاتين الآيتين أنّ جميع الرسل قد بلّغوا أممهم أنّ اتّباعهم في اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي، وفي إصلاح أعمالهم بالطاعات، يترتب عليه الأمْنَ مِنَ الخوف من كل ما يتوقع، والحزن على كل ما يقع، وأنّ تكذيب ما جاءوا به من آيات الله والاستكبار عن اتّباعها، يترتب عليه الخلود في النار. وأفاد تحقيق أنّهم صائرون إلى النار بطريق قصر ملازمة النار عليهم في قوله: أولئك أصحاب النار؛ لأنّ لفظ أصحاب مُؤْذِن بالملازمة، وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات في قوله: هم فيها خالدون...

﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾: هذا تفريع على جملة الكلام السابق، وهذه كالْفَذْلَكَةِ لما تقدم؛ لتبين أن صفات الضلال التي أُبهم أصحابُها هي حاقة بالمشركين المكذبين برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ فإنّ الله ذكر أولياء الشياطين وبعض صفاتهم بقوله: «إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، وذكر أنّ الله عهد لبني آدم مُنذ القدم بأن يتبعوا مَنْ يجيئهم من الرسل عن الله تعالى بآياته؛ ليتقوا ويصلحوا، ووعدهم على اتّباع ما جاءهم بنفي الخوف والحزن، وأوعدهم على التكذيب والاستكبار بأن يكونوا أصحاب النار،

فقد أعذر إليهم وبصّرهم بالعواقب؛ فتفرع على ذلك: أنّ من كذب على الله فزعم أنّ الله أمره بالفواحش، أو كذب بآيات الله التي جاء بها رسوله، فقد ظلم نفسه ظلماً فظيعاً، حتى تُسْأَلُ عمن هو أظلم منه!.

ومَنْ استفهام إنكاري مستعمل في تهويل ظلم هذا الفريق؛ المعبر عنه بمَن افترى على الله كذباً، ومَن الثانية موصولة، وهي عامة لكل مَنْ تتحقق فيه الصلة. . . **﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾**: جمع أولئك ينالهم باعتبار معنى مَنْ، وأفرد افترى باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد لتفيد تماديهم في سوء الحال. وأبهم نصيبهم من الكتاب ليشمل كُلَّ ما أوعد به المكذبين من العذاب العاجل في الدنيا، حيث جعل له غاية في قوله. . . **﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾**؟!. وهو تفصيل لمضمون جملة ينالهم نصيبهم من الكتاب. وهذا الكلام الواقع هنا بعد حتى فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم. والاستفهام في قوله: أين ما كنتم تدعون من دون الله، مستعمل في التهكم والتأييس!.

وجواب الاستفهام: **﴿قالوا: ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾**؛ وهنا ينتهي مشهد الاحتضار. ثم يأتي المشهد التالي له في النار: **﴿قال: ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾**: فالزمان بين الاحتضار وبين الحشر في النار يطوى هنا طيّاً، وكأنّما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار!. . **﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾**: هذا بيان لشيء من حالتهم في دخول النار الذي لا يمكن تخلفه. وما في قوله: كلما ظرفية مصدرية، والتقدير: لعنت كل أمة منهم أختها في كل أوقات دخول الأمة منهم، فتفيد عموم الأزمنة. وأمة نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة فتفيد العموم. وأختها نكرة؛ لأنّه مضاف إلى ضمير نكرة فلا يتعرف فتفيد العموم أيضا، والمراد بأختها المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في النار. . .

﴿حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾: حتى إذا اجتمعت أمم الضلال كلها في النار. والمراد بأخراهم: الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع. والأُولَى: المقدَّمة المتبوعة من الدهماء والرعاع، يُملون عليهم ما يريدون. ومقول القول: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً

ضعفاً من النار. والجواب: ﴿**قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾. ﴿**وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون**﴾: عطفت جملة وقالت أولاهم لأخراهم على جملة قالت أخراهم لأولاهم؛ لأنّهم لم يدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة. والفاء في قولهم: فما كان لكم علينا من فضل فاء فصيحة مرتبة على قول الله: لكل ضعف، حيث سوّى بين الطائفتين في مضاعفة العذاب. وقوله: فذوقوا العذاب، صيغة أمر مستعملة في الإهانة والتشفي. والذوق استعمل مجازاً مرسلاً في الإحساس بحاسة اللمس، والباء سببية.

وعبّر بالكسب دون الكفر؛ لأنّه أشمل لأحوالهم... ﴿**إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبوب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين**﴾: هذه الآية جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنّها تقرر حكماً قاطعاً مؤكداً لا يقبل شكّاً ولا احتمالاً. وأكد الخبر بإنّ لتأييس مَنْ ذكر من دخول الجنة. واختير من طرق الإظهار طريق التعريف بالموصول إيذاناً بما تومئ إليه الصلة من وجه بناء الخبر. وقوله: لا تفتح لهم أبواب السماء كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلهية المحضة. وهذا بيان لحال خذلانهم في الدنيا الحائل بينهم وبين وسائل دخول الجنة. وقوله: ولا يدخلون الجنة إخبارٌ عن حالهم في الآخرة وتحقيقٌ لخلودهم في النار.

وبعد أن حقّق ذلك بتأكيد الخبر كله بحرف التوكيد، زيد تأكيداً بطريق تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ المشتهر عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك بقوله تعالى: حتى يلج الجمل في سم الخياط، فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنة امتداداً مستمراً؛ إذ جعل غايته شيئاً مستحيلاً، وهو أن يلج الجمل في سم الخياط، وفي كون الجمل ممّا ليس من شأنه الولوج في سم الإبرة مبالغة في الاستبعاد. والقرآن أحال على ما هو معروف عند الناس من حقيقة الجمل وحقيقة الخياط؛ ليعلم أنّ دخول الجمل في خرت الإبرة محال متعذرٌ مادام على حاليهما المتعارفين.

والإشارة في قوله: وكذلك إشارة إلى عدم تفتح أبواب السماء الذي تضمنه قوله: لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة. والجملة تذييل يؤذن بأن

الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك؛ فهم قد دخلوا في عموم المجرمين الذين يُجزَوْن بمثل ذلك الجزاء، وهو المقصود الأول؛ لأن عقاب المجرمين قد شبّه بعقاب هؤلاء، فعلم أنّهم مجرمون، وأنّهم في الرعيل الأول من المجرمين، حتّى شبه عقاب عموم المجرمين بعقاب هؤلاء، وكانوا مثلاً لذلك العموم. . . ﴿**لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين**﴾: هذه هي صورة المجرمين في النار؛ هي من تحتهم مهاد. والتعبير يحمل التهكّمَ والسخرية؛ لأنّ المهاد من شأنه أن يكون مريحاً!. ومن فوقهم غواشٍ تغطيهم!، وذلك كناية عن انتفاء الراحة في جهنم؛ فإنّ المرْءَ يحتاج إلى الفراش والغطاء عند اضطجاعه للراحة، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم النار، فقد انتفت راحتهم؛ وهذا ذكْر لعذابهم السوء، بعد أن ذكر حرمانهم من الخير، وذيله بقوله: وكذلك نجزي الظالمين؛ ليدل على أنّ سبب ذلك الجزاء بالعقاب هو الظلم. ولمّا كان جزاء الظالمين قد شبه بجزاء الذين كذّبوا بالآيات واستكبروا عنها، عُلِمَ أنّ هؤلاء المكذبين من جملة الظالمين، وهم المقصود الأول من هذا التشبيه، بحيث صاروا مثلاً لعموم الظالمين، وبهذين العمومين ـ الإجرام والظلم ـ كانت الجُمْلَتَانِ تَذْيِيلَيْنِ. . . ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾: أعقب الإنذار والوعيد للمكذبين بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدقين، على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر.

ووصل الجملة بالعطف على الذين كذبوا بآياتنا؛ لأن بين مضمون الجملتين مناسبة متوسطة بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وهو التضادُّ بين وصف المسند إليهما في الجملتين، وهو التكذيب بالآيات والإيمان بها، وبين حكم المسندين، وهو العذاب والنعيم، وهذا من قبيل الجامع الوهمي المذكور في أحكام الفصل والوصل من علم المعاني. وجملة لا نكلف نفساً إلاّ وسعها معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج. وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين؛ لأنّه لمّا بشرهم بالجنة على فعل الصالحات أَطْمَنَ قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصالحة بما لا يخرج عن الطاقة، حتى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنة، بل إنّما يطلبون منها بما في وسعهم فإن ذلك يرضي ربّهم. ودلّ قوله: أولئك أصحاب الجنة على قصر ملازمة الجنة عليهم دون غيرهم، ففيه تأييس آخر للمشركين بحيث قويت نصّيّة حرمانهم من الجنة ونعيمها. . .

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾: هذا مقابل ما في صدور أهل النار من الحقد والبغض حتى أدى بهم إلى التلاعن والتخاصم... **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾**: هذا مقابل ما يلقاه أهل النار من حرها وحرقها وهي لهم مهاد ومن فوقهم غواش... **﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾**: هذا مقابل ما يقوله أهل النار في النار من التنابذ والتعادي في قولهم: ربّنا هؤلاء!.. **﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾**: هذا مقابل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون. ثم يستمر العرض، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق، لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى مصيرهم، واستيقن أصحاب النار من النار؛ فإذا الأولون ينادون الآخرين... **﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً؟. قالوا: نعم﴾**!: وفي هذا السؤال من التهكم المُرِّ ما فيه، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد سواء. ويجيء الجواب كلمة واحدة: قالوا نعم!.

حيث لا مجال لنكران أو محال، وعندئذ ينتهي الجواب ويقطع الحوار: **﴿فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون...﴾** وفي هذا الصد عن سبيل الله وإرادتهم للطريق معوجة غير مستقيمة وكفرهم بالآخرة، ينجلي الظلم أشنع؛ الظلم بكل معناه. ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة ـ ساحة العرض الفسيحة ـ فإذا مشهد آخر؛ مشهد الأعراف الفاصلة بين الجنة والنار، وكأنما هي نقطة مرور يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار، ويوجّه كل إلى مستقره هنا أو هناك... **﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كُلاً بسيماهم﴾**: أصحاب الأعراف ـ على أوفق الأقوال ـ قوم استوت حسناتهم وسيآتهم، وهم مؤمنون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فلم تصل بهم حسناتهم إلى الجنة، ولم تُؤَدِّ بهم سيآتهم إلى النار، وهم بين بين، ينتظرون فضل الله، وهم يعرفون كُلاً بسيماهم، ببياض وجوه أهل الجنة، وسواد وجوه أهل النار...

﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾: أصحاب الأعراف يلتفتون إلى الجنة، فينادون أهل الجنة، ويحيونهم بالسلام وهم لا يزالون على الأعراف لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون رجاء فضل الله... **﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء**

أصحاب النار قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾: فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار ـ وكأنّما يصرفون إليهم صرفاً لا بإرادة منهم لهول المطلع وقبح المنظر ـ استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم... **﴿ونادى أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾**: كُرِّر ذكْرُهُم مع قرب العهد به ـ فلم يقل ونادوا ـ لزيادة التقرير، وكون هذا النداء خاصاً في موضع خاص، فكان مستقلاً دون ما قبله الموجه إلى أهل الجنة في جملتهم. والظاهر أنّ هذا النداء يكون من بعضهم لمن كانوا يعرفونهم في الدنيا من المستكبرين بغناهم وقوتهم، المحتقرين لضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم؛ الذين كانوا يزعمون أنّ من أغناه الله تعالى وجعله قوياً في الدنيا، هو الذي يعطيه نعيم الآخرة إن كان هناك آخرة... **﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾**: جملة أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة من كلام أهل الأعراف، والاستفهام مستعمل في التقرير. والإشارة في أهؤلاء إلى قوم من أهل الجنة الذين كانوا في الدنيا يحتقرهم المتكبرون...

﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾: هذا القول موجّه من الله تعالى إلى أصحاب الأعراف، الذين بقوا على الأعراف يشاهدون مواكب أهل الجنة وأهل النار، وكانوا يطمعون في دخول الجنة بفضل الله ورحمته. وحذْفُ القول للعلم به من قرائن الكلام كثيرٌ في التنزيل، وفي كلام العرب الخلص. وهذا التقرير في سياق الكلام مختار من عدة أقوال للمفسرين عندما اختلطت الروايات، وكثُرت فيها الاحتمالات... **﴿ونادى أصحابُ النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرمهما على الكافرين﴾**: القول في قوله: ونادى أصحاب النار... الخ مثل القول في قوله: ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار... الخ.

والفيض مستعمل بمعناه المجازي، وهو سعة العطاء، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد، وهو أصل العطف. وقدم الماء عن غيره؛ لأنهم في حاجة إليه أوّلاً. والتحريم هنا بمعناه اللغوي، وهو المنع. وعلى القول بأنّ **﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾** صفة للكافرين، يكون الكلام صادراً من أهل الجنة، ويكون **﴿فاليوم ننساهم﴾** كلاماً صادراً من الله تعالى تصديقاً لكلام

أهل الجنة، والقرينة عليه تغيير الأسلوب بالالتفات. والنسيان في الموضعين مستعمل مجازاً في الإهمال والترك؛ لأنه من لوازم النسيان. وتعليق الظرف بفعل ننساهم؛ لإظهار أنّ حرمانهم من الرحمة في أشد أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر اليوم أثر في إثارة تحسرهم وندامتهم، وذلك عذاب نفساني. ودلّ كاف التشبيه في قوله: ﴿**كما نسوا**﴾ على أنّ حرمانهم من رحمة الله كان مماثلاً لإهمالهم التصديق باللقاء، وهي مماثلة جزاء العمل للعمل، وهي مماثلة اعتبارية، فلذلك يقال: إنّ الكاف في مثله للتعليل، كما في قوله: «واذكروه كما هداكم...» ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون**﴾: هذه الآية متصلة بالعطف على آية ونادى أصحاب النار؛ عطف القصة على القصة، والغرض على الغرض، وهو انتقال من غرض الخبر عن حال الكافرين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدنيا المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة.

وتأكيد هذا الفعل ـ جئناهم ـ بلام القسم وقد، للإيذان بوصول الكتاب إليهم حتى يكون إعراضهم حجة عليهم. وفي هذا الكلام تأكيدات: المجيء به دون إرساله، وتنكير كتاب لعظمته، وتفصيله على علم لاستيفاء هدايته ورحمته، وخصوصيته لمن يؤمن به لا لمن يستهزئ به!. وجملة هل ينظرون إلاّ تأويله، بيان وجواب لسؤال يجيش في نفس السامع عندما يسأل عن موقف هؤلاء المكذبين من هذا الكتاب الموصوف بهذه الأوصاف العظيمة، فلفظ هل ينظرون استفهام، وفي طيّه الجواب إلى ما فيه من الاستنكار والاستغراب!. وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكميّة: شبّه حال تمهّلهم إلى الوقت الذي سيحل عليهم فيه ما أوعدهم به القرآن بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك؛ إذ هم جاحدون وقوعه. وفصلت جملة يوم يأتي تأويله؛ لأنّها بيّنت معنى التأويل في قوله: هل ينظرون إلاّ تأويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة عندما يعلنون الحقيقة، ويعترفون بما كانوا عليه في الدنيا فيتمنون ما يتمنون!.

وقوله: قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون تذييل يقرر خلاصة

قصتهم. والمعنى المستفاد من هذا الأسلوب: أنّ ما أفحموا فيه نفوسهم من الشرك والتكذيب قد تبين أنّه مفْضٍ بهم إلى تحقق الوعيد فيهم يوم يأتي تأويل ما توعّدهم به القرآن؛ فبذلك تحقّق أنّهم خسروا أنفسهم من الآن، وإن كانوا لا يشعرون. . . ﴿**إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾: جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة؛ فإنها ابتدأت بذكر القرآن والأمر باتباعه، ونبذ ما يصدُّ عنه وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله، ثم الاستدلال على وحدانية الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخلّل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان لأصل البشر وللبشر في قوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم. وانتَقَلَ من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتّبعوا فيه تسويل الشيطان من قوله: وإذا فعلوا فاحشة، ثم تذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله: يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم، وبأنّ المشركين ظلموا بنكث العهد بقوله: فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته!.

وتوعّدهم وذكّرهم أحوال أهل الآخرة، وعَقِبَ ذلك عاد إلى ذكر القرآن بقوله: ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم، وأنهاه بالتذييل بقوله: قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون!. فلا جرم تهيأت الأسماع والقلوب لِتَلَقِّي الحجّةَ على أنّ الله إله واحد، وأن آلهة المشركين ضلال وباطل، ثم لبيان عظيم قدرته ومجده؛ فلذلك استؤنف بجملة إنّ ربّكم الله. . استئنافاً ابتدائياً أعاد به إلى صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله: إنّ ربّكم الله. . بمنزلة النتيجة للبرهان. والنتيجة مساوية للمطلوب، إلاّ أنّها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلاً، فالخطابُ مُوجَّه إلى المشركين ابتداءً، ولذلك كان للتأكيد بحرف إنّ موقعه لرد إنكار المشركين انفراد الله بالربوبية. وإذا كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، فكان الخطاب صالحاً لتناول المسلمين لصلاحية ضمير المخاطب لذلك.

ولا يكون حرف إنّ بالنسبة إليهم سُدًى؛ لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر. وقوله:

الذي خلق السماوات والأرض صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدم. وقوله: في ستة أيام.. تعليم بعظيم قدرته.. وفيه تحدٍّ لأهل الكتاب وتجهيل لهم، حيث جعلوا ستة الأيام ـ كما هو مكتوب في توراتهم ـ المعلومة عند الناس من الليل والنهار؛ لأنّه غير معقول ولا يتمشى مع حقيقة المنقول؛ لأنّ حقيقة اليوم بالمعنى المفهوم عندهم لم تتحقق إلاّ بعد تمام خلق السماء والأرض. فالأيام مراد بها مقادير يعلمها علام الغيوب!. وقوله: ثم استوى على العرش تعبير عن شأنٍ عَظيم من شؤون عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ اختير التعبير به على طريق الاستعارة والتمثيل؛ لأنّ معناه أقرب معاني المواد العربية إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه تعالى، فإنّ الله أراد تعليم معانٍ من عالم الغيب لم يكن يتأتى ذلك في اللغة إلاّ بأمثلة معلومة من عالم الشهادة، فلم يكن بُدٌّ من التعبير عن المعاني الغيبية بعبارات تقربها ممّا يعبر به عن عالم الشهادة، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التمثيلية والتخييلية في مثل هذا.

وقوله: يغشي الليل النهار من عموم تدبيره تعالى وتصرفه المتضمن في الاستواء على العرش، وتنبيه على المقصود من الاستواء، ولذلك جاء به في صورة الحال لا في صورة الخبر؛ ومن هذا يُعلم كذبُ ما في التوراة من أنّ الله استراح يوم السبت، وهذا كذب آخر زيادة على كذبهم من أنّ الستة الأيام هي الأيام المعلومة عند الناس. والغشي مستعار للإخفاء؛ لأنّ النهار يزيل أثر الليل، والليل يزيل أثر النهار، ومن بديع الإيجاز ورشاقة التركيب جَعْلُ الليل والنهار مفعولين لفعل فاعل الإغشاء، فهما مفعولان، كلاهما صالح لأن يكون فاعل الغشي. وجملة يطلبه حثيثاً جاءت على طريقة التمثيل بتشبيه شيء يتبع شيئاً آخر يُخفِي أثرَهُ.

والتعبير بالمضارع لإفادة التجدّد والحدوث والاستمرار. وقوله: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره تكميلٌ للصورة الماثلة أمام المشاهدين، وهي صورة حيّةٌ ذاتُ نفس وذاتُ حسّ، وذات إرادة تُسخَّرُ لمشيئة الله. وهكذا يخلع التعبير القرآني على كل مخلوق في هذا الكون حَيَاة. ألا له الخلق والأمر، فهو وحده الخالق، وهو وحده الآمر، خلق الكون ويُصرّفه بأمره وتدبيره وسنّته التي أراد: تبارك الله رب العالمين، لا شريك له في الربوبية، وهو الخالق الآمر المدبر

للوجود. . . ﴿**ادعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنّه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إنّ رحمة الله قريب من المحسنين**﴾: الكلام في الآيتين استئناف جاء معترضاً بين جملة يغشي الليل النهار، وبين جملة وهو الذي يرسل الرياح؛ جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فُرَصِ تهيُّؤِ القلوب للذكرى.

والخطاب بادعوا خاصٌ بالمسلمين؛ لأنه تعليم لأدب دُعَاءِ الله تعالى وعبادته، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم، وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبته، وشاهده قولُه بعده: إنّ رحمة الله قريب من المحسنين. والدعاء هنا وُصِفَ بوصفين: كونه تضرعاً وكونه خفية، حتى لا يتلاعب به المتلاعبون، وهو ما يفعله الجاهلون من الهرج فيه والشطح به!. وجملة إنّه لا يحب المعتدين، واقعة موقع التعليل للأمر بالدعاء. وعطف عليه قوله: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها صيانة لمقام الدعاء المطلوب للإصلاح، حتى لا يغتر الداعي فيتورط في متاهات الضلال.

وادعوه خوفاً وطمعاً تعليم لباعث الدعاء بعد تعليم كيفيته، والباعث للدعاء أمران: خوف من غضبه وعقابه، وطمع في رضاه وثوابه. وجملة إنّ رحمة الله قريب من المحسنين واقعة موقع التوكيد والتعليل؛ ليصل الداعي بهذا الدعاء إلى إحسان الله القريب من المحسنين، وهو توجيه لطيف لمن يحسن التوجّه إلى اللطيف الخبير!. . ﴿**وهو الذي يرسل الرياح نُشُراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون**﴾: هذه الجملة وما بعدها متصلة بالعطف على قوله: يغشي الليل النهار. لمّا ذكر الله قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضاً من رحمته العامة، وهو المطر؛ فَذِكْرُ إرسال الرياح هو المقصود الأهم؛ لأنّه دليل على عظم القدرة والتدبير. وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها.

وحسّن هذه الاستعارة أنّ الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد أهله هبوبَها فيه، فشبهت بالعاقل المرسَل إلى جهةٍ ما. ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد.

وفي هذا تقريع المشركين وتفنيد إشراكهم، ويتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم؛ فالموصول دلّ على أنّ الصلة معلومة الانتساب للموصول. وحتى هنا ابتدائية، وهي غاية لمضمون قوله: نشراً بين يدي رحمته. والغاية مجزّأة: فأولها مضمون قوله: أقلّت، ثم مضمون قوله: ثقالاً. . ثم مضمون: سقناه. . ثم أن يُنزل منه الماء، وكل ذلك غاية لتقدم الرياح: لأنّ المفرّع عن الغاية غاية. وجملة: كذلك نخرج الموتى، معترضة استطراداً للموعظة والاستدلال على تقريب البعث الذي يستبعدونه. والإشارة بكذلك إلى الإخراج المتضمن له فعل: فأخرجنا باعتبار ما قبله من كون البلد ميتاً تم إحياؤه. . فوجْهُ الشبه هو إحياء بعد موت.

وجملة: لعلكم تذكرون. . مستأنفة، والرجاء ناشئ عن الجمل المتقدمة. والمراد من الذكر: التذكر الشامل الذي يزيد المؤمن عبْرَةً وإيماناً، والذي من شأنه أن يقلع من المشرك اعتقاد الشرك، ويقلع من منكر البعث إنكارَه. . . ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون**﴾: ويختم السياق هذه الرحلة في أقطار الكون ومكنونات الوجود، بِمَثَلٍ يَضْرِبُهُ للطيب وللخبيث من القلوب؛ ينزعه من جو المشهد المعروض مراعاة للتناسق في المرائي والمشاهد في الطبائع والحقائق. والقلب الطيب يُشبّه في القرآن وفي الحديث بالأرض الطيبة وبالتربة الطيبة، والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة والتربة الخبيثة؛ فكلاهما: القلب والتربة منبت زرع ومأتى ثمر. والقلبُ الطيب كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه سهلاً هيناً ليناً في رعاية الله وتوجيهه. والذي خبث لا يخرج إلاّ نكِداً، في عسر ومشقة وفي إيذاء وجفوة.

والإشارة في قوله: كذلك نصرّف الآيات إلى تَفَنُّنِ الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية للوحدانية، والدالة أيضاً على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى، والانتفاع به بالاستدلال الواضح المبيّن المقرّب في جميع ذلك. والمراد بالقوم الذين يشكرون المؤمنون؛ تنبيهاً على أنّهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأنّ غيرَهم موردُ التمثيل بالبلد الخبيث، وهذا مثل قوله تعالى: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون». ولما كان الشكر مطلب السورة قال: لقوم يشكرون!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿يابني آدم إمّا يأتينكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**: هذا الخطاب موجّه لبني آدم كافة منذ بعث الله إليهم الرسل، فهو يُؤْذِن بأنّه هو وما قبله حكاية لما خاطب الله به كل أمة على لسان رسولها، وبيّنه لهم من أصول دينه الذي شرعه لهدايتهم به إلى ما لا غنى لهم عنه في تكميل فطرتهم، وأنّ هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه، وبلّغه للناس على لسان كل نبيء من آدم إلى هلمّ جَرّا، فما من رسول إلاّ وبلغه أمته، وأمرهم بأن يبلغ الشَاهِدُ منهم الغائبَ، حتى نزل في القرآن على خاتم رسله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فعلمت أمتُه أنّها مشمولة في عموم بني آدم.

ويستمر هذا الخطاب إلى كل مَنْ يأتي من بني آدم، فهم مكلفون باتباع هذا الكتاب الخاتم وما فيه من التوجيه الحاسم، وعلى هذا جاء الحكم الدائم: فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون... **﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: هذه هي وظيفة الرسل التي أُرسِلوا من أجلها، تبليغ بني آدم جميعاً دعوة الله التي جاءت في كتبه آيات بينات... **﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾**: إذا كان الأمر كما ذكر في الآيات السابقة ـ وهو كذلك ـ فلا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذِباً ما: بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه، أو عزَا إلى دينه أيَّ حكم ما لم يُنزله على رسله، أو كذب آياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه، وهو الاستكبار عن اتّباعها أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، هذا النصيب سيحصل عليه كل من كذّب واستهزأ وافترى، عندما يأتي الأجل المحتوم المقدر لكل أمة ولكل فرد منها، عندما يجيء رسل الموت يقبضون أرواحهم، ويضربون وجوههم وأدبارهم... **﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلُّوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾**: ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار ـ وهو برزخ بين الدنيا والآخرة ـ احتضار الذين افتروا على الله الكذب، وقد

حضرتهم رسل ربّهم يتوفونهم ويقبضون أرواحهم، فدار بين هؤلاء وأولئك حوار: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟. أين دعواكم التي افتريتم على الله؟. وأين آلهتكم التي اعتصمتم بها في الدنيا؟.

أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة؟. ويكون الجواب الذي لاجواب غيره دون مواراة أو مغالطة: قالوا: ضلوا عنا وغابوا، فلا نحن نعرف لهم مقراً، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً. فاليوم إذن لاجدال ولامجال: وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين. من الآن يتقرر المآل بعد الجواب على ذلك السؤال... ﴿**قال: ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار**﴾: فالزمان بين الاحتضار يطوى هُنا طيّاً، وكأنّما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار... ﴿**كلّما دخلت أمة لعنت أختها**﴾: هذا بيان لحال أهل النار السابقين واللاحقين، بعدما كانوا في الدنيا إخوة متحابين صاروا في النار أعداءً متلاعنين؛ فما أبْأسَهَا من عاقبة تلك التي يلعن فيها الأخ أخاه، ويتنكّر فيها المولى لمولاه!.. ﴿**حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً**﴾: وتلاحق آخرُهم أوّلَهم، واجتمع قاصيهم بدانيهم بدأ الخصام والجدال: ﴿**قالت أخراهم لأولاهم**﴾: ﴿**ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار...**﴾

وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة، ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء وهم متناكرون أعداء، يتّهم بعضهم بعضاً، ويطلب له من ربنا شرّ الجزاء، من ربّنا الذي كانوا من قبل ينكرونه وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء؛ فيكون الجواب طمأنة للداعين باستجابة الدعاء ولكنها طمأنة ساخرة واستجابة مؤلمة: ﴿**قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون...**﴾ فاطمئنّوا فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذي تطلبون!. وكأنّما سمت المدعو عليهم في الداعين حينما سمعوا جواب الدعاء، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون: لستم بأفضل منا فتنجوا، ولسنا أولاكم بالعذاب فكلنا فيه سواء... ﴿**وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون**﴾: هذا الجدال والعتاب والتلاعن بين الأصحاب في ذلك اليوم في دار العقاب، إنّما هو موعظة وتحذير لمن يسمع هذه الآيات من الإيقاع فيما وقع فيه هؤلاء من المتبوعين والأتباع، وموعظة وتذكير لكل من يتبع ويسترسل مع المضلين المنحرفين المموهين أهل الفسق والخداع...

﴿إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين. لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾: هذه هي القاعدة التي طُبّقت على أهل النار من السابقين واللاحقين، وهي أنّ كل من يكذب بآيات الله التي جاءت بها الرسل أو يستكبر عنها؛ فكل ما عمل في الدنيا باطل مردود، وجزاؤه يوم القيامة سوء المصير وبئس الوارد المورود!. فالمجرم آيس مطرود، والظالم ناصره مفقود «وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفدُ المرفود».. **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾**: هذا بيانُ حَالِ المؤمنين مقابل بيان حال الكافرين؛ والمقابلة هنا تأتي من عدّة وجوه: إذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون في النار ويتخاصمون، وتغلي في صدورهم السخائم، وتنطلق من ألسنتهم الشتائم، فإنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوانٌ متصافون يرف عليهم السلام والولاء في دار السلام والإخاء؛ وإذا كان أولئك يصطلون بالنار من فوقهم ومن تحتهم، فهؤلاء تجري من تحتهم الأنهار؛ وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والثناء على الهادي لهذه الإنعام؛ وإذا كان أولئك يُنَادَوْنَ: ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار، فإنّ هؤلاء يُنادون بالتأصيل والتكريم: نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، فاعتبروا ياأولي الأبصار!!.

التوجيه الثاني: ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾: في هذا توجيه الأسماع والأنظار إلى ما يكون بين أهل الجنة وأهل النار. بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى النار وأهلها، والجنة وأهلها، بيّن للناس في هذه الآية وما بعدها بعض ما يكون بين الفريقين ـ فريق الجنة وفريق السعير ـ من الحوار بعد استقرارِ كُلٍّ منهما في داره، وتمكُّنه في قراره. والسياق يدل على أنّ الدارين في عالَم واحد، أوْ أرض واحدة يفصل بينهما حجاب لا يمنع من إشراف أهل الجنة وهم في عليين، على أهل النار وهم في الجحيم والعذاب المهين، فيخاطب بعضهم بعضاً بما يزيد أهل

الجنة عرفاناً بقيمة نعمة الله عليهم، ويزيد أهل النار حسرة على تفريطهم وشقاءً على شقائهم. ولا يقتضي هذا النوع من الاتصال القرْبَ المعهود عندنا في الدنيا بين المتخاطِبِينَ، وهو كون المسافة بينهما تقاس بالذراع أو الباع؛ لأنّ شأن الآخرة أن تغلب فيه الروحانية على المادة الحسية، فيمكن للإنسان أن يسمع أو يرى مَنْ هو على بعد شاسع منه.

وقد كان هذا المعنى غريباً بعيداً عن المألوف عند مَن سبقنا من الأولين، ولا يكاد الآن في العالم من يستبعده بعد اختراع الناس للآلات التي يتخاطبون بها من أبعاد ألوف الأميال، ولآلات الصور التي يشاهدونها «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق». والمعنى من سياق هذه الآيات: أنّ أصحاب الجنة وهم في النعيم المقيم، سوف ينادون أصحاب النار وهم في العذاب الأليم، ويسألونهم سؤال تبجح وافتخار بحسن حالهم وعاقبة مآلهم، وتهكم وتذكير بما كان من جناية أهل النار على أنفسهم بتكذيبهم وضلالهم. وبعد هذا النداء وهذا السؤال يأتي الجواب من أهل النار: نعم!.

ويأتي الجواب من قبلِ الملإ الأعلى ليؤذن بينهم بالإعلام النهائي بالعذاب الأليم، وما أوجب حرمانهم من النعيم المقيم، وأوجب مصيرهم إلى نار الجحيم!، وأوجب لهم الخزي واللعنة، وهو الشرك والصدّ والانحراف عن صراط الله المستقيم، والتكذيب بوعد الله ووعيده الذي جاء به هذا الكتاب الكريم: **﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾**!. ومن المعلوم أنّ المؤذن يلعن هؤلاء في الآخرة، يصفهم بالظلم ويسند إليهم الصد عن سبيل الله وبغيها عوجاً بصيغة المضارع، ويصفهم بالكفر بالآخرة في الآخرة، بعد أن زال الكفر بها بعين اليقين فيها، وفات زمن الصد عن سبيل الله وبغيها عوجاً.

والغرض من هذا تصوير حالهم التي كانوا عليها في الدنيا وعرض حيثيات الجريمة، ليترتب عليها ما صاروا إليه في الآخرة؛ ليتذكروها هم وكل من سمع التأذين بها، ويعلموا عدل الله بعقابهم عليها، وليعتبر بها في الدنيا مَنْ يتصور حالهم هذه. . «هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذكّر أولوا الألباب»!. . **﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم**

ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾: هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يعرض فيه فريقاً ثالثاً من الناس سُمُّوا بأهل الأعراف، وهم الذين استوت حسناتهم وسيآتهم وليسوا من أهل الكفر والنفاق؛ وقفوا على الأعراف ـ المكان المرتفع ـ بين الجنة والنار، يرون أهل الجنة ويعرفونهم بعلامات أهل الجنة، ويرون أهل النار ويعرفونهم بعلامات أهل النار، حتى إذا استقر أهل الجنة في الجنة، ونظر إليهم أهل الأعراف يحيّونهم بالسلام قبل دخولهم معهم الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها رجاء رحمة الله بهم؛ لأنّهم ليس لهم سيآت توجب دخولهم النار، وعندما تصرف وجوههم قِبَلَ أهل النار ويرون ما حل بهم يبتهلون بالدعاء إلى ربهم قائلين: ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. . .

﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وماكنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾: هذا حوار آخر بين أصحاب الأعراف وبين فريق خاص من أهل النار معروفين لهم بعلامات الكبر والزعامة والدهاء، يوبخونهم على ما كان منهم في الدنيا؛ من كثرة المال والجاه والعتو والاستكبار، وما كانوا يقولونه للفقراء والعبيد والضعفاء، ويُقسمون بالله: أن ليس لهؤلاء حظ من الرحمة في الآخرة، كما أنّه ليس لهم حظ من حطام الدنيا؛ لأنّ المال والجاه والقوة في الدنيا علامة على سعادة الإنسان وأنّه محظوظ، فإن كان هناك آخرة فلابد أن يكون حظ الآخرة مثل حظ الدنيا: «وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين»، «وقال لأوتينّ مالاً وولداً».

ثم يوجّه الخطاب إلى أهل الأعراف: **﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾**: وبهذا التقرير ينسجم سياق الآيات مع ما تحقق من تقسيم الناس ثلاث طبقات: السابقين من المقربين، وهم الذين فازوا بزيادة الحسنات. وأصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم بالسيآت، وهم أصحاب اليمين كما جاء في محكم الآيات. وأصحاب الشمال، وهم أصحاب النار أهل الكفر والنفاق المكذبين الضالين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. ودليل هذا التقرير قوله تعالى: «فريق في الجنة وفريق في السعير»؛ ولنصرف النظر هنا عما وقع من الخلاف في كتب التفسير. . . **﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنّة أن**

أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾: لقد سمعنا من قبلُ نداء أهل الجنة أهْلَ النار، والآن نسمع نداء أهل النار أهل الجنة، ونداء أهل الجنة فيه إظهار لكرامتهم وتنويه بمقرهم وفرحتهم، ونداء أهل النار استجداء واستغاثة وتبرم بما هم فيه؛ وتحسُّراً على خيبتهم وإظهاراً لحسرتهم. ويأتي الجواب من أهل الجنة سريعاً دالاً على بقائهم في حرقتهم.

قالوا: إنّ الله حرّمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا... **﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾**: الجزاء من جنس العمل، وكلٌّ يحصد ما زرع. وعندما جاءهم الكتاب المفصّل الهادي الرحيم، تلاعبوا وتلاهوا وجحدوا واستمروا في لهوهم ولعبهم حتى جاءهم ما أوعدهم ورأوا ما أعد لهم قالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين. **﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾**: وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير، وهو أطول عرض لمشاهد القيامة يأتي هنا، وذلك تذكير بالمبدإ والمعاد، وتحذير مما يؤول إليه أمر العباد.

التوجيه الثالث: ﴿إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾: بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد من المنشإ إلى المعاد، يأخذ السياق بأيدي البشر إلى رحلة أخرى في ضمير الكون، وفي صفحته المعروضة للأنظار؛ فيعرض قصة خلق السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان، ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره، وإلى مظاهرِه وظلاله: إلى الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك الدوار، وإلى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله، وإلى الرياح الدائرة في الأجواء تقلُّ السحاب إلى البلد الميت؛ فإذا هو حيٌّ بالماء، وإذا المواتُ يُؤْتى من كل الثمرات!. هذه السبحات في ملكوت الله يرتادها السياق

ليرد البشر إلى ربّهم الذي خلق هذا الوجود فهو الحقيق بالربوبية، وهو خالق هذا الكون للشهود في ضخامته وفخامته، يدبره بأمره ويصرفه وفق الناموس الذي اختاره؛ فهو وحده الخالق، وهو وحده الآمر: تبارك الله رب العالمين. . .

﴿ادعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنّه لا يحب المعتدين﴾: إنّ هذا التوجيه مناسب لما مر من الدليل القاطع على وحدانية الرب الخالق؛ إلى دعائه وعبادته والتضرع إليه خشيةً وإنابةً وخوفاً وطمعاً، لا صياحاً وتصدية ولعباً وشطحاً بالرقص والغناء، إنّه لا يحب المعتدين؛ فالتضرع أنسب وأليق في حضرة الخالق العظيم. والقول الجامع في حال النفس عند الدعاء، أن تكون غارقة في الشعور بالعجز والافتقار إلى الرب القدير الرحيم، فإنّ دعاء الرب الكريم بهذا الشعور يقوّي أمل النفس، ويحُولُ بينها وبين اليأس. والنفس التي تتضرع وتخشع لا تتعدى بعد ذلك ولا تُفسد: **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إنّ رحمة الله قريب من المحسنين. . .﴾** فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، ومن أحسن في الدعاء استُجيب له أو أُعطي خيراً ممّا طلبه. والجملة تعليل للأمر بالدعاء قبلها مبيّنة لفائدة الدعاء. . . **﴿وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾**: مرة أخرى يفتح السياق للوجدان البشري صفحة من صفحات الكون المعروضة للأبصار والبصائر، ولكن الناس يمرون بها غافلين؛ صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله في الآية السابقة نموذجاً للرحمة في صورة الماء الهاطل والزرع النامي والحياة النابضة بعد الموت والخمود.

ويمثل هذا اليسر الطبيعي الذي شهدتم منه نموذجاً في الماء الهاطل والحياة الخارجة من الموات: «كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون». فالأمر لا يحتاج إلاّ إلى التذكر والاعتبار لذلك الواقع المشهود. إنّ معجزة الحياة هي هي في طبيعتها؛ فمتى تحققت مرة فهي ممكنة التحقيق. والقدرة التي تبث الحياة في صورة، قادرة على أن تبثها في كل صورة والأمر هين على المُبْدِئ المُعيد. . . **﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾**: إنّ هذه الآية جاءت مكملة لما سبقها من الدلائل على عظيم القدرة

وبالغ الحِكْمَةِ، وذلك بتصريف الآيات وتفنينها وتنويعها ليهتدي بها الطيب ويعرض عنها الخبيث، مثل الأرض الطيبة تنتفع بالغيث، فتزدهر بالنبات وأنواع الثمرات، ومثل الأرض الخبيثة فلا تمسك ماء ولا تنبت كلأً؛ ذلك التصريف والتبيين لقوم يشكرون، الذين يعرفون نعم الله عليهم فتظهر آثارها صلاحاً ونماءً، أما غيرهم فهم الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها فلا يهتدون بهدي المرسلين.

6 ـ من قصص الرسل الكرام، قصة نوح عليه السلام

النص

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿58﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿59﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿60﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿61﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿62﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿63﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾: الإرسال: التوجيه، مأخوذ من قول العرب: أرسلوا إبلهم إلى الماء إرسالاً، والمعنى: وجهوها إلى الماء قِطَعاً قِطَعاً، والاسم الرسالة، والرسول: المرسل. ونوح: أول رسول وُجّه إلى قوم كافرين. والقوم: الجماعة من الرجال والنساء معاً. . . ﴿**قال الملأ من قومه**﴾: الملأ: الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد؛ لأنّهم يمالئ بعضهم بعضاً، ويطلق الملأ على

أشراف القوم وقادتهم؛ لأنّهم يملؤون العيون رواء بما يكون عادة من تأنقهم بالزي الممتاز وغير ذلك من الشمائل... ﴿**إنّا لنراك في ضلال مبين**﴾: الضلال: اسم مصدر ضل إذا أخطأ الطريق الموصل والمبين اسم فاعل من أبان المراد فبان من قولهم بانَ بياناً إذا اتضح، ﴿**قال يا قوم ليس بي ضلالة**﴾، والضلالة مثل الضلال؛ فتأنيثه لفظي محض مثل الغواية والسفاهة... ﴿**أبلّغكم رسالات ربّي**﴾: التبليغ والإبلاغ: جعل الشيء واصلاً إلى المكان المقصود، وتبليغ الرسالة: إيصالها إلى المرسل إليه... ﴿**وأنصح لكم**﴾: النصح والنصيحة: كلمة جامعة يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو فعل يقال: نصحته ونصحت له الودّ... ﴿**أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم**﴾: التعجب: انفعال نفساني يحصل عند إدراك شيء غير مألوف وقد يكون العجب مشوباً بإنكارالشيء المتعجب منه واستبعاده أو إحالته. والذكر: الوحي المنزل من عند الله. والرجل: نوح عليه السلام... ﴿**فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوم عمين**﴾: العَمَى عمى البصر، والعِمى عمى البصيرة، وعمين جمع عمٍ، وهو جمع مذكر سالم.

مبحث الإعراب:

﴿**لقد**﴾ اللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**أرسلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**نوحاً**﴾ مفعول به. ﴿**إلى قومه**﴾ متعلق بأرسلنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فقال**﴾ الفاء للتعقيب، والفاعل ضمير يعود على نوح. ﴿**يا قوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وقوم مضاف، وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف مضاف إليه، والكسرة قبلها دليل عليها. ﴿**اعبدوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**ما**﴾ اسم بمعنى ليس يعمل عملها. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر ما مقدم. ﴿**من إله**﴾ مجرور بمن الزائدة لفظاً مرفوع محلاً اسم ما مؤخر. ﴿**غيرُه**﴾ مرفوع نعت لمحل إله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أخاف**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأخاف. ﴿**عذاب**﴾ مفعول به.

﴿**يوم**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**عظيم**﴾ نعت ليوم، وجملة إنّي أخاف تعليلية.

﴿**قال الملأ**﴾ فعل وفاعل﴿. **من قومه**﴾ متعلق بمحذوف حال. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لنراك**﴾ الضمير المتصل مفعول أول. ﴿**في ضلال**﴾ متعلق بمحذوف مفعول ثان. ﴿**مبين**﴾ نعت لضلال، والجملة خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ الفاعل ضمير يعود على نوح. ﴿**يا قوم**﴾ تقدم إعرابها. ﴿**ليس بي ضلالة**﴾ ضلالة اسم ليس، وبي متعلق بمحذوف خبر ليس. ﴿**ولكني**﴾ استدراك معطوف على ليس بي ضلالة. ﴿**رسول**﴾ خبر لكن، واسمها ضمير المتكلم. ﴿**من ربّ**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسول. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى رب. ﴿**أبلغكم**﴾ فعل مضارع، وفاعله أنا، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**رسالات**﴾ مفعول ثان منصوب بالكسرة. ﴿**ربّي**﴾ مضاف إلى رسالات مجرور بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها المناسبة، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى رب. ﴿**وأنصح**﴾ معطوف على أبلغكم. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأنصح. ﴿**وأعلم**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**من الله**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**لا تعلمون**﴾ جملة منفية بلا صلة ما. ﴿**أوعجبتم**﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو للعطف على مقدر، وعجبتم فعل وفاعل. ﴿**أن جاءكم ذكر**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: أأستبعدتم وعجبتم من مجيء ذكر. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بجاء. ﴿**على رجل**﴾ كذلك.

﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرجل. ﴿**لينذركم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على رجل، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بجاءكم. ﴿**ولتتقوا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**ولعلكم**﴾ كذلك. ﴿**ترحمون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة خبر لعل. ﴿**فكذبوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول مرتب على ما قبله. ﴿**فأنجيناه**﴾ معقب على فكذبوه. ﴿**والذين**﴾ في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب. ﴿**معه في الفلك**﴾ متعلقان بمحذوف صلة الذين. ﴿**وأغرقنا**﴾ معطوف على أنجينا. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**كذبوا**﴾ صلة الموصول. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**قوماً**﴾ خبر كان. ﴿**عمين**﴾ نعت لقوم منصوب بالياء، وجملة كانوا خبرُ إنّ، وجملة إنّهم كانوا تعليلية.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾: الجولة الآن مع الأمم الخالية، والقرى المهلكة التي جاء ذكرها في أول السورة مباشرة بعد النذير: «وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون». الآن إلى مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط وقوم شعيب، أولئك الذين عصوا ولم يستمعوا للنذير، فحق عليهم الهلاك والدمار تصديقاً للنذر. هؤلاء هم بنو آدم الذين أخرج الشيطان أبويهم من الجنة؛ هؤلاء هم، وفي قصصهم عبرة. وهذه الجولة معهم وفي مصارعهم تجيء بعد الجولة الأولى في ساحة الملإ الأعلى مع آدم وإبليس. والجولة الثانية في ساحة الحشر مع أصحاب الجنة وأصحاب النار. والجولة الثالثة في أقطار الكون المنظور وفي ضميره المستتر المكنون؛ هذه الجولة في فجاج الأرض مع تاريخ البشر، ومع مصارع المكذبين لمسة مباشرة للوجدان البشري. والقصص في القرآن لا يعني بأن يتتبع الخط التاريخي؛ لأنّه لم يقصد به إلى التاريخ كما لم يقصد به إلى ذات القصص، إنّما هو وسيلة تربية وتهذيب، وأداة إيضاح وتمثيل، ولكنه أحياناً يتبع الخط التاريخي ـ كما هو الشأن هنا ـ لأداء غرض معين في سياق معين. وقد بدأ في هذه السورة بقصة آدم، ثم قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ثم قصة موسى؛ متمشياً مع خط التاريخ المعروف.

تُعرض قصة نوح هنا مختصرة، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى في القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات، إنّ الهدف هنا هو تصوير المعاني التي ترد كالأسس للرسالة؛ من طبيعة العقيدة وطريقة التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها وتحقق النذير؛ لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعاني على منهج القصص القرآني. بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم لتأكيد خبرها الأول من وجه إليهم الخطاب بها ـ وهم أهل مكة من المشركين، ومَنْ وراءَهم من العرب ـ إذ كانوا ينكرون الرسالة والوحي. والقسم محذوف دل عليه لامه في بدء الجملة، وهي لا تكاد تجيء إلاّ مع قد؛ لأنّ القسم يُهَيِّئُ نفسَ السامع لِتَوَقُّعِ خَبَرٍ مهم، فيؤتى بقد؛ لأنّها تدل على تحقيق أمر متوقع... ﴿**فقال يا قوم**﴾: عطف بالفاء إشعاراً بأنّ ذلك القول صدر منه فوراً. وناداهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، وأضاف القوم إلى ضميره لاستجلاب اهتدائهم...

﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: إبطال لما كانوا عليه من الشرك، وجملة: ﴿**إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾ في موقع التعليل، كأنّه قيل: اتركوا عبادة غير الله خوفاً من عذاب يوم عظيم. . . ﴿**قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين**﴾: فصلت هذه الجملة على طريقة الفصل في المحاورات، واقترن جوابهم بحرف التأكيد للدلالة على أنّهم حققوا وأكدوا اعتقادهم أنّ نوحاً منغمس في الضلالة. وهكذا يبلغ الضَّالُّ من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال، فلا يحاول أن يتبيّن ما قد يكون في قوله من الصواب!. . ﴿**قال يا قوم ليس بي ضلالة**﴾: نوح يحاور قومه وينفي عن نفسه ما قالوا فيه، ويكشف لهم عن حقيقة رسالته. والنداء في جوابه إيّاهم للاهتمام بالخبر.

وأضافهم إلى ضميره مرة أخرى استنزالاً لطائر نفوسهم ممّا سيعقب النداء من الرد عليهم وإبطال قولهم. والاستدراك الذي في قوله. . . ﴿**ولكني رسول**﴾ لرفع ما توهموه من أنّه في ضلال حيث خالف دينهم. والمقصود من قوله: ﴿**أبلغكم رسالات ربّي**﴾: إفادة التجدد، وأنّه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم. وجمع رسالات لتكررها وطول مدتها. والتبليغ استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنّه ينقله من مكان إلى مكان. . . ﴿**وأنصح لكم**﴾: أتى بلام الاختصاص للدلالة على أنّ الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح. وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النصح لهم.

وعقب ذلك بقوله: ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ جمعاً لمعانٍ كثيرة ممّا تضمنته الرسالة وتأييداً لثباته على دوام التبليغ، فجاء بهذا الكلام الجامع، ويتضمن هذا الإجمال البديع تهديداً لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل. وانتقل إلى كشف الخطإ في شبهتهم فعطف على قوله. . . ﴿**أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم**﴾: مُفْتَتِحاً الجملة بالاستفهام الإنكاري مع واو العطف، وهذا مشعر بأنّهم أحالوا أن يكون رسولاً، مستدلين على أنّه بشر مثلهم. وقوله: ﴿**لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون**﴾: فيه ثلاث علل متعاقبة مترتبة، وفي هذه كشف عن هدف الرسالة: الإنذار، لتحريك القلب بمشاعر التقوى، وربطه بالله في يقظة وإشفاق، ومن ثم شعور طيب وعمل طيب تتنزل بهما رحمة الله على العباد، ولكن الفطرة حين تفسد لاتتفكر ولاتتدبر ولاتتذكر؛ ﴿**فكذبوه**﴾. ويسرع السياق

هنا بالعاقبة؛ لأنّ الإسراع بها يؤكد قوة الإنذار. . . فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوماً عمين: فبعماهم هذا كذبوا، وبعماهم هذا استحقوا الهلاك!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾: في هذا التوجيه يلفت نظر السامع إلى ماحصل لنوح مع قومه، وكان المقصود الأول من هذا هم المكذبون من قريش ومن حولهم من العرب تسلية للرسول وتعليماً بتاريخ الأمم. ولقد كانت دعوة نوح هذه أول دعوة إلى قوم مشركين يعبدون الأصنام، وهي حالة تشبه حالة المشركين من العرب، ونحن نلمح من هذا العرض وحدة طبيعة الدعوة من أول رسول إلى آخر رسول، ونلمح وحدة طبيعة الإيمان، ووحدة طبيعة الكفر في نفوس البشر على مدار التاريخ؛ فالذين آمنوا بكل رسول لم يستكبروا أن يطيعوا، ولم يعجبوا أن يختار الله منهم رسولاً، والذين كفروا أخذتهم العزة بالإثم أن يستجيبوا لرجل منهم، ولم يستشعروا ما في هذا الاختيار من تكريم للجنس البشري كله.

وفي قصص الأنبياء التي وردت في القرآن فوائد: منها التنبيه على أنّ إعراض الناس عن قبول الدلائل عادة معتادة؛ فليس إعراض المشركين وأهل الكتاب عن دعوة الإسلام بغريب. ومنها بيان سوء عاقبة المكذبين، وحسن عقبى المطيعين، وفي ذلك تقوية قلوب المحقين، وكسر قلوب المبطلين. ومنها التنبيه على أنّ الله سبحانه لا يهمل المبطلين وإن كان يمهلهم. ومنها العظة والاعتبار؛ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب والأبصار. ومنها الدلالة على نبوءة محمد ﷺ من حيث إنّه إخبار بالغيب؛ لأنّه أُمِّيٌّ لم يقرأ الكتب، فيكون قد عرف ذلك بالوحي لا محالة.

وكلمة نوح هنا هي كلمة كل رسول أرسله الله، فهي الكلمة التي لا تتبدل، وهي عماد هذه الحياة الذي لا تقوم على سواه، وهي ضمان وحدة المتّجه ووحدة الهدف ووحدة الارتباط في الوجهة إلى الله، لا في أهواء وأوهام لا مرجع لها ولا

أساس، وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية لأية سلطة في الأرض، وبالاستعلاء على المال والمركز والجاه. قال لهم تلك القولة الواحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وأنذرهم عاقبة التكذيب مشفقاً عليهم من تلك العاقبة الوخيمة: إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم؛ فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين لهذا القول المستقيم؟!.. **﴿قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين﴾**!. وينفي نوح -عليه السلام -عن نفسه الضلال، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها؛ فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه، إنّما هو مجرد رسول من عند ربّه: يحمل لهم رسالته، وينصح لهم، ويعطيهم من العلم الذي آتاه الله وهم لا يعلمونه... **﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من ربّ العالمين أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**.

التوجيه الثاني: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾: في هذا التوجيه تعجب من جهتين: تعجب نوح من عناد قومه وكفرهم وجهلهم، حيث لم ينظروا في حقيقة الدعوة، ولم يفكروا في نوح حيث دعاهم ونصحهم وهو أعلم منهم، وتعجب قوم نوح منه، حيث جعل نفسه فوقهم ودعاهم إلى ترك ما ألفوا من عبادة آلهتهم وآلهة آبائهم؛ فنوح يقيم الحجة على دعوته من نفسها، فلا تحتاج إلى دليل من الخارج، وقومه يقيمون حجتهم على موقفهم من دعوته؛ من كونه بشراً مثلهم ليْسَ له مُؤَهِّلات الإنكار على ما هم عليه. ووقف كل منهم في موقفه، فلا القوم نظروا بعين الحقيقة، ولا نوح أيس من سدّ الطريقة. استمر القوم في تكذيبهم، وأظهر الله نوحاً على نجاته وحتّم تعذيبهم... **﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوماً عمين﴾**.

ولقد دلت هذه القصة على معنى عظيم في إرادة الله تعالى تطور الخلق الإنساني، فإنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له الحسّ الظاهر والحسّ الباطن، فانتفع باستعمال بعض قواه الحسيّة في إدراك أوائل العلوم، ولكنه استعمل بعض ذلك فيما جلب له الضر والضلال، وذلك باستعمال القواعد الحسية فيما غاب عن حسه، وإعانتها بالقوى الوهمية والمخيلة؛ ففكر في خالقه وصفاته فتوهم له أنداداً وأعواناً وعشيرة وأبناء وشركاء في ملكه، وتفاقم ذلك في الإنسان مع

مرور الأزمان، حتى عاد عليه بنسيان خالقه؛ إذ لم يدخل العلم به تحت حواسه الظاهرة، وأقبل على عبادة الآلهة الموهومة، حيث اتخذ لها صوراً محسوسة؛ فأراد الله إصلاح البشر وتهذيب إدراكهم، فأرسل إليهم نوحاً فآمن به قليل وكفر به جمهورهم، فأراد الله انتخاب الصالحين من البشر الذين قبلت عقولهم الهدى، وهم نوح ومن آمن به، واستئصال الذين تمكنت الضلالة من عقولهم لينشئ من الصالحين ذريّة صالحة، ويكفي الإنسانية فسادَ الضالين.

7 ـ من قصص المرسلين الكرام، قصة هود عليه السلام

النص

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿64﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿65﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿66﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿67﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿68﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿69﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿70﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾: عاد: اسم القبيلة أو اسم جدها الأول. وهود: اسم للرسول المبعوث إلى عاد، وكانت مساكنهم بالأحقاف، أهلكهم الله بالريح العقيم... ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: تقدم مثله في كلام نوح... ﴿أفلا تتقون﴾؟: إنكار على ما هم عليه من الإشراك وعدم خوف الله... ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾: مثل ما تقدم من قوم نوح... ﴿إنّا لنراك في سفاهة﴾: الرؤية قلبية. والسفاهة هنا سخافة العقل، حيث دعاهم إلى شيء غريب عندهم لا يقوله إلا إنسان مغلوب على عقله مصاب بالهوس والخيال: «إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء...».

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من ربّ العالمين﴾: قول هود مثل قول نوح قبله... ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة﴾: الخلفاء: جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره في شيء. والبسطة: الوفرة والزيادة الجسمية والنفسية، مثل قوله: «وزاده بسطة في العلم والجسم...» ﴿فاذكروا آلاء الله﴾: الآلاء: جمع إِلَى، وهي النعمة... ﴿فأتنا بما تعدنا﴾: الإتيان بالشيء: حقيقته أن يجيء مصاحباً إيّاه، ومعناه هنا إحضاره وإثباته... ﴿قال قد وقع عليكم من ربّكم رجس وغضب﴾: وقع: حقَّ وثبت، وحق عليه القول: وجب، وأصله وقوع الشيء على الشيء فاتصل به. والرجس: العمل القبيح المؤدّي إلى العذاب. والغضب: السخط وعدم الرضا، وحقيقة الغضب: انفعال تنشأ عنه كراهية المغضوب عليه وإبعاده وإيقاع العذاب به، وغضب الله: تقديره الإبْعَادَ والعقوبة والتحقير...

﴿**أتُجَادِلُونَني في أسماء سميتموها**﴾: المجادلة المحاجّة. الأسماء: الألفاظ التي توضع على الشيء يتميز به، والمراد بها هنا: الأسماء التي وضعت للأصنام باعتبار إلاهيتها، وهي أسماء لا حقيقة لها. . . ﴿**ما نَزَّلَ الله بها من سلطان**﴾: بل هي مجرد دعوى بلا دليل. . . ﴿**فأنجيناه والذين معه برحمة منّا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين**﴾: قطع الدابر: استئصال ظفر الحيوان المفترس، واستئصال القوم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد، وهو المقصود هنا.

مبحث الإعراب

﴿**وإلى عاد**﴾ متعلق بأرسلنا المقدر، وهو معطوف على أرسلنا نوحاً. ﴿**أخاهم**﴾ مفعول أرسلنا المقدر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**هوداً**﴾ عطف بيان. ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء عاطفة على مقدر، والتقدير: أغفلتم فلا ﴿**تتقون**﴾؟. ﴿**قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة**﴾ الآيتين إعرابهما مثل إعراب ما تقدم في قصة نوح. ﴿**أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم لينذركم**﴾ كذلك. ﴿**واذكروا**﴾ معطوف على اعبدوا. ﴿**إذ**﴾ في محل نصب مفعول اذكروا. ﴿**جعلكم خلفاء**﴾ الضمير المتصل مفعول أول، وخلفاء مفعول ثانٍ. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بجعل. ﴿**قوم**﴾ مضاف إلى بعد. ﴿**نوح**﴾ مضاف إلى قوم. ﴿**وزادكم في الخلق بصطة**﴾ معطوف على اذكروا، والضمير المتصل مفعول أول، وبسطة مفعول ثان، وفي الخلق متعلق ببسطة. ﴿**فاذكروا**﴾ تعقيب على ما قبله. ﴿**آلاء**﴾ مفعول اذكروا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آلاء. ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ جملة تفلحون خبر لعلّ، واسمها الضمير المتصل بها. ﴿**قالوا**﴾. ﴿**أجئتنا**﴾ الهمزة للاستفهام، وضمير المخاطب فاعل، وضمير المتكلمين مفعول.

﴿**لنعبد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**وحده**﴾ منصوب على الحال من الله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ونذر**﴾ معطوف على نعبد. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على ما. ﴿**يعبد آباؤنا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب خبر كان، وجملة كان يعبد صلة ما. ﴿**فأتنا**﴾ تفريع على ما قبله. ﴿**بما**﴾ متعلق بالفعل (ائت). ﴿**تعدنا**﴾ صلة ما. ﴿**إن كنت**﴾ فعل الشرط، وضمير المخاطب اسم كان.

﴿**من الصادقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: فأتنا. ﴿**قال قد وقع عليكم من ربّكم رجس**﴾: رجس فاعل وقع، وعليكم ومن ربّكم متعلقان بوقع. ﴿**وغضب**﴾ معطوف على رجس. ﴿**أتجادلونني**﴾ فعل وفاعل ومفعول والهمزة للاستفهام. ﴿**في أسماء**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**سميتموها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت لأسماء. ﴿**أنتم**﴾ ضمير فصل.

﴿**وآباؤكم**﴾ معطوف على الضمير الفاعل (واو الجماعة). ﴿**ما نزّل الله**﴾ فعل منفي بما، وفاعله الله. ﴿**بها**﴾ متعلق بنزّل. ﴿**من سلطان**﴾ في محل نصب مفعول نزّل، وجُرّت لفظاً بمن الزائدة. ﴿**فانتظروا**﴾ تفريع للإنذار. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**معكم**﴾ متعلق بقوله ﴿**من المنتظرين**﴾، وهو متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**فأنجيناه**﴾ تعقيب على ما سبقه. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الضمير المفعول. ﴿**معه**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿**برحمة**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المنصوب. ﴿**منّا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرحمة. ﴿**وقطعنا**﴾ معطوف على أنجينا. ﴿**دابر**﴾ مفعول قطعنا. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى دابر. ﴿**كذبوا**﴾ صلة الذين. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**وما كانوا مؤمنين**﴾ معطوف على كذبوا، فالجملة من كان واسمها وخبرها صلة لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً**﴾: القصة متصلة بالقصة قبلها بالعطف. والأخ هنا مستعمل في مطلق القرب على وجه المجاز المرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب... ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: فيه تفنن في الأسلوب بين قول هود وبين قول نوح، حيث ترك فاء التفريع هنا وذكر هناك. وقال هنا: أفلا تتقون، وهناك: ﴿**إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾. وقال هنا: ﴿**قال الملأ الذين كفروا**﴾، وهناك: قال الملأ من قومه تفنناً كذلك. وقال هنا: ﴿**إنّا لنراك في سفاهة**﴾، وهناك: إنّا لنراك في ضلال مبين؛ تنوعاً في إلغاء الدعوى وردها... ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة**﴾: في هذا التذكير تحذير ممّا حصل لقوم نوح من التقصير، وتحريض لما يحصل من شكر النعمة من الفلاح والفوز وحسن المصير، وهذا التذكير تصريح

بالنعمة وتعريض بالنذارة والوعيد بأنّ قوم نوح إنّما استأصلهم وأبادهم عذاب من الله على شركهم وعدم شكرهم.

والفاء في قوله: ﴿**فاذكروا آلاء الله**﴾ فصيحة، ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا؛ لأنّ ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعَم عليه على مقابلة النعم بالطاعة والتشمير وحسن التدبير. . . ﴿**قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾: في هذه القولة يتجلى الاستعباد الروحي والعقلي الذي يسلب بعض الناس من حرية التدبر وحرية النظر وحرية التفكير، ويدعهم عبيداً للعادة وللتقليد الأعمى؛ فيا خيبة الأمل وسوء المصير!. . ﴿**قال قد وقع عليكم من ربّكم رجس وغضب**﴾!: كان الجواب حاسماً وسريعاً حسبما طلبوا واقترحوا؛ فأبلغهم العاقبة التي تقررت لهم بلا مهلة ولا تأخير، فقد وقع ما طلبتم، وليس لكم من أصنامكم وليٌّ ولا نصير.

وقد نزّل منزلة المتوقع منزلة الواقع. وتنوين رجسٌ وغضبٌ للتفخيم والتهويل كما يؤخذ من سياق التعبير. . . ﴿**أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين**﴾: لمّا قدّم إنذارهم بغضب الله عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم، فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم، فهي مجرد أسماء لا حقيقة لها، والغرض منه إظهار سخافة نفوسهم وسفاهة عقولهم، وهو ردٌّ حاسم لِمَا قالوا له: إنّا لنراك في سفاهة؛ فهل في هذه الأسماء العارية من الحقيقة والمدلول يجادل المجادلون؟!. إنّ الله لم ينزّل بها سلطاناً ولم تضمنها قوة يثبت بها وجودها، وإذا سلب الله قوة الوجود من شيء فقد انعدم وجودُه. وهذا يتمشى مع وصفها بأنّها مجرد أسماء. . مبالغة في إنكار حقيقتها الوجودية. ثم يعقب بالتهديد بالعاقبة المقررة المحتومة: فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين، وإنّها لَقَوْلَةُ الواثق من المصير. ولا يطول الانتظار في السياق: ﴿**فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين**﴾: قدم الإنجاء على الإهلاك في السياق هنا للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمن معه. والمعية هنا معية مجازية فالمقصود منها معية الدين والمنهج والمتّجه. ورشاقة الأسلوب هنا لا تخفى على من يتذوق هذا التعبير.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون**﴾: في هذا التوجيه عرض قصة هود ـ عليه السلام ـ مع قومه عاد، كما عرض من قبله قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه. إنّها نفس الرسالة ونفس الطريق ونفس الحوار ونفس العاقبة. إنّها السُنَّة الماضية والناموس النافذ والقانون الواحد. ولا يحدد السياق هنا موطن عاد من الأرض، وقد بُيّنت في سياق آخر: «واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف». وموقع الأحقاف معروف إلى يومنا هذا، وتاريخهم يقع بعد الطوفان، كما يدل عليه قوله: واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح. ونسبة الأخوة إلى القوم هنا زيادة على ما كان لنوح؛ لأنّ الناس في عهد هود كثروا وانتشروا وتفرقوا شعوباً وقبائل، بخلاف قوم نوح فلم تظهر في وقتهم الأنساب المتفرقة، وإنّما كانوا أمة واحدة فهلكوا جميعاً بالطوفان، ولم ينج إلاّ من كان في السفينة مع نوح.

ومع طول المدة التي مرت بين قوم نوح الهالكين، وبين قوم هود المستخلفين لم تتغير المقولة ولم تختلف الدعوة، ولم يختلف القوم في صيغة الرد وكيفية الرفض؟.. ﴿**قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنك من الكاذبين**﴾: هكذا جزافاً بلا تروٍّ ولا دليل!. وما داموا هم كذلك، فمن هو السفيه؟!. وعلى هذه النتيجة يأخذ الردُّ طريقَه الصحيح... ﴿**قال يا قوم: ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلّغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم لينذركم**﴾: نفس الكلام الذي قاله نوح لقومه، فلا خلاف إلاّ في بعض عرض الكلمات تفنُّناً في السياق. وكذلك تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرسل؛ لأنّ ضلالة المكذبين متّحدة، وشُبهَاتهم متحدة، فكأنّهم لقن بعضُهم بعضا. ولا يعزب عن البال مصدر الكفر والضلال الذي لقن جميع الأجيال هذا المقال!. ذلك الخطر الكمين المتربص عن الشمال واليمين؛ إبليس اللعين. «ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدو مبين».

التوجيه الثاني: ﴿**واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون**﴾: في هذا تذكير بنعمتين عظيمتين

اختص بهما قوم هود؛ وهما استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح، فهم أول أمة عمرت الأرض بعد هلاك قوم نوح. وهذا التذكير تصريح بالنعمة وتعريض بالنذارة والنقمة، فقد حذرهم ممّا صنع قوم نوح من عنادهم واستكبارهم وتمسّكهم بآلهتهم، فمن اتبعهم في صنعهم يوشك أن يحل به ما حل بهم. والنعمة الثانية البسطة الزائدة التي لم تكن لأمةٍ قبلهم ولا بعدهم؛ من حيث القوى الجبلية وفرة في الأجسام وقوة في الأحلام، وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة ونسبة كمال قوى الأجسام إلى عاد. وذكّر القرآنُ العربَ بهذا بقوله: «كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً»، وفي مقدمة هؤلاء قوم هود، حيث قالوا: «مَنْ أشد منّا قوّة؟!»، وزاد في تذكيرهم عندما رتب عليه قوله: **﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾**: لأنّ ذكرى النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعِم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة، ولكن عاداً جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله، فقد جاوبوا هوداً بما أنبأ عن ضياع حُجّته في جنب سفاهة عقولهم ومكابرة نفوسهم، فعادوا إلى تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري. . . **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إنْ كنت من الصادقين﴾**!؟: وبهذا أظهروا تحديهم عندما أشعروه بأنّهم موقنون بأن لا صدق للوعيد الذي يتوعدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب.

والقصد من هذا إظهارعجزه وأن لا حقيقة لوعيده، ولكن هوداً يرد عليهم بصراحة وصدق لوثوقه من صحّة نبوءته. . . **﴿قال قد وقع عليكم من ربّكم رجس وغضب﴾**: إنّه الوعيد الصادق والتهديد الماحق، فلا تنفع فيه قوةُ القويّ ولا وَهْمُ الغبيّ، الذي اعتقد أنّ هذه الأصنام تدفع عنه ما سيحل به: **﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين﴾**: ولا يطول الانتظار في السياق: **﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منّا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾**!: فهو المحق الكامل الذي لا يتخلّف منه أحد وهو ما عبر عنه بقطع الدابر. والتصريح بأنّهم الذين كذّبوا بدل وقطعنا دابرهم لبيان سبب الهلاك. وتوكيد الحكم بأنّهم ما كانوا مؤمنين، لتوضيح هذا المعنى وتقرير لكفرهم الأصيل. وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين!. وتحقق النذير مرة أخرى في دورة من دورات التاريخ الذي حذّر منه كلُّ ناصح أمين!.

8 ـ من قصص الرسل الكرام، قصة صالح عليه السلام

النص

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اِعْبُدُواْ اُ۬للَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اُ۬للَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِےٓ أَرْضِ اِ۬للَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿72﴾ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِے اِ۬لْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ اَ۬لْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اَ۬للَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِے اِ۬لْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿73﴾ * قَالَ اَ۬لْمَلَأُ اُ۬لذِينَ اَ۪سْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلذِينَ اَ۟سْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿74﴾ قَالَ اَ۬لذِينَ اَ۪سْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِالذِےٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿75﴾ فَعَقَرُواْ اُ۬لنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ اُ۪يتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ اَ۬لْمُرْسَلِينَ ﴿76﴾ فَأَخَذَتْهُمُ اُ۬لرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِے دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿77﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّے وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ اَ۬لنَّٰصِحِينَ ﴿78﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا**﴾: ثمود أُمّة عظيمة من العرب البائدة، وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام... ﴿**قد جاءتكم بيّنة من ربّكم**﴾: آية عظيمة القدر... ﴿**هذه ناقة الله**﴾: الناقة: أنثى الإبل، وهي الآية التي تحدّى بها صالح قومه... ﴿**فذروها تأكل في أرض الله**﴾: اتركوها تأكل العشب وتشرب الماء... ﴿**ولا تمسُّوها بسوء**﴾: المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم. والسوء هنا ما يلحق الجسم من الألم... ﴿**وبوّأكم في الأرض**﴾: بوّأ: أنزل وأقر في المكان، وأصل البوء: الرجوع؛ لأنّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه... ﴿**تتخذون من سهولها قصوراً**﴾: السهول: جمع سهل، وهو المستوى من الأرض.

والقصور: جمع قصر، وهو المسكن المبني من الحجر والجص المنمّق، بقصد التفاخر والتعالي على الغير... ﴿**وتنحتون الجبال بيوتاً**﴾: البيوت المنحوتة من الجبال: مساكن أهل الجبال المحفورة في الصخور بعناية فائقة وإتقان يثير العجب، لغريب ما يُرَى فيها من التنويع والتنميق، والغرض منها حماية أهلها من شدّة برد الجبال القارس... ﴿**ولا تعثوا في الأرض**﴾: عثِيَ يعثى كرَضِيَ يَرْضَى، ولا تعثَوْا نَهْيٌ للجماعة، والعثي: أشد الإفساد... ﴿**فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم**﴾: العقر: حقيقته الجرح البليغ، ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان، والمراد بالعقر هنا: قتل الناقة بقطع أوصالها. والعتو: تجاوز الحد في الكبر، ومعناه هنا إعراضهم عن أمر الله وكفرهم بآيات الله... ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾: الرجفة: المرة من الرجف، وهو الحركة والاضطراب، يقال: رجف البحر إذا اضطربت أمواجه، ورجُفت الأرض: زلزلت واهتزت، ورجف القلب من الخوف. والجثوم: الوقوع على الركب والوجوه، واللصوق بالأرض خامدين هامدين!.

مبحث الإعراب

﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً**﴾ تقدم إعراب مثلها في قوله: وإلى عاد أخاهم هوداً. ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: كذلك. ﴿**قد**﴾ حرف

تحقيق. ﴿**جاءتكم**﴾ ضمير الخطاب مفعول به. ﴿**بيّنة**﴾ فاعل جاءت. ﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بجاءت. ﴿**هذه**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ناقة**﴾ عطف بيان. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى ناقة. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر هذه. ﴿**آية**﴾ منصوب على الحال من اسم الإشارة. ﴿**فذروها**﴾ الفاء للتفريع، ذروها فعل وفاعل ومفعول. ﴿**تأكل**﴾ مجزوم بجواب الأمر. ﴿**في أرض**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أرض. ﴿**ولا تمسوها**﴾ الفعل مجزوم بلا الناهية معطوف على الجملة قبله. ﴿**بسوء**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فيأخذكم**﴾ منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية بعد النهي.

﴿**عذاب**﴾ فاعل. ﴿**أليم**﴾ نعت لعذاب. ﴿**واذكروا**﴾ معطوف على اعبدوا. ﴿**إذ**﴾ في محل نصب مفعول اذكروا. ﴿**جعلكم**﴾ الجملة في محل جر مضافة إلى إذ. ﴿**خلفاء**﴾ مفعول ثان لجعل. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بجعل. ﴿**عاد**﴾ مضاف إلى بعد. ﴿**وبوأكم**﴾ معطوف على جعلكم. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**تتخذون**﴾ فعل وفاعل، والجملة بيانية. ﴿**من سهولها**﴾ متعلق بتتخذون والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قصوراً**﴾ مفعول به. ﴿**وتنحتون**﴾ معطوف على تتخذون. ﴿**الجبال**﴾ مفعول به. ﴿**بيوتاً**﴾ منصوب على الحال من الجبال. ﴿**فاذكروا**﴾ مفرع على ما قبله. ﴿**آلاء**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آلاء. ﴿**ولا تعثوا**﴾ معطوف على اذكروا. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بتعثوا. ﴿**مفسدين**﴾ حال مؤكدة من فاعل تعثوا. ﴿**قال الملأ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت للملأ. ﴿**استكبروا**﴾ صلة الذين. ﴿**من قومه للذين استضعفوا**﴾ متعلق بقال. ﴿**لمن**﴾ بدلٌ من اسم الموصول بإعادة حرف الجر. ﴿**آمن**﴾ صلة من. ﴿**منهم**﴾ متعلق بآمن. ﴿**أتعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**أنَّ صالحاً**﴾ أنّ واسمها. ﴿**مرسل**﴾ خبرها. ﴿**من ربّه**﴾ متعلق بمرسل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنَّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بما**﴾ متعلق بما بعده: مؤمنون. ﴿**أُرسل**﴾ مبني للمجهول. ﴿**به**﴾ نائب الفاعل. ﴿**مؤمنون**﴾ خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل. ﴿**استكبروا**﴾ صلة الذين. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بالذي آمنتم به**﴾ متعلق بخبر إن ـ ﴿**كافرون**﴾ -. ﴿**فعقروا**﴾ تعقيب على ما قبله. ﴿**الناقة**﴾ مفعول به. ﴿**وعتوا**﴾ معطوف على عقروا. ﴿**عن أمر**﴾ متعلق بعتوا. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى أمر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يا صالح**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**ائتنا**﴾ فعل أمر.

﴿**بما**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**تعدنا**﴾ صلة ما. ﴿**إن**﴾ شرطية. ﴿**كنت**﴾ كان واسمها. ﴿**من المرسلين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: ائتنا بما تعدنا. ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ تعقيب على ما حصل. ﴿**فأصبحوا**﴾ ترتيب على ما قبله. ﴿**في دارهم**﴾ متعلق بالخبر بعده ﴿**جاثمين**﴾. ﴿**فتولى**﴾ فاعل تولى ضمير يعود على صالح ـ عليه السلام ـ. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بتولى. ﴿**وقال**﴾ معطوف على تولى. ﴿**يا قوم**﴾ منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً. ﴿**لقد**﴾ اللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**أبلغتكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**رسالة**﴾ مفعول ثان. ﴿**ربّي**﴾ مضاف إلى رسالة، وياء المتكلم مضافةٌ إلى رب. ﴿**ونصحت**﴾ معطوف على أبلغتكم. ﴿**لكم**﴾ متعلق بنصحت. ﴿**ولكن**﴾ عطف استدراك. ﴿**لا تحبون**﴾ فعل مضارع منفيّ بلا. ﴿**الناصحين**﴾ مفعول به منصوب بالياء.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: الكلام متصل بما قبله بحرف العطف، وهذه صفحة جديدة من صحائف الإنذار والتكذيب.. ومصرع جديد من مصارع المكذبين. ودعوة صالح مثل دعوة هود؛ ذات الكلمة الواحدة الخالدة، وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والعمل والسلوك، ويزيد هنا تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح حين طلبها قومه للتصديق. والسياق هنا جاء مختصراً موجَزاً، ولا يذكر طلبهم للآية، ولا يذكر تفصيلاً للناقة، وإنما يقتصر على أنّها آية؛ فيذكرها كعِلَّةٍ لصدق دعوته. ويمضي السياق منسجماً مع الغرض الموجز: ﴿**فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم**﴾، وهكذا سبق النذير. وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة يأخذ صالح ـ عليه السلام ـ في النصح بالتدبر والتذكر والنظر في مصائر الماضين، والشكر على النعم والآلاء: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾: ومن هذا التذكير القصير نلمح أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، وندرك طبيعة الموقع الذي كانوا يعيشون فيه؛ فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير.

وهنا كذلك نلمح فجوة في السياق على سبيل الإيجاز والاختصار، فقد آمنت طائفة من قوم صالح، واستكبرت طائفة؛ وهنا يتوجه المستكبرون من قوم صالح إلى المؤمنين الضعفاء بالاستجواب: **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنَّ صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾**: عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح، إلى اختبار تصلب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم؛ ولما كان خطابهم للمؤمنين مقصوداً به إفساد دعوة صالح، كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصْل جمل حكاية المحاورات. ووصفهم بالذين استكبروا هنا؛ لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم، واستذلالهم إيّاهم، وللتنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح هم ضعفاء قومه.

والاستفهام في: أتعلمون؟ للتشكيك والإنكار... **﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم وقالوا يا صالحَ ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾**: الفاء للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: إنّ بالذي آمنتم به كافرون، والتعقيب في كل شيء بحسبه. والضمير في قوله: فعقروا عائد إلى الذين استكبروا، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحداً منهم؛ لأنّه كان عن اتفاق ورضى من جميع الكبراء. والعقر طعن الحيوان لغرض قتله لا لغرض أكله. والعتو تجاوز الحد في الكبر، وتعديته بعن لتضمينه معنى الإعراض. ولا يستأنى السياق في إعلان الخاتمة رداً على هذا التبجح والعتو والاستكبار: **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾**: والرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والتبجح؛ فالرجفة تصاحب الفزع عادة، والجثوم دلالة العجز عن الحركة، وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز؛ جزاء وفاقاً في المصير، وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير. ويدعهم السياق على هيئتهم جاثمين ليتحدث عن صالح الذي كذبوه وتحدّوه، فإذا هو يتخذ له وجهة غير وجهتهم، وينفض يديه منهم ويدعهم للمصير الذي جلبوه على أنفسهم بأيديهم، وهو منهم وممّا حلّ بهم بريء... **﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربيّ ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾**.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: في هذا التوجيه يعرض القرآن قصة صالح مع قومه ثمود، عندما أرسله الله إليهم ليبلغهم رسالة الله، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ولا يشركوا به شيئاً. . . **﴿قد جاءتكم بينة من ربّكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾**: في قصة صالح زيادة على ما تقدم في قصة نوح وهود، وهي تلك المعجزة التي صاحبت دعوته حين طلبها قومه للتصديق. وجاءت هذه الآيةُ البينة دالة على صدق دعوة صالح، وأنّه رسول من الله، فمن شك بعد ذلك وتحدّى وتعدّى، فقد تعرّض لعذاب الله وباء بسخط من الله.

ولقد تكررت قصة صالح في كثير من آيات القرآن ـ تارة مفصلة وتارة أخرى مختصرة -؛ لتتناسب مع الأغراض التي جاءت من أجلها كما جاءت هنا: هذه ناقة الله لكم آية، فهي ناقة الله فليس لأحد منكم ولا لي عليها سبيل: فذروها تأكل في أرض الله. وكما أنّ الناقة لله فالأرض أيضاً لله، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم: تحذير للقوم من مغبة ما يطرأ للناقة من سوء؛ كمنعها من الشرب أو الرعي أو الطرد أو الضرب، ولا يخطر ببال أحد أن يصل الأمر بعد ذلك إلى العقر.

التوجيه الثاني: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾: في هذا التوجيه يذكّر صالح قومه باستخلاف الله لهم من بعد عاد، وحيث بوأهم في الأرض يبنون القصور في السهول، وينحتون البيوت في الجبال؛ فهي حضارة عمرانية تأصلت وازدهرت بما لهم من قوة السواعد، وكثرة المساعد، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد استطالة بالقوة والتمكين: فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

التوجيه الثالث: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى ما كان من

قوم صالح من استجابة ورفض؛ فنلمح في السياق موقف المعاندين المستكبرين، وموقف الضعفاء المستجيبين، وهنا يتوجه المستكبرون من قوم صالح إلى المؤمنين من الضعفاء بالاستجواب، عندما يوجهون السؤال إليهم مخوّفين مهدّدين مستنكرين إيمانهم بصالح؛ فهم يتعنتون في السؤال، فلا يسألونهم: أتعتقدون أنّه مرسل من ربّه؛ ليكلوا الأمر إلى قلوبهم، إنّما يسألونهم: أتعلمون؟ فيكلفونهم علم غيب من الغيب، ليناقشوهم في طريقة العلم بغيب مكنون. فأمّا المؤمنون فهم يقررون حقيقة الموقف، ويتحدثون عن اعتقادهم لا عن علمهم، فالمسألة هنا مسألة عقيدة لا علم: قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون، في اطمئنان وثقة وقوة ويقين. ومن ثم يعلن المستكبرون عن موقفهم في صراحة: قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون، على الرغم من البينة التي جاءتهم للتصديق. ويتبعون القول بالفعل، فيعتدون على الناقة التي جاءتهم آية من عند الله، وحذّرهم صالح أن يمسّوها بسوء؛ ويتبجحون باستعجال العذاب الذي أنذرهم به إن كان صادقاً فيما يقول... **﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾**. **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾**!. ويدعهم السياق على هيئتهم جاثمين هامدين مثبّتين على أبشع منظر يظهر للناظرين.

التوجيه الرابع: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾: الغرض من هذا الكلام بيان ما آل إليه أمر صالح عليه السلام، فقد بلّغهم الرسالة، وأدّى إليهم الأمانة، وحذرهم عاقبة التكذيب، وأنذرهم بالعذاب القريب؛ ولكن القوم كذبوه واستهزءوا به، وتعدُّوا على ما جاء به، فحصل ما حصل من أمر ربه، فإذا هو الآن يرى ما حل بهم، وينفض يديه منهم، ويعتذر بأنّه بلغهم ونصحهم، ويدعهم للمصير الذي جلبوه على أنفسهم بأيديهم. وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين، ويحق النذير على المستهزئين!.

9 ـ من قصص الرسل الكرام، قصة لوط عليه السلام

النص

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿79﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿80﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿81﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿82﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿83﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ولوطاً إذ قال لقومه**﴾: لوط اسم رسول بعثه الله إلى قومه، فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا من الفاحشة المنسوبة إليهم. واشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعل فِعْلَ قومه، واستعملت المادة في اللغة العربية (لوط)، يقالُ لاط يلوط لوْطاً بمعنى لصوق شيء بشيء. . . ﴿**أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾: الفاحشة هنا فسرت بقوله تعالى: «إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء»، وهو عمل قوم لوط كما هو معلوم للعرب جميعاً الآن. . . ﴿**إنّكم لتأتون الرجال**

شهوة من دون النساء﴾: الشهوة الرغبة في تحصيل شيء مرغوب، وهي اشتياق النفس إلى الشيء، وجمعها شهوات. . . **﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾**: الإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، ومعناه هنا: الإسراف في الباطل والجرم. . . **﴿وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون﴾**: الجواب: الكلام الذي يقابل به كلام آخر؛ تقريراً أو ردّاً أو جزاءً. والتطهّر: تكلّف الطهارة، وهي النظافة الحسيّة والمعنويّة، مثل تزكية النفس والبعد بها عن الرذائل. . . **﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾**: جمع غابر، يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي، فهو من أسماء الأضداد، وأشهر إطلاقه على المنقضي، ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك، فكانت من الغابرين: الهالكين الذين هلكوا من أهل القرية. . . **﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾**: أمطر: لا يقال إلاّ في العذاب النازل، والإمطار هنا: إنزال الحجر المحروق على ديار قوم لوط. . . **﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾**: المجرمون: فاعلوا الجريمة، وهي فعل الفاحشة التي تقدمت.

مبحث الإعراب

﴿ولوطاً﴾ منصوب بالفتحة على أنّه مفعول بأرسلنا مقدر، أي: أرسلنا لوطاً، وهذا معطوف على قوله تعالى: لقد أرسلنا نوحاً. **﴿إذ﴾** ظرف متعلق بأرسلنا المقدر، أي: أرسلناه وقت. فجملة **﴿قال لقومه﴾** في محل جر مضافة إلى إذْ. **﴿أتأتون﴾** الهمزة للاستفهام، والجملة من الفعل والفاعل في محل نصب مقول القول. **﴿الفاحشة﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. ما سبقكم بها من أحد من العالمين **﴿ما﴾** نافية، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، **﴿من أحد﴾** فاعل سبق جر بالحرف الزائد، وهو في محل رفع، **﴿من العالمين﴾** للتبعيض. **﴿إنّكم﴾** إنّ واسمها. **﴿لتأتون﴾** اللام لتوكيد الخبر، وجملة تأتون من الفعل والفاعل خبر إنّ. **﴿الرجال﴾** مفعول به. **﴿شهوة﴾** مفعول لأجله. **﴿من دون﴾** مضاف. **﴿النساء﴾** مضاف إليه. **﴿بل﴾** للإضراب الانتقالي. **﴿أنتم﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿قوم﴾** خبر المبتدإ. **﴿مسرفون﴾** نعت لقوم. **﴿وما﴾** الواو للعطف، وما نافية. **﴿كان﴾** فعل ماض ناقص. **﴿جوابَ﴾** خبر كان مقدم. **﴿قومه﴾** مضاف إلى جواب، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء مفرّغ. **﴿أن قالوا﴾** أن وما دخلت

عليه في تأويل مصدر مرفوع بدل من اسم كان المقدر، والتقدير: وما كان جواب قومه شيءٌ إلاّ قولهم. ﴿**أخرجوهم**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، وضمير الغائبين مفعول، والجملة مقول القول. ﴿**من قريتكم**﴾ متعلق بأخرجوهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أناسٌ**﴾ خبر إنّ. ﴿**يتطهرون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع نعت لأناس، وجملة إنّهم أناس تعليلية. ﴿**فأنجيناه**﴾ الفاء للتعقيب، أنجيناه فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وأهله**﴾ معطوف على الضمير المنصوب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلاّ امرأته**﴾، إلا أداة استثناء، امرأته مستثنى منصوب بالاستثناء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**كانت**﴾ اسم كان ضمير يعود على امرأته. ﴿**من الغابرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كانت. ﴿**وأمطرنا**﴾ فعل وفاعل معطوف على أنجينا. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بأمطرنا مطراً مفعول به. ﴿**فانظر**﴾ الفاء للتفريع، انظر فعل أمر، والفاعل أنت. ﴿**كيف**﴾ اسم يستفهم به عن حالة عجيبة. ﴿**كان**﴾ فعل ماض تام. ﴿**عاقبةُ**﴾ فاعل. ﴿**المجرمين**﴾ مضاف إليه.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولوطاً إذ قال لقومه**﴾: الكلام متصل بما قبله بواو العطف، وهو معطوف على قوله: لقد أرسلنا نوحاً. وتغيير الأسلوب في ابتداء قصة لوط وقومه، إذ ابتدئت بذكر (لوطاً) كما ابتدئت قصة نوح بذكر نوح لأنّه لم يكن لقوم لوط اسم يُعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به. وإذ ظرف متعلق بأرسلنا المقدر بمعنى: أرسلناه وقت ما قال لقومه. وجُعل وقتُ القول ظرفاً للإرسال؛ لإفادة مبادرته بدعوة قومه إلى ما أرسله الله به. والمقارنة التي تقتضيها الظرفية بين وقت الإرسال ووقت قوله مقارنة عرفية، بمعنى شدّة القرب بأقصى ما يستطاع من مبادرة التبليغ... ﴿**أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾: الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ والتفريع، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل. ما سبقكم بها من أحد من العالمين: الجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد التنكير، وتشديد التوبيخ والتفريع؛ فإنّ مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح!. والسبق هنا مستعمل مجازاً في التقدم في الزمان، بأنّهم أول من ابتدأ بهذه الفاحشة القبيحة الشنيعة، فقد سنُّوا سنّة سيئة للفاحشين.

ومِن الداخلة على أحد لتوكيد النفي؛ للدلالة على معنى الاستغراق في النفي.

وجملة ﴿**إنّكم لتأتون الرجال**﴾ مبينة لجملة أتأتون الفاحشة. والتأكيد بإنّ واللام كناية عن التوبيخ؛ لأنّه مبنيّ على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك؛ لكونهم مسترسلين عليه غير سامعين لنهي الناهي. والإتيان كناية عن عمل الفاحشة. والمقصود من قوله: ﴿**شهوة**﴾ تفظيع الفاحشة وفاعليها، بأنّهم يشتهون ما هو حقيق بأن يُكره ويُستفظع. وقوله: ﴿**من دون النساء**﴾ زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيداً للإنكار. وقوله: ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ إضراب للانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير والتنبيه إلى حقيقة حالهم. ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الإسمية الدالة على الثبات؛ لأنّهم تجاوزوا حد الشهوة المعتادة إلى شهوة قبيحة غريبة في متعارف الناس... ﴿**وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون**﴾: اتصلت هذه الآية بواو العطف بما سبق من قوله: إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة؟.

وانتصب قولُه: جوابَ، على أنّه خبر كان المقدم على اسمها، وهذا هو الاستعمال الفصيح في مثل هذا التركيب، إذا كان أحد معمولي كان مصدراً منسبكاً من أنْ والفعل. والضمير المنصوب في قوله: أخرجوهم عائد على محذوف علم من السياق، وهو لوط وأهله ـ زوجته وابنتيه -. وجملة إنّهم أناس يتطهرون علة للأمر بالإخراج. والتطهُّر تكلف الطهارة، وأطلقت هنا مجازاً على تزكية النفس والحذر من الرذائل. وصيغة التطهر هنا فيها غرضان مهمان: الأول بالنسبة لوصف لوط بها، فهي دائمة مستمرة ظاهرة فيه وفي أهله، وبالنسبة لقومه فهي عندهم ظاهرة غريبة لا يتحملونها، وهم قد علموا هذا التطهر من خلق لوط وأهله؛ لأنّهم عاشروهم ورأوا سيرتهم؛ ولذلك جيء بالخبر جملة فعلية مضارعيّة؛ لدلالتها علىٰ أنّ التطهُّر متكرر منهم ومتجدّدٌ، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم. قوله تعالى: ﴿**فأنجيناه**﴾: تعقيب لجملة: وما كان جواب قومه، وأنجيناه مقدم من تأخير، وذلك قصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط وأهله، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين. ﴿**وأهله**﴾ معطوف على الضمير المنصوب... ﴿**إلاّ امرأته**﴾: مستثناة من الأهل... ﴿**كانت من الغابرين**﴾: لأنّها لم تكن مؤمنة، فهي باقية مع الكافرين فهلكت مع الهالكين... ﴿**وأمطرنا عليهم مطراً**﴾: أبهم نوع المطر هنا، وأتى به منكَّراً؛ لأنّ الغرض منه التعظيم والتعجيب، وفيه التذكرة والموعظة. وتفرع عن هذه القصة العجيبة الأمرُ بالنظر في عاقبتهم بقوله: ﴿**فانظر**

كيف كان عاقبة المجرمين﴾: فالأمر للإرشاد والاعتبار، والخطاب يجوز أن يكون لغير معين، بل لكل من يتأتى منه الاعتبار، كما هو شأن إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء ﷺ تسلية له على ما يلاقيه من قومه الذين كذبوا، بأنّه لا ييأس من نصر الله، وأن شأن الرسل انتظار العواقب، والمجرمون: فاعلو الجريمة، وهي الفاحشة التي ارتكبوها علانية، وكذبوا لوطاً من أجلها، فهي فاحشة غطّت على شركهم وكفرهم وكانت سبباً في هلاكهم واستئصالهم!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾: في هذا التوجيه يبيّن الله الغرض من إرسال لوط إلى قومه، حيث أنكر عليهم ما ظهر منهم من فعل الفاحشة المنكرة التي لم يعرفها الناس من قبل، وهذه الفاحشة هي إتيان الرجال شهوة جنسية بعضهم ببعض، دون إتيان النساء شهوة طبيعية كما أرادها الله للإنسان.

ويبدُو انْحراف الفطرة واضحاً في قصة لوط، حتى إنّ لوطاً ليجبههم بأنّهم بدع دون خلق الله فيها، وأنّهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين: **﴿إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾**: والإسراف الذي يدمغهم به لوط، هو الإسراف في الطاقة الطبيعية التي وهبهم الله إيّاها وفق سنته؛ لأداء دور معين في امتداد البشرية ونُمُوِّ الحياة، فإذا هم يريقون هذه الطاقة ويبعثرونها، وينفقونها إسرافاً وتبذيراً في غير موضعها، حيث لا تثمر ولا تحقق الغرض المقصود منها، فوق أنّها شهوة شاذة؛ لأنّ الله جعل لذّة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية؛ فإذا وجدت لذة في نقيض تلك السنة، فهو الشذوذ إذن، والانحراف والفساد الفطري قبل أن يكون فساداً أخلاقيّاً. ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافاً، أنّه يشتمل على مفاسد كثيرة، منها: استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت من أجله، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهْري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعه الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع، ولأنّه يغير خصوصية الرجولة بالنسبة إلى المفعول به؛ إذ

يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته، ولأنّ فيه امتهاناً محضاً للمفعول به؛ إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً، ولأنّه مفض إلى قطع النسل أو تقليله، ولأنّ ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول، بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له.

فالضرر الذي يلحق الفاعل، ما يعتريه من أمراض القروح والسيلان والزهري المؤدي إلى هلاك الشخص وهلاك نسله من بعده؛ إذ يورثهم هذا الداء الوبيل. والضرر الذي يلحق المفعول به ـ زيادة على ما تقدم ـ إصابته بداء الأبنة التي يصاب بها، حتى يكون طول حياته يبحث عمن يفعل فيه لِيُبَرِّدَ عنه حرارتها، وإن لم يجد من يفعل به مجاناً يؤجر لأجلها من فساق الناس وأرزالهم، حتى يفتضح أمره في البلد، ويشتهر بين سائر طبقات الناس!. وقد انتشرت هذه الفاحشة الآن في أوساط الحضارات الزائفة والمدنيات المنحرفة، حتى جعلوا لها دُوراً خاصة تشرف عليها وترعاها الدولة، وانتشرت كذلك بين مجمّعات الشباب في الأقسام الداخلية والمعسكرات والتجمعات الشبابية، حتى عمّ الفساد. والحكم الشرعي في هؤلاء ما قال به مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو رجم الفاعل والمفعول به ـ إن كان راضياً مكلفاً ـ رجْمَ الزاني المحصن، وقاس عقوبته على عقوبة الله لقوم لوط؛ إذ أمطر عليهم حجارة. وهناك أقوال أخرى للفقهاء تجدها في كتب الفقه.

التوجيه الثاني: ﴿وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون﴾: من هذا البيان نعلم موقف قوم لوط منه عليه السلام، فقد صَمَّمُوا على ما هم عليه من الانحراف والإسراف والفساد، حتى إنّهم ابتدروا وصمّموا على التآمر على إخراج لوط وأهله من قريتهم، وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم، شأن من يشعرون بفساد حالهم، الممنوعين بشهواتهم من الإقلاع عن سيّآتهم، المصمّمين على مداومة ذنوبهم، فإن صدورهم تضيق عن تحمل الموعظة، وأسماعهم تصم لقبولها، ولم يزل من شأن المنغمسين في الهوى تجهّم حلول من لا يشاركهم بينهم.

التوجيه الثالث: ﴿فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾: في هذا التوجيه بيان لماحصل لقوم لوط

من جراء ما ارتكبوا من هذه الفاحشة الشنيعة التي لم تكن معروفة في الناس قبلهم. وكان ما حصل مناسباً لجرمهم، حيث استأصلهم الله بغذاب ساحق ماحق للقرى وأهلها، «فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل». وأنجى الله لوطاً وأهله، حيث أمره الله بالخروج قبل حلول العذاب بهم: «فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب». ولقد غطت هذه الفاحشة على كل ما كان من قوم لوط، من إشراك وكفر ونكر وفسوق، حتى كأنّ لوطاً ـ عليه السلام ـ لم يرسل إليهم إلاّ من أجلها، ولم يكن همه إلاّ إبطالها؛ ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إياه على ما يخص تلك الفاحشة، وقد عُلم أنّ الله أصابهم بالعذاب عقوبة على تلك الفاحشة. وقد نص على ذلك في سورة العنكبوت بقوله: «إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون»، وأنّهم لو أقلعوا عنها لتُرك عذابُهم على الكفر إلى يوم آخَر، أو إلى اليوم الآخِر. وهذه صفحة أخرى تُطوى من صحائف المكذبين المجرمين، لتكون عبرة للناس أجمعين.

10 ـ من قصص الرسل الكرام، قصة شعيب عليه السلام

النص

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿84﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿85﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿86﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿87﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ

أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿88﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿89﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿90﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿91﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿92﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا**﴾: مدين: أمّة سميت باسم جدها مدين. وشعيب - عليه السلام -: هو رسول أرسله الله إلى أهل مدين... ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: نص الكلمة التي قالها من قبله مِن الرسل... ﴿**قد جاءتكم بينة من ربّكم**﴾: البينة التي تدل على صدق دعوة شعيب عليه السلام... ﴿**فأوفوا الكيل والميزان**﴾: أمر بإيفاء الكيل والميزان في المعاملة، وهو فروع شريعة شعيب، بعد بيان الأصول منها... ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾: البخس: هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه، ففيه معنى الظلم والتحيّل. والأشياء: جمع شيء، وهو هنا حق الشخص، وله حق التصرف فيه... ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾: نهي عن كل ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض... ﴿**ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين**﴾: إشارة إلى مجموع ما تضمنه كلامه. والخير مقيد هنا بالإيمان، وهو ما علم وصفه من شرائع الرسل... ﴿**ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**﴾: نهي عن

وقوفهم ضد من يدخل في دعوة شعيب. فالصراط هنا: الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب. والإيعاد: الوعد بالشر، والمقصود منه الصد... ﴿**وتصدون عن سبيل الله من آمن به**﴾: هذا أعم ممّا قبله، فهم يمنعون كل من يريد أن يؤمن بدعوة شعيب ولو بسماعها... ﴿**وتبغونها عوجاً**﴾: يقال بغاه: طلب له.

والعِوج: عدم الاستقامة في المعاني، والمعنى هنا: تحاولون أن تصفوا دعوة شعيب المستقيمة بأنّها باطل وضلال، كمن يحاول اعوجاج عود مستقيم... ﴿**واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم**﴾: تذكيرهم بتكثيرهم؛ إذ صاروا أمة بعد أن كانوا معشراً... ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾: المراد بالمفسدين: الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا الناس بإمدادهم بالضلال، وصدّهم عن الهدى... ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**﴾: الطائفة: الجماعة ذات العدد الكثير. والصبر: حبس النفس لترقُّبِ شيءٍ محبوب أو مكروه. وحكم الله: ما يظهره في الدنيا من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين... ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه**﴾: الملأ: الأشراف والعليّة، والقوم ذوو الشارة، من ملء المكان بهم، ولأنهم يتمالأون على ما يريدون. واستكبر: عظم وتجبّر... ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا**﴾: الإخراج: الإكراه على الخروج من بينهم غصباً عليه، ويسميه العرب بالخلع. والقرية: المدينة؛ لاجتماع السكان بها، والتقرّي: الاجتماع... ﴿**أو لتعودنّ في ملتنا**﴾: العود: الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل. والملّة: الدين كما هو معروف... ﴿**قال أولو كنا كارهين**﴾: الكاره: مشتق من كره الذي مصدره الكَرْه، وهو ضد المحبة، وهو بمعنى الغصب والإلجاء على فعل ما يُكره... ﴿**قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها**﴾: افترى وفرَى الكذب: اختلقه، والفرية: الكذب، والفريّ: الأمر المختلق المصنوع. ونجّاه الله وأنجاه: خلّصه من الأمر المكروه والمخوف... ﴿**وسع ربّنا كل شيء علماً**﴾: وسع: أحاط وشمل علمُ ربّنا كل شيء... ﴿**على الله توكلنا**﴾: التوكّل: تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره، وهو تفويض يقتضي طلب الخير... ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**﴾: فُسّر الفتح هنا بالقضاء والحكم، وهو بمعنى النصر... ﴿**وأنت خير الفاتحين**﴾: خير الناصرين، وخير

الحاكمين هو أفضل أهل هذا الوصف، وهو الذي يتحقق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه وفي فائدته، بحيث لا يشتبه عليه الحق بالباطل ولا تروج عليه الترهات. . . ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾: الرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظُلّة. . . ﴿**الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها**﴾: تشبيه حالة استئصالهم لهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة، يقال غَنِيَ بالمكان كرضِيَ أقام، ولذلك سُمّي مكان القوم مغنًى. . . ﴿**فكيف آسى على قوم كافرين**﴾: الأسى: شدّة الحزن، وفعله: أَسِيَ كَرَضِيَ، وآسى مضارعه مفتتح بهمزة التكلم، فاجتمع همزتان، فاستغني عن الثانية بالمدّ فصارت آسى.

مبحث الإعراب

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً**﴾ إعراب هذا مثل إعراب ما تقدم من قوله: وإلى عاد أخاهم هوداً. وكذلك قوله: ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ تقدم إعرابه ومثل ما تقدم من قوله: ﴿**قد جاءتكم بيّنة من ربّكم**﴾. فأوفوا الكيل الفاء للتفريع، ﴿**وأوفوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، ﴿**الكيل**﴾ مفعول به. ﴿**والميزان**﴾ معطوف على الكيل. ﴿**ولا تبخسوا**﴾ معطوف على أوفوا، والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**الناس**﴾ مفعول أول. ﴿**أشياءهم**﴾ مفعول ثانٍ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ولا تفسدوا**﴾ مثل ولا تبخسوا. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**بعد**﴾ ظرف متعلق به أيضاً. ﴿**إصلاحها**﴾ مضاف إلى الظرف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ذلكم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخير. ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ جملة كان واسمها وخبرها فعل الشرط، فكان في محل جزم بإنْ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ذلكم خير لكم. ﴿**ولا تقعدوا**﴾ مثل ولا تفسدوا. ﴿**بكل**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**صراط**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**توعدون**﴾ فعل وفاعل، والجملة حال من الفاعل في ولا تقعدوا. ﴿**وتصدون**﴾ معطوف على توعدون. ﴿**عن سبيل**﴾ متعلق بتصدون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**من آمن**﴾ من في محل نصب مفعول تصدون، وآمن صلة مَنْ. ﴿**وتبغونها**﴾ معطوف على توعدون.

﴿**عوجاً**﴾ مفعول ثانٍ لتبغون، والمفعول الأول الضمير المتصل في تبغونها. ﴿**واذكروا**﴾ معطوف على أوفوا. ﴿**إذ**﴾ ظرف متعلق باذكروا. ﴿**كنتم قليلاً**﴾

الجملة من كان واسمها وخبرها في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**فكثَّركم**﴾ مرتب على قوله: واذكروا، وفاعل كثّركم ضمير يعود على الله، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**وانظروا**﴾ معطوف على اذكروا. ﴿**كيف**﴾ اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الحال. ﴿**كان عاقبة المفسدين**﴾ المفسدين مضاف إلى عاقبة، وعاقبة فاعل كان التامة. ﴿**وإن كان طائفة منكم**﴾ منكم متعلق بمحذوف نعت لطائفة، وطائفة اسم كان، وكان في محل جزم فعل الشرط. ﴿**آمنوا**﴾ في محل نصب خبر كان. ﴿**بالذي**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**أرسلت**﴾ صلة الذي. ﴿**به**﴾ متعلق بأرسلت. ﴿**وطائفة لم يؤمنوا**﴾ معطوف على قوله: طائفة آمنوا. ﴿**فاصبروا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، وجملة اصبروا في محل جزم جواب الشرط. ﴿**حتى يحكم الله بيننا**﴾ ظرف متعلق بيحكم، والله فاعل، ويحكم منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وحتى بمعنى إلى، والتقدير: فاصبروا إلى حكم الله بيننا عندما يأتي وقته. ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة تذييلاً على ما تقدم. ﴿**قال الملأ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت للملأ. ﴿**استكبروا**﴾ صلة الذين. ﴿**من قومه**﴾ متعلق باستكبروا. ﴿**لنخرجنك**﴾ اللام للقسم، نخرجنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل (نحن)، وضمير المخاطب مفعول به. ﴿**يا شعيبُ**﴾ منادى مبنيّ على الضم في محل نصب.

﴿**والذين**﴾ في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**معك من قريتنا**﴾ متعلقان بنخرجنك، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أو**﴾ حرف عطف. ﴿**لتعودُنّ**﴾ حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، واللام لام القسم. ﴿**في ملتنا**﴾ متعلق بتعودنّ. ﴿**قال**﴾ فاعله ضمير يعود على شعيب. ﴿**أولو**﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، ولو وصلية. ﴿**كنا**﴾ كان واسمها. ﴿**كارهين**﴾ خبرها منصوب بالياء. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**افترينا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافترينا. ﴿**كذباً**﴾ مفعول مطلق مؤكد لقوله: افترينا. ﴿**إن**﴾ شرطية جازمة. ﴿**عدنا**﴾ فعل وفاعل، فعل الشرط. ﴿**في ملتكم بعد**﴾ متعلقان بعدنا. ﴿**إذ**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**نجانا الله**﴾ الجملة في محل جر مضافة إلى إذْ. ﴿**منها**﴾ متعلق بنجانا. ﴿**وما يكون لنا أن نعود فيها**﴾ فيها متعلق بنعود، ونعود منصوب بأن، وأن وما دخلت عليه في تأويل

مصدر مرفوع اسم يكون، لنا متعلق بمحذوف خبر يكون، ما نافية، والواو عاطفة على ما قبلها. ﴿**إلاّ أن يشاء الله ربّنا ربّنا**﴾ بدل من الله، الله فاعل يشاء، وهو منصوب بأن، وأن وما دخلت عليه فيّ تأويل مصدر مجرور بفي، وتقدير الكلام: ما يكون العود ثابتاً لنا في حال من الأحوال إلاّ في حالة مشيئة الله ربّنا، فهو يفعل ما يشاء. ﴿**وسع ربّنا كل شيء علماً**﴾: علماً تمييز، شيء مضاف إلى كل، كل مفعول وسع، ربّنا فاعل وسع، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**على الله توكلنا**﴾ فعل وفاعل، والجار والمجرور متعلق بتوكلنا.

﴿**ربّنا**﴾ منادى بحذف حرف النداء منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**افتح**﴾ فعل دعاء، وفاعله أنت. ﴿**بيننا**﴾ متعلق بافتح. ﴿**وبين**﴾ معطوف على بيننا. ﴿**قومنا**﴾ مضاف إلى بين، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بافتح. ﴿**وأنت خير الفاتحين**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييل مقرر لمضمون ما قبله. ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه**﴾ معطوف على قال الملأ السابقة، وهو مثله في الإعراب. ﴿**لئن**﴾ اللام للقسم، إن شرطية. ﴿**اتبعتم**﴾ فعل الشرط. ﴿**شعيباً**﴾ مفعول به. ﴿**إنّكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذن**﴾ جوابية. ﴿**لخاسرون**﴾ اللام لتوكيد الخبر، وخاسرون خبر إنّ، وجملة إنّكم جواب القسم، وسدّ مسدّ جواب الشرط. ﴿**فكذبوه**﴾ مرتب على ما قبله، وهو فعل وفاعل ومفعول. ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ تعقيب على التكذيب. ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ جاثمين خبر أصبحوا، في دارهم متعلق به، وهو مرتب على ما قبله. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كذبوا**﴾ صلة الذين.

﴿**شعيباً**﴾ مفعول به. ﴿**كأن**﴾ الكاف للتشبيه، أنْ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**لم يغنوا**﴾ مجزوم بلم. ﴿**فيها**﴾ متعلق بيغنوا، وجملة لم يغنوا خبر أن، وجملة كأن لم يغنوا فيها خبر الذين كذبوا شعيباً. ﴿**الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾ جملة كانوا هم الخاسرين من اسم كان وخبرها خبرُ الذين كذبوا شعيباً. ﴿**فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. .**﴾ تقدم إعراب مثلها فيما سبق. ﴿**فكيف**﴾ الفاء للتفريع، كيف اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من الفاعل. ﴿**آسى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والفاعل ضمير (أنا). ﴿**على قوم**﴾ متعلق بآسى. ﴿**كافرين**﴾ نعت لقوم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: في الكلام وصل بالعطف، تكملة لبقية القصص التي ذكرت في هذه السورة. وقد روعي ههنا ما في المعطوف عليه من تقديم المجرور على المنصوب: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً. قال يا قوم: استئناف مبني على سؤال نشأ عن حكاية إرساله إليهم. . . **﴿قد جاءتكم بينة من ربّكم﴾**: الكلام هنا يفيد تحقيق البينة العظيمة التي جاءتهم من ربّهم. ولم يبيّن نوعها هنا، وإنّما فرع عليها مضمون الدعوة بعد إقامة الدليل على صحتها، فانحصرت بثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. . . **﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾**.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾!. وبعد ما بيّن لهم ما يجب فعلُه وتركُه ذكّرهم بتكثير الله إيّاهم بعد أن كانوا قليلاً: **﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾**. وأعقبه بقوله: **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾**: ليجمع بين طريقي الترغيب والترهيب. . . **﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾**: هذا الكلام من شعيب عليه السلام يقرر فيه مبدأ حرية الاعتقاد في الأرض، وترك الحكم لله في موضوع الدعوة. يريد من قومه أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر؛ ولكن الذين استكبروا لا يرضيهم أن يدعوهم أحد إلى هذه المثل الخُلُقية والنفسية الرفيعة، إنّما هو منطق القوة المادية الغليظة: **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا﴾**!. بمثل هذا الكلام يتكلم المتجبّرون الطغاة، رداً على كلام شعيب بما فيه من الرأفة والأناة!. ومع هذا فقد رد عليهم بكلمة استغراب واستنكار. . .

﴿قال: أولو كنا كارهين!. قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربّنا﴾: فصل جملة قال. . لوقوعها في سياق المحاورة. والاستفهام مستعمل في التعجب؛ تعجباً من

قولهم: أو لتعودنّ في ملتنا، المؤذن ما فيه من المؤكدات بأنّهم يكرهونهم على المصير إلى ملة الكفر، وذلك التعجيب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنّه أحاط خبراً بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملة الكفر، شأن الخصم اللبيب الذي يأتي في جوابه بما لا يغادر شيئاً مما أراده خصمه في حواره. وفي كلامه تعريض بحماقة خصومه؛ إذ يحاولون حمله على ملتهم بالإكراه، مع أنّ شأن المُحِق أن يترك للحق سلطانه على النفوس، ولا يتوكأ على عصا الضغط والإكراه!. ولو وصلية تفيد أنّ شرطها هو أقصى الأحوال التي يحصل معها الفعل الذي في جوابها، فيكون ما بعدها أحرى بالتعجب، فتقدير الكلام: أتعيدوننا إلى ملتكم ولو كنا كارهين؟!.

وتقييد قول شعيب بقوله: إلاّ أن يشاء الله ربّنا مقصود به التأدب، وتفويض العلم بالمستقبل إلى الله، والكناية عن سؤال الدوام على الإيمان من الله تعالى، كما في قوله تعالى: «ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا». وقوله: **﴿وسع ربّنا كل شيء علماً﴾** تفويض لعلم الله، وإعادة وصف الربوبية إظهار في مقام الإضمار لزيادة إظهار وصفه بالربوبية، وتأكيد التعريض المتقدم، حتى يصير كالتصريح. وانتصب علماً على التمييز المحول عن الفاعل؛ لقصد الإجمال ثم التفصيل للاهتمام... **﴿على الله توكلنا﴾**: هذا تفويض يقتضي طلب الخير. وتقديم الجار والمجرور على فعل توكلنا لإفادة الاختصاص، تحقيقاً لمعنى التوحيد ونبذ غير الله، ولأجل ما في قوله: على الله توكلنا من التفويض إليه في كفايتهم أمر أعدائهم صرح بما يزيد ذلك بقوله: **﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾**: مأخوذ من الفتح بمعنى النصر. وقوله: **﴿وأنت خير الفاتحين﴾**: تذييل مقرر لمضمون ما قبله. عندئذ يتوجه الكفار من قومه إلى المؤمنين الذين اتبعوا الرسول يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم: **﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون﴾**: وصلت الجملة بما قبلها بالعطف، ولم تُفصل كما فصلت التي قبلها لانتهاء المحاورة المقتضية فصل الجمل في حكاية المحاورة. وهذا قَوْلٌ أَنِفٌ وَجَّه فيه الملأ خطابَهم إلى عامة قومهم المؤمنين والباقين على الكفر؛ تحذيراً لهم من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوته وصدق مجادلته. وذكرُ الملإ إظهارٌ في مقام الإضمار لبعد المعاد، وإنّما وصف

الملأ بالموصول وصلته دون أن يكتفي بحرف التعريف المقتضي أنّ الملأ الثاني هو الملأ المذكور قبله، لقصد زيادة ذم الملإ بوصف الكفر، كما ذم فيما سبق بوصف الاستكبار.

ووصف الملأ هنا بالكفر لمناسبة الكلام المحكي عنهم الدال على تصلبهم في كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيباً؛ فحصل من الآيتين أنّهم مستكبرون كافرون، واللام موطئة للقسم، وإنّكم إذاً لخاسرون: جواب القسم وهو دليل على جواب الشرط المحذوف، كما هو الشأن في مثل هذا التركيب... **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾**: هذا التعقيب بالنكال مناسب لقولهم لقومهم ما قالوا. والرجفة والجثوم جزاء التهديد والاعتداء وبسط الأيدي بالأذى والفتنة عن الدين. ويعقب على مصرعهم بالرد على قولهم: إنّ من يتبع شعيباً خاسر؛ فيقرر على سبيل التهكم أنّ الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيباً، إنّما كان من نصيب قوم آخرين: **﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾**: فهذا التكرار زيادة في التقرير والتقدير وإيقاظ السامعين، وهم مشركوا العرب ليقفوا على عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض.

وضمير الفصل في قوله: كانوا هم الخاسرين يفيد القصر، وهو قصر إضافي، وذلك لإظهار سَفَهِ قول الملإ للعامة: لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون، توقيفا للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم، وتحذيراً لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال... **﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾**: هكذا تُطوى صفحتهم مشبعة بالتبكيت والإهمال من رسولهم، وهو أخوهم الذي افترق طريقُه وطريقُهم فلم يُعدْ يأسى على مصيرهم الأليم!. وهكذا تجري سنة الله لا تتخلف، وتمضي مشيئته لا تتوقف، وهكذا تتحقّ النذر، فمن شاء فليعتبر. وهكذا يتناسق القصص مع موضوع السورة الأوَل: «كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين».

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من

إله غيره﴾: في هذا التوجيه أمر شعيب قومه بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً؛ فهي الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل. ثم تبدأ الزيادات الجديدة في دعوة النبيء الجديد: **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾**: ولا يذكر السياق هذه البينة، كما ذكرها في قصة صالح ـ عليه السلام ـ ويُرتِّبُ على هذه البيّنة الأمر بتوفية الكيل والميزان، والنهي عن الفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه. وندرك من هذا أنّ قوم شعيب كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء، كما كانوا مفسدين في الأرض، قطاعاً للطرق، ظلمة يفتنون الناس عن دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم، ويكْرَهُونَ الاستقامة، ويحبون الاعوجاج والانحراف... **﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إنْ كنتم مؤمنين﴾**.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله مَن آمن به وتبغونها عوجاً. واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾!.
وشعيب ـ عليه السلام ـ يستجيش في نفوسهم مشاعر الإيمان، ويذكّرهم بنعمة الله عليهم؛ إذ بارك في عددهم وضاعفه، ويبصرهم بعاقبة الإفساد ممثلة في مصارع الماضين، ويريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر، فإن كان فريقاً منهم قد آمن به وفريق لم يؤمن، فلا أقل من أن يَدَعُوا الحرية للجميع، وأن لا يُكرهوا الناس على العقيدة؛ انتظاراً لحكم الله بين الفريقين: **﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾**.

التوجيه الثاني: **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾**: في هذا بيان موقف قوم شعيب منه وممن آمن به؛ فكان جوابهم عن حجة شعيب جواب المُفْحَم عن الحجة الصائر إلى الشدّة، المزدهي بالقوة، المتوقع أن يكثر معاندوه؛ لذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوته بين قومهم، وبث أتباعه دعوته بين الناس. وهذا من فعل الجبارين أصحاب القوة، ولذلك وصفوا بالاستكبار هنا دون الكفر، إلاّ أن يعودوا إلى دينهم ويدخلوا في ملتهم، ولكن شعيباً ـ عليه السلام ـ يجيبهم

متيقناً بصحة إيمان قومه الذين آمنوا به، مستفهماً متعجباً من قولهم: ﴿**أو لتعودن في ملتنا**﴾!..

﴿**قال: أولو كنا كارهين**﴾؟!. تجبروننا على ما نكره من عقيدة، ولا تحترمون حرية الاعتقاد، وهي من أخص خصائص الضمير؟. فلا إذنْ، ولن نرتد إلى عقيدة الشرك فنفتري على الله الكذب: ﴿**قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها**﴾: فهي شر خلَّصَنَا اللهُ منه، وبليّة نجانا الله منها: ﴿**وما يكون لنا أن نعود فيها**﴾: فهو مستنكر أصلاً، ومستبعد أساساً. ولكن شعيباً ـ عليه السلام ـ يفوض الأمر لله ـ مع ثقته في أنّه لن يعود هو والمؤمنون إلى ملة الكفر أبداً -؛ يفوض الأمر لله تأدباً في حقه، فلا يجزم بمشيئته هو بل يدع الأمر لله، فقد يكون في علمه ما يخفى على البشر من مخبّآتٍ: ﴿**إلاّ أن يشاء الله ربّنا وسع ربّنا كل شيء علماً**﴾!. ثم يدَعُ شعيب القومَ وتهديدَهم ووعيدهم ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء: ﴿**على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾.

التوجيه الثالث: ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون**﴾: عندئذ يتوجه الكفار من قوم شعيب يخوفون ويهددون كل من يتبع شعيباً بالخسران والنكال، والمراد به ما يحصل من أضرار تقع لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم... ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾: تعقيب على ما قالوا: لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون. والرجفة التي أخذتهم ما حصل لهم من العذاب الذي استأصلهم وقطع دابرهم، فلم يبق من الكفار أحدٌ... ﴿**فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين**﴾: قد نجّى الله شعيباً ومن آمن معه. وهكذا ينسدل الستار، وتنتهي قصة شعيب مع قومه بما فيها من العظة والاعتبار!.

1 ـ توجيه الكلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام

النص

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿93﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿94﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿95﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿96﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿97﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿98﴾ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿99﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَٰفِرِينَ ﴿100﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿101﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء لعلّهم يضّرّعون﴾: البأساء: البؤس والفقر، والبؤس: اشتداد الحاجة، والبأساء: الداهية. والضراء: الشدّة، والنقص في الأموال والأنفس. والتضرّع: الابتهال والتذلّل... **﴿ثم بدلنا مكان السيّئة الحسنة﴾**: التبديل: التعويض، والمعنى عوضناهم حسنة في مكان السيّئة. والسيّئة: البلاء والمحنة. والحسنة: الرخاء والسعة... **﴿حتى عفوا﴾**: كثروا عَدَداً وعُدَداً، مأخوذ من قولهم: عفا النبات إذا كثر ونما وتكاثف... **﴿وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء﴾**: والمسّ هنا: الإصابة. والسراء: النعمة ورخاء العيش، وهي ضد الضراء... **﴿فأخذناهم بغتة﴾**: الأخذ هنا بمعنى الإهلاك. والبغتة: الفجأة تأتي غير متوقعة... **﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾**: المراد بأهل القرى مَنْ أُرْسِلَ إليهم الرسل. والتقوى: هي تقوى الله بالوقوف عند حدوده، وذلك بعد الإيمان بالله، وبما جاءت به رسله. والفتح: إزالة حجز شيء حاجز عن الدخول إلى مكان. والبركات: جمع بركة، وهي النماء في الخير، والسعادة في العيش والهناء، وأصل البركة الاستقرار والاستمرار.

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾: تقدّم معنى بياتاً عند قوله: وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً... **﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون﴾**: الضحى في الأصل: اسم لضوء الشمس إذا أشرق وارتفع، وشاع التوقيت به عند الناس من قديم. واللعب: ضد الجدّ، وهو الاهتمام بالشيء الذي يُتْعِبُ ولا يفيد، مثل لعب الأطفال... **﴿أفأمنوا مكر الله﴾**؟: المكر: الخديعة، وهو فعل يُقصد به ضر أحد في هيئة تخفي، أو هيئة يحسبها منفعة. ومكر الله: مجازاة الماكر بما يستحق من العقاب والهلاك... **﴿فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾**: الخسران هنا: هو إضاعة ما فيه النفع بسوء اعتقادهم وإعراضهم عن التفكر فيما يعقبه من الأخذ الشبيه بفعل الماكر... **﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أنْ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾**: الهداية: تبيين الطريق للسائر، ويستعمل في مطلق الإرشاد. والإرث: تولية الوارث

ما للموروث من مال أو عزّ أو سيادة. والأرض هنا: مساكن القوم الذين انقرضوا. والإصابة هنا: أخذ القوم على غرّة بسبب ما ارتكبوا من الذنوب، وهم الذين أشركوا بالله وكذّبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلّم -، فهم مستحقون لذلك عندما يشاء الله... ﴿**ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون**﴾: الطبع: الختم على الشيء المغلق، بحيث لا يدخله شيء ولا يخرج منه. ونفي السماع هنا: نفي فهم المسموعات من الأخبار الدالة على هلاك الأمم المكذّبة للرسل... ﴿**تلك القرى نقص عليك من أنبائها**﴾: الإشارة تشير إلى القرى المهلكة. والقصّ: تتبع الأثر، والمراد هنا تتبع أخبارها بما حصل لها... ﴿**ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾: البينات: الدلائل التي جاءت بها الرسل من الحجج الدالة على صدقهم في دعوتهم... ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾: فما تفيد البيناتُ قوماً تمكن منهم الكفر ورسخ في عقولهم، مثل من ختم على قلبه فلم يستفد من هداية الرسل... ﴿**وما وجدنا لأكثرهم من عهد**﴾: انتفاء وجدان العهد: انتفاء الوفاء به. والعهد: الالتزام والوعد المؤكد وقوعه، والموثَّق بما يمنع من إخلافه من يمين، أو ضمان، أو خَشْيَةٍ مسبَّة، وهو مشتقّ من عهد الشيء بمعنى عرفه؛ لأنّ الوعد المؤكد يعرفه ملتزمه، ويحرص أن لا ينساه.

مبحث الإعراب

﴿**وما أرسلنا**﴾ الواو للعطف، وما للنفي، أرسلنا فعل وفاعل. ﴿**في قرية**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**من نبيء**﴾ من صلة، ونبيء مجرور لفظاً منصوب محلاً؛ لأنّه مفعول أرسلنا. ﴿**إلاّ أخذنا أهلها**﴾ إلاّ أداة استثناء مفرغ، أخذنا فعل وفاعل، أهلها مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالبأساء**﴾ متعلق بأخذنا. ﴿**والضراء**﴾ معطوف على البأساء. ﴿**لعلّهم**﴾ لعلّ واسمها. ﴿**يضّرّعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ. ﴿**ثمّ**﴾ حرف عطف وترتيب متراخ. ﴿**بدّلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**مكان**﴾ مفعول به. ﴿**السيّئة**﴾ مضاف إلى مكان. ﴿**الحسنة**﴾ مفعول ثانٍ لبدّلنا. ﴿**حتى**﴾ غائية ابتدائية. ﴿**عفوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وقالوا**﴾ معطوف على عفوا. ﴿**قد**﴾ للتحقيق. ﴿**مسّ**﴾ فعل ماضٍ. ﴿**آباءنا**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الضراءُ**﴾ فاعل مسّ.

﴿**والسراءُ**﴾ معطوف على الضراء. ﴿**فأخذناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل

عليه فاء التعقيب. ﴿**بَغْتَةً**﴾ حال من الضمير. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لا يشعرون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل الداخلة عليه لا النافية في محل رفع خبر المبتدإ، والواو واو الحال، فالجملة في محل نصب حال من الضمير المنصوب. ﴿**ولو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. ﴿**أنّ أهل**﴾ أنّ واسمها. ﴿**القرى**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بكسرة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذّر. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر أنّ. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على آمنوا، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع بفعل مقدّر، وهو فعل الشرط لَوْ، والتقدير: لو تحقّق إيمانُ وتقوى أهلِ القرى. ﴿**لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ من السماء متعلق بمحذوف نعت لبركات، والأرض معطوف على السماء، بركاتٍ مفعول فتحنا، عليهم متعلق بفتحنا، وجملة لفتحنا جوابُ لَوْ. ﴿**ولكن**﴾ حرف استدراك. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**فأخذناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه فاء السببية. ﴿**بما**﴾ متعلق بأخذناهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يكسبون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبرُ كان، وجملة كانوا يكسبون صلة ما.

﴿**أفأمن**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف. ﴿**أهلُ**﴾ فاعل أمِنَ. ﴿**القرى**﴾ مضاف إلى أهل مجرور بكسرة مقدّرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**أنْ يأتيَهم**﴾ منصوب بأن، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**بأسُنا**﴾ فاعل يأتي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بياتاً**﴾ منصوب على الحال. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**نائمون**﴾ خبره مرفوع بالواو، وجملة وهم نائمون في محل نصب حال من الضمير المنصوب. ﴿**أوْ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون**﴾ مثل ما قبلها في الإعراب، وأن وما دخلت عليه في الموضعين في تأويل مصدر منصوب مفعول أمِنَ، أي: أمن أهل القرى إتيانَ بأسِنا. ﴿**أفأمنوا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام وفاء العطف. ﴿**مكر**﴾ مفعول أمِنُوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى مكر. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، ولا للنفي. ﴿**يأمن**﴾ فعل مضارع. ﴿**مكر الله**﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**القوم**﴾ فاعل يأمن. ﴿**الخاسرون**﴾ نعت للقوم.

﴿**أولم يهدِ**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم دخلت عليه همزة الاستفهام وواو العطف.

﴿**للذين**﴾ متعلق بيهد. ﴿**يرثون**﴾ فعل وفاعل صلةُ الذين. ﴿**الأرض**﴾ مفعول يرثون. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بيرثون. ﴿**أهلها**﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أنْ**﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. ﴿**نشاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**أصبناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط. ﴿**بذنوبهم**﴾ متعلق بأصبنا، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة لو نشاء في محل رفع خبر أنْ، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل يَهْدِ. ﴿**ونطبع**﴾ معطوف على جملة الاستفهام. ﴿**على قلوبهم**﴾ متعلق بنطبع، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فهم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والفاء للتفريع. ﴿**لا يسمعون**﴾ الجملة المنفية في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**القرى**﴾ عطف بيان مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**نقصّ**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**عليك من أنبائها**﴾ متعلقان بنقصّ. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**جاءتهم رسلهم**﴾ فاعل جاءت، والضمير المتصل مفعول به. ﴿**بالبينات**﴾ متعلق بجاءت. ﴿**فما**﴾ الفاء للترتيب، وما للنفي. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها.

﴿**ليؤمنوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**بما**﴾ متعلق بيؤمنوا. ﴿**كذبوا**﴾ صلة ما. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل، في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**يَطبع**﴾ فعل مضارع. وفاعله ﴿**الله**﴾. ﴿**على قلوب**﴾ متعلق بيطبع. ﴿**الكافرين**﴾ مضاف إلى قلوب. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**وجدنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لأكثرهم**﴾ متعلق بوجدنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من عهد**﴾ جُرّ لفظاً ونصب محلاً. ﴿**وإنْ**﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**وجدنا أكثرهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**لفاسقين**﴾ مفعول ثان لوجدنا، دخلت عليه لام الابتداء للفرق بين إنْ المخفّفة من الثقيلة وإنْ النافية التي تأتي بعدها إلاّ، وجملة وجدنا أكثرهم لفاسقين في محل رفع خبر إنّ المخفّفة من الثقيلة.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلّهم

يضّرّعون﴾: نكتة وصل هذا الكلام بما قبله بالعطف، ليربطه ببيان السنة الكلية التي جرت بها مشيئة الله في كل قرية وفي كل أمّة. إنّ السياق هنا لا يروي حادثة إنّما يكشف عن سنّة، ولا يعرض سيرة قوم إنّما يعلن عن طريقة اختبار؛ ومن أجل هذا جيء بِمَا وإلاّ المفيدة للحصر. ومن قرية مقصود به عموم القرى. والأخذ هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكْرُوه الذي لا يُستطاع دَفْعُهُ... **﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾**: مرتب على ما قبله متراخ عنه حسب طبيعة الحال، فمكان السيئة الحسنة تعبير عن تغيير ما هم عليه من الشدّة إلى الرخاء... حتى عفوا: غاية ما وصلوا إليه من النعمة، فكثروا عَدَداً وعُدَداً، واستسهلوا العَيْشَ واستيسروا الحياة، ومِنْ ثَمَّ يحسبونها تمضي جزافاً بلا سبب معلوم، ولا هدف مرسوم: **﴿وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء﴾** وقد أخذنا دورنا في الضراء، وجاء دورنا في السراء؛ وهاهي ذي ماضية بلا عاقبة، فهي تمضي كذلك خبط عشواء. عندئذ وفي ساعة الغفلة السادرة، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية... **﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾**: جزاء بما نسوا واغتروا وبَعَدُوا عن الله، وأطلقوا لأنفسهم العِنَان، فما عادوا يَتَحَرَّجُون من أمر، وما عادت التقوى لهم في حُسْبَانٍ...

﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾: هذا تصريح بما أفهمه الإيجاز في قوله: وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء... الخ. وتعريض بإنذار الذين كذّبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتعريض بشارة الذين آمنوا به. والفتح هنا استعارة للتمكين، وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية، بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، وجمع البركات في جانب بشارة المؤمنين، وأفرد الحسنة لقلتها في جانب المغرورين. وقوله: ولكن كذبوا استثناء لنقيض شرط لو، فإنّ التكذيب هو عدم الإيمان، فهي قياس استثنائيٌّ. وجملة فأخذناهم بغتة متسببة على جملة ولكن كذبوا، وهو مثل نتيجة القياس، لأنه مساوي نقيض التالي، لأن أخذهم بما كسبوا فيه عدم البركات عليهم. والباء للسببية، أي: بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان... **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾**؟: الفاء هنا أفادت الترتب الذِكْرِي؛ فإنّه لمّا ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدل عليه

معطوفاً بفاء الترتب، ومحل التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور. وجِيءَ بقوله يأتيهم بصيغة المضارع؛ لأنّ المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت. وقوله... ﴿**أوْ أمِنَ أهلَ القرى أن يأتيهم بأسُنا ضحًى وهم يلعبون**﴾: عطف بحرف أوْ الذي هو لأحد الشيئين ـ عطفاً على التعجيب -، وفي هذا تعريض بالمشركين المكذبين للنبيء ﷺ أن يحلّ بهم ما حَلَّ بالأمم الماضية؛ فكان ذكر وقت البيات ووقت اللعب أشد مناسبة بالمعنى التعريضي، تهديداً لهم بأن يصيبهم العذاب بأفظع أحواله؛ إذ يكون حلوله بهم في سَاعَةِ دَعَتِهِم، وساعة لهوهم نكاية بهم!. وقوله: ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾؟: تكرير لما سبقه، قصد منه تقرير التعجيب من غفلتهم، وتقرير معنى التعريض بالسامعين من المشركين، مع زيادة التذكير بأنّ ما حل بأولئك من عذاب الله يماثل هيئة الماكر بالممكور فلا يحسبوا الإمهال إعراضاً عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكر بعدوّه.

والمكر هنا استعارة تمثيلية؛ شُبّه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر. وقوله: ﴿**فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون**﴾: مترتب ومتفرع عن التعجيب السابق، وإنّما صيغ هذا التفريع بصيغة تعم المُخبر عنهم وغيرَهم ليجري مجرى المَثَل، ويصير تذييلاً للكلام. والخسران هنا هو إضاعة ما فيه نفعهم بسوء اعتقادهم؛ شبه ذلك بالخسران، وهو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرفه... ﴿**أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**﴾: اتصل الكلام بما قبله بواو العطف لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي، فانتقل من التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمة الحاضرة، والمراد بهذا الكلام تذكير السامعين بما كان فيه أهل الأرض الموروثة من بحبوحة العيش، ثم ما صاروا إليه من الهلاك الشامل العاجل؛ تصويراً للموعظة بأعظم صورة، وفي هذا تهديد بأنّ الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل؛ إذ لا يصده عن ذلك غالب، والتقدير: أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ثبوتُ هذا الخبر المهم، وهو لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ومعناه: أَعْجِبُوا كيف لم يهتدوا إلى أن تأخر العذاب عنهم هو بمحض مشيئتنا، وأنّه يحق عليهم عندما نشاؤه. وقوله...

﴿**ونطبع على قلوبهم**﴾: جملة معطوفة على جملة الاستفهام السابق، فلها حكم العطف على أخبار الأمم الماضية والحاضرة. وصِيغَت الجملةُ بصيغة

المضارع دلالةً على قوله: ونطبع. والمراد بالسماع فهْمُ مغزى المسموعات، وإدراك ما تحتويه دلائل الآيات. . . ﴿**تلك القرى نقص عليك من أنبائها**﴾: لمّا تكرر ذكر القرى التي كذّب أهلُها رسلَ الله بالتعيين وبالتعميم، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأنْ يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواء فيفيئوا إلى الحق. وجملة: تلك القرى مستأنفة استئناف الفذلكة لما قبلها من القصص من قوله: «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه»، ثم قوله تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبيء» الآية. وجملة: نقص عليك من أنبائها تفيد الامتنان بذكر القصص التي مرّ ذكرُها، وفيها الاستدلال على نبوءة محمد ﷺ إذ علّمه الله مِنْ علم الأولين مالم يسبق له علمُه. والوعد بالزيادة من ذلك، لما دلّ عليه التعبير بالمضارع في قوله: نقص من التجدد والاستمرار، والتعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها. وجملة: ﴿**ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ عطف على جملة: تلك القرى، لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التنظير من حال المكذبين بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

والفاء في قوله: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا**﴾ لترتيب الإخبار بانتفاء إيمانهم عن الإخبار بمجيء الرسل إليهم بما من شأنه أن يحملهم على الإيمان. وصيغة ما كانوا ليؤمنوا تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أنّ حصول الإيمان كان منافياً لحالهم من التصلب في الكفر، فكفرهم عريق ومستمر؛ لرسوخهم فيه بسبب تكذيبهم بما جاء به كل الرسل. ومعنى ﴿**كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين**﴾: مثل ذلك الطبع العجيب المستفاد من حكاية استمرارهم على الكفر، والمؤذن به فعل نطبع المضارع. وإظهار المسند إليه (اللهُ) دون الإضمار؛ لما في إسناد الطبع إلى الاسم العَلَم من صراحة التنبيه على أنّه طبع رهيب لا يغادر للهدى منفذاً إلى قلوبهم. . . ﴿**وما وجدنا لأكثرهم من عهد**﴾: هذا تنبيه على رسوخ الكفر من نفوسهم. ونفي الوجدان كناية عن انتفاء العهد بالمعنى المقصود. . . . وقوله: ﴿**وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**﴾: إخبار بأنّ عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم كان منهم عن عمد ونكث، ولكون ذلك معنًى زائداً على ما في الجملة التي قبلها، عطفت ولم تُجعل تأكيداً ولا بياناً. وأسند حكم النكث إلى أكثر أهل القرى تبييناً لكون ضمير فما كانوا ليؤمنوا جرى على التغليب.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلّهم يضّرّعون﴾: في هذا التوجيه بيان السنة الكلية التي جرت بها مشيئة الله في كل قرية، وهي أنْ يأخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلّ قلوبهم ترِقُّ وتلين وتتجه إلى الله؛ لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبيئا، بالبأساء في أنفسهم، والضراء في أبدانهم وأموالهم استحياءً لوجدانهم بالألم؛ والألَمُ خيْرُ مُهَذّبٍ، وخير مُفجّرٍ لينابيع الخير، وخير مرهف للحساسية في ضمير الإنسان، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في أحرج اللحظات...

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنةَ﴾: فإذا الرخاء مكان الشدّة، واليسر مكان الحرج، والنعمة مكان الشظف، والعافية مكان الضر، والذرّية مكان العقر، والكثرة مكان القلة، والأمن مكان الخوف؛ وإذا هو متاع ورخاء، وهينة ورضاء، ونعومة ونعماء، وإنّما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء. والابتلاء بالشدّة قد يصبر عليه الكثيرون، ويحتمل مشقاته الكثيرون؛ لأنّ الشدّة تستثير عناصر المقاومة، وتذكر صاحبها بالله فيجد في ظلها طمأنينة، وفي رحابه أملاً، فأمّا الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون؛ لأنّ الرخاء يُنْسي، والمتاع يلْهِي، والثراء يُطغِي، فلا يصبر عليه إلاّ الأقلّون من عباد الله، أمّا الأكثرون فهم الذين لا يتقون غضب الله، ولا يبالون بلوم الناس؛ لأنّ كل شيء يصدر منهم دون مبالاة. وهم بطبيعة لا يفكرون في المقدمات والنتائج، ولا في الأسباب والغايات، ولا يفطنون إلى سنة الله في الكون، ولا يتدبرون اختباراته وبلاءَه للناس، ومِن ثَمَّ يحسبونها تمضي كلها جزافاً بلا سبب معلوم ولا هدف مرسوم... **﴿حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء﴾**: حتى استسهلوا العيش، واطمأنوا بزخرف الحياة ولم يعودوا يستشعرون في أنفسهم تحرُّجاً من شيء يعملونه، ولا تخوُّفاً من أمر يصنعونه، وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسر والنعمة حين يطول بهم العهد في اليسر والنعمة والرخاء؛ عندئذ وفي ساعة الغفلة السادرة، وثَمْرَةٌ للنسيان واللهو والطغيان، تجيء العاقبة وِفْق السنة الجارية... **﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾**!. هكذا تمضي سنة الله دائماً، وفق مشيئته في خلقه، وهاهوذا القرآن الكريم يكشف للناس عن

السنة، ويحذرهم الفتنة؛ فتنة الاختبار والابتلاء، وينبّه فيهم دواعي الحرص واليقظة والخوف من العاقبة، كي لا يستحقوا بأعمالهم تلك العاقبة التي لا تتخلف!. فمن لم يستيقظ، ومن لم يتحرج، ومن لم يتّق، فهو الذي يظلم نَفْسَهُ، ولن تُظْلَم نفسٌ شيئا...

التوجيه الثاني: ﴿**ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾: في هذا التوجيه نقف أمام قضية من قضايا البشرية في عقائدها؛ إنّ العقيدة في الله بالإيمان، وإنّ تقوى الله بمراقبته في السر والعلن، إنّها ليست مسألة منعزلة عن مادة الحياة وواقعها، إنّما هي متصلة بهذا الواقع كل الاتصال. إنّ الإيمان بالله حق الإيمان، وإنّ تقوى الله يستقر في الوجدان، ليؤهّلان لفيض من البركات وعْداً من الله، ومن أوفى بعهده من الله؟!. ونحن ننظر إلى هذا الوعد بقلب المسلم، فنصدقه ابتداءً، لا نسأل عن أسبابه وعِلَلِهِ ولا نتردد لَحْظَةً في انتظار مدلوله، وننظر إليه بعين الباحث، فإذا هو واقع، له عِلَلُه وأسبابه. إنّ الإيمان بالله قوّة دافعة دافقة، تستمد من قوة الله الكبرى، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والتعطل عنها.

وإنّ تقوى الله يَقِظَةٌ واعيةٌ، تصون من الاندفاع والاغترار، وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج، فلا يعتدي ولا يتهوّر. وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض متطلعة إلى السماء، تسير سيرة صالحة منتجة؛ فلا جرم تحفها البركة، ويعمها الخير، ويظلّلها الفلاح. فالمسألة من هنا قضيةُ واقِعٍ له عللُه وله أسبابُه، وليس دروشة وانتظار للثمر بلا بَذْرٍ ولا غراس!. والبركات التي يعد الله بها المؤمنين المتقين في توكيد ويقين، ألوان شتّى لا يُفصِّلها السياق؛ لأنّه يريد تصوير الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل صورها وأشكالها، ما عهده الناس منها وما تخيلوه، وما لم يتهيّأ لهم في واقع ولا خيال. وما أجدر الذين يتخوفون الفقر، والذين يتخوفون ضغط الأعداء، والذين يتخوفون اضطراب الأوضاع، لو أنّهم آمنوا فعملوا بمقتضيات الإيمان في نظم الحكم والحياة، ولو أنّهم اتقوا فاتجهوا إلى الله وحده ولم يتجهوا إلى أحلاف الأرض ومساعدات

البشر؛ ما أجدر هؤلاء أن يستمعوا إلى وعد الله الذي لا يخلفه الله أبداً، وما أجدر الذين يحسبون العقيدة مسألة تعبدية، لا صلة لها بالحياة العملية، ولا بواقع الحياة المادية، ما أجدر هؤلاء أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله ـ وكفى بالله شهيداً -، ويحققها النظر بأسبابها ونتائجها. والقصص الذي سبق في السورة يصور هذا الأخذ؛ وليس هو بقصص يروى لمجرد تصوير ما كان، ولكنها مثل تضرب على السنّة التي لا تتخلف، والتي تجري بمشيئة الله في العباد.

التوجيه الثالث: **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾**: في هذا التوجيه يتجه السياق إلى الغافلين السادرين، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أيّة لحظة من ليل أو نهار: أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم، وغرة من غراتهم، وأمنة من أمناتهم؟.

أفأمنوا أن تأتيهم قوة الله بالهلاك والدمار **﴿بياتاً وهم نائمون﴾**. والإنسان عند النوم مسلوب اليقظة، مسلوب الإرادة، مسلوب القوة، لا يملك أن يدفع عن نفسه عادية من حشرة صغيرة؛ فكيف ببأس الله وقوته، التي لا يقف لها الإنسان في أشد ساعات صحوه واستعداده وقوته؟. أو أمنوا أن يأتيهم بأس الله (ضحًى وهم يلعبون). واللعب يستغرق اليقظة والتحفز، ويلهي عن الأهبة والاستعداد، فلا يملك الإنسان وهو غارق في لعبه أن يدفع عن نفسه مغيراً، فكيف يدفع عن نفسه غارة التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع؟. وإنّ بأس الله لشدُّ من أن يقفوا له صاحين أم نائمين، لاعبين أم جادين. ولكن السياق يعرض لحظات الضعف الإنساني، ليلمس الوجدان البشري بقوة، ويثير حذره وانتباهه حين يترقب الغارة الطامة الغامرة في لحظة من لحظات الغفلة والغرة والفجاءة، وما هو بناج في يقظة أو غرة، فكلتاهما أمام بأس الله في الضعف سواء!. أفأمنوا مكر الله، وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين المهلكين، الذين أهلكتهم ذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم، وعوقبوا على استهتارهم واغترارهم... **﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾**: فقيام هذه الإمكانية، إمكانية أن تمضي فيهم مشيئة الله بإصابتهم بذنوبهم ـ كما مضت في الذين من قبلهم ممن

ورثوا هم أرضهم وديارهم وأموالهم -، وبالطبع على قلوبهم جزاء استهتارهم وغوايتهم كما وقع لمن قبلهم. قيام هذه الإمكانية كفيل بأن يهدي لهم ويرشدهم ويجنبهم طريق المُهْلكين.

والقرآن هنا يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح إذا هم أرهفوا حساسيتهم بالله، وإذا هم اتقوه، فاتقوا كل ما يلوّث الحياة، فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله لا في جوار النعيم المادي المغري، وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة؛ وإلى الركون إلى الله لا إلى ما يملكون من عرض الحياة. وهكذا ينبغي أن يُفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع، ومن مكر الله الذي لا يُدرك؛ ليعلم أنّه لا يدعو إلى القلق إنّما يدعو إلى اليقظة، ولا يؤدي إلى الانزعاج إنّما يؤدي إلى الحساسية، ولا يعطل الحياة إنّما يحرسها من الاستهتار. والقرآن ـ مع ذلك ـ يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة؛ ويطبّ لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم، فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة، ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الدنيا.

التوجيه الرابع: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾: في هذا التوجيه يتجه الخطاب إلى الرسول محمد ﷺ يطلعه فيه على النتيجة الأخيرة لابتلاء تلك القرى، وما تكشفت عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان، ثم عن طبيعة البشر الغالبة، كما تجلت في هؤلاء الأقوام. فهو قصص من عند الله ما كان للرسول به من علم؛ إنّما هو وحي الله وتعليمه. وهذا القصص وما فيه لم ينتفع به القوم بل ظلوا يكذبون بها كما كذب من قبلهم بها. وهكذا طبع الله على قلوب الكافرين في كل مكان وفي كل حين، من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب، ومن كان مثلهم من الأمم التي لم يُقصص خبرُهم في القرآن، ولم يأت نبؤ رسلهم بالتفصيل والبيان: «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»، حتى جاءت رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم -، ودعا الناس إليها

فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ونقضوا العهد فحق عليهم الوعيد «ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين».

2 ـ من قصص الرسل الكرام قصة موسى عليه السلام

النص

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿102﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿103﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿104﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿105﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿106﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿107﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿108﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿109﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿110﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿111﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿112﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿113﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿114﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿115﴾

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿116﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿117﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿118﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿119﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿120﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿121﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَآمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿122﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿123﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿124﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿125﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿126﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿127﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿128﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿129﴾

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿130﴾ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ
مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿131﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ
آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿132﴾
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿133﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ
إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿134﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿135﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: بعثنا: أرسلنا: من بعدهم: المراد به هنا القرى التي تقدم ذكرها باعتبار أهلها. والآيات: الدلائل على صدق الرسول، والمراد بها هنا المعجزات. وفرعون: علم جنس لمن ملك مصر في الزمن القديم من القبط، وكلمة (رع) في القبطية تدل على الشمس، فكان فرعون عندهم نور الشمس أو ابن الشمس، واستعمل في اللغة العربية لكل طاغٍ متجبرٍ عاتٍ. والملأ: الجماعة

من علية القوم، والمراد بهم هنا أعوان فرعون من الوزراء والأمراء والكهنة والسحرة من المستشارين والخبراء.

ومعنى فظلموا بها هنا: تعدوا على الحق حين كفروا بالآيات. ومعنى فانظر كيف كان عاقبة المفسدين: انظر جواب هذا الاستفهام المعبر عنه في هذا الكلام. والعاقبة: آخر الأمر ونهايته. والمراد بالمفسدين هنا: فرعون وملأه... ﴿**حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلاّ الحق**﴾: حقيق: فعيل بمعنى فاعل، وهو مشتق من حق بمعنى وجب وثبت، بمعنى متعيّن وواجب عليّ قولُ الحق على الله... ﴿**قد جئتكم ببينة من ربّكم**﴾: البيّنة: الظاهرة الدالة على صدق موسى من الدلائل العقلية والحسيّة... ﴿**فأرسل معي بني إسرائيل**﴾: الإرسال: الإطلاق والتخلية... ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**﴾: رمى عصاه من يده. وإذا للمفاجأة، وهي حدوث الحادث عن غير ترقب. والثعبان: الحية الضخمة الطويلة المُرْعِبَة. والمبين: الواضح المعالم... ﴿**ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾: أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها في جيبه، فلما أخرجها صارت بيضاء لامعة يراها كل ناظر... ﴿**قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم**﴾: ساحر عليم: ماهر في علم السحر ضليع فيه ببراعة فائقة...

﴿**قالوا أرجه وأخاه**﴾: أرجه: أمر من الإرجاء، وهو التأخير، وأصله أرجئْه بهمزة بعد الجيم فسُهّلت الهمزة تخفيفاً، فصارت ياء ساكنة، وعوملت معاملة حرف العلة في حالة الأمر... ﴿**وأرسل في المدائن حاشرين**﴾: المدائن: جمع مدينة، وهي بوزن فعيلة، مشتقة من مدن بالمكان إذا أقام. والحاشرون: الذين يحشرون الناس ويجمعونهم... ﴿**قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين**﴾: الأجْر والإجارة: الجزاء على العمل. والغالب: الذي يقهر خصمه ويتفوّق عليه فيما ينافسه فيه... ﴿**قال نعم وإنّكم لمن المقربين**﴾: نعم: حرف يقرر مضمون الكلام الذي يجاب به، فهو تصديق بعد الخبر، وإعلام بعد الاستفهام. والمقرّبُ: المخصص بقرب الملك، والمؤهل لأن يكون من خواصه... ﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم**﴾: جعلوا أعين الناس متأثرة بالسحر بما ألقوا من التخييلات والشعوذة، وعززوها بالاسترهاب لتزداد تمكن التخيلات من قلوبهم.

ومعنى... ﴿**وجاءوا بسحر عظيم**﴾: أحضروا كُلَّ ما لَدَيْهِمْ من أنواع السحر

المختلفة التي لا تخطر ببال أحد من العامة... **﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾**: تلقّف مبالغة في اللقف، وهو الابتلاع والازدراد. والإفك: الصرف عن الشيء، ويُسمَّى الزُّورُ إفْكاً، والكذب المصنوع إفكاً؛ لأنّ فيه صرفاً عن الحق وإخفاءً للواقع، وتسمية سحرهم إفكاً دليل على أن السحر لا معمول له، وأنّه مجرد تخييلات وتمويهات... **﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾**: وأصل حقيقة الوقوع سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض، ومنه وقع الطائر إذا نزل إلى الأرض، ويطلق الوقوع على ظهور أمر رفيع القدر، وقد يطلق الوقوع على الحصول. والحق: هو الأمر الثابت الموافق للبرهان، والحق هنا أريد به صدق موسى وصحة معجزته. ومعنى بطل: اضمحلّ، يقال: بطل سعيه بمعنى لم يأت بفائدة، ويقال: بطل عمله بمعنى ذهب ضياعاً وخُسراً بلا أجر... **﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾**: قُهِرُوا في المكان المعد للمبارزة ورجعوا منه ذليلين حقيرين خائبين، فلا نصْرٌ ولا أجْرٌ ولا قربٌ لمن بيده الأمر... **﴿وألقي السحرة ساجدين﴾**: ألقوا أنفسهم على الأرض خاضعين... **﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. قال فرعون أآمنتم به قبل أن آذن لكم﴾**: استفهام من فرعون على إيمان السحرة بموسى دون أمر من فرعون...

﴿إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدنية لتخرجوا منها أهلها﴾: هذا خداع منكم وحيلة دبرتموها أنتم وموسى في المدينة لتخرجوا منها أهلها، **﴿فسوف تعلمون﴾** عاقبة هذا... **﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾**: وهو تعذيب دون قتل... **﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾**: تهديد بالقتل الجماعي إن استمروا على إيمانهم بموسى... **﴿قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون﴾**: هذا جواب عن وعيد فرعون بأنّه وعيد لا يضيرهم؛ لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى الله ربّ الجميع... **﴿وما تنقم منّا إلاّ أن آمنا بآيات ربّنا لما جاءتنا﴾**: ما تنكر علينا شيئاً غير الإيمان بما جاء به موسى. وهذا أمر لا يُنكر، فانتقامك منا لا مُبَرِّرَ له، يُقال: نقَم ينقِم نقْماً، بمعنى أنكر وحقد على فعل لا يرضاه... **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾**: اجعل لنا طاقة لتَحمُّل ما توعّدنا به فرعون... **﴿وتوفنا مسلمين﴾**: دعاء بالوفاة على دين الحق... **﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾**: هذا القول من الملإ إغراء لفرعون بإهلاك موسى ومن آمن به.

والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم. والأرض هنا أرض مصر. والمراد

بالآلهة هنا أصنام الفراعنة المختلفة، وفي مقدمتها الفرعون نفسه حيث كان يُعبد لأنّه من نسل الآلهة عندهم... **﴿قال سنقتل أبناءهم ونَسْتَحْي نساءهم وإنَّا فوقهم قاهرون﴾**: هذا تَوَعُّدٌ من فرعون من جديد، يُعيدُ الكرّة ليقتل الأبناء ويستحي النساء، ولازال متمسكاً بالقوة مسيطراً على بني إسرائيل بالقهر والاستعباد... **﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾**: الاستعانة: طلب المساعدة على الأمر الشاق. والصبر: تحمّل ما يشقّ على النفس... **﴿إنّ الأرض لله﴾**: ملكاً وتصرفاً... **﴿يورثها من يشاء من عباده﴾**: يعطيها لمن يستحقها... **﴿والعاقبة للمتقين﴾**: المراد بالعاقبة هنا: عاقبة أمورهم في هذه الحياة، ليناسب قوله: إنّ الأرض لله، ويشمل عاقبة الخير في الآخرة؛ لأنّه أهم ما يُلاَحِظُه المؤمنون. والمتقون: المؤمنون العاملون... **﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جِئْتَنَا﴾**: أذدينا: أُصبنا بالأذى، وهو ما حصل لهم من متاعب الحياة مع فرعون في السابق واللاحق... **﴿قال عسى ربّكم أن يهلك عدوكم﴾**: المراد بالعدو هنا فرعون وقومه... **﴿ويستخلفكم في الأرض﴾**: يجعلكم خلفاء في الأرض التي يورثها لمن يشاء من عباده... **﴿فينظر كيف تعملون﴾**: يرى كيفية عملكم من حُسْن أو قُبح، فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر...

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾: آل فرعون: أهل مصر في عهده. والمراد بالسنين: القحط والجدب وقلة المحاصيل... **﴿ونقص من الثمرات لعلّهم يذّكرون﴾**. **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾**: فإذا حصلت لهم الخيرات من صحة وخصب ورخاء ورفاهية قالوا هذه حق لنا وليس لأحد فيها فضل... **﴿وإن تصبهم سيّئة﴾**: من قحط ومرض وشدة وسوء عيش **﴿يطّيّروا بموسى ومن معه﴾**: والتطيّر: التشاؤم بالشيء، وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر، فإن طار يمنة تيامنوا، وإن طار يسرة تشاءموا، والمراد به في الآية أنّهم يتشاءمون بموسى ومن معه، فاستعمل التطير في التشاؤم... **﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾**: مهما: اسم متضمن معنى الشرط وهي مركبة من ما وما، فالأولى مبهمة، والثانية تصيرها شرطية، مثل: أينما وحيثما، وجعلت ألف وما الأولى هاء اشفاقاً لا لتكرير المتجانسين، ولقرب الهاء من الألف، فصارت مهما، ومعناها شيء ما، وهي مبهمة فيؤتى بعدها بمِن البيْنية.

والمراد بالآية هنا: الآية التي جاء بها موسى الدالة على صدق دعوته، وهم يعدونها سحراً حسب ما عبروا هنا... ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان**﴾: السَّيْحُ الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة، ويطغى على المنازل والمزارع، وهو مشتق من الطواف؛ لأنّ الماء يطوف بالمنازل ويحوط بها على غرة من أهلها. ﴿**والجراد**﴾: معروف عند العرب جميعاً، يتوالد في الصحراء ذات الرمال، ويهجم على المزارع والحقول بأفواج كثيرة لا يحصى عددها، فيأكل كل شيء أخضر، ويترك خلفه بيضه في الرمل فتصير وكأنّها شيء متحرك لا له أول ولا آخر، وتسميه العامة الدبْنون، وهو الفراش المبثوث الممثل به الناس يوم القيامة، وإذا أتى الجراد على قوم فقد أنذروا بالقحط والجوع والخراب. ﴿**والقُمَّل**﴾: كل حشرة مؤذية تمص دم الحيوان وتأكل كل ما تأتي عليه من قوت الإنسان، وهي كثيرة لا تحصى مثل السوس والبرغوث والبق والقراد والطّبّيع، وهو شديد اللسع، كريه الرائحة لا يطيقه الإنسان ويتأذى منه كل حيوان، وهو لا يزال موجوداً إلى الآن، وهو مختلف الأشكال والألوان!.

﴿**والضفادع**﴾: جمع ضفدع، وهو حيوان يقفز على أرجل أربع، ويسحب بطنه على الأرض، ويسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه، صوته مثل القراقر يسمى نقيقاً؛ أصابهم جند كثير منه يقع في طعامهم، يرتمي إلى القدور، ويقع في العيون والأسقية وفي البيوت فيفسد ما يقع فيه، وتطؤه أرجلهم حتى لم يجدوا منه مخلصا. ﴿**والدم**﴾: صارت مياههم وثمارهم دما عبيطاً... ﴿**آيات مفصلات**﴾: دلائل متنوعة على صدق دعوة موسى، ودلائل كذلك على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمّموا على الكفر والعناد... ﴿**فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين**﴾: استكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا باقتراف المنكرات... ﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾: الرجز: العذاب، ويطلق على الطاعون، وعلى كل ما فيه ضرّ وشرّ... ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربّك**﴾: أن يكفّ عنا ما أصابنا من المحن... ﴿**بما عهد عندك**﴾: ادْعُه بما علمك ربك من وسائل إجابة دعائك عنده... ﴿**لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنّن لك**﴾: والله لئن أزلت عنا هذا العذاب الذي أصابنا لنؤمنّن لك...

﴿**ولنرسلن معك بني إسرائيل. فلمّا كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا**

هم ينكثون﴾: مرتب على ما قبله. والكشف: إزالة الغطاء، والمراد به هنا إزالة العذاب الذي حل بهم، وإزالة هذا العذاب موقّتة بأجل محدود، وهو هلاكهم بالغرق. والنكث: حقيقته نقض المفتول من حبل أو غزل، والمراد بالنكث هنا عدم الوفاء بالعهد حسبما وعدوا به موسى ـ عليه السلام -. . . **﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾**: الانتقام: العقوبة الشديدة الشبيهة بالنقم، والنقم: المكافأة بالعقوبة على العمل المكروه، والمراد بالانتقام هنا ما نص عليه تصريحاً فأغرقناهم في اليم. والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفساً. واليم: البحر والنهر العظيم، والمراد به هنا بحر القلزم، وهو في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، وهذا الإغراق حصل بسبب تكذيبهم بآيات موسى. والغفلة: ذهول الذهن عن تذكر شيء، ومعناه هنا تركهم التفكر في آيات موسى حيث كذبوه واستمروا على ذلك حتى أصابهم ما أصابهم: «فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومَه وما هدى».

مبحث الإعراب

﴿ثُمَّ﴾ للعطف والترتيب والمهلة. **﴿بعثنا﴾** فعل وفاعل. **﴿من بعدهم﴾** متعلق ببعثنا، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿موسى﴾** مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. **﴿بآياتنا﴾** متعلق بمحذوف حال من موسى، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إلى فرعون﴾** متعلق ببعثنا. **﴿وملإه﴾** معطوف على فرعون، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿فظلموا﴾** فعل وفاعل دخلت عليه فاء التعقيب. **﴿بها﴾** متعلق بظلموا. **﴿فانظر﴾** فعل أمر دخلت عليه فاء التفريع. **﴿كيف﴾** في محل نصب، إمّا حال من فاعل كان، وإمّا خبر كان إنْ كانت ناقصة. **﴿كان عاقبة﴾** فعل وفاعل، أو كان واسمها. **﴿المفسدين﴾** مضاف إلى عاقبة مجرور بالياء. **﴿وقال موسى﴾** فعل وفاعل معطوف على قوله: بعثنا. **﴿يا فرعون﴾** منادى مبني على الضم في محل نصب. **﴿إنّي رسول﴾** إنّ واسمها وخبرها، والجملة في محل نصب مقول القول.

﴿من ربّ﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسول. **﴿العالمين﴾** مضاف إلى ربّ مجرور بالياء. **﴿حقيق﴾** على حقيق خبر ثانٍ لإنّ. **﴿عليّ﴾** متعلق بحقيق. **﴿أن لا**

أقول﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل حقيق. **﴿على الله﴾** متعلق بأقول. **﴿إلاّ الحقّ﴾** بدل من مفعول أقول، والتقدير: حقيق عليّ عدم القول شيئا غيرَ قول الحق. **﴿قد جئتكم﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق. **﴿ببينة﴾** متعلق بجئتكم. **﴿من ربّكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لبينة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿فأرسل﴾** فعل أمر دخلت عليه فاء التفريع. **﴿معي﴾** متعلق بأرسل، وياء المتكلم في الظرف في محل جر مضاف إليه. **﴿بني﴾** مفعول به منصوب بالياء. **﴿إسرائيل﴾** مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. **﴿قال﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على فرعون. **﴿إنْ كنت﴾** كان واسمها فعل الشرط إنْ. **﴿جئت﴾** فعل وفاعل في محل نصب خبر كان. **﴿بآية﴾** متعلق بجئت. **﴿فأت﴾** فعل أمر، والفاء فيه رابطة لجواب الشرط. **﴿بها﴾** متعلق بفعل الأمر. وقوله: **﴿إن كنت من الصادقين﴾** جملة شرطية من كان واسمها وخبرها؛ جواب الشرط هنا مقدّر يدل عليه جواب الشرط الأول. **﴿فألقى﴾** فعل ماض دخلت عليه فاء التعقيب. **﴿عصاه﴾** مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿فإذا﴾** للمفاجأة، والفاء للترتيب والتعقيب على ما قبلها. **﴿هي﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿ثعبانٌ﴾** خبره.

﴿مبين﴾ نعت لثعبان. **﴿ونزع يده﴾** معطوف على ألقى عصاه، وهي مثلها في الإعراب. **﴿فإذا هي بيضاءُ﴾** مثل فإذا هي ثعبان. **﴿للناظرين﴾** متعلق بمحذوف حال من اليد البيضاء، أي: متلألئة للناظرين. **﴿قال الملأ﴾** فعل وفاعل. **﴿من قوم﴾** بيان للملإ. **﴿فرعون﴾** مضاف إلى قوم. **﴿إنّ هذا﴾** هذا اسم إنّ. **﴿لساحرٌ﴾** خبرها، واللام لتأكيد الخبر، والجملة في محل نصب مقول القول. **﴿عليم﴾** نعت لساحر. **﴿يريد﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على موسى، والجملة في محل رفع نعت ثان لساحر. **﴿أن يخرجكم﴾** أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يريد. **﴿من أرضكم﴾** متعلق بيخرج، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة إنّ هذا لساحر عليم في محل نصب مقول القول. **﴿فماذا تأمرون﴾** جملة استفهامية مترتبة على قول الملإ: إنّ هذا لساحر عليم. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل جواب للسؤال قبله. **﴿أرجه﴾** فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والضمير فيه مفعول به، والجملة مقول القول. **﴿وأخاه﴾** معطوف على الضمير المفعول منصوب بالألف، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وأرسل﴾** معطوف على أرجه.

﴿**في المدائن**﴾ متعلق بأرسل. ﴿**حاشرين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**يأتوك**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وهو جواب الأمر مجزوم بحذف النون. ﴿**بكل**﴾ متعلق بيأتوك. ﴿**ساحر**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عليم**﴾ نعت لساحر. ﴿**وجاء السحرةُ فرعونَ**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على قالوا أرجه وأخاه. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنّ لنا**﴾ لنا متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿**لأجراً**﴾ اسمها مؤخّر دخل عليه لام التوكيد. ﴿**إن كنا**﴾ كان واسمها فعل الشرط ـ إنْ -. ﴿**نحن**﴾ ضمير التوكيد. ﴿**الغالبين**﴾ خبر كان. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**نعم**﴾ حرف جواب لتقرير السؤال مبني على السكون. ﴿**وإنّكم**﴾ إنّ واسمها معطوف على مضمون الجواب. ﴿**لمن المقربين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يا موسى**﴾. ﴿**إمّا**﴾ حرف يدل على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء. ﴿**أن تلقي**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول لفعل مقدر يدل عليه حرف إمّا، والتقدير: اختر إما أن تلقي.

﴿**وإمّا أن نكون نحن الملقين**﴾ معطوف على إمّا أن تلقي، أو أننا نختار أن نكون نحن الملقين. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على موسى. ﴿**ألقُوا**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**فلما**﴾ الفاء للتعقيب، ولما حينية متضمنة معنى الشرط. ﴿**ألْقَوْا**﴾ فعل الشرط. ﴿**سحروا**﴾ جوابه. ﴿**أعين**﴾ مفعول سحروا. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أعين. ﴿**واسترهبوهم**﴾ معطوف على سحروا أعين الناس. ﴿**وجاءوا**﴾ معطوف على سحروا. ﴿**بسحر**﴾ متعلق بجاءوا. ﴿**عظيم**﴾ نعت لسحر. ﴿**وأوحينا**﴾ فعل وفاعل معطوف على سحروا. ﴿**إلى موسى**﴾ متعلق بأوحينا. ﴿**أنْ**﴾ تفسيرية. ﴿**ألق**﴾ فعل أمر مبني على حذف الياء. ﴿**عصاك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فإذا**﴾ فجائية دخل عليها فاء التعقيب. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تلقّف**﴾ فعل مضارع حذفت منه تاء المضارعة، والفاعل ضمير يعود على العصا، وجملة تلقف في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يأفكون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**فوقع الحق**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء التفريع. ﴿**وبطل**﴾ معطوف على وقع. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل بطل. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا صلة ما.

﴿**فغلبوا**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والفاء

للترتيب والتعقيب. ﴿**هنالك**﴾ متعلق بغلبوا. ﴿**وانقلبوا**﴾ معطوف على غلبوا. ﴿**صاغرين**﴾ منصوب بالياء حال من ضمير الجماعة. ﴿**وأُلقي**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول معطوف على غلبوا. ﴿**السحرةُ**﴾ نائب الفاعل. ﴿**ساجدين**﴾ منصوب بالياء حال من السحرة. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**آمنا**﴾ فعل وفاعل في محل نصب مقول القول. ﴿**برب**﴾ متعلق بآمنا. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى ربّ مجرور بالياء، وجملة قالوا بدل اشتمال من جملة أُلقي السحرة. ﴿**ربّ**﴾ بدل من ربّ العالمين مجرور بالكسرة. ﴿**موسى**﴾ مضاف إلى ربّ مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**وهارون**﴾ معطوف على موسى مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**قال فرعون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أآمنتم**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام.

﴿**به**﴾ متعلق بآمنتم. ﴿**قَبْلَ**﴾ كذلك. ﴿**أن آذن**﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى قبل، والتقدير: قبل إذني لكم. ﴿**لكم**﴾ متعلق بآذن. ﴿**إنّ هذا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لمكر**﴾ خبرها، واللام فيه لتوكيد الخبر. ﴿**مكرتموه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**في المدينة**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**مكرتموه**﴾ الجملة في محل رفع نعت لمكر. ﴿**لتخرجوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بقوله: مكرتموه. ﴿**منها**﴾ متعلق بتخرجوا. ﴿**أهلها**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فسوف تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التسويف مع فاء التفريع. ﴿**لأقطعنّ**﴾ اللام لام القسم، والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير يعود على فرعون المتكلم بالوعيد والتهديد. ﴿**أيديكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأرجلكم**﴾ معطوف على أيديكم. ﴿**من خلاف**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**ثم**﴾ للترتيب والتراخي. ﴿**لأصلبنّكم**﴾ مثل لأقطعن أيديكم.

﴿**أجمعين**﴾ منصوب بالياء توكيد لضمير الجماعة المنصوب. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إلى ربّنا**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**منقلبون**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. ﴿**وما تنقم**﴾ فعل مضارع منفي بما معطوف على قالوا، والفاعل ضمير المخاطب يعود على فرعون. ﴿**منّا**﴾ متعلق بتنقم. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**أنْ**

آمنا﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أن المصدرية فانسبك الفعل معها بمصدر منصوب بدلاً من مفعول تنقم، والتقدير: وما تنقم منا شيئا إلاّ إيماننا. **﴿بآيات﴾** متعلق بآمنا. **﴿ربّنا﴾** مضاف إلى آيات، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿لمّا﴾** ظرف متعلق بآمنا. **﴿جاءتنا﴾** الضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على آيات ربّنا، وجملة جاءتنا في محل جر مضافة إلى لمّا. **﴿ربَّنا﴾** منادى منصوب الفتحة، وحرف النداء محذوف تخفيفاً. **﴿أفرغ﴾** فعل دعاء **﴿علينا﴾**: متعلق بأفرغ. **﴿صبراً﴾** مفعول به. **﴿وتوفنا﴾** معطوف على أفرغ. **﴿مسلمين﴾** منصوب بالياء حال من ضمير المتكلمين المنصوب. **﴿وقال الملأ﴾** فعل وفاعل معطوف على الأقوال السابقة. **﴿من قوم﴾** بيان للملإ. **﴿فرعون﴾** مضاف إلى القوم. **﴿أتذر﴾** فعل مضارع دخلت عليه همزة الاستفهام، والفاعل ضمير المخاطب وهو فرعون. **﴿موسى﴾** مفعول به. **﴿وقومه﴾** معطوف على موسى، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ليفسدوا﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عله في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأتذر. **﴿في الأرض﴾** متعلق بيفسدوا.

﴿ويذرك﴾ معطوف على ليفسدوا منصوب بالفتحة، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. **﴿وآلهتك﴾** معطوف على الضمير المنصوب، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿قال﴾** فعل ماض. **﴿سنقتل﴾** فعل مضارع دخل عليه حرف التنفيس. **﴿أبناءهم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ونستحي نساءهم﴾** معطوف على سنقتل أبناءهم، وهو مثله في الإعراب. **﴿وإنّا﴾** إنّ واسمها معطوف على سنقتل. **﴿فوقهم﴾** ظرف متعلق بخبر إن بعده. **﴿قاهرون قال موسى﴾** فعل وفاعل. **﴿لقومه﴾** متعلق بقال. **﴿استعينوا﴾** فعل أمر. **﴿بالله﴾** متعلق به. **﴿واصبروا﴾** معطوف على استعينوا. **﴿إنّ الأرض﴾** إنّ واسمها. **﴿لله﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ. **﴿يورثها﴾** الضمير المتصل بالفعل مفعول أول. **﴿مَنْ﴾** في محل نصب مفعول ثانٍ. **﴿يشاء﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. **﴿من عباده﴾** بيان لِمَنْ. **﴿والعاقبة﴾** مبتدأ. **﴿للمتقين﴾** متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة تذييل. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل. **﴿أوذينا﴾** ضمير المتكلمين نائب الفاعل. **﴿من قبل﴾** متعلق بأوذينا. **﴿أن تأتينا﴾** أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى قبل. **﴿ومن بعد ما جئتنا﴾** مثل من قبل أن تأتينا.

﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿عسى ربّكم﴾ عسى واسمها. ﴿أن يهلك﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب خبر عسى.

﴿عدوكم﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ويستخلفكم﴾ معطوف على يهلك عدوكم. ﴿في الأرض﴾ متعلق بيستخلف. ﴿فينظر﴾ معطوف على يستخلفكم منصوب بالفتحة. ﴿كيف﴾ في محل نصب مفعول ينظر. ﴿تعملون﴾ فعل وفاعل، وهو في محل جر مضاف إلى كيف. ﴿ولقد أخذنا﴾ فعل وفاعل دخل عليه لام القسم وحرف التحقيق. ﴿آل﴾ مفعول به. ﴿فرعون﴾ مضاف إلى آل. ﴿بالسنين﴾ متعلق بأخذنا. ﴿ونقص﴾ معطوف على السنين. ﴿من الثمرات﴾ متعلق بنقص. ﴿لعلهم﴾ لعل واسمها. ﴿يذّكرون﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر لعل. ﴿فإذا﴾ ظرف متضمن معنى الشرط دخل عليه فاء التفريع. ﴿جاءتهم الحسنة﴾ فعل الشرط. ﴿قالوا﴾ الجملة من الفعل والفاعل جواب الشرط. ﴿لنا﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿هذه﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة مقول القول. ﴿وإن تصبهم سيّئة﴾ فعل وفاعل دخلت عليه إن الشرطية معطوف على قوله: فإذا جاءتهم الحسنة. ﴿يطيّروا﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون. ﴿بموسى﴾ متعلق بيطّيّروا. ﴿ومَنْ﴾ معطوف على موسى. ﴿معه﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلةُ مَنْ، والضمير في معه مضاف إليه. ﴿ألا﴾ أداة استفتاح. ﴿إنّما﴾ كافة ومكفوفة. ﴿طائرهم﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿عند﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿الله﴾ مضاف إلى عند. ﴿ولكن أكثرهم﴾ لكنّ واسمها. ﴿لا يعلمون﴾ في محل رفع خبر لكنّ، وجملة لكنّ. معطوفة على قوله: ألا إنّما طائرهم، وجملة ألا إنّما طائرهم... الخ الآية معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وقالوا﴾ معطوف على قوله: ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين. ﴿مهما﴾ اسم شرط جازم. ﴿تأتنا﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وضمير المتكلمين فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على موسى. ﴿به﴾ متعلق بتأتنا. ﴿من آية﴾ بيان لمهما. ﴿لتسحرنا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على موسى، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بتأتنا ﴿بها﴾: متعلق بتسحرنا. ﴿فما نحن لك﴾ ما واسمها. ﴿بمؤمنين﴾ خبرها جرت

لفظاً بحرف الجر الزائد ونصبت محلاً. لك متعلق بمؤمنين، والجملة في محل جزم جواب الشرط رُبطت بالفاء لأنّها جملة إسمية. ﴿**فأرسلنا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء التفريع. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**الطوفان**﴾ مفعول به.

﴿**والجراد والقُمّل والضفادع والدم**﴾ معطوفات على الطوفان. ﴿**آيات**﴾ حال من المنصوبات منصوب بالكسرة. ﴿**مفصلات**﴾ نعت لآيات. ﴿**فاستكبروا**﴾ فعل وفاعل مرتب ومفرّع على ما قبله. ﴿**وكانوا**﴾ كان واسمها معطوفة على فاستكبروا. ﴿**قوماً**﴾ خبر كان. ﴿**مجرمين**﴾ نعت له منصوب بالياء. ﴿**ولمّا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**وقع**﴾ فعل الشرط. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بوقع. ﴿**الرجز**﴾ فاعل وقع. ﴿**قالوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل جواب الشرط. ﴿**يا موسى**﴾ منادى مبني على ضم مقدر. ﴿**ادع**﴾ فعل أمر. ﴿**لنا**﴾ متعلق بادع. ﴿**ربّك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بما**﴾ متعلق بادع. ﴿**عهد**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**عندك**﴾ متعلق بعهد، وجملة عهد صلة الموصول. ﴿**لئن**﴾ اللام للقسم، وإن شرطية. ﴿**كشفت**﴾ فعل الشرط. ﴿**عنا**﴾ متعلق بكشفت. ﴿**الرجز**﴾ مفعول به. ﴿**لنؤمنن**﴾ جواب القسم. ﴿**لك**﴾ متعلق به. ﴿**ولنرسلن**﴾ معطوف على لنؤمنن. ﴿**معك**﴾ متعلق بلنرسلن.

﴿**بني**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة. ﴿**فلمّا**﴾ الفاء للتعقيب. ﴿**كشفنا**﴾ فعل الشرط. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بكشفنا. ﴿**الرجز**﴾ مفعول كشفنا. ﴿**إلى أجل**﴾ متعلق بكشفنا. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بالغوه**﴾ خبره مرفوع بالواو، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة هم بالغوه في محل جر نعت لأجل. ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ جملة مفاجئة جواب الشرط. ﴿**فانتقمنا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء التفريع. ﴿**منهم**﴾ متعلق بانتقمنا. ﴿**فأغرقناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول مرتب على ما قبله. ﴿**في اليم**﴾ متعلق بأغرقناهم. ﴿**بأنّهم**﴾ أنّ واسمها دخلت عليها باء السببية. ﴿**كذّبوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبرُ أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالياء متعلق بأغرقناهم، والتقدير: أغرقناهم في اليم بسبب تكذيبهم. ﴿**وكانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**عنها**﴾ متعلق بالخبر بعدها. ﴿**غافلين**﴾ منصوب بالياء.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه**﴾: عطف قصة موسى على ما قبلها من القصص بثم المفيدة للتراخي؛ لبعد المدة التي سبقت رسالة موسى، وكثرة الرسالات التي مرّت على البشرية. والضمير في قوله: من بعدهم يعود إلى القرى باعتبار أهلها. وموسى رسول الله أرسله الله أولاً إلى فرعون وملإه من أهل مصر، وثانياً إلى بني إسرائيل من قومه. والفاء في قوله: ﴿**فظلموا بها**﴾ للتعقيب، وحذف مفعول ظلموا لقصد التعميم، ولتفيد معنى ظلموا كفروا ففيها تضمين. والفاء في قوله: ﴿**فانظر**﴾ لتفريع الأمر على هذا الخبر. والخطاب شامل لكل من يتأتي منه النظر، وإن كان المتبادر من السياق محمداً ـ صلى الله عليه وسلم -. والنظر هنا معلق بـ ﴿**كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ لما في هذا الأسلوب من التعجيب والاستغراب لما حل بهم من العذاب. والمراد بالمفسدين فرعون وملأه، فهو من الإظهار في مقام الإضمار تنبيها على أنّهم أصيبوا بسوء العاقبة؛ لكفرهم وفَسَادِهم وإِفْسَادِهِم، وللإيذان بأنّ الظلم مستلزم للإفساد. . .
﴿**وقال موسى يا فرعون إنّي رسول من ربّ العالمين**﴾: عُطف قولُ موسى بالواو ولم يفصل عما قبله ـ مع أنّ جملة هذا القول بمنزلة البيان لجملة بعثنا من بعدهم موسى -؛ لأنّه لمّا كان قوله: بآياتنا حالاً من موسى فقد فهم أنّ المقصود تنظير حال الذين أرسل إليهم موسى بحال الأمم التي مضى الإخبار عنها في المكابرة على التكذيب مع ظهور آيات الصدق، ليتم بذلك تشابه حال الماضين مع حال الحاضرين المكذبين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم -، فجعلت حكاية محاورة موسى مع فرعون وملإه خبراً مستقلاً؛ لأنّه لم يحك فيه قوله المقارن لإظهار الآية، بل ذكرت الآية من قبل.

بخلاف ما حكي في القصص التي قبلها، فإنّ حكاية أقوال الرسل كانت قبل ذكر الآية، ولأنّ القصة هنا قد حكي جميعها باختصار بجمل: بعثنا، فظلموا، فانظر، فصارت جملة قال تفصيلاً لبعض ما تقدم، فلا تكون مفصولة؛ لأنّ الفصل إنّما يكون بين جملتين، لا بين جملة وبين عدة جمل أخرى. وقول موسى: يا فرعون خطاب باللقب الدال على الملك والسلطان تمشياً مع قول ربه: فقولا له قولاً ليّناً. وصوغ حكاية كلام موسى بصيغة التأكيد بحرف إنّ؛ لأنّ المخاطب

مظنة الإنكار، أو التردد القوي في صحة الخبر. واختيار صفة رب العالمين في الإعلام بالمرسِل إبطال لاعتقاد فرعون أنه ربّ مصر وأهلها، فلما وصف موسى مرسِلَه أنّه ربّ العالمين شمل فرعَونَ وأهلَ مملكته، فبطَل دعوى فرعونَ أنّه إله مصر بطريق اللزوم.

وقوله: ﴿**حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلاّ الحق**﴾: فيه تضمين جمع فيه بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي أفادته التعدية، فيكون المراد من العبارة: إنّي رسول من ربّ العالمين حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلاّ الحق وحريص على ذلك فلن أُخِلَّ به... ﴿**قد جئتكم ببينة من ربّكم**﴾: فصل الكلام عما قبله لأنّه مبيّن ومقرّر لما قبله من كون موسى رسولاً من ربّ العالمين، وكونه حقيقاً بقول الحق، والتنوين للتفخيم. وكونها معجزة من ربّكم تصريح ونص على أنّ فرعون وملأه مربوبون لله ربّ العالمين فليس فرعون ربّاً لأهل مصر كما يدّعي... ﴿**فأرسل معي بني إسرائيل**﴾: تفريع على ما سبق. والإرسال هنا مجاز لغوي في الإذن لبني إسرائيل بالخروج المطلوب من فرعون. وتقييده بمعي؛ لأنّ المقصود من إخراجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويُدبِّرَ شؤونَهم... ﴿**قال إنْ كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**﴾: جاء الشرط بإنْ ليدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية، أو الجزم بنفيها. وقوله: إنْ كنت من الصادقين شكّ آخر في صدقه بعد الشكّ في مجيئه بالآية.

واستعمل الإتيان في قوله: فأْت بها في الإظهار مجازاً مرسلاً... ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾: هذه هي الآية التي طلبها فرعون من موسى، جاءت على وجه السرعة والمفاجأة. وإيثار الجملة الإسمية في قوله: فإذا هي ثعبان مبين، فإذا هي بيضاء للناظرين للدلالة على كمال سرعة الانقلاب، وثبات وصف الثعبانية فيها، كأنها في الأصل كذلك، وكذلك بياض اليد الذي بهر الناظرين... ﴿**قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم**﴾: جرت جملة قال الملأ على طريقة الفصل؛ لأنّها جرت في طريق المحاورة الجارية بين موسى وبين فرعون وملئه، فإنّه حوار واحد. والأسلوب هنا جاء مؤكّداً بعدة توكيدات: كون الكلام صادراً من فرعون وأركان دولته، وصدّر مقولهم بإنّ، واسم الإشارة، واللام المؤكد للخبر، وكون موسى من أمْهَرِ

السحرة. ثم بيّنوا الخطر الداهم... ﴿**يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون**﴾؟: خطاب الملإ بعضهم لبعض، مقصود به الإفتاء والاشتوار.

وجملة... ﴿**قالوا أرجه...**﴾: جواب القوم المستشارين، فتجريدها من حرف العطف لجريانها في طريق المحاورة. والمراد بالأخ في قولهم: ﴿**أرجه وأخاه**﴾: هارون، وهو مبعوث مع موسى كما هو معلوم من آيات أخرى... ﴿**وأرسل في المدائن حاشرين**﴾: تعدية الإرسال بفي دون إلى لبيان الغرض المطلوب، وهو حشر السحرة في المدائن ليأتوا بهم إلى فرعون. وجزم يأتوك على جواب الأمر للدلالة على شدّة اتصال السببية بين الإرسال والإتيان... ﴿**وجاء السحرة فرعون**﴾: متصل بما قبله بالعطف، وفيه إيجاز بالحذف، والتقدير: قالوا أرجه وأخاه وأرسلْ في المدائن حاشرين فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فحشروا وجاء السحرة من المدائن فحضروا عند فرعون. وجملة... ﴿**قالوا إنّ لنا لأجراً**﴾: استئناف بياني بتقدير سؤال مَن يسأل ماذا صدر من السحرة حين مُثِّلُوا بين يدي فرعون؟ قالوا إنّ لنا لأجراً... ﴿**إنْ كنا نحن الغالبين**﴾: إخبار بحصول الأجر قبل تنجيزه، لأنّهم واثقون بحصوله. وجواب فرعون بنعم تقرير لما أخبروا به عنه. وتنكير أجراً تنكير تعظيم بقرينة مقام الملك وعظم العمل. وضمير نحن توكيد لضمير كنّا، إشعاراً بجدارتهم بالغلب وثقتهم بأنّهم أعلم الناس بالسحر... ﴿**وإنّكم لمن المقربين**﴾: معطوف على ما تضمنه حرف الجواب، إذ التقدير: نعم. لكم أجر وإنّكم لمن المقربين... ﴿**قالوا يا موسى إمّا أن تلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين**﴾: الجملة مفصولة عما قبلها لوقوعها في طريقة المحاورة بينهم وبين موسى. وَحَرْفُ إِمَّا يدلّ على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء، وابتداء السحرة بهذا التعبير إظهار لمقدرتهم، وأنّهم هم الغالبون.

وقد جاءُوا في جانبهم بكلام يسترهب موسى ويهول شأنهم في نفسه بتأكيد الضمير في قولهم: وإمّا أن نكون نحن الملقين... ﴿**قال ألقوا**﴾: هذا هو الجواب الذي يدل على الاستخفاف بأمرهم إذ مكنهم من مبادأة إظهار تخييلاتهم وسحرهم؛ لأنّ الله قوى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم بعد أن كانوا هم المبتدئين أوقع حجة وأقطع معذرة. وقوله: ﴿**فلما ألقوا**﴾: عطف على محذوف للإيجاز، والتقدير: فألقوا؛ لأنّ قوله فلما ألقوا يؤذن بهذا المحذوف.

وحذف مفعول ألقوا لظهوره. ومعنى. . . ﴿**سحروا أعين الناس**﴾: جعلوها متأثرة بالسحر بما ألقوا من التخييلات والشعوذة.

وتعدية فعل سحروا إلى أعين مجاز عقلي؛ لأنّ الأعين آلةُ إيصال التخييلات إلى الإدراك، وهم إنّما سحروا العقول. . . ﴿**واسترهبوهم**﴾: السين والتاء للتأكيد، والمعنى: بالغوا في إرهاب الناس. . . ﴿**وجاءوا بسحر عظيم**﴾: زيادة في توكيد الخبر. . . ﴿**وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقّف ما يأفكون**﴾: هذه الجمل متصلة بما قبلها بالعطف، وهي في حيز جواب لمّا. وأن تفسيرية لفعل أوحينا، والفاء للتعقيب الدال على سرعة المفاجأة، وقد دل السياق على جملتين محذوفتين. والتلقّف مبالغة في اللقف، وهو الابتلاع والازدراء. والتعبير بصيغة المضارع في قوله: تلقَّفُ، ويأفكون، للدلالة على التجدد والتكرير، مع استحضار الصورة العجيبة. وتسمية سحرهم إفكاً دليل على أنّ السحر لا معمول له، وأنّه مجرد تخييلات وتمويهات. وقوله. . . ﴿**فوقع الحق**﴾: تفريع على تلقّف ما يأفكون. واستعير الوقوع لظهور أمرٍ رفيع القدر؛ لأنّ ظهوره كان بتأييد إلهيّ، فشبه بشيء نزل من عُلُوٍّ. واختير وقع دون نزل مراعاة لفعل الإلقاء. وزيادة قوله: ﴿**وبطل ما كانوا يعملون**﴾ بعد قوله: فوقع الحق تقرير لمضمونه بتسجيل ذم عملهم.

ونداء بخيبتهم تأنيساً للمسلمين وتهديداً للمشركين. وقد عطف عليه جملة ﴿**فغلبوا**﴾ بالفاء لحصول المغلوبية إثر تلقف العصا لإفكهم. ﴿**هنالك**﴾ جيء به لإفادة بداهة مغلوبيتهم حيث وقعت أمام الحاضرين. . . ﴿**وانقلبوا صاغرين**﴾: اختيار لفظ انقلبوا دون رجعوا أو صاروا، لمناسبتِهِ للفظ غلبوا في الصيغة، ولما يشعر به أصل اشتقاقه من الرجوع إلى حال أحسن مما كانت، فكان لفظ انقلبوا أدخل في الفصاحة. والصغار: المذلة، وهي مذلة ظهور عجزهم وخيبة أملهم من الأجر والقرب عند فرعون، وقد صار أذل وأخزى. . . ﴿**وألقي السحرة ساجدين**﴾: عبر بالمجهول؛ لأنّ الذي ألقاهم معلوم، وهو ظهور الحق حيث بهرهم واضطرهم إلى أن يسجدوا خاضعين مستسلمين، ولم يبق في أنفسهم أدنى اعتبار لفرعون وعظمته الدنيويّة الزائلة، ولا سيّما وقد ظهر لهم صغاره أمام هذه الآية. وعطف بالواو ليدخل تحت قوله: فغلبوا هنالك وجيء بالاسم الظاهر

للخصوصية، ولو جيء بالضمير لدخل الحاضرون جميعاً. . . ﴿**قالوا آمنا بربّ العالمين**﴾: قصد السحرةُ بهذا القول الإعلان بإيمانهم بالله لئلا يظن الناس أنّهم سجدوا لفرعون.

وزادوا هذا القصد بيانا بالإبدال من ربّ العالمين قولهم: ﴿**ربّ موسى وهارون**﴾، لئلا يتوهم المبالغة في وصف فرعون بأنّه ربّ جميع العالمين. وتعيّن في تعريف البدل طريق تعريف الإضافة؛ لأنّه أخصر طريق، وأوضحه هنا. . . ﴿**قال فرعون آامنتم به قبل أنْ آذن لكم**﴾: فُصِلَ الكلامُ لوقوعه في طريق المحاورة، وأسند القول إلى فرعون وحده؛ لأنّه هو الذي شعر بالخطر على موقفه حيث ظُهِرَ على حقيقته، وبطلان ألوهيته. والاستفهام للإنكار والتهديد مجازاً مرسلاً مركبا، والضمير المجرور بالباء عائد إلى موسى. وجملة ﴿**إنّ هذا لمكر**﴾ خبر مراد به لازم الفائدة، والضمير المنصوب في ﴿**مكرتموه**﴾ ضمير المصدر المؤكِّد لفعله. وفي ظرفية مجازية. وقوله. . . ﴿**لتخرجوا منها أهلها**﴾: تعليل لكلامه: إنّ هذا لمكر، وفرع على الإنكار والتوبيخ والوعيد بقوله: ﴿**فسوف تعلمون. . .**﴾ ﴿**لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾: لأقطّعنّ، تفصيل بعد الإجمال. . . ﴿**ثم لأصلبنّكم أجمعين**﴾: دلت ثُمَّ على الاتقاء في الوعيد بحيث يقضي عليهم جميعاً بعد الانتقام منهم تقطيع أيديهم وأرجلهم، وهذا التهديد بهذا النكال الشديد دليل على فشل فرعون هذا الوغد الرعديد!. . ﴿**قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون**﴾.

﴿**وما تنقم منا إلاّ أن آمنا بآيات ربّنا لما جاءتنا**﴾: هذا جواب عن وعيد فرعون بأنّه مجرد وعيد لا قيمة له، فلا نخافه لأنّنا إلى ربّنا منقلبون، ونقمتك علينا نعلم سببها، فإنّك لا تعرف لنا سبباً يوجب العقوبة غير أنّنا آمنا بآيات ربّنا لما جاءتنا. . . ﴿**ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾: هذا من تمام كلام السحرة، وهو انتقال من خطابهم فرعونَ إلى التوجه إلى الله بالدعاء. ومعنى: ربّنا أفرغ علينا صبراً، اجعل لنا طاقة لِتَحَمُّلِ ما توعدنا به فرعون. ولمّا كان ذلك الوعيد مما لا تطيقه النفوس سألوا الله أن يجعل لنفوسهم صبراً قويّاً يفوق المتعارف، فشُبّه الصبر بماء تشبيه المعقول بالمحسوس، على طريقة الاستعارة المكنية، وشُبّه خلْقُه في نفوسهم بإفراغ الماء من الإناء على طريقة التخييلية؛ فإنّ

الإفراغ صب جميع ما في الإناء. والمقصود من ذلك الكناية عن قوة الصبر؛ لأنّ إفراغ الإناء يستلزم أنّه لم يبق فيه شيء مما حواه، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية.

ودعا السحرة لأنفسهم بالموت على الإسلام إيذاناً بأنّهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بوعيد فرعون، وأنّ همتهم لا ترجو إلاّ النجاة في الآخرة، والفوز بما عند الله، وقد انخذل بذلك فرعون وذهب وعيده باطلا... ﴿**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**﴾: عندما رأى الملأ من قوم فرعون قلّة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامَه، وأنّه لم يُبْدِ جواباً، راموا إيقاظ ذهنه، وإسعار حميّته، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون. والاستفهام في قوله: أتذر، مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه، والإنكار على الإبطاء بإتلافهم. واللام في قوله: ليفسدوا لام التعليل، وهو مبالغة في الإنكار، وهذه اللام تسمى لام العاقبة. وقولهم: ويذرك... داخل في التعليل ﴿**قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون**﴾: هذا جواب فرعون للملإ الذين أحسُّوا بضعفه وانهياره أمام موسى، فأظهر لهم قوته وقدرته على استئصال قوم موسى بقتل الأبناء واستحياء النساء كما كان. واعتذر لهم بقوله: وإنّا فوقهم قاهرون، وهذه الجملة استعارة تمثيلية... ﴿**قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾: إنّه مشهد موسى مع قومه يوصيهم باحتمال الفتنة والصبر على البليّة، والاستعانة بالله في احتمالها، ويبشرهم بأنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

وجيء في جملتي إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين بلفظين عامّيْنِ، وهما: من يشاء من عباده، والمتقين؛ لتكون الجملتان تذييلاً للكلام، وليحرص السامعون على أن يكونوا من المتّقين، ولكن إسرائيل هي إسرائيل. وما تكاد القصة تمضي بضع خطوات حتى تنكشف إسرائيل على شيء من طبيعتها... ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا**﴾: إنها كلمات ذات ظل، وإنّها لتشيء بما وراءها من تخاذُل ومن تبرُّم، أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك!. وطال هذا الأذى ولا نهاية له ولا فكاك!. ويمضي موسى

على نهجه يذكّرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوّح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض، مع التحذير من الفتنة بالاستخلاف... **﴿قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾**.

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكّرون﴾: هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومَه، وجعلها آيات لموسى. والأخذ هنا مراد به القهر والغلبة وسوء مصير آل فرعون. وجملة: لعلهم يذكّرون في موضع التعليل للجملة التي قبلها فلذلك فصلت. وتنوين نَقْصٍ للتكثير، ولذلك نكّر نقص ولم يضف إلى الثمرات لئلا تفوت الدلالة على الكثرة، ولعل للرجاء كما هو معلوم... **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه﴾**: هذا الخبر مفرع على جملة أخذنا آل فرعون. وعبر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأنّ حصولها مرغوب فيه، وعبر في جانب السيئة بالإصابة؛ لأنّها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقب. وجاء الشرط بإذا في جانب الحسنة لتحقق وقوع ما دل عليه الشرط. وجاء في جانب السيئة بإن للشك في وقوع ما يدل عليه الشرط. وهم يعدون الحسنة لهم، ويعدون السيئة من شؤم موسى وقومه... **﴿ألا إنّما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**: ألا حرف استفتاح يفيد الاهتمام بالخبر الوارد بعده. والطائر اسم للطير الذي يثار ليتيمَّن به أو يُتشاءم.

واستعير هذا للسبب الحق بحلول المصائب بهم، بعلاقة المشاكلة لقوله: يطّيّروا، فشبّه السبب الحق، وهو ما استحقوا به العذاب من غضب الله بالطائر. وعند مستعملة في التصرف مجازاً؛ لأنّ الشيء المتصرف فيه كالمستقر في مكان. والقصر المستفاد من إنّما إضافي. والاستدراك المستفاد من لكنّ ناشئ عما يوهمه الاهتمام بالخبر الذي قبله لقرنه بأداة الاستفتاح، واشتماله على صيغة القصر، من كون شأنه أن لا يجهله العقلاء فاستدرك بأنّ أكثر أولئك لا يعلمون... **﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾**: شروع في بيان بعضٍ آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات، وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد. وكلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء، وأصلها ما الجزائية ضمت إليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت إلى

أين وإنْ، في أينما تكونوا، وإمّا نذهبن بك، خلا أنّ ألف الأولى قلبت هاء حذراً من تكرير المتجانسين، هذا هو الرأي السديد. وقوله: من آية بيان لمهما، وتسميتهم إياها آية لمجاراتهم على رأي موسى واستهزائهم به وللإشعار بأنّ عنوان كونها آية لا تؤثر فيهم.

وقوله تعالى: لتسحرنا بها إظهار لكمال الطغيان والغلوّ فيه، وتسمية للإرشاد إلى الحق بالسحر وتَسْكِيرُ الأبصار. والضميران المجروران راجعان إلى مهما، وتذكير الأول لمراعاة جانب اللفظ لإبهامه، وتأنيث الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية. وجملة: فما نحن لك بمؤمنين مفيدة للمبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية التي حكته من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي. وما يفيده تقديم متعلق مؤمنين من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان المنفي باسمه... **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾**: الفاء لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوهم وعنادهم. وحرف على دلّ على أنّ جملة أرسلنا مفرعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات. وسميت هذه المصائب آيات لأنها دلائل على صدق موسى لاقترانها بالتحدي، ولأنّها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمموا على الكفر والعناد. ومفصلات وصف لآيات، فيكون مراداً منه معنى الفصل المجازي، وهو إزالة اللبس.

والفاء في قوله: **﴿فاستكبروا﴾** للتفريع والترتيب، ودلت السين والتاء على شدّة التكبر والعُتوّ والإجرام. وجملة: **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾** معطوفة على جملة فاستكبروا، وإنّما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت وصف الإجرام فيهم، وتمكنه منهم، ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أنّ وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم، فكان دالةً على استمرار الخبر، وهو وصف الإجرام... **﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾**: لقد جمع السياقُ هنا تلك الآيات المفصلة، والمعجزات الفاصلة التي جاءتهم واحدة واحدة، وهم في كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو ربّه لينقذهم منها، ويعدُونه أن

يُرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها، وفي كل مرة ينقضون عهدهم، ويعودون إلى ما كانوا فيه. . .

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾: جمع السياق الآيات كأنّما جاءتهم مرة واحدة، وكانت نهايتها كذلك واحدة، وهي طريقة من طرق العرض الفني للقصة القرآنية يجمع فيها البدايات لتماثلها، والنهايات لتماثلها، فأما كيف وقعت هذه الآيات فليس لنا وراء النص شيء. فلما أن جاء الأجل وانتهت العدة تحقق النذير، وتمّ التدمير. . **﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾**: والسياق هنا يختصر في حادث الأغراق ولا يفصل خطواته كما يفصلها في مواضع أخرى من السور، ذلك أنّ الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل، فلا داعي إذن إلى طول العرض والتفصيل. إنّ الحسم السريع هنا أوقع في النفس، وأرهب للحسّ ـ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ـ ضربة واحدة فإذا هم هالكون. ومن التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهويّ في الأعماق والأغوار. . . جزاء وفاقاً بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾**: في هذا التوجيه عرض لقصة موسى مع فرعون وملإه. ولايبدأ السياق هنا قصة موسى من أولها، وإنما يبدؤها من حَلقة البعثة بالرسالة تعجيلا بالغرض الذي يتسق مع سياق السورة ومناسبتها، ثم يعجل بالكشف عن طبيعة موقف فرعون وملإه من موسى وقومه. فمن أول وهلة تبين موقفهم من البعثة فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين. ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال، فنرى كيف صارت الأمور إلى عاقبتها، فما الذي كان بين موسى وفرعون؟. هنا يبدأ المشهد الأول بينهما. . . **﴿وقال موسى يافرعون إنّي رسول من ربّ العالمين﴾**: إنّه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، وبين الاستقامة والانحراف.

وواجه موسى مواجهة صريحة ناداه بما يعرف به من لقب الحكم والرئاسة: يا

فرعون. ومعلوم أن هذا اللقب عنوان لحكام مصر الأصليين، ناداه ليقرر له حقيقة أمره: إنّي رسول من رب العالمين... **﴿حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلاّ الحق﴾**: فأنا ملزم ومأخوذ بقول الحق وحده، لا أقول على الله غيرَه... **﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾** تدلكم على رسالتي، وتبيّن لكم صدقي؛ جئتكم بها من ربكم لا من عندي... **﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾**: أطلقهم لي أحراراً من ذلك الرق الطويل. ويحدد النص هنا غاية رسالة موسى: إنّها إطلاق بني إسرائيل من رق فرعون وملإه، إطلاقهم مع موسى ليأخذ بالرسالة التي أرسله الله إليهم بها. وإلى هنا يبدو موقف فرعون طبيعياً ومعقولاً؛ رجل يأتي إليه فيناديه بلقبه مجرداً ويخبره بأنّه رسول من رب العالمين صادق، وأنّه يحمل بينة تدل على صدقه، وأنّه يطلب إطلاق بني إسرائيل له، فيطلب فرعون هذه البينة التي أشار الرجل إليها... **﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾**: ويفاجئنا السّياق بما فوجئ به فرعون، فكأنّنا نشهد الواقعة للمرة الأولى... **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾**: تلك إذن هي البيّنة وهي المعجزة، وهي مصداق الدعوى التي جاء بها موسى.

وهنا تتدخل حاشية السوء وأصحاب النفوذ الذين يشترون نفوذهم بتزيين الضلال والصد عن الهدى... **﴿قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾**؟: ساحر يقلب العصا حيّة ويحوّل اسمرار يده إلى بياض لامع يبهر الأبصار. ولكن هذا لا يكفي لإثارة الناس على موسى، فهم يهوّلون عليهم ليهيّجوهم: يريد أن يخرجكم من أرضكم، فهي القاصمة إذنْ، وهي الداهية!. فماذ تأمرون لاتقاء هذا الخطر العظيم؟!. وهكذا يبلغون من نفوس القوم بهذا التهويل، فيشير فريق منهم على فريق: **﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾**: ليقف السحر في وجه السحر، ويتقي القوم هذا الشر. ويقف السياق عند هذا المشهد ويسدل الستار على القوم يأتمرون، وقد أرجأوا موسى وأخاه إلى أجل حتى يجمعوا له السحرة من المدائن، كما أشار المفسدون المضللون!.

ولا يذكر السياق أنّهم أرسلوا إلى السحرة، ولا أنّهم جمعوهم، إنّما يرفع الستار مرة أخرى على مشهد السحرة مجموعين يحاورون فرعون ويحاورهم فيما

سيكون. . . ﴿**وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين. قال نعم وإنّكم لمن المقربين**﴾: إنّهم محترفون، والأجر هو هدف الاحتراف، وهذا فرعون يجمعهم من المدائن ليواجه بهم موسى. ونفهم من السياق أنّهم كانوا عالمين بالعمل الذي جمعوا له، فهم يستوثقون من أجرهم عليه. وها هو ذا فرعون يَعِدُهم الأجر، ويعدهم إلى جواره قربى ومنزلة، زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على الإجادة، وهو وهُم لا يعلمون أنّ الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل، إنّما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بقوة الله الغالبة التي لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون. ولقد اطمأن السحرة على الأجر، واشرأبّت أعناقهم إلى القربى من فرعون، واستعدت نفوسهم للحلية، فهاهم أولاء يتوجهون إلى موسى بالتحدي الصريح. . . ﴿**قالوا ياموسى إمّا أن تلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين. قال ألقوا**﴾: ويبدو التحدي واضحاً في تخييرهم لموسى، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة، وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى بالنهاية، واستهانته بالتحدي. قال: ألقوا، فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة، وتلقي الظل النفسي الكامن وراءها. ولكن السياق يفاجئنا بما فوجئ به موسى، وبينما نحن في ظلال الاستهانة وعدم المبالاة، إذا بنا أمام مظهر السحر البارع، الذي يُرهب ويُخيف.

وإذاً هي المفاجأة التي يجيئها السياق ليكشف عنها بكل قوتها. . . ﴿**فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾: وحسبنا أن يشهد القرآن لذلك السحر بأنه عظيم لندرك أيَّ سحر كان وحسبنا أن نعلم أنه سحر أعين الناس، وأثار الرهبة في القلوب، لنتصور أيّ سحر كان؟!. وهم لم يرهبوا الناس فحسب، إنّما استجاشوا وجدان الرهبة قسراً وساقوهم إليها سوقاً، ومع كل هذا فهو اصطناع مفتعل لا يستند إلى واقع صحيح. ثم تأتي المفاجأة الحقيقية التي لا يقف أمامها هذا السحر العظيم، إنّه يتضاءل وينطوي في ومضة كشعلة الهشيم. . . ﴿**وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون**﴾: إنّه الباطل ينتفش وينبعج وينتفخ، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيّل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنّه جارف، وأنّه محرق مبيد. وما هو إلاّ أن يواجه الحقَّ الهادئ المطمئنَّ حتى ينفثئ كالفقاعة وينكمش كالقنفذ وينطفئ كشعلة الهشيم.

وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور. ومن التحدي الصريح، والاعتداد الواضح إلى الخذلان القاطع والاستسلام المهين... ﴿**فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين**﴾: السحرة ومن جاء بهم ومن أعدّوا الحلبة وتحدوا البيّنة وظنوا أنّهم غالبون، فإذا هم مقهورون صاغرون، ولابد للحق من صدى في النفوس حين ينكشف لها الحق الصريح، والسحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر أم من القدرة الحقة التي تعجز ولا تموّه. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تنكشف له، لأنّه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ممن لا يعرفون في هذا الفن إلاّ القشور. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذي لا يجحده إلا المكابرون... ﴿**وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون**﴾: إنّها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المستعدّة لتلقي الحق والنور واليقين، ولكن المتجبرين المتكبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر، وكيف تمازجها بشاشة الإيمان، وكيف تلمسها حرارة اليقين.

وأن سطوتهم الظاهرية على الناس، وقدرتهم الموهومة على تصريف ماديات الحياة، لتخدعهم حتى ليحسبون أنّهم ملكوا تصريف الأرواح، وتقليب القلوب، لذلك فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه ولم يتابع خطاه، ولم يتفطن إلى مداخله في شعاب الضمير... ﴿**قال فرعون آآمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين**﴾: هكذا آمنتم به قبل أن آذن لكم؟!. كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم، وهم أنفُسُهم لا سلطان لهم عليها!.

أو أن ترتعش وجداناتهم، وهم أنفسهم لا يملكون أمرها!. أو أن تشرق أرواحهم، وهم أنفسهم لا يملكون مداخلها، أو كأنّما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو يثبت من الأعاق، أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب الضمير، ولكنه الطغيان جاهل غبيّ مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور. إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها، نفس الأكذوبة التي صورتها له بطانة السوء، وأفهمته أن

موسى وأخاه ينويانها منذ اللحظة الأولى. إنّه التعالم والتظاهر بإدراك الخفايا والأسرار، وفضح الحيل والمؤامرات، وهو في الوقت عينه العمى عن إدراك حقائق الأمور، والقصور عن فهم النواميس التي تحكم فِطْرَة البشر ودوافعهم ونياتهم وتصرفاتهم في هذه الحياة.

وهيهات أن يدرك الطغيان أنّ هذه النواميس تدفع بالفطرة البشرية حين تمسّها حرارة الإيمان وتخالطها بشاشته إلى الانقلاب من النقيض إلى النقيض، وإلى إخراج الماضي كله في لحظة، والاندفاع في الطريق الجديد، لا تسأل ماذا ستدع، ولا ماذا ستأخذ، ماذا ستدفع وماذا ستقبض؟ ماذا ستخسر وما ستكسب؟ ماذا ستلقى في الطريق من صعاب ومشقات وتضحيات؟. لأنّ الأفق المُشرق أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق!. أجل هيهات أن يدرك الطغيان شيئاً من رفرفات الأرواح، وارتعاشات الوجدان، وانتفاضات القلوب؛ لأنّه غليظ مُغَلَّف محجوب!. ومن ثَمَّ يحسب الأمر كله مؤامرات لأهداف قريبة من أهداف هذه الأرض المعهودة، ومزاحمات على هذا العرض الزائل الذي تلمسه الأيدي، ويعز عليه أن يتصور الحركة المندفعة بلا هدف أمامها قريب، وبلا ثمن يوازي الجهد والنصب واللغوب.

ومن ثَمَّ يفْرق ويفْزَع، ويدفع عن نفسه الخطر الموهوم بالعنف والقسوة والتعذيب، يحسب أنَه بالغٌ به شيئاً من تلك القلوب، التي لا يدرك بواعثها، ولا يفهم طبيعتها... فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثُمّ لأصلبنكم أجمعين: إنّه العذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسي البطيء المرهوب، ولكن هنالك الإيمان الذي يتعالى على قوة الأرض، ويستهين ببأس الجبابرة، ويحتقر الغناء الزائل إلى جوار البقاء المقيم... ﴿**قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون. وما تنقم منا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾: إنّه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع، ولا يخضع ولا يخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، لأنّها الانقلاب إلى جوار الله. والذي يدرك حقيقة المعركة بينه وبين الطغيان فلا يداهن ولا يناور، ولا يطلب السلامة والعافية إنّما يطلب الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام.

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، أمام الثقة، أمام الاطمئنان. يقف الطغيان

عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنّه يملك الوصاية عليها، كما يملك الوصاية على الرقاب، ويملك التصرف فيها، كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه؛ لأنّها من أمر الله، لا يملك أمرها إلاّ الله. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟. وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بجوار الله؟. وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان؟. إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون والمؤمنين من السحرة السابقين، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية؛ لأنّه إعلان لمولد الحرية، فما الحرية إلاّ الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين، وطغيان الطغاة، وتهديد المنتقمين. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح!. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية في هذه القلوب. إنّه موقف حاسم في تاريخ البشرية؛ لأنه إعلان لإفلاس المادية. فهذه هي القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتُمنى بالقربى من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد، وتقبل على الموت والتنكيل والتصليب. وما تغير في حياتها شيء، وما تغير من حولها شيء، وما تغير في اقتصادياتها شيء، وما تغير في الإنتاج أو وسائله شيء!.

إنّما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى، وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد. وقعت اللمسة التي تحول الإبرة فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويتسمّع الضمير أصداء الهداية، وتتلقى البصيرة إشراقات النور. وقعت اللمسة التي لا تنتظر تغير وسائل الإنتاج، وعوامل الاقتصاد، ولا تتلقى قانونها من إرادة البشر القُصّر الفانين المحدودين. ويذهب التهديد ويتلاشى الوعيد، ويمضي الإيمان في طريقه لا يلتفت ولا يتردد ولا يحيف. ويسدل الستار فلا نعلم إن كان فرعون قد نفّذ وعيده وأمضى تهديده، أم إنّه تراجع أمام الإيمان الثابت الوطيد. يسدل الستار؛ لأنّ روعة الموقف تبلغ ذروتها، وتنتهي إلى غايتها. وكل زيادة فيه بعد ذلك قد تبرد من حرارته، أو تفض من جلاله، وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض مع الهدف النفسي الذي تعرض فيه القصة، على طريقة القرآن دائماً في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني في تناسق واتّساق.

ثم يرفع الستار فإذا نحن أمام مشهد آخر؛ مشهد التآمر والتحريض والعزة بالإثم، بعد الهزيمة والخذلان في معركة الطغيان والإيمان؛ مشهد الملإ من قوم فرعون يعز عليهم أن يذهب موسى ناجياً ومن معه، فيهيجون فرعون عليه وعليهم، ويستثيرون كبرياءه وعنجهيته، ويخوفونه فقدان الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التي يستمد منها السلطان؛ فإذا هو هائج ثائر مهدد متوعد، مستعز بالقوة الغاشمة التي بين يديه، وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه. . . ﴿**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون**﴾: إنّ الباطل حين يُهزم يستدبر من الخلف ليطعن، وهؤلاء ـ رجال الحاشية ـ قد تلقوْا لَطْمَة الهزيمة فهم يستدبرون بسلاح الدسيسة. . . أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلِهَتَك!؟: وإنّها لقولة رجال السوء في كل عهود الطغيان، فالدعوة إلى الله وحده إفسادٌ في الأرض!.

ذلك أنّها الصيحة التي تزلزل قواعد الظلم، وتهدد دولة الطغيان. إنها الدعوة إلى التحرر من عبودية الأرض بكل أسبابها وبواعثها ومقوماتها. التحرر من عبودية القوة والسلطان والمال والمطامع والشهوات، الدعوة إلى حكومة الله التي يستوي أمامها الضعاف والطغاة، والرعية والرعاة، والأغنياء والفقراء والأجناس والألوان واللغات. وماذا يبقى للطغاة وذيولهم إذا استقرت الدعوة إلى الله وحده، فاستقرت الحرية المطلقة والمساواة المطلقة بين الناس؟. ما الذي يبقى إذا لم يسترهبوا بالقوة والبأس، ولم يغروهم بالمال والجاه، ولم يستذلوهم بالمطامع والشهوات؟. أَلاَ إنّه الفساد في الأرض إذنْ! والشغب الذي يجب قمعه، والتمرد الذي لا يُترك بلا عقاب!. وهنا ينكشف موطن الخطر، فالوحدانية هي مفرق الطريق بين العبودية والحرية. وفي ظل الشرك يمكن أن يعيش الطغيان والطغاة، يتجبرون باسم الآلهة، ويستترون بظلام الوثنية وما حولها من الأساطير والخرافات، فأمّا في ظل الوحدانية فالكل أمام الله سواء.

والاعتزاز بالله يثبّت القلوب ويقوي الضعاف ويستهين بالبأس والمال والجاه. ومن هنا غمز القوم لفرعون يخوفونه العاقبة بهذا التلميح الذي يدركه كما يدركونه!. فما لبثت الغمزة أن أصابت هدفها وأنتجت نتيجتها، وانتفض فرعون

انتفاضة الخوف، يغلّفها بغلاف الجبروت ويلبسها رداء القوة، ويعتز بالإثم؛ لأنه لا يريد الاعتراف بحقيقة الهزيمة: قال: سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون. ولو كان يستشعر فيما هو عليه من عقيدة قوة حقيقية تصمد للدعوة الجديدة ما لجأ إلى القوة المادية يَسْتَعْدِيها، ولو كان يحسّ أنّه على الحق ما فكر في البطش برجل لا يملك إلاّ الحق، ولو كان يعلم أنّه يستبقي جاهه الزائف وسلطانه الباطل ومصالحه الشخصية مع انتصار العقيدة الجديدة ما وقف في وجهها هذه الوقفة، ولكنه يهدد بالبطش وينتوي التنكيل ويجهر بالإثم؛ لأنّه يدفع عن نفسه وجاهه ومصالحه ووضعه الباطل الذي لا يستند إلاّ للباطل، ويعتز بهذا كله لا بالحق ولا بالاقتناع، ولكن بالقوة المادية والجبروت الباطل. إنّه الطغيان في كل مكان وفي كل زمان!. لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام!.

التوجيه الثاني: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾: هنا نجد موسى يوجه إلى قومه هذه الأوامر. يوصيهم فيها باحتمال الفتنة والصبر على البلية والاستعانة بالله في احتمالها، ويبشرهم بأنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأنّ العاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحداً سواه. يمضي موسى في وصيته يلوح لهم بالنصر، ويرجو لهم الخلافة في الأرض بعد إهلاك عدوهم الجبار، وهذه هي الوصية اللائقة بنبيء كل اعتماده على الله، وكل عون له من الله، ولكن إسرائيل هي إسرائيل، وما تكاد القصة تمضي بضع خطوات حتى تنكشف إسرائيل عن شيء من طبيعتها... **﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾**: إنّها كلمات ذات ظل، وإنها لتشي بما وراءها من تخاذل ومن تبرّم!.

أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك، وطال هذا الأذى ولا نهاية له ولا فكاك. ويمضي موسى على نهجه؛ يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض، مع التحذير من الفتنة بالاستخلاف... **﴿قال: عسى ربّكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾**: فليس هو استخلاف محاباة، وليس هو جزافاً بلا كفايةٍ، وليس هو خلوداً بلا توقيت. إنّه استخلاف للاختبار وأنّه ليرى ويعلم ماذا سيكون، ولكنها سنة الله وعدله: فينظر كيف تعملون.

التوجيه الثالث: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون**﴾: يكشف فيه عما حصل لآل فرعون، وما حل بهم من أنواع المصائب فأول ما حصل لهم منها الجدب من قلة الماء اللازم لزيادة الثمرات؛ فقلت ثمراتهم وظهرت عليهم آثار الفاقة، وهي ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتثير القلق، وتدعو إلى اليقظة والتفكر ومحاسبة النفس على الخطايا اتّقاءً للبلايا، وهكذا أخذ الله آل فرعون بالسنين لعلهم يذّكّرون. إنّها اللمسة الموقظة لو أن في قلوب القوم حياةً وحساسية، ولكن آل فرعون لم يتدبّروا ولم يتذكروا؛ كانت الوثنية وخرافتها قد أفسدت فطرتهم، وقطعت صلتهم بالحياة الصحيحة، فكانوا إذا أصابتهم الحسنة نسبوها إلى حُسْنِ حظّهم، وإذا أصابتهم السيئة نسبوها إلى نحس موسى ومن معه وسوء طالعهم... ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئة يطّيروا بموسى ومن معه**﴾: وحين تنحرف الفطرة عن العلة الأولى الموجبة لكل شيء تفقد صلتها وحساسيتها بالنواميس الكونية الصحيحة النافذة، فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة لا صلة بينها ولا ارتباط ولا قاعدة؟ وتهيم مع الخرافات والأساطير في دروب ملتوية وطرق متفرقة لا تؤدي إلى شيء ولا تلتقي عند نقطة، ولا تجتمع وفق نظام. والسياق يعقب على تطيرهم ببيان القاعدة التي ترجع إليها الحسنة والسيئة والنعماء والبأساء والقسم والحظوظ: ﴿**ألا إنّما طائرهم عند الله**﴾: مصدره واحد وناموسه واحد.

ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء، وتصيبهم السيئة للتنبيه، ويصيبهم النكال للجزاء... ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾!. ويمضي آل فرعون في عتوهم، تأخذهم العزة بالإثم، ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً... ﴿**وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾: فهو الجُمُوح الذي لا تروضه بينة ولا يلينه إقناع، ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر؛ لأنّه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يعرض عليه الدليل؛ قطعاً للطريق على الدليل، وهي حالة نفسية تصيب الجبارين حين يدمغهم الحق وتجبههم البينة ويطاردهم الدليل. وعندئذ تتدخل القدرة الكبرى بوسائلها الجبارة... ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات**﴾: للإنذار والابتلاء. ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصلة والمعجزات الفاصلة التي جاءتهم واحدة واحدة، وهم في كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو ربّه لينقذهم منها، ويَعِدُونَه أن

يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها. . .

﴿**ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾: وفي كل مرّة ينقضون عهدهم ويعودون إلى ما كانوا فيه: ﴿**فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون. .**﴾ جمع السياق الآيات كأنّما جاءتهم مرّة واحدة، وكأنّما وقع النكث منهم مرة واحدة؛ لأنّ التجارب كلها كانت واحدة، وكانت نهايتها كذلك واحدة، إلى أن وقع ما وقع وجاء الأجل المعدّ للقوم المجرمين. . . ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾: ضربة واحدة فإذا هم هالكون!. وإلى هنا يقف بنا الحديث عن فرعون وملإه، ويمضي بنا مع حديث آخر؛ حديث موسى وقومه.

3 ـ حديث موسى الطويل مع قومه من بني إسرائيل

النص

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿137﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿138﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿139﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿140﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿141﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿142﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿143﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿144﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ
فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿145﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا
وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ
ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿146﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿147﴾ * وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿148﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا

رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿149﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى
مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟
يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿150﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿151﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿152﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟
مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿153﴾
وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿154﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ
قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ
أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿155﴾
* وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ
إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۖ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿156﴾
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيٓءَ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ
فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ
الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿157﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيٓءِ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿158﴾ وَمِن
قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿159﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَۖ
فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿160﴾
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتُكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿161﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِے قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿162﴾ * وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِے كَانَتْ حَاضِرَةَ
ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِے ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿163﴾
وَإِذْ قَالَتُ اُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿164﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍ بِيسٍ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿165﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟
قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿166﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ
وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿167﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِے ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ

ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿168﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿169﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿170﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿171﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**وأورثنا القوم**﴾: ملّكنا بني إسرائيل الذين كانوا تحت قهر فرعون مستضعفين لا قيمة لهم عنده.. ﴿**مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**﴾: الأرض أرض الشام، وهي تبتدئ شرقاً من العراق، وغرباً من صحراء سيناء، وشمالاً من أرض الترك، وجنوباً من حدود بلاد العرب، وهي الأرض التي باركها الله بوفرة الخيرات... ﴿**وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا**﴾: تمام الشيء: وصوله إلى آخر حدّه. وكلمة الله: وعدُه لبني إسرائيل بإهلاك عدوّهم واستخلافهم في الأرض... ﴿**ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾: التدمير: إدخال الهلاك على السالم، والخراب على العامر. والعرش: رفع المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق...

﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر**﴾: جاز وجاوز وتجاوز: انتقل، ومعناه هنا:

قدّرنا لهم جوازه ويسّرناه لهم. والبحر: هو الحد الشمالي للبحر الأحمر، ويسمى بحر القلزم... ﴿**فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم**﴾: العكوف: الملازمة بنية العبادة. والأصنام: جمع صنم، وهو ما يصنع من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالاً لشيء حقيقي أو خيالي... ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنّكم قوم تجهلون**﴾: الجهل هنا: فقد العلم، وسفه النفس، وطَيْشُ العقل، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد... ﴿**إنّ هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**﴾: المتبّر: المدمّر، والتبار الهلاك «ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً». والباطل: ضد الحق... ﴿**قال أغير الله أبغيكم إلهاً**﴾: همزة أبغيكم همزة المتكلم للفعل المضارع، وهو بمعنى أطلب، وأصل الكلام: أبغي لكم إلهاً، يقال: بغيته أبغيه بُغاءً وبُغية، وابتَغيته طلبته...

﴿**وهو فضلكم على العالمين**﴾: ومعنى التفضيل هنا: أنّ الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه، إلى غير ذلك من الفضائل التي خصوا بها في وقت موسى. وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غَيْرِهِم يومئذ... ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾: تقدم معنى هذه الآية في سورة البقرة... ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربّه أربعين ليلة**﴾: واعدنا من المواعدة التي تكون بين اثنين، باعتبار أنّ الله تعالى ضرب موعداً بينه وبين موسى لمكالمته وإعطائه الألواح. والتمام الذي في قوله: فتمّ ميقات ربّه مستعمل في النماء والتفوّق، فكان ميقاتاً أفضل وأكمل. والميقات أخص من الوقت، فهو الوقت الذي قرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج. والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الإطلاق...

﴿**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾: معنى أخلفني: كن خَلَفاً عَنِّي وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند غيبته، فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخْلِفْ، فالخلافة وكالة، وفِعْل خلَف مشتق من الخلْف، وهو ضد الأمام. والإصلاح: جعل الشيء صالحاً. والاتباع: أصله المشي على خلف ماشٍ، والمراد هنا: المشاركة في عمل المفيد... ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك**﴾: معنى

المجيء هنا: انتقال موسى من بين قومه إلى جبل سيناء المعين فيه مكان المناجاة. وتكليم الله موسى: إسماعه كلامه القدسي الذي يليق بجنابه سبحانه وتعالى. ولما كان التكليم حاصلاً لموسى، طمع بعده بالرؤية التي تزيده قرباً وشرفاً، فقال: ربّ أرني أنظر إليك... **﴿قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾**: نفي رؤية الله لموسى في هذه الدار وعلى هذا التركيب الإنساني الضعيف؛ لأنّه لا يطيقها بدليل أنّ الجبل الذي هو أقوى وأضخم من الإنسان اندك وتفتت. وعندما رأى موسى ما حصل للجبل خر صعقاً من هول ما رأى ما حصل من الجبل... **﴿فلما تجلى ربّه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾**: التجلي: الظهور والوضوح. والدّك: الهدم، ومعناه هنا: تسوية الجبل بالأرض. والخرّ الانكباب على الأرض.

والصعق: المغشيّ عليه من هول ما رأى وسمع... **﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾**: الإفاقة: رجوع الإدراك بعد زواله بغشْي أو نوم. وسبحانك: مصدر جاء عوضاً عن فعله (أُسبّحك)، ومعناه: التنزيه عما لا يليق... **﴿قال يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي﴾**: الاصطفاء: اختيار صفوة الشيء، ومعناه هنا: تفضيل موسى بالرسالة وبالكلام... **﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾**: خذ ما أعطيتك من الشريعة، وكن من الراسخين في الشكر لنعمتي بها عليك وعلى قومك... **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾**: الألواح جمع لوح، وهو كل صحيفة عريضة من خشب أو غيره... **﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾**: الموعظة: اسم مصدر الوعظ، وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة، أو بتحريض على جلب نفع مغفول عنه. والتفصيل: التبيين للمجملات... **﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾**: الأخذ: تناول الشيء، ومعناه هنا: التلقي والحفظ. والقوة: حالة في الجسم يتأتى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد. والأخذ بالأحسن: العمل بما في الشريعة لحسنها... **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾**: الإراءة هنا: من رأى البصرية. والدار: المكان الذي يأوي إليه الإنسان.

ودار الفاسقين هنا: ديار المشركين... **﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾**: الصرف: الدفع والصد والمنع. والآيات: الشريعة

ودلائلها. والتكبر: الاتصاف بالكبر... ﴿**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً**﴾: الرشد: الصلاح والاستقامة، وضده الغي وهو الفساد... ﴿**ذلك بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾: معنى كذبوا بآياتنا: ابتدؤوا بالتكذيب ولم ينظروا، ولم يهتموا بالتأمل في الآيات فداموا على الكبر وما معه، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات. والغفلة انصراف العقل والفكر عن تذكر شيء بقصد أو بغير قصد، وأكثر استعماله في القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل... ﴿**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون**﴾: التكذيب بالآيات إنكارها، أو ترك العمل بها. ولقاء الآخرة: البعث والحساب والمجازاة.

وحبوط الأعمال: عدم فائدتها وقت الحاجة إليها، وأصل الحبط فساد الشيء الذي كان صالحاً، وحبط عملُه: بطل لفساده... ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار**﴾: الحُلِيُّ: جمع حَلْي، وهو ما يزين به من مصوغ المعدن النفيس كالذهب والجواهر. والعجل: ولَد البقرة قبل أن يصير ثوراً. والجسد: الجسم الذي لا روح فيه. والخوار: صوت البقر... ﴿**ولما سُقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلوا**﴾: سُقِطَ مبنيٌّ للمجهول، استعمل استعمال المَثَلِ، وهذا الاستعمال لم يسمع قبل القرآن... ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا**﴾: الغضب: ضد الرضا. والأسف: أشدّ الحزن... ﴿**قال بئسما خلفتموني من بعدي**﴾: بئسما: كلمة ذمّ، وضدها نِعِمَّا... ﴿**أعجلتم أمر ربّكم**﴾: عجله: سبقه.

والأمر: واحد الأوامر، وهو ما أمرهم الله به من المُحَافظة على الشريعة وانتظار رجوع موسى فلم يُتِمُّوا ذلك فبدّلوا وغيّروا، فاستحقوا عقاب الله باستعجالهم إلى المخالفة... ﴿**وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه**﴾: إلقاء الألواح: رميها من يده إلى الأرض. والأخذ بالرأس: إمساكه والقبض على الشعر. والجرّ: الجذب... ﴿**قال ابن أمَّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾: ابن أمّ: نداء للأخ بحذف ياء النداء وفتح الميم وحذف الألف المبدلة عن ياء المتكلم. والسين والتاء في استضعفوني للحسبان، بمعنى حسبوني ضعيفاً لا ناصر لي... ﴿**فلا تشمت بي الأعداء**﴾: الشماتة: سرور النفس بما يصيب غيرها من

الأضرار، يقال: شمت به، وأشمته به. والأعداء: جمع عدوّ، وهو المخالف المُبْغِض. ومعنى ﴿**ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾: لا تحسبني واحداً منهم، فجعل هنا بمعنى ظن... ﴿**قال ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين**﴾: هذا دعاء دعا به موسى ربّه له ولأخيه... ﴿**إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين**﴾: ينالهم: يصيبهم. والنول والنيل: الأخذ. وغضب الله تعالى: إرادته السوء بمن يستحقه، وهو العقاب الناتج عن المخالفة.

والذلة: خضوع في النفس واستكانة من جراء العجز عن الدفع. والافتراء: الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه... ﴿**ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربّهم يرهبون**﴾: السكوت في الأصل: ترك الكلام. والنسخة: بمعنى المنسوخ، كالخُطْبة، والنَّسْخُ: نقل مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى. والرهب: الخوف مع الهيبة والتعظيم... ﴿**واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**﴾: الاختيار: صيغة تكلف من مادة الخير. والاختيار هنا: الاصطفاء، وهو بمعنى الانتخاب، والمعنى: وانتخب موسى سبعين رجلاً من خيار قومه للميقات... ﴿**فلمّا أخذتهم الرجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي**﴾: الرجفة: الحركة العنيفة التي تأخذ الإنسان غفلة فتذهله عن نفسه حتى لا يعي ما حوله. والإهلاك: الإماتة. والسفهاء: هم الذين عبدوا العجل، وسُمِّيَ شركهم سفهاً لأنّه شرك مشوب بخسة عقل وسوء تفكير... ﴿**إنْ هي إلاّ فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين**﴾: الفتنة: ما يقع بها اضطراب الأحوال ومَرَجُها، وتشتّت البال. والوليّ: الذي له ولاية على أحد، والولاية: حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة... ﴿**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هدنا إليك**﴾: الحسنة: الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

ومعنى هدنا: تبنا، يقال هَادَ يَهُودُ إذا رجع وتاب... ﴿**قال عذابي أصيب به من أشاء**﴾: المراد بالعذاب: المحق ومصائب الدنيا، يصيب الله به من يشاء من عباده الذين انحرفوا عن الصراط السوي... ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾: هذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق، ولولاها لهلك كل كافر وعاصٍ عقب

كفره وفجوره... ﴿**فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبيء الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾: كتابة الرحمة الخاصة إنّما تكون لمن جمعوا بين الإسلام الذي جاءت به الرسل، والإيمان بالآيات الدالة على صدق الرسول الخاتم.

والرسول النبيء الأمّيّ أوصاف لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والأمّيّ: نسبة إلى الأم؛ لأنّه لا يقرأ ولا يكتب. ومعنى يجدونه مكتوباً: وجدان صفاته ونعوته التي لا يشبهه فيها غيره. والمعروف: شامل لكل ما تقبله العقول والفِطَر السليمة. والمنكر: ضدُّه. والطيبات: جمع طيبة، وهي الأكلة والشربة التي لا ضرر فيها ولا وخامة تعتريها. والخبائث: جمع خبيثة، وهي عكس الطيبة. ووضع الإصر: إبطال تشريعه بنسخ ما فيه شدّة ومشقّة. والأغلال: جمع غل، وهو في الأصل إطار من حديد يُجعل في رقبة الأسير والجاني... ﴿**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه**﴾: معنى عزّروه: أيّدوه وقوُّوه. والنور: القرآن... ﴿**قل يا أيُّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً**﴾: أمر لمحمد ﷺ بأن يعلن للناس أنه رسول الله إليهم جميعاً... ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبيء الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته**﴾: كلمات الله: تشمل كتبه ووحيه للرسل... ﴿**ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾: قوم موسى أتباع دينه من قبل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وأمّة: جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها. ويهدون بالحق: يهدون الناس ببثّ فضائل الدين الإلهي. ويعدلون: يحكمون حُكْماً لا جور فيه... ﴿**وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما**﴾: التقطيع: شدّة القطع، وهو التفريق، والمراد به تقسيم الأسباط. والأسباط الإثنا عشر: أبناء يعقوب، وهم أسباط إسحاق؛ لأنّهم أبناء ولده، والسبط ولد الولد... ﴿**وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا**﴾: تقدم معنى هذه الكلمات في سورة البقرة. وانبجست: مطاوع بجس إذا انشق، والانبجاس: النبوع في عين الماء... ﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر**﴾: القرية: المصر الجامع. وحاضرة

البحر: قريبة منه. ومعنى يعدون: يتعدون أمر الله فيه. والسبت: اسم لليوم الذي بعد الجمعة، وأصل السبت في اللغة: القطع.

والحيتان: جمع حوت، وهو السمك. وشُرَّعاً: ظاهرة على الماء رافعة رؤوسها... ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتّقون**﴾: صلحاء القوم كانوا فريقين؛ فريق منهم أيس من نجاح الموعظة، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة، وأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني، واعتذر الفريق الثاني بقولهم: معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتقون. والمعذرة: مصدر ميمي لفعل اعتذر، ومعنى اعتذر: أظهر العذر، والعذر: السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير... ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بيس بما كانوا يفسقون**﴾: النسيان هنا: بمعنى الترك والإعراض.

ومعنى ما ذكروا به: هو الوعظ الذي وعظهم به الصالحون من قومهم، وهم الذين ينهون عن السوء. والعذاب البئس: العذاب الشديد المتنوع كمّاً وكيْفاً... ﴿**فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾: عتوا: تجاوزوا الحدّ في المخالفة. كونوا قردة: أمر تكويني. والقردة: جمع قرد وهو الحيوان المعروف المضحك!. والخاسئ: المبعد المكروه... ﴿**وإذ تأذّن ربّك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾: تأذّن مشتق من الإذن وهو العلم، وحاصل المعنى أنّ الله أعلمهم بذلك وتوعدهم به. ومعنى البعث: الإرسال. ويسومهم: يفرض عليهم، وحقيقة السوم تقدير العوض الذي يستبدل به الشيء، فالمعنى: يجعل سوء العذاب كالقيمة لهم، فهو حظُّهم.

وسوء العذاب: أشدُّه؛ لأنّ العذاب كله سوء، فسوؤه الأشدُّ فيه... ﴿**وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك**﴾: فرّقناهم في الأرض جماعات. والصالحون: هم الذين اتبعوا ما أنزل الله وآمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم. وقوله... ﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيآت**﴾: أظهرنا مختلف حال بني إسرائيل في الصبر والشكر، أو في الجزع والكفر... ﴿**فخلف من بعدهم خلف**﴾: الخلف: مصدر أريد به اسم الفاعل، والخلْف مأخوذ من الخَلَف ضد القدام؛ لأنّ من يجيء بعد قوم فكأنّه جاء من ورائهم... ﴿**ورثوا**

الكتاب﴾: الكتاب﴾: التوراة. . . ﴿**يأخذون عرض هذا الأدنى**﴾: الشيء الحقير الذي يأخذونه من السحت والرشوة والاتّجار بالدِّين والمُحابَاة في الحكم والفتوى. . . ﴿**ويقولون سيغْفَر لنا**﴾: لا يؤاخذنا الله بذنوبنا لأنّنا أبناؤه وأحباؤه!. . ﴿**وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه**﴾: فلا يقلعون عن المعاصي اعتماداً على قولهم: سيُغْفَرُ لنا. . . ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلاّ الحق**﴾: ميثاق الكتاب: ما في التوراة من الشريعة، والأمر بالعمل بها، ومنه أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق دون زيف أو انحراف. . . ﴿**ودرسوا ما فيه**﴾: فهم يعلمون حقيقته علماً تفصيلياً، ومع هذا يقولون ما يقولون!. . ﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾: نعيم الآخرة خير من عرض الدنيا الفاني، وهو أمر ظاهر لكل عاقل. . . ﴿**والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين**﴾: يمسكون بالكتاب: يعتصمون به ويشدون عليه بالأيدي. والكتاب: القرآن؛ لأنّه هو الذي بيّن وفصّل الأحكام من عبادات ومعاملات. . . ﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم كانّه ظلة**﴾: النتق: الفصل والقلع. والجبل: الطور. والظلّة: السحابة. . . ﴿**وظنّوا أنّه واقع بهم**﴾: ساقط بهم، فالباء للملابسة.

مبحث الإعراب

﴿**وأورثنا القوم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وهو معطوف على قوله: فانتقمنا منهم. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب نعت للقوم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يُستضعفون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يستضعفون صلة الذين. ﴿**مشارق**﴾ مفعول ثانٍ لأورثنا. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى مشارق. ﴿**ومغاربها**﴾ معطوف على مشارق الأرض. ﴿**التي**﴾ في محل جر نعت للأرض. ﴿**باركنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة التي. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**وتمت كلمة**﴾ فعل وفاعل معطوف على أورثنا. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى كلمة. ﴿**الحسنى**﴾ نعت لكلمة مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**على بني**﴾ متعلق بتمت. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**بما**﴾ متعلق بتمت، وما مصدرية. ﴿**صبروا**﴾ مؤول مع ما بالمصدر المجرور بالباء. ﴿**ودمرنا**﴾ فعل وفاعل، وهو معطوف على ما قبله. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به.

﴿**كان**﴾ اسم كان ضمير يعود على ما. ﴿**يصنع فرعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كان صلة ما. ﴿**وقومه**﴾ معطوف على فرعون. ﴿**وما كانوا يعرشون**﴾ معطوف على ما كان يصنع، وهو مثله في الإعراب. ﴿**وجاوزنا**﴾ فعل وفاعل، وهو معطوف على ما قبله. ﴿**ببني**﴾ متعلق بجاوزنا. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني. ﴿**البحر**﴾ مفعول به. ﴿**فأتوا**﴾ مرتب على جاوزنا. ﴿**على قوم**﴾ متعلق بأتوا. ﴿**يعكفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة نعت لقوم. ﴿**على أصنام**﴾ متعلق بيعكفون. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأصنام. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يا موسى**﴾ منادى مبني على ضم مقدر في محل نصب. ﴿**اجعل**﴾ فعل أمر. ﴿**لنا**﴾ متعلق باجعل. ﴿**إلهاً**﴾ مفعول به. ﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه، وما صلة كفّتها عن العمل. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**آلهة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**إنّكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**قوم**﴾ خبرها. ﴿**تجهلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع نعت لقوم، وجملة إنّكم في محل نصب مقول القول.

﴿**إنّ هؤلاء متبّر**﴾ هؤلاء مبني على الكسر في محل نصب اسم إنّ، متبّر اسم مفعول خبر ما مقدّم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فيه**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدا، والجملة صلة ما. ﴿**وباطل**﴾ معطوف على متبّر. ﴿**ما**﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر، وجملة متبر ما هم فيه في محل رفع خبر إنّ. ﴿**كانوا**﴾: كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**أغير**﴾ مفعول مقدم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**أبغيكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير (أنا)، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به. ﴿**إلهاً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**وهو**﴾ الواو واو الحال، هو في محل رفع مبتدأ. ﴿**فضّلكم**﴾ الجملة في محل رفع خبر المبتدإ، والجملة وهو فضلكم في محل نصب حال من الله، والفاعل في فضلكم ضمير يعود على الله. ﴿**على العالمين**﴾ متعلق بفضلكم. ﴿**وإذ**﴾ في محل نصب مفعول لفعل مقدر. ﴿**أنجيناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وهو في محل جر مضاف إلى إذ. ﴿**من آل**﴾ متعلق بأنجيناكم. ﴿**فرعون**﴾ مضاف إلى آل. ﴿**يسومونكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب حال من آل فرعون. ﴿**سوء**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**العذاب**﴾ مضاف إلى سوء. ﴿**يقتلون أبناءكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة

بدل من يسومونكم. ﴿**ويستحيون**﴾ نساءكم معطوف على يقتلون. ﴿**وفي ذلكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**بلاء**﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبلاء. ﴿**عظيم**﴾ نعت ثانٍ، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**وواعدنا موسى**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وهذه الجملة معطوفة على قوله: وجاوزنا ببني إسرائيل. ﴿**ثلاثين**﴾ منصوب بالياء نيابة عن الظرف. ﴿**ليلة**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**وأتممناها**﴾ معطوف على واعدنا موسى. ﴿**بعشر**﴾ متعلق بأتممناها. ﴿**فتمّ ميقاتُ**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء التفريع. ﴿**أربعين ليلة**﴾ انتصب أربعين على الحال بتقدير بالغاً أربعين. ﴿**وقال موسى**﴾ معطوف على واعدنا. ﴿**لأخيه**﴾ متعلق بقال. ﴿**هارون**﴾ عطف بيان لأخيه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**اخلفني**﴾ فعل أمر، والفاعل أنت، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**في قومي**﴾ متعلق باخلفني، وياء المتكلم في محل جر مضاف إلى قوم. ﴿**وأصلح**﴾ فعل أمر معطوف على اخلفني. ﴿**ولا تتبع**﴾ الفعل مجزوم بلا الناهية معطوف على أصلح. ﴿**سبيل**﴾ مفعول به.

﴿**المفسدين**﴾ مضاف إلى سبيل مجرور بالياء. ﴿**ولمّا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**جاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**موسى**﴾ فاعل. ﴿**لميقاتنا**﴾ متعلق بجاء. ﴿**وكلمه**﴾ معطوف على جاء. ﴿**ربّه**﴾ فاعل. ﴿**قال**﴾ جواب الشرط. ﴿**ربّ**﴾ منادى حذفت منه ياء النداء، وهو منصوب بفتحة مقدّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. ﴿**أرني**﴾ جملة دعائية. ﴿**أنظر**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الدعاء. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنظر، وجملة ولما جاء موسى معطوفة على جملة وواعدنا، وجملة ربّ أرني في محل نصب مقول القول. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**لن تراني**﴾ فعل مضارع منصوب بلن بفتحة قصيرة على الألف، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿**ولكن**﴾ حرف استدراك وعطف. ﴿**انظر**﴾ فعل أمر. ﴿**إلى الجبل**﴾ متعلق بانظر، والجملة معطوفة على قوله: لن تراني. ﴿**فإن استقر**﴾ الفاء للتعقيب، إن شرطية، استقر فعل الشرط. ﴿**مكانه**﴾ منصوب على الظرفية، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فسوف تراني**﴾ جواب الشرط دخلت عليه الفاء لوجود سوف.

﴿**فلما تجلى**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**ربّه**﴾ فاعل تجلى، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**للجبل**﴾ متعلق بتجلى. ﴿**جعله**﴾ جواب لمّا. ﴿**دكّاً**﴾ مفعول ثانٍ لجعله. ﴿**وخرّ موسى**﴾ فعل وفاعل معطوف على تجلى. ﴿**صعقا**﴾ منصوب على الحال من موسى. ﴿**فلما أفاق**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التعقيب. ﴿**قال**﴾ جواب لمّا. ﴿**سبحانك**﴾ مصدر ناب مناب فعله، وهو مفعول مطلق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**تبت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إليك**﴾ متعلق بتبت. ﴿**وأنا أول**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على قوله: سبحانك تبت. ﴿**المؤمنين**﴾ مضاف إلى أول مجرور بالياء. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**يا موسى**﴾ منادى مبني على ضم مقدر على الألف في محل نصب. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**اصطفيتك**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**على الناس**﴾ متعلق باصطفيتك. ﴿**برسالتي**﴾ كذلك. ﴿**وبكلامي**﴾ معطوف على رسالتي.

﴿**فخذ**﴾ مرتب على اصطفيتك. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول خذ. ﴿**آتيتك**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. ﴿**وكن**﴾ معطوف على خذ، واسم كن ضمير، وخبره متعلق ﴿**من الشاكرين**﴾. ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء**﴾ عطف على قوله: قال ياموسى، والمجرورات كلها متعلقات بكتبنا. ﴿**موعظة**﴾ نُصِبَ على الحال. ﴿**وتفصيلاً**﴾ معطوف عليه. ﴿**لكل**﴾ متعلق بتفصيلاً. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**فخذها**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**بقوة**﴾ متعلق بخذها. ﴿**وأمر**﴾ معطوف على خذها. ﴿**قومك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يأخذوا**﴾ مجزوم في جواب الأمر. ﴿**بأحسنها**﴾ متعلق بيأخذوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**سأريكم**﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**دار**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**الفاسقين**﴾ مضاف إلى دار منصوب بالياء. ﴿**سأصرف عن آياتي الذين**﴾: الذين في محل نصب مفعول به. ﴿**يتكبرون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بيتكبرون. ﴿**بغير**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المرفوع. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**وإن يروا**﴾ معطوف على يتكبرون، والجملة فعل الشرط. ﴿**كل**﴾ مفعول به. ﴿**آية**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**لا يؤمنوا**﴾ مجزوم جواب الشرط. ﴿**بها**﴾ متعلق به. ﴿**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه**﴾ جملة شرطية معطوفة على الجملة الشرطية قبلها، وهي مثلها في الإعراب.

﴿**وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا**﴾ كذلك، وسبيلاً في الموضعين مفعول

ثانٍ. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بأنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل خبر أنّ. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا، والضمير فيه مضاف إليه، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء متعلق بمحذوف خبرُ ذلك، والتقدير: ذلك كائن بسبب تكذيبهم بآياتنا. ﴿**وكانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**عنها**﴾ متعلق بخبر كان. ﴿**غافلين**﴾، والجملة معطوفة على قوله: كذبوا بآياتنا. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كذبوا بآياتنا**﴾ صلة الذين. ﴿**ولقاء**﴾ معطوف على آياتنا. ﴿**الآخرة**﴾ مضاف إلى لقاء. ﴿**حبطت أعمالهم**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**هل**﴾ حرف استفهام فيه معنى النفي. ﴿**يجزون**﴾ مبني للمجهول. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء.

﴿**ما**﴾ في محل نصب بدل من المفعول المستثنى منه. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا صلة ما، وجملة هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون بيانية. ﴿**واتخذ قومُ موسى**﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿**من بعده من حليهم**﴾ متعلقان باتخذ. ﴿**عجلاً**﴾ مفعول به. ﴿**جسداً**﴾ نعت له. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**خوار**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة نعت ثانٍ لعجلاً، وهذه الجملة معطوفة على قوله: وواعدنا. ﴿**ألم**﴾ حرف الاستفهام دخل على حرف النفي. ﴿**يروا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**لا يكلمهم**﴾ جملة فعلية منفية بلا في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر، والتقدير: ألم ينظروا إلى ما كان عليه هذا الجسد من عدم النطق وعدم معرفة سبيل الحق؟!. ﴿**ولا يهديهم**﴾ معطوف على قوله: لا يكلمهم. ﴿**سبيلاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**اتخذوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وكانوا ظالمين**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على قوله: اتخذوه. ﴿**ولمّا**﴾ شرطية ظرفية. ﴿**سُقط**﴾ فعل ماض صيغ بصيغة المجهول. ﴿**في أيديهم**﴾ متعلق بسقط، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ورأوا**﴾ معطوف على سقط في أيديهم. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**قد ضلوا**﴾ الجملة في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر، والتقدير: ونظروا إلى حقيقة ضلالهم. ﴿**قالوا**﴾ جواب لمّا. ﴿**لئن**﴾ اللام موطئة للقسم، وإنْ شرطية. ﴿**لم يرحمنا**﴾ فعل مضارع منفي ومجزوم بلم، وجملة لم يرحمنا فعل الشرط. ﴿**ربنا**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويغفر**﴾ معطوف على يرحم. ﴿**لنا**﴾ متعلق بيغفر.

﴿**لنكونن**﴾ جواب للقسم سدّ مسد جواب الشرط. ﴿**من الخاسرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر نكوننّ. ﴿**ولمّا رجع موسى**﴾ جملة شرطية. ﴿**إلى قومه**﴾ متعلق برجع. ﴿**غضبان أسفا**﴾ منصوبان على الحال من موسى. ﴿**قال**﴾ جواب لمّا. ﴿**بئسما**﴾ ما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس خلافةٌ خلفتمونيها من بعدي خلافتكم!. ﴿**أعجلتم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**أمر**﴾ مفعول به. ﴿**ربّكم**﴾ مضاف إلى الأمر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وألقى**﴾ معطوف على رجع. ﴿**الألواح**﴾ مفعول به. ﴿**وأخذ**﴾ معطوف على ألقى. ﴿**برأس**﴾ متعلق بأخذ. ﴿**أخيه**﴾ مضاف إلى رأس، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يجره**﴾ في محل نصب حال من فاعل أخذ. ﴿**إليه**﴾ متعلق بيجره. ﴿**قال ابن**﴾ منادى، وحرف النداء محذوف منصوب بالفتحة.

﴿**أمَّ**﴾ مضاف إلى ابن. ﴿**إنّ**﴾ القوم إنّ واسمها. ﴿**استضعفوني**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**وكادوا**﴾ كاد واسمها. ﴿**يقتلونني**﴾ في محل نصب خبر كاد، والجملة معطوفة على قوله: استضعفوني. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريع، ولا ناهية. ﴿**تشمت**﴾ مجزوم بلا الناهية. ﴿**بي**﴾ متعلق بتشمت. ﴿**الأعداء**﴾ مفعول به. ﴿**ولا تجعلني**﴾ معطوف على تشمت. ﴿**مع**﴾ متعلق بتجعلني. ﴿**القوم**﴾ مضاف إلى مع. ﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم مجرور بالياء. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**رب**﴾ منادى. ﴿**اغفر**﴾ دعاء. ﴿**لي**﴾ متعلق باغفر. ﴿**ولأخي**﴾ معطوف على ياء المتكلم. ﴿**وأدخلنا**﴾ معطوف على اغفر. ﴿**في رحمتك**﴾ متعلق بأدخلنا. ﴿**وأنت**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أرحمُ**﴾ خبره. ﴿**الراحمين**﴾ مضاف إلى أرحم مجرور بالياء، وجملة وأنت أرحم الراحمين تذييلية. ﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**اتّخذوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**العجل**﴾ مفعول به. ﴿**سينالهم غضبٌ**﴾ غضبٌ فاعل ينال، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**من ربّهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لغضب، وجملة سينالهم في محل رفع خبر إنّ. ﴿**وذلّةٌ**﴾ معطوف على غضب. ﴿**في الحياة**﴾ متعلق بمحذوف نعت لذلّة. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مجرور بكسرة مقدّرة على الألف. ﴿**وكذلك نجزي المفترين**﴾ مِثْلُ لمحذوف نعت لمصدر مقدّر والمعنى نجزي المفترين جزاءً مِثْلَ الجزاء الذي حصل لهؤلاء. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**عملوا**﴾ صلة

الذين. ﴿**السيآت**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**ثم تابوا**﴾ معطوف على عملوا. ﴿**من بعدها**﴾ متعلق بتابوا. ﴿**وآمنوا**﴾ معطوف على تابوا.

﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من بعدها**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**غفور رحيم**﴾، والجملة تعليلية، والخبر مقدّر على هذا التعليل، والمعنى: والذين عملوا السيآت ثم تابوا يغفر الله لهم لأنّ ربّك غفور رحيم. ﴿**ولمّا سكت عن موسى الغضبُ**﴾ مثل ولمّا رجع موسى. ﴿**أخذ**﴾ جواب الشرط. ﴿**الألواح**﴾ مفعول به. ﴿**وفي نسختها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**هدى**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ورحمةٌ**﴾ معطوف عليه. ﴿**للذين**﴾ متعلق بمحذوف صفة لرحمة. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لربّهم**﴾ متعلق بما بعده من خبر المبتدإ. ﴿**يرهبون**﴾، وجملة هم صلة الذين، وجملة ولمّا سكت معطوفة على جملة ولمَّا رجع موسى، وجملة في نسختها هدى ورحمة في محل نصب حال من الألواح.

﴿**واختار موسى**﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: واتخذ قوم موسى. ﴿**قومه**﴾ مفعول به منصوب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**سبعين**﴾ بدل من قومه. ﴿**رجلاً**﴾ تمييز. ﴿**لميقاتنا**﴾ متعلق باختار، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فلمّا أخذتهم الرجفة**﴾ جملة شرطية مفرعة عما قبلها. ﴿**قال**﴾ جواب الشرط. ﴿**ربّ**﴾ منادى كما تقدم. ﴿**لو شئت**﴾ جملة شرطية. جوابها ﴿**أهلكتهم**﴾. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بأهلكتهم، وقبلُ مبني على الضم لنيّة معنى المضاف إليه. ﴿**وإيّاي**﴾ معطوف على الضمير المنصوب في أهلكتهم مبني على السكون، والياء حرف يدل على المتكلم. ﴿**أتهلكنا**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف الاستفهام، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير (أنت). ﴿**بما**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فعل السفهاء**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**منا**﴾ متعلق بمحذوف حال من السفهاء. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**فتنتُك**﴾ خبر المبتدأ. ﴿**تضل**﴾ فعل مضارع، والفاعل أنت. ﴿**بها**﴾ متعلق بتضل، والجملة بيانية. ﴿**مَن**﴾ في محل نصب مفعول تضل. ﴿**تشاء**﴾ صلة مَنْ. ﴿**وتهدي من تشاء**﴾ معطوف على تضل بها من تشاء. ﴿**أنت ولينا**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**فاغفر**﴾ فعل دعاء مرتب على ما قبله. ﴿**لنا**﴾ متعلق باغفر. ﴿**وارحمنا**﴾ معطوف على اغفر. ﴿**وأنت خير**﴾ مبتدأ وخبر.

﴿**الغافرين**﴾ مضاف إلى خير، والجملة تذييلية. ﴿**واكتب**﴾ معطوف على اغفر. ﴿**لنا في هذه**﴾ متعلقان باكتب. ﴿**الدنيا**﴾ بدل من اسم الإشارة مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**حسنة**﴾ مفعول به. ﴿**وفي الآخرة**﴾ معطوف على قوله: في هذه الدنيا. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هدنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**إليك**﴾ متعلق بهدنا. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**عذابي**﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى عذاب. ﴿**أصيب**﴾ فعل مضارع، والفاعل أنا، والجملة خبر المبتدإ، والجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب مقول القول. ﴿**به**﴾ متعلق بأصيب. ﴿**مَنْ**﴾ في محل نصب مفعول أصيب. ﴿**أشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل أنا، والجملة صلة مَنْ. ﴿**ورحمتي وسعت**﴾ معطوف على قوله: عذابي أصيب به. ﴿**كل**﴾ مفعول وسعت.

﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**فسأكتبها**﴾ فعل مضارع دخلت عليه فاء التفريع وسين التنفيس، والفاعل أنا، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به. ﴿**للذين**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**يتقون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**ويؤتون**﴾ معطوف على يتقون. ﴿**الزكاة**﴾ مفعول به. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الذين يتقون. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بالخبر بعده. وهو جملة ﴿**يؤمنون**﴾. ﴿**الذين**﴾ بدل من الموصول السابق. ﴿**يتبعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿**الرسول**﴾ مفعول يتبعون. ﴿**النبيء**﴾ وصف للرسول. وكذلك ﴿**الأمّيّ**﴾. ﴿**والذي**﴾ كلها أوصاف لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم. ﴿**يجدونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الذي. ﴿**مكتوباً**﴾ حال من الضمير المنصوب. ﴿**عندهم في التوراة**﴾ متعلقان بمكتوباً. ﴿**والإنجيل**﴾ معطوف على التوراة. ﴿**يأمرهم**﴾ فاعل يأمر ضمير يعود على الرسول والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بيأمر.

﴿**وينهاهم عن المنكر**﴾ معطوف على قوله: يأمرهم. ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ كل هذه الجمل معطوفة على قوله: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، والفاعل فيها ضمير يعود على النبيء الأمّيّ. ﴿**فالذين**﴾ الفاء فاء الفصيحة، والذين في محل

رفع مبتدأ. ﴿آمنوا﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿به﴾ متعلق بآمنوا. ﴿وعزروه ونصروه واتبعوا﴾ هذه الجمل معطوفة على قوله: آمنوا به. ﴿النور﴾ مفعول اتبعوا. ﴿الذي﴾ في محل نصب نعت للنور. ﴿أنزل﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الموصول. ﴿معه﴾ متعلق بأنزل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿هم﴾ ضمير فصل. ﴿المفلحون﴾ خبر أولئك مرفوع بالواو، وجملة أولئك هم المفلحون خبر قوله: فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿يا أيها الناس﴾ منادى. ﴿إنّي﴾ إنّ واسمها.

﴿رسولُ﴾ خبرُ إنّ. ﴿الله﴾ مضاف إلى رسول. ﴿إليكم جميعاً﴾ حال من الضمير المجرور، والجار والمجرور متعلق برسول. ﴿الذي﴾ في محل جر نعت لله. ﴿له﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿مُلك﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿السماوات﴾ مضاف إلى ملك. ﴿والأرض﴾ معطوف على السماوات، وجملة له ملك صلة الذي. ﴿لا إله﴾ لا واسمها. ﴿إلاّ هو﴾ بدل من الخبر المقدر، والتقدير: لا إله موجود إلاّ هو. ﴿يحيى﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿ويميت﴾ معطوف على يحيى، وجملة لا إله إلاّ هو، ويحي ويميت حالان من اسم الموصول. ﴿فآمنوا﴾ مفرع على ما قبله. ﴿بالله﴾ متعلق بآمنوا. ﴿ورسوله﴾ معطوف على الله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿النبيء﴾ نعت للرسول. ﴿الأمّيّ﴾ نعت ثان. ﴿الذي﴾ في محل جر نعت ثالث. ﴿يؤمن بالله﴾ صلة الذي. ﴿وكلماته﴾ معطوف على الله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿واتبعوه﴾ معطوف على آمنوا.

﴿لعلكم﴾ لعل واسمها. ﴿تهتدون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ. ﴿ومن قوم﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿موسى﴾ مضاف إلى قوم مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿أمّة﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿يهدون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع نعت لقوم. ﴿بالحق﴾ متعلق بيهدون. ﴿وبه﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿يعدلون﴾، وجملة ومن قوم موسى أمة معطوفة على قوله: واتخذ قوم موسى. ﴿وقطعناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول عطف على قوله: ومن قوم موسى. ﴿اثنتي عشرة﴾ مفعول ثانٍ لقطعنا منصوب بالياء. ﴿أسباطاً﴾ منصوب على

الحال من الضمير المنصوب. ﴿**أمماً**﴾ بدل من أسباطاً. ﴿**وأوحينا**﴾ فعل وفاعل معطوف على قطعناهم. ﴿**إلى موسى**﴾ متعلق بأوحينا. ﴿**إذ استسقاه قومه**﴾ الظرف متعلق بأوحينا، وقومه فاعل استسقى. ﴿**أن اضرب**﴾ جملة مفسرة لأوحينا. ﴿**بعصاك**﴾ متعلق باضرب. ﴿**الحجر**﴾ مفعول اضرب. ﴿**فانبجست**﴾ مُرتّب على فعل مقدر، والتقدير: فضرب فانبجست. ﴿**اثنتا عشرة**﴾ فاعل انبجست مرفوع بالألف. ﴿**عيناً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق قد. ﴿**وظللنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بظللنا. ﴿**الغمام**﴾ مفعول به.

﴿**وأنزلنا عليهم المن**﴾ معطوف على ظللنا، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**والسلوى**﴾ معطوف على المنّ منصوب بفتحة مقدرة على الألف. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**من طيبات**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى طيبات. ﴿**رزقناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. ﴿**وما ظلمونا**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي، وهو معطوف على فعل مقدر، والتقدير: فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك. ﴿**ولكن**﴾ استدراك معطوف على قوله: وما ظلمونا. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول مقدم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يظلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**وإذ**﴾ ظرف متعلق بفعل مقدر، واذكر إذ. ﴿**قيل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول.

﴿**لهم**﴾ متعلق به. ﴿**اسكنوا**﴾ فعل أمر. ﴿**هذه**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**القرية**﴾ عطف بيان لاسم الإشارة. ﴿**وكلوا**﴾ معطوف على اسكنوا. ﴿**منها**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**حيث**﴾ ظرف مبني على الضم متعلق بكلوا. ﴿**شئتم**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث. ﴿**وقولوا**﴾ معطوف على اسكنوا. ﴿**حطة**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وادخلوا**﴾. معطوف كذلك. ﴿**الباب**﴾ مفعول به. ﴿**سجداً**﴾ حال من الضمير المرفوع (واو الجماعة).

﴿**تغفر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**لكم**﴾ متعلق به. ﴿**خطيآتكم**﴾ نائب الفاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**سنزيد**﴾ فعل مضارع دخل

عليه حرف التنفيس، والفاعل نحن. ﴿**المحسنين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**فبدّل الذين**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**ظلموا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المرفوع. ﴿**قولاً**﴾ مفعول به. ﴿**غير**﴾ نعت له. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى غير. ﴿**قيل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**لهم**﴾ متعلق به، وجملة قيل لهم صلة الذي. ﴿**فأرسلنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**رجزاً**﴾ مفعول به. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرجز. ﴿**بما**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يظلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يظلمون صلة ما. ﴿**واسألهم**﴾ فعل أمر موجه للمخاطب، والضمير المتصل مفعول به، والجملة معطوفة على قوله: وإذ قيل لهم اسكنوا. ﴿**عن القرية**﴾ متعلق باسألهم. ﴿**التي**﴾ في محل جر نعت للقرية. ﴿**كانت**﴾ اسم كان ضمير يعود على القرية. ﴿**حاضرة**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة. ﴿**البحر**﴾ مضاف إلى حاضرة. ﴿**إذ**﴾ ظرف.

﴿**يعدون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضاف إلى إذ. ﴿**في السبت**﴾ متعلق بيعدون، والظرف متعلق بالسؤال. ﴿**إذ تأتيهم حيتانهم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه الظرف، وهو متعلق بيعدون. ﴿**يوم**﴾ متعلق بتأتي. ﴿**سبتهم**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**شرعا**﴾ منصوب على الحال من الحيتان. ﴿**ويوم لا يسبتون لا تأتيهم**﴾ الفعل المنفي متعلق به الظرف، والجملة معطوفة على قوله: إذ تأتيهم حيتانهم. ﴿**كذلك**﴾ الكاف نعت لمصدر مقدر مأخوذ من نبلوهم، والتقدير: ﴿**نبلوهم**﴾ بلاءً مثلَ هذا البلاء. ﴿**بما**﴾ متعلق بنبلوهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفسقون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يفسقون صلة ما. ﴿**وإذ قالت أمة**﴾ فعل وفاعل مضاف إلى اسم الزمان، والجملة معطوفة على قوله: إذ يعدون في السبت. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأمة. ﴿**لِمَ**﴾ ما اسم استفهام دخل عليه لام الجر، وحذف الألف تخفيفاً. ﴿**تعظون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**قوماً**﴾ مفعول به. ﴿**اللهُ مهلكُهم**﴾ مبتدأ وخبر، والضمير في مهلكهم مضاف إليه. ﴿**أو معذبُهم**﴾ معطوف على مهلكهم، وجملة الله مهلكهم في محل نصب نعت لقوماً.

﴿**عذاباً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**شديداً**﴾ نعت لعذاباً. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل.

﴿**معذرة**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: موعظتنا معذرة. ﴿**إلى ربّكم**﴾ متعلق بمعذرة. ﴿**ولعلّهم يتقون**﴾ جملة من لعل واسمها وخبرها معطوفة على قوله: معذرة. ﴿**فلما**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**نسوا**﴾ فعل الشرط. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول نسوا. ﴿**ذُكروا**﴾ صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بذكروا. ﴿**أنجينا الذين**﴾ فعل وفاعل ومفعول جواب لمّا. وجملة ﴿**ينهون عن السوء**﴾ متعلق بينهون. ﴿**وأخذنا الذين**﴾ معطوف على أنجينا، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**ظلموا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿**بعذاب**﴾ متعلق بأخذنا. ﴿**بيس**﴾ نعت لعذاب. ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾ سبق إعراب مثلها قريباً. ﴿**وإذ تأذّن ربُّك**﴾ فعل وفاعل مضاف إلى اسم الزمان، عطف على جملة واسألهم بتقدير اذكر. ﴿**ليبعثنّ**﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدّر، والفعل المضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ربّك. ﴿**عليهم إلى يوم القيامة**﴾ متعلقان بالفعل قبله. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**يسومهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة مَنْ. ﴿**سوء**﴾ مفعول به. ﴿**العذاب**﴾ مضاف إلى سوء، وجملة ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لسريع**﴾ خبر إنّ. دخل عليه حرف التوكيد. ﴿**العقاب**﴾ مضاف إلى سريع، وجملة إنّ ربّك تعليلية. ﴿**وإنّه لغفور**﴾ معطوف على إنّ ربّك، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**رحيم**﴾ خبر ثانٍ. ﴿**وقطعناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ما سبق من الكلام. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بقطعناهم. ﴿**أمماً**﴾ مفعول ثانٍ لقطّعنا. ﴿**منهم الصالحون**﴾ مبتدأ وخبر.

﴿**ومنهم دون ذلك**﴾ معطوف على قوله: منهم الصالحون، والمعنى: بعضُهم الصالحون وبعضُهم دون ذلك. ﴿**وبلوناهم**﴾ معطوف على قطعناهم. ﴿**بالحسنات**﴾ متعلق ببلوناهم. ﴿**والسيآت**﴾ معطوف على الحسنات. وجملة ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ تعليلية. ﴿**فخلف**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التفريع. ﴿**من بعدهم**﴾ متعلق بخلف. خلْفٌ فاعل. ﴿**ورثوا الكتاب**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع نعت لخلْف. ﴿**يأخذون**﴾ فعل وفاعل، والجملة بيانية. ﴿**عرض**﴾ مفعول به. ﴿**هذا**﴾ في محل جر مضاف إلى عرض. ﴿**الأدنى**﴾ بيان لهذا مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**ويقولون**﴾ معطوف على يأخذون.

﴿سيُغفر﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على فعلهم القبيح. **﴿لنا﴾** متعلق بيُغفر.

﴿وإن يأتِهم عرضٌ مثلُه يأخذوه﴾ جملة فعل الشرط وجوابه معطوفة على ما قبلها. **﴿ألم يؤخذ﴾** فعل مضارع مبنيّ للمجهول مجزوم بلم دخلت عليه همزة الاستفهام. **﴿عليهم﴾** متعلق بيؤخذ. **﴿ميثاق﴾** نائب فاعل يؤخذ. **﴿أن لا يقولوا﴾** فعل مضارع منفي بلا منصوب بأَنْ. **﴿على الله﴾** متعلق بيقولوا. **﴿إلاّ الحق﴾** بدل من مفعول يقولوا، وجملة أن لا يقولوا بيانية. **﴿ودرسوا﴾** فعل وفاعل معطوف على قوله: ألم يؤخذ عليهم. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول درسوا. **﴿فيه﴾** متعلق بمحذوف صلة ما. **﴿والدارُ﴾** مبتدأ. **﴿الآخرةُ﴾** نعت للدار. **﴿خير﴾** خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حالية. **﴿للذين﴾** متعلق بخير. **﴿يتقون﴾** الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. **﴿أفلا﴾** الهمزة للاستفهام، والفاء للتعقيب، ولا للنفي. **﴿تعقلون﴾** فعل وفاعل. **﴿والذين﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿يمسّكون﴾** صلة الذين. **﴿بالكتاب﴾** متعلق بيمسّكون. **﴿وأقاموا الصلاة﴾** فعل وفاعل ومفعول معطوف على يمسّكون. **﴿إنّا﴾** إنّ واسمها. **﴿لا نضيع﴾** فعل مضارع منفيّ بلا والفاعل نحن، والجملة في محل رفع خبرُ إنّ. **﴿أجر﴾** مفعول به. **﴿المصلحين﴾** مضاف إلى أجر، والجملة تعليل للخبر المقدر، والتقدير: والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة نأجرهم لأجل صلاحهم؛ لأنا لا نضيع أجر المصلحين. **﴿وإذ نتقنا الجبل﴾** فعل وفاعل ومفعول مضاف إلى اسم الزمان، والجملة معطوفة على الجمل قبلها. **﴿فوقهم﴾** متعلق بنتقنا. **﴿كأنّه﴾** كأنّ واسمها. **﴿ظلّة﴾** خبر كأنّ. **﴿وظنّوا﴾** فعل وفاعل معطوف على نتقنا. **﴿أنّه﴾** أنّ واسمها. **﴿واقع﴾** خبرها. **﴿بهم﴾** متعلق بواقع، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ظنّوا، والتقدير: تيقنوا وقوع الجبل بهم. **﴿خذوا﴾** فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل نصب مقول لقول مقدر. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول خذوا. **﴿آتيناكم﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. **﴿بقوة﴾** متعلق بخذوا. **﴿واذكروا ما فيه﴾** معطوف على خذوا ما آتيناكم، وهو مثله في الإعراب. **﴿لعلكم تتقون﴾** تقدم إعراب مثلها.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف. مناسبة الاتصال: لمّا ذكر الله تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها في المصريين عطف عليه بيان عاقبتها وتأويلها في بني إسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة. والقوم الذين كانوا يُستضعفون هم بنو إسرائيل. والعدول عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين: أولاهما الإيماء إلى علة الخبر.

الثانية بشارة المؤمنين بمحمد ﷺ بأنّهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل جزاءً على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم. والمشارق والمغارب جُمع باعتبار تعدد الجهات. والأرض أرض الشام، فهي التي وصفت بالبركة في كثير من الآيات... ﴿**وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا**﴾: اتصال الكلام بما قبله بالعطف. والمقصود من هذا الخبر هو قوله: بما صبروا، تنويهاً بفضيلة الصبر وحسن عاقبته. وبذلك الاعتبار عطفت هذه الجملة على التي قبلها. والخطاب في قوله: ربّك للنبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أُدمج في ذكر القصة إشارة إلى أنّ الذي حقق نصر موسى وأمته على عدوهم هو ربك، فسينصرك وأمتك على عدوكم. وعدّي فعل التمام بعلى للإشارة إلى تضمين تمت معنى الإنعام... ﴿**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾: اتصل الكلام بما قبله بالعطف.

وإسناد الصنع إلى فرعون مجاز عقلي؛ لأنّه الآمر بالصنع. وما كانوا يعرشون: يرفعون من المباني العظام، وهو المناسب لفعل دمّرنا؛ شبّه البناء المرفوع بالعرش؛ لرفعته وعظمته. وصيغة المضارع في الخبرين عن كان للدلالة على التجديد والتكرر... ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر**﴾: لمّا تمت العبرة بقصة بعث موسى إلى فرعون وكيف نصره الله عليه، استرسل الكلام إلى وصف بني إسرائيل. ومعنى جاوزنا ببني إسرائيل البحر: قدّرنا لهم جوازه ويسرناه لهم... ﴿**فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم**﴾: أتوا متضمن معنى مرّوا فعُدّي بعلى؛ لأنّهم لم يقصدوا الإقامة في القوم. وتعدية العكوف بحرف على لما فيه من معنى النزول والتمكن. وتنكير أصنام للتحقير. ووصفها بأنّها لهم تحقير لهم لأنّهم

يعبدون ما يملكون. . . ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**﴾: فصلت الجملة هنا عما قبلها لوقوعها موقع المحاورة.

ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه إظهاراً لرغبتهم فيما سيطلبون. والتشبيه في قوله: كما لهم آلهة أرادوا به حض موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجاً بما رأوا من حال القوم. . . ﴿**قال إنّكم قوم تجهلون**﴾: جواب المحاورة، ولذلك فصلت. وكان وصف موسى إيّاهم بالجهالة مؤكّداً لما دلّت عليه الجملة الإسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة في نفوسهم، فالخبر مستعمل في معنييه: الصريح والكناية. . . ﴿**إنّ هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**﴾: جملة إنّ هؤلاء متبر ما هم فيه بمعنى التعليل لمضمون جملة إنّكم قوم تجهلون، فلذلك فصلت عنها، وقد أُكّدت وجُعِلت اسمية مثل الأغراض التي ذكرت في أختها. وقد عُرّف المسند إليه بالإشارة لتمييزهم بتلك الحالة التي هم متلبسون بها أكمل تمييز، وللتنبيه على أنّهم أحرياء بما يرد بعد اسم الإشارة من الأوصاف. وقدّم المسند وهو متبر على المسند إليه وهو ما هم فيه ليفيد تخصيصه بالمسند إليه. والتعبير هنا مستعار لفساد الحال وسوء العاقبة. شبه حالهم المزخرف ظاهرة بحال الشيء البهيج الآيل إلى الفساد والدمار. والظرفية مجازية مستعارة للملابسة. وباطل مصدر يفيد الإخبار به المبالغة في بطلانه؛ لأنّ المقام مقام التوبيخ والمبالغة في الإنكار. . . ﴿**قال أغير الله أبغيكم إلهاً**﴾: هذا تكملة للجواب، وانتقال من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم، وهو من الارتقاء في الاستدلال.

والاستفهام للإنكار والتعجيب من طلبهم. وقدم المفعول الثاني للاختصاص. وأدخل عليه همزة الاستفهام دلالة على أنّ محل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلهاً. وأصل الكلام في أبغيكم أبغي لكم على طريقة الحذف والإيصال. وجملة ﴿**وهو فضلكم على العالمين**﴾ في موضع الحال، وحين كان عاملها محل إنكار باعتبار معموله؛ كانت الحال أيضاً داخلة في حيز الإنكار ومقررة لجهته. ومجيء المسند فعلياً ليفيد تقديم المسند إليه عليه تخصيصه بذلك الخبر الفعلي، والمعنى: وهو فضلكم، لم تفضلكم الأصنام، فكأنّ الإنكار عليهم تَحْمِيقاً لهم في أنّهم مغمورون في نعمة الله ويطلبون عبادة من لا يُنْعِم. . . ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب**﴾: كلمة وإذ أنجيناكم تصلح خطاباً لقوم موسى، وتصلح

خطاباً لليهود المعاصرين لزمن النزول. وضمير المتكلم المشارك يعود إلى الله وموسى عندما يكون المخاطبون قوم موسى المعاصرون له، ويكون ضمير المتكلم لله سبحانه عندما يكون المخاطبون اليهودَ المعاصرين لزمن النزول، والمقام صالح للأمرين، وهذا الإيجاز من الإعجاز!.

يسومونكم سوء العذاب: بيان لما كان فيه بنوا إسرائيل من القهر والمذلة... ﴿**يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾: بيان لأخصّ وأخسّ القهر!.. ﴿**وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم**﴾: قتل الأبناء واستحياء النساء!. وأيُّ بلاء أعظم من هذا البلاء؟!.. ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف، فبعد ما انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل من أجلها، تأتي المرحلة الثانية، وهي تفصيل الرسالة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه، ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لموسى في الميقات المحدد والمكان المعد، وقد جعلها الله أولاً ثلاثين ليلة تيسيراً عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقاً ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة... ﴿**وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة**﴾: والعرب يعدون الوقت بالليالي؛ لأنّ مبدأ الشهر يعلم بظهور الهلال، وهو لا يكون إلاّ ليلاً...

﴿**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾: هذا أمر من موسى لأخيه جامع لما يتعيّن عليه عمله من أعماله في سياسة القوم، وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة. والاتباع هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد، وفي هذا سدٌّ لذريعة الفساد... ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف، ولمّا ظرف متضمن معنى الشرط، وجوابه: قال ربّ أرني أنظر إليك. ومِن دِلاَلَة لَمَّا شِدَّةُ الارتباط بين شرطها وجوابها. ومفعول أرني محذوف لدلالة الضمير المجرور عليه. وفُصل قوله: قال لن تراني لأنّه واقع في طريق المحاورة. ولَنْ يُسْتَعْمَل لتأييد النفي، ولتأكيد النفي في المستقبل.

ولا دلالة في هذا النفي على استمراره في الدار الآخرة. والاستدراك المستفاد من لكن لرفع توهم المخاطب الاقتصار على نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع.

وعلق الشرط بحرف إنْ؛ لأنّ الغالبَ استعمالُها في مقام ندرة وقوع الشرط أو التعريض بتعذره. . . **﴿فلمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكّاً﴾**: الكلام مرتب على ما قبله. والتجلي حقيقته الظهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجاز. . . **﴿وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾**: الكلام متصل بما قبله بالعطف، ورتب عليه فلما أفاق قال سبحانك. .الخ. وهذا الكلام ظاهر معناه من حيث اللغة، وما نجد فيه من خلاف هنا بين المفسرين إنّما وقع باعتبار المذاهب والآراء. . . **﴿قال ياموسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي﴾**: فصلت هذه الجملة لوقوعها في طريق المحاورة. والنداء للتأنيس وإزالة الروْع. وتأكيد الخبر للاهتمام به. والمراد بالناس الموجودون في زمن موسى. والرسالة الشريعة. والكلام ما خص به موسى، فهو عطف خاص على عام. . . **﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾**: مفرع على قوله: برسالتي وبكلامي، فالأول تفريع على الإرسال والتكليم، والثاني على الامتنان.

والأخذ مجاز في التلقي والحفظ. والإيتاء مجاز في التعليم والإرشاد. وقوله: وكن من الشاكرين أبلغ من قوله: كن شاكراً. . . **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾**: الكلام متصل بما قبله بالعطف. وأسندت الكتابة إلى الله لأنّها لم تكن من صنع إنسان، والمقصود من كل شيء ما يحتاجون إليه من أمور الدين. . . **﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾**: هذا ما تشتمل عليه الألواح، وهو الإرشاد والتحريض والتحذير، وتوضيح الأحكام بالتفصيل. . . **﴿فخذها بقوة﴾**: لمّا كان ما في الألواح مُهِمّاً ومُفِيداً عقّب عليه الأمر لموسى بأن يأخذه بقوة؛ فالأخذ هنا مجاز في التلقي والحفظ. وفي الأسلوب تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الألواح بمنتهى الجد والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده. . . **﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾**: الأخذ هنا مجاز في التمسك والعمل، ولذلك عُدِّيَ بالباء الدالة على اللصوق، يقال: أخذ بكذا إذا تمسك به وقبض عليه.

والفرق بين قوله: فخذها وبين قوله: وأمر قومك يأخذوا بأحسنها فإنّ الأول حظ ولي الأمر، والثاني حظ جميع الأمة، فولي الأمر يتلقاها ويحفظها ويُعلِّمُها، والأمّة تتمسك وتعمل بها. والأحسن هنا وصف مسلوب المفاضلة، مقصود به

المبالغة في الحسن. . . ﴿**سأريكم دار الفاسقين**﴾: الكلام هنا وعد لموسى وقومه بأن يفتحوا ديار الأمم الحالة بالأرض المقدسة التي وعدهم الله بها. والعدُول عن تسمية الأمم بأسمائهم إلى التعبير عنهم بوصف الفاسقين؛ لأنه أدل على تسبب الوصف في المصير الذي صاروا إليه، ولأنّه أجمع وأوجز. . . ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾: جملة مستأنفة تبين حال كل من يتكبر ويعرض عن آيات الله من السابقين أو اللاحقين. وتقديم المجرور على مفعول أصرف للاهتمام بالآيات، ولأنّ ذكره عقب الفعل المتعلق هو به أحسن. وتعريف المصروفين عن الآيات بطريق الموصولية للإيماء بالصلة إلى علة الصرف. والتكبر: الاتصاف بالكبر، وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف، والمعنى: أنّه يعجبون بأنفسهم ويعدون أنفسهم عظماء فلا يأتمرون لآمِرٍ ولا ينتصحون لناصح. وزيادة قوله في الأرض لتفضيح تكبرهم والتشهير بهم. وقوله: بغير الحق زيادة لتشنيع التكبر بذكر ما هو صفة لازمة له، وهي حال لازمة للتكبر كاشفة لوصفه. . .

﴿**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا**﴾: هذه الجمل الثلاث متصلة بما قبلها بالعطف، جاءت على طريقة الإطناب لتوضيح هذه الصفات. والسبيل مستعار لوسيلة الشيء، والرؤية مستعارة للإدراك، والاتخاذ مستعار للملازمة. والتعبير في الصلات الأربع بالأفعال المضارعة لإفادة تجدد تلك الأفعال منهم واستمرارهم عليها. وجملة ﴿**ذلك بأنّهم كذبوا بآياتنا**﴾: تُبيّنُ وتوضح السبب الأصلي من حالهم التي هم عليها، والمشار إليه بذلك ما تضمنه الكلام السابق. وجيء بأن المصدرية المؤكدة المقترنة بباء السببية لتحقيق هذا التسبب وتأكيده؛ لأنّه محل غرابة. وجيء بالفعل الماضي (كذبوا) ليفيد أنّ وصف التكذيب قديم راسخ فيهم. وجيء بصيغة ﴿**وكانوا عنها غافلين**﴾ للتنبيه على أنّ غفلتهم عن قصد، وللدلالة على استمرار غفلتهم، وكونها دأباً لهم. . .

﴿**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون**﴾: هذا الكلام جاء تذييلاً على قوله: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون. . . الخ. يبيّن القاعدة العامة: أنّ الأعمال لا تصلح ولا تفيدُ مَنْ كَذَّبَ

بالآيات، وكذَّب بلقاء الآخرة، فأشير إلى أنّ التكذيب هو سبب حبطِ أعمالهم بتعريفهم بطريق الموصولية دون الإضمار، مع تقدم ذكرهم المقتضي بحسب الظاهر الإضمار، فخولف مقتضى الظاهر لذلك، وليدخل تحت هذه القاعدة غيرُهم من كل من يتكبر ويكذّب، فلا يُجْزَى أحد إلاّ بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. . . ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن. ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي؛ لأنّهم الآمرون باتخاذه والحريصون عليه، وهو مجاز شائع في كلام العرب. ومعنى اتخذوا عجلاً: صورة عجل، وهذا من مجاز الصورة، وهو شائع في الكلام. والجسَد: الجسم الذي لا روح فيه، فهو خاص بجسم الحيوان، والمراد أنّه كجسم العجل في الصورة والمقدار. ووصف العجل بوصفين: التجسد، والتصويت لتوضيح صورة هذا العجل. . . ﴿**ألم يروا أنّه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً**﴾: الاستفهام للتقرير والتعجيب من حالهم، وتسفيه لهم.

وجملة ﴿**اتخذوه**﴾ مؤكّدةٌ لجملة واتخذ قوم موسى، فلذلك فصلت. والغرض من التوكيد في مثل هذا المقام هو التكرير لأجل التعجيب. وجملة ﴿**وكانوا ظالمين**﴾ في موضع الحال لإظهار هذا التعدي وتوضيحه بالمقال. . . ﴿**ولَمّا سقط في أيديهم**﴾: هذه الكلمة أجْرَاهَا القرآنُ مجرى المثل، إذ نظمت على إيجاز بديع، وكناية، واستعارة. ولمّا كان ذكر فاعل السقوط المجهول لا يزيد على كونه مشتقاً من فعله ساغَ أن يُبْنَى فعله للمجهول، فمعنى سُقط في يده: سَقط في يده ساقطٌ فأبطل حركتها، وذلك كناية عن كونه قد فجأه ما أوجب حيْرَتَه في أمره، وهو مِثْلُ ما يُقال: فُتَّ في عضده. وجملة ﴿**قالوا لئن لم يرحمنا ربّنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين**﴾: جواب لمّا، وفيها معنى الشرط والقسم، وهي تحمل عدّة مؤكّدات تظهر لكل متأمل في هذه العبارات! . . ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي**﴾: المعلوم من سياق القصة أنّ رجوع موسى إلى قومه وقع قبل قوله: ولما سقط في أيديهم. . . الخ غير أنه قدّمه ليرتبط السياق بعضه ببعض، فقرن حكاية اتخاذهم العجل بحكاية ما حصل لهم للمبادرة ببيان انكشاف ضلالهم تنهية لقصة حالهم، وقُيّد رجوع موسى بالغضب والأسف؛ لأن موسى علم بحالهم عن طريق الوحي.

والأَسَفُ بدون مد صيغة مبالغة للأسف بالمدّ الذي هو اسم فاعل للذي حل به الأسف، وهو الحزن الشديد. قال: بئسما، بئسما ضدّ نِعِمَّا، فهي تدل على شدة الذمّ. ونعمّا تدل على شدّة المدح. والخطاب شامل للقوم جميعاً. وإطلاق الخلافة هنا مجاز. وزيادة من بعدي عقب خلفتموني للتذكير بالبَوْنِ الشاسع بين حال الخلف وحال المخلوف عنه تصوير لفظاعة ما خلفوه به... ﴿**أعجلتم أمر ربّكم**﴾؟: استغراب لِمَا وقَع منهم حيث بادروا بمخالفة أمر الله وتعرَّضُوا لعقابه... ﴿**وألقى الألواح**﴾: إلقاءُ الألواح إظهارٌ للغضب، ودليل على فظاعة ما حصل منهم... ﴿**وأخذ برأس أخيه يجره إليه**﴾: هذا يزيدُ توضيحاً على شدة غضب موسى على قومه جميعاً... ﴿**قال ابن أمَّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾: فصلت جملة قال ابن أم لوقوعها جواباً لحوار مقدّر دل عليه قوله: وأخذ برأس أخيه يجره إليه؛ لأنّ الشأن أن ذلك لا يقع إلا مع كلام توبيخ، وابن أم منادى بحذف حرف النداء، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع.

واختيار التعريف بالإضافة لتضمن المضاف إليه معنى التذكير بصلة الرحم، وفتح الميم في ابن أمَّ لغة مشهورة في المنادى المضاف إلى أم أو عم، وذلك بحذف ياء المتكلم وتعويض ألف عنها في آخر المنادى، ثم يحذف ذلك الألف تخفيفاً. وكلمة فلا تشمت بي الأعداء كلمة جرت مجرى المثل في الشيء الذي يُلحق بالمرْءِ سُوءاً شديداً... ﴿**قال ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين**﴾: هذا جواب عن كلام هارون، فلذلك فصلت الجملة. وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عَبَدَةِ العجل عن ذلك.

وذِكْرُ وصفِ الأخوّة زيادة في الاستعطاف. والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما. وجملة وأنت أرحم الراحمين تذييل مقرر لما قبله... ﴿**إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين**﴾: هذه الجملة جواب عن دعاء موسى بتقدير القول، وتعريفهم بطريق الموصولية لأنّها أخصر طريق في استحضارهم بصفة

عُرِفُوا بها، ولأنّه يؤذن بسببية ما نالهم من العقاب، ولذلك جرى عليهم الحكم العام: وكذلك نجزي المفترين... ﴿**والذين عملوا السيآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم**﴾: هذا متصل بما قبله بالعطف، ليتحقق الترغيب بالتوبة مع الترهيب من البقاء في الافتراء. إنّه حكم ووعد: إنّ القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلة في الحياة الدنيا، ذلك مع قيام القاعدة العامة: إنّ الذين يعملون السيآت ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته، هذا تعقيب يتوسط مشاهد القصة ليصدر الحكم بعد الواقعة. ثم يمضي السياق مع القصة في طور جديد... ﴿**ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**﴾: التعبير هنا يشخص الغضب، فكأنّما هوَ حيٌّ، وكأنما كان مسلطا على موسى يدفعه ويحركه، ثم سكت عنه وتركه لشأنه، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المُغْري على طريقة الاستعارة المكنية. والتعريف في الألواح للعهد، وهي التي ألقاها من قبل، وهي الألواح المكتوب فيها الهدى والرحمة لكل من يرهب ويخشى الله. واللام في لربّهم لام التقوية... ﴿**واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**﴾: هذا معطوف على قوله: واتخذ قوم موسى، عطف قصة على قصة.

ويمضي السياق بالقصة فإذا نحن أمام مشهد جديد، مشهد موسى وسبعين مختارين للقاء ربّه. والتعبير هنا يعطينا أنّ هؤلاء السبعين هم الخلاصة بهذه الصيغة «واختار موسى قومه سبعين رجلا»، والصيغ في القرآن لا تأتي جزافاً. وفرق بين هذه الصيغة وصيغة مثل: واختار موسى من قومه. ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين؟. لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا، وذلك عندما طلبوا من موسى ما تحدّث عنه القرآن في سورة البقرة: «وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون... الخ». والظاهر من السياق أنها هي هي، وليست حادثة أخرى في تاريخ بني إسرائيل. والأقرب من جو السياق أنّ هذا الميقات لأجل إعلان التوبة وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الخطيئة... ﴿**فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي**﴾: صيغ هذا الكلام على نحو ما صيغ عليه ما سبقه من الشرط والجزاء، وهو تعقيب مرتب على سبب.

والأخذ هنا مجاز في الإصابة الشديدة. ولو شئت أهلكتهم شرط وجوابه...

﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾: الاستفهام مستعمل في التفجُّع والتوقع. والباء في قوله: بما فعل للسببية. والسفهاء مَنْ عبدوا العجل، ومن طلبوا رؤية الله جهرة... ﴿**إن هي إلاّ فتنتك تضل بها من تشاء**﴾: الفتنة هنا الاختبار والامتحان حتى لا يلتبس الضال والمهتدي... ﴿**وتهدي من تشاء**﴾: معطوف على قوله: تضل بها من تشاء... ﴿**أنت ولينا**﴾: القصد منه الاعتراف بعبادة الله وحده، فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا... ﴿**فاغفر لنا وارحمنا**﴾: تفريع على قوله: أنت ولينا، وقدّم المغفرة على الرحمة من باب تقديم التخلية على التحلية... ﴿**وأنت خير الغافرين**﴾: تذييل مقرر لما قبله من الدعاء... ﴿**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هدنا إليك**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف. واكتُبْ مستعار لمعنى العِطاءِ المحقق حصوله، المتجدد مرة بعد مرة. وجملة إنّا هدنا إليك مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة، ولذلك فصلت.

والتوكيد بإن للاهتمام، فهي تربط بين الكلام ربطاً محكّماً... ﴿**قال عذابي أصيب به من أشاء**﴾: فصلت الجملة لوقوعها جواباً لدعاء موسى. والعذاب عذاب الدنيا الذي يحل بالمخالفين. والتعبير بالمضارع لتجدده بتجدد المخالفة بالكفر والعصيان... ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾: معطوف على قوله: عذابي أصيب به من أشاء. وعبر بجانب الرحمة بالماضي لثبوته أزلاً وأبداً؛ إيذاناً بأنّ الرحمة مقتضى الذات... ﴿**فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾: التفريع في قوله: فسأكتبها تفريع على سعة الرحمة. وعُلِمَ من السياق أنّ هذا النوع من الرحمة نوع عظيم بقرينة الثناء على متعلقها بصفات تؤذن باستحقاقها، والمعنى أن الرحمة التي سألها موسى له ولقومه وعد الله بإعطائها لمن كان منهم متصفاً بأنّه من المتقين، والمؤتين الزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله... ﴿**الذين يتبعون الرسول النبيء الأمّيّ**﴾: بدل من قوله: فسأكتبها للذين يتقون... الخ، وهو إشارة إلى اليهود والنصارى الكائنين في زمن البعثة وبعدها، فهذه الرحمة العظيمة تختص بالذين آمنوا بالنبيء محمد ﷺ من اليهود والنصارى وغيرهم.

وتقديم وصف الرسول على النبي؛ لأنّه الوصف الأخص الأهم، ولأن في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب. والأميّة وصف خص الله به مِن رسله

محمداً ﷺ إتماماً للإعجاز العلمي والعقلي الذي أيده الله به، فجعل الأميّة وصفاً ذاتيا له ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة؛ ليظهر أنّ كماله النفساني كمال لَدُنيّ إلهيٌّ، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، ولذلك كانت الأمية وصْفَ كمال في محمد ـ صلى الله عليه وسلم -. . . **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**: معنى يجدونه مكتوباً عندهم: وجدان صفاته ونعوته التي لا يشبهه فيها غيرُه، فجعلت خاصته بمنزلةِ ذاته، وأطلق عليها ضمير الرسول النبيء الأمّيّ مجازاً بالاستخدام، وإنّما الموجود نعته ووصفه، والقرينة قوله مكتوباً؛ فإنّ الذات لا تُكتَب.

وعدل عن التعبير بالوصف للدلالة على أنّهم يجدون وصفاً لا يقبل الالتباس. . . **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾**: هذا بيان للمكتوب عندهم في التوراة والإنجيل. والمقصود من هذه الصفات تعريفهم بها لتدلهم على تعيين الرسول بالنبيء الأميّ عند مجيئه بِشَرِيعَةٍ هذه صفاتها. . . **﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب مقدّر، والتقدير: إذا كان هذا النبيء كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أنّ الذين آمنوا به. . . الخ.

واتّباع النور تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن؛ شبّه حال المقتدي بهدي القرآن بحال الساري في الليل إذا رأى نوراً يلوح له اتبعه، لعلمه بأنّه يجد عنده منجاة من المخاوف وإصرار السير. وأجزاء هذا التمثيل استعارات: فالاتباع مستعار للاقتداء، وهو مجاز شائع فيه. والنور يصلح مستعاراً للقرآن؛ لأنّ الشيء الذي يُعلّم الحق والرشد يُشبّه بالنور، وأحسن التمثيل ما كان صالحاً لاعتبار التشبيهات المفردة في أجزائه. والإشارة في قوله: أولئك هم المفلحون للتنويه بشأنهم، وللدلالة على أنّ المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يُخبر به عنهم بعد اسم الإشارة، والسياق يؤذن بقصر الفلاح على هؤلاء. . . **﴿قل ياأيّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً﴾**: هذه الجملة معترضة بين قصص بني إسرائيل، جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرسول الأمّيّ، تذكيراً لبني إسرائيل بما وعد الله به موسى، وإيقاظاً

لأفهامهم بأنّ محمداً ﷺ هو مصداق الصفات التي علَّمها اللهُ موسى. والخطاب بيا أيّها الناس لجميع البشر.

وتأكيد الخبر بإنّ باعتبار أنّ في جملة المخاطبين منكرين ومترددين استقصاءً في إبلاغ الدعوة إليهم. وتأكيد ضمير المخاطبين بوصف جميعاً الدال نصّاً على العموم لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل... ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض**﴾: نعت لاسم الجلالة دالٌ على الثناء. وتقديم المجرور للقصر. وجملة... ﴿**لا إله إلاّ هو**﴾: قصر حقيقي لتحقيق صفة الوحدانية. وكذلك قوله: ﴿**يحيى ويميت**﴾. والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة تذكير اليهود ووعظهم حيث جحدوا رسالة محمدٍ ﷺ وزعموا أنّه لا رسول بعد موسى...

﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبيء الأمّيّ**﴾: تفريع على ما ذكر قبله بهذا الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرسول. وفي قوله: ورسوله النبيء الأمّي التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد - صلى الله عليه وسلم -... ﴿**الذي يؤمن بالله وكلماته**﴾: جاءت هذه الصفة بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنّه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب؛ لأنّ هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان التي أنزلها الله على رسله... ﴿**واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾: هذه هي خلاصة الأمر بالإيمان بهذا الرسول، فاتباعُه شرط في كل ما جاء به هو الاهتداء الحق، وهذا ما نطق به موسى عليه السلام بقوله: إنّا هدنا إليك...

﴿**ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف، يبيّن الله فيه أوصاف أتباع موسى الذين كانوا في عصره وبعده إلى أن جاءت الرسالة الناسخة الخاتمة. وتقديم المجرور في قوله: وبه يعدلون للاهتمام بالعدل، ولرعاية الفاصلة... ﴿**وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً**﴾: عطف على قوله: ومن قوم موسى أمة... الخ. والقصد من اشتراكه في السياق ما فيه من العظات والعِبَر. ومثله قوله: ﴿**وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا**

عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: ومثله تقدم في سورة البقرة: **﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تغفر لكم خطيآتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾**، هذه الآية نظير ما في سورة البقرة إلاّ أنّه غيّر في هذه الآية بقوله: اسكنوا، وفي سورة البقرة ادخلوا؛ لأنّ القولين قيلا لهم، وفرق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجداداً لنشاط السامع. وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا: وكلوا وفي البقرة فكلوا، فالفاء للتعقيب تتناسب مع سياق صورة البقرة وهو التوبيخ لما هو أدل على المنة.

والواو هنا لمجرد الجمع، فالقصد منه العبرة والعظة بقصة بني إسرائيل. وقد وقع في سورة البقرة لفظ فأنزلنا، ووقع هنا لفظ فأرسلنا، ولما قُيِّد كلاهما بقوله: من السماء كان مفادهما واحداً، فالاختلاف لمجرد التفنُّن بين القصتين. وعبر هنا: بما كانوا يظلمون، وفي البقرة: بما كانوا يفسقون؛ لأنّه لما اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدّى ذلك في البقرة بقوله: فأنزلنا على الذين ظلموا، استغلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضاً أعم، فهو أنسب بتذييل التوبيخ. وجيء هنا بلفظ: يظلمون، لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليظ في ذمهم، لأنّ مقام التوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية: فبدل الذين ظلموا منهم، ولم يقع لفظ منهم في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأنّ تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة؛ لأنّ آية البقرة لمّا سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أنّ الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم. وقدم في سورة البقرة قوله: وادخلوا الباب سجداً على قوله: وقولوا حطة، وعكس هنا، وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنُّن، فإنّ كِلاَ القول واقعٌ قُدِّمَ أو أُخِّر. وذكر في البقرة: فكلوا منها حيث شئتم رغداً، ولم يذكر وصف رغداً هنا، وإنّما حكى في سورة البقرة؛ لأنّ زيادة المنة أدخل في تقوية التوبيخ...

﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف على قوله: وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية. والسؤال هنا للتقرير والتقريع، والمقصود السؤال عن اعتدائهم يوم السبت المحرّم عليهم فيه العمل. واختيار صيغة المضارع في قوله: إذ يعدون للدلالة على تكرر ذلك منهم. والعدوان وقع منهم حين رأوا الحوت يكثر يوم السبت، ويختفي في بقية الأيام. وشرّعا تمثيل لهيئة اجتماع الحوت وكثرته ظاهراً على الماء. وجملة. . . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون: مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤالِ مَنْ يقول: ما فائدة هذه الآية؟.

وأصل البلوى الاختبار، والبلوى إذا أسندت إلى الله تعالى كانت مجازاً عقلياً. . . **﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾**: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف على قوله: إذ يعدون في السبت، وهو مظهر آخر من مظاهر عصيان اليهود وعتوهم وقلة جدوى الموعظة فيهم. والسياق يقسم بني إسرائيل ثلاث فِرق: فرقة أيست من وعظ المنحرفين وألقت اللوم على من يقوم بوعظهم، وهي الفرقة الثانية الموجه إليها الاستفهام الإنكاري: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، وهي الفرقة الثالثة. . . **﴿قالوا معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتقون﴾**: هذا جواب الفرقة الثانية الذين استمروا على وعظ المنحرفين، فالفريق الأول أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن، والفريق الثاني أخذوا بالطرف المرجوح جمعاً بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط. . . **﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بيس بما كانوا يفسقون﴾**: تعقيب على وعيد الواعظين من بني إسرائيل حيث لم يُفِدْ وعْظُهُم المنحرفين الخارجين، فأنجى الله الفريقين، وأخذ الفريق الثالث بما أُوعِدُوا به من العذاب الشديد، وهو العذاب الموصوف بالبيس، وهو أنكى ما يُتصور ويُتخَيَّل من العذاب. . .

﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾: هذا تعقيب آخر يفيد نوعاً آخر من أنواع العذاب الذي أخذ الله به بني إسرائيل المنحرفين عن سواء السبيل، فاليهود تنوعوا في العصيان، فتنوع ما وقع بهم من العذاب العام

والخاص، وأنكر وأشد وأفظع العصيان هو اعتداؤهم في السبت فجوزوا عليه بأخزى وأحقر ما وصفوا به هنا وفي سورة البقرة، حيث وقعوا تحت تصرف كلمة كن: فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، وليس في الدنيا وصف أحقر وأخْزَى من هذا الوصف!.. ﴿**وإذ تأذن ربّك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف على قوله: واسألهم، فضمير عليهم عائد إلى اليهود المتقدم ذكرهم. وكلمة تأذّن صيغة تفعّل من الإيذان، وهو الإعلام الذي يُبلَّغُ فيُدْرَكُ بالآذان، ويتضمن هنا تأكيد القسم، ومعنى العهد المكتوب الملتزم، بدليل مجيء لام القسم ونون التوكيد في جوابه. وإلى يوم القيامة غاية لما في القسم من معنى الاستقبال. ويسومهم يفرض عليهم، واستعمل هنا مجازاً في المعاملة اللازمة بتشبيهها بالسوم المقدر للشيء. والآية تشير إلى وعيد الله إيّاهم بأن يسلط عليهم عدوَّهم كلما نقضوا ميثاق الله تعالى... ﴿**إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفور رحيم**﴾: تعليل لما يحصل لكل من يخالف أمر الله فيعاقبه على مقتضى سنّته، أو يُطِيعُ فتشمله المغفرة والرحمة...

﴿**وقطعناهم في الأرض أُمَماً: منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيآت لعلهم يرجعون**﴾: هكذا تمضي خطوات قصّة اليهود مع خطوات التاريخ من بعد موسى وخلفائه، وذلك حين تفرق اليهود في الأرض واختلفت مشاربهم، وتنوعت مسالكهم، فكان منهم الصالحون، وكانت العناية الإلهية تواليهم بالاختبارات تارة بالنّعماء وتارة بالبأساء لعلهم يرجعون... ﴿**فخلف من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه**﴾: هذا الكلام تفريع على جميع القصص المتقدمة التي هي قصص أسلافهم، فيكون المراد بالْخَلْفِ مَنْ نشأَ من ذرية أولئك اليهود بعد زوال الأمة وتفرقها. وجملة ورِثُوا مجاز في القيام مقام الغير. وجملة يأخذون حال من ضمير وَرِثُوا، والمقصود هو ذمُّ الخلْف بأنّهم يأخذون عرض الدنيا التافه ويقولون سيغفر لنا.

ومهَد لذلك بأنّهم ورثوا الكتاب ليدل على أنهم يفعلون ذلك عن علم، وذلك أشدُّ مذمّة. ومعنى الأخذ هنا الملابسة والاستعمال فهو مجاز. وجملة: ويقولون لنا معطوفة على جملة يأخذون؛ لأنّ كِلا الخبرين يوجب الذمّ، واجتماعهما أشدّ

في ذلك. وجملة: وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه معطوفة على التي قبلها. واستعير إتيان العرض لِبَذْلِه لهم. وجملة: **﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾** جواب عن قولهم: سيغفر لنا إبطالاً لمضمونه. والاستفهام للتقرير المقصود منه التوبيخ. وإضافة الميثاق إلى الكتاب على معنى في. وأن لا يقولوا هو مضمون ميثاق الكتاب، فهو على حذف حرف الجر قبل أنْ الناصبة. وفعل درسوا عطف على يؤخذ؛ لأنّ يؤخذ في معنى المُضِيّ، والمعنى أنّهم قد أخذ عليهم الميثاق **﴿بأن لا يقولوا على الله إلاّ الحق﴾** وهم عالمون بذلك الميثاق؛ لأنّهم درسوا ما في الكتاب، فَبِمَجْمُوعِ الأمرين قامت عليهم الحجة. وجملة **﴿والدارُ الآخرة خيرٌ﴾**: حالية من ضمير يأخذون، بمعنى يأخذون ذلك ويكذبون على الله، ويصرّون على الذَّنْبِ وينبذون ميثاق الكتاب على علم في حال أنّ الدار الآخرة خيرٌ مِمَّا تَعَجَّلُوه!. وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنّهم يعلمون ذلك أيضاً، فهم قد خيّروا عليه عرض الدنيا قصداً. . . **﴿أفلا تعقلون﴾**: التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون أوقع في توجيه التوبيخ لهم مواجهة. وفي قوله: والدار الآخرة خير. .

كناية عن كونهم خسروا خيْرَ الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بتلك الكيفية. وفي جعل الآخرة خيراً للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين لأن الكناية عن خسرانهم خير الآخرة مع إثبات كونِ خيرِ الآخرة للمتقين تستلزم أنّ الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين. وهذه معانٍ كثيرة جمعها قوله: والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون، وهذا من حد الإعجاز العجيب!. ووقعت جملة **﴿والذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾** عقب التي قبلها؛ لأنّ مضمونها مقابل حُكْمَ التي قبلها فتشمل من آمَنَ مِنَ اليهود بمحمد ﷺ وكل من دخل في الإسلام من غيرهم، فأولئك يستكملون أجرهم لأنّهم مصلحون. وكنّى عن الإيمان بمحمد ﷺ بإقامة الصلاة؛ لأنّ الصلاة شعار دين الإسلام. وجملة إنّا لا نضيع أجر المصلحين: تعليل للخبر المقدر، والتقدير: فأولئك يستكملون أجرهم لأنّا لا نضيع أجر المصلحين، وفي الأسلوب إيجاز بديع!. .

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة وظنوا أنّه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة

واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾: عاد الكلام إلى العبرة بقصص بني إسرائيل مع موسى، لأنّ قصة رفع الطور عليهم من أمهات قصصهم. وضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى بقرينة المقام، والجملة معطوفة على الجمل قبلها، وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفاً لهم، فكان رفع الطور معجزة لموسى ـ عليه السلام ـ تصديقاً له فيما سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. وتشبيه الجبل بالظلة لتوضيح الصورة المُشْعِرَة بالخوف. وجملة خذوا ما آتيناكم مقولة لقول محذوف يدل عليه نظم الكلام، وحذف القول في مثله شائع كثير. وعُدّي واقعُ بالباء للدلالة على أنّهم مستقرون في الجبل فهو إذا ارتفع وقع ملابساً لهم ففتتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه. وهذا وَجْهُ الجمع بين قوله: فوقهم، وبين باء الملابسة. وجملة خذوا ما آتيناكم بقوة: مقول لقول محذوف. . . واذكروا ما فيه: معطوف عليه. . . لعلكم تتقون: تعليل لهما.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾: في هذا التوجيه يتجه السياق بعرض الصفحة الأخرى؛ صفحة استخلاف المستضعفين، فاستخلاف بني إسرائيل ـ عندما آمنوا وقبل أن يزيغوا فيصيبهم الذل ـ لم يكن في مصر، ولم يكن في مكان فرعون وآله، وإنّما وُعِدُوا بالأرض المباركة، وهي أرض الشام: مشارقها ومغاربها. وهو الوعد الذي سبق لإبراهيم ـ عليه السلام بأن تكون له ولذريته هذه الأرض. والخطاب هنا يوجه لرسول الله محمد ﷺ «وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون»، وهذا الخطاب الموجه للرسول ﷺ فيه إشارة إلى أنّ الذي حقّق نصر موسى وأمته على عدوهم هو ربّك فسينصرك وأمتك على عدوكم؛ لأنّه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين!.

التوجيه الثاني: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنّكم قوم تجهلون﴾: السياق هنا يوجه السامع إلى مشهد من مشاهد بني إسرائيل بعدما تجاوزا البحر

الذي أغرق الله فيه عدوهم، وإذا هو وجه لوجه أمام طبيعة بني إسرائيل المنحرفة المستعصية على التقويم. إنّ العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يُسامون الخسف في ظل الوثنية عند فرعون وقومه، ومنذ أن أنقذهم نبيئهم موسى باسم الله الواحد الذي أهلك عدوهم. إنّهم خارجون للتو واللحظة من مصر، ولكن هاهم أولاء ما أن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيطلبوا إلى موسى الذي أنقذهم باسم التوحيد أن يتخذ لهم وثنا يعبدونه مثل هؤلاء القوم!.

إنّها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام، ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد.. وطبيعة بني إسرائيل التي عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً في شتى المناسبات، طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق حتى ترتكس وتنتكس!. وهاهم أولاء هنا ما يكادون يمرون بقوم مستغرقين في عبادة أصنام لهم حتى نَسُوا أنّ الله الواحد هو الذي قهر عدوهم الجبار، وأنقذهم من الذل والعار، وأنّ عدوهم ذاك كان وثنياً، وأنّه باسم الوثنية كان استذلهم، حتى إنّ الملأ من قومه ليُغْرُونَه بموسى ومن معه، فيقولون: «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك»؟. نسُوا هذا كله؛ ليطلبوا من نبيئهم الذي جاءهم باسم الله الواحد أن يتخذ لهم بنفسه آلهة!. ولو أنّهم هم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمرُ أقلَّ غرابة من أن يطلبوا إلى الرسول الذي جاءهم من عند الله الواحد أن يتخذ لهم آلهة!. ولكنها هي إسرائيل!. ويغضب موسى كما تشعر بذلك قولته: إنّكم قوم تجهلون.

فهو ردّ شديد ينم عن استنكار لهذا الطلب العجيب، إنكم قوم تجهلون، ولم يقل تجهلون ماذا؟؛ ليكون في إطلاق الجهل ما يعني الجهل الكامل الشامل لسفاهة النفس وعدم إدراك الشيء على حقيقته، ثم ليشير إلى أنّ الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنّما ينشأ من الجهل، وأنّ العلم يقود إلى معرفة الله الواحد؛ لأنّ العلم هو البحث والتدبر في الأشياء وعللها ونواميسها، وثمرته الاهتداء إلى نواميس الوجود أو بعضها، وهذه النواميس تشهد بوحدة القوة الخالقة المدبرة، فعنصر الوحدة بارز في طبيعتها، وطابع الوحدة ظاهر في آثارها، وما يغفل عن

ذلك إلاّ الجاهلون. ويمضي موسى عليه السلام يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون، بالكشف عن سوء ما فيه القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلدوهم... ﴿**إنّ هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**﴾: فماهم فيه من شرك وعكوف على الآلهة المتعددة هالك وباطل، ذلك أنّه عبث ضائع لا يضيف إلى حقيقة الحياة شيئاً، ولا يتصل بحقيقة الوجود في شيء؛ وحقيقة الوجود التي تنطق بها نواميسه وظواهره هي حقيقة التوحيد: توحيد القدرة الخالقة، وتوحيد الناموس الذي يحكم الوجود، وما عدا الحقيقة فهو باطل، والباطل هالك ما له وجود.

بذلك كشف موسى لقومه عن الحقيقة فيما رأوا وما طلبوا؛ الحقيقة في ذاتها مجردة عن الملابسة الخاصة التي تحيط بموقفهم؛ وهي أنهم بالتوحيد نَجَوْا، وبالشرك هلك أعداؤهم، وأنّ الله الواحد قد مَنَّ عليهم مِنَّةً خاصة؛ فضلهم على الناس في عصرهم وجيلهم، واختارهم ـ حينئذ ـ لِيُورِّثَهُم الأرض المقدسة التي كانت في أيدٍ مشركة. ثم مضى يستنكر طلبهم ذاك من ناحية أخرى، ناحية هذه الملابسة التي كان من شأنها أن تُمْسِكَ بهم على التوحيد، وتُبعد بهم عن كل خالجة من شركٍ أو شرود... ﴿**قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين**﴾؟!: أغير الله أجعل لكم إلها أحملكم على العبودية له، وهو فضلكم على العالمين!، فهداكم إلى التوحيد وحَوْلَكم المشركون في كل مكان؟.

ثم يَمُنُّ عليهم أن نجاهم من العذاب والتنكيل، ليبتليهم: أيشكرون أم يكفرون؟، ويستقيمون على طريقِهِ أم ينحرفون؟.. ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم**﴾: فهذه المنّة وحدها كانت كفيلة بأن تُذْكَرَ وتُشْكَرَ، وفيها ابتلاء بعد ابتلاء؛ فيها ابتلاء العذاب، وابتلاء النجاة، الابتلاء بالشدة، والابتلاء بالرخاء!. وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم!.

التوجيه الثالث: ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربّه أربعين ليلة. وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾: في هذا التوجيه عَرْضٌ لمشهد جديد بعد انتهاء المشهد الذي كان بين موسى وقومه. لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أُرسل من أجلها،

انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذلّ والهوان بين فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرْض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة، ولكن القوم لم يكونوا بعدُ على استعداد لهذه المهمة الكبرى.

ولقد رأينا كيف اشرأبّت نفوسهم إلى الشرك والوثنية بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى، ولم يمض إلاّ القليل، فلم يكن بدّ من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه، ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لموسى ليلقاه ويتلقى عنه، وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى نفسه، كي يتهيّأ للموقف الهائل، ويستعد لتلقّيه، وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة أضيفت إليها عشر فبلغت مدتها أربعين ليلة، يروّض فيها موسى نفسه على اللقاء الموعود، وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء، وتصفو روحُه وتشِفّ وتستضيء؛ وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب، وحمْل الرسالة الموعودة؛ فلمّا أن جاء الميقات وقف موسى يستودع أخاه هارون وقومه من بعده، ويوصيه وصية الحريص المتوجّس الذي يخشى شيئا، وهارون نبيء ورسول؛ ولكنّ حرصَ موسى وقلقه على القوم جعله يُشدّد في وصايته له، ولم يغضب هارون من هذه الوصاية والنصيحة، فالنصيحة لا تُؤْذِي الأخيار الذين لا ينوون إلاّ الخير، والذين لا تأخذهم العزة بالإثم، وإنّما تثقل النصيحة على نفوس الأشرار، لأنّها تقيدهم عما يريدون أن ينطلقوا منه، وتثقل على نفوس المتكبرين الذين يحسبون النصيحة تنقُّصاً لأشخاصهم أو اتِّهاماً لَهمْ بالقصور!.

إنَّ الخَيِّرَ القويّ الوَاثِقَ من ضميره يتقبل النصح ولو كان مثل الناصح في معرفته أو أعلم من الناصح بما يقول... ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**﴾: الآية هنا توضح المشهدَ الفَذَّ الذي اختص الله به نبيئه موسى ـ عليه السلام ـ، مشهد الخطاب المباشر بين الله تعالى وعبد من عباده المصطفين، المشهد الذي تتصل به الذَّرّة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الخالد دون وساطة، ويطيق الكائن البشري أن يتلقى كلمات الخالق الأبدي وهو

على هذه الأرض، ولا ندري نحن كيف!. لا ندري كيف كان كلام الله سبحانه لعبده موسى!. ولا ندري بأيّة حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله!. فتصور هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر المحكومين في تصوراتنا برصيدنا من التجارب، وبالطاقة العقلية المتأثرة بهذه التجارب، ولكننا نملك بالقوة الخفية التي أودعها الله سبحانه كياننا وبالسر اللطيف المستمد من روح الله الذي نفخه في آدم. نملك بهذا وحده أن ندرك إمكان هذا الحادث الفذ الذي اختص الله به نبيئه موسى، إنّنا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الرهيب الفريد في خيالنا وفي ضميرنا وفي كياننا، في حاجة إلى استحضاره لنقرب من تصوره، ولنشعر بشيء من مشاعر موسى فيه.

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك: إنّها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلماتِ الله، وروحه تتشوف وتتشرف وتتمنّى، فينسى مَنْ هُو أو ينسى ما هو؟، ويطلب ما لا يحق لبشر في هذه الأرض!، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض. يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء؛ حتى تُنَبِّهَهُ الكلمة الحاسمة الجازمة... قال لن تراني: ثم يترفق به الخالق العظيم فيعلمه لماذا لن يراه... ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني: والجبل أمكن وأثبت، والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان الآدميّ، ومع ذلك فماذا؟..

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً: فكيف كان هذا التجلي؟. نحن لا نملك أن ندركه إلاّ بتلك اللطيفة التي تَصِلُنا بالروح الأعلى، حين تشف أرواحنا وتتجرد، وتتجه بكليتها إلى مصدرها. فأما الألفاظ المجرّدة فلا تملك أن تنقل هذه الحالة من روح إلى روح، لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور معنى التجلي فلما تجلى ربّه للجبل جعله دكاً: مفتّتاً مُنْهاراً مُتداعياً. وأدركت موسى رهبةُ الموقف وسرت في حناياه... وخرّ موسى صعقاً: فلما أفاق تاب إلى نفسه وأدرك مدى طاقته واستشعر أنّه اندفع، وأنه تجاوز الْمَدَى قال... سبحانك!: تنزّهْتَ وتعاليت... تبت إليك: مما اندفعت وتجاوزت... وأنا أول المؤمنين: بعظمتك وجلالك وتجاوزهما لإدراك البشر وارتفاعهما على طاقة الفانين من أهل هذه الحياة الدنيا. وأدركت موسى رحمة الرب مرّةً أُخرى، فإذا هو يتلقى منه البشرى؛ بشرى

الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص ـ وكانت رسالته إلى فرعون وملئه قبل الخلاص -. . . ﴿**قال ياموسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين**﴾: ونفهم من قول الله لموسى: إنّي اصطفيتك على الناس أنّ المقصود بالناس هم أهل زمانه؛ لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده، فهو اصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة. أما أمر الله لموسى يأخذ ما آتاه، وبالشكر على الاصطفاء والإعطاء فهو أمر التعليم والتوجيه للبشر في شخص موسى النبيء، والأنبئاء إسوة للناس وقدوة، وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر عملاً بهذا التوجيه. . .

﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء**﴾: ويختلف الرواة والمفسرون في شأن هذه الألواح: وصفها بعضهم أوصافاً مفصّلة، ولكننا لا نجد في هذا شيئاً عن رسول الله ﷺ فنكتفي إذاً بالوقوف عند النص القرآني لا نتعدَّاه. وما تزيد تلك الأوصاف أو تنقص من حقيقة هذه الألواح، فالمهم هو ما فيها، ففيها من كل شيء يصلح للعظة، وفيها تفصيل كل شيء من أمر الرسالة الموسوية. أمّا كيف كتبت هذه الألواح؟. فذلك أمر مسكوت عنه في القرآن كذلك، ولا سبيل لنا إليه على وجه التفصيل. . . فخذها بقوة: خذها وأنت متهيّئ لتكاليفها، وهي تستلزم قوة الكفاح وقوة الصبر وقوة اليقين. . . ﴿**وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾: بأكملها وأعلاها فلا يترخصوا ولا يطلبوا السهل والأيسر.

ونلحظ أنّ كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمعنى التشديد والتوكيد، ولعل ذلك كان تربية من الله سبحانه لهذه الطبيعة الرخوة الضعيفة المفككة، وتهيئة لها للتكاليف الشاقة التي يتطلبها استخلاص الأرض المقدسة من الوثنية التي كانت تسيطر عليها، والتي قال عنها بنو إسرائيل في النهاية «إنّ فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون»!. وفي النهاية بيان لوعد الله رسوله موسى أن يريهم دار أعدائهم الفاسقين ليطهروها من رجسهم وفسقهم. . . ﴿**سأريكم دار الفاسقين. سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾: هذا بيان لسنة الله تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من

الرسل، والكلام هنا في معرض العموم ليدخلا فيه كل من تكبر عن آيات الله. إنّ هؤلاء سيصرفهم الله عن آياته فلا يهتدون ولا يعتبرون، وإنه لجزاء عادل قد استحقوه: ذلك بأنّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. وآيات الله معروضة لكل من يفتح بصيرته ولا يستكبر عن الإيمان بالآيات والتسليم لله ربّ العالمين... **﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون﴾**: هذا هو الجزاء العادل أن تحبط وتبطل أعمال الذين كذّبوا بآيات الله ولقاء الآخرة، والمعنى: والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا بهم ولا اهتدوا بها، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر. إنّ الله لا يظلم الناس في الجزاء مثقال ذرة!.. هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون.

التوجيه الرابع: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنّه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾: في هذا التوجيه نقلة هائلة من الجوّ العلوي السامق بِسَبَحَاتِه وأشواقه وابتهالاته ووصاياه، إلى الجوّ الهابط بانحرافاته وخرافاته وارتكاسه أسفل سافلين!. وهو يكشف عن طبيعة بني إسرائيل المتخلخلة المادّية التي يصعب عليها التماسك والارتفاع، ويعز عليها إدراك ما وراء المادة المُجسّمة، ولا سيَّمَا حين تكون تلك المادّة هي الذهب معبود اليهود المحبوب!. لقد راودتهم أنفسهم فراودوا نبيئهم أن يجعل لهم آلهة من دون الله فصدهم عن ذلك وردهم إلى الله. فلما خلوا إلى أنفسهم بعد نبيئهم، ورأوا عجلاً من الذهب له جسد العجل لا روحه، صنع على هيئة خاصة تجعل له خُوَاراً كخوار الثيران، لما رأوا ذلك طاروا إليه وتهافتوا عليه ولم يتذكروا وصية نبيئهم من قبل، ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل، ولم ينظروا إن كان يستحق العبادة من عاقل أم لا يستحق.

وإنّها لصورة زريّة للبشريّة تلك التي ظهر فيها القوم!. ولكن اليهود هم اليهود. وكان فيهم هارون فلم يملك لهم ردّاً عن هذا الضلال السخيف، وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير المتدافعة على الإله العجل؛ الذهب الوهّاج!. وأخيراً هدأت الْهَيْجَةُ وانكشفت الحقيقة وتبين السخف ووضحَ الضلال، وجاء دور الندم والتوبة والإقرار والاستغفار... **﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنّهم**

قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾: وهذا القول يدلنا على بني إسرائيل حتى ذلك الوقت كانت فيهم بَقيَّةٌ من استعداد صالح، فلم تكن قلوبهم قست كما قست من بعد، فلما تبين لهم ضلالهم ندموا وأنابوا، وتوجهوا إلي ربّهم وفوضوا إليه الأمر معترفين خائفين. وهذه علامة طيبة على بقيةٍ من استعداد في الفطرة للصلاح. وتقدم في مبحث الأسلوب البلاغي سرُّ تقديم ذكره على وقته، وفي سورة طه تفصيل أكثر مما هنا...

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربّكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمَّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾: لقد عاد موسى غضبان أشد الغضب، يبدو الانفعال في قوله وفعله؛ يبدو في قوله إذ يقول لقومه: بئسما خلفتموني من بعدي، ويبدو في فعله إذ أخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه. وحق لموسى أن يغضب، وحق له أن ينفعل فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة. بئسما خلفتموني من بعدي: تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتم على عبادة الله فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار... أعجلتم أمر ربّكم: استعجلتم قضاءه وعقابه!.

وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه: حركة تدل على شدّة الانفعال والخروج عن الطور، فهذه الألواح هي التي تحمل كلمات ربّه، وهو لا يلقيها إلاّ وقد أفقده الغضب زمامَ نفسه، وكذلك أَخْذُه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون الصالح الطيب الوديع. وعلى أية حال فإن شخصية موسى كما يعرض القرآن سماتِها شخصية انفعالية، وهذه السمة واضحة في هذا المقام، فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ليُسكّن من غضبه الفوّار، ويكشف له عن طبيعة الموقف، وأنه لم يُقصِّر في هداية القوم: قال ابن أمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني: وهنا ندرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب؛ حتَّى لَهَمُّوا بهارون إذ حاول ردهم عن التردي والانتكاس. ابن أمَّ: بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة... فلا تشمت بِيَ الأعداء: وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المُعِينَة حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون... ولا تجعلني مع القوم الظالمين: الذين

ضلوا وارتكبوا الخطيئة، فأنا منهم بريء، وأنا مظلوم ولست من الظالمين. عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام تلك الوداعة وأمام هذا البيان، وعندئذ يتوجه إلى ربّه يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين... **﴿قال ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾**: وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه ـ سبحانه ـ... **﴿إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربّهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾**.

﴿والذين عملوا السيآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم﴾: إنّه حكم ووعد: إنّ القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إنّ الذين يعملون السيآت ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته. وإذنْ فقد علم الله أنّ الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة واصلة، وأنّهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة. وهكذا كان، فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة، ويسامحهم الله مرة ومرة، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة... وكذلك نجزي المفترين: فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بني إسرائيل ومن غير بني إسرائيل. هذا تعقيب يتوسط مشاهد القصة؛ ليصدر الحكمُ بعد الواقعة. ثم يمضي السياق مع القصة في طَوْرٍ جديد...

﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾: والتعبير القرآني يشخّص الغضب، فكأنّما هو حيٌّ، وكأنّما كان مُسَلَّطاً على موسى يدفعه ويُحركه.. ثم سكت عنه وتركه لشأنه! عندئذ عاد موسى إلى نفسه فأخذ الألواح التي ألقاها من دفع الغضب له وسيطرته عليه. ثم يقرّر السياق مرة أخرى: إنّ في هذه الألواح هُدًى وإنّ فيها رحمة لمن يخشون الله ويرهبون غضبه، فتتفتح قلوبهم للهدى، وينالون به الرحمة. والهدى ذاته رحمة، فليس أشقى من القلب الضال الذي لا يجد النور، وليس أيأس من الروح الشارد الذي لا يَحُسُّ الاطمئنان.

التوجيه الخامس: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾: في هذا التوجيه عرض مشهد جديد؛ مشهد موسى وسبعين مختارين للقاء ربه. وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات، وأقربها إلى جو السياق أنّه كان لإعلان التوبة

وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الخطيئة، وهؤلاء السبعون هم الخلاصة والبقية الباقية التي خلصت من دنَس الشرك وعارِ النكسة الدنيئة!. ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين؟!. لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا، وذلك أنّهم طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح، وبمناجاته لله وتكليمه إيّاه، وهي شاهدة بطبيعة بني إسرائيل العجيبة!، والتي تشمل خيارهم وشرارهم، ولا يتفاوتون فيها إلاّ بمقدار. وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار!..

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إنّ هي إلاّ فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هدنا إليك﴾: هنا يكمل العرض الكامل لما وقع من بني إسرائيل من أول ما طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة إلى أن وقعوا في عبادة العجل، ثم في نهاية المطاف طلبُ السبعين المختارين رؤية الله جهرة. بهذا كله استحضر موسى تلك المشاهد كلها فطلب من الله بعد الرجوع إليه أن لا يؤاخذهم بما فرط من سفهائهم من طلب الآلهة وعبادة العجل وتقصير خيارهم في الإنكار عليهم، إلى غير ذلك من طلب الرؤية، وتمرد المغرورين على الشريعة وكفران النعمة ونسيان فضل الله عليهم!!. وهكذا قدّم موسى ـ عليه السلام ـ لطلب العفو والرحمة بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه، فكان دعاؤه نموذجاً لأدب المخلوق في حق الخالق، ونموذجاً لأدب الدعاء والرجاء في البدء والختام...

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾: بياناً للذين آمنوا بموسى وتقريراً للمشيئة المطلقة التي تضع الناموس اختياراً وتُجْرِيه اختياراً، وإن كانت لا تجريه إلاّ بالعدل المطلق على سبيل الاختبار أيضاً؛ لأنّ العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته، لأنّه هكذا أراد. فالعذاب يصيب من يستحق العذاب، وبذلك تجري مشيئة الله. والرحمة تتسع لكل شيء، وهي تصيب من يستحقها كذلك، وبذلك تجري مشيئته، ولا تجري هذه أو تلك جزافاً أو مصادفة، إنّما تجري وفق الناموس المختار، والتسليمُ بالكمال المطلق

لله، يقتضي منا أن نفسّر المشيئة في العذاب والرحمة على هذا المنوال. والعلم المطلق بعد ذلك لله.

وبعد تقرير القاعدة يطلع الله نبيئه موسى على الغيب المقبل وعلى الملة الأخيرة التي سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء. بهذا التعبير العجيب الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه، والذي لا يُدْرِكُ البشرُ مداه؛ فيالها من رحمة لا يدركها إلاّ الله!.. ﴿**فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبيء الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾: وإنّه لنبأٌ عَظِيمٌ يشهد بأنّ بني إسرائيل قد جاءهم البلاغ بالنبيء الأمّي على يدي نبيئهم موسى ونبيئهم عيسى منذ أمد بعيد. جاءهم البلاغ ببعثه وبصفاته وبمنهج رسالته وبخصائص ملته، فهو النبيء الأميّ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويضع الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض على بني إسرائيل بسبب معصيتهم، فيرفعها النبيء الأمي عنهم حين يؤمنون به.

وأتباعُ هذا النبيء الأمي يتقون ربّهم ويزكُّون من أموالهم، ويؤمنون بآيات الله. وصفة الزكاة صفة خاصة، فذكرَها يعين أنّ الرحمة الواسعة قد كتبت للمسلمين، وجاءهم البلاغ بأن الذين يؤمنون بالنبيء الأمّيّ ويعظمونه ويوقرونه ويؤيدونه وينصرونه ويتبعون النور الهادي الذي معه... ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾: وبذلك البلاغ المبكر كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق اَتباعه، وعن مستقر رحمته، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة منذ ذلك البلاغ المبين... ﴿**قل ياأيُّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً**﴾: ذكرت رسالة نبينا محمد ﷺ في الآية التي قبل هذه من قصة موسى ـ عليه السلام ـ استطراداً بحسب نظم الكلام، ولكنها هي المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام. ولمّا كان ذكرها في سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، وإقامة الحجة عليهم يُذْكَرُ محمدٌ بوصفه الخاص به في التوراة والإنجيل، والبشارة برسالته على ألسنة أنبئائهم، وبيان ما يكون لهم من الفلاح

والفوز بالإيمان به واتباعه، ناسب أن يقضي على ذلك ببيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم -، فهذا الخطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبدالله النبيء العربي الهاشمي بأمر الله تعالى يُنَبِّئُهُمْ به أنّه رسول الله إليهم كافة لا إلى قومه العرب خاصة.

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، والإحياء والإماتة فقال: ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيء الأمّيّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾: فالدعوة إلى الرسالة الأخيرة؛ لأنّها الرسالة الكاملة الشاملة، التي لا تختص بقوم ولا جنس ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات قومية محلية محدودة بفترة ما بين رسولين، فكانت البشرية تخطو على هدى تلك الرسالات خطوات محدودة، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة، وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً يناسب تدرج البشرية.. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها قابلة للتجديد في فروعها، وجاءت للبشرية جميعاً؛ لأنّه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجناس والأجيال. وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً ومن ثم حملها النبيء الأمّيّ الذي لم يدخل على فطرته الصافية إلاّ تعليم ربّه، فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الناس ومن أفكار الأرض؛ ليحمل رسالة الفطرة إلى الناس جميعاً.

هذه الآية تتوسط سياق القصة؛ لأنّ مساق القصة في القرآن للعبرة والتوجيه، وهنا موضع توجيه قوي، والمناسبة حاضرة لتسجل على بني إسرائيل ما تضمنته كتبهم، ولتدعوهم ـ مع الناس جميعاً ـ إلى الإيمان بالرسول النبيء الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

التوجيه السادس: ﴿**ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾: في هذا التوجيه يقرر حقيقة عن قوم موسى؛ فهم لم يكونوا جميعاً ضالين. هكذا كانوا على عهد موسى، وهكذا كانت طائفة تهدي بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى، وما تخلو أمة من جماعة خَيِّرَةٍ. وبعد تقرير هذه الحقيقة تمضي القصة في حوادثها بعد الرجفة: ﴿**وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً**﴾: هذا سياق آخر من

أخبار قوم موسى عطف على ما قبله لمشاركته إيّاه في كل ما يقصد به من العِظَاتِ والعِبَر. . . ﴿**وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾: إنّها رعاية الله ما زالت تلاحق موسى وقومه، بعد أن عصوا فعبدوا العجل، ثم تاب الله عليهم، وبعد أن أخطأوا فطلبوا رؤية الله جهرة، ثم استجاب دعاء موسى فأحياهم.

تبدو هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمّة. وفي تخصيص عين تشرب منها كل أمّة: قد علم كل أناس مشربهم. ثم تبدو هذه الرعاية أكثر وأكثر في تظليل الغمام لهم من شمس الصحراء المحرقة، وفي إنزال المن والسلوى عليهم، ضماناً لطعامهم بعد ضمان شرابهم. وقد كانت هذه الطيبات كلها مباحة لهم، لم يحرم عليهم منها شيء مما حرم فيما بعد بسبب العصيان: كلوا من طيبات ما رزقناكم. . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون!. وسنرى في الآية التالية نموذجاً من ظلمهم لأنفسهم بما ارتكبوا من معصية وبما حق عليهم من عذاب: ﴿**وإذْ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تغفر لكم خطيآتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون**﴾: لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل، ولقد أنعم الله عليهم بكل تلك النعم.

ثم هاهم أولاء يبدلون القول ويعصون الأمر عند أول أمر، هاهم أولاء يؤمرون بسكنى قرية بعينها ـ لا يُعَيِّنُ القرآن اسمها؛ لأنّه لا يزيد في مغزى القصة شيئاً ـ وتباح لهم خيراتها جميعاً، على أن يقولوا دعاءً بعينه، وأن يدخلوا بابها سجداً فتغفر لهم خطيآتهم، ويزاد المحسنون في حسناتهم؛ فإذا فريق منهم يبدّلون الدعاء، ويجورون الأمر فيقولون غير ما أمروا بقوله، ويفعلون غير ما أمروا بفعله؛ لأنّ الانحراف جزء من طبيعتهم، والمعصية أصيلة في طباعهم. وعندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً، السماء التي تنزل عليهم المنّ والسلوى، وظللهم فيها الغمام. وهكذا كان ظلم فريق منهم لأنفسهم؛ ذلك الظلم الذي سبقت الإشارة إليه.

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذي أصابهم في هذه المرة؛ لأنّ الغرض يتم

بدونه. والغرض هو بيان عاقبة المعصية، وتحقق النُّذُر، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة. ومرة أخرى يقع القوم في المعصية والخطيئة تحت تأثير الطمع والجشع، شِيمَةُ بني إسرائيل الأُولى، وهم في هذه المرة يحتالون على النصوص ليفلتوا منها، ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه؛ لأنّ الصبر على الابتلاء في حاجة إلى طبيعة متماسكة تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع. . . ﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون**﴾: يأمر الله رسوله ـ صلى اله عليه وسلم ـ أن يسأل اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر، ولا ينص على اسمها؛ لأنّها معلومة لهم، إنّما هو سؤال لتذكيرهم بعصيانهم القديم، وما جرّ عليهم من البلاء المقيم، عسى أن يتوبوا ويرجعوا، فلا يُعرضوا أنفسهم لعاقبة عصيان جديد.

فأمّا الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون قرية ساحلية، وكان بنو إسرائيل قد اتخذوا السبت يوم عيد وامتناع عن العمل والكسب، فكتب الله عليهم هذا اليوم كما فرضوه. ثم كان الابتلاء لاختبار إرادتهم، وسيطرتهم على أطماعهم، ولاستعدادهم للنهوض بعهودهم حين تصطدم بهذه الأطماع. كان الابتلاء؛ فإذا الحيتان تتراءى لهم على الساحل في يوم السبت قريبة المأخذ سهلة الاصطياد، فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم، فإذا مضى السبت وجاءتهم أيام الحل لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة كما كانوا يجدونها يوم الحرام!. فأمّا كيف وقع لهم هذا؟. وكيف جعلت الحيتان تحاورهم وتداورهم هذه المداورة؟. فهي الخارقة لما نعرف من القوانين التي تخضع لها مألوفاتنا. على أية حال لقد وقع هذا فإذا جماعة من سكان تلك القرية تهيج مطامعهم فتتهاوى عزائمهم، ويحتالون الحيل للصيد في يوم السبت، وما أكثر الحيل حين يضعف وتقل التقوى، ويراد التفلت من ظاهر النصوص. إنّ القانون لا تحرصه نصوصه، ولا يحميه حراسه، إنّما تحرسه القلوب التقية التي تستقر خشية الله في أعماقها فتحرس القانون وتحميه. . .

﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتقون**﴾: هذا مظهر آخر من مظاهر عصيان بني إسرائيل

وعتوهم وقلة جدوى الموعظة فيهم، فانقسمت بنو إسرائيل إلى ثلاث فرق: فريق يرتكب المحرم، وفريق يؤدي واجب النهي عن المنكر، وفريق ثالث ينفُضُ يده من الأمر يَأْساً من جدوى المحاولة فيه... ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾: فلما لم يُجْدِ النصحُ، ولم تنفع العظة حقت كلمة الله وتحققت نُذُرُه، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء، وإذا الفريق العاصي يحل به العذاب الشديد، فأمّا الفريق الثالث فقد سكت عنه النص، ربّما تهويناً لشأنه وإهمالاً لأمره، ذلك أنّه لم يؤد واجبه، ولم يكن له دور إيجابي في الموقف، فهو يستحق الإهمال إن لم يستحقّ العذاب!.

وكان العذاب الذي حل بالعصاة جزاء إمعانهم في المعصية وإبائهم قبول الموعظة، وضعف إرادتهم عن مقاومة أطماعهم، كان العذاب الذي حل بهم في النهاية أن يقال لهم: كونوا قردة خاسئين، فقد تنازلوا هم عن آدميتهم حين تنازلوا عن أخص خصائصها!. (الإرادة)، وانتكسوا إلى عالم الحيوان حينما تخلوا عن خصائص الإنسان، فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان!. ثم كانت اللعنة الأبدية حين صدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذي لاَ رَادَّ له ولا معقب عليه... ﴿**وإذ تأذّن ربّك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفور رحيم**﴾: فهو إذن الأبد الذي تحقق منذ صدوره، فبعث الله على اليهود في فترات من الزمن من يسومهم سوء العذاب، والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب. وكلما انتعشوا وانتفشوا جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية العاصية التي لا تخرج من معصية إلاّ لتقع في معصية، ولا تتوب من انحراف حتى تلجأ إلى انحراف. ولقد يبدو أحياناً أنّ اللعنة قد توقفت، وأنّ يهود قد عزت وانتصرت، وإنْ هي إلاّ فترة عارضة من فترات التاريخ، ولا يدري إلاّ الله من ذا سيسلط عليهم في الجولة التالية وما بعدها إلى يوم القيامة. لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة. إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفور رحيم: سارع إلى عقاب اليهود بهذا الإذن الدائم، ولكنهم إن تابوا وأصلحوا لغَفَرَ لهم ولَرَحمهم، فليست لعنته تلك عن نقمة، ولكنها جزاء عادل لا ينفي الغفران والرحمة.

ثم تمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ من بعد موسى وخلفائه مع الأجيال التالية: **﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيآت لعلهم يرجعون﴾**: ذلك حين تفرق اليهود في الأرض، واختلفت مشاربهم وتنوعت مسالكهم، فكان منهم الصالحون، وكان منهم الأقل صلاحاً. وظلت العناية الإلهية تواليهم بالاختبارات تارة بالنعماء وتارة بالبأساء لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويتوبون إلى رشدهم. والابتلاء من الله رحمة وعناية؛ لأنّه تذكير دائم ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار... **﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾**: فكان الذي جاء من بعد ذلك خلْفَ شَرٍّ ونتاج سُوءٍ فادّعوا ما ليس فيهم وأخذوا ما ليس لهم...

ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا: لأنّنا شعبه المختار، وأبناؤه الأخيار!. وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد... وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه!. ثم يأتي سؤال المقرّر المستنكر... **﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه﴾**: ألم يؤخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألاّ يتأوّلُوا ولا يحتالوا على النصوص ولا يخبروا عن الله إلاّ بالحق، فما بالهم يقولون: سيغفر لنا؟. ويتهافتون على الباطل؟. ويتسابقون إلى الحرام؟. ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله، وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أنّ الله يغفر للتائبين حقاً، والمقلعين عن الذنوب. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب؟. وهم درسوا هذا الكتاب وتفهّموه؟. بلى!. ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب، وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد... إنّما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي لا تستمد من روح الدين... **﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾**: فالتقوى هي التي تعصم النفوس من التقول على الله بغير الحق، ومن ثَمَّ فالدار الآخرة خير لمن يستشعرون التقوى فَتَقِيهم الالتواء والانحراف، وتهيئ لهم خير الآخرة وما فيها من ثواب.

وهذا أمر ظاهر جليٌّ لا يخفى على ذي عقل لم يطمسه الطمع الباطل في الحطام العاجل: أفلا تعقلون؟!، وهو خطاب موجه لكل سامع. وقد عُلِمَ من

الآية أنّ الطمع في متاع الدنيا هو الذي استحوذ على اليهود فأفسد عليهم أمرهم، ولا يزال هذا التفاني فيها من أخص صفاتهم، وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين، حتى العلماء منهم الذين ورثوا الكتاب الكريم، والقرآن الحكيم، ودرسوا ما فيه؛ غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل، وعرضها الدنيء، والغرور بالانتساب إلى الإسلام والتَّحَلِّي بلقبه، والتعلل بأماني المغفرة مع الإصرار على الذنب والاتكال على المكفرات والشفاعات، وهم يقرءون ما في الكتاب من النهي عن الأماني والأوهام، ومن نوط الجزاء بالأعمال، والمغفرة بالتوبة والإصلاح...

﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾: والذين يمسكون بحقيقة الكتاب وروحه، ولا يحتالون لتأويله وتحريفه، وأقاموا الصلاة صحيحة كاملة لا مجرد أأدى بل إقامة، أولئك هم المصلحون في الأرض وفي المجتمع وفي أنفسهم فأجرهم محفوظ لا يضيع... **﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة وظنوا أنّه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾**: لعلّ حكمة ختم قصة بني إسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم في إثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه؛ فإنّ في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخُذُنّ بالشريعة بقوة وعزم، فإنّه رفع فوقهم الطور، وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم، فلا غرو إذا آل الأمر إلى ترك العمل به بعد طول الأمد، وقساوة القلوب والأنس بالذنوب، ذلك هي طبيعة بني إسرائيل الواهنة المادية الهابطة، نسيت العهد، ونقضت الميثاق، وَلَجَّتْ في المعصية، فاستحقت لعنة الله وغضبه، وحق عليها القول، بعدما أعطاها الله من نعمته، وأفاء عليها من رحمته، فلم تشكر النعمة ولم تحفظ العهد، ولم تذكر الميثاق، وإلى هنا ينتهي خبر بني إسرائيل في حديثهم المفصّل الطويل.

